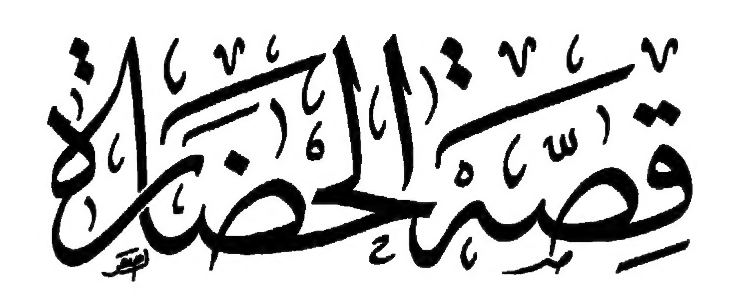
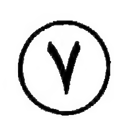


ول وايريل ديورانت

حياة اليونان

ترجمة
محمد بدران

الجزء الثاني من المجلد الثاني




تونس



بيروت

الكتاب الثالث

العصر الذهبي

من ٤٨٠ إلى ٣٩٩ ق . م .

أهم الحوادث فى الكتاب الثالث

مرتبة حسب تواريخها

ق . م .

— ٤٧٨ بندار الطيبى ، الشاعر .

٤٧٨ — ٤٦٧ هيرون الأول طاغية فى سراقوصة .

— ٤٧٨ فيثاغورس الرجيوى ، المثال

— ٤٧٧ تأليف حلف ديلوس .

— ٤٧٢ بولجنوتوتس المصور ؛ برسو لإسكلس .

— ٤٦٩ مولد سقراط .

— ٤٦٨ سيمون يهزم الفرس فى أدريمتون ، المباراة الأولى بين إسكلس وسفكليز .

— ٤٦٧ بكيليدز الكيوسى الشاعر ، سبعة ضد طيبة لإسكلس .

٤٦٤ — ٤٥٤ ثورة الأرقاء (الهيلوت) ؛ حصار إيثوم .

٤٦٣ — ٤٣١ بركليز فى الحياة العامة .

— ٤٦٢ إفيلتيز يحدد اختصاصات مجلس الأريوبجس ، ويقرر أجوراً للقضاة أنكساغوراس فى أثينة .

— ٤٦١ سيمون ينفى ؛ إفيلتيز يقتل .

— ٤٦٠ أنبادوقليس الأكرجاسى ، الفيلسوف ؛ بروميثيوس المقيد لإسكلس .

٤٥٩ — ٤٥٤ إخفاق حملة أثينة على مصر .

— ٤٥٨ أرستيا لإسكلس ؛ الأسوار الطويلة .

— ٤٥٦ هيكل زيوس فى أولمبيا ، بيونيوس المندى ، المثال .

— ٤٥٤ خزانة حلف ديلوس تنتقل إلى أثينة .

— ٤٥٠ زينون الإيلى ، الفيلسوف ، أبقراط الطشيوزى الرياضى ؛ كلمكوس يوطد أركان النظام الكورنثى ؛ فيلولوس الطيبى ، الفلكى .

— ٤٤٨ صلح كلياس مع فارس .

٤٤٧ — ٤٣١ البا ثنون .

— ٤٤٥ ليوسبس الأبدرى ، الفيلسوف .

— ٤٤٣ هيرودوت الهليكرنسى ، المؤرخ ، ينضم إلى المستعمرين الذين أسسوا ثورياى فى إيطاليا ؛ جورجياس الليونتينى ، السوفسطائى .

— ٤٤٢ أنتيجون لسفكليز ، ميرون الإليوثيرى المثال .

— ٤٤٠ بروتجوارس الأبدرى ، السوفسطائى .

— ٤٣٨ أثينة برثنوس لفدياس ، ألستس ليوربديز .

ق . م .

– ٤٣٧ البروبيليا .

٤٣٥ – ٤٣٤ الحرب بين كورنثة وكرثيرا .

– ٤٣٣ حلف أثينة وكرثيرا .

– ٤٣٢ ثورة بوتيديا ، محاكمة أسپاشيا ، وفدياس ، وأنكساغوراس .

٤٣٠ – ٤٠٤ حرب البلوبونيز .

٤٣٠ – ٤٢٤ ظهور روايات ميديا ، أندرومكى ، وهكيبا ليوريپديز ؛ والكترا لسفكليز .

– ٤٣٠ الطاعون فى أثينة ، محاكمة پركليز .

– ٤٢٩ موت پركليز ، كليون يتولى السلطة ، أوديب الملك لسفكليز .

– ٤٢٨ ثورة متليني ، يوريپديز يكتب هيوليتوس ؛ موت أنكساغوراس .

– ٤٢٧ قدوم جورجياس إلى أثينة ؛ پروذكوس ، وهپياس السوفسطائيان .

– ٤٢٥ حصار اسفكتيريا ؛ سفكليز يكتب « الأكرنيين » .

– ٤٢٤ برسيداس يستولى على أمفيبولس ؛ نفى توكيديدس المؤرخ ، أرستفنيز يكتب رواية « الفرسان » .

– ٢٢٣ أرستفنيز يكتب رواية « السحب » ؛ زيوكسيس المرقل ؛ وپرهسيوس الإفسوسى المثالان .

– ٤٢٢ رواية « الزنابير » لسفكليز ؛ موت كليون وبراسيداس .

– ٤٢١ صلح نيشياس ؛ رواية « السلام » لأرستفنيز .

– ٤٢٠ أبقراط الكوسى ؛ الطبيب ؛ ديموقريطس الأبدرى ، الفيلسوف پوليقليطس السكيونى ، المثال .

٤٢٠ – ٤٠٤ الإركثيوم .

– ٤١٩ لسياس الخطيب .

– ٤١٨ انتصار اسپارطة فى مانتينية ؛ رواية « أيون » ليوريپديز .

– ٤١٦ مذبحة ميلوس ؛ رواية « إلكترا » ليوريپديز (؟) .

٤١٥ – ٤١٣ حملة أثينة على سراقوصه .

– ٤١٥ بتر الهرما ؛ سقوط ألسبيديز ؛ « الطروادیات » ليوريپديز .

– ٤١٤ حصار سراقوصه ؛ رواية « الطيور » لأرستفنيز .

– ٤١٣ هزيمة أثينة فى سراقوصه ؛ رواية إفجينيا فى طوريس ليوريپديز .

– ٤١٢ مسرحيتا هلن وأندرمدا ليوريپديز .

– ٤١١ ثورة الأربعمائة ؛ روايتا « ليسستراتا » و « ثسموفيا زوسا » لأرستفنيز .

– ٤١٠ عودة الدمقراطية ؛ انتصار ألسبيديز فى سديكوس .

– ٤٠٨ تيموثيوس الملطى الشاعر والموسيقى ؛ رواية « أورستيز » ليوريپديز .

ق . م .

— ٤٠٦ اقتصار أثينة فى أرچنوسى ؛ موت يوريپديز ، وسفكليز ؛ مسرحيتا « الباكين » و « إفيچنيا فى أوليس » ليوريپديز .

٤٠٥ — ٣٦٧ ديونيسيوس الأول طاغية فى سراقوصة .

— ٤٠٥ انتصار اسپارطة فى إيجسپوتامى ، مسرحية « الضفادع » لأرستفانيز .

— ٤٠٤ نهاية حرب البلوپونيز ، حكم الثلاثين فى أثينة .

— ٤٠٣ عودة الدمقراطية .

— ٤٠١ هزيمة قورش الثانى فى كوناكسا ، ارتداد العشرة الآلاف أتباع زنوفون ؛ مسرحية أوديب فى كولونوس لسفكليز .

— ٣٩٩ محاكمة سقراط وموته .

الباب الحادى عشر

بركليز والتجربة الدمقراطية

الفصل الأول

نهضة أثينة

يقول شلى Shelley إن « الفترة الواقعة بين مولد بركليز وموت أرسطو تعد بلا شك أهم فترة فى تاريخ العالم كله ، سواء نظرنا إليها من حيث هى ذاتها أو من حيث أثرها فى مصائر الإنسان المتحضر من بعدها » . وكانت أثينة هى المسيطرة على هذه الفترة ، وقد نالت ولاء معظم المدن الإيجية فأمدتها هذه المدن بالأموال لأنها تزعمتها فى إنقاذ بلاد اليونان من الغزو الأجنبى ، ولأن أيونيا بعد هذه الحرب قد حلت بها الفاقة ، واسپارطة قد اضطربت أحوالها بسبب تسريح جيوشها وما حدث فيها من زلازل وفتن ؛ ولأن الأسطول الأثينى قد نال من النصر فى العالم التجارى ما لا يقل عن نصره الحربى فى أرتميزيوم سلاميس :

ولسنا نقصد أن الحرب كانت قد وضعت أوزارها نهائيا ؛ فقد استمر النزاع بين الفرس واليونان من عهد أن فتح قورش أيونيا إلى أن هزم الإسكندر دارا الثالث. وقد طرد الفرس من أيونيا فى عام ٤٧٩ ومن البحر الأسود عام ٤٧٨ ومن تراقيا سنة ٤٧٦ ، وفى عام ٤٦٨ انتصر أسطول يونانى بقيادة سيمون الأثينى نصراً مؤزراً على الفرس فى البر وفى البحر عند مصب نهر يوريمدون Eurymedon(*) ؛ وفى ذلك الوقت ألفت المدن

(*) نهر فى پمفليا فى جنوبى آسيا الصغرى .

اليونانية فى آسية وبحر إيجة اتحاد ديلوس بزعامة أثينة وتبرعت كلها بمقدار من المال أودع فى هيكل أپلو فى ديلوس . وأمدت أثينة هذا الاتحاد بالسفن بدل المال فلم تلبث لهذا السبب أن أصبحت لها الزعامة عليه بفضل قوتها البحرية ، ولم يلبث اتحاد الأنداد أن استحال إلى إمبراطورية أثينة .

وانضم كبار الساسة الأثينيون جميعهم ومنهم الرجل الفاضل أرستيديز والرجل المنزه الطاهر پركليز إلى ثمستكليز الذى لا ضمير له فى هذه السياسة الجديدة ، سياسة التوسع الاستعمارى . ولم تكن أثينة مدينة لإنسان مّا بمثل ما كانت مدينة به لثمستكليز ، ولم يكن أحد من رجالها أكثر منه تصميماً على أن ينال جزاء ما قدمه لها ، فلما أن اجتمع زعماء اليونان ليقترحوا مكافأة أولئك الرجال الذين أظهروا كفاية ممتازة فى الدفاع عن البلاد اقترح كل منهم لنفسه أولا ولثمستكليز ثانياً : وكان هو الذى سير تاريخ اليونان فى المجرى الذى سار فيه بعدئذ ، وذلك بأن أقنع أثينة أن البحر لا البر والتجارة لا الحرب هما سبيل السيطرة والسيادة ، ومن أجل هذا أخذ يفاوض بلاد الفرس ويسعى إلى وضع حد للنزاع القائم بين الإمبراطورية المحرمة والإمبراطورية الفتية حتى تزول العقبات القائمة فى سبيل الاتجار مع آسية ويعم الرخاء أثينة . وقد حشد رجال أثينة — بل ونساءها وأطفالها — لإقامة سور حول المدينة وسور آخر حول ثغرى پيرية Piraeus ومنيشيه Muniychia ، ووضع الخطة التى نفذها پركليز لإقامة أرصفة عظيمة ، ومخازن ، ومصافق فى پيرية تسهيلا للتجارة البحرية . وكان يعرف أن هذه السياسة ستثير الغيرة والحسد فى نفس إسپارطة ، وقد تؤدى إلى نشوب الحرب بين الدول المتنافسة ، ولكنه كان يسعى لرقى أثينة وتقدمها ، وكان هذا الأمل ووثوقه بقوة الأسطول الأثينى يدفعانه إلى العمل دفعاً .

وكان فى أهدافه من العظمة بقدر ما فى وسائله من الانحطاط ، فقد استخدم الأسطول لإرغام جزائر سكلديس على أداء الجزية له بحجة أن هذه

الجزائر استسلمت للفرس أسرع مما ينبغى لها أن تستسلم ، وأنها أمدت خشيارشاى بالجند ، ويلوح أنه أعفى بعض المدن من هذه الجزية بعد أن قدمت له الرشا[٢] . ولهذه الاعتبارات عينها أعد العدة لاستدعاء بعض المنفيين ، ويقول تيموقريون Timocreon إنه كان يحتفظ بما يقدم له من الرشا وإن لم يفلح فى إعادتهم[٣] إلى أوطانهم . ولما عهد إلى أرستيديز الإشراف على الأموال العامة وجد أن من كانوا يشرفون عليها قد اختلسوا الكثير منها ، وأن ثمستكليز لم يكن أقلهم اختلاساً[٤] وتبديداً لها ، وأصدر الأثينيون حوالى عام ٤٧١ قراراً بنفيه من البلاد لأنهم كانوا يخشون مقدرته وفساد ضميره فخرج منها يريد البقاء فى أرجوس . ولكن وثائق ذات بال لم تلبث أن وقعت فى يد الإسبارطيين تثبت على ما يظهر أن ثمستكليز دارت بينه وبين بوزنياس نائب الملك عندهم ، وكانوا قد أماتوه جوعاً لأنه اتصل بالفرس فى مفاوضات تثبت عليه الخيانة لبلاده . وانتهزت اسبارطة هذه الفرصة لإسقاط عدوها ، فأطلعت أثينة على هذه الوثائق وأرسلت أثينة من فورها أمراً بالقبض على ثمستكليز ، فما كان منه إلا أن فر إلى كرسيرا Corcyra ، وأبت هـذه أن تحميه ، فلجأ إلى إبيروس حيث أقام زمناً قصيراً ، ثم أبحر منها سراً إلى آسية ، وطلب إلى خليفة خشيارشاى أن يكافئه على منعه اليونان من تعقب آثار الأسطول الفارسى بعد سلاميس ، وانخدع أرتخشتر (أزدشير) بما وعده به ثمستكليز من مساعدة على إخضاع بلاد اليونان[٥] فضمه إلى مستشاريه وخصه بموارد بعض المدن الخاضعة لحكمه .. وقبل أن يستطيع ثمستكليز إنفاذ الخطة التى أقضت مضجعه عاجلته المنية فى مجنيزيا عام ٤٤٩ وهو فى سن الخامسة والستين ، بعد أن نال إعجاب بلاد البحر الأبيض المتوسط كلها واكتسب كراهيتها .

وآلت زعامة الحزب الدمقراطى فى أثينة بعد ثمستكليز وأستيديز إلى إفيلتيز ، كما آلت زعامة الحزب الأجاركى أو حزب المحافظين إلى سيمون بن

ملتياس . وكان سيمون متصفاً بمعظم الفضائل التي تنقص ثمستكليز ، ولكنه كانت تعوزه الكياسة والمقدرة اللتان لا بد منهما للنجاح في الحكم والسياسة . ولما ضاق ذرعاً بما كان يحاك في المدينة من دسائس تولى قيادة الأسطول ، وثبت دعائم الحرية في بلاد اليونان بما ناله من النصر في يوريميدون ، وعاد إلى أثينة ظافراً ولكنه فقد حب الشعب له حين أشار بتسوية النزاع مع اسپارطة . ووافقت الجمعية على كره منها أن تعهد إليه قيادة قوة أثينة لمساعدة الإسپارطيين على إخضاع الميلوتيين في إيثومي ، ولكن الإسپارطيين لم يأمنوا للأثينيين وارتابوا فيهم حتى وهم يريدون لهم الخير . وبلغ من سوء ظنهم بجنود سيمون أن عادوا إلى أثينة غاضبين ، كما عاد سيمون يجلله الخزي والعار ، وسقطت مكانته بين مواطنيه . وفي عام ٤٦١ صدر قرار الجمعية بنفيه بتحريض پركليز ، وسقطت بسقوطه منزلة الحزب الأبجركي إلى الحضيض ، لقد ظلت الحكومة مدى جيلين في قبضـــة الدمقراطيين : وبعد أربع سنين من سقوطه استصدر پركليز من الجمعية قراراً باستدعائه مدفوعاً إلى ذلك بندمه على فعلته (أو لعشق إلپنيس Elpenice أخت سيمون كما تقول الشائعات) ، ومات سيمون ميتة شريفة في معركة بحرية في جزيرة قبرص .

وآلت زعامة الحزب الدمقراطي وقتئذ إلى رجل قد يدهش القارئ إذا قلنا إنا لا نعرف عنه إلا القليل ، مع أن نشاطه هو الذي غير مجرى تاريخ أثينة ، والرجل الذي نعنيه بقولنا هذا هو إفيلتيز . وكان إفيلتيز هذا رجلا فقيراً ولكنه طاهر اليد ، ولم يعش طويلاً بعد أن هدأت نار الأحقاد السياسية في أثينة . وكانت الحرب قد زادت من قوة حزب الشعب لأن المواطنين الأحرار نسوا إلى حين ما كان بين طبقاتهم من شقاق وانقسام ، ولأن الجيش — الذي كان يسيطر عليه الأشراف — لم يكن هو الذي كسب معركة سلاميس ، بل كسبها الأسطول ، وكان رجاله من فقراء المواطنين كما

كانت قيادته فى أيدى طبقة التجار الوسطى . وحاول الحزب الألجركى أن يحتفظ بامتيازاته بتركيز السلطة العليا فى الأريوبجوس (مجلس الشيوخ) المحافظ ، فما كان جواب إفيليتز إلى أن قام بهجوم(*) عنيف على مجلس الشيوخ القديم ، ووجه تهماً شنيعة إلى الكثيرين من أعضائه ، وأمر بإعدام بعضهم[٧] ، وحمل الجمعية على أن توافق على إلغاء ما كان باقياً للأريوبجوس من سلطة إلغاء يكاد يكون تاماً . وأثنى أرسطاطاليس الأرستقراطى النزعة فيما بعد على هذه السياسة المتطرفة بحجة أن « انتقال السلطات القضائية التى كانت من قبل من اختصاص مجلس الشيوخ إلى أيدى العامة كان فيما يبدو عظيم النفع لأن إرشاد العدد القليل من الناس أيسر من إرشاد العدد الكبير منهم[٨] » . غير أن المحافظين من أهل ذلك الوقت لم يؤمنوا بهذه النتيجة وهم هادئون . ولما عجزوا عن شراء ضمير إفيليتز سلطوا عليه من اغتاله فى عام ٤٦١[٩] ، وانتقلت بعد موته زعامة الحزب الدمقراطى التى تعرض من يتولاها لأشد الأخطار إلى بركليز الأرستقراطى .

(*) إن ما يقوله جروت Grote فى عام ١٨٥٠ م عن الأريوبجوس ليذكرنا ببعض ما وجه من نقد للمحكمة العليا فى الولايات المتحدة عام ١٩٣٧ . قال : « لقد كان الأريوبجوس وحده هو الذى تستمر سلطة أعضائه مدى الحياة ، ويبدو أنه لهذا السبب كان ذا سلطان واسع لا حد له ، وأن طول الأمد ودوام هذا السلطان قد خلعا عليه ثوبا من القداسة ، وجعلا له فى قلوب الناس إجلالا دينيا ... يضاف إلى هذا أن الأريوبجوس كان له حق الإشراف على الجمعية الشعبية : وكان يحرص على ألا تخرق شرائع البلاد بشىء من إجراءاتها . وكانت هذه سلطات واسعة مطلقة غير مقيدة ، لم يمنحه إياها الشعب بقرار رسمى منه »[٦] .

الفصل الثاني

بركليز

ولد قبل مرثون بثلاث سنين رجل أصبح فيما بعد صاحب السلطة العليا على جميع قوى أثينة المادية والروحية فى خلال عصر عظمتها ومجدها : وكان والده زنثپوس Xanthippus ممن حاربوا فى سلاميس ، وقد تولى قيادة الأسطول الأثينى فى معركة ميكالى ، واسترد مضيق الهلسپنت لبلاد اليونان ؛ وكانت أجرستى Agariste أم بركليز حفيدة المصلح كليسثنيز ، ولهذا فإن نسبه من جهة أمه يتصل بأسرة الألقميونيين القديمة . وفى ذلك يقول فلوطرخس : « ولما قرب يوم مولده رأت أمه فى منامها أنها ولدت أسداً ، وبعد بضعة أيام ولدت بركليز — وكان جسمه كاملا سوياً فى كل شىء ما عدا رأسه ، فقد كان طويلا بعض الطول غير متناسب مع جسمه[١٠] » وكثيراً ما سخر نقاده من طوله . وتعلم الموسيقى على دامون Damon أشهر معلميها فى زمانه ، وعلمه فيثاغورس الموسيقى والأدب ، واستمع إلى محاضرات زينون الإيلى فى أثينة ، وأصبح صديقاً وتلميذاً للفيلسوف أنكساغوراس . وتثقف فى أثناء نموه بثقافة عصره السريعة النماء ، وجمع فى ذهنه واستخدم فى سياسته جميع نواحى الحضارة الأثينية — الاقتصادية ، والعسكرية ، والأدبية ، والفنية ، والفلسفية . ومبلغ علمنا أنه كان أكمل إنسان أنجبته بلاد اليونان جميعها .

ولما رأى أن مبادئ الحزب الألجركى لا تتمشى مع روح العصر انضم من بداية حياته العامة إلى حزب « الديموس » (الشعب) أى سكان أثينة الأحرار . وكانت كلمة « الشعب » وقتئذ ، كما كانت فى أمريكا إلى أيام جفرسن ، تفترض حيمن تطلق عليه بعض القيود الخاصة بالملكية : وكان حين

ينزل ميدان السياسة بوجه عام وحين يقدم على أى عمل سياسى بوجه خاص ، يستعد له أكمل استعداد ، فلا يتردد فى أن يمضى فى أى عمل تفرضه عليه قواعد التربية الحقة ، لا يتكلم إلا قليلا ، ولا يطيل الكلام ، ويدعو الآلهة أن تمسك لسانه فلا ينطق بأية كلمة لا تمت بصلة قوية للموضوع الذى يتكلم فيه . وكان الناس كلهم ومنهم الشعراء الهزليون الذين يحقدون عليه ، يسمونه « الأولمبى » الفصيح اللسن الذى لم تسمع أثينة قبله مثل فصاحته فى قوتها وعظيم تأثيرها ، ومع هذا فالمؤرخون كلهم مجمعون على أن خطبه كانت خالية من الانفعال ، تتأثر بها العقول المستنيرة . ولم يكن نفوذه مستمداً من ذكائه فحسب ، بل كان مستمداً كذلك من صلاحه واستقامته ، ولم يكن يستنكف أن يستعين بالرشا ليحصل للدولة على أغراضها ، أما هو نفسه فكان « بلا جدال مبرأ من جميع ضروب الفساد وأكبر من أن يهتم بالمال[١١] » . ويحدثنا المؤرخون أن پركليز لم يضف طوال حياته العامة شيئاً ما إلى ما ورثه من أبيه ، على حين أن ثمستكليز تولى المناصب العامة وهو فقير وخرج منها وهو واسع الثراء[١٢] . ومما يدل على فطنة الأثينيين وحكمتهم فى ذلك العهد أنهم ظلوا خلال ثلاثين عاماً أو نحوها بين ٤٦٧ و ٤٢٨ ينتخبونه ويجددون انتخابه — ما عدا فترات قصيرة — ليكون واحداً من الاستراتجوى أى القادة العشرة ، وكان بقاؤه فى منصبه هذه المدة الطويلة نسبياً مما جعله صاحب السلطة العليا فى المجلس العسكرى ، وأمكنه أن يجعل منصب الاستراتجوس أوتوكراتور أى القائد صاحب السلطة أعلى المناصب الحكومية شأناً وأعظمها سلطاناً . وحصلت أثينة فى أيامه على فوائد الحكم الأرستقراطى والدكتاتورى ، وإن كانت قد استمتعت أيضاً بجميع مزايا الدمقراطية . فقد بقى لها ما كان يزدان به عهد پيستراتس من حكم صالح وعمل على نشر الثقافة وتشجيعها ، واجتمع لها ما كان فى عهد پيستراتس من حسن توجيه ، وفرط ذكاء ، وسرعة البت فى الشئون العامة ، مضافة إلى رضاء المواطنين الأحرار رضاء كاملا يظهرونه عاماً بعد

عام. وكان وجوده برهاناً يثبت به التاريخ المبدأ القائل إن خير وسيلة لتنفيذ الإصلاحات القائمة على أسس الحرية وأضمن الطرق لتثبيت هذه الإصلاحات وتقوية دعائمها هي أن يتولاها زعيم حذر معتدل ، يستمتع بتأييد الشعب ومن أجل ذلك بلغت الحضارة اليونانية أعلى درجاتها حين نمت الدمقراطية نمواً يكفي لأن يكسبها قوة وتعدداً في نواحي نشاطها ، وبقي فيها من الأرستقراطية ما يكسبها حسن النظام وسلامة الذوق.

وأدت إصلاحات بركليز إلى زيادة سلطة الشعب زيادة عظيمة. ذلك أن عدم أداء أجور للقضاة نظير عملهم في المحاكم كان قد أكسب الطبقات الثرية سلطاناً عظيماً فيها وإن كانت سلطتهم قد زادت من قبل في عهد صولون وكليسثنيز وإفيلتيز. وأدرك بركليز هـذا ، فقرر في عام ٤٥١ أبولتين obols أي ما يعادل ١/٣ من الريال الأمريكي لكل قاض عن كل يوم يجلس فيه للقضاء ، ثم رفع هذا الأجر بعدئذ إلى ثلاث أبولات ، وكان هذا الأجر في كلتا الحالتين يعادل وقتئذ نصف ما يكسبه الأثيني العادي من عمله اليومي(١٣). ولسنا نستطيع أن نحمل محمل الجد قول بعضهم : إن هذه الأجور القليلة أضعفت قوة أثينة وأفسدت أخلاق أهلها ، لأن هذا لو صح لقضى من وقت بعيد على كل دولة تؤجر قضاتها أو محلفيها. ويلوح أن بركليز قرر كذلك مكافأة قليلة لمن ينخرطون في سلك الخدمة العسكرية. وقد توج كرمه الذي يعيبه عليه بعض الناس بأن خصص من مال الدولة أبولتين في العام لكل مواطن من مواطنيها يؤديهما أجراً لدخوله لمشاهدة ما يعرض من المسرحيات والألعاب في الأعياد العامة ، وحجته في هذا أن هذه المسرحيات والألعاب يجب ألا تكون ترفاً تختص به الطبقات العليا والوسطى ، بل يجب أن تهدف إلى رفع مستوى الناخبين العقلي على بكرة أبيهم. على أننا يجب أن نذكر في هذا المقام أن أفلاطون ، وأرسطاطاليس ، وفلوطرخس — وهم جميعاً محافظون — مجمعون على أن هذه الأجور أضرت بأخلاق الأثينيين(١٤).

وواصل بركليز عمل إفيلتيز فنقل إلى المحاكم الشعبية ما كان للأركونيز وكبار الموظفين من اختصاصات قضائية ، فأصبحت الأركونية من ذلك الحين منصباً إدارياً أكثر منها منصباً يوجه سياسة الدولة ، أو يفصل فى القضايا أو يصدر الأحكام والأوامر . وفى عام ٤٥٧ وسع حق الانتخاب للأركونية حتى شمل الطبقة الثالثة من الأهلين ، الزوجتاى Zeugitai ، وكان من قبل مقصوراً على الطبقات الغنية ، ولم تلبث أحط الطبقات منزلة وهى طبقة الثيتيين أن حصلت على حق الانتخاب لهذا المنصب من غير حاجة إلى إجراءات شكلية ، وذلك بأن غالت فى تقدير دخلها ، وتغاضت سائر الطبقات عن هذا الخداع والتزوير لما كان لهذه الطبقة الدنيا من شأن عظيم فى الدفاع عن أثينة(١٥) . ثم اختط بركليز إلى أجل قصير خطة مغايرة لخطته السالفة الذكر فأقنع الجمعية فى عام ٤٥١ بأن تقصر حق الانتخاب على الأبناء الشرعيين الذين يولدون من آباء أثينيين وأمهات أثينيات . وحرم عقد زواج شرعى بين مواطن وغير مواطن . وكان يقصد بهذا الإجراء عدم تشجيع الزواج بين الأثينيين والأجانب والإقلال من عدد الأبناء غير الشرعيين ، ولعله كان يريد أيضاً أن يحتفظ لأهل مدينة أثينة الحريصين على حقوقهم بما يعود عليهم من هذه الحقوق الوطنية والإمبراطورية من مزايا . ولكن بركليز لم يلبث أن وجد من الأسباب ما جعله يندم على هذا التشريع الضيق المانع .

وأدرك بركليز أن أى أنواع الحكم يبدو فى أعين الناس صالحاً إذا عاد عليهم بالرخاء ، وأن أحسن أنواعه يبدو لهم سيئاً إذا لم يعد عليهم به ، فوجه عنايته إلى سياسة البلاد الاقتصادية بعد أن ثبت دعائم مركزه السياسى ، فعمل على تقليل ضغط السكان على موارد أتكا الضئيلة بإسكان جاليات من فقراء الموظفين الأثينيين فى البلاد الأجنبية ، وهيأ العمل للمتعطلين(١٦) بأن جعل الدولة تستخدم من الأهلين عدداً كبيراً لم يكن له نظير فى بلاد اليونان من قبل : فزاد

عـــدد سفن الأسطول ، وأنشأوا دور الصنعة ، وبنى فى بيريه مصنعاً عظيماً لتجارة الحبوب .

وأراد أن يحمي أثينة حماية قوية من خطر الغزو عن طريق البر ، وأن يهيئ فى الوقت نفسه عملا جديداً للمتعطلين ، فأقنع الجمعية بأن توافق على صرف الأموال اللازمة لبناء أسوار لا يقل طولها عن ثمانية أميال سميت « الأسوار الطويلة » ، تصل أثينة ببيريه وفالروم Phalerum . وقد جعلت هذه الأسوار مدينة أثينة ومرفأيها كتفاً واحداً حصيناً لا يتوصل إليه فى وقت الحرب إلا من طريق البحر – الذى يسيطر عليه الأسطول . ونظرت اسپارطة غير المسورة إلى هذا البرنامج الواسع من برامج التسليح نظرة عدائية ، ورأى الحزب الألجركى فى هذا العداء فرصة تتيح له الاستيلاء على زمام السلطة السياسية ، فأرسل رسله إلى الاسپارطيين يدعونهم لغزو أتكا ، وتعهدوا لهم بأن يوقدوا فى أثناء الغزو نار الفتنة فى المدينة ، فيقضوا بذلك على الحكومة الدمقراطية ، كما تعهدوا أيضاً بهدم « الأسوار الطويلة » . ووافق الاسپارطيون على هذه الخطة ، وسيروا على أثينة جيشاً هزم الأثينيين عند تنجارا Tangara (٤٥٧) ، ولكن الألجركيين عجزوا على القيام بثورتهم ، وعاد الاسپارطيون إلى البلوپونيز بخفى حنين ، ينتظرون على مضض أن تتاح لهم فرصة أحسن من هذه الفرصة يقضون بها على منافستهم المزدهرة التى أخذت تنتزع منهم زعامتهم التقليدية على بلاد اليونان :

وقاوم پركليز ما حدثته به نفسه من الانتقام من اسپارطة ، ووجه جهوده كلها بدلا من هذا إلى تجميل أثينة ، فوضع منهاجاً ضخما يهدف إلى الانتفاع بجهود جميع عباقرة الفن الأثينيين ومن بقى فيها من المتعطلين فى تزيين الأكوروپوليس ، وكان يرجو من وراء ذلك أن يجعل المدينة مركز هلاس الثقافى ، وأن يعيد بناء الهياكل القديمة ـــ التى خربها الفرس ـــ على نطاق واسع فخم يبعث العزة والفخار فى نفس كل مواطن فى المدينة ويقول فلوطرخس فى هذا : « ولقد كانت رغبته وغايته ألا يحرم جمهور الصناع غير

المهذبين من نصيبهم فى الأموال العامة على ألا ينالوا نصيبهم هـذا وهم متعطلون لا يفعلون شيئاً ، ومن أجل هذا وضع البرنامج الضخم للمنشآت العامة »[١٧] . أما المال اللازم لهذه المشروعات فقد حصل عليه بأن اقترح نقل ما تجمع من الأموال فى خزانة حلف ديلوس من هذه البلدة غير المأمونة بعد أن ظل فيها زمناً طويلا لا ينتفع منه بشىء ، وأن يستخدم ما لا يحتاج إليه منه للدفاع المشترك عن البلاد اليونانية فى تجميل المدينة التى يرى بركليز أنها هى العاصمة الشرعية للإمبراطورية الصالحة الخيرة .

وكان نقل خزانة حلف ديلوس إلى أثينة عملا صالحاً فى نظر الأثينيين جميعاً بما فيهم الألجركيون . ولكن الناخبين ترددوا فى السماح بإنفاق أى قدر كبير من الأموال لتجميل المدينة — وقد يكون الباعث لهم على هذا عدم ارتياح ضمائرهم إلى هذا العمل ، أو أنهم كان يخالجهم أمل خفى فى أن يحصلوا بطريقة أقرب من طريقة بركليز وأيسر منها على هذه الأموال لينفقوها فى قضاء حاجاتهم وفى ملذاتهم . وكان زعماء الحزب الألجركى مهرة فى الاستفادة من هذا الشعور . فلما أن اقترب اليوم الذى سيعرض فيه هذا الأمر على الجمعية لتقترع عليه بدا أنها سترفضه لا محالة .

ويحدثنا فلوطرخس عن الطريقة الماكرة التى حول بها بركليز هذا التيار إلى صالحه فيقول : « وقال بركليز : حسن جداً ، فلتذهب نفقات هذه المنشآت إلى جيبى أنا لا إلى جيوبكم ، ولينقش عليها اسمى لا اسمكم ، فلما سمعوا قوله هذا نادوه بأعلى أصواتهم أن ينفق المال . . . وألا يقف عن الإنفاق حتى ينفذ عن آخره ، ولسنا نعرف أكان هذا لأنهم دهشوا من عظمته النفسية أم لأنهم أرادوا أن يكون لهم فضل القيام بهذه الأعمال » .

« بينما كانت هذه الأعمال قائمة على قدم وساق ، وكان بركليز يبسط معونته وحمايته لفدياس ، وإكتنوس Ictinus ، ونسكليز Mnesclies وغيرهم من الفنانين الذين كانوا يكدحون لتحقيق أحلامه ، كان هو يناصر الأدب والفلسفة ،

وبينا كان الشقاق بين الأحزاب في سائر المدن اليونانية يستنفد جهود المواطنين ، وغصن الأدب يذوى ويذبل ، كانت الثروة المتزايدة في أثينة والحرية الدمقراطية تتعاونان مع الزعامة الحكيمة المثقفة على خلق عصرها الذهبي المجيد . وبينا كان پركليز ، وأسپازيا ، وفدياس ، وانكساغوراس ، وسقراط يشاهدون مسرحيات يوريپديز في ملهى ديونيسس ، كان في وسع أثينة أن تشهد هي الأخرى ذروة مجد الحياة في بلاد اليونان وكمال وحدتها — من سياسة ، وفن ، وعلم ، وفلسفة ، وأدب ، ودين ، وأخلاق ، تشهد هذه كلها وليس لكل ناحية منها حياة منفصلة عن الأخرى في صحف المؤرخين ، بل تراها وقد اندمجت بعضها ببعض فتكون منها صرح متعدد الألوان هو مفخرة تاريخ هذه الأمة .

وترددت عواطف پركليز بين الفن والفلسفة ، ولعله كان يصعب عليه أن يقول أى الرجلين يحب أكثر من الآخر : فدياس أو أنكساغوراس ؛ ولعله أيضاً قد ولى وجهه شطر أسپازيا لكى يوفق بين رغبته في الجمال وفي الفلسفة معاً . ويقال لنا إنه « كان يكن لأنكساغوراس منتهى الإجلال والإعجاب »[١٨] . ويقول أفلاطون[١٩] إن الفيلسوف هو الذى دفع پركليز إلى شئون السياسة والحكم ، ويعتقد فلوطرخس أن اتصال پركليز الطويل الأمد بأنكساغوراس هو الذى أفاد منه سمو القصد وقوة اللغة التى سمت كثيراً فوق بلاغة الغوغاء وما فيها من سخف حقير دنىء ، هذا فضلا عما أفاده من هدوء واطمئنان ووقار في جميع حركاته ، وثبات لا يتزعزع قط مهما يحدث حوله في أثناء خطبه » . ولما تقدمت بأنكساغوراس السن وانهمك پركليز في الشئون العامة نسى رجل الحكم رجل الفلسفة فلم يعد له مكان ما في حياته زمناً ما ، ولكنه لما سمع فيما بعد أن أنكساغوراس يعانى مرارة الجوع والحرمان بادر إلى معونته ، وقبل منه في تواضع ما وجهه إليه من اللوم يقول : « إن من يحتاجون يوماً ما إلى مصباح ، يمدونه بالزيت »[٢٠] .

وقد لا يصدق الإنسان لأول وهلة أن هذا « الأولمپى » الصارم كان مرهف

الحس بمفاتن النساء ، وإن كان لا يرى بعد أن يعيد التفكير أن ذلك من الأمور الطبيعية التي لا غبار عليها : ذلك أن سيطرته على نفسه كانت تدفعه إلى مقاومة حساسيته الرقيقة ، على حين أن متاعب المنصب قد قوت بلا ريب حنينه الشديد السوى إلى رقة الأنوثة . وكان حين التقى بأسپاز قد مضى على زواجه زمن طويل ، وكانت هي من ذلك الطراز الذي كنت تحاول خلقه في بلاد اليونان ، طراز المؤنسات اللاتي أصبح لهن بعد قليل شأن كبير في الحياة الأثينية . كانت أسپازيا امرأة تأبى العزلة التي يفرضها الزواج على النساء في أثينة ، وكانت تفضل أن تعيش معيشة الاختلاط الجنسي غير المشروع بل الاختلاط الجنسي المطلق إلى حد ما إذا كان هذا يمكنها من أن تستمتع بحرية الحركة وبالحرية الخلقية اللتين يستمتع بهما الرجال ، وأن تشترك معهم في الأعمال الثقافية . وليس لدينا من الأدلة ما نستند إليه إذا شئنا أن نقدر جمال أسپازيا ، وإن كان الكتاب القدامى يتحدثون عن « قدمها الصغيرة المقوسة إلى أعلى » وعن « صوتها الفضي » وشعرها الذهبي[٢١] ، وإن كان أرستفنيز ، وهو عدو سياسي لدود لپركليز ، لا يؤنبه ضميره لتوجيه أية تهمة له ، يصفها بأنها عاهر من ميليطس ، أنشأت بيتاً فخماً للدعارة في مجارا ، ثم جاءت في ذلك الوقت ببعض فتياتها إلى أثينة . ويشير كاتب الملاهي العظيم من طرف خفي إلى أن النزاع الذي قام بين أثينة ومجارا والذي عجل إشعال نار حرب البلوپونيز كان سببه أن أسپازيا أقنعت پركليز بأن يثأر لها من المجاريين الذين اختطفوا بعض فتياتها[٢٢] . لكن أرستفنيز لم يكن مؤرخاً ، ولا يصح أن يوثق به إلا فيما لا يتصل بشخصه هو .

ولما وصلت أسپازيا إلى أثينة في عام ٤٥٠ افتتحت فيها مدرسة لتعليم البلاغة والفلسفة ، وأخذت تشجع بجرأة عظيمة خروج النساء من عزلتهن ، واختلاطهن بالرجال ، وتربيتهن تربية عالية . والتحقت بمدرستها كثيرات من فتيات الطبقات العليا ، وأرسل كثيرون من الأزواج زوجاتهم ليدرسن معها[٢٣] .

وكان الرجال أيضاً يستمعون إلى محاضراتها ، ومن بينهم پركليز وسقراط ، وأكبر الظن أن أنكساغوراس نفسه ، ويورپديز ، وألسبيديز ، وفدياس كانوا يستمعون إليها . ويقول سقراط إنه تعلم منها فن البلاغة[٢٤] ، ويؤكد بعض قدماء النمامين الثرثارين أن رجل الحكم قد ورثها من الفيلسوف[٢٥](*). ووجد پركليز وقتئذ أن الفرصة الطيبة قد واتته إذ أحبت زوجته رجلا آخر ، فلم يكن منه إلا أن عرض عليها أن تستمتع بحريتها نظير استمتاعه هو بحريته ، فرضيت بذلك ، واتخذت لها زوجاً ثالثاً[٢٦] ، وجاء پركليز بأسپازيا إلى بيته . غير أن قانونه الذي سنه في عام ٤٥١ لم يكن يبيح له أن يتخذها زوجة له لأنها من مواليد ميليطس ، وإذا ولد له منها طفل كان هذا الطفل بمقتضى هذا القانون نفسه طفلا غير شرعي ، لا يستطيع أن ينال حق المواطنية الأثينية : ويلوح أنه كان شديد الحب والإخلاص لها ، بل إننا لا نبالغ إذا قلنا إنه كان يهيم بها هياماً شديداً ، فلا يغادر بيته ولا يعود إليه دون أن يقبلها ، ثم أوصى آخر الأمر بكل ما يملك إلى ولدها منه ؛ وانقطع من ذلك الوقت عن الحياة الاجتماعية كلها خارج بيته ، وقلما كان يغادره إلى أي مكان غير ساحة المدينة ، أو قاعة المجلس ، حتى أخذ أهل أثينة يشكون بعده عنهم . أما أسپازيا نفسها فقد جعلت بيته أشبه بالندوات الفرنسية في عهد الاستنارة تناقش فيه الفنون ، والعلوم ، والآداب ، والفلسفة ، وشئون الحكم والسياسة في أثينة ، مناقشة تجمع بين هذه النواحي المختلفة وتؤثر كل منها في الأخرى . وكان سقراط يعجب بفصاحتها ويدهش منها ، ويعزو إليها فضل إنشاء الخطبة الجنازية التي ألقاها پركليز بعد الخسائر الأولى في حرب الپلوپونيز . وما لبثت أسبازيا أن أصبحت ملكة أثينة غير المتوجة ، تشيع فيها آخر أنماط الحياة الاجتماعية ، وعنها تأخذ نساء المدينة « مُثُل الحرية العقلية والأخلاقية التي يتطلعن لها والتي تثير حماستهن » ؛

(*) يريد : رجل الحكم : كايز وبالفيلسوف سقراط . (المترجم)

وكان هذا كله صدمة قوية لمشاعر المحافظين من الأهلين ، فأخذوا يندون ببركليز لأنه يدفع اليونان لحرب اليونان كما حدث فى إيجينا ونساموس ، ثم اتهموه بأنه يبدد الأموال العامة ، ثم سلطوا عليه الممثلين الهزليين فأساؤوا استخدام حرية الكلام التى سادت أثينة فى عهده ، فاتهمه هؤلاء بأنه جعل داره بيتاً من بيوت الفساد السيئة السمعة ، وبأن بينه وبين زوجة ابنه علاقة غير شريفة[٢٨] . وإذ كانوا لا يجرؤون على عرض تهمة من هذه التهم علنا أمام القضاء أخذوا يهاجمونه بالكيد لأصدقائه . فاتهموا فدياس باختلاس بعض الذى عهد إليه لصنع تمثال أثينة الذهبى العاجى ، ويلوح أنهم أفلحوا فى إثبات التهمة عليه . ووجهوا إلى أنكساغوراس تهمة تتعلق بالدين ، ففر الفيلسوف إلى خارج البلاد اتباعاً لمشورة بركليز . ووجهوا تهمة دينية أخرى إلى أسبازيا مضمونها أنها لا تخضع لأوامر الدين ، وأنها جهرت بعدم تعظيمها آلهة اليونان[٢٩] . وهجاها الشعراء الهزليون هجاء قاسياً ووصفوها بأنها ديانيرا Dejaneira التى أهلكت بركليز[*] وأطلقوا عليها بلغة يونانية صريحة اسم العاهر ، واتهمها واحد منهم يدعى هرمبوس Hermippus بأنها تعمل لكسب المال من طريق غير شريف ، وذلك بأنها قوادة لبركليز ، تأتى إليه بالحرائر ليستمتع بهن[٣٠] ؛ وقدمت للمحاكمة ونظرت قضيتها أمام ألف وخمسمائة من القضاة ، ودافع عنها بركليز دفاعاً مجيداً استخدم فيه كل ما وهب من بلاغة ، بل إنه استخدم فيه دموعه نفسها ، ورفضت الدعوى . وبدأ بركليز من ذلك الوقت (٤٣٢) يفقد سيطرته على الشعب الأثينى ، ولما وافته منيته بعد ثلاث سنين من ذلك الوقت كان قد أصبح رجلا مهدما كسير القلب والجسم .

(*) ديانيرا هى زوجة هرقل ، التى تسببت فى موته بأن قدمت له ثوبا مسموما . انظر رواية سفكليز « النساء التراكينيات » .

الفصل الثالث

الدمقراطية الأثينية

١ — المناقشات

حسبنا هذه التهم العجيبة شاهداً على أن الدمقراطية الضيقة التى كانت قائمة تحت سلطان دكتاتورية بركليز المزعومة كانت دمقراطية حقة . ومن واجبنا أن ندرس هذه الدمقراطية بعناية لأنها تجربة من أبرز التجارب فى تاريخ الحكم . ولقد كان يحد منها أولا أن أقلية صغيرة من الأهلين كانت هى التى تستطيع القراءة ، ويحد منها من الوجهة الطبيعية صعوبة الوصول إلى أثينة من المدن القاصية فى أتكا . هذا إلى أن حق الانتخاب كان مقصوراً على من ولد من أبوين أثينيين حرين ، وبلغ الحادية والعشرين من العمر . وكان هؤلاء وأسرهم دون غيرهم هم الذين يستمتعون بالحقوق المدنية أو يتحملون مباشرة أعباء الدولة الحربية والمالية . وفى داخل محيط هذه الدائرة التى تضم ٤٣٫٠٠٠ من الموطنين يحرصون على ألا تشمل غيرهم من سكان أتكا البالغين ٣١٥٫٠٠٠ ، كانت السلطة السياسية فى عصر بركليز موزعة من الناحية الشكلية توزيعاً متكافئاً ، فكان كل مواطن يستمتع ، ويصر على أن يستمتع ، بكل ما يستمتع به غيره من حقوق أمام القانون وفى الجمعية الوطنية ، ولم يكن « المواطن » فى نظر الأثينى هو الذى يقترع فحسب ، بل كان هو الذى يشغل بالقرعة إذا جاء دوره على مر الأيام منصب الحاكم أو القاضى ، ويجب أن يكون حراً ، مستعداً لخدمة الدولة حين تناد به ، وقادراً على خدمتها . ولا يخفى أنه ليس فى مقدور إنسان خاضع لغيره ، أو مضطر إلى الكدح ليحصل على قوته ، أن يجد من الوقت أو من المقدرة ما يمكنه من

أداء هذه الخدمات ، ومن أجل هذا كان يبدو لمعظم الأثينيين أن الذى يعمل بيديه غير صالح لأن يكون مواطناً أثينياً ، وإن كانت هذه الكثرة تناقض نفسها فتعترف بهذا الحق للفلاح الذى يزرع أرضه . وكان أرقاء أتكا جميعهم البالغ عددهم ١١٥٫٠٠٠ ، وجميع النساء ، وجميع العمال ، وجميع المستوطنين الغرباء البالغ عددهم ٢٨٫٠٠٠ ، وعدد كبير من طبقة التجار ، كان هؤلاء كلهم تبعاً لهذا محرومين من الحقوق السياسية(*) . أما من كان لهم هذا الحق فلم يكونوا يجتمعون فى أحزاب سياسية ، بل كانوا يقسمون تقسيماً غير دقيق إلى أنصار الألجركية أو أنصار الدمقراطية على أساس ميلهم إلى توسيع الحقوق السياسية أو تضييقها ، ونظرتهم إلى سيطرة الجمعية ، وإعانة الحكومة للفقراء من أموال الأغنياء . وكان أنشط الأعضاء فى كلتا الجماعتين ينتظمون فى نواد تسمى مجتمعات الرفقاء **hetaireiai** وكان فى أثينـة نواد من جميع الأنواع — نواد سياسية ، ونواد للأقرباء ، ونواد عسكرية ، ونواد للصناع ، ونواد للممثلين ، ونود دينية ، ونواد تجهر بأن همها هو الأكل والشرب . وكانت أقوى هذه النوادى هى النوادى الألجركية التى يتعهد أعضاؤها بأن يساعد بعضهم بعضاً فى الشئون السياسية والقانونية ، وتربطهم بعضهم ببعض رابطة العداوة المشتركة الشديدة للطبقات الدنيا التى نالت حقوقها السياسية ، والتى أخذت تنافس طبقتى الأشراف ملاك الأراضى والتجار أصحاب المال(٣١) . وفى وجه هذا الحزب الألجركى يقف الحزب الدمقراطى إلى حد ما حزب صغار رجال الأعمال ، والمواطنين الذين أصبحوا أجزاء ، وأولئك الرجال الذين يعملون بحارة على ظهور السفن التجارية والأسطول الأثينى . وكان

(*) هذه الأرقام منقولة عن كتاب ا . و . جم «سكان أثينة فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد **The Popultaion of Athens in the Fifth & Fourth Centuries B.C.** ص ٢١ ، ٢٦ ، ٤٧ . وهى بلا ريب أرقام ظنية . ومجموع السكان يشمل زوجات المطنين وأبناءهم .

هؤلاء كلهم يبغضون ترف الأغنياء وامتيازاتهم ، ويرفعون إلى مصاف الزعامة فى أثينة رجالا من أمثال كليون Cleon دابغ الجلود ، ولسكليز Lysicles بائع الأغنام ، ويكراتيز Eoerates بائع حبال السفن ، وكليوفون Cleopehon صانع القيثارات ، وهيبربولس صانع المصابيح . وأفلح پركليز مدى جيل كامل فى إبعاد هذا الحزب عن الحكم بسياسته التى كانت مزيجا من الدمقراطية والأرستقراطية ، فلما مات ورث الحزب الحكم واستمتع كل الاستمتاع بمستلزماته . وظل النزاع المرير قائماً بين الألجركيين والدمقراطيين من أيام صولون إلى أيام الفتح الرومانى عن طريق الخطابة والاقتراع والنفى والاغتيال والحرب الأهلية الداخلية .

وكان كل ناخب يعد بهذا الوصف عضواً فى الهيئة الحاكمة الأساسية — وهى الإكلزيا أو الجمعية . وعند هذا الحد من الحكم لم تكن هناك حكومة نيابية . وإذ كان الانتقال فوق تلال أتكا من أشق الأمور فلم يكن يحضر أى اجتماع من اجتماعاتها إلا عدد قليل من أعضائها ، قلما كان يزيد على ألفين أو ثلاثة آلاف ، وكان المواطنون الذين يعيشون فى أثينة أو فى ثغر پيرية يحضرون وكأنهم مصممون على أن يكون موطنهم هو المسيطر على الجمعية ؛ وكان الدمقراطيون بهذه الطريقة يتفوقون على المحافظين لأن كثرة هؤلاء كانت مشتتة فى مزارع أتكا وضياعها . وكانت الجمعية تعقد جلساتها أربع مرات فى الشهر ، تعقدها فى المناسبات الهامة فى السوق العامة ، أو فى ملهى ديونيسس ، أو فى ثغر پيرية . أما الجلسات العادية فكانت تعقد فى مكان نصف دائرى يدعى البنيكس Pnyx على منحدر تل غرب الأريوبجوس ؛ وكان الأعضاء فى هذه الحالات كلها يجلسون على مقاعد مكشوفة للسماء وتبدأ الجلسات عند مطلع الفجر ، ويفتتح كل دور اجتماع بالتضحية بخنزير إلى زيوس . وقد جرت العادة أن تؤجل الجلسات على الفور إذا ثارت عاصفة أو حدث زلزال أو خسوف أو كسوف ، لأن هذه الظواهر كانت فى رأيهم أدلة على غضب الآلهة . ولم يكن

يصبح عرض تشريعات جديدة إلا فى الجلسة الأولى فى كل شهر ؛ وكان العضو الذى يقترحها هو الذى يعمل على قبولها . فإذا تبين بعدئذ أن هذه الشرائع شديدة الضرر كان من حق أى عضو آخر أن يلجأ خلال عام من قبولها إلى ما يسمى عدم الشرعية graphe paranomon ، فيطلب أن تفرض على صاحب التشريع غرامة أو أن يحرم من حقوقه السياسية أو يعدم . وكانت هذه هى الطريقة التى تتبعها أثينة لمنع العجلة فى التشريع . وكان لقرار عدم الشرعية هذا صيغة أخرى تجعل من حق الجمعية أن تعرض أى تشريع جديد قبل البت فيه على إحدى المحاكم لتبحثه من الناحية الدستورية ، أى من ناحية اتفاقه مع القوانين القائمة المعمول بها فى البلاد[٣٢] . هذا إلى أنه كان على الجمعية قبل النظر فى مشروع قانون أن تعرضه عن مجلس الخمسمائة ليبحثه أولا ، كما يعرض أى مشروع قانون يقدم إلى مجلس الأمة الأمريكى فى هذه الأيام قبل بحثه فى المجلس على لجنة يفترض فيها أنها ذات علم خاص بموضوع المشروع وكفاية خاصة لبحثه . ولم يكن من حق مجلس الخمسمائة أن يرفض الاقتراح رفضاً باتاً ، بل كان كل ما يستطيعه أن يقدم تقريراً عنه مصحوباً بتوصية بقبوله أو غير مصحوب بها .

وكان المعتاد أن يفتتح رئيس الجمعية دور انعقادها بعرض تقرير عن مشروع مقدم لها . وكانت الجمعية تستمع إلى من يطلبون الكلام حسب سنهم ؛ ولكن كان يجوز حرمان أى عضو من مخاطبة الجمعية إذا ثبت أنه لا يملك أرضاً ، أو أنه غير متزوج زواجاً شرعياً ، أو أهمل فى القيام بواجبه نحو أبويه ، أو أساء إلى الأخلاق العامة ، أو تهرب من القيام بالواجبات العسكرية ، أو ألقى درعه فى إحدى المعارك الحربية ، أو أنه مدين للدولة بضريبة أو غيرها من المال[٣٣] . غير أن الخطباء المدربين وحدهم هم الذين كانوا يستخدمون حق الكلام لأنه لم يكن من السهل حمل الجمعية على الإصغاء للمتكلمين . فقد كانت تضحك من الخطأ فى نطق الألفاظ ، وتحتج بصوت عال على الخروج

عن موضوع النقاش ، وتعبر عن موافقتها بالصراخ الشديد ، والصفير ، والتصفيق باليدين ، وعن عدم موافقتها التامة بإحداث جلبة شديدة تضطر المتكلم إلى النزول عن المنصة[٣٤] . وكان يحدد لكل متكلم وقت معين لا يتجاوزه يقاس مداه بساعة مائية[٣٥] . وكانت طريقة الاقتراع هى رفع الأيدى : إلا إذا كان للاقتراح المعروض أثر خاص مباشر فى شخص ما ، وفى هذه الحال يكون الاقتراع سرياً . وكان من حق المقترع أن يؤيد تقرير المجلس على المشروع المعروض أو يعارضه أو يطلب تعديله ، وكان قرار الجمعية فى هذا نهائياً . وكانت القرارات التى توجب العمل العاجل ، وهى التى تختلف عن القوانين ، تمر أسرع من القوانين الجديدة ، ولكن هذه القرارات كان يمكن أيضاً إلغاؤها بمثل هذه السرعة نفسها ، فلا تتضمنها كتب القوانين الأثينية .

وكانت هناك هيئة أعظم من الجمعية منزلة ولكنها أقل منها سلطاناً ، وهى هيئة المجلس المعروف باسم البول Boule . وكان البول فى أصله مجلساً أعلى شبيهاً بمجالس الشيوخ فى الحكومات النيابية . ولكن منزلته انحطت قبل عصر بركليز حتى أصبح لجنة تشريعية تابعة للإكليزيا . وكان أعضاؤه يختارون بالقرعة وبالدور من سجل المواطنين ، على أن يختار خمسون منهم عن كل قبيلة من القبائل العشر ، وألا تطول مدة خدمتهم أكثر من سنة واحدة ، وكان العضو فى القرن الرابع يتقاضى خمس أبولات فى كل يوم من أيام انعقاد المجلس . وإذ كان من المقرر ألا يعاد انتخاب أى عضو إلا بعد أن تتاح لكل عضو آخر صالح للانتخاب فرصة العمل فى المجلس ، فإن كل مواطن فى الظروف العادية ، كان يجلس فى البول دورة على الأقل فى أثناء حياته ؟ وكان يعقد جلساته فى قاعة المجلس (البولتريون Bouleuterion) فى الجهة الجنوبية من ساحة المدينة ، وكانت جلساته العادية علنيـــة واختصاصاته تشريعية ، وتنفيذية ، واستشارية : فكان يفحص عن مشروعات القوانين

المعروضة على الجمعية ويعدل صياغتها ، ويشرف على أعمال موظفى المدينة الدينيين والإداريين ، ويراقب حساباتهم ، ويشرف على الأموال والمشروعات والمبانى العامة ، ويصدر مراسيم تنفيذية حين يتطلب العمل إصدارها وتكون الجمعية غير منعقدة ، ويسيطر على شئون الدولة الخارجية ، على أن تراجع الجمعية أعماله من هذه الناحية فيما بعد .

ولكى يؤدى المجلس هذه الواجبات المختلفة كان يقسم نفسه إلى عشر لجان تتألف كل منها من خمسين عضواً ، وترأس كل لجنة المجلس والجمعية شهراً طوله ستة وثلاثن يوماً . وكانت هذه اللجنة صاحبة الرياسة تختار فى كل صباح عضواً من أعضائها ليكون رئيساً لها وللمجلس فى ذلك اليوم ، ومن ثم كان هذا المنصب وهو أعلى منصب فى الدولة مفتوحاً أمام كل مواطن حين يأتى دوره فى القرعة ، وكان لأثينة ثلثمائة من هؤلاء الرؤساء فى العام : وكانت القرعة هى التى تحدد فى آخر لحظة أية لجنة ترأس المجلس فى أثناء الشهر ، وأى عضو فى اللجنة يرأسه فى أثناء اليوم . وكان الأثينيون الفاسدون المرتشون يرجون أن يستطيعوا بهذه الطريقة أن يقللوا تطرق الفساد إلى العدالة إلى أصغر حد تستطيع الأخلاق البشرية أن تصل إليه . وكانت اللجنة ذات الرياسة تعد جدول الأعمال ، وتدعو المجلس إلى الانعقاد ، وتصوغ القرارات التى يصدرها المجلس فى أثناء اليوم . وعلى هذا النحو كانت الدمقراطية الأثينية تؤدى وظائفها التشريعية عن طريق الجمعية والمجلس واللجنة . أما الأريوبجوس فكانت اختصاصاته فى القرن الخامس مقصورة على النظر فى قضايا الحريق العمد ، والاغتصاب المتعمد ، والتسميم والقتل مع سبق الإصرار . وتغيرت شرائع اليونان تغيراً بطيئاً من شرائع مفروضة إلى شرائع تعاقدية ، ومن هوى فرد واحد أو أمر طبقة من الناس ضيقة محدودة العدد إلى اتفاق بين مواطنين أحرار يسبقه جدل ونقاش .

٢ — القوانين

يبدو أن القوانين كانت فى نظر اليونان الأقدمين عادات مقدسة ارتضتها الآلهة وأوحت بها ، وكانت لفظة ثميس themis (*) فى لغتهم تطلق على هذه العادات وعلى الآلهة التى يتمثل فيها نظام العالم الأخلاقى وائتلافه (كما يتمثل فى الدو أو التين الصينى ، وفى ريتا الهندية) . وكان القانون عندهم جزءاً من الدين . وشاهد ذلك أن أقدم قوانين الملكية عند اليونان كانت ممتزجة بالطقوس الدينية وبقوانين المعابد(٣٦) .

ولعل القواعد التى قررتها مراسيم شيوخ القبائل أو الملوك ، والتى بدأت بوصفها أوامر تفرضها القوة وانتهت بأن صارت على توالى الأيام تعاقداً وتراضياً بين الحاكمين والمحكومين ، نقول لعل هذه القواعد كانت هى الأخرى قديمة قدم هذه القوانين القديمة .

وكانت المرحلة الثانية من مراحل تاريخ التشريع اليونانى هى جمع العادات المقدسة وتنسيقها على يد مشترعين thesmothetai أمثال زلولسوس zaleucus وكروندناس chronodas ودراكون drako وصولون. ولما أن دون هؤلاء الرجال وأمثالهم قوانينهم الجديدة أصبحت العادات المقدسة thesmoi قوانين من وضع الإنسان nomoi(**) . وفى هذه الكتب القانونية تحرر القانون من سيطرة الدين وازدادت على توالى الأيام صبغته الدنيوية ، وأصبحت نية الفاعل ذات شأن

(*) ومعناها « ما يوضع أو يقرر » وهى مشتقة من ti-themi أى أضع . قارن هذا أيضاً بكلمة doom الإنجليزية التى كان معناها فى الأصل قانون وكلمة duma الروسية .

(**) وكان لفظ ثسمثتاى Thesmothetai يطلق فى أثينة أيام پركليز على الستة الأركونين الصغار الذين كانوا يسجلون القوانين ، ويفسرونها ، ويلزمون الناس باتباعها . وكانوا فى أيام أرسطاطاليس يتولون رياسة المحاكم الشعبية .

كبير فى الحكم على فعله ، وحلت التبعة الفردية محل الالتزامات العائلية ، واستبدل بالانتقام الفردى العقاب القانونى على يد الدولة[٣٧] .

وكانت الخطوة الثالثة فى تطور التشريع اليونانى هى نمو الشرائع المطرد وتجمعها . ذلك أن اليونانى إذا تحدث فى أيام پركليز عن قوانين أثينة كان يقصد بهذه القوانين شرائع دراكون وصولون والقرارات التى أصدرتها الجمعية والمجلس ولم تبلغ بعد صدورها ، وإذا تعارض قانون جديد مع قانون قديم ، استلزم هذا إلغاء القانون القديم . ولكن البحث عن هذا التناقض وتقصى القوانين المتعارضة قلما كانا بحثاً وتقصياً كاملين ، ومن أجل هذا نجد فى بعض الأحيان قانونين متعارضين تعارضاً مضحكاً . وكان يحدث فى أوقات الارتباكات التشريعية الشاذة أن تختار بطريق القرعة من المحاكم الشعبية لجنة من مقررى القوانين nomethetai لتقرر أى القوانين يجب الإبقاء عليها وأيها يجب إلغاؤها . ويعين فى هذه الحال محامون ليدافعوا عن القوانين القديمة ضد من يقترحون إلغاءها . وقد نقشت شرائع أثينة بإشراف أولئك المقررين على ألواح من الحجارة فى « باب الملك » بعد أن صيغت فى عبارات بسيطة سهلة الفهم ، وبهذه الطريقة لم يكن يسمح لأى حاكم أن يفصل فى مسألة بالاستناد إلى قانون غير مكتوب .

والتشريع الأثينى لا يفرق بين القانون المدنى والقانون الجنائى إلا فى أنه يحتفظ للأريوبجوس بحق الفصل فى جرائم القتل ، وفى أنه يترك للمدعى فى القضايا المدنية أن يتولى بنفسه تنفيذ قرار المحكمة . فلا تتقدم الدولة لمعونته إلا إذا لقى فى هذا التنفيذ مقاومة[٣٨] . وكان القتل قليل الحدوث لأنه يعد خطيئة دينية وجريمة قانونية فى وقت واحد ، ولأن الخوف من الانتقام يظل قائماً إذا عجز القانون عن الاقتصاص من القاتل . وقد بقى القصاص المباشر حتى القرن الخامس قبل الميلاد مباحا فى أحوال خاصة ، من ذلك أن الرجل إذا وجد أمه أو زوجته ، أو محظيته ، أو أخته أو ابنته ترتكب الفحشاء كان من حقه أن يقتل من

يرتكبها معها من الرجال على الفور[٣٩] . وكان يجب التكفير عن جريمة القتل سواء ارتكبت بقصد أو بغير قصد لأنها عندهم تدنيس لأرض المدينة ؛ وكانت ». اسم التطهير معقدة صارمة صرامة مؤلمة . وإذا ما عفا القتيل بعد موته عن قاتله ، لم يكن يجوز تقديم القاتل للقضاء . وكانت هناك تحت الأريوبجوس ثلاث محاكم للنظر فى جرائم القتل ، تختلف باختلاف طبقة القتيل وأصله ، واختلاف نوع الجريمة ، هل كانت متعمدة أو غير متعمدة ، وهل هى مما يجوز التسامح فيه أو لا يجوز . وكانت محكمة رابعة تنعقد فى فريتس phrcatt s على الساحل لتحاكم الذين نفوا من قبل لارتكابهم جريمة القتل خطأ ؛ ثم اتهموا بعدئذ بجريمة القتل المتعمد . ذلك أنهم وقد دُنِّسوا بارتكاب الجريمة الأولى لا يسمح لهم بأن تطأ أقدامهم أرض أتكا ، ولهذا يدافع المدافعون عنهم وهم فى قارب بجوار شاطىء البحر .

وقانون الملكية صارم لا هوادة فيه ، فالتعاقد واجب التنفيذ ؛ وكان يطلب إلى القضاة أن يقسموا بأنهم « لن يطلبوا إلغاء الديون الخاصة ، أو توزيع الأراضى أو المساكن التى يملكها الأثينيون » . وكان كبير الأركونين حين يتولى منصبه فى كل عام يكلف منادياً بأن يؤذن فى الناس أن « كل مالك سيبقى له ما يملك وسيظل صاحبه المطلق التصرف فيه »[٤١] . وكان حق الوصية لا يزال مقيداً بقيود شديدة ، فإذا كان للمالك أبناء ذكور ؛ فإن الفكرة الدينية القديمة عن الملك ، والتى تربطها بتسلسل الأسرة وبالعناية بأرواح السلف ، تتطلب أن ينتقل هـــذا الملك من تلقاء نفسه إلى الأبناء الذكور ؛ ذلك أن الوالد إنما كان يحتفظ بالملك وديعة لديه للأموات من الأسرة والأحياء منها ولمن يولدون من أبنائها . وكان الملك فى أثينة يقسم بين الورثة الذكور ، كما هى الحال فى فرنسا إلى حد كبير ، وكان أكبرهم سناً ينال نصيبا أكبر بعض الشىء من سائر الورثة[٤٢] ، ولم يكن الأثينيون كالإسپارطيين القدماء والإنجليز فى هذه الأيام يبقون الملك من غير تقسيم ويعطونه أكبر الأبناء الذكور . وترى الزارع من عهد هزيود وبعده يحدد

عدد أبنائه كما يفعل الفرنسيون فى هذه الأيام حتى لا تنقسم أملاكه بين أبنائه انقساماً يقضى عليها آخر الأمر[٤٣] ؛ ولم تكن للأرملة أن ترث ملك زوجها ، بل كان كل ما تناله من هذا الملك هو أن تسترد بائنتها . وكانت الوصايا معقدة فى أيام پركليز تعقدها فى أيامنا هذه ، وكانت تصاغ فى لغة شبيهة إلى حد كبير بلغة هذه الأيام[٤٤] ؛ والتشريع اليونانى فى هذا كما هو غيره من المسائل ، أساس التشريع الرومانى الذى أصبح فيما بعد الأساس القانونى للمجتمع الغربى .

٣ — القضاء

إصلاح القضاء آخر ما تفعله الدمقراطية ، ولقد كان أعظم إصلاح قام به إفيلتيز وپركليز هو نقل الحقوق القضائية التى كان يمارسها الأركونون والأريوبجوس إلى الهيلية أى المحاكم الشعبية . وكان إنشاء هـذه المحاكم هو الذى وهب أثينة ذلك النظام القضائى الذى أخذت عنه أوربا نظام المحلفين والذى عاد عليها بالخير العميم . وكان الهيلية(*) تتألف من ستة آلاف محلف يختارون بالقرعة من سجل المواطنين . وكان هؤلاء الآلاف الستة يوزعون على عشرة سجلات يحتوى كل سجل على خمسمائة اسم تقريباً ، ويترك الباقون للمناصب التى تخلو أو للظروف العاجلة الطارئة . وكانت القضايا الصغرى أو المحلية يفصل فيها ثلاثون محلفا يزورون مقاطعات أتكا فى مواسم معينة . وإذ كان كل محلف لا يبقى فى منصبه أكثر من عام واحد فى كل مرة ، وكان الانتخاب لهذه المناصب بالدور ، فقد كان كل مواطن تتاح له الفرصة فى الغالب لأن يكون محلفاً مرة فى كل ثلاث سنين : ولم يكن مفروضاً عليه أن يؤدى هذا العمل ، ولكن الأجر المقرر له وهو أوبلتان — ثم ثلاث أوبلات فيما بعد — كل يوم كان يجتذب

(*) الهيلية بمعناها الدقيق هى اسم المكان الذى كانت تجتمع فيه المحاكم ، وقد سميت بهذا الاسم (المشتق من هيليوس أى الشمس) لأن الجلسات كانت تعقد فى الهواء الطلق .

نحو مائتى محلف أو ثلثمائة فى كل دور . أما القضايا الهامة كقضية سقراط مثلا ، فكانت تنظرها محاكم ضخمة مؤلفة من ألف ومائتى رجل . ولكى ينقص الأثينيون الرشوة والفساد فى القضاء إلى الحد الأدنى كان أعضاء المحكمة الذين يوكل إليهم النظر فى قضية ما يختارون بطريق القرعة فى آخر لحظة ، وإذ كانت معظم القضايا لا يطول النظر فيها أكثر من يوم واحد ، فإنا لا نسمع كثيراً عن الرشوة فى المحاكم ؛ ذلك أن الأثينيين أنفسهم كانوا يجدون صعوبة فى إرشاء ثلثمائة رجل فى لحظة واحدة .

وكانت القضايا تتراكم فى أثينة على الرغم من سرعة إجراءاتها ، شأنها فى هذا شأن المحاكم فى جميع أنحاء العالم ، وسبب ذلك أن الأثينيين كانوا كثيرى التقاضى ولكى يقللوا من هذه الحمى كانوا يختارون محكمين بطريق القرعة من بين سجلات أسماء المواطنين الذين بلغوا سن الستين ، وكانوا الطرفان المتنازعان يعرضان نزاعهما وأوجه دفاعهما على أحد هؤلاء المحكمين ، يختار كالقضاة بطريق القرعة فى اللحظة الأخيرة : وكان كل طرف يؤدى إليه أجراً قليلا ؛ فإذا عجز عن الصلح بينهما فصل فى النزاع بعد أن يحلف اليمين . وكان لكلا الطرفين بعدئذ أن يستأنف الحكم إلى المحاكم ، ولكنها كانت ترفض عادة القضايا الصغرى التى عرضت للتحكيم . فإذا قبلت المحكمة أن تنظر فى القضية كتب كلا الطرفين حجته وأقسم اليمين على صحتها ، وكتب الشهود شهادتهم وأقسموا بأنهم صادقون ، ثم تقدم كل هذه الأقوال مكتوبة إلى المحكمة . وكانت توضع فى صندوق خاص وتختم ، ويفتح الصندوق بعد وقت ما وتبحث القضية ، وتصدر الحكم فيها هيئة تختار بالقرعة . ولم يكن عند الأثينيين مدع عمومى ، فقد كانت الحكومة تعتمد على المواطنين أن يتهموا أمام المحاكم كل من يرتكب جريمة خطيرة ضد الأخلاق العامة أو الدولة . ومن هنا نشأت طائفة من « النمامين » ديدنهم وعملهم اتهام الناس ، وقد تطورت مهنتهم هذه على أيديهم حتى أصبحت فناً من فنون اغتصاب اموال الناس لكف الأذى

عنهم . وكانوا فى القرن الرابع يكسبون المال الكثير برفع القضايا — أو على الأصح بالتهـديد برفعها — على الأغنياء لاعتقادهم أن المحاكم الشعبية لا تميل إلى تبرئة من يستطيعون أداء الغرامات الكبيرة(*) . وكانت نفقات المحاكم تغطيها فى الغالب الغرامات التى تفرض على من يدانون من المتقاضين . كذلك كان يحكم بالغرامة على من يعجزون من المدعين عن إثبات ما يوجهون من التهم إلى خصومهم ، فإذا لم ينالوا خمسة على الأقل من أصوات القضاة كانوا عرضة لأن يحكم عليهم بالضرب ابالسياط أو بغرامة كبيرة تبلغ ألف درخمة (نحو ألف ريال أمريكى) . وكان كل طرف من المتقاضين يدافع بنفسه عن قضيته ، وكان عليه أن يعرض بنفسه قضيته للمرة الأولى . فلما أن تعقدت الإجراءات القضائية ، وتبين المتقاضون تأثر القضاة بعض الشىء ببلاغة الألفاظ ، نشأت عادة استخدام خطيب أو رجل بليغ متضلع فى القانون ، يؤيد المدعى أو المدعى عليه ، أو يحضر باسم من يستخدمه وبالنيابة عنه خطبة يستطيع المتقاضى نفسه أن يقرأها أمام المحكمة ومن هؤلاء المدافعين البلغاء نشأ المحامون . وفى وسعنا أن نتبين قدم المحاماة فى بلاد اليونان من عبارة فى أقوال ديوجين ليرتيوس Diogenes Laertius وهى أن باياس Bias ، حكيم بريني Priene كان محامياً بليغاً فى القضايا ، وأنه كان على الدوام يحتفظ بمواهبه لمن كان الحق فى جانبه . وكانت المحاكم تستخدم بعض هؤلاء المحامين ليشرحوا لها القانون exegetai ، وذلك لأن الكثيرين من القضاة لم يكونوا أكثر علماً بالقوانين من المتقاضين أنفسهم .

وكانت الأدلة تقدم عادة مكتوبة ، ولكن كان على الشاهد أن يحضر بنفسه ويقسم بأن ما يشهد به صحيح دقيق حين يتلو كاتب الجلسة أو الجراماتيوس

(*) اشتد شكا كريتو Crito أحد أصدقاء سقراط الأغنياء من أن الذى يرغب فى أن يعيش عيشة هادئة مسالمة فى أثينة يلقى فى ذلك عناء كبيراً ، ويقول : « يوجد فى هذا الوقت بالذات أناس يرفعون قضايا على ، وليس ذلك لأنى ظلمتهم ، بل لأنهم يظنون أنى أفضل أداء مبلغ من المال لهم عن تحمل عناء الإجراءات القانونية »(٤٥) .

grammateus شهادته على القضاة : ولم يكن الشهود يناقشون ، وكانت شهادات الزور كثيرة إلى حد يجعل المحكمة فى بعض الأحيان تقضى بما يناقض الشهادة التى أقسم الشاهد على صدقها . ولم تكن شهادة النساء والقاصرين تقبل إلا فى قضايا القتل ، أما الأرقاء فلم تكن تقبل شهادتهم إلا إذا انتزعت منهم بالتعذيب ، فقد كان من المسلم به عند الأثينيين أنهم سيكذبون إذا نجوا من التعذيب : وتلك وصمة فى جبين الشرائع اليونانية ووحشية شاءت الأقدار أن تزداد قسوة فى السجون الرومانية ، وفى حجرات محاكم التفتيش ، ولعلها لا تقل عما يحدث فى الحجرات السرية التابعة لمحاكم الشرطة فى وقتنا الحاضر؛ وكان تعذيب المواطنين محرماً فى عصر بركليز ، وكان كثيرون من ملاك الرقيق لا يسمحون أن يستخدم أرقاؤهم شهوداً فى القضايا ولو كانت قضاياهم هم أنفسهم ، وكان الحكم فيها لمصلحتهم موقوفاً على أداء شهادتهم . وكانوا يلزمون من يتسبب فى إحداث عاهة مستديمة لأحد الأرقاء بتعويضه عنهـا[٤٦] .

وكانت العقوبات المقررة هى الضرب ، والغرامة ، والحرمان من الحقوق السياسية ، والكى بالنار ، ومصادرة الأموال ، والنفى ، والإعدام ، وقلما كان المذنبون يعاقبون بالسجن، وكان من المبادئ المقررة فى القانون اليونانى أن يعاقب العبد فى جسمه ، وأن يعاقب الحر فى ماله . ونرى فى رسم على إحدى المزهريات عبداً معلقاً من ذراعيه وساقيه يضرب بالسياط ضرباً خالياً من الرحمة[٤٧] . وكانت الغرامات هى العقوبة التى تفرض عادة على المواطنين . وكانت تقدر بدرجات تعرض الدمقراطية الأثينية لأن تتهم بأنها كانت تملأ خزائنها بالمال عن طريق الأحكام الظالمة . على أنه كان يسمح فى كثير من الحالات للمحكوم عليه هو وصاحب الحق أن يقدرا بأنفسهما الغرامة أو العقوبة اللتين يريان أنهما عادلتان، ثم تختار المحكمة إحدى العقوبتين المقترحتين ؛ وكان القتل ، وانتهاك حرمة المعابد ، وخيانة الوطن ، وبعض الجرائم التى تبدو فى نظرنا جرائم صغيرة ،

يعاقب عليها بمصادرة الأموال والإعدام معاً ؛ ولكن كان من المستطاع عادة تجنب الحكم بالإعدام قبل صدوره ، بالنفى الاختيارى وترك الأملاك. وإذا رأى المتهم أن الهرب يزرى به ، وكان مواطناً ، نفذ فيه الإعدام بأقل الوسائل إيلاما له ، وذلك بأن يقدم له عصير الشوكران ، وهو العقار الذى يخدر الجسم تدريجا ابتداء من القدمين إلى أعلى أجزاء الجسم ، ثم يقضى على من يتعاطاه حين يصل إلى قلبه . أما الأرقاء فقد كانت عقوبة الإعدام تنفذ فيهم أحيانا بالضرب الوحشى[٤٨] . وكان يحدث أحياناً أن يلقى المحكوم عليه قبل إعدامه أو بعده من فوق صخرة عالية إلى حفرة تعرف عندهم باسم البرثرون barathron . وإذا ما صدر الحكم بإعدام قاتل نفذ بحضور أقارب المقتول استجابة لعادة الانتقام القديمة فى مظهرها وروحها .

ولم تبلغ الشرائع الأثينية ما كنا نتوقعه لها من الاستنارة ، وهى لا تسمو كثيراً عن شرائع حمورابى ؛ وعيبها الأساسى أنها تقصر الحقوق القانونية على الأحرار الذين لا يكادون يتجاوزون سبع السكان ، وحتّى النساء والأطفال كانوا خارجين عن نطاق المواطنين أصحاب الحقوق . ولم يكن فى وسع النزلاء ، أو الأجانب ، أو الأرقاء أن يرفعوا الدعاوى إلى المحاكم إلا عن طريق مواطن يأخذهم فى كنفه . وكان ابتزاز المال بطريق الإرهاب ، وتعذيب العبيد المتكرر ، والحكم بالإعدام فى كثير من الجرائم الصغرى ، والشتائم الشخصية فى المناقشات القضائية ، وتشتت التبعة القضائية وإضعافها بسبب هذا التشتت ، وتأثر المحلفين بالبلاغة الخطابية ، وعجزهم عن الحد من انفعال الساعة بعلمهم بماضى القضية وتقديرهم الحكيم لنتائجها المقبلة ، كان هذا كله وصمة لنظام أثينة القضائى ، الذى كانت تحسدها عليه سائر بلاد اليونان للينه وعدالته إذا قيس إلى غيره من النظم القضائية ، والذى كان نظاماً عمليا موثوقا به إلى حد أمكنه أن يبسط حمايته على الحياة وعلى الأملاك ، وهى الحماية التى لا غنى عنها للنشاط الاقتصادى والرقى الأخلاق . وفى وسعنا أن نقــدر ما كان للقانون الأثينى من شأن عظيم إذا عرفنا

ما كان يشعر به كل أثيني تقريباً من احترام عظيم له ، فقد كان القانون في اعتقاده هو روح المدينة ، ومصدر سعادتها وقوتها . وخير ما نحكم به على شرائع أثينة هو تهافت غيرها من دول اليونان على استعارة الجزء الأكبر منها ، وفي ذلك يقول إيسقراط Iscorates : « ليس ثمة من ينكر أن شرائعنا مصدر كثير من الخير العظيم في حياة البشرية »(٤٩) . ففي أثينة نجد للمرة الأولى في التاريخ حكم القوانين لا حكم الناس .

وقد ظل القانون الأثيني منتشراً في جميع أنحاء الإمبراطورية الأثينية التي يبلغ عامرها مليونين من الأنفس ما دامت هذه الإمبراطورية قائمة ، أما في خارج دائرة هذه الإمبراطورية فلم يكن لبلاد اليونان نظام قضائي واحد تخضع بأله جمعها . وإن الصورة التي تنطبع في أذهاننا عن القانون الدولي في أثينة القرن الخامس لتبلغ من الضعف ما تبلغه صورة هذا القانون في عالم هذه الأيام . لكن التجارة الخارجية تتطلب بعض الأنظمة القانونية . ويقول دمستين إن المعاهدات التجارية قد بلغت في أيامه درجة من الكثرة أصبحت معها القوانين التي تخضع لها المنازعات التجارية « واحدة في كل مكان »(٥٠) ؛ وكانت هذه المعاهدات تنص على التمثيل القنصلي ، وتضمن تنفيذ العقود ، وتجعل الأحكام الصادرة في إحدى الدول الموقعة على المعاهدة في سائر الدول الموقعة عليها(٥١) . على أن هذا لم يقض على القرصنة ، فقد كانت تنتشر إذا ما ضعف الأسطول المسيطر على البحار ، أو تراخى في مراقبتها . ولقد كانت هذه اليقظة الخارجية الثمن الذي يشترى به الأهلون الأمن والنظام والحرية جميعاً ؛ وكانت الفوضى رابضة كالذئب حول كل دولة مستقرة ، تتربص بها ، وترقب ثغرة من الضعف تنفذ منها إليها . وكانت بعض الدول اليونانية ترى أن من حق المدينة أن توجه الحملات لتنهب أملاك غيرها من المدن وأهليها ، إذا لم تكن ثمة معاهدة تنص صراحة عن تحريم هذه الحملات(٥٢) ؛ وقد أفلح الدين في تحريم الاعتداء على الهياكل ما لم تتخذ قواعد حربية ، وفي

لحماية الوفود والحجاج الذاهبين إلى مشاهدة الأعياد اليونانية الجامعة ، وفى فرض صدور إعلان رسمى بالحرب قبل بدء القتال ، وفى قبول المدنة إذا طلبها أحد الطرفين المتقاتلين لإعادة من يقتلون فى المعارك إلى بلادهم ودفنهم . وكانت الأسلحة المسمومة لا تستعمل بحكم العادة المألوفة ، وكان الأسرى عادة يتبادلون أو يفتدون ، وكان الفداء المعترف به ميناءين — ثم أصبح ميناء واحدة (نحو مائة ريال أمريكى) — لكل أسير[٥٣] . وكانت المعاهدات كثيرة العدد ، وكان المتعاهدون يقسمون الأيمان المغلظة على احترام نصوصها ، ولكنها كانت تخرق على الدوام تقريباً . وكانت المحالفات كثيرة ، وكانت تؤدى أحياناً إلى إيجــاد أحلاف دائمة كحلف دلفى الاثنى عشرى (الأمفكتيونى) فى القرن السادس وكالحلفين الآخى والإيتولى فى القرن الثالث . وكانت مدينتان فى بعض الأحيان تجامل كلتاهما الأخرى بأن تمنح أحرار أختها حقوق المواطنين فيها . وكان التحكيم الدولى يحدث أحياناً ، ولكن كان فى وسع الطرفين المحتكمين أن يرفضا نتيجته أو يتجاهلاها . ولم يكن اليونانى يشعر بأى التزام أدبى نحو الأجانب أو بأى التزام قانونى إلا إذا كان بلداهما مرتبطين بمعاهدة ، وكان هؤلاء فى عرفه برابرة (brrbaroi)(*) . ولم يكن اليونان يقصدون بذلك أنهم « همج » barbarian, بالمعنى الذى نفهمه نحن من هذا اللفظ بالضبط ، بل كانوا يفهمون منه « الأجانب » — أو الغرباء الذين يتكلمون لغة غريبة غير مألوفة . ولم ترق بلاد اليونان الرقى الذى تدرك به وجود قانون أخلاقى يشمل الجنس البشرى بأكمله إلا على يد الفلاسفة الرواقيين فى العصر الذى اصطبغت فيه بلاد الشرق الأدنى بالصبغة اليونانية العالمية .

(*) هذه الكلمة وثيقة الصلة بكلمة بربرة barbara السنسكريتية وكلمة بلبوس balbus اللاتينية ، وكلتاهما تعنى التمتمة أو التلعثم فى النطق . قارن أيضاً لفظ babble الإنجليزى . وكان اليونان يفهمون من لفظ بربروس barbaros غرابة الحديث أكثر مما يفهمون منه نقص الحضارة ، ويستعملون لفظ بربرزموس barbarismos فى المعنى الذى نستعمل فيه نحن تقليداً لهم لفظ barbarism أى تشويه الأجنبى أو نصف الأجنبى للمصطلحات اللغوية عند إحدى الأمم .

٤ ـ النظام الإدارى

حلت القرعة منذ عام ٤٨٧ أو قبله محل الانتخاب فى اختيار الأركونين ، ذلك أنه كان لا بد من إيجاد طريقة ما لمنع الأغنياء من أن يجدوا سبيلهم إلى هذا المنصب بالمال ؛ ومنع السفلة أن يصلوا إليه بالملق والدهان . وأرادوا مع هذا ألا يجعلوا الاختيار وليد المصادفة المحضة ، فكانوا يفرضون على جميع من تقع عليهم القرعة أن يجتازوا قبل القيام بواجباتهم اختباراً صارماً فى الأخلاق (Dokimasia) أمام المجلس أو المحاكم . فكان على الطالب أن يثبت أنه من أبوين أثينيين ، وأنه سليم من العيوب الجسمية والخلقية ، يكرم أسلافه ويقوم بواجباته العسكرية ، ويؤدى الضرائب كاملة . وكانت حياته كلها فى هذه المناسبة عرضة للاتهام من أى مواطن . وما من شك فى أن التعرض لهذين الفحص والاتهام كان يرهب أدنياء الناس غير الجديرين بهذا المنصب . فإذا اجتاز الأركون هذا الاختبار كان عليه أن يقسم بأنه سيضطلع بأعباء منصبه على خير وجه ، وبأنه سيقدم للآلهة تمثالا من الذهب بالحجم الطبيعى إذا قبل هدية أو رشوة[٥٤] من أحد . على أن ما كان للمصادفة من أثر كبير فى اختيار الأركونين التسعة ليدل على ما آل إليه هذا المنصب من الصغار بعد أيام صولون ، فقد أصبحت اختصاصاته فى الوقت الذى نتحدث عنه لا تعدو العمل الإدارى الرتيب ، ولم يكن الأركون باسليوس الذى يحمل لقب الملك من غير أن يؤدى عمله أكثر من كبير الموظفين الدينيين فى المدينة . وكان على الأركون أن يحصل على اقتراع بالثقة من الجمعية ، وكان فى وسع أى إنسان أن يعرض أعماله ويستأنف أحكامه إلى البول أو الهيلية ؛ وكان فى مقدور أى مواطن أن يتهمه بسوء استخدام سلطته ، وإذا انتهت مدة توليه منصبه بحثت أعماله الرسمية ، وحساباته ، ووثائقه ، لجنة من المحاسبين مسئولة أمام المجلس ، وكان معرضاً لأشد العقاب ، الذى كان يصل

أحياناً إلى الإعدام ، إذا تبين أنه أساء العمل أيام توليه منصبه . أما إذا نجا من هذا الإرهاب الدمقراطى فإنه يصبح بعد انتهاء العام الذى تولى فيه منصبه عضوا فى الأريوبجوس ، ولكن هذه العضوية أضحت فى القرن الخامس منصباً فخرياً عديم القيمة لأن هذه الهيئة فقدت وقتئذ كل ما كان لها من سلطان .

ولم يكن الأركونون إلا هيئة من هيئات كثيرة تشترك كلها فى تصريف شئون المدينة الإدارية تحت إشراف الجمعية والمجلس والمحاكم . ويذكر أرسطاليس خمسا وعشرين من هذه الهيئات المختلفة ، ويقدر عدد الموظفين الإداريين فى المدينة بسبعمائة موظف. وكان هؤلاء كلهم تقريباً يختارون كل عام بطريق القرعة ، ولم يكن فى وسع أى إنسان أن يكون عضوا فى لجنة بعينها أكثر من مرة واحدة ، ولذلك كان كل مواطن يأمل أن يشغل منصباً كبيراً فى المدينة عاماً على الأقل فى أثناء حياته ؛ ذلك أن أثينة لم تكن تؤمن بطريقة الحكم على أيدى الخبراء الإخصائيين .

وكانت المناصب العسكرية أكثر أهمية فى نظرهم من المناصب المدنية ، ولذلك لم يكن القواد Strategoi العشرة يختارون بالقرعة بل كانوا ينتخبون انتخاباً علنياً فى الجمعية ، وإن كانوا هم أيضاً لا يبقون فى مناصبهم أكثر من عام واحد وإن كانوا عرضة لأن يفحص عن أعمالهم وأن يعزلوا من مناصبهم فى أى وقت من الأوقات. وكانت الكفاية لا حب الشعب هى السبيل إلى التقدم والرقى فى هذه المناصب. وقد برهنت الإكلزيا فى القرن الرابع على حسن إدراكها للأمور باختيارها فوشيون Phocion قائداً خمسا وأربعين مرة ، على الرغم من أنه كان أبغض الناس للجمهور الأثينى ، وأنه لم يكن يخفى احتقاره للجماهير . وزادت مهام القواد بازدياد العلاقات الدولية ، حتى أصبحوا فى أوائل القرن الخامس لا يشرفون على شئون الجيش والأسطول فحسب ، بل صاروا هم الذين يفاوضون الدول الأجنبية ويشرفون على إيرادات المدينة ونفقاتها . ومن أجل هذا كان

القائد الأعلى المعروف باسم الاسترتجوس أوتوكراتور Strategos Autokrator أقوى رجال الحكومة ؛ وإذ كان من المستطاع انتخابه لهذا المنصب أعواماً متتالية ، فقد كان فى وسعه أن يخلع على سياسة الدولة استمراراً فى الأهداف لم يكن دستورها ليمكنها منه لولا هذا المنصب الدائم . وبفضله استطاع بركليز أن يجعل أثينة مدى جيل كامل ملكية دمقراطية ، حتى استطاع توكيديس أن يقول عن السياسة الأثينية إنها دمقراطية بالاسم ولكنها حكومة يسيطر عليها أعظم مواطن فى المدينة .

وكانت الخدمة فى الجيش ملازمة لحق الانتخاب ، فقد كان على كل مواطن أن يعمل فى الجيش ، وكان معرضاً حتى يبلغ الستين من عمره لأن يجند للقتال فى أية حرب تستعر نارها . ولكن الحياة الأثينية لم تكن حياة عسكرية ، فلم يكن هناك تدريب عسكرى يستحق الذكر بعد الفترة الأولى التى يقضيها الشاب فى هذا التدريب ، ولم يكن فيها اختيال بالحلل الرسمية أو تدخل من قبل الجند فى أعمال السكان المدنيين . وكان الجيش فى الميدان يتألف من فرق المشاة الخفيفة ، وكانت كثرتهم من المواطنين الفقراء يحملون الرماح والمقاليع ، وفرق المشاة الثقيلة أو الهبليت ، وتتألف من المواطنين الأغنياء الذين تمكنهم مواردهم من شراء الدروع والتروس والحراب ؛ ومن فرق الفرسان وتتألف من كبار الأغنياء ذوى الدروع والخوذ ، حملة الرماح والسيوف . وكان اليونان يفوقون الأسيويين فى النظام العسكرى ، ولعل ما أحرزوه من انتصارات عسكرية مجيدة يرجع إلى أنهم جمعوا إلى الطاعة فى الميدان محافظتهم الشديدة على استقلالهم فى الشئون المدنية . غير أنه لم يكن عندهم مثل إپامينانداس وفليب ما تستطيع أن تسميه علم حرب ، أو معرفة بفنونها وحركاتها العسكرية . وكانت مدنهم مسورة فى العادة ، وكان الدفاع عند اليونان — كما هو عندنا اليوم — أعظم أثراً من الهجوم ؛ ولولا هذا لما كانت للإنسان حضارة يستطيع تسجيلها . وكانت الجيوش المحاصرة تأتى بكتل خشبية ضخمة معلقة بسلاسل ، يشدون بها الكتل إلى الوراء ثم يدفعونها نحو

السور ، وهذا هو كل ما حدث من التطور فى آلات الحصار قبل عصر أرخميدس . أما الأسطول فكانت طريقة الاحتفاظ به أن يختار فى كل عام أربعمائة من الأغنياء امتيازهم الخاص أن يجندوا بحارة السفن ، ويهيئوا السفينة ذات الثلاثة الصفوف من المجاديف بما يلزمها من أدوات تقدمها لهم الدولة ، على أن يؤدوا هم نفقات بنائها وإنزالها فى البحر والمحافظة عليها من العطب. وبهذه الطريقة كانت أثينة تحتفظ وقت السلم بأسطول مؤلف من نحو ستين سفينة[٥٥].

وكانت نفقات الجيش والأسطول تستنفد الجزء الأكبر من مصروفات الدولة . وكانت مصادر الإيراد هي المكوس ، وعوائد المرافئ ، وضريبة مقدارها اثنان فى المائة على الواردات والصادرات ، وضريبة الفرضة ومقدارها اثنتا عشرة درخمة على كل فرد من الأجانب ، ونصف درخمة على كل معتوق ورقيق ، وضريبة العاهرات ، وضريبة البيوع ، والرخص ، والغرامات ، والأملاك المصادرة ، والجزية التى تؤديها الولايات . وقد ألغت الدمقراطية الضريبة التى كانت مفروضة من قبل على الحاصلات الزراعية والتى استمدت منها أثينة مواردها فى أيام بيسستراتس لأنها رأت أن هذه الضريبة تحط من كرامة الزراعة . وكانت جباية معظم الضرائب يناط بها الملتزمون يجمعونها لحساب الدولة ويحتفظون لأنفسهم بنصيب منها . وكانت الدولة تحصل على إيراد كبير من استغلال موارد البلاد المعدنية . وكانت فى أثناء الأزمات تجبى ضريبة على رؤوس الأموال تختلف نسبتها باختلاف الأملاك . وقد جمع الأثينيون بهذه الطريقة فى عام ٤٢٨ مثلا مائتى وزنة (تالنت) تبلغ قيمتها بنقود هذه الأيام مليون ريال أمريكى ومائتى ألف ريال لتسد بها نفقات حصار متلينى . كذلك كان الأغنياء يدعون لأداء بعض الخدمات العامة Leiturgiai كتقديم ما يلزم من المعدات للسفراء الذاهبين فى مهام إلى خارج البلاد ، وإعداد بعض السفن للأسطول ، أو أداء نفقات المسرحيات ، أو المباريات الموسيقية ، والألعاب ، وكان بعض الأغنياء يتطوعون لأداء هذه

« الخدمات » ، ويلزم الرأى العام غيرهم بأدائها . وكان مما يضاعف متاعب الأغنياء أن كان فى وسع أى مواطن يطلب إليه أداء إحدى هذه الخدمات العامة أن يفرضها هو نفسه على أى مواطن آخر أو أن يستبدل بها فريضته إذا أثبت أن هذا المواطن الآخر أغنى منه . وكان الحزب الدمقراطى كلما قوى سلطانه يجد مناسبات وأسباباً مطردة الزيادة لاستخدام هذه الوسيلة ؛ وكان الماليون ، والتجار ، والصناع ، وملاك الأراضى فى أتكا نظير هذا جادين فى البحث عن أحسن الطرق لإخفاء ثروتهم والوقوف فى وجه الجباة ، وتدبير الثورات .

وقد بلغت إيرادات أثينة فى أيام بركليز نحو أربعمائة وزنة (٢ر٤٠٠ر٠٠٠ ريال أمريكى) فى العام لا تدخل فيها هذه الهدايا والفرائض ، ويضاف إليها سمائة وزنة ترد من البلاد الخاضعة لها ومن أحلافها . وكان هذا الإيراد ينفق من غير أن توضع له ميزانية توزع بنوده وتخصصها لأبواب النفقات المختلفة . وقد زاد المتجمع فى خزانة الدولة من الفرق بين الإيرادات والنفقات فى أيام بركليز ، وبفضل إدارته الاقتصادية الحكيمة ، وبالرغم من نفقات الدولة الكثيرة التى لم يسبق لها مثيل ، زاد هذا المتجمع زيادة مطردة حتى بلغ فى عام ٤٤٠ ق . م ٩٧٠٠ وزنة (نحو ٥٨ر٢٠٠ر٠٠٠ ريال أمريكى) وهو احتياطى يعد ضخماً فى أية مدينة فى أى عصر من العصور ، كما يعد وجوده فى بلاد اليونان نفسها أمراً عجيباً لأنا لا نكاد نجد فيها ولا نجد فى البلوبونيز كلها مدينة أخرى تزيد فيها إيراداتها على نفقاتها[٥٦] .

وكانت المدن القليلة التى يتجمع فيها هذا الاحتياطى تودعه عادة فى هيكل إله المدينة ، فكانت أثينة بعد عام ٤٣٤ تودعه فى البارثنون . وكان للدولة حق الانتفاع بهذا الاحتياطى وبذهب التماثيل التى تقيمها لإلهها . وقد بلغ مقدار هذا الذهب فى تمثال أثينة برثنوس أربعين وزنة (٤٢٠ر٠٠٠ ريال أمريكى) ؛ وقد وضع فى التمثال بحيث يستطاع إزالته

عنه[٥٧] . وكانت المدينة تحتفظ فى الهيكل أيضاً بالمال الذى تؤديه للمواطنين ليشاهدوا به المسرحيات والألعاب المقدسة .

تلك هى الدمقراطية الأثينية — أضيق الدمقراطيات وأكملها فى التاريخ . لقد كانت أضيقها لقلة عدد من يشتركون فى امتيازاتها ، وأكملها لأنها تتيح لجميع المواطنين على قدم المساواة فرصة السيطرة بأنفسهم على التشريع وتصريف الشئون الإدارية . وتتكشف عيوب هذا النظام واضحة على مر الأيام ، بل إن الناس قد أخذوا يتحدثون بها فى أيام أرسطوفان . وكان من أظهر هذه العيوب التى كفرت عنها أثينة بخضوعها لاسپارطة ، وفيليپ ، والإسكندر ، ورومة ، أن قامت فيها جمعية لا تسأل عما تفعل ، تدفعها عواطفها ، فتقرر أمرا ما فى أحد الأيام ، لا يعوقها عائق من سابقة أو مراجعة ، ثم تعود فى اليوم الثانى فتندم أشد الندم على ما فعلت ؛ وهى بندمها هذا لا تعاقب نفسها بل تعاقب من أضلوها ؛ ومنها قصر السلطة التشريعية على الذين يستطيعون حضور الإكليزيا ، وتشجيع الزعماء المهرجين ، ونفى القادرين من الرجال نفياً أفقد المدينة عدداً كبيراً من خيرة كبرائها ، وملء المناصب العامة بالقرعة والدور ، وتغيير الموظفين فى كل عام ، وإشاعة الفوضى فى الأداة الحكومية ، ومنها نزاع الأحزاب الذى لم ينفك يحدث الارتباك فى توجيه أعمال الدولة وشئونها الإدارية .

ولكن ما من حكومة إلا وهى ناقصة ، منهكة ، مقضى عليها آخر الأمر . وليس لدينا من الأسباب ما يحملنا على الاعتقاد بأن الملكية أو الأرستقراطية كانت تستطيع أن تحكم أثينة خيراً من حكومتها هذه ، أو أن تحفظ عليها حياتها أطول مما حفظتها الدمقراطية ؛ ولعل هذه الدمقراطية المختلة النظام ، دون غيرها من أنواع الحكم ، هى التى استطاعت أن تطلق تلك الطاقة التى رفعت أثينة إلى أسمى مقام بلغته أمة أخرى فى التاريخ . ذلك أن الحياة السياسية ، داخل نطاق المواطنية ، لم تبلغ قبل ذلك العهد أو بعده ،

ما بلغته فيه من القوة والابتكار . وأقل ما يقال فى هذه الدمقراطية الفاسدة العاجزة أنها كانت مدرسة : لقد كان المقترع فى الجمعية يستمع إلى أقدر الرجال فى أثينة ، وكان ذهن القاضى فى المحكمة يشحذ باطلاعه على الأدلة ووزنها واستخراج ثمينها من غثها ، وكان الموظف يصوغه ويشكله ما يلقى عليه من تبعة وما يكسبه من تجارب ، فينضج عقله وفهمه وقدرته على الحكم . وفى هذا يقول سمنيدس « إن المدينة معلمة الرجال »[٥٨] . ولعل هذه الأسباب هى التى جعلت أثينة تقدر رجالا من طراز إسكلس ، ويوربيديز ، وسقراط ، وأفلاطون . لقد كان تقديرها لرجل من هذا الطراز هو الذى أوجدهم فيها ؛ وفى الجمعية ودور القضاء تكوّن نظارة دور التمثيل ، وكانت هذه الدور على استعداد لاستقبال خير هؤلاء النظارة . ولم تكن هذه الدمقراطية الأرستقراطية نظاما يفسح الطريق لكل إنسان ليفعل ما يحلو له كما أنها لم تكن رقيباً عتيداً على الأملاك والنظام فحسب ، بل كانت تشجع بالمال المسرحيات اليونانية وتشيد البارثنون ، وتعمل لرفاهية الشعب وتقدمه ، وتهيئ له الفرص التى لا تمكنه « من أن يعيش فحسب ، بل تمكنه من أن يعيش على خير وجه » . ومن أجل هذا فإن التاريخ لا يجد حرجا من أن يصفح عن جميع خطاياها .

الباب الثاني عشر

العمل والثروة في أثينـــة

الفصل الأول

الأرض والطعام

كان الأساس الذى يقوم عليه صرح هذه الدمقراطية وهذه الثقافة هو إنتاج الطعام والثروة وتوزيعهما بين الناس . ذلك أن من يقومون من الناس بحكم الدول ، والبحث عن الحقيقة ، وتأليف الألحان الموسيقية ، ونحت التماثيل ، وإبداع الصور ، وتأليف الكتب ، وتعليم الأطفال ، وخدمة الآلهة ، إنما يستطيعون هذا لأن غيرهم يكدحون لإنتاج الطعام ، ونسج الثياب ، وبناء المساكن ، واستخراج المعادن ، وصنع الأدوات النافعة ، ونقل البضائع ، واستبدال غيرها بها ، أو تقديم الأموال اللازمة لإنتاجها أو نقلها . هذا هو أساس الدمقراطية والثقافة فى كل مكان .

وعماد المجتمع هو الفلاح أفقر الناس فيه وألزمهم له . ولقد كان الفلاح فى أتكا يستمتع على الأقل بحقوقه السياسية ، ذلك أن المواطنين وحدهم هم الذين كانوا يحق لهم أن يمتلكوا الأرض وكان الفلاحون جميعهم تقريباً يمتلكون الأرض التى يفلحونها ؛ وكان نظام امتلاك العشيرة كلها للأرض قد اختفى ، واستقر نظام الملكية الفردية وتوطدت أركانه . وكانت هذه الطبقة من صغار الملاك فى أتكا ، كما هى الآن فى فرنسا وأمريكا ، قوة محافظة تعمل على الاستقرار

فى الدمقراطية ، على حين أن سكان المدن الذين لا ملك لهم كانوا يدفعون الدولة على الدوام نحو الإصلاح والتغيير . وكانت نار الحرب القديمة العهد بين الريف والمدينة — بين الذين يريدون أثماناً عالية للغلات الزراعية وأثماناً منخفضة للسلع المصنوعة ، وبين الذين يطلبون أثماناً منخفضة للسلع المصنوعة وأجورا عالية أو أرباحاً كبيرة فى مجال الصناعة — كانت نار هذه الحرب شديدة الاستعار فى أتكا بنوع خاص . وبينا كانت الصناعة والتجارة تعدان من أعمال العامة التى تزرى بصاحبها فى نظر المواطن الأثينى ، كانت الأعمال الزراعية فى اعتقاده مشرفة للمشتغل بها لأنها أساس الاقتصاد القومى ، والخلق الشخصى القويم وقوة البلاد الحربية ؛ وكان أهل الريف ينزعون إلى احتقار سكان المدن ويرون أنهم إما طفيليون مستضعفون أو عبيد أدنياء(١) .

وتربة أتكا غير خصيبة : فثلث مساحتها البالغ قدرها ٦٣٠٫٠٠٠ فدان إنجليزى غير صالح للزراعة ، والثلثان الباقيان قد أفقر تربتهما تقطيع الغابات ، وانحباس الأمطار ، وسرعة اكتساح فيضانات الشتاء للطبقة الخصبة السطحية . ولم يكن الفلاحون فى أتكا يدخرون جهداً — يبذلونه هم أو أرقاؤهم — للتغلب على هذا الحظ النكد ، فكانوا يدخرون ما زاد من الماء على حاجتهم فى خزانات ويقيمون الجسور حول المجارى المائية للسيطرة على فيضانها ، ويجففون المستنقعات ويستصلحون أرضها الطيبة ، ويحفرون الآلاف من قنوات الرى لتحمل إلى حقولهم الظمآى قطرات الماء من النهيرات ، ولا يملون من نقل النبات من بيئة إلى بيئة ليحسنوا نوعه ويزيدوا حجمه ، ويتركون الأرض بورا مرة كل سنتين لتستعيد قدرتها على الإنتاج ، ويجعلون التربة قلوية بإضافة بعض الأملاح إليها مثل كربونات الجير ، ويسمدونها بنترات البوتاسيوم ، والرماد ، وفضلات الآدميين(٢) . وكانت الحدائق والغياض المحيطة بأثينة تستفيد أكبر الفائدة من مجارى المدينة التى كانت

تصب كلها فى مجرى كبير متصل بخزان عام خارج دپليون Dipylon ، ثم ينتقل ماؤها من هذا الخزان فى قناة مبنية بالآجر إلى وادى نهر سفسوس Cephisus[٣] . وكانوا يخلطون أنواعاً مختلفة من التربة بعضها ببعض ليفيد كل نوع منها من الآخر ، وكانوا يحرثون الأرض وبعض الخضر البقولية مزهرة فيها لكى تتغذى منها التربة ؛ وكانت الأعمال المتصلة بحرث الأرض وتمهيدها ، وبذر البذور أو غرس النبات ، تجرى كلها فى فترة الخريف القصيرة ، وكان موسم جنى الحبوب يحل فى شهر مايو ، وأما فصل الصيف الجاف فكان موسم الاستعداد والراحة . ومع هذه العناية كلها فإن أرض أتكا لم تكن تنتج إلا ٦٥٧ر٠٠٠ بشل من الحبوب فى كل عام لاتكاد تكفى ربع سكانها ؛ ولولا الطعام المستورد من الخارج لهلكت أثينة پركليز جوعاً ؛ وكان هذا هو الذى دفعها إلى الاستعمار وأوجب عليها أن تنشئ لها أسطولا قوياً تسيطر به على البحار .

وحاول الريف أن يستعيض عن محصوله الضئيل من الحبوب بمحصول موفور من الزيتون والعنب . فدُرِّجت جوانب التلال وأجريت لها المياه ، وكانت الحُمُر تشجع على قرض أغصان الكروم بأنيابها لتزيد بذلك ثمارها[٤] . وكانت أشجار الزيتون تغطى كثيرا من الأراضى فى بلاد اليونان فى أيام پركليز ، ولكن الفضل فى نقل أشجار الزيتون إلى هذه البلاد يعود إلى پيسستراتس وصولون . ذلك أن شجرة الزيتون لا تؤتى أكلها إلا بعد ستة عشر عاماً من زرعها ، ولا يكتمل نموها إلا بعد أربعين ؛ ولولا ما أمد به پيسستراتس الزراع من إعانات لما نمت تلك الشجرة فى أرض أتكا . ولقد كان إتلاف بساتين الزيتون فى حرب البلوپونيز من الأسباب التى أدت إلى اضمحلال أثينة . والزيتون ذو فوائد كثيرة لليونانى ، فعصرته الأولى تمده بالزيت يأكله ، والثانية تمــده بالزيت يدهن به ، والثالثة تعطيه زيتاً يضىء به بيته ؛ وما بقى منه بعدئذ يتخذ وقودا[٥] . وكان الزيتون

أثمن غلات أتكا فى عصر بركليز ، وقد بلغ من عظم شأنه أن احتكرت الدولة تصديره ، وأن ابتاعت به وبالنبيذ ما كانت تضطر إلى استيراده من الحبوب :

وكانت تحرم تصدير التين تحريما باتا ، لأن التين من أهم مصادر القوة والنشاط لأهل البلاد . وشجرة التين تنمو وتترعرع حتى فى التربة الجدباء ، وجذورها الكثيرة الانتشار تمتص كل ما عساه أن يوجد فى التربة من ماء ، وأوراقها القليلة الصغيرة لا تعرضها للبخر الكثير . وفضلا عن هذا فإن زارع شجر التين قد تعلم من بلاد الشرق سر إنضاج ثماره بالتلقيح ؛ فكان يعلق أغصان شجرة التين البرية الذكر ، بين أغصان الشجرة الأنثى المنزرعة ، ويترك للحشرات نقل الطلع من الذكر إلى ثمار الأنثى فتزيد فى الحجم والحلاوة .

وكانت هذه الغلات الزراعية من الحبوب ، وزيت الزيتون ، والتين ، والعنب ، والنبيذ ، أهم المواد الغذائية فى أتكا . ولم تكن تربية الماشية موردا للطعام خليقا بالذكر ؛ وكانت الخيول تربى لتستخدم فى السباق ، والأغنام لتؤخذ منها الأصواف ، والمعز للبن ، والحمير ، والبغال ، والبقر ، والثيران للنقل ؛ أما الخنازير فكانت تربى بكثرة ليؤكل لحمها ؛ وكانوا يعنون بتربية النحل للانتفاع بعسله فى عالم خلو من السكر . وكان اللحم من مواد الترف ، لا يطعمه الفقراء إلا فى أيام الأعياد ، وقد اختفت فى العهد الذى نتحدث عنه مآدب الأبطال التى كانت تقام فى العصر الهومرى. أما السمك فكان طعاما عاديا ومتعة فى آن واحد ؛ كان الفقير يبتاعه مملحا ومجففا ، والغنى يستمتع بلحم « القرش » « وثعبان البحر » طازجا[٦] . وكانت الحبوب تطعم سليقة ، وخبزا ، وكعكا ، وكثيرا ما كانت تخلط بعسل النحل . وقلما كان الخبز والكعك يسويان فى المنزل ؛ بل كان كلاهما يشترى من بائعات جائلات أو من حوانيت صغيرة ، وكانوا يضيفون إليهما البيض ، والخضر — وخاصة الفاصوليا ، والبسلة ، والكرنب ، والعدس .

والخس ، والبصل ، والثوم . وكانت الفاكهة قليلة ؛ ولم يكن البرتقال والليمون من الفاكهة المعروفة . وكان النُّقل من الأصناف المعروفة والتوابل كثيرة الانتشار ، وكان الملح يجمع من ملاحات البحر ويشترى به العبيد من داخل البلاد ؛ وكانوا يصفون العبد الرخيص بأنه « مملح » والعبد الطيب بأنه « جدير بملحه » . وكان كل شيء تقريبا يطهى ويجهز بنار زيت الزيتون وهو بديل ممتاز للبترول . وإذا كان من الصعب الاحتفاظ بالزبد طويلا فى بلاد البحر الأبيض المتوسط فإن زيت الزيتون كان يستخدم بدلا منه . وكان يتفكه بعد الأكل بالعسل ، والحلوى والجبن . وبلغ من حبهم للكعك المحشو بالجبن أن دبجوا كثيرا من الوسائل القيمة فى وصف هذا الفن الحنى[٧] . وكان الماء شرابهم العادى ، ولكن ما من دار كانت تخلو من النبيذ ، لأنه ما من مدينة أطاقت الحياة من غير المخدرات أو المنبهات . وكانوا يحتفظون فى الأرض بالثلج والجليد الطبيعيين ليبردوا بهما النبيذ فى أشهر القيظ[٨] ؛ وكانوا يعرفون الجعة فى عصر بركليز ولكنهم كانوا يحتقرونها . واليونانى بوجه عام مقتصد فى طعامه يقتنع بوجبتين فى اليوم ، ويقول أبقراط : « ومع هذا فثمة كثيرون يستطيعون أن يطيقوا ثلاث وجبات كاملة فى اليوم إذا تعودوا هذا[٩] » .

الفصل الثانى

الصـــناعة

كانت أرض أتكا تنتج المعادن والوقود كما تنتج الطعام ، وكان الأهلون يضيئون بيوتهم بمصابيح جميلة المنظر ، ومشاعل يستخدمون فيها زيت الزيتون المكرر أو الراتينج — أو بالشموع . وكانوا يدفئون بالخشب الجاف أو الفحم الخشبي ، يحرقونه فى مواقد متنقلة . وقد عريت الغابات والتلال القريبة من المدن لكثرة ما قطع من أشجارها للوقود والبناء ، حتى أضحت البلاد فى القرن الخامس قبل الميلاد تستورد الخشب الذى تحتاجه لبناء البيوت والسفن وصنع الأثاث . أما الفحم الحجرى فلم يكن له وجود .

ولم يكن الغرض من التعدين فى بلاد اليونان الحصـــول على الوقود ، بل كان غرضه استخراج المعادن ، وكانت أرض أتكا غنية بالرخام ، والحديد ، والخارصين ، والفضة ، والرصاص . وكانت مناجم لوريوم القريبة من الطرف الجنوبى من شبه الجزيرة « فوارة تندفع منها الفضة لأثينة » كما يقول إسكلس . وكانت هـــذه المناجم أكبر ما تعتمد عليه الحكومة ، فكانت تحتفظ لنفسها بملكية كل ما تحت التربة ، وتؤجر المناجم إلى من يستغلها من الأفراد نظير أجر محدد قدره وزنة (تالنت أى ٦٠٠٠ ريال أمريكى) وجزء من أربعة وعشرين جزءاً من غلتها فى العام[11] . ولما اكتشفت أولى العروق المربحة فى لوريوم عام ٤٨٣ هرع الناس إلى إقليم المناجم لاستخراج الفضة . ولم يكن يسمح لغير المواطنين بأن يستأجروا تلك المناجم ، ولم يكن يقوم بالعمل فيها سوى العبيد . وكان نيشياس Nicias التقى ، الذى ساعد بخرافاته على خراب أثينة ، يكسب ما يعادل

مائة وسبعين ريالا أمريكياً فى اليوم الواحد بتأجير ألف عبد إلى مستغلى المناجم بما لا يزيد على أبولة واحدة (١٧/٦ من الريال الأمريكى) لكل منهم فى اليوم ؛ وما أكثر الثروات التى جمعها الأثينيون بهــذه الطريقة ، أو بإقراض الأموال اللازمة لهذا الاستغلال . وكان عدد العبيد فى المنجم يبلغ أحياناً عشرين ألفاً ، وكان منهم المشرفون عليهم والمهندسون . وكانوا يعملون فى نوبات تطول كل منها إلى عشر ساعات ، ولم يكن العمل ينقطع ليلا أو نهاراً ؛ فإذا ما تباطأ العبد أو استراح ألهب المشرف عليه ظهره بالسوط ، وإن حاول الهرب صفد بأغلال من حديد ، وإذا هرب وألقى القبض عليه كويت جبهته بالحديد المحمى[١٢] . ولم يكن عرض المنجم يزيد على قدمين ، ولم يكن ارتفاعه يتجاوز ثلاث أقدام ، وكان العبيد يعملون فيه بالمنقب أو الإزميل والمطرقة ، وهم جاثون على ركبهم ، أو منبطحون على بطونهم ، أو مستلقون على ظهورهم[١٣] . وكانت الخامات بعد تكسيرها تنقل فى سلال أو أكياس يتناولها رجل من رجل ؛ لأن الممرات لشدة ضيقها لا تسمح لاثنين أن يمر أحدهما بالآخر بسهولة . وكانت الأرباح التى تجنى من هذه المناجم غاية فى الضخامة . وحسبنا دليلا على هذا أن إتاوة الحكومة منها بلغت فى عام ٤٨٣ مائة وزنة (نحو ٦٠٠,٠٠٠ ريال أمريكى) — وهى ثروة رزقتها أثينة من حيث لاتحتسب واستطاعت أن تنشئ بها أسطولا تنقذ به بلاد اليونان كلها عند سلاميس . ولقد عاد هذا العمل بالخير والشر معاً حتى على غير العبيد ؛ فقد أصبحت خزانة أثينة بسببه تعتمد كل الاعتماد على المناجم ؛ فلما أن استولى الإسپارطيون على لوريوم فى حرب البلوپونيز ، اضطربت أحوال أثينة الاقتصادية من أولها إلى آخرها ، ولما نضب معين المناجم فى القرن الرابع كان نضوبها أحد العوامل الكثيرة فى اضمحلال أثينة ، وذلك لأن أرض أتكا ليس فيها معدن ثمين غير الفضة .

وصناعة التعدين تتقدم بتقدم استخراجها . فكانت الخامات المستخرجة من مناجم لوريوم تدق فى مهارس ضخمة بمدقات ثقيلة من الحديد يحركها العبيد ، ثم تنقل بعدئذ إلى مطاحن تطحنها بين حجرين دوارين شديدى الصلابة ، ثم تغربل ويؤخذ ما ينزل من ثقوب الغربال إلى حيث يغسل ، فيوضع على مناضد مائلة مستطيلة الشكل مصنوعة من الحجر ومغطاة بطبقة رفيعة ملساء من الأسمنت الصلب ويسلط عليه شؤبوب ماء من حوض . ويندفع تيار الماء ثم ينثنى بزوايا حادة عندها فجوات تلتقط جزيئات المعدن . ثم يؤخذ ما يتجمع منه فيها ويلقى فى أفران للصهر مجهزة بمنافيخ ترفع حرارتها . وفى قاع كل فرن فتحات ينزل منها المعدن المصهور . ويفصل الرصاص من الفضة برفع حرارة المعدن المصهور فوق بواتق مصنوعة من مادة مسامية وتعريضه بعد ذلك للهواء . وبهذه الطريقة السهلة يتحول الرصاص إلى أكسيد الرصاص وتخلص الفضة . وقد برع العمال فى عمليتى الصهر والتنقية ، كما تشهد بذلك العملة الفضية الأثينية ، فإن فضتها نقية إلى درجة ٩٨ فى المائة . ولقد أدت لوريوم ثمن ما أنتجته من الثروة ، لأن صناعة التعدين تجلب فى أعقابها أضراراً تذهب بكثير من أرباحها . فالنبات يموت والناس يهلكون بتأثير الدخان المنبعث من الأفران ، والأماكن المجاورة للمصانع تصبح قفراء جدباء يغطيها التراب والرماد[١٤] .

أما غير هذه الصناعة فلا يكلف من الجهد ما تكلفه ؛ وفى أتكا الآن كثير من هذه الصناعات غير المجهدة ، وهى وإن كانت صغيرة فى حجمها دقيقة شديدة التخصص فى نوعها ، فقد كانت تستخرج الرخام وغيره من الحجارة من محاجرها ، وتصنع آلافاً من أشكال الآنية الخزفية ، وكانت تدبغ الجلود فى مدابغ كبيرة كالتى يمتلكها كليون منافس بركليز وأنيتس الذى وجه التهمة إلى سقراط . وكان من أهلها فوق ذلك صانعو العربات ، وبناءو السفن وصانعو السروج وسائر عدد الخيل ،

والحذاءون ، وكان من صانعى السروج من لا يصنعون إلا الأعنة ومن الحذائين من اختصوا بصنع أحذية الرجال أو النساء[١٥] . وكان من المشتغلين بحرف البناء نجارون وصانعون للقوالب ، وقاطعون للأحجار ، ومشتغلون بالمعادن ، ومصورون ، وطالون للجدران والأخشاب . وكان فيها حدادون وصانعون للأسياف والدروع ، والمصابيح ، والقيثارات ، والطحانون ، والخبازون ، والوزامون ، والسماكون — وجملة القول أنها كانت تحتوى على كل ما تطلبه الحياة الاقتصادية الكثيرة العمل المتنوعة الأشكال ، غير الآلية أو المملة . وكانت المنسوجات العادية لا تزال حتى ذلك الوقت تنسج فى المنازل ، ففيها كان النساء ينسجن ، ويصلحن ثياب الأسرة وفراشها ، ومنهن من يمشطن الصوف أو يدرن عجلة الغزل ، ومنهن من يتعهدن الأنوال ومن ينحنين أمام إطار التطريز . أما المنسوجات الخاصة فكانت تشترى من المصانع أو تستورد من خارج البلاد — فالأقمشة التيلية الرقيقة كانت ترد من مصر ، وأمرجوس Amorgos ، وتارنتم ؛ والأقمشة الصوفية المصبوغة من سراقوصة ، والبطاطين ، من كورنثة ، والطنافس من الشرق الأدنى وقرطاجنة ، وأغطية الفراش الملونة من قبرص ؛ وتعلمت نساء كوس فى أواخر القرن الرابع حل شرانق دود القز وغزل خيوط الحرير[١٦] . وأتقنت النساء فى بعض المنازل فنون النسيج إتقاناً أمكنهن أن ينتجن أكثر من حاجة أسرهن ، فكن يبعن ما زاد على حاجتهن إلى المستهلكين فى بادئ الأمر ، ثم إلى الوسطاء ؛ وكن يستعن بمن يساعدهن من المعاتيق أو الأرقاء ، ونشأت على هذا النحو صناعة منزلية كانت هى الخطوة الأولى فى سبيل نظام المصانع .

بدأ هذا النظام يتشكل فى عصر بركليز ، وكان بركليز نفسه ، كما كان ألسبيديز ، يمتلك مصنعا[١٧] ، ولم تكن هناك آلات ، ولكن كان فى الاستطاعة الحصول على كثير من العبيد ؛ وكان رخص القوة العضلية سبباً فى انعدام الحافز

إلى صنع الآلات ؛ ولهذا كانت دور الصناعة فى أثينة « حوانيت صناعة » لا مصانع ، ولم يكن فى أكبرها ، وهو حانوت صنع الدروع الذى يمتلكه سفالوس Cephalus ، سوى مائة وعشرين عاملا ، وكان فى دار صنع الأحذية التى يمتلكها تمركوس Timarchus عشرة عمال ، وفى مصنع دمستين للأساس عشرون ؛ وفى مصنعه للعدد الحربية ثلاثون[١٨] . ولم تكن هذه الحوانيت فى بادئ الأمر تنتج إلا لمن يطلب الإنتاج ، ثم صارت فيما بعد تنتج للسوق ، ثم للتصدير فى آخر الأمر ؛ وكان حلول النقود محل المقايضة ، وانتشار هذه النقود انتشاراً واسعاً ، مما يسر عليها أعمالها . ولم تكن فى البلاد منظمات صناعية ، بل كان كل مصنع وحدة مستقلة بذاتها يمتلكها رجل أو رجلان ، وكان صاحبه يعمل فى كثير من الأحيان إلى جانب عبيده . ولم تكن لديهم علامات تجارية ، وكانت الحرف يأخذها الأبناء من الآباء ، أو يتعلمها الصبيان عن الرؤساء ؛ وكان القانون يعفى الأثينيين من رعاية آبائهم فى شيخوختهم إذا لم يعلمهم أولئك الآباء حرفة يشتغلون بها[١٩] . وكانت ساعات العمل كثيرة ، ولكنهم كانوا يعملون على مهل ، فكان صاحب المصنع وعماله يعملون من مطلع الفجر إلى ما بعد غروب الشمس ، مع إغفاءة قصيرة فى وقت الظهيرة صيفاً . ولم تكن هناك إجازات ولكنهم كانت لهم فى كل عام ستون عيداً ينقطعون فيها عن العمل .

الفصل الثالث

التجارة والمـــال

إذا أنتج الفرد ، أو الأسرة ، أو المدينة أكثر من حاجته أو حاجتها ، نشأت التجارة : وكانت أولى الصعاب التي واجهت أتكا أن وسائل النقل فيها كثيرة النفقة غير متيسرة ، وأن البحر شراك ليس من السهل على سفنها أن تفلت منه . وكانت أحسن طرقها البرية هي الطريق المقدسة الممتدة من أثينة إلى إليوسيس ؛ وإن لم تكن أكثر من طين ، وإن كانت أضيق من أن تتسع لمرور المركبات . أما القناطر فلم تكن أكثر من معابر غير مأمونة مقامة من حواجز من الطين كثيراً ما تجرفها الفيضانات . وكان حيوان الجر المألوف هو الثور وهو حيوان أوتي من الفلسفة أكثر مما يسمح له بأن يغني التاجر الذي يعتمد عليه في نقل متاجره . وكانت العربات هشة تتحطم على الدوام أو تتعطل عن السير في الوحل وكان أفضل منها لديه أن ينقل بضاعته على ظهور البغال ، لأنها أسرع من العربات قليلا ، ولأنها لا تشغل ما تشغله تلك العربات من الطريق . ولم يكن في بلاد اليونان نظام للبريد ؛ وحتى الحكومات نفسها لم يكن لها مثل هذا النظام ، بل كانت تقنع بالعدائين ؛ وكانت الرسائل الخاصة تنتظر إلى أن يتاح لها من ينقلها منهم . وكانت الأخبار الهامة ترســـل بالإشارات النارية يتلقفها تل من تل أو بالحمام الزاجل[٢٠] . وكانت في أماكن متفرقة من الطرق نزل ، ولكنها كانت مأوى محببة للصوص والحشرات ؛ وحتى الإله ديونيسس في إحدى مسرحيات أرسطوفان يسأل هرقل عن « بيوت الأكل ودور الضيافة التي هي أقل من غيرها بقا[٢١] » .

وكان النقل البحرى أقل كلفة من النقل البرى وبخاصة إذا اقتصر على أشهر الصيف الساكنة الريح ، وكان هذا النقل فى العادة مقصوراً على تلك الشهور . وكانت أجور السفر قليلة ، فكان فى وسع الأسرة أن تنتقل من بيريه إلى مصر وإلى البحر الأسود نظير درخمتين (أى ريالين أمريكيين[٢٢]) ، ولكن السفن لم تكن تعنى بنقل المسافرين لأنها صنعت قبل كل شىء لنقل البضائع أو لشن الحرب أو لهذا الغرض أو ذاك كما تقضى الضرورة . وكانت أهم القوى المحركة هى قوة الريح تملأ الشراع ، ولكن العبيد كانوا يسيرون السفن بالمجاديف إذا سكنت الريح أو هبت فى عكس اتجاه السفن . وكانت أصغر سفن البحار التجارية يسيرها ثلاثون مجدافاً ، ومنها ما كان له خمسون : وأنزل أهل كورنثة فى البحر منذ عام ٧٠٠ قبل الميلاد أول السفن ذات الثلاثة الصفوف من المجاديف يعمل بها مائتان من الرجال . وقبل أن يستهل القرن الخامس كانت هذه السفن بمقدمها الطويل السامق قد بلغ وزنها ٢٥٦ طناً ، وبلغت حمولتها سبعة آلاف بشل من الحبوب ، وأصبحت حديث جميع القاطنين على شواطئ البحر الأبيض المتوسط لأن سرعتها بلغت ثمانية أميال فى الساعة[٢٣] .

وكانت ثانى مشاكل التجارة هى العثور على واسطة للتبادل يثق الناس بها ، فقد كان لكل مدينة نظامها الخاص فى الموازين والمقاييس ، وعملتها التى لا تشاركها فيها مدينة أخرى . وكان على الإنسان عندما يصل إلى أحد التخوم التى تكاد تبلغ المائة عداً أن يبدل نقوده وأن يكون على حذر فى هذا التبديل لأن كل حكومة يونانية ، عدا حكومة أثينة ، كانت تسلب الأجانب عنها أموالهم بتخفيض قيمة نقدها[٢٤] . وفى ذلك يقول يونانى لم يشأ أن يُعرف اسمُه « كان التجار فى معظم المدن يضطرون أن ينقلوا على سفنهم بضائع وهم عائدون إلى مدنهم لأنهم لم يكن فى وسعهم أن يحصلوا على نقود ذات نفع

لهم فى أى مكان آخر[٢٥] » . وكانت بعض المدن تسك نقوداً من خليط من الذهب والفضة ، ويناقس بعضها بعضاً فى إنقاص ما فى هذا الخليط من الذهب . أما الحكومة الأثينية منذ أيام صولون فقد أخذت على نفسها تشجيع التجارة إلى أقصى حد بإيجاد عملة موثوق بها طبعت عليها بومة أثينة ؛ وكان قولهم : « يأخذ البوم إلى أثينة » هو المثل اليونانى المقابل لقول الإنجليز « يحمل الفحم إلى(*) نيوكاسل[٢٦] » وإذا كانت أثينة قد أبت خلال صروف الدهر أن تخفيض من قيمة درخماتها الفضية ، فقد كانت سائر بلاد البحر الأبيض المتوسط تقبل وهى راضية هذه « البومات » التى أخذت تحل شيئاً فشيئاً محل العملة المحلية فى جزائر بحر إيجه ، وكان الذهب فى هذه المرحلة لا يزال سلعة تجارية تباع بالوزن ، ولم يكن وسيلة يستعان بها على الاتجار : ولم تكن أثينة تسكه عملة إلا فى حالات الضرورة النادرة ، وكانت النسبة المعتادة بينه وبين الفضة كنسبة ١٤ إلى ١[٢٧] . وكانت أصغر النقود الأثينية تسك من النحاس ، وكانت ثمان قطع منها تكون أبولة — وهى عملة من الحديد أو البرنز سميت بهذا الاسم لمشابهتها للأظافر أو للسفود . وكانت ست أبولات تكون الدرخمة أى الحفنة ؛ والدرخمتان تكونان استاتر Statar والمائة درخمة تكون مينا Mina ، وستون مينا تكون وزنة Talent . وكانت الدرخمة فى النصف الأول من القرن الخامس يبتاع بها بشل Bushel من الحبوب كما يبتاع الريال الأمريكى فى القرن(**) العشرين[٢٨] . ولم يكن فى أثينة عملة ورقية ، ولا صكوك حكومية ، ولا شركات محاصة ، ولا مصفق للأسهم والسندات .

(*) والمقابل للمثل العربى القائل « كبائع التمر إلى هجر » . (المترجم)

(**) احتسبنا الأبولة فى هذا المجلد مساوية فى قوتها الشرائية لسبعة عشر جزءا من مائة جزء من ريال الولايات المتحدة فى عام ١٩٣٨ ، واحتسبنا قيمة الدرخمة ريالا وقيمة الوزنة ٦٠٠٠ ريال . وذلك كله تقريبى بطبيعة الحال لأن الأثمان كانت مطردة الارتفاع طوال التاريخ اليونانى . انظر الفصل الخامس من هذا الباب .

لكن أثينة كان فيها مصارف مالية لاقت صعاباً شديدة فى توطيد دعائمها لأن الذين لم تكن بهم حاجة إلى القروض يندون بالربا ويرونه جريمة(*) ، ويتفق معهم الفلاسفة فى هذا الحكم . وكان الأثينى العادى فى القرن الخامس ممن يكنزون المال ، فكان إذا ادخر شيئاً منه آثر أن يخبئه بدل أن يودعه فى المصارف . وكان بعض الناس يقرضون مدخراتهم نظير فائدة تتراوح بين ١٦ ، ١٨ فى المائة ، ومنهم من يقرضونها من غير رهون بفائدة إلى أصدقائهم ، أو يودعونها فى خزائن الهياكل . وكانت الهياكل تعمل عمل المصارف فتقرض المال إلى الأفراد والحكومات بفائدة معتدلة ، وكان هيكل أپلو فى دلفى إلى حد ما مصرفاً دولياً لجميع بلاد اليونان . ولم تكن الحكومات تقترض من الأفراد ، ولكن الدول كانت فى بعض الأحيان يقرض بعضها بعضاً . وفى القرن الخامس بدأ مبدل النقود الجالس أمام منضدته (طربيزته Trapeza) يقبل المال وديعة لديه ، ويقرضه للتجار بفوائد يتراوح سعرها بين ١٢ ، و ٣٠ فى المائة حسب ما تتعرض له من الأخطار . وبهذه الطريقة أصبح ذلك الصراف مصرفياً ، وإن كان قد احتفظ إلى آخر تاريخ اليونان باسمه الأول (صاحب المنضدة trapezite) . وقد أخذ أساليبه عن بلاد الشرق الأدنى ، وحسنها ، ونقلها إلى رومة فأسلمتها هذه إلى أوربا الحديثة . وما كادت الحرب الفارسية تضع أوزارها حتى أودع تمستكليز سبعين وزنة (٤٢٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) عند فيلوستفانوس المصرفى ، بنفس الطريقة التى يعمل بها المغامرون السياسيون لدنياهم فى هذه الأيام ، وهذه أول إشارة معروفة للأعمال المصرفية خارج المعابد فى

(*) ليس الفلاسفة والذين لا يحتاجون إلى القروض هم وحدهم الذين يعدون الربا جريمة ، بل إن كثيرين من علماء الاقتصاد فى هذه الأيام يرون فيه أضراراً كثيرة تزيد على منافعه وهم يؤيدون برأيهم هذا ما جاءت به الأديان السماوية . (المترجم)

تاريخ اليونان . ولما آذن هـذا القرن بالانتهاء أنشأ أنتستينز Antisthenes وأرخستراتس المؤسسة التي أصبحت في عهد باسيون Pasion أشهر المصارف اليونانية التي يملكها الأفراد ، وعن طريق هؤلاء الصيارفة كانت الأموال تتداول بحرية وسرعة أكثر من تداولها قبل وجود هذا النظام ، وكانت لهذا تيسر من الأعمـال أكثر مما كانت تيسره قبل وجودهم . وبفضل هذا التيسير راجت التجارة الأثينية واتسعت أسواقها ونشطت أكثر من ذي قبل .

وكانت التجارة ، لا الصناعة ولا الأعمال المالية ، روح الاقتصاد الأثيني . ذلك أنه وإن ظل الكثيرون من المنتجين حتى ذلك الوقت يبيعون منتجاتهم إلى المستهلك مباشرة ، فإن عدداً متزايداً منهم كان في حاجة إلى وساطة السوق التي كانت وظيفتها شراء السلع وخزنها حتى يستعد المستهلك لشرائها . وبهذه الطريقة نشأت طبقة من بائعي التجزئة يعرضون بضائعهم في شوارع المدن ، أو في مؤخرة الجيوش ، أو في الأعياد والاحتفالات العامة ، أو يعرضونها للبيع في حوانيت أو « أكشاك » في الأماكن المزدحمة أو غير المزدحمة في المدن . وكان الأحرار والغرباء والأرقاء يذهبون إلى هذه الأماكن ليساوموا التجار ويبتاعوا ما تحتاجه البيوت . وكان من أقسى القيود المفروضة على النساء والحرائر ، في أثينة أن العادات لم تكن تبيح لهن أن يخرجن إلى الأسواق ليشترين منها حاجتهن .

وتقدمت التجارة الخارجية لبلاد اليونان أسرع من تقـدم التجارة الداخلية نفسها ، لأن الدول اليونانية أدركت مزايا توزيع العمل بين بعضها والبعض الآخر فتخصصت كل منها في إنتاج نوع من المنتجات . فصانع الدروع مثلا لم يعد ينتقل من مدينة إلى مدينة تلبية لطلب من يحتاجه ، بل أخذ يصنع دروعه في حانوته ويبعث بها إلى أسواق العالم القديم . وهكذا انتقلت أثينة في قرن واحد من الاقتصاد المنزلي — الذي يصنع فيه كل منزل

جميع ما يحتاجه تقريباً — إلى الاقتصاد الحضرى — الذى تصنع فيه كل مدينة جميع ما تحتاجه تقريباً — ثم إلى الاقتصاد الدولى — الذى تعتمد فيه كل دولة على ما تستورده من غيرها ، والذى لا بد لها فيه أن تصدر من السلع ما تؤدى به أثمان وارداتها . واستطاع الأسطول الأثينى مدى جيلين من الزمان أن يجعل البحر مطهراً من القراصنة ، ولهذا ازدهرت التجارة من عام ٤٨٠ إلى ٤٣٠ كما لم تزدهر فى المستقبل إلا بعد أن قضى پمپى على القرصنة فى عام ٦٧ . وكانت أرصفة پيرية ، ومخازنها ، وأسواقها ومصارفها تقدم للتجارة كل ما تستطيعه من أسباب التيسير ؛ وسرعان ما أضحى هذا الثغر النشيط العامل أهم مراكز التصدير وإعادة الشحن للتجارة المتبادلة بين الشرق والغرب. وفى ذلك يقول إسقراط : « لقد كان من اليسير أن يبتاع الإنسان فى أثينة جميع ما يصعب عليه أن يجده إلا فى أماكن متفرقة سلعة منه فى هذه المدينة وسلعة فى تلك »[٣] . ويقول توكيديدس « إن عظمة مدينتنا تجذب غلات العالم كله إلى مرفئنا ، حتى أصبحت ثمار البلاد الأخرى من مواد الترف المألوفة للأثينى كثمار بلده نفسه »[٣١] . وكان التجار يحملون من پيرية ما تنتجه حقول أتكا وحوانيتها من الخمور ، والزيت ، والصوف ، والمعادن ، والرخام ، والخزف والأسلحة ، ومواد الترف ، والكتب ، والتحف الفنية ؛ ويأتون إلى پيرية بالحبوب من بيزنطية ، وسوريا ، ومصر ، وإيطاليا ، وصقلية ؛ وبالفاكهة والجبن من صقلية وفينيقية ، وباللحوم من فينيقية وإيطالية ؛ والسمك من البحر الأسود ؛ والنُّقل من پفلاجونيا ، والنحاس من قبرص ؛ والقصدير من إنجلترا ؛ والحديد من شواطئ بحر البنتس ؛ والذهب من ثاسوس وتراقية ؛ والخشب من تراقية وقبرص ؛ والأقمشة المطرزة من بلاد الشرق الأدنى ؛ والصدف والكتان ، والأصباغ من فينيقية ، والتوابل من قورينة ؛ والسيوف من خلقيديا ؛ والزجاج من مصر ؛ والقرميد من كورنثة ؛ والأسرة من طشيوز وميليطس ؛ والأحذية

والبرونز من إتروريا ، والعاج من بلاد الحبشة ، والعطور والأدهان من بلاد العرب ، والرقيق من ليديا ، وسوريا ، وسكوذيا . ولم تكن المستعمرات أسواقاً فحسب ، بل كانت فوق ذلك وكالات شحن ترسل البضائع الأثينية إلى الداخل ، ومع أن مدائن أيونيا قد اضمحلت فى القرن الخامس قبل الميلاد لأن التجارة التى كانت تمر بها من قبل تحولت إلى البروپنتس وكاريا أيام الحروب الفارسية وبعدها ، فإن إيطاليا وصقلية قد حلتا محلها وأصبحت بلادهما ثغوراً لتصدير ما زاد على الحاجة من غلات بلاد اليونان الأصلية وسكانها ، وفى وسعنا أن نقدر قيمة تجارة بحر إيجة الخارجية إذا عرفنا أن حصيلة ضريبة الخمسة فى المائة المفروضة على صادرات مدن الإمبراطورية الأثينية ووارداتها قد بلغت فى عام ٤١٣ ألفاً ومائتى وزنة ، ومعنى هذا أن التجارة قد بلغت قيمتها ١٤٤٫٠٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى فى ذلك العام .

وكان الخطر الكامن وراء هذا الرخاء هو اعتماد أثينة اعتماداً متزايداً على الحبوب المستوردة من خارجها ؛ ومن ثم كان حرصها على السيطرة على مضيق الهلسپنت والبحر الأسود ، وإصرارها على استعمار السواحل والجزائر الواقعة فى طريقها إلى المضايق ، وحملتها المشئومة على مصر فى عام ٤٥٩ ، وعلى صقلية فى عام ٤١٥ . واعتمادها هذا هو الذى أغراها بتحويل حلف ديلوس إلى إمبراطورية أثينية ؛ ولما أن دمر الإسپارطيون الأسطول الأثينى فى مضيق الهلسپنت عام ٤٠٥ ، كان لا بد أن تعانى أثينة آلام الجوع وأن تستسلم نتيجة لهذا التدمير . غير أن هذه التجارة هى التى جلبت الثراء لأثينة ، وكانت مع خراج إمبراطوريتها عماد رقيها الثقافى ، ذلك أن التجار الذين كانوا ينتقلون مع بضائعهم إلى جميع بقاع البحر الأبيض المتوسط كانوا يعودون إليها بنظرات إلى

الحياة تختلف عن نظراتهم قبل خروجهم من بلدهم ، وبعقول متيقظة متفتحة ؛ وكانوا يأتون معهم بأفكار وأساليب جديدة ، يحطمون بها القيود القديمة والخمول القديم ، ويستبدلون بالتحفظ الأسرى الذى هو من طابع الأرستقراطية الريفية نزعة فردية تقدمية هى طابع الحضارة التجارية . وفى أثينة التقى الشرق بالغرب وبفضل هذا الالتقاء خرج كلاهما من أساليبه المألوفة العتيدة ، وفقدت الأساطير القديمة سيطرتها على نفوس الناس ، وزاد الفراغ ، وشجع البحث ، ونشأ العلم والفلسفة ، وأضحت أثينة أكثر مدن زمانها حيوية ونشاطاً .

الفصل الرابع

الأحرار والعبيـــد

ومن ذا الذى كان يقوم بهذا العمل كله ؟ لقد كان يقوم به فى الريف المواطنون : أسرهم وعمال أحرار مأجورون ؛ أما فى أثينة نفسها فكان يؤدى بعضه المواطنون ، وبعضـــه العتقاء ، ويؤدى الكثير منه الغرباء المهاجرون ، ويؤدى معظمه الأرقاء . ويكاد أصحاب الحوانيت ، والصناع ، والتجار ، ورجال المصارف ، أن يكونوا كلهم من الطبقات التى ليس لها حق الانتخاب ، وكان أهـــل المدينة ينظرون بعين الاحتقار إلى العمل اليدوى ، ولا يؤدون منه إلا القليل الذى لابد لهم من أدائه ، لأن العمل لكسب العيش كان فى اعتقادهم يحط من قدر صاحبه ، بل إن الأعمال المهنية ، وتعليم الموسيقى ، والتحبت ، والتصوير ، كان فى نظر الكثيرين من اليونان « مهنة دنيئة(*) » . وهاهو ذا زنوفون يتحدث فى زهو وفى غير مجاملة بوصفه واحداً من طبقة الفرسان فيقول :

« إن الجماعات المتمدينة ترى أن ما يسمونه بالفنون الآلية الحقيرة تزرى بصاحبها . . . . وهى محقة فى نظرته هذه ؛ ذلك بأن العمل فيها يهلك أجسام القائمين به ، سواء فيهم العمال ومن يشرفون عليهم ، فهى تضطرهم إلى أن يقضوا وقتهم جالسين فى نور ضئيل أو جاثمين أياماً طوالا أمام الأفران .

(*) بركليز تأليف للوطرخس ؛ ويرى زمرمان فى كتابه « مجموعة الأمم اليونانية The Greek Commonwealth » ص ٢٧٢ وفرجسون Ferguson فى كتاب « الاستعمار اليونانى » أن احتقار الأثينيين للأعمال اليدوية قد بولغ فى وصفه كثيرا ؛ ولكن جلتز Glotz فى كتابه « بلاد اليونان القديمة تعمل Ancient Greece at Work » ص ١٦٠ يقول خلاف هذا .

وهذا الضعف الجسمي يصحبه على الدوام ضعف نفساني ؛ وفوق هذا وذاك فإن ما تتطلبه هذه الفنون الآلية الحقيرة من الوقت لا يترك للمشتغلين بها فراغاً ينفقونه في مطالب الصداقة أو الدولة(٣٦) » :

وكان ينظر إلى التجارة هذه النظرة نفسها ، فكان اليوناني الأرستقراطي النزعة أو الفيلسوف لا يعدها إلا وسيلة لجمع المال مع إلحاق الأذى بمن يجمع منهم ؛ وهي في رأي هذا وذاك لا تبتغي خلق السلع ، بل كل ما تبغيه هو شراؤها رخيصة وبيعها غالية ؛ ولهذا فما من مواطن خليق بالاحترام يرضى أن يعمل فيها وإن كان لا يستنكف أن يستثمر فيها ماله ويربح من هذا الاستثمار ما دام يترك لغيره أن يقوم بالعمل . ويقول اليوناني إن الحر يجب أن يتحرر من الواجبات الاقتصادية ، وإن عليه أن يستخدم العبيد وغيرهم من الناس ليعتنوا بشئونه المادية ، بما في ذلك ، إن استطاع ، العناية بأملاكه وأمواله . وهذا التحرر وحده هو الذي يترك له الوقت الكافي للقيام بأعباء الحكم ، والحرب ، والأدب والفلسفة . فإذا لم توجد هذه الطبقة المتفرغة لهذه الشئون لم يوجد ، كما يرى اليوناني ، ذوق راق ، ولن يكون في البلاد من يشجع الفنون ، ولن تقوم للحضارة قائمة على الإطلاق ؛ ذلك أن من يعمل مسرعاً لا يمكن أن يكون متمديناً بحق .

وكان الغرباء الأحرار ، الذين ولدوا في بلاد أجنبية واتخذوا أثينة موطناً لهم ولكنهم لا يعدون من مواطنيها ، كان هؤلاء الغرباء هم الذين يؤدون في أثينة معظم الأعمال ذات الصلة التاريخية بالطبقة الوسطى ، فكان منهم رجال المهن ، والتجار ، والمقاولون ، والصناع ، والمديرون للأعمال التجارية والصناعية ، وأصحاب الحوانيت ، وأرباب الحرف ، والفنانون ، وقد استقر هؤلاء في أثينة لأنهم وجدوا فيها ، بعد تجوالهم في البلاد الأخرى ، ما ينشدونه من الحرية الاقتصادية وفرص الحياة والحافز على العمل وبذل

الجهود ، وهذه أهم فى نظرهم من حق الانتخاب . ولهذا كانت أهم الأعمال الصناعية – خارج نطاق التعدين – ملكاً لهؤلاء الغرباء الأحرار ، فصناعة الخزف بأكملها كانت فى أيديهم ، وكانوا يوجدون كلما استطاع الوسطاء أن يحشروا أنفسهم بين المنتج والمستهلك . وكانت شرائع البلد تضايقهم وتحميهم ، فكانت تفرض عليهم من الضرائب ما تفرضه على المواطنين ، وتلزمهم بأن يؤدوا خدمات شخصية للدولة ، وتجندهم للخدمة العسكرية ، وكانوا يؤدون لها ضريبة الفرضة ؛ ولكنها كانت تحرم عليهم امتلاك الأرض والزواج من أسر المواطنين ، ولا تسمح لهم بالانضمام إلى الهيئات الدينية أو الالتجاء بأنفسهم إلى المحاكم . ولكنها كانت ترحب بهم فى حياتها الاقتصادية ، وتقدر لهم جدهم وحذقهم ، وتنفذ لهم عقودهم ، وتترك لهم حريتهم الدينية ، وتحمى أموالهم من الثورات العنيفة . وكان منهم من يباهون بثروتهم مباهاة سمجة ، ولكن كان منهم أيضاً من يشتغلون بالعلوم ، والآداب ، والفنون ، ويمارسون مهنة الطب أو القانون ، أو ينشئون مدارس لتعليم البلاغة والفلسفة ، وهم الذين أمدوا بالمال مؤلفى المسرحيات الهزلية فى القرن الرابع ، وكانوا هم موضوع هذه المسرحيات ، وأصبحوا فى القرن الثالث هم المثال المحتذى فى آداب المجتمع الهلنستى . وكان حرمانهم من حقوق المواطنية يؤلمهم ويحز فى نفوسهم ، ولكنهم كانوا يحبون أثينة ويفخرون بانتسابهم إليها ، ويؤدون على مضض كثيراً من الأموال التى تحتاجها للدفاع عن نفسها ضد أعدائها . ومن مال هذه الطبقة استمد الأسطول معظم حاجته ؛ وكانت هى عماد الإمبراطورية الأثينية ، وبفضلها احتفظت أثينة بتفوقها التجارى على سائر بلاد اليونان .

وكان يشارك الغرباء فى الحرمان من بعض الحقوق السياسية ، وفيما يتاح لهم من الفرص الاقتصادية ، العتقاء ، أى الذين كانوا من قبل عبيداً . ذلك أن الأمل فى الحرية حافز اقتصادى قوى للعبد الشاب وإن لم يكن من السهل المألوف أن يعتق العبد لأن عبداً آخر يجب أن يحل فى العادة محله ؛ لكن كثيرين من اليونان

كانوا إذا قربت منيتهم يكافئون أشد عبيدهم إخلاصاً بعتقهم . كذلك كان العبد يعتق إذا افتداه أهله أو أصدقاؤه كما حدث لأفلاطون ، أو افتدته الدولة نفسها من سيده نظير خدماته لها فى الحرب ؛ وقد يبتاع هو نفسه حريته بما يدخره من الأبولات . وكان العبد المحرر يعمل ، كما يعمل الغريب السالف الذكر ، فى الصناعة والتجارة والشئون المالية . وكان أقل ما يقوم به من الأعمال شأناً هو أداء عمل العبد نظير أجر ؛ وكان أعظم ما يبلغه هو أن يكون صاحب إحدى الصناعات . فقد كان ميلياس Mylias مثلا هو المشرف على مصنع الأسلحة الذى يمتلكه دموستين ؛ وأصبح پاسيون ، وفورميو أغنى رجال المصارف فى أثينة . وكان أهم الأعمال التى تظهر قيمة العبد المحرر هى الأعمال التنفيذية ، وذلك لأن أقسى الناس على العبيد هو الذى نشأ فى ظل العبودية ولم يعرف طول حياته إلا الظلم والاستبداد .

وكان من تحت هذه الطبقات الثلاث — طبقات المواطنين والغرباء والمعاتيق — عبيد أتكا البالغ عددهم ١١٥٫٠٠٠ عبد(*) . وهؤلاء العبيد إما أسرى حرب ، أو ضحايا غارات الاسترقاق ، أو أطفال أنقذوا وهم معرضون فى العراء ، أو أطفال مهملون ، أو مجرمون . وكانت قلة منهم فى بلاد اليونان يونانية الأصل ؛ وكان الهليني يرى أن الأجانب عبيد بطبعهم لأنهم يبادرون بالخضوع إلى الملوك ، ولهذا لم يكن يرى فى استعباد اليونان لهؤلاء الأجانب ما لا يتفق مع

(*) ومرجعنا فى هذا الرقم هو جم Gomme . وربما كان عددهم أكبر من هذا كثيراً : فسويداس Suidas يقدر عدد العبيد الذكور وحدهم بمائة وخمسين ألفاً (٣٤). معتمداً فى تقديره هذا على خطبة معزوة إلى هيپريدس ألقيت فى عام ٣٣٨ ، وإن لم تكن نسبتها إليه موثوقاً بصحتها . ويقول أثنيوس ، وهو ممن لا يعتمد كثيراً على أقوالهم ، إن تعداد سكان أتكا الذى أجراه دمتريوس فاليريوس حوالى عام ٣١٧ يقدر المواطنين بواحد وعشرين ألفاً ، والغرباء بعشرة آلاف ، والمحررين والأرقاء بأربعمائة ألف . ويقدر تيميوس حوالى عام ٣٠٠ عبيد كورنثة بأربعمائة وستين ألفاً ، ويقدر أرسطو حوالى عام ٣٤٠ عبيد إيجينا بأربعمائة وسبعين ألفاً(٣٥) . ولعل السبب فى ضخامة هذه الأعداد أنها تشمل العبيد الذين كانوا يعرضون للبيع عرضاً مؤقتاً فى أسواق الرقيق القائمة فى كورنثة ، وإيجينا وأثينة .

العقل ؛ لكنه كان يغضبه أن يُسترق يونانى . وكان التجار اليونان يشترون العبيد كما يشترون أية سلعة من السلع ، ويعرضونهم للبيع ، فى طشيوز ، وديلوس ، وكورنثه ، وإيجينا ، وأثينة ، وفى كل مكان يجدون فيه من يشتريهم . وكان النخاسون فى أثينة من أغنى سكانها الغرباء ؛ ولم يكن من غير المألوف فى ديلوس أن يباع ألف من العبيد فى اليوم الواحد ؛ وعرض سيمون بعد معركة يوريمدون عشرين ألفاً من الأسرى فى سوق الرقيق[٣٦] . وكان فى أثينة سوق يقف فيه العبيد متأهبين لأن يفحص عنهم وهم مجردون من الثياب ، وأن يساوم على شرائهم فى أى وقت من الأوقات . وكان ثمنهم يختلف من نصف مينا إلى عشر مينات (من ٥٠ ريالا أمريكيا إلى ألف ريال) . وكانوا يشترون إما لاستخدامهم فى العمل مباشرة ، أو لاستثمارهم ؛ فقد كان أهل أثينة الرجال منهم والنساء يجدون من الأعمال المربحة أن يبتاعوا العبيد ثم يؤجروهم للعمل فى البيوت أو المصانع ، أو المناجم . وكانت أرباحهم من هذا تصل إلى ٣٣ فى المائة[٣٧] . وكان أفقر المواطنين يمتلك عبداً أو عبدين ؛ ويبرهن إسكنيز Aeschines على فقره بالشكوى من أن أسرته لا تمتلك إلا سبعة عبيد ؛ وكان عددهم فى بيوت الأغنياء يصل أحياناً إلى خمسين[٣٨] ، وكانت الحكومة الأثينية تستخدم عدداً منهم فى الأعمال الكتابية وفى خدمة الموظفين ، وفى المناصب الصغرى ، وكان منهم بعض رجال الشرطة . وكان كثيرون من هؤلاء يحصلون من الدولة على الملابس ، وعلى « مكافأة » يومية مقدارها نصف درخمة ، وكان يؤذن أن يسكنوا حيث يشاءون .

أما فى الريف فكان العبيد قليلى العدد ، وكانت كثرة الرقيق من النساء الخادمات فى البيوت . ولم يكن الأهلون فى شمالى بلاد اليونان وفى معظم البلوبونيز فى حاجة إلى العبيد لاستغنائهم عنهم برقيق الأرض . وكان العبيد فى كورنثة ، ومجارا ، وأثينة ، يؤدون معظم الأعمال اليدوية الشاقة ، كما كانت الجوارى يقمن بمعظم الأعمال المنزلية المجهدة . ولكن العبيد كانوا فوق ذلك يقومون

بجزء كبير من الأعمال الكتابية وبمعظم الأعمال التنفيذية فى الصناعة ، والتجارة ، والشئون المالية . أما الأعمال التى تحتاج إلى الخدمة فكان يقوم بها الأحرار والمحررون ، والغرباء ، ولم يكن هناك عبيد علماء كما ترى فيما بعد فى العصر الهلنستى وفى رومة ، وقلما كان يسمح للعبد بأن يكون له أبناء لأن شراء العبد كان أرخص من تربيته . وكان العبد إذا أساء الأدب ضرب بالسوط ، وإذا طلب للشهادة عذب ، وإذا ضربه حر لم يكن له أن يدافع عن نفسه ، لكنه إذا تعرض للقسوة الشديدة كان له أن يفر إلى أحد الهياكل ، ثم يلزم سيده ببيعه ، ولم يكن يحق لسيده بأية حال أن يقتله ، وكان يلقى من الضمانات ؛ ما دام يعمل ، ما لا يلقاه كثيرون ممن لا يسمون عبيداً فى بعض الحضارات الأخرى . فكان إذا مرض ، أو تقدمت به السن ، أو لم يجد عملا يقوم به ، لا يلقى به سيده إلى الإعانات العامة ، بل كان يستمر فى رعايته . وإذا كان وفياً عومل معاملة الخادم المخلص الأمين التى تكاد تضارع معاملة أى فرد من أفراد الأسرة ، وكثيراً ما كان يسمح له بأن يقوم بعمل خارجى على شريطة أن يؤدى لسيده بعض ما يكسب من هذا العمل . وكان يعفى من الضرائب ومن الخدمة العسكرية ؛ ولم يكن شىء فى ثيابه يميزه من الحر فى أثينة خلال القرن الخامس قبل الميلاد . وهاهو ذا « الألجركى القديم » يشكو فى نشرة له عن نظام الأثينيين من أن العبد لا يفسح الطريق فى الشارع للمواطنين ، ومن أنه يتكلم بحرية ، ويتصرف فى كل صغيرة وكبيرة كأنه كفء للمواطن[٣٩] . واشتهرت أثينة بحسن معاملة عبيدها ، وكان من المعروف أن العبيد فى أثينة الدمقراطية أحسن حالا من الأحرار الفقراء فى الدويلات الألجركية[٤٠] ، وكانت ثورات العبيد نادرة فى أتكا وإن كانت مما يخشى وقوعه القائمون بالأمر فيها[٤١] .

ومع هذا فإن ضمائر الأثينيين لم تكن ترتاح إلى وجود الرق فى بلدهم ، وإن الفلاسفة الذين يدافعون عن هذا النظام ليظهرون فى وضوح لا يكاد

يقل عن وضوح من يندون به . أن ما طرأ على الأمة من تطور أخلاق قد جعلها أرقى من نصمها الاجتماعية . فهاهو ذا أفلاطون يندد باستعباد اليونان لليونان ، ولكنه فيما عدا هذا يقر الاسترقاق بحجة أن لبعض الناس عقولا غير ممتازة[٤٢] . وينظر أرسطو إلى العبد على أنه آلة بشرية ، ويظن أن الاسترقاق سيبقى فى صورة ما حتى يحل اليوم الذى تؤدى فيه الآلات التى تدور بنفسها جميع الأعمال الحقيرة[٤٣] . وليس لدى اليونانى العادى فكرة ما عن الطريقة التى يمكن بها أن تسير أعمال المجتمع المثقف من غير الرق ، وإن كان هذا اليونانى رحيما بعبيده ؛ فهو يشعر بأنه إذا أريد إلغاء الرق ، وجب إلغاء أثينة من الوجود . أما غيره فأكثر تطرفاً فى آرائهم ، فالفلاسفة الكلبيون يحكمون على الرق أسوأ حكم ، ومثلهم فى هذا خلفاؤهم الرواقيون وإن كانوا أقل عنفاً فى حكمهم عليه . وكثيراً ما يثير يوربديز عطف مستمعيه بما يصوره لهم من حال أسرى الحرب . ويطوف السيد ماس السوفسطائى بلاد اليونان يبشر فيها بعقائد روسو فى ألفاظ تكاد تكون ألفاظ روسو بعينها دون أن يتعرض له أحد بسوء : « لقد بعث الله الناس فى العالم أحراراً ، ولم تجعل الطبيعة أحد الناس عبداً[٤٤] » . لكن الاسترقاق ظل قائماً رغم هذا كله .

الفصل الخامس

حرب الطبقات

كان استغلال الإنسان للإنسان فى أثينة وطيبة أقل قسوة منه فى اسبارطة وروما ، ولكنه كان على أية حال استغلالا يؤدى الغرض المقصود منه . فلم يكن بين الأحرار فى أثينة طوائف ممتازة وأخرى غير ممتازة ، وكان فى مقدور الرجل أن يرقى بجهوده وحدها إلى أية مرتبة فى الحياة ، ولم يكن فيها تمييز طائفى شديد بين العامل وصاحب العمل ، اللهم إلا فى المناجم ؛ أما فى غيرها فكان صاحب العمل يشتغل إلى جوار عماله ، وكان التعارف الشخصى بين الاثنين يفل من حدة سلاح الاستغلال ، وكان أجر الصناع جميعاً ، إلا القليل النادر منهم ، أيا كانت طبقتهم ، هو درخمة للرجل فى كل يوم من أيام العمل[٤٥] ، أما العمال غير الحاذقين فقد تنخفض أجور الواحد منهم إلى ثلاث أبولات فى اليوم (نصف ريال أمريكى[٤٦]) . ولما نما نظام المصانع أخذ الأجر بالقطعة يحل محل المياومة وبدأت الأجور تختلف اختلافاً كبيراً ، وكان فى وسع المقاول أن يستأجر العبيد من سادتهم بأجر يتراوح بين أبولة واحدة وأربع أبولات فى اليوم[٤٧] . وفى وسعنا أن نقدر القوة الشرائية لهذه الأجور إذا وازنا الأثمان فى بلاد اليونان بأمثالها فى بلادنا[*] ؛ لقد كان البيت والضيعة فى عام ٤١٤ يباعان معاً بألف ومائتى درخمة ، وكان المندموس Mendimmus أى البشل والنصف من الشعير يباع بدرخمة واحدة فى القرن السادس ، وبخمس درخمات فى أيام الإسكندر ، وكان الخروف يباع بدرخمة فى أيام صولون ، وبعشر درخمات أو عشرين فى القرن

(*) يريد فى أمريكا . (المترجم)

الخامس[٤٨] . وكانت النقود المتداولة فى أثينة كغيرها من المدن تزيد أسرع مما تزيد البضائع ، ولهذا كانت الأثمان ترتفع ؛ فكانت أثمان السلع فى آخر القرن الرابع خمسة أمثال ما كانت فى بداية القرن السادس ؛ وقد تضاعفت هذه الأثمان ضعفين من عام ٤٨٠ إلى ٤٠٤ ثم تضاعفت مرة أخرى من ٤٠٤ إلى ٣٣٠[٤٩] .

وكان فى وسع الرجل الفرد أن يعيش عيشة راضية بمائة وعشرين درخمة (١٢٠ ريال أمريكى) فى الشهر[٥٠] ؛ ومن هذا نستطيع أن نحكم على حال العامل الذى كان يكسب ثلاثين درخمة فى الشهر ويعول أسرة . ولسنا ننكر أن الدولة كانت تبادر إلى معونته فى الأزمات الشديدة فتمده بالحبوب بثمن اسمى ؛ ولكنه كان يشاهد أن ربة الحرية ليست صديقة لربة المساواة ، وأن الشرائع الحرة فى أثينة كانت تمكن القوى من أن يزداد قوة ، والغنى من أن يزداد غنى ، أما الفقير فكان يبقى فى ظلها(*) فقيراً[٥١] .

ومن الحقائق المعروفة أن الفردية تحفز القادرين إلى العمل ، وتنزل بالسذج ، وأنها تنشئ الثروات الضخمة ، وتركزها تركيزاً وخيم العاقبة ؛ ولذلك كان المهرة الحاذقون فى أثينة ، كما كانوا فى غيرها من الدول ، يحصلون من الثروة كل ما يستطيعون تحصيله ، ثم يحصل أوساط الناس ما يتبقى من هؤلاء . وكان مالك الأرض يفيد من ارتفاع ثمن أرضه المطرد ؛ وكان التاجر لا يدخر جهداً ، رغم ما فرض عليه من القيود التى لا تحصى لاحتكار الأصناف أو ابتياع كل ما هو معروض منها فى الأسواق ثم التحكم فى أثمانها على هواه . وكان المضارب ينال حصة الأسد من أرباح الصناعة

(*) ولا حاجة إلى القول بأن الثروات العظيمة عند اليونان الأقدمين تعد متواضعة إذا قدرت بمعايير هذه الأيام . فقد قيل إن كلياس أغنى أغنياء الأثينيين كان يمتلك مائتى وزنة (١٫٢٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) وإن نيشياس كان يمتلك مائة وزنة[٥٢] .

والتجارة بفرض سعر مرتفع لفائدة القروض التى يقدمها لأصحاب الصناعات والتجار . وقام زعماء الجماهير المحترفون يبينون للفقراء ما فى توزيع الثروة بين الناس من غبن ، ويخفون عنهم عدم المساواة فى كفاياتهم من الناحية الاقتصادية ؛ وأخذ الفقير بعد أن أبصر بعينيه ثراء المثرين يحس بفقره ويطيل التفكير فى ميزاته التى لا يجزى عليها الجزاء الأوفى ، ويحلم بقيام الدول المثالية . ومن ثم كانت الحرب بين طبقة وطبقة ، وهى الحرب التى استعرت نارها فى جميع الدول اليونانية ، والتى كانت أشد هولا من الحرب بين اليونان والفرس ، أو بين أثينة وإسپارطة .

وبدأت هذه الحرب فى أتكا بالنزاع بين الأغنياء المحدثين والأشراف أصحاب الأراضى الزراعية : ذلك أن الأسر الغنية كانت لا تزال تحب الأرض ، وتحب أن تقضى معظم حياتها فى ضياعها ، وكان تقسيم الأرض بين الأبناء وأبناء الأبناء خلال الأجيال الطويلة قد قلل مساحة ما يملكه كل واحد منها[٥١] . (فلم يكن ألسبيديز الثرى مثلا يملك أكثر من سبعين فداناً) . وكان مالك الأرض فى معظم الأحوال يعمل بنفسه فى أرضه أو يشرف على إدارة أملاكه ، وكان هذا الشريف فخوراً بنفسه وأصله . وإن لم يكن غنياً بماله ، فكان يضيف اسم أبيه إلى اسمه ليكون ذلك من ألقاب الشرف له ، ويبتعد قدر استطاعته عن طبقة التجار الوسطى التى كانت تستحوذ شيئاً فشيئاً على ثروة أثينة التجارية الآخذة فى النماء . غير أن زوجته كانت تلح عليه أن يكون له بيت فى المدينة لتستمتع بما فى العاصمة من الحياة المتنوعة وبما تتيحه من فرص ، وكانت بناته يرغبن فى أن يعشن فى أثينة ، ليتصيدن لهن أزواجاً أثرياء ، وكان أبناؤه يرجون أن يجدوا فيها الخليلات ويقيموا المآدب المرحة كما يفعل الأغنياء المحدثون . وإذ لم يكن فى مقدور الأشراف ملاك الأراضى أن ينافسوا التجار والصناع فى ترفهم فقد رضوا بهم أو بأبنائهم أزواجاً لأولادهم وبناتهم ، وكان هؤلاء التجار والصناع راغبين فى أن يتسنموا ذرى

المجد مستعدين للبذل . وكانت نتيجة هذا اتحاد الأغنياء بأرضهم مع الأغنياء بمالهم وتكوين طبقة عليا أجركية ، يحسدها الفقراء ويحقدون عليها ، ويغضبها الإفراط فى الدمقراطية وتخشى على نفسها من الثورة .

وكان صلف الأثرياء الجدد هو الذى أدى إلى المرحلة الثانية من مراحل حرب الطبقات — أى نزاع المواطنين الفقراء مع الأغنياء . ذلك أن كثيرين من أفراد الطبقات الوسطى الرأسمالية أخذوا يباهون مثل ألسبيديز بثرائهم وإن لم يكن من بينهم إلا القليلون الذين يستطيعون أن يسخروا « جمهرة الكادحين » بجرأتهم الروائية ورشاقة مظهرهم ورقة حديثهم . وقام الشبان الذين أحسوا بما وهبوا من كفايات يحول فقرهم دون إبرازها والإفادة منها ، فنقلوا حاجتهم الشخصية إلى الفرص والمكانة السامية من دائرتهم الخاصة إلى نداء عام بالثورة ، وتكفل المتعلمون الذين يرحبون بالآراء الجديدة ويستهويهم هتاف المظلومين بصياغة أغراض ثورتهم المبهم[٥٤] . ولم يكونوا ينادون باشتراكية التجارة والصناعة ، بل كانوا يطلبون إلغاء الديون وإعادة توزيع الأراضى على المواطنين ، ونقول على المواطنين لأن الحركة المتطرفة التى قامت فى أثينة فى القرن الخامس لم يشترك فيها إلا من لهم حق الانتخاب من الفقراء ، ولم تكن تحلم فى هذه المرحلة بتحرير العبيد ، أو إعطاء الغرباء نصيباً من الأرض التى تطالب بإعادة توزيعها . وكان الزعماء يتحدثون عن الماضى الذهبى حين كان الناس جميعاً متساوين فيما يملكون ، ولكنهم لم يكونوا يريدون أن تؤخذ أقوالهم بنصها حين يتحدثون عن عودة هذا الفردوس المفقود ، بل كانت الصورة المرسومة فى أذهانهم صورة مجتمع اشتراكى أرستقراطى — لا ينطوى على . تأميم الأرض بل ينطوى على توزيعها بالتساوى بين المواطنين . وكانوا يشيرون إلى أن المساواة فى الحقوق السياسية ستكون بلا ريب مساواة غير حقيقية مع وجود تلك الفوارق الاقتصادية.

المطردة الزيادة ، ولكنهم كانوا مصممين على استخدام ما للمواطنين الفقراء من سلطان سياسى لحمل الجمعية على أن تضع فى جيوب المحتاجين — بالغرامات ، والتكاليف ، والمصادرة ، والأشغال العامة[٥٥] — بعض الثروة المركزة لدى الأغنياء[٥٦] . واتخذوا اللون الأحمر رمزاً لثورتهم فضربوا بذلك المثل للثائرين فى مستقبل الأيام[٥٧] ؛

وواجه الأغنياء هذا التهديد فألفوا من بينهم هيئات سرية تعهدوا فيها أن يعملوا مجتمعين لمقاومة ما يسميه أفلاطون — رغم نزعته الشيوعية — « الوحش الضارى » الكامن فى نفوس الغوغاء المستنفرين الجياع[٥٨] . وانتظم العمال الأحرار أيضاً — وكانوا قد انتظموا منذ أيام صولون إن لم يكن قبله — فى نواد (إرانوى ، ثياسوى eranoi, thiasoi) للبنائين ، وقاطعى الرخام ، وعمال الخشب ، والعاملين فى العاج أو الفخار ، والسماكين ، والممثلين ومن إليهم من الجماعات . وكان سقراط نفسه عضواً فى نادى المثالين[٥٩](*) . بيد أن هذه الجماعات لم تكن نقابات عمال بقدر ما كانت جماعات لتبادل المنفعة ، فكان أعضاؤها يجتمعون فى أماكن لهم يسمونها مجامع مقدسة ، يقيمون فيها المآدب والألعاب ، ويعبدون فيهم رباً يحميهم ، ويقدمون المال للمرضى من الأعضاء ، ويتعاقدون مجتمعين على القيام بمشروع خاص ، ولكنهم لم يشتركوا اشتراكاً ملحوظاً فى حرب الطبقات الأثينية . ودارت المعركة فى ميدانى الأدب والسياسة ؛ فشرع مصدرو النشرات أمثال « الألجركى القديم » يصدرون النشرات يندِّدون فيها بالدِّمقراطية أو يدافعون عنها . وإذ كانت مسرحيات الشعراء الهزليين تطابق آراء الأغنياء

(*) انتظم المثالون والمهندسون المعماريون فى بلاد اليونان وما تلاها لم فى طائفة البنائين كانت لها شعائرها الدينية الخلقية الخاصة بها ، وكانوا هم أسلاف جماعة البنائين الأحرار (الماسون) التى قامت فى أوروبا فيما بعد .

لإخراجها ، فقد انضم هؤلاء إلى جانب ذوى المال ، .وشرعوا يصبون قوارص سخرياتهم على الزعماء المتطرفين .وعلى دولهم المثالية . فترى أرسطوفان يقدم لنا فى مسرحية الإكلزيازوسى Ecclesiazusae (٣٩٢) السيدة بركساغورا Praxagora الشيوعية تلقى خطبه تقول فيها : « أريد أن يكون لكل الناس نصيب فى كل شىء ، وأن يكون كل الملك مشاعاً ؛ فلن يكون بعد اليوم أغنياء أو فقراء ؛ ولن نرى بعد الآن رجلا واحدا يجنى محصول مساحات واسعة من الأرض وإلى جانبه رجل آخر لا يجد منها ما يتسع لدفنه . . . . وسأعمل على ألا يكون فى الحياة إلا ظروف واحدة يشترك فيها جميع الناس على السواء . . . . وسأبدأ بأن أجعل الأرض والمال وكل ما هو ملك خاص مشاعاً بين الناس أجمعين . . . . وستكون النساء ملكاً مشتركاً للرجال » . ويسأل بلپيروس Blepyrus : « ولكن العمل من يقوم به » فتجيبه بقولها : « العبيد » . وفى ملهاة أخرى هى ملهاة بلوتوس Plutus (٤٠٨) يجيز أرسطوفان للملكية المهددة بالانقراض أن تدافع عن نفسها بقولها إنها هى الحافز الذى لا بد منه للكدح البشرى والمغامرة . « أنا السبب الوحيد فى كل ما بكم من نعمة ، وإن سلامتكم لتعتمد على دون غيرى . . . ومنذا الذى يجب أن يطرق الحديد ويبنى السفن ، ويخيط الثياب ، ويخرط الخشب ، ويقطع الجلد ، ويحرق الآجر ، ويبيض التيل ، ويدبغ الجلود ، ويشق الأرض بالمحراث ، ويجنى ثمار دمتر إذا كان فى وسعه أن يعيش بغير عمل محرزا من كل هذه المشاق . . . ؟ فإذا ما طبق نظامك (الشيوعية) . . . فلن تستطيعى أن تنامى فى سرير ، لأن الأسرة فى هذه الحال لن يصنع منها شىء بعد ، ولن تنسج بسط ، وهل فى الناس من يرضى أن ينسجها إذا كانت لديه الذهب ؟[٦٠] » .

وكانت إصلاحات إفيلتيز وبركليز باكورة ثمار الثورة الديمقراطية .وكان بركليز

رجلا متزناً فى أحكامه معتدلا فى أغراضه ؛ فهو لم يكن يبغى القضاء على الأغنياء ، بل كان يريد أن يحتفظ بهم وبإقدامهم على الأعمال النافعة بتخفيف عبء الحياة عن الطبقات الفقيرة ؛ فلما مات فى عام ٤٢٩ جرف تيار التطرف الدمقراطية الأثينية إلى حد لم يسع الحزب الألجركى معه إلا أن يأتمر مرة أخرى مع اسپارطة ، وأن يدفع الأغنياء إلى الثورة مرة فى عام ٤١١ ومرة أخرى فى عام ٤٠٤ . بيد أن الثروة فى أثينة كانت عظيمة ، وكان خوف المواطنين من ثورة الأرقاء سبباً فى وقف تيار ثورتهم إلى حين ؛ ولهذا كانت حرب الطبقات فى أثينة أهدأ منها فى غيرها من الدول اليونانية ، حيث لم يكن للطبقات الوسطى من القوة ما يمكنها من أن تتوسط بين الأغنياء والفقراء ، وسرعان ما وجدت الطبقات فى أثينة أساساً صالحاً تقيم عليه أساس التراضى فيما بينهما . ففى ساموس استولى المتطرفون على زمام الحكم فى عام ٤١٢ ، وأعدموا مائتين من الأشراف ، ونفوا أربعمائة آخرين ، وقسموا الأرض والبيوت فيما بينهم[٦٦] ، وأقاموا مجتمعاً آخر شبيهاً بالمجتمع الذى قضوا عليه . وفى ليونتينى طرد العامة فى عام ٤٢٢ الأقلية المثرية الحاكمة ، ولكنهم سرعان ما لاذوا هم أنفسهم بالفرار . وفى كورسيرا اغتالت الأقلية المثرية الحاكمة ستين من زعماء حزب الشعب ، واستولى الدمقراطيون على أزمة الحكم ، وزجوا بأربعمائة من الأشراف فى السجون ، وساقوا خمسين منهم إلى المحاكمة أمام هيئة نستطيع أن نسميها « لجنة الأمن العام » ، وأعدموا الخمسين كلهم فى التو والساعة ، ولما رأى المسجونون الأحياء ما حل بزملائهم قتل بعضهم بعضاً ، وقتل بعضهم أنفسهم ، وحوصر الباقون منهم فى هيكل المدينة الذى لجأوا إليه حتى هلكوا من الجوع . ويصف توكيديدس حرب الطبقات فى بلاد اليونان وصفاً ينطبق على حروب الطبقات فى جميع الأوقات يقول فيه :

« ظل أهل كرسيرا سبعة أيام طوال يذبحون من مواطنيهم من يرون أنهم

أعداء لهم ، ومع أن الجريمة المعزوة إليهم كانت أنهم حاولوا القضاء على الدمقراطية ، فإن منهم من قتل بسبب الكراهية الشخصية ، ومنهم من قتلهم المدينون لهم ليتخلصوا بقتلهم من ديونهم . وهكذا انتشر الموت في البلد بجميع أشكاله ، وحدث في هذا الوقت ما يحدث في أمثاله فلم يقف العنف عند حد . كان الآباء يقتلون أبناءهم ، وكان اللاجئون بالهيكل يسحبون على وجوههم من فوق مذبح القربان أو يقتلون . . . وهكذا جرت الثورة في مجراها متنقلة من مدينة إلى مدينة ، وسارت الأماكن التي وصلت إليها في آخر الشوط فيما اخترعته من وسائل العنف وفيما ارتكبته من الفظائع في انتقامها من خصومها إلى أبعد مما سارت إليه الأماكن التي تقدمتها بعد أن سمعت بما كان يجرى في هذه الأماكن السابقة . . ، وضربت كرسيرا لسائر المدن المثل الأول في تلك الجرائم ، . . . وفي حروب الانتقام التي لجأ إليها المحكومون . . . الذين لم ينعموا في حياتهم بالعدالة في المعاملة . . . بل لم يلاقوا من حكامهم شيئاً سوى العنف ، وذلك حين جاء دورهم وتولوا هم شئون الحكم . كذلك ضربت كرسيرا لسائر المدن المثل الأول في الحقد الظالم الذي تنطوى عليه صدور الذين يريدون أن يتخلصوا مما ألفوه من فقر وتمتلئ صدورهم طمعاً فيما في أيدى جيرانهم من نعم ، وضربت المثل أكثر من هذا وذاك للإفراط في الوحشية والقسوة التي اندفع إليها بعواطفهم الثائرة رجال لم يبدأوا الكفاح بروح طائفية بل بروح حزبية ... وفي غمار هذه الفوضى التي تردت فيها الحياة في المدن كشفت الطبيعة البشرية ، التي تثور دائماً على القانون والتي أصبحت الآن سيدة القانون ، عن عدم قدرتها على ضبط عواطفها ، وعن أنها لا تقيم وزناً للعدالة ، وعن عدائها لكل سلطة عليا ... وأصبحت الجرأة والوقاحة في نظر الناس شجاعة تُرتَضَى من حليف وفى ؛ كما أصبح التردد الحكيم جبناً مموهاً ؛ وأضحى الاعتدال

فى نظر الناس ستاراً يخفى وراءه خور العزيمة ؛ والقدرة على رؤية جميع نواحى مسألة من المسائل عجزاً عن العمل فى واحدة منها . . .

وكان مصدر هذه الشرور كلها هو الجرى وراء السلطان المنبعث من الشره والطمع . . . واندفع الزعماء فى المدن يطلبون لأنفسهم الجزء الأوفى من المنافع العامة التى يتظاهرون بالحرص عليها مستعينين على ذلك بأجمل العبارات التى يلقونها فى الآذان ، يدعون فيها إلى المساواة السياسية بين الناس تارة ، وبضرورة قيام أرستقراطية معتدلة تارة أخرى : ولم يكن هؤلاء يترددون فى استخدام أية وسيلة توصلهم إلى السلطان ، فكانوا لذلك يرتكبون أشنع الجرائم . . . ولم تكن طائفة من الطائفتين المقتتلتين توقر الدين ، وكان استخدام العبارات المنمقة للوصول بها إلى الغايات الإجرامية هو الوسيلة المحببة لسائر الناس . . . وكانت البساطة القديمة التى كان للشرف فيها أكبر نصيب موضع السخرية ، ومن أجل هذا لم يعد لها وجود ، وانقسم المجتمع إلى معسكرين لا يثق فيهما واحد من الناس بزميله . . . وقضى بين هذين المعسكرين على الشيعة المعتدلة من المواطنين لأنها لم تشترك فى الكفاح أو لأن الحسد كان يمنعها أن تفر من الميدان . . . وقصارى القول أن العالم الهلنى كله قد زلزلت قواعده وتصدعت أركانه(٦٤) .

ولم تقض هذه الاضطرابات على أثينة لأن كل أثينى كان فى قرارة نفسه فردى النزعة يحب الملكية الخاصة ؛ ولأن الحكومة الأثينية قد وجدت فى تنظيم الثروة والأعمال التجارية والصناعية تنظيما معتدلا طريقة عملية وسطاً بين النزعتين : الاشتراكية والفردية . ولم تخش الحكومة الإقدام على هذا التنظيم ووضع القواعد والقيود ، فوضعت حداً أعلى لبائنات العرائس ؛ ونفقات الجنائز ، وملابس النساء(٦٥) . وفرضت الضرائب على التجارة وأخضعتها لإشرافها ، ووضعت أنظمة عادلة للمقاييس والموازين . . . الناس ... اعاة واجب الأمانة والشرف على قدر ما تستطيع الحكومات أن تحد من دناءة

الطبيعة البشرية[٦٦] . وحددت الحكومة مقادير الصادرات ، وسنت قوانين صارمة للحد من جشع التجار والصناع ومعاقبتهم على ما يرتكبون ، وفرضت رقابة شديدة على تجارة الحبوب ؛ وأصدرت قوانين صارمة لمنع تخزين السلع والتحكم فى الأسواق ، فحرمت شراء أكثر من خمسة وعشرين بُشِلاً من القمح دفعة واحدة وأجازت الحكم بالإعدام على من يرتكب هـذه الجريمة . ومنعت إقراض المال على البضائع الخارجة من البلاد إلا إذا حملت السفن فى عودتها حبوباً إلى ثغر پيرية ؛ وأوجبت على السفن المملوكة لأهل أثينة والمشحونة بالحبوب أن تأتى بحمولتها إلى پيرية ؛ ومنعت تصدير أكثر من ثلث الحبوب التى تصل إلى هذا الثغر[٦٧] . وحرصت أثينة أشد الحرص على ألا ترتفع أثمان الخبز فوق طاقة المستهلكين ، وألا يثرى الناس إثراء فاحشاً من جراء جوع الشعب ، وألا يموت أحد من الأثينيين جوعاً ، وكانت وسيلتها إلى هذا الاحتفاظ برصيد كاف من الحبوب فى مخازن تملكها الدولة ، وإغراق السوق بهذه الحبوب المخزونة حين ترتفع الأثمان ارتفاعاً سريعاً[٦٨] . ووضعت الدولة قواعد تنظم بها الثروة عن طريق الضرائب والخدمات العامة ، وأقنعت الأغنياء أو ألزمتهم أن يتبرعوا بالمال إلى الأسطول وإلى دور التمثيل ، وأن يقدموا للدولة المال الذى تساعد به الفقراء من الوجهة النظرية على مشاهدة المسرحيات والألعاب . وفيما عدا هذا كانت أثينة تحمى حرية التجارة ، والملكية الفردية ، وفُرَص الكسب ، لاعتقادها أنها هى الأدوات الضرورية للحرية الإنسانية ، وأنها أقوى حافز على النشاط الصناعى والتجارى ، وأكبر عامل على ازدياد الرخاء .

وبفضل هذا النظام ذى النزعة الاقتصادية الفردية ، تخفف من حدتها

النظم الاشتراكية ، ازدادت الثروة فى أثينة وانتشرت فيها انتشاراً يحول بينها وبين الثورة المتطرفة ، وبذلك ظلت الملكية الفردية آمنة فى أثينة إلى آخر أيامها . وتضاعف فيها بين عامى ٤٨٠ و ٤٣١ عدد الموظفين ذوى الدخل الذى يمكنهم من العيش الرضى[٦٩] ؛ وزادت إيرادات الدولة ، وارتفعت نفقاتها ، ولكن خزانتها ظلت عامرة أكثر مما كانت فى أى عهد سابق من تاريخ اليونان ، ووضعت الدعامة الاقتصادية لحرية أثينة ، ونشاطها الصناعى والتجارى ، والفنى ، والفكرى ، واستطاعت أن تتحمل كل ما ساد العصر الذهبى من إسراف دون أن تنوء به إذا استثنينا من هذا التعميم الحرب التى خربت بلاد اليونان بقضها وقضيضها .

الباب الثالث عشر

أخلاق الأثينيين وآدابهم

الفصل الأول

الطفـــولة

كان ينتظر من كل مواطن أثيني أن يكون له أبناء ، وقد اجتمعت قوى الدين ، والملكية ، والدولة ، كلها لمقاومة العقم . فإذا لم يكن للأسرة أبناء من نسلها كان التبني هو العادة المتبعة ، وكانت تؤدى مبالغ طائلة للحصول على الأبناء الأيتام ، لكن القانون والرأى العام كانا فى الوقت نفسه يبيحان قتل الأطفال ويريان فيه وسيلة مشروعة للحد من زيادة النسل ومنع تقسيم الأرض الزراعية تقسيما يؤدى إلى الفاقة ، فكان فى وسع كل أب أن يعرض طفله للموت بحجة أنه يشك فى صحة انتسابه إليـه أو أنه ضعيف أو مشوه . وقلما كان يسمح لأبناء الأرقاء أن يعيشوا ، وكانت البنات أكثر تعريضاً للموت من الأولاد ؛ لأن البنت يجب أن تعدلها بائنة ، ولأنها إذا تزوجت انتقلت من بيت اللذين رَبَوها ومن خدمتهم إلى خدمة من لم تكن لهم فى تربيتها يد . وكانت الوسيلة المتبعة لتعريض الطفل للموت أن يترك فى إناء من الفخار بجوار هيكل أو مكان آخر حيث يستطاع إنقاذه بعد وقت قليل من تركه إذا رغب أحد فى تبنيه . وكان حق الآباء فى تعريض أبنائهم للموت سبباً فى غلظة قلوب اليونان ، وكان هو والانتخاب الطبيعى الصارم عن طريق المنافسة ومعاناة صعاب الحياة ، كان هذا وذاك من الوسائل التى جعلت اليونان شعباً سليما قوياً ؛ ويكاد فلاسفة

اليونان يجمعون على تحبيذ تحديد النسل : فأفلاطون ينادى بتعريض جميع الأطفال الضعفاء ومن يولدون من أبوين منحطين أو طاعنين فى السن[١] إلى الجو القارسى ، وأرسطاطاليس يدافع عن الإجهاض بحجة أنه أفضل من قتل الأطفال بعد أن يولدوا[٢]. ولم يكن قانون أبقراط الطبي يسمح للطبيب أن يجهض الحامل ، ولكن القابلة اليونانية كانت تحذق هذه العملية ، ولا نجد قانوناً يحول بينها وبين[*] ممارستها[٣] .

وكان الطفل يقبل فى دائرة الأسرة رسمياً فى اليوم العاشر بعد مولده أو قبله ، ويقام لذلك احتفال دينى خاص فى البيت حول موقد النار ، يتلقى فيه الهدايا ويسمى باسمه . ولم يكن لليونانى عادة إلا اسم واحد مثل سقراط أو أرخميلس ؛ ولكن كان من عادتهم أن يسموا أكبر الأبناء باسم جده لأبيه ، ولهذا كثر تكرار الأسماء ، واختلط التاريخ اليونانى لكثرة ما ورد فيه من أسماء زنوفون ، وإسكنيز ، وتوكيديدز ، وديوجين ، وزينون ، فكانوا يحاولون التغلب على ما فيها من غموض بإضافة اسم الأب أو اسم مسقط الرأس إلى الشخص فيقولون « كيمون ملتيادو » أى كيمون بن ملتيادس ، أو ديودورس صقلوس Diodorus Siculus أى ديودور الصقلى ، أو يحلون المشكلة بإضافة أحد ألقاب السخرية المضحكة مثل كـليـمـدون Callimedon أى السرطان .

فإذا ما قبل الشخص فى الأسرة بهذه الطريقة لم يكن القانون يجد تعريضه للجو ، بل كان يربى محوطا بكل ما يحيط به الآباء أبناءهم من العناية فى جميع العصور ، فنرى ثمستكليز مثلا يصف ابنه بأنه حاكم أثينة الحقيقى ، لأنه (ثمستكليز) وهو أعظم رجال أثينة نفوذا تحكمه زوجته ، وهذه الزوجة يحكمها ولدهما[٦] . وفى وسعنا أن نستدل على هذا الحب الأبوى من كثير من المقطوعات الشعرية ذات المغزى الأدبى فى دواوين الشعراء .

« لقد بكيت حين ماتت ثيونو Theonoe ، ولكن الآمال التى كنت أعلقها

(*) وليس لدينا شواهد على أن اليونان كانوا يلجأون إلى وسائل لمنع الحمل[٤].

على طفلنا خففت أحزانى ، ثم أبَت الأقدار الحسودة إلا أن تحرمنى من هذا الوالد أيضاً ، فواحسرتا ! لقد سُلِبت منى يا ولدى ، وأنت كل ما كان باقياً لى من سلوى. ؛ ألا فاستمعى يا پرسفونى إلى النداء المنبعث من قلب أب حزين ، وضعى الطفل فوق صدر أمه الميتة(٧) .

وكانت الألعاب كثيرة تخفف مآسي المراهقة ، وسوف تبقى هذه الألعاب بعد أن ينسى الناس بلاد اليونان ، فترى على وعاء عطر صنع لكى يوضع فى قبر طفل ، صورة ولد صغير يأخذ عربته الصغيرة معه إلى الدار الآخرة . وكان للأطفال الرضع خشاخش من الطين المحروق فى داخلها عدد من الحصا ؛ وكان للبنات دمى يحتفظن بها فى البيت ، وكان الغلمان ينازلون جنوداً وقواداً من الطين فى مواقع عظيمة ؛ وكانت المربيات يؤرجحن الأطفال على الأراجيح ؛ وكان الأولاد والبنات يدفعون الأطواق ، ويطيرون الطائرات ، ويديرون الخذروف الخشبي ، ويلعبون لعبة الاستخفاء أو الغميضاء ، أو شد الحبل ، أو يتبارون فى مئات الأنواع من المباريات بالحصا . والبندق ، والنقود والكرات . أما « بلى » العصر الذهبي فكان هو الفول الجاف يدفع بالأصابع أو الحجارة الملساء تطلق مسافات بعيدة أو تقذف فى داخل دائرة لتزحزح حجارة العدو من أماكنها وتستقر فى أقرب وضع مستطاع إلى مركز الدائرة . فإذا اقترب من الأطفال من « سن العقل » — أى السنة السابعة أو الثامنة من عمرهم — لعبوا لعبة النرد ولذلك يرمى الكعاب (Astragali) المربعة ، وتعد أعلى رمية لست كعاب أحسن لعبة(٩) . ألا إن ألعاب الصغار قديمة قدم خطايا آبائهم .

الفصل الثاني

التعليم

أنشأت أثينة ساحات للألعاب ومدارس للرياضة البدنية ، وكان لها بعض الإشراف القليل على المدرسين ، ولكن المدينة لم يكن فيها مدارس عامة أو جامعة تديرها الدولة ، بل ظل التعليم فيهـــا فى أيدى الأفراد ونادى أفلاطون بأن تنشئ الدولة مدارس(١٠) ، ولكن يلوح أن أثينة كانت تعتقد أن المنافسة حتى فى التعليم نفسه كفيلة بأن تثمر أحسن الثمرات . وكان المدرسون المحترفون ينشئون مدارسهم الخاصة يرسل إليها أبناء الأحرار فى سن السادسة . ولم يكن لفظ پيدجوجوس Paidagogos يطلق عندهم على المعلم ، بل كان يسمى به العبد الذى يصاحب الغلام كل يوم فى ذهابه إلى المدرسة والعودة منها ، ولم نسمع قط عن وجود مدارس داخلية . وكان التلميذ يبقى فى المدرسة حتى يبلغ الرابعة عشرة أو السادسة عشرة من عمره ، وإلى ما بعد السادسة عشرة إن كان من أبناء الأغنياء(١١) . ولم يكن فى المدارس أدراج بل كان يكتفى فيها بالمقاعد ؛ فكان التلميذ يضع على ركبتيه الملف الذى يقرأ منه ، أو الصحيفة ، أيا كانت مادتها ، التى يكتب عليها ؛ وكانت بعض المدارس تزدان بتماثيل لأبطال اليونان وآلهتهم ، وهى عادة انتشرت فيا بعد انتشاراً واسعاً ؛ وكان عدد قليل منها يمتاز بأثاثه الظريف . وكان المدرس يدرس كل المواد ، ويعنى بالأخلاق كما يعنى بالعقول ويستخدم النعال للتأديب(*)(١٢) ؛

(*) نرى فى إحد الصور المنقوشة على جدران پمپى ، ولعلها منقولة عن صورة يونانية ، تلميذاً محمولا على كتفى تلميذ آخر ، ويمسكه تلميذ ثالث من عقبيه ، والمدرس ينهال عليه ضربا(١٣).

وكان منهج الدراسة ينقسم ثلاثة أقسام — الكتابة ، والموسيقى ، والألعاب الرياضية ؛ وأضاف المجددون الحريصون على التجديد فى أيام أرسطو إلى هذا المنهج الرسم والتصوير(١٤) . وكانت الكتابة تشمل القراءة والحساب ، وكانوا يستخدمون فيها الحروف لا الأرقام . وكان كل تلميذ يتعلم العزف على القيثارة ، وكان الكثير من مواد الدراسة يصاغ فى عبارات شعرية وموسيقية(١٥) . ولم يكونوا يضيعون شيئاً من الوقت فى تعليم أية لغة أجنبية ، بله اللغات الميتة ، ولكنهم كانوا شديدى العناية بتعلم اللغة الوطنية واستخدامها على أصح وجه . وكانت الألعاب الرياضية تعلم أكثر ما تعلم فى مدارس الألعاب ، ولم يكن أثيني يعد متعلماً إذا لم يتقن المصارعة والسباحة واستعمال القوس والمقلاع .

أما البنات فكن يدرسن فى منازلهن وكان تعليمهن يقتصر فى الغالب على علم « تدبير المنزل » ، ولم يكن للبنات فى غير اسپارطة حظ من الألعاب الرياضية العامة . وكانت أمهاتهن يعلمنهن القراءة والكتابة والحساب ، والغزل والنسيج والتطريز ، والرقص والغناء ، والعزف على بعض الآلات الموسيقية ؛ ومن النساء اليونانيات عدد قليل تعلمن تعليما عاليا ، ولكنهن فى الغالب من المؤنسات ، أما النساء المحترمات فلم يكن تعليمهن يتجاوز المرحلة الإبتدائية حتى أغرت أسپازيا Aspasia عدداً قليلا منهن على تعلم فنون البلاغة والفلسفة . وكان الرجال يتعلمون التعليم العالى على يد علماء البلاغة والسوفسطائيين ، يلقنونهم فن الخطابة ، والعلوم الطبيعية ، والفلسفة والتاريخ . وكان هؤلاء المدرسون المستقلون يستأجرون قاعات للمحاضرات بالقرب من مدارس الألعاب الرياضية ، وكان يتألف منهم ومن قاعاتهم هذه فى أثينة قبل أفلاطون جامعة متفرقة . وكان ذوو الثراء وحدهم هم الذين يتعلمون على أيديهم ، لأنهم كانوا يتقاضون أجوراً عالية ، ولكن ذوى الطموح من الشبان غير ذوى اليسار كانوا يعملون ليلا فى المصانع أو الحقول حتى يستطيعوا أن يحضروا فى النهار دروس هؤلاء المعلمين المتنقلين .

فإذا بلغ الأولاد السادسة عشرة من عمرهم ، كان ينتظر منهم أن يحتنوا عناية خاصة بالتربية البدنية التى تعدهم بعض الإعداد إلى الأعمال الحربية ، وكانت ألعابهم العادية نفسها تعدهم من طريق غير مباشر لهذا الغرض عينه ؛ فقد كانوا يدربون على العدو ، والقفز ، والمصارعة ، والصيد ، وسوق المركبات ، وقذف الحراب . وإذا بلغوا الثامنة عشرة من عمرهم بدءوا المرحلة الرابعة من مراحل الحياة الأثينية (الطفولة ، والشباب ، والرجولة ، والكهولة pais ، ephebos ، auer ، Geron) ، وفيها ينخرطون فى صفوف شبان أثينة المجندين المعروفة بمنظمات الشباب epheboi (*) . وكانوا فى هذه المرحلة يدربون مدى عامين على أيدى « مدربين » ، يختارهم لهم زعماء قبائلهم ، على القيام بالواجبات الوطنية والعسكرية . فكانوا يعيشون ويأكلون مجتمعين ، ويلبسون حللا رسمية ذات روعة وبهاء ، ويخضعون بالليل والنهار لرقابة خلقية . وكانوا ينظمون أنفسهم تنظيما دمقراطياً على نمط نظام المدينة ، فيجتمعون فى جمعية وطنية ، ويصدرون قرارات ، ويسنون قوانين يتقيدون بها ، ويكون لهم منهم حكام ، وزعماء ، وقضاة[١٦] . وكانوا فى السنة الأولى يخضعون لنظام صارم من التدريب الرياضى ، ويتلقون محاضرات فى الآداب ، والموسيقى ، والهندسة النظرية ، وعلوم البلاغة[١٧] . وفى التاسعة عشرة من عمرهم يرسلون لحماية الحدود ويعهد إليهم مدى عامين حماية المدينة من الغزو الخارجى والاضطراب الداخلى . وكانوا فى هذه المرحلة يقسمون أمام مجلس الخمسمائة ، وأيديهم ممتدة فوق مذبح الهيكل فى أرجولوس Argaulos ، يميناً مغلظة هى يمين الشباب الأثينى :

« لن أجلل بالعار الأسلحة المقدسة ، ولن أتخلى عن الرجل الذى إلى جانبى

(*) ليس فى وسعنا مع هذا أن نرجع بتاريخ هذه المنظمات إلى ما قبل عام ٣٣٦ ق . م

أيا كان ، وسأقدم المعونة إلى طقوس المدينة ، وإلى الواجبات المقدسة ، بمفردى ومع الكثيرين غيرى . ولن تكون بلادى حين أسلمها إلى من يأتى بعدى أقل مما كانت حين تسلمتها ، بل ستكون أكبر وأحسن مما كانت وقتئذ . وسأطيع من يتولون القضاء حيناً بعد حين ، وأخضع للقوانين المسنونة ، ولكل ما يضعه الأهلون من أنظمة ؛ وإذا ما حاول أحد أن يفسد هذه القوانين ، فلن أسمح له بذلك العمل ، بل أدفعه بمفردى وبمعونة الجميع ؛ وسأكرم دين السلف »[١٨] .

وكان للشباب مكان خاص فى دار التمثيل ، وكان لهم شأن ظاهر فى مواكب المدينة الدينية ؛ ولعل هؤلاء الشبان هم الذين نرى صورهم الجميلة منقوشة على طنف البارثنون يمتطون صهوة الجياد . وكانوا فى أوقات معينة يعرضون ما يتحلون به من صفات فى مباريات عامة ، وبخاصة فى سباق التتابع بالمشاعل من پيريه إلى أثينة . وكانت المدينة على بكرة أبيها تخرج لمشاهدة هذا المنظر الجميل ، فيصطف أهلها على طول الطريق البالغ أربعة أميال ونصف ميل . ويجرى السباق ليلا ، والطريق غير مضاء ، فلا يرى الناس من العدائين إلا أنوار المشاعل التى يحملونها وتقفز من يد إلى يد على طول الطريق . وبعد أن يتم تدريب الشباب فى الحادية والعشرين من عمرهم ، يتحررون من سلطان الآباء ، وينتظمون رسمياً فى سلك مواطنية المدينة الكاملة .

هذه هى التربية التى تنشئ المواطن الأثينى ، أساسها الدروس التى تلقاها فى المنزل وفى الطريق . وهى مزيج صالح جميل من التدريب الجسمى ، والعقلى ، يقوى فى الشاب حاسة الجمال ، ويفرض الرقابة فى سن الشباب ، ويعطيه حريته إذا ما نضج . وقد أخرجت فى أحسن عهودها شباناً لا يفوقهم شبان آخرون فى التاريخ كله . فلما انقضى عصر پركليز كثرت النظريات حتى طغت على الناحية العملية فى هذه التربية ، فاحتدم النقاش بين الفلاسفة حول

أهداف التربية ووسائلها ؛ هل يوجه المدارس أكبر همه إلى التربية العقلية أو الخليقة ، وهل يعنى أكبر العناية بتنمية الكفاية العملية ، أو بتعليم العلوم النظرية البحتة . لكنهم مجمعون على أن مكانة التربية هى أسمى مكانة فى البلاد ، ولما أن سئل أرستبس Aristippus بماذا يمتاز المتعلم عن الجاهل أجاب : « بما يمتاز به الجواد المروض على الجواد الجموح » ؛ وأجاب أرسطاطاليس عن هـذا السؤال نفسه بقوله : « يمتاز به الحى على الميت » ، ويضيف أرستبس إلى قوله السابق : « حسب التعليم فضلا على التلميذ أنه حين يشهد التمثيل لن يكون حجراً فوق حجر »[١٩] .

الفصل الثالث

المظهر الخارجي

كان مواطنو أثينة فى القرن الخامس رجالا متوسطى القامة ، أقوياء البنية ، ملتحين ؛ ولم يكونوا كلهم من الوسامة كما صورهم فدياس فى فرسانه . وكانت النساء كما تراهن على المزهريات رشيقات الجسم ، وتظهرهن صورهن على الألواح الحجرية حسانا ذوات وقار ، وهن فى التماثيل بارعات الجمال . أما نساء أثينة فى حقيقة أمرهن فكن يضارعن فى الجمال أخواتهن من نساء الشرق الأدنى ولا يفقنهن قط ، وقد كانت عزلتهن التى تكاد تشبه عزلة النساء الشرقيات سببا فى نقص نموهن العقلى . واليونان يعجبون بالجمال أكثر مما تعجب به سائر الأمم ، ولكن هذا الجمال لا يتمثل قط فيهن بأكمل معانيه ، وكانت نساؤهم كغيرهن من النساء يرين أنهن لم يبلغن حد الكمال فى هذه الناحية ، ولهذا تراهن يزدن طولهن بنعال عالية من الفلين ، ويصلحن ما فى أجسامهن من العيوب بالحشايا ، ويضغطن ما زاد فيها بالأربطة ، ويرفعن ثداءهن بحاملات من القماش(*)(٢٠)

وشعر اليونان أسود عادة والشعر الأشقر نادر وإذا وجد كان موضع الإعجاب . وكانت كثيرات من النساء يصبغن شعرهن ليكسبنه هذه الشقرة أو ليخفين شيبهن إذا كبرن ، وكان بعض الرجال يحذون حذوهن فى هذا(٢٢). وكانوا جميعاً رجالا ونساء يدهنون رؤوسهم بالزيت ، يستعينون به على نماء شعرهم ووقايته من تأثير الشمس ؛ وكانت النساء يخلطن الزيت ببعض العطور

(*) يقص فلوطرخس قصة طريفة يقول فيها إن موجة من الانتحار سرت بين نساء ميليطس ، ولكن هذه الموجة قضى عليها قضاء تاما فجائيا أمر أصدرته الحكومة يقضى بأن تحمل من تنتحر عارية الجسم إلى قبرها مارة بالسوق العامة (٢١) .

ويقلدهن في ذلك بعض الرجال[٢٣] . وكانوا جميعاً رجالا ونساء في القرن السادس قبل الميلاد يطيلون شعرهم ويجدلونه غدائر حول الرأس أو خلفها ، فلما كان القرن الخامس أخذت النساء يصففن شعرهن ويعقصنه وراء رقابهن ، أو يتركنه ينوس على أكتافهن ، أو يطوينه حول الأعناق وفوق الصدور . وكان النساء يحببن ربط شعرهن بأشرطة رمادية اللون تزدان بجوهرة فوق الجبهة[٢٤] ثم أخذ الرجال بعد مرثون يقصون شعرهم ، كما أخذوا بعد الإسكندر يحلقون شواربهم ولحاهم بأمواس من الحديد على شكل المنجل . ولم يكن اليوناني يطيل شاربه من غير أن يطيل لحيته ، وكان يعنى بتسوية لحيته حتى تنتهي عادة بطرف رفيع . ولم يكن عمل الحلاق مقصوراً على قص الشعر أو حلق اللحية أو تسويتها ، بل كان يعنى إلى ذلك بتدريم الأظافر وتجميل من يتقدم إليه في أعين الناس ، وكان إذا فرغ من عمله قدم إليه مرآة كما يفعل الحلاقون في هذه الأيام[٢٥] . وكان للحلاق حانوته ، وكان هذا الحانوت « مجمعاً لغير المخمورين » (كما يسميهم ثيوفراسطس) يتناقلون فيه أخبار الناس ومعايبهم ، ولكنه كان في كثير من الأحيان يقوم بعمله خارج حانوته في العراء . وكان الحلاق ثرثاراً بحكم مهنته ، ويروى أن حلاقاً سأل الملك أركلوس كيف يحب أن يقص شعره فأجابه الملك « في صمت »[٢٦] . وكانت النساء أيضا يحلقن الشعر من بعض أجزاء جسمهن ، ويستخدمن في هذا أمواسا أو أدهانا مصنوعة من الزرنيخ والجير .

وكانت العطور — المصنوعة من الأزهار مخلوطة بالزيت — تعد بالمئات ، ويشكو سقراط من كثرة استعمال الرجال لهذه العقاقير[٢٧] . وكان لكل سيدة راقية عدة كبيرة من المرايا ، والدبابيس العادية والإنجليزية ، ودبابيس الشعر ، والملاقط ، والأمشاط ، وقنينات العطور ، وأواني الأصباغ الحمراء ؛

والأدهان . وكن يصبغن خدودهن ، وشفاههن بعصى من السلقون وجلوْر الشنجار(*). أما الحواجب فكانت تصبغ بسناج المصابيح أو بمسحوق الإثمد ، وتلون الجفون بالإثمد ، وتسود الرموش ثم تطلى بمزيج من زلال البيض والأشَّق(**) . وكانت الأدهان ومحاليل الغسل تستخدم لإزالة التجاعيد والنمش والبقع من الوجه والجسم ، وكانت بعض الأدهان المؤلمة تبقى على الجسم ساعات طوالا لكي تظهر المرأة فى أعين الناس جميلة إن لم تكن جميلة بطبيعتها . وكان زيت المصطكى يستخدم لمنع العرق ، وكانت مراهم معطرة خاصة توضع على أجزاء مختلفة من الجسم . وكانت المرأة ذات الشأن تدهن وجهها وصدرها بزيت النخيل وحاجبيها وشعرها بالبردقوش ، وعنقها ، وركبتيها بخلاصة الصَّعتر ؛ وذراعيها بخلاصة النعناع ، وساقيها وقدميها بالمُر(٢٨) . وكان الرجال يحتجون على هـــذه الأسلحة المغرية ، ولكن احتجاجهم لم يكن له من النتائج أكثر من احتجاج أمثالهم فى أى عصر من العصور . من ذلك أن إحدى الشخصيات فى مسلاة أثينية تعبر سيدة بتعداد ما تستخدمه من الأدهان والأصباغ الكثيرة فتقول : « إذا خرجت فى الصيف تحدر من عينيك خطان أسودان ، وجرى نهر أحمر من خديك إلى عنقك . وإذا مس شعرُك وجهكِ أبيض من الرصاص الأبيض »(٢٩) . إن النساء كما هن لأن الرجال لا يتغيرون .

وكانت المياه قليلة فكانت النظافة تتطلب وسائل أخرى غير المياه ، فأما الأغنياء فكانوا يستحمون مرة أو مرتين فى اليوم ، ويستخدمون فى استحمامهم صابونا مصنوعا من زيت الزيتون معجوناً بمادة قلوية ، ثم يتعطرون .

(*) الشِّنجار بالكسر معرب شنكار وهو خس الحمار ويسمى الكحلاء ، والحميراء ، ورجل الحمامة ، وهو نبات لاصق بالأرض مشوك له أصل فى غلظ إصبع ، أحمر كالدم يصبغ اليد إذا مس ، منبته الأرض الطيبة التربة (المحيط) ، واسمه بالإنجليزية alkanet . (المترجم)

(**) الأشق كسكر ويقال : وشق وأشج صمغ نبات كالقثاء شكلا gum Ammoniac عن المحيط . (المترجم)

وكان البيت الراقى يشتمل على حمام مبلط ، به حوض كبير من الرخام يحمل إليه الماء عادة باليد ، وكانت المياه أحيانا تنقل فى أنابيب وقنوات إلى البيت مخترقة جدران الحمام ، ثم تندفع من صنبور معدنى فى صورة رأس حيوان ، وتسقط على أرض الحمام الرشاش وتجرى بعدئذ إلى الحديقة(٣٠) .

وأما الكثيرون من الأهلين الذين لا تتوافر لديهم المياه للاستحمام فكانوا يدلكون أجسامهم بالزيت ثم يزيلونه بمكشط هلالى الشكل كما نرى ذلك فى تمثال أپكسيمنس Apoxyomeon1 للمثال ليسبس Lysippus ولم يكن اليونانى شديد الحرص على النظافة ، ولم تكن أهم وسائله للمحافظة على صحته هى العناية بها داخل المنزل ؛ بل كان أهمها الاقتصاد فى المأكل والحياة الخارجية النشيطة . وكان يندر أن يجلس داخل الدور والملاهى والمعابد والأبهاء المغلقة الأبواب ، وقلما كان يعمل فى المصانع أو الحوانيت المقفلة . وكانت مسرحياته وعباداته ، وحتى حكومته فى ضوء الشمس ؛ وكان فى وسعه أن يخلع عن جسمه ملابسه البسيطة التى يصل منها الهواء إلى جميع أجزائه ، ولا يكلفه خلعها أكثر من التلويح بذراعه ، للقيام بجولة مصارعة ، أو التمتع بحمام شمس .

وكانت ملابس اليونانى تتكون من قطعتين مربعتين من القماش ملفوفتين فى غير إحكام حول الجسم ، وقلما كانتا تفصلان لتوائما لابسا بعينه . وكانتا تختلفان فى بعض تفاصيلهما الصغرى فى المدن المختلفة ، ولكنهما ظلتا بحالهما عدة أجيال . وكان أهم رداء للرجال فى أثينة هو القباء Tunic ، وأهمه للنساء هو المئزر peplos ، المصنوعين من الصوف . فإذا كان الجو يتطلب التدفئة غطيا بعباءة أو برنس معلق مثلهما من الكتفين يتدلى فى غير كلفة فى تلك الثنايا الطبيعية التى تسر العين حين تقع عليها فى التماثيل اليونانية . وكانت الملابس فى القرن الخامس بيضاء اللون فى العادة ، غير أن النساء ، وأغنياء من الرجال ، والشبان المتأنقين ، كانوا يعمدون إلى تلوينها ، ولم يكونوا يستنكفون من لبس الثياب القرمزية أو الحمراء الداكنة ، أو ذات الخطوط

المختلفة الألوان والحواشي المطرزة . وكانت النساء فى بعض الأحيان يتمنطقن بمناطق ملونة . ولم تكن القبعات مرغوباً فيها لأنها كانت فى رأيهم تمنع رطوبة الجو عن الشعر فيشيب قبل الأوان[٣١] ، ولم يكن الرأس يغطى إلا فى أثناء السفر ، والقتال ، أو العمل فى أشعة الشمس الحارة . وكانت النساء فى بعض الأحيان يغطين رؤوسهن بمناديل أو عصابات ملونة ، وكان العمال فى بعض الأوقات يغطون رؤوسهم بقلنسوات ويتركون سائر الجسم عاريا[٣٢] . أما الأحذية فكانت أخفافا (صنادل) ، ونعالا طويلة أو قصيرة تصنع عادة من الجـلد ، سوداء اللون للرجال وملونة للنساء . ويقول دسياركس Dicaerchus إن نساء طيبة يحتذين أحذية قصيرة أرجوانية ذات شرائط تظهر منها القدم العارية[٣٣] . وكان معظم الأطفال والعمال لا يحتذون شيئاً مطلقاً ، ولم يكن أحد يعنى بلبس الجوارب[٣٤] .

وكان الأهلون ، رجالا ونساء ، يخفون دخلهم أو يعلنونه للناس بالحلى والجواهر ، فكان الرجل يلبس عدة خواتم[٣٥] . وكانت عصى الرجال تنتهى فى أعلاها بكريات من الفضة أو الذهب . وكانت النساء يتحلين بالأساور ، والقلائد والأكاليل من الجواهر ، والأقراط ، ودبابيس الصدر ، والعقود ، والمشابك ذات الجواهر ؛ وكان لهن فى بعض الأحيان أربطة محلاة بالجواهر حول أعقابهن أو سواعدهن . وكانت الطبقات التى تسرف فى الترف فى هذه البلاد هى الحديثة الثراء كما تفعل أمثالها فى جميع البلاد التى تسودها الثقافات التجارية . وكانت اسپارطه تحدد أنواع أغطية الرأس لنسائها ، كما كانت أثينة تحرم على النساء أن يأخذن معهن فى أسفارهن أكثر من ثلاث مجموعات من الثياب[٣٦] . غير أن النساء كن يسخرن من هذه القيود ، ويتهربن منها دون أن يستعن على ذلك الهرب بالمحامين . ذلك أنهن كن يعرفن أن قيمة المرأة عند معظم الرجال وعند النساء إنما تقدر بملابسها ؛ وكان مسلكهن فى هذه الناحية يكشف عن حكمة تجمعت لهن فى خلال آلاف من القرون الطوال .

الفصل الرابع

المبادئ الأخلاقية

لم يكن الأثينيون فى القرن الخامس مثلا طيباً فى حسن الخلق ، وذلك لأن ارتقاء عقولهم قد أحل الكثيرين منهم من تقاليدهم الأخلاقية ، وجعل منهم أفراداً يكادون يكونون لا خلاق لهم . نعم إنهم قد اشتهروا بعدلهم القضائى ، ولكننا قلما نراهم يؤثرون على أنفسهم أحداً غير أبنائهم ، وقلما يشعرون بوخز الضمير ، أو يفكرون قط فى أن يحبوا جيرانهم كما يحبون أنفسهم . وتختلف آدابهم باختلاف طبقاتهم ، فنى محاورات أفلاطون نرى الحياة تجملها للرقة الخلابة أما فى ملاهى أرسطوفان فالآداب لاوجود لها قط ؛ وفى الخطب العامة نري السباب الشخصى هو روح البلاغة . ولقد كان « البرابرة » الذين هذبهم الدهر فى مصر وفارس وبابل أرق من اليونان كثيراً فى هذه الناحية . وكانت التحيات عند الالتقاء ودية قلبية ولكنها بسيطة ، فلم يكن فيها انحناءات لأن هذا كان يبدو للمواطنين بقية من بقايا الملكية البائدة . وكان السلام باليد مقصوراً على الحلف أو الوداع ؛ أما التحية العادية فلم تكن تزيد على قولهم « ابتهج » (Chaire) تتبعها كما تتبعها عند غيرهم إشارة طريفة إلى الجو[٢٧] .

وقل إكرام الضيوف بعد أيام هومر لأن الأسفار أصبحت آمن بعض الشيء مما كانت فى ذلك الوقت ، ولأن النزل كانت تقدم الطعام والمأوى للمسافرين ؛ غير أن كرم الضيافة ظل مع ذلك من فضائل الأثينيين البارزة . وكانوا يرحبون بالغرباء ولو لم يقدمهم إليهم أحد ؛ فإذا جاء الغريب بخطاب من صديق له ولمن جاء إليه ، قدم له الطعام والمأوى ، وربما قدمت له عند رحيله بعض الهدايا . وكان من حق الضيف المدعو إلى طعام أن يصحب

معه ضيفاً غير مدعو . وكانت حرية الدخول إلى منازل الغير سبباً فى قيام طائفة من الطفيليين على مر الأيام . وكانت الكلمة المستعملة فى هـــذا المعنى paraisitoi تطلق فى الأصل على الكهنة الذين يأكلون « الحب الباق » من مقررات المعابد . وكان الأغنياء أسخياء فى عطائهم الخاص والعام . وكانت عادة العطف على الإنسانية عادة اليونان فعلا واسماً ، واللفظ الذى يطلق عليها philanthropy من أصل يونانى . وكان التصدق Charitas — أى الحب — من طباعهم ، وكان لديهم هيئات للعناية بالغرباء والمرضى ، والفقراء ، والطاعنين فى السن[٣٨] . وكانت الحكومة تقرر معاشات للجرحى من الجنود وتربى أيتام الحرب على نفقة الدولة ؛ ولما حل القرن الرابع قبل الميلاد قررت مرتبات للعمال العاجزين عن العمل[٣٩] . وكانت الدولة تدفع فى أوقات الجدب والحرب ، وغيرهما من الأزمات إعانة يومية قدرها أبولتان (٣٤/١٠٠ من الريال الأمريكى) للمحتاجين ، تضاف إلى ما كانت تعطيه كلا منهم لحضور جلسات الجمعية ، والحاكم ، ومشاهدة التمثيل . ولم تكن هذه الإعانات تخلو من الفضائح المعتادة ، فها هو ذا ليسياس يذكر فى خطبة له رجلا يتقاضى إعانة من الأموال العامة ، مع أن له أصدقاء من الأغنياء ، ويكسب مالا من عمله اليدوى ، ويركب الخيل للرياضة[٤٠] .

ولعلك كنت إذا سألت اليونانى قال لك : إن الأمانة أحسن سياسة ، ولكنه كان فى حياته العملية يجرب كل الوسائل الأخرى أولا . فترى المغنين فى مسرحية فلكتيتس Philoctetes لسفكل يظهرون أعظم العطف على الجندى الجريح الذى تخلى عنه رفقاؤه ، ثم ينتهزون فرصة غفوته فيشيرون على نيوپتلموس Neoptolemus أن يغدر به ويسرق سلاحه ، ويتركه بعدئذ لمصيره . وكان كل الناس يشكون من أن بائع الأشنات الأثينى يغش بضاعته ، ويخسر الكيل والميزان ، وينقص ما بقى للمشترى من نقود على الرغم

من مفتشى الحكومة ، ويحول مرتكز الميزان نحو الكفة التى بها الموزون[٤٠] ! ، ويكذب كلما سنحت له الفرصة ؛ وهو متهم بأخذ الوذم(*) من الكلاب[٤١] . ويطلق كاتب مسرحى هزلى على بائعى السمك اسم « السفاحين » ويسميهم كاتب أرحم بهم منه « لصوصا »[٤٢] . ولم يكن رجال السياسة خيرا من هؤلاء كثيراً ؛ فلا نكاد نرى رجلا ذا شأن فى الحياة الأثينية العامة لم يتهم بالالتواء[٤٣] ، وإذا وجد فيهم رجل شريف مثل أرستيديز عد من خوارق الطبيعة يكاد يبلغ حد البشاعة ، وحتى ديوجين نفسه بمصباحه الذى يسير به فى النهار يعجز عن أن يعثر على رجل آخر شريف . ويقول توكيديديز إن الرجال كانوا أكثر حرصاً على أن يوصفوا بالحلق من أن يوصفوا بالأمانة ، ويظنون أن الأمانة هى السذاجة[٤٤] . وكان من أيسر الأمور أن تجد اليونان يخونون وطنهم . وفى ذلك يقول پوزنياس : « لم يكن ينقص بلاد اليونان فى أى وقت من الأوقات رجال مصابون بهذا الداء داء الخيانة[٤٥] » . وكانت الرشوة هى السبيل المألوفة للرقى ، ولفرار المجرمين من العقاب ، ولنيل المطالب الدپلوماسية . وحصل پركليز على مبالغ طائلة من المال للخدمات السرية ، وأكبر الظن أنه استخدمها لتيسير أسباب المفاوضات الدولية . وكانت المبادئ الأخلاقية قبلية الطابع إلى أقصى حد ، وينصح زنوفون فى رساله له فى التربية بالالتجاء الصريح إلى الكذب والسرقة فى معاملة أعداء البلاد[٤٦] . ويدافع الرسل الأثينيون الذين وفدوا إلى اسپارطة فى عام ٤٣٢ عن إمبراطوريتهم بتلك العبارات الصريحة : « لقد كان القانون السائد على الدوام أن يخضع القوى للضعيف . . . ولم يسمح أحد بأن تقف المطالبة بالعدالة فى سبيل المطامع إذا لاحت للتخلص فرصة كسب شىء ما قوة

(*) الوذم الحزة من الكرش والمصارين المقطوعة تعقد وتلوى ثم ترمى فى القدر والجمع أوذم ووذوم ، وهى الوذمة وجمعها وذام . (المخصص) . وقد استعملنا هذا « اللفظ » (السبق) . (المترجم) .

واقتدرا[٤٧] » . ولا يبعد أن تكون هذه الفقرة هى وخطب الزعماء الأثينيين فى ميلوس[٤٨] من خيال توكيديدز الفلسفى أثارتها أقوال بعض السوفسطائيين الساخرة ؛ ومن أجل هذا فإن الحكم على اليونان من أخلاق جورجياس ، وكلكليز Callicles ، وثرازيماكوس Thrasymachus التى تخالف العرف المألوف لا يكون فيه من العدالة أكثر مما فى وصف الأوربيين المحدثين بالاستناد إلى أقوال مكيفلى ، ورشفوكول ، ونتشة ، واسترنر Stirner الشاذة الغريبة . ولسنا نحب أن نقول ماذا فى هذا الحكم من عدالة . ومما يدل على أن اليونان يروون أنهم أرقى من أن يتقيدوا بهذه القيود الأخلاقية أن الاسپارطيين لا يترددون فى موافقة الأثينيين على هذه الطائفة من نقط الخلاف الأخلاقية . ولما أن استولى فويداس Phoebidas اللسديمونى على قلعة طيبة غدراً وخيانة على الرغم من معاهدة الصلح المعقودة مع الطيبيين ، وسئل أجسلوس Agesilus ملك اسپارطة عما فى هذا العمل من العدالة أجاب بقوله : « ليس لك إلا أن تسأل هل هو نافع أو غير نافع ، لأن العمل النافع لبلدنا هو العمل الصالح » وكثيراً ما كانت تخرق شروط الهدنة ، وتنقض العهود الصريحة ، وتقتل الوفود[٤٩] ؛ على أننا نعود فنقول : إن اليونان قد لا يختلفون عنا إلا فى صراحتهم لا فى مسلكهم ، ذلك أن تفوقنا عنهم فى الرقة يجعلنا نستنكف أن ندعو جهرة إلى ما نفعل .

ولم يكن للعادة والدين إلا أثر قليل فى كبح جماح المنتصرين فى الحرب . لقد كان من الأمور المألوفة ، حتى الحروب الأهلية ، أن تنهب المدن المفتوحة ، وأن يقتل جميع الجرحى ، وأن يذبح جميع أسرى الحرب أو من يقبض عليهم من غير المحاربين ، أو أن يتخذوا عبيداً إذا لم يقتلوا ، وأن تحرق البيوت ، وأشجار الفاكهة ، والمحصولات الزراعية ، وأن تباد الحيوانات ، وتتلف البذور لكيلا تزرع فى المستقبل[٥٠] . وقد ذبح الاسبارطيون فى بداية حرب البلوپونيز كل من وجدوهم من اليونان فى البحر

وعاملوهم معاملة الأعداء ، سواء كانوا من أحلاف أثينة أو من المحايدين[٥١] ، وقتل الاسپارطيون فى معركة إجسبوتامى Aegospotami التى انتهت بها هذه الحرب ، ثلاثة آلاف من الأسرى الأثينيين[٥٢] — ويكاد هؤلاء أن يكونوا صفوة المواطنين الأثينيين الذين قضت الحرب على الكثيرين منهم . وكانت الحرب من نوع ما — حرب مدينة ضد مدينة ، أو طبقة ضد طبقة — هى الحالة المألوفة العادية فى بلاد اليونان . وعلى هذا النحو أخذت هذه البلاد التى هزمت ملك الملوك يقاتل بعضها بعضاً ، فيلقى اليونانى فى ألف موقعة ، ولم يكد يمضى قرن واحد على معركة مرثون حتى أخذت الحضارة اليونانية ، وهى أزهى حضارات التاريخ على الإطلاق ، تفنى نفسها بهذا الانتحار القومى الطويل الأمد .

الفصل الخامس

الطباع

إذا كان هؤلاء الأقوام المتخاصمون الطائشون لا يزالون يخلبون عقولنا ويستدرون عطفنا ، فما ذلك إلا لأنهم يسترون خطاياهم وعيوبهم المكشوفة بما طبعوا عليه من قوة المغامرة والذكاء التى تبعث البهجة فى النفوس . لقد كان قرب البحر من الأثينيين ، وما أتاحه لهم هذا القرب من فرص تجارية نادرة ، وحرصهم على الحرية فى حياتهم الاقتصادية والسياسية ، مما جعل الأثينى إنساناً مرن العقل والطبع ، سريع التهيج والحساسية إلى أقصى حد . ألا ما أعظم ما يتبينه الإنسان من تغير الطباع حين ينتقل من الشرق إلى أوربا ، فهو ينتقل من الأصقاع الجنوبية الوسنانة إلى أقاليم وسطى فى شتائها من البرودة ما يكفى لبعث النشاط دون ركود ، وفى صيفها من الدفء ما يطلق القوى دون أن يضعف الجسم والروح . هنا يكون الإيمان بالحياة وبالإنسان ، والتحمس للحياة تحمساً لا نجد له نظيراً قبل عصر النهضة .

من هذا الوسط المنبه المنشط تنبعث الشجاعة وتنبعث الثورة العاطفية البعيدة كل البعد عن فضيلة ضبط النفس (Saphrosyne) التى يدعو إليها الفلاسفة دون جدوى ، وعن الرصانة التى يعزوها الشاب ونكلمان Winckelmann والشيخ جوته إلى اليونان العاطفيين القلقين . ليست المثل العليا لأية أمة من الأمم عادة إلا ستاراً يخفى عن الأعين الفاحصة حقيقة أمرها ، ولذلك فإن الواجب يقضى بألا تعد من الحقائق التاريخية . إن الشجاعة والاعتدال — أو الرجولة (Andreia) وعدم الإفراط فى شىء ما (Meden agan) إذا شئت الألفاظ التى نقشت على جدران معبد دلفى — شعار اليونانى ؛ وهو يحقق أولها فى كثير

من الأحوال أما ثانيهما فلا يحققه من اليونان إلا الفلاحون ، والفلاسـفة ، والقديسون . أما الأثيني العادى فهو رجل شهوانى ولكنه رجل ذو ضمير حى ، ولا يرى خطيئة فى ملاذ الجسم ويجد فيها الجواب العاجل للتشاؤم الذى يخيم عليه فى فترات تفكيره ، وهو مغرم بالخمر ولا يستحى أن يسكر منها بين الفينة والفينة ، ويحب النساء حباً جثمانياً لا يكاد يشعر بأن فيه خطيئة ما ، ولا يجد حرجاً فى أن يعفو عن نفسه بعد أن يرتكب خطيئة الاختلاط الجنسى الشاذ ، ولا يرى أن تنكب طريق الفضيلة كارثة لا يمكن النجاة منها . ولكنه رغم هذا يخفف الخمر بإضافة ثلاثة أقداح من الماء لكل قدحين منها ، ويرى أن تكرار السكر مخالف لمقتضيات الذوق السليم ، وهو يعظم الاعتدال بل يعبده مخلصاً فى عبادته إياه ، ولكنه قلما يسـير عليه فى حياته العملية ، ويصوغ مبدأ السيطرة على النفس صياغة لا تجاريها فى الوضوح صياغة أى شعب آخر فى التاريخ لهذا المبدأ السامى .

إن الأثينيين أذكى من أن يكونوا صالحين ويسخرون من البلاهة أكثر مما يمقتون الرذيلة ، وليسوا كلهم حكماء ؛ وليس لنا أن نتصور أن نساءهم كلهن حسان مثل نسكا Nausica ، أو أن فيهن من أسباب الجلال ما فى هلن ، كما لا يحق لنا أن نتصور أن رجالهم يجمعون بين شجاعة أجاكس وحكمة نسطور : لقد حفظ لنا التاريخ أسماء عباقرة اليونان وغفل عن ذكر بلهائهم (عدا نيشياس Nicias) ؛ وقد يبدو عصرنا نفسه عظيماً حين ينسى معظمنا ، ولا ينجوا من هذا النسيان إلا الشوامخ منا . وإذا أخرجنا من حسابنا ما يبعثه قدم العهد فى القلوب من عطف وحنان على الأقدمين ، بقى أن نقول إن الأثيني العادى لا يقل دهاء عن الشرقى ، ولا يقل شغفاً بالجدة عن الأمريكى ، متشـوف طلعة على الدوام ، لا ينقطع عن الحركة والانتقال ، ولا ينفك ينادى بالمذهب البرمنيدى(*) ، ولكنه مضطرب مهتاج مثل هرقليطس . ولم يكن لشعب قبل الأثينيين ما كان لهم من قوة الخيال أو

(*) نسبة إلى الفيلسوف برمنيدس الإيلى (القرن السادس قبل الميلاد) . (المترجم)

فصاحة اللسان ؛ ولقد كان التفكير الواضح والتعبير الخالى من الغموض يبدوان للأثيني من الصفات القدسية ، فلم يكن يطيق التشويش والارتباك العلمى ، ويرى أن الحديث الدقيق القائم على المعرفة والذكاء أرقى متع الحضارة . ولقد كان سبب ما امتاز به التفكير وما امتازت به الحيـاة من غزارة وقوة ، أن اليونانى كان يرى أن الإنسان هو المقياس الذى تقدر به الأشياء جميعها ؛ فالأثيني المتعلم يعشق العقل ، وقلما كان يشك فى قدرته على إدراك العالم وتصويره ؛ وكان حب المعرفة والرغبة فى الفهم أنبل عواطفه وأعظم مشتهاته ؛ وكان شغفه بهما شغفاً مسرفاً قوياً كشغفه بغيرهما . ولقد كشف فيما بعد أن للعقل الإنسانى والجهود البشرية حدوداً يقفان عندها ولا يتخطيانها ، وكان من الطبيعى أن يكون رد الفعل المترتب على هذا الكشف أن تنتابه حالة من التشاؤم عجيبة لا تتفق قط مع بهجته ومرحه ، وحتى فى العصر الذى بلغ فيه إنتاجه الفكرى غايته ، كانت آراء أعمق مفكريه — وهم كتاب المسرحيات لا الفلاسـفة — تشوبها عقيدته فى أن بهجة الحياة خداعة قصيرة الأجل ، وأن الموت رابض له متربص به .

وكانت روح البحث هى التى أنشأت علوم اليونان ، كما كان الحرص على الاستحواذ منشأ حياتهم الاقتصادية والعامل المسيطر عليها . وفى هذا المعنى الأخير يقول أفلاطون مبالغاً كعادة علماء الأخلاق : « إن حب الثراء يستحوذ كل الاستحواذ على قلوب الرجال ، فلا يفكرون إلا فى أملاكهم الخاصة ، التى تتعلق بها نفس كل مواطن »(٥٣) . فالأثينيون فى حقيقة أمرهم حيوانات متنافسة ، وبهذه المنافسة القاتلة التى لا هوادة فيها ولا رحمة ، يحفز بعضهم بعضاً . وهم على جانب كبير من الذكاء ، ولا يقلون دهاء واحتيالا عن الساميين ، وهم صلاب الرأى صلابة العبرانيين كما وصفتهم التوراة ، وهم مثلهم مشاكسون ، معاندون ، متكبرون ، كثيرو اللجاج والمساومة

فى البيع والشراء ، لايتركون نقطة فى حديثهم من غير جدل ومناقشة ؛ إذا عجزوا عن محاربة غيرهم من الأمم تحاربوا فيما بينهم . وليسوا على جانب كبير من رقة العواطف ، يعيبون على يوربديز دموعه فى مسرحياته ، يشفقون على الحيوان ويقسون على الإنسان : فهم يعذبون العبيد دون ذلب ، ويخيل إلى من يراهم أنهم ينامون ملء جفونهم بعد أن يذبحوا جميع من فى المدينة من غير المحاربين ، ولكنهم مع ذلك يكرمون العاجز والفقير ، ودليلنا على ذلك أنه لما علمت الجمعية أن حفيدة أرستجيتون Aristogeition قاتل الطغاة تعيش فى لمنوس فقيرة معدمة ، أمدتها بالمال ليكون لها بائنة ولتحصل به على زوج لها . وكان المظلومون المضطهدون من المدن الأخرى يجدون فى أثينة ملجأ يحميهم ويعطف عليهم .

والحق أن الأثينى لم يكن يفكر فى الأخلاق كما نفكر فيها نحن الآن ، فهو لا يأمل أن يكون له ما للصالحين من أفراد الطبقة الوسطى من ضمير ، أو ما للأشراف من شعور بالشرف ، بل يرى أن أحسن الحياة هى الحياة الكاملة ، المليئة بالصحة ،والقوة، والجمال،والانفعال ، والثراء ،والمغامرة ، والتفكير . والفضيلة عنده هى الرجولة ((Arete — أو الحربية كما كان معنى اللفظ فى بادئ الأمر — والتفوق (Ares أى المريخ) ، وهى تقابل بالضبط كلمة viritus عند الرومان ومعناها الرجولة . والرجل المثالى عند الأثينيين هو الكلوجاثوس Kalogathos أى الذى يجمع بين الجمال والعدالة فى فن من فنون العيش الراقية ، والذى يقدر فى صراحة قيمة الكفاية ، والشهرة ، والثراء ، والصداقة ، كما يقدر الفضيلة وحب الإنسانية . ويرى الأثينى كما يرى جوته أن ترقية النفس هى كل شىء . ويختلط بهذا المبدأ عنده قدر من الغرور لا نستسيغه نحن لصراحته : فاليونان لا يملون الإعجاب بأنفسهم ، ويعلنون فى كل مقام تفوقهم على غيرهم من المحاربين ، والكتاب ، والفنانين ، والشعوب بأسرها . وإذا شئنا أن نعرف الفرق بين اليونان والرومان فما علينا إلا أن نوازن بين الفرنسيين والإنجليز ، وإذا أحببنا أن نحس بالروح

الإسبارطية وندرك الفرق بينها وبين الروح الأثينية فما علينا إلا أن نفكر فى روح الألمان وروح الفرنسيين .

وقد اجتمعت صفات الأثينيين كلها لتقيم دولة — المدينـة ، ففيها ولدت قوتهم وشجاعتهم ، وحدة ذكائهم وألمعيتهم ، وشقشقة لسانهم ، وشدة مراسهم ، ومحبتهم للكسب ، وشدة غرورهم ، ووطنيتهم ، وعبادتهم للجمال والحرية ، وفى دولة المدينة اجتمعت هذه الصفات كلها وبلغت غايتها . وهم سريعو الانفعال ولكنهم لا يميلون كثيراً مع الهوى . ويجيزون التعصب الدينى من آن إلى آن ، غير أنهم لا يتخذونه وسيلة للحد من حرية الفكر ، بل يتخذونه سلاحاً من أسلحة السياسة الحزبية ، ورباطاً لتجاربهم الأخلاقية . أما فيما عدا هاتين الحالتين ، فهم يستمسكون بقدر من الحرية ، يندهش منه زوارهم الشرقيون ويبدو فى نظرهم الفوضى بعينها ، ولكن حريتهم هذه ، وكون كل منصب من مناصب الدولة ميسراً لكل مواطن ، وكون كل مواطن محكوماً تارة وحاكماً تارة أخرى ، لكن هذه الأمور هى التى جعلتهم يخصصون نصف حياتهم لخدمة دولتهم . ولم يكن بينهم إلا المكان الذى ينامون فيه ، أما حياتهم فكانوا يقضونها فى السوق العامة ، وفى الجمعية ، والمجلس ، والمحاكم ، وساحات الأعياد الكبرى والمباريات ، وفى مشاهدة المسرحيات التى يمجدون بها مدينتهم وآلهتها . وهم يعترفون بحق الدولة فى أن تجندهم وتستولى على أموالهم متى احتاجت إليهم وإليها . وهم يعفون عن إرهاقها إياهم واستيلائها على أموالهم ، لأن عملها هذا يتيح لهم فرصة النماء الإنسانى أكبر مما عرفه الإنسان فى أى عصر من العصور السابقة ، وهم يحاربون دفاعاً عن مدينتهم لأنها مهد حرياتهم وحارستها . وفى ذلك يقول هيرودوت : « وبهذا زاد الأثينيون قوتهم ، ويتضح كل الوضوح ، من هذا ومن شواهد أخرى كثيرة ، أن الحرية من أعظم النعم : ألست ترى أن الأثينيين ، وهم خاضعون لحكم الطغاة ، لم يكونوا يفوقون جيرانهم فى الشجاعة أدنى تفوق ، ولكن لم يكادوا يتحررون من نير الطغاة حتى صاروا أشجع الشجعان بلا منازع »(٥٤) .

الفصل السادس

العلاقات الجنسية قبل الزواج

تبدو أثينة إبان مجدها شرقية أكثر منها أوربية فى أخلاق أهلها ، كما تبدو كذلك فى حروفها الهجائية ، وفى مقاييسها وموازينها ، وسكتها . وملابسها ، وموسيقاها ، وفلكها ، وطقوسها الصوفية : فنى الأخلاق يعترف الرجال والنساء اعترافا صريحا بأن العلاقة الجنسية هى أساس الحب ، ولذلك لم يكن شراب العشاق الذى تعصره السيدات المشتاقات يقدم للرجال المهملين لأغراض أفلاطونية خالصة . لقد كانوا يطلبون إلى النساء المحترمات أن يكن عفيفات قبل الزواج ، أما الرجال غير المتزوجين فلم تكن تفرض على شهواتهم الجنسية ، بعد أن يبلغوا الحلم ، إلا القليل من القيود الخلقية . وقد كانت الأعياد الكبرى ، وهى دينية فى أصلها ، صمامات الأمان لما طبعت عليه البشرية من شهوة جنسية مختلطة ؛ فكانوا فى هذه المناسبات يتغاضون عن التحرر من القيود فى العلاقات الجنسية لاعتقادهم أن هذا ييسر لهم فيما بقى من العام أن يقتصر كل منهم على زوجته الوحيدة . ولم يكن الأثينيون يرون أن فى اتصال الشبان بالخليلات من آن إلى آن شيئاً من العار ، ولقد كان فى وسع المتزوجين أنفسهم أن يبسطوا حمايتهم على تلك الخليلات ، ولا ينالهم لهذا السبب عقاب أخلاقى أكثر من تأنيب زوجاتهم فى بيوتهم وشىء قليل من سوء السمعة فى المدينة(٥٨) . وكانت أثينة تعترف بالبغاء رسميا وتفرض ضريبة على البغايا .

وأصبح العهر فى أثينة ، كما أصبح فى معظم مدن اليونان ، مهنة كثيرة الرواد ، ذات فروع مختلفة لكل فرع إخصائيات . وكانت السبيل ميسرة أمام ذات الكفاية للترقى فى هذه المهنة كما كانت ميسرة للترقى فى غيرها من

المهن فى تلك المدينة . وكانت أسفل طبقة من العاهرات هى طبقة البرناى pornai؛ ويسكن معظم افرادها فى بيرية فى مواخير عامة يسهل على الجمهور الاستدلال عليها بصورة قضيب بريابوس المعلقة عليها . وكان رسم الدخول فى هذه المواخير أوبلة واحدة ، وكان الداخل يجد فيها البنات فى أثواب لا تكاد تستر منهن شيئاً ، ولذلك يسمين الجمناى (أى العاريات) ، وكن يجزن لمن يرون ابتياعهن أن يختبروهن كما تختبر الكلاب فى بيوتها . وكان فى وسع الرجل أن يعقد الصفقة التى يريدها الزمن الذى يبتغيه ، ويتفق مع ربة البيت على أن يستأجر منها بنتا تعاشره أسبوعا ، أو شهرا ، أو سنة . وكانت البنت أحيانا تؤجر بهذه الطريقة لرجلين أو أكثر من رجلين فى وقت واحد توزع وقتها بينهم حسب مواردهم المالية[٦١] . وتلى هذه الطبقة عند الأثينيين طبقة العازفات على القيثارة ، وأولئك يستخدمن ، كما تستخدم المسامرات فى اليابان ، فى الليالى « الحمراء » يمرحن ويعزفن ، ويرقصن رقصا فنيا أو خليعا مثيرا للشهوات ، ثم يبتن مع من يريدهن من الرجال[٦٢] . وكانت قليلات من عجائز العاهرات يدرأن عن أنفسهن شر الفاقة بإنشاء مدارس لتدريب تلك البنات العازفات ، يعلمنهن كيف يجملن أنفسهن ، ويسترن عيوب أجسامهن ، ويسلين الرجال بالعزف على الآلات الموسيقية ، كما يعلمنهن كيف يتصنعن الحب والدلال . وقد حرصت الروايات المتواترة على أن تحتفظ العاهرات جيلا بعد جيل ، احتفاظ الإنسان بأثمن تراث ، بالطرق التى يلهبن بها القلوب ، كالتظاهر بالحب بعقل وروية ، وإطالة أمده بتصنع الدلال والإباء ، والحصول به على أكبر أجر مستطاع[٦٣] . لكن بعض العازفات ، إذا صدقنا ما قاله عنهن لوشيان بعد ذلك العصر ، كانت لهن قلوب رحيمة رقيقة ، وكن يعرفن الحب الحقيقى ، ويضحين بأنفسهن من أجل عشاقهن كما ضحت بنفسها كامى Camille . إن قصة العاهر الشريفه قصة قديمة شاب قرناها وخلع عليها طول الزمن شيئاً من الجلال والتبجيل .

وكانت ارق طبقات العاهرات الأثينيات هي طبقة المتايراى Hetairai ومعناها الحرفى الرفيقيات . ولم تكن هؤلاء الرفيقات مثل طبقة البورناى تتكون فى الغالب من نساء شرقيات المولد ، بل كانت تتألف فى العادة من بنات المواطنين اللائى سقطن لسبب من الأسباب ، أو فررن من العزلة المفروضة على العذارى والنساء الأثينيات . وكن يعشن مستقلات بأنفسهن ويستقبلن فى بيوتهن من يخوين من العشاق . وكانت كثرتهن سمراوات بطبيعتهن ، ولكنهن كن يصبغن شعرهن باللون الأصفر لاعتقادهن أن الأثينيين يفضلون الشقراوات ، وكن يميزن أنفسهن بلبس أثواب منقوشة بالورد ، ولعل هذه الثياب كان يفرضها عليهن القانون(٦٤) . وكان بعضهن يحصلن على قدر لا بأس به من التعليم بالقراءة المستقلة من حين إلى حين ، وبالاستماع إلى المحاضرات ، وكن يسلين روادهن المثقفين بحديثهن المنطوى على قدر من العلم والثقافة . وقد اشتهرت منهن تاييس Thais وديوتيما Diotima وثارجليا Thargelia ، وليونتيوم Leontium ، كما اشتهرت أسبازيا ، بمناقشاتهن الفلسفية ، واشتهرن أحياناً بأساوبهن الأدبى المصقول(٦٥) . وذاعت شهرة الكثيرات منهن بفكاهاتهن الحلوة ، وفى الآداب الأثينية لهن مجموعة من المقطوعات الشعريه الفكهية(٦٦) . وكانت العاهرات على اختلاف طبقاتهن محرومات من الحقوق المدنية ، لا يجوز لهن أن يدخلن هيكلا من الهياكل عدا هيكل الإلاهين أفروديتى بندموس Aphrodite Pondenos ، ولكن قلة مصطفاة من المتايراى كانت لهن منزلة عالية فى مجالس الرجال الاجتماعية فى أثينة ، ولم يكن أحد من الرجال يستحى أن يُرى فى صحبتهن ، وكان الفلاسفة يتبارون فى كسب ودهن ، ومن المؤرخين من يروى تاريخهن بنفس الخشوع والإجلال الذى يرويه به فلوطرخس(٦٧) .

وبهذه الطرق خلدت بعضهن أسماءهن . فمن هؤلاء كلبسدرا التى سميت كذلك لأنها كانت تخرج عشاقها من عندها بعد ساعات محددة تحصيها بساعة

رملية ؛ ومنهن ثرجيليا Thargelia متا هارى Mata Hari[*] زمانها ، التى خدمت الفرس بأن ضاجعت أكبر عدد مستطاع من ساسة أثينة [٦٨] ؛ وثيوريس Theoris التى خففت عن سفكليز متاعب شيخوخته ، وأرشبى Archippe التى خلفتها فى هذا العمل حوالى العقد التاسع من حياة هذا الكاتب المسرحى [٦٩] ؛ ومنهن أركيانسا Archeanassa التى كانت تسلى أفلاطون [٧٠] ، ودانى Danae وليونتيوم Leontium اللتين علمتا أبيقور فلسفة اللذة ؛ ومنهن تمستونوئى Themistonoe التى ظلت تمارس مهنتها حتى فقدت آخر سن من أسنانها وآخر خصلة من شعرها ؛ ومنهن ناثينا Gnathaena التى كانت تطلب ألف درخمة (ألف ريال أمريكى) ثمناً لمضاجعة ابنتها ليلة واحدة ، لأنها قضت وقتاً طويلا فى تدريبها وإعدادها لمهنتها [٧١] . وكان جمال فرينى Phryne حديث أثينة كلها فى القرن الرابع ، وذلك لأنها لم تكن تظهر أمام الناس إلا وهى محجبة من رأسها إلى قدمها ، ولكنها فى عيدى إلوزيا وبسدونيا تخلع ثيابها أمام الناس كلهم وتسدل شعرها على جسمها وتنزل البحر لتستحم [٧٢] ، وقد عشقت بركستيليز المثال ، ووقفت أمامه لينحت على صورتها تماثيل أفروديتى . وعلى صورتها أيضاً نحت أبليز تمثال أفروديتى أناديومونى Aphrodite Anadyomene [٧٣] . وأثرت فرينى من عشاقها إثراء أمكنها من أن تعرض استعدادها لإعادة بناء أسوار طيبة إذا وافق الطيبيون على نقش اسمها على هـــذه الأسوار ، ولكنهم أصروا على رفض هذا الغرض . ولعلها تغالت فيما طلبته إلى يوثياس Euthias من أجر لها ، فثار لنفسه منها باتهامها بالإلحاد ؛ ولكن أحد أعضاء المحكمة كان من زبائنها ، كما كان هيبريدز الخطيب من عشاقها المفتونين بها ، ودافع عنها هيبريدز ولم يستخدم فى هذا الدفاع بلاغته فحسب بل شق أمام المحكمة جلبابها وكشف عن صدرها ، ونظر القضاة إلى جمالها وبرؤوها من تهمة الإلحاد فى الدين [٧٤] . ويقول أثينيوس

(*) جاسوسة فى الحرب العالمية الأولى . (المترجم)

« يبدو أن لئيس Lais الكورنثية كانت أجمل من أية امرأة وقعت عليها العين »[٧٥] . وتتنازع شرف مولدها مدن لا تقل فى عددها عن المدن التى تتنازع شرف انتساب هومر إليها . ويتوسل إليها المثالون والرسامون أن تقف أمامهم لينحتوا تمثالها أو يصوروها ، ولكنها تتمنع حياء وخجلا ، ثم يتغلب عليها ميرون Myron العظيم فى شيخوخته فتقبل طلبه ؛ حتى إذا خلعت ثيابها نسى وقار شعره الأبيض ولحيته وعرض عليها أن ينزل لها عن كل ما يملك إذا أقامت معه ليلة واحدة ، فتبسمت ضاحكة من قوله ، وهزت كتفيها المستديرتين ، وتركته دون أن ينحت التمثال . وفى صباح اليوم الثانى اشتد به الوجد ، وعادت إليه نشوة المراهقة ، فصفف شعره ، وحلق لحيته ، وارتدى ثوباً رمزى اللون ، وتمنطق بمنطقة ذهبية ، وتقلد قلادة ذهبية ، وتختم فى جميع أصابعه ، وحمر خديه ، وعطر ثيابه وجسمه ، ثم ذهب وهو على هذه الصورة يطلب لئيس ويعلن إليها أنه متيم بها . فنظرت إلى صورته الممسوخة وعرفت من هو ، ثم أجابته بقولها : « أيها الصديق المسكين ، إنك تطلب ما أبيته على أبيك بالأمس »[٧٦] . وجمعت لئيس من مهنتها ثروة طائلة ، ولكنها لم تكن تمنع نفسها عن فقراء العاشقين من ذوى الجمال ؛ وقد أعادت دمستين القبيح الصورة إلى الفضيلة ، بأن طلبت إليه عشرة آلاف درخمة أجر ليلة واحدة[٧٧] . واكتسبت من أرستبس الثرى من المال ما أفزع خادمه[٧٨] ، أما ديجين المعدم فكانت تسلم نفسها إليه بأقل أجر ، لأنها يسرها أن يجثو الفلاسفة أمام قدميها . وقد أنفقت ثروتها فى سخاء فى تشييد المعابد والمبانى العامة ، وعلى الأصدقاء ، ثم عادت آخر الأمر ، كما يعود معظم من على شاكلتها ، فقيرة كما كانت أيام شبابها ، وأخذت تمارس مهنتها صابرة إلى آخر أيام حياتها ، فلما قضت نحبها أقيم لها قبر فخم تكريماً لها ، لأنها كانت أعظم غازية منتصرة عرفها اليونان طول تاريخهم[٧٩] .

الفصل السابع

الصداقة اليونانية

وأعجب من هذا الوفاق بين البغاء والفلسفة اعتراف اليونانيين فى غير حياء بالانحراف الجنسى . فلقد كان أكبر من ينافس العاهرات هم غلمان أثينة ، وكانت العاهرات اللائى يسربلهن العار من قمة رءوسهن إلى أخمص أقدامهن لا يفتأن يندذن بما فى عشق الذكور للذكور من فساد خلقى شنيع . ولقد كان التجار يستوردون الغلمان الحسان ليبيعوهم لمن يدفع فيهم أغلى الأثمان ، وكان هؤلاء يستخدمونهم فى أول الأمر لقضاء شهواتهم ثم يتخذونهم فيما بعد أرقاء[٨٠] . ولم يكن من بين الذكور فى المدينة إلا أقلية ضئيلة تعتقد أن ثمة عيباً فى أن يثير الشباب المخنثون أبناء الأشراف فى المدينة شهوة شيوخها ويشبعوا هذه الشهوة . ولم تكن اسپارطة أقل استهتاراً من أثينة فى هذا الشذوذ الجنسى ، وشاهد ذلك أن ألكمان حين أراد أن يثنى على بعض الفتيات سماهن « أصدقاءه — الغلمان الإناث[٨١] » . وكانت الشرائع الأثينية تحرم من يمارس رذيلة اللواط من الحقوق السياسية[٨٢] ، ولكن الرأى العام كان يتغاضى عن هذه العادة ويجيزها وهو هازل فكه ؛ ولم يكن أهل اسپارطة أو كريت ينظرون إليها نظرة الاستنكار[٨٣] . وكان أهل طيبة يرون أنها معين لا ينضب للشجاعة وحسن النظام العسكرى . وكان هرمديوس وأرستجيتون ، وهما أعظم بطلين تعتز أثينة بذكراهما ، من قتلة الطغاة وعشاق الغلمان. وكان ألسبيديز أحب الناس إلى الشعب الأثينى فى أيامه ، وكان يفتخر بكثرة من عشقه من الرجال . ولقد ظل « العشاق اليونان » إلى أيام أرسطاطاليس يعلنون ولاءهم لمعشوقيهم عند قبر أيولوس رفيق هرقل[٨٤] ؛ ويصف أرستپس زنوفون قائد الجيوش الذى اشتهر

بأنه من أشد رجال العلم صلابة وعناداً ، بأنه مشغوف بحب الفتى كلينياس Cleinias[٨٥] . وتمثل علاقة الرجل بالغلام ، أو الغلام بغلام مثله فى بلاد اليونان ، جميع مظاهر الغرام الروائى — من عاطفة جياشة ، وحب عذرى ، ونشوة ، وغيرة وعزف وغناء تحت نوافذ المعشوقين ، وطول تفكير ، وتوجع وأنين ، وسهاد طويل[٨٦] . وإذا تكلم أفلاطون فى الفدروس Phaedrus عن الحب الإنسانى ، فإنما يتكلم عن الحب الجنسى بين الذكران ، ويتفق المجادلون فى محاوراته فى نقطة واحدة — هى أن حب الرجل للرجل أنبل وأكثر روحانية من حب الرجل للمرأة[٨٧] . ونرى هذا الشذوذ نفسه بين النساء ، ونراه أحياناً بين أرقاهن مثل سوفو Sopho ، وكثير بين العاهرات ؛ فالعاهرات المسامرات مثلا يحب بعضهن بعضاً أكثر من حبهن من يعشن فى كنفهم من الرجال ، وعاهرات المواخير تروى عنهن أعجب القصص فى عشق بعضهن بعضا[٨٨] .

ترى كيف يفسر الإنسان انتشار هذا الشذوذ الجنسى فى بلاد اليونان ؟ فأما أرسطاطاليس فيفسره بخوفهم أن تزدحم بلادهم بالسكان[٨٩] ، وقد يكون هذا سبباً من أسباب هذه الظاهرة ، ولكن لا جدال فى أن ثمة علاقة بين انتشار اللواط والدعارة فى أثينة من جهة وعزلة النساء من جهة أخرى ، فقد كان الأولاد فى أثينة فى عصر بركليز يؤخذون من أجنحة الحريم فى البيوت حيث تقضى النساء المحصنات حياتهن ، وينشئون عادة فى صحبة أولاد مثلهم أو رجال ، وقلما تتاح لهم فرصة فى طور تكوينهم وفى الفترة التى لم يشعروا فيها بعد برجولتهم ، يدركون فيها جاذبية الحنو النسوى . كذلك كانت حياة الغلمان الجامعة فى اسپارطة ، واشتراكهم فى الطعام ، واجتماعهم فى الأسواق العامة ، والملاعب الرياضية ، وفى مدارس الألعاب فى أثينة ، وحياة معلمات الشباب ، كانت هذه كلها لا يرى فيها الشبان إلا صور الذكور . وحتى الفن نفسه لا يكشف عن الجمال النسوى قبل عهد بركستليز . وقلما كان

الرجال فى حياتهم الزوجية يجدون فى البيوت رفقة عقلية ، ذلك بأن عدم انتشار التعليم بين النساء يحدث ثغرة بين الجنسين فيضطر الرجال إلى البحث فى خارج البيوت عن أسباب المتعــة التى حرموا أزواجهم من الحصول عليها . ولم يكن البيت للمواطن الأثينى حصنه وملجأه ، بل كان مكان نومه . وكان فى كثير من الحالات يقضى النهار كله من مطلع الشمس إلى مغيبها فى المدينة ، وقل أن تكون بينه وبين النساء المحترمات عدا زوجه وبناته أية صلات اجتماعية . لهذا كان المجتمع اليونانى مقصوراً على أحد الجنسين ، يعوزه الحيوية ، والظروف ، والمجاملة ، والاستثارة ، وهى الصفات التى اكتسبتها من روح النساء وسحرهن إيطاليا فى عهد النهضة وفرنسا فى عهد الاستنارة .

الفصل الثامن

الحب والزواج

الحب الروائى موجود بين اليونان ولكنه قلما يكون سبب الزواج ؛ ولسنا نجد إلا القليل منه فى شعر هومر حيث يذكر أجممنون وأخيل كريسيس Chryseis ، وبريسيس Briseis ، ويذكران أيضاً كسندرا التى لا تستجيب لحبهما فى عبارات تنم عن الشهوة الجسمية ؛ لكن فى قصة نسكا ما يحذرنا من أن نعمم هذا الحكم ، ودليلنا على هذا ما نجده من القصص التى لا تقل فى قدمها عن عصر هومر نفسه مثل قصة هرقليط وأيولا ، وقصة أورفيوس ويورديس . كذلك يتحدث الشعراء الغنائيون حديثاً طويلا عن الحب ، ويعنون به فى العادة الرغبة فى إشباع الشهوة ؛ والقصص التى تروى أخبار فتيات يعنّ من فرط الوجد ، كالقصة التى يرويها استسكورس ، نادرة أو تكاد تكون معدومة ، ولكننا حين نرى ثينو Theano زوجة فيثاغورس تصف الحب بأنه « مرض النفس المشتاقة[٩١] » نحس بقوة الحب الروائى الحقيقية . ولما زادت مشاعر اليونان رقة وأحلت الشعر مكان حرارة الجسم ، كثر ذكر العواطف الشعرية الرقيقة ، وأصبح طول الفترة التى تضعها الحضارة بين الرغبة وإشباعها مما يتيح للخيال فرصة يخلع فيها المحاسن على الحبيب المأمول . وقد ظل إيسكلس نفسه هومرى النزعة فى معاملته للنساء ، ولكننا نستمع فى سفكل عن « الحب الذى

يحكم الآلهة بإرادتها(*) »(٩٢) ، وفى شعر يوربيديز مقطوعات كثيرة فى وصف قوة إيروس Eros إله الحب . وكثيراً ما يصف المتأخرون من كتاب لمسرحيات شاباً يهيم بحب فتاة(٩٣) ، ونستشف من أقوال أرسطاطاليس الصفة الحقيقية للعشق الروائى حين يقول « إن المحبين ينظرون إلى أعين أحبائهم ، حيث يستكن الخفر(٩٤) » .

وكانت هذه الشئون وأمثالها فى عصر اليونان الزاهر تؤدى إلى صلات الجنسين قبل الزواج أكثر مما تؤدى إلى الزواج نفسه . ذلك بأن اليونان كانوا يعدون الحب الروائى صورة من « تقمص الشيطان للجسم » أو من الجنون ، وكانوا يسخرون إذا ذكر لهم إنسان أنه وسيلة يهتدى بها إلى اختيار الزوج الصالح أو الصالحة(٩٥) . وكان الزواج عادة يتفق عليه والدا الزوجين كما كان يحصل على الدوام فى فرنسا القديمة ، أو بين خطاب محترفين(٩٦) ، أكبر ما يهتمون به فيه البائنات لا الحب . فقد كان ينتظر من والد الفتاة أن يهيئ لابنته بائنة من المال ، والثياب ، والجواهر ، ومن العبيد فى بعض الأحيان(٩٧) .

(*) قارن هذا بما ورد فى أنتجون :

إذا اشتبك الحب فى نزاع
كسب المعركة لا محالة ،
والحب يسلب الأغنياء متاعهم !
وهو يبيت سهران طول الليل
بخديه الناعمين على وسادة العذراء ،
يبحث عن فريسته على متن البحار ،
وينقب عنها بين ملاجئ الرعاة ،
وليس فى وسع الآلهة أن تفر من سلطانه ،
وهى التى وهبت الخلود ،
فكيف بنا نحن الذين لا تطول حياتهم أكثر من يوم
فما أجن العقل الذى ينطوى عليه (٩٢) !

وكانت هذه البائنة تبقى على الدوام ملكا للزوجة ، وتعود إليها إذا افترقت عن زوجها — وهو نظام يقلل من احتمال طلاقها منه . فإذا لم يكن للبنت بائنة فقلما تجد لها زوجا ، ومن أجل هذا كان أقاربها يجتمعون ليعدوها لها إذا عجز الوالد نفسه عن إعدادها . وبهذه الطريقة انقلب الزواج بالشراء الذى كان كثير الحدوث فى أيام هومر ، فصارت المرأة فى عهد پركليز هى التى تشترى زوجها ؛ ومن هــذا الوضع تشكو ميديا فى إحدى مسرحيات يورپديز . فلم يكن اليونانى إذن يتزوج لأنه يحب ، ولا لأنه يرغب فى الزواج (فهو كثير التحدث عن متاعبه) ، بل ليحافظ على نفسه وعلى الدولة عن طريق زوج جاءته ببائنة مناسبة ، وأبناء يردون عن روحه الشرور التى تصيبها إذا لم تجد من يعنى بها . ولقد كان رغم هذه المغريات كلها يتجنب الزواج ما دام يستطيع تجنبه . ولقد كانت حرفية القانون تحرم عليه أن يبقى عزباً ، ولكن القانون لم يكن ينفذ دائماً فى أيام پركليز ؛ ولما انقضى عهده زاد عدد العزاب حتى صار مشكلة من المشاكل الأساسية فى أثينة[٩٩] . ألا ما أكثر الأمور التى تدهش الإنسان فى بلاد اليونان ! وكان الذين يرضون بالزواج من الرجال يتزوجون متأخرين ، فى سن الثلاثين عادة ، ثم يصرون على الزواج من فتيات لا تزيد سنهن على خمسة عشر عاما[١٠٠] . وفى ذلك تقول إحدى الشخصيات فى مسرحية ليورپديز : « إن زواج الشاب من زوجة شابة شر مستطير(*) ، وسبب ذلك أن قوة الرجل تبقى طويلا ، أما نضرة الجمال فسرعان ما تفارق صورة المرأة »[١٠١] .

فإذا تم اختيار الزوجة ، واتفق على بائنتها ، تمت خطبتها رسمياً فى بيت والدها ؛ ويجب أن يحضر هذه الخطبة شهود ، ولكن حضور الفتاة نفسها لم يكن ضرورياً . فإذا لم تتم هذه الخطبة الرسمية ، لم يعترف القانون الأثينى

(*) لعله يريد أن الرجل يجب ألا يتزوج صغيرا . (المترجم)

بالزواج ، فكانت هذه الخطبة والحالة هذه هى العمل الأول فى مراسم الزواج المعقد . وكانت الخطوة الثانية التى تتبع هذه الخطوة الأولى بعد أيام قلائل هى إقامة وليمة بهذه المناسبة فى بيت الفتاة : وكان الزوج والزوجة قبل أن يحضرا هذه الوليمة يستحمان كل منهما فى بيته استحماما يتطهران به رسمياً ، ثم تقام الوليمة ويجلس رجال الأسرتين فى جانب من جوانب الحجرة ، نساؤها فى جانب آخر ، ثم يأكل الجميع كعكة العرس ويشربون الكثير من الخمر ، ثم يأخذ العريس بيد عروسه المحجبة ذات الثوب الأبيض — ولعله لم يكن قد رأى وجهها من قبل — ويسير بها إلى عربة تقلها معه إلى بيت أمه فى موكب من الأصدقاء ومن الفتيات العازفات على القيثارة ، ويضاء لها الطريق بالمشاعل ، وتنشد لهما أناشيد الزواج . فإذا وصلا إلى البيت حملها وتخطى بها عتبة الدار ، كأنه يمثل بذلك أسرها فى العهد القديم ، ويحيي أبوا الزوج الفتاة ، ويستقبلانها استقبالا دينياً ويدخلانها فى دائرة الأسرة وفى عباد آلهتها ؛ ولم يكن للكاهن دور ما فى مراسم الزواج كلها . ثم يرافق الضيوف الزوجين إلى حجرتهما ، وهم ينشدون أنشودة غرفة الزواج ، ويتلكؤون صاخبين عند بابها حتى يعلن لهم العريس أنه قد جنى ثمرة الزواج .

وكان فى وسع الرجل أن يتخذ له فضلا عن زوجته خليلة يعاشرها معاشرة الأزواج . وفى ذلك يقول دمستين : « إنا نتخـذ العاهرات للذة ، والخليلات لصحة أجسامنا اليومية ، والأزواج ليلدن لنا الأبناء الشرعيين ويعنين ببيوتنا عناية تنطوى على الأمانة والإخلاص »(١٠٢) ، وفى هذه الجملة الواحدة العجيبة جمع دمستين رأى اليونان فى المرأة إبان عصرهم الذهبى . وتبيح قوانين دراكون التسرى ، ولما أن قضت الحروب على العدد الكبير من المواطنين بعد الحملة التى سيرت على صقلية سنة ٤١٥ ق . م ، ولم تجد كثيرات من البنات أزواجاً لهن ، أباح

القانون صراحة الزوج باثنتين ، وكان سقراط ويوربيديز من بين من استجابوا لهذا الواجب الوطني[١٠٣] . وكانت الزوجة عادة تقبل التسرى وتصبر عليه صبر الشرقيات ، لأنها تعرف أن « الزوجة الثانية » متى فارقتها فتنة جمالها أصبحت فى واقع الأمر جارية فى المنزل ، وأن أبناء الزوجة الأولى دون غيرهم هم الذين يعدون أبناء شرعيين . ولم يكن الزنى يؤدى إلى الطلاق إلا إذا ارتكبته الزوجة ، وكان الزوج فى هذه الحال يوصف بأنه يحمل قرنين Keroesses[*] ، وكان من واجبه بحكم العادة أن يخرج زوجته من بيته[١٠٤] . وكان القانون يعاقب الزانية ، والرجل إذا زنى بامرأة متزوجة ، بالإعدام ؛ ولكن اليونان بلغوا من التساهل فى الأمور الجنسية حداً يمنعهم من التشدد فى تنفيذ حكم هذا القانون ؛ فكان عادة يترك للزوج المعتدى عليه أن يأخذ بحقه من الزانى بالطريقة التى يختارها — فتارة يقتله فى حالة التلبس ، وتارة يرسل له عبداً يقتله ، وتارة يكتفى بأن يأخذ منه تعويضاً[١٠٥] .

وكان من السهل على الرجل أن يطلق زوجته ، وكان فى وسعه أن يطردها من بيته متى جاء من غير أن يبدى لذلك سبباً . وكانوا يرون عقم الزوجة سبباً كافياً لطلاقها ، لأن الغرض من الزواج عندهم هو إنجاب الأبناء . أما إذا كان الرجل نفسه عقيماً فقد كان القانون يجيز ، والرأى العام يحبذ ، أن يستعين الزوج فى هذه المهمة بأحد أقربائه . وكان الطفل الذى يولد نتيجة لهذا الاتصال ينسب للزوج نفسه ، وعليه أن يعنى بروحه بعد وفاته . ولم يكن يباح للزوجة أن تترك زوجها متى شاءت ، ولكن كان فى وسعها أن تطلب إلى الأركون أن يطلقها من زوجها إذا قسا عليها أو

(*) وهذا المعنى نفسه موجود فى اللغة العربية فالقرنان عندهم هو الديوث ، وإن كانت المعاجم العربية تقول إن اللفظ مأخوذ من القرينة لا من القرن ، ويقولون فى الإنجليزية to grow horns (المترجم)

تجاوز حد الاعتدال فى شئونه[١٠٦] ، وكان الطلاق يباح أيضاً إذا تراضى الزوجان ؛ وكان هذا التراضى يعبر عنه عادة بإعلانه رسمياً إلى الأركون . وإذا افترق الزوجان بقى الأطفال مع أبيهم حتى إذا ثبت الزنى عليه[١٠٧] . وجملة القول أن العادات والشريعة الأثينية فيما يختص بالعلاقات بين الرجال والنساء كانت كلها من صنع الرجال ، وهى تمثل النكوص عن المستوى الذى وصل إليه المجتمع فى مصر وكريت وبلاد اليونان نفسها فى عصر هومر ، وتميل بالمجتمع الأثينى ناحية الشرق .

الفصل التاسع

المـــرأة

من الأمور التى لا تقل دهشة الإنسان منها عن دهشته من أى شىء آخر فى هذه الحضارة ، أنها ازدهرت من غير أن يكون لها عون أو حافز من المرأة . لقد قام عصر الأبطال ، بفضل معونة النساء ، بجلائل الأعمال وبهذه المعونة أنتج عصر الطغاة روائع الشعر الغنائى ، ثم اختفت النساء المتزوجات من تاريخ اليونان بين يوم وليلة ، كأن الأقدار قد أرادت أن تدحض حجة القائلين بأن ثمة ارتباطاً بين مستوى الحضارة فى بلد ما ومركز المرأة فيه . فبينا نرى المرأة فى تاريخ هيرودوت فى كل مكان ، إذ لا نراها فى تاريخ توكيديدز فى أى مكان ، وترى الأدب اليونانى من سمنيدز الأمرجوسى Semonides of Amorgos إلى لوشان يكرر أخطاء النساء تكريراً تشمئز منه النفس ، وفى آخر هذا العصر يكرر فلوطارخس الرحيم نفسه قول توكيديدز(١٠٨) : « يجب أن يحبس اسم السيدة المصونة فى البيت كما يحبس فيه جسمها(١٠٩) » .

وهذه العزلة النسائية لا وجود لها عند الدوريين ، وأكبر الظن أنها جاءت من الشرق الأدنى إلى أيونيا ، ثم انتقلت من أيونيا إلى أتكا ، فهى جزء من تقاليد آسية . ولعل لاختفاء نظام التوارث عن طريق الأم ، ونشأة الطبقات الوسطى ، وسيطرة النظرة التجارية إلى الحياة ، لعل لهذه الأمور أثرها فى هذا التغير : ذلك أن الرجال فى هذه الأحوال ينظرون إلى النساء نظرة نفعية ، فيجدون أكثر فائدة لهن فى البيت . وتتفق الصبغة الشرقية التى اصطبغ بها الزواج اليونانى مع نظام العزلة الأتكية(Attic) ، فهذا الزواج

يقطع الصلة بين العروس وأقاربها ، فتذهب لتعيش عيشة لا تكاد تختلف عن عيشة الخدم في بيت غير بيتها ، تعبد فيه آلهة غير آلهتها . ولم يكن في مقدورها أن تتعاقد على شيء أو أن تستدين أكثر من مبلغ تافه أو أن ترفع قضايا أمام المحاكم . ومن شرائع صولون أن العمل الذي يقوم به إنسان تحت تأثير المرأة عمل باطل قانوناً[١١٠] ؛ وإذا مات الزوج لم ترث زوجته شيئاً من ماله . وحتى العيب الفسيولوجي في أمور التناسل يعد سبباً مشروعاً لإخضاعها للرجل ؛ فبينا كان جهل الرجل في الأزمنة البدائية بدوره في أمور التناسل يؤدي إلى رفع شأن المرأة ، نرى النظرية السائدة في عصر اليونان الزاهر ترفع من شأن الرجل بتقريرها أن قوة التناسل يختص بها الرجل وحده ، وأن المرأة لا تعدو أن تكون حاملا للطفل ومرضعاً له[١١١] . وكان كبر سن الرجل عن المرأة وقت الزواج من أسباب خضوع المرأة ، فقد كانت سنه في ذلك الوقت ضعفي سنها ، وكان في وسعه إلى حد ما أن يشكل عقلها حسب آرائه وفلسفته في الحياة . وما من شك في أن الرجل كان يعرف ما يتمتع به الرجال من حرية في المسائل الجنسية في أثينة معرفة تمنعه أن يجازف بإطلاق الحرية لزوجته أو ابنته ، فهو يختار الحرية لنفسه على أن يكون ثمنها عزلة زوجته أو ابنته . ولقد كان في وسعها إذا تحجبت الحجاب اللائق بها ، وصحبها من يوثق به ، أن تزور أقاربها وأخصاءها ، وأن تشترك في الاحتفالات الدينية ومنها مشاهدة التمثيل ؛ أما فيما عدا هذا فقد كان ينتظر منها أن تقبع في منزلها وألا تسمح لأحد أن يراها من النافذة . وكانت تقضي معظم وقتها في جناح النساء القائم في مؤخرة الدار ، ولم يكن يسمح لزائر من الرجال أن يدخله ، كما لم يكن يسمح لها بالظهور إذا كان مع زوجها زائر .

وكانت وهي في البيت تكرم وتطاع في كل ما لا يتعارض مع سلطة زو الأبوية . فهي تدبر شئون البيت أو تشرف على تدبيرها ؛ وهي تد

الطعــام ، وتمشط الصوف وتغزله ، وتخيط ثياب الأسرة وتصنع فراشها . ويكاد تعليمها أن يكون مقصوراً على الفنون المنزلية ، لأن اليونان كانوا يعتقدون مثل يوريبديز أن ذكاء المرأة يعوقها عن أداء واجباتها(١١٢). وكانت نتيجة ذلك أن نساء أثينة المحصنات كن أكثر تواضعاً ، وأكثر « فتنة » لأزواجهن من مثيلاتهن فى اسپارطة ، ولكنهن كن فى الوقت نفسه أقل منهن ظرفاً ونضوجاً ، عاجزات عن أن يكن رفيقات لأزواجهن ، لأن عقول هؤلاء الأزواج قد امتلأت وانصقلت بتجاريب الحياة المختلفة ، ومن أجل هذا أفاد الأدب اليونانى كثيراً من اليونانيات فى القرن السادس ولم يفد شيئاً من نساء أثينة فى عصر بركليز .

وقامت فى أواخر هذا العصر حركة تهدف إلى تحرير المرأة . فنرى يوريبديز يدافع عن النساء فى خطب جريئة وغمزات خفيفة ، أما أرسطوفان فيسخر منهن بألفاظ وقحة صاخبة . وتنزل النساء إلى الميدان فى حركة التحرير ويخترن أقوى سلاح فيبدأن ينافسن الهيتاميراى ويجملن أنفسهن بكل ما يمدهن به تقدم الكيمياء من معونة . وشاهد ذلك سؤال تسأله كليونيكا Cleonica فى مسرحية ليسستراتا Lysistrata لأرسطوفان : « أى شىء معقول نستطيع أن نقوم به نحن النساء ؟ إنا لا نستطيع أن نفعل أكثر من أن نجلس جماعات بأدهاننا ، وأصباغ شفاهنا ، وأثوابنا الشفافة وما إلى ذلك »(١١٣) . وتصبح أدوار النساء من عام ٤١١ أكثر شأناً فى المسرحيات الأثينية مما كانت من قبل ، وهى تكشف عن خروج المرأة شيئاً فشيئاً من العزلة التى كانت مفروضة عليها ؛

على أن سلطان المرأة الحقيقى على الرجل يظل قائماً فى خلال هذا التغير كله ، ويجعل خضوعها للرجل خضوعاً غير حقيقى إلى حد كبير . إن اشتياق الرجل للمرأة أكثر من اشتياق المرأة للرجل يكسب المرأة فى اليونان كما يكسبها فى غيرها من البلاد ميزة كبرى عليه . وفى ذلك يقول صمويل چنسن : « سيدى ؛ لقد وهبت الطبيعة المرأة من القوة ما لا تستطيع الشرائع أن تزيد عليه شيئاً »(١١٤)

وقد يضاعف من هذه السيادة الطبيعية أحياناً بائنتها الكبيرة ، أو لسانها السليط ، أو حب زوجها لها حباً يجعله خاضعاً ذليلا لها . وأكثر ما يقوم عليه سلطانها وجمالها ، أو إنجاب الأبناء الظرفاء وتربيتهم ، أو انصهار روحها وروح زوجها فى بوتقة التجارب والواجبات المشتركة ، إلا أن عصراً يستطيع أن يصور شخصيات ظريفة مثل أنتجونى ، والسستيس ، وإفجينيا ، وأندرمكى ، ويصور بطلات مثل هكيبا ، وكسندرا ، وميديا ، إن عصراً يستطيع أن يفعل هذا لا يمكن أن يجهل أسمى ما فى المرأة وأعمق ما فيها . لقد كان الأثينى العادى يحب زوجته ، ولم يكن على الدوام يحاول أن يستر هذا الحب ، وإن الألواح الجنازية لتكشف عن حنو الزوج على زوجته وحنو الآباء على أبنائهن فى داخل جدران المنزل ، وهو فى كلتا الحالين حنو يثير الدهشـــة . وفى دواوين الشعر اليونانية كثير من الشعر الغزلى الواضح الصريح ، ولكن فيه أيضاً كثيراً من المقطوعات الشعرية المؤثرة التى تخاطب بها الرفيقة المحبوبة ! . انظر مثلا إلى هذه القبرية : « فى هذا الحجر وارى مرثونيز Marethonis نيقوپوليس Nicopolis ، وروى صندوقها الرخامى بعبراته ، ولكن هذا لم يجده نفعاً . وهل ثمة فائدة تعود على رجل فارقته زوجته ، وبقى هو وحيداً على ظهر الأرض ؟ »(١١٥)

الفصل العاشر

المنزل

وكانت الأسرة اليونانية ، كالأسر الهندوسية بوجه عام ، تتكون من الأب والأم ، « الزوجة الثانية » أحياناً ، ومن بناتهما غير المتزوجات ، وأبنائهما ، وعبيدهما ، وزوجات أبنائهما وأطفالهم ، وعبيدهم. وقد بقيت هذه الأسرة إلى آخر تاريخ اليونان أقوى الأنظمه فى الحضارة اليونانية ، لأنها كانت وحدة الإنتاج الاقتصادى وأداته فى الزراعة والصناعة على السواء . وكان للأب فى أتكا سلطان واسع فى أسرته ، ولكنه كان أقل من سلطان الأب فى رومة ؛ فقد كان فى وسعه أن يعرض الطفل الحديث الولادة للموت ، ويبيع عمل أبنائه القاصرين وبناته غير المتزوجات ، ويزوج بناته لمن يشاء ، ويختار زوجاً آخر لأرملته بعد وفاته فى بعض الظروف المعينة(١١٦) . ولكن القانون الأثينى لم يكن يجيز له أن يبيع أبناءه أنفسهم ، وكان كل ولد من أولاده إذا تزوج يخرج عن سلطان أبيه ، وينشئ لنفسه بيتاً خاصاً ويصبح عضواً مستقلا فى العشيرة :

ولم يكن البيت اليونانى على شىء من الفخامة . فقلما كان بناؤه الخارجى يزيد على سور سميك خال من الزينة ذى مدخل ضيق ؛ وهو شهادة صامتة على ما كان يكتنف الحياة اليونانية من أخطار . وكانت مادة البناء هى الستوق Stucco ، واللبن فى معظم الأحيان . وكانت بيوت المدينة تتجمع فى شوارع ضيقة ، وترتفع فى الغالب طابقين ، وتكون أحياناً مساكن مستقلة لعدة أسر ، ولكن كل مواطن كان يمتلك فى الغالب بيتاً مستقلا . وظلت المساكن صغيرة فى أثينة حتى ضرب ألسيبيديز لأهلها مثلا فى الفخامة ؛ ذلك

أن النزعة الدمقراطية ، يقويها الحذر الأرستقراطي ، كانت تحول بين الأهلين وبين التفاهم والتظاهر ، وكان تعود الأثيني قضاء أكثر وقته في الهواء الطلق يصرفه عن أن يكون للبيت نفسه من المعنى ومن الإعزاز ما له في المناطق الباردة . وكان لبيت الأثيني الغني في بعض الأحيان مدخل ذو عمد مواجه للشارع ، ولكن هذا كان من المظاهر الشاذة النادرة . كذلك كانت النوافذ ترفاً نادر الوجود ، وإذا وجدت اقتصرت على الطابق الأعلى ، ولم تكن لها ألواح زجاجية ، ولكنها كانت تغلق بمصاريع خشبية ، أو تكون مشبكة لتحجب أشعة الشمس . وكان الباب الخارجي يتكون عادة من مصراعين يدوران على محورين ينفذان في إسكفة الباب وعتبته . وكانت أبواب الكثير من بيوت الأغنياء مطرقة معدنية تتخذ في أغلب الأحيان صورة حلقة في فم أسد(١١٧) . وكان يمتد من مدخل الدار — إلا في دور الفقراء — ممشى يؤدى إلى فناء مكشوف يسمى الأول Aule يرصف عادة بالحجارة ، ويحيط به أحياناً رواق وعمد ، وقد يكون في وسطه مذبح أو حوض أو كلاهما ، مزدان أحياناً بالعمــــد ، ومرصوفة أرضيته بالفسيفساء . ويدخل أكثر الهواء وضوء الشمس إلى البيت من هذا الفناء ، لأن الأبواب جميع حجراته تفتح فيه ، وكان لا بد لمن يريد الدخول من حجرة إلى حجرة أن يدخل الرواق أو الفناء . وكانت الأسرة تقضي معظم حياتها ، وتقوم بأكثر أعمالها ، في ظلال الرواق والفناء وخلوتهما .

وكانت الحدائق نادرة في المدينة ، وتقتصر على مساحات صغيرة في فناء البيت أو خلفه ، أما حدائق الريف فكانت أكثر من حدائق المدينة عدداً وأوسع رقعة ؛ ولكن قلة الأمطار في الصيف وتكاليف الإرواء قد جعلا الحدائق في أتكا ترفاً لا يستمتع به إلا القليلون . ولم يكن اليوناني العادي مرهف الحس بالطبيعة كروسو Rousseau ، وكانت جبال بلاده لا تزال من أسباب متاعبه ، ولهذا لم تكن في نظره جناية جميلة ، وإن كان شعراء اليونان

ينظمون القصائد التى يتغنون فيها بجمال البحر رغم أخطاره الشديدة . ولم تكن الطبيعة تثير عواطفه ، بقدر ما كان يتخيله فيها من كائنات روحية ، فهو يملأ الغابات ومجارى المياه فى بلاده بالآلهة والأشباح ، وإذا فكر فى الطبيعة لم يكن تفكيره فى جمال مناظرها ، بل فى أنها مكان تتنعم فيه أرواح الأبطال الذين قتلوا فى الميدان . وهو يطلق على جباله وأنهاره أسماء الأرباب الذين يسكنونها ، ولا يرسم الطبيعة ذاتها بل يرسم بدلا منها صوراً رمزية للآلهة التى تبعث فيها الحياة حسب ما تحدثه ديانته الشعرية ، أو ينحت لها تماثيل ترمز إلى هذه الآلهة . ولم ينشئ اليونانى لنفسه حديقة أو « جنة » ينعم بها ، وظل كذلك حتى عادت إليه جيوش الإسكندر بأساليب الفرس وذهبهم . ومع هذا فقد كانت الأزهار محبوبة فى بلاد اليونان كما كانت محبوبة فى غيرها من البلاد ، وكانت الحدائق تنبتها ، وبائعات الأزهار تمدهم بها ، طوال العام . فكانت الفتيات البائعات يتنقلن من بيت إلى بيت يبعن الورد ، والبنفسج ، والزنبق والنرجس ، والسوسن والآس ، والليلق ، والزعفران ، وشقائق النعمان . وكانت النساء يزين شعرهن بالأزهار ، والشبان المتأنقون يضعونها خلف آذانهم ؛ وكان الرجال والنساء يخرجون فى الأعياد وحول رقابهم عقود من الأزهار(١١٨) .

وكان البيت من داخله غاية فى البساطة . فأما الفقراء فكانت أرض بيوتهم طيناً جف وتصلب ، فلما زاد دخل هؤلاء أخذوا يغطون هذه الطبقة الأرضية بالحصباء أو يرصفونها بحجارة مستوية ، أو بقطع منها صغيرة فى أرضية من الأسمنت . كما كان أهل الشرق الأدنى يفعلون من أقدم الأزمان . وكانوا أحياناً يغطون هذا بالحصر أو الأبسطة . وكانت الجدران المقامة من الآجر تطلى بالجص أو بالجير . وكانوا يدفئون أنفسهم على مواقد من نحاس يخرج دخانها من أبواب الحجرات إلى فناء الدار ، ولم يكونوا يحتاجون إلى هذه التدفئة أكثر من ثلاثة أشهر فى العام . وتكاد البيوت أن تكون خالية من

الزينة ، لكن الأغنياء فى أواخر القرن الخامس أخذوا يزينون بيوتهم بالأبهاء ذات العمد ، وجدرانهم بقطع من الرخام أو بطلاء يجعلها شبيهة بألواح الرخام ، ويعلقون على هذه الجدران صوراً ملونة أو قطعاً من القماش المزركش ، ويحلون سقفها بنقوش على الطراز العربى . وكان الأثاث قليلا فى البيوت العادية — فلم يكن يزيد على بضعة كراسى وصناديق ، وقليل من النضد ، وسرير . وكانت الوسائد توضع على الكراسى بدل المقاعد المنجدة ، ولكن كراسى الأغنياء كانت تزين فى بعض الأحيان بنقوش محفورة فيها بعناية فائقة ، أو تطعم بالذهب أو بأصداف السلاحف ، أو العاج . وكانت الصناديق تتخذ أصونة ومقاعد معاً ، وكانت النضد صغيرة ، تقف عادة على ثلاث أرجل ، وهذا هو سبب تسميتها « بالطرابيزات » أى ذات الأرجل الثلاث . وكان يؤتى بها مع الطعام ثم ترفع بعده ، وقلما كانت تستخدم فى غير هذا الغرض ، فقد كانوا يكتبون على ركبهم . وكانت الأرائك والأسرة من وسائل الزينة المحبوبة ، وكانوا يعنون كثيرا بحفرها وتطعيمها وكانت لهم حشايا ووسائد وأغطية للفرش مطرزة ووسائد للرأس مرتفعة وكانت المصابيح تعلق من السقف أو توضع على قواعد ، أو تتخذ شكل مشاعل جميلة النقش .

وكان المطبخ مجهزاً بكثير من الأوانى المختلفة المصنوعة من الحديد ، والبرنز ، والخزف . أما الزجاج فكان من مواد الترف النادرة . ولم يكن يصنع فى بلاد اليونان . وكان الطعام يطهى فوق نار فى العراء ، أما المواقد فكانت بدعة اخترعت فى البلاد التى اصطبغت بالصبغة اليونانية . وكانت الوجبات الأثينية بسيطة . مثلها فى ذلك مثل الوجبات الاسپارطية ، وتختلف كثيراً عن الوجبات البؤوتية ، والكورنثية ، والصقلية ؛ فإذا كان الأثينيون ينتظرون قدوم ضيف يريدون تكريمه استخدموا فى العادة طاهياً محترفاً ، وكان دائماً من الرجال . وكان الطهو فناً راقياً ألفت فيه

كثير من الكتب واشتهر به كثير من الأبطال ، فمن الطهاة اليونان من لا تقل شهرتهم لدينا عن شهرة آخر الأبطال الفائزين فى الألعاب الألمپية . وكان الأثينيون يعدون من يأكل منهم بمفرده جلفا غير مهذب ، وكانت آداب المائدة عندهم دليلا على ارتقاء الحضارة . وكان الأولاد والنساء يجلسون حول موائد صغيرة ، أما الرجال فكانوا يتكئون على آرائك تتسع الواحدة لرجلين . وكانت الأسرة تأكل مجتمعة إذا لم يكن عندها غرباء ؛ فإذا كان لديها ضيوف من الرجال انسحبت نساء الأسرة إلى جناح الحريم . وكان الخدم يخلعون نعال الضيوف أو يغسلون لهم أقدامهم قبل أن يتكئوا على الأرائك ويقدمون لهم الماء ليغسلوا به أيديهم ؛ وكانوا فى بعض الأحيان يدهنون لهم رءوسهم بالزيوت المعطرة ؛ ولم يكونوا يستخدمون السكاكين أو الشوك ، ولكنهم كانوا يستخدمون الملاعق ، ويتناولون الطعام بالأصابع . وكانوا فى أثناء الطعام ينظفون أصابعهم بلقيمات من الخبز ، ويغسلونها بعدئذ بالماء . وكان الخدم يملئون قدح كل ضيف قبل تناول الحلوى من آنية تحتوى على خمر مخفف بالماء . وكانت الصحاف من الخزف ، ثم ظهرت الصحاف الفضية فى آخر القرن الرابع ؛ وبدأ المتأنقون فى الطعام والشراب يزداد عددهم فى القرن الرابع ؛ ومن هؤلاء رجل يدعى بيثلس Pithyllus صنع للسانه وأصابعه أغطية يستطيع بها أن يأكل الطعام مهما كانت حرارته(١١٩) . وكان منهم بعض من يقتصرون على الخضر ، وكان ضيوف هؤلاء يسخرون منهم ويشكون كعادة الضيوف مع أمثالهم . من ذلك قول أحدهم : « إنه هرب من وليمة لا تقدم فيها إلا الخضر خشية أن تكون حلواها هى الدريس »(١٢٠) .

ولم يكن الشراب أقل شأنا عندهم من الطعام ، فكان الغذاء (الديپنون deipnon) يتلوه الشراب الجماعى symposion . وكان فى اسپارطة وأثينة

أندية للشراب تتوثق العلاقة بين أعضائها توثقا تصبح معه هذه الأندية أدوات سياسية عظيمة القوة .

وكانت الإجراءات التى تتبع فى الولائم كثيرة التعقيد ، وكان الفلاسفة أمثال زنوكراتس Xenocrates وأرسطاطاليس يرون أنه يحسن بهم أن يضعوا لها قوانين(١٢١) .

وكانت الأرض التى يلقى عليها ما لا يؤكل من الطعام تنظف بعد الانتهاء من تناوله ، ويطوف عليهم الخدم بالروائح العطرية والخمر الكثير . ثم يرقص الضيوف إذا شاءوا ، ولكنهم لم يكونوا يرقصون أزواجاً أو مع النساء (لأن الرجال وحدهم هم الذين كانوا يدعون عادة إلى الولائم) بل جماعات ، أو كانوا يلعبون ألعاباً كالكتوموس(*) ، أو يتقارضون الشعر ، أو يتبادلون الملح ، أو الألغاز ، أو يشاهدون ألعاباً يقوم بها رجال محترفون ونساء محترفات ، كالبهلوانة التى يحدثنا عنها زنوفون « مقالاته الدورية » ، والتى تقذف اثنى عشر طوقاً دفعة واحدة ثم ترقص رقصة الانقلاب فى الهواء فى داخل طوق ، « أحيط من جميع جوانبه بالسيوف القائمة »(١٢٥) . وكان يحدث أحياناً أن تظهر أمام الضيوف بنات يعزفن على القيثارات ، ويغنين ، ويرقصن ، ويغازلن غزلا دبر أمره من قبل . وكان الأثينيون المتعلمون يفضلون عن هذا أن يجتمعوا ليتناقشوا نقاشا ينظمه لهم رئيس منهم يختارونه بقذف النرد . وكان الضيوف يحرصون على ألا ينقسم المجلس إلى طوائف صغيرة لأن معنى هذا الانقسام فى العادة أن كل طائفة تتحدث مستقلة ، بل كانوا يحرصون على أن يكون الحديث عاما ،

(*) وكانت هذه اللعبة تتكون من قذف السائل من قدح بحيث يصيب جسما صغيرا على بعد منه .

وكانوا يصغون إلى كل متحدث إذا جاء دوره بالأدب والعطف الذى يسمح به ما هم فيه من مرح . وما من شك فى أن الحديث الظريف الذى يقصه علينا أفلاطون من نسيج خيال هذا الفيلسوف النابه ؛ ولكن أكبر الظن أن أثينة قد شهدت محاورات لا تقل حيوية عن محاورات أفلاطون ، وسواء كان ذلك أو لم يكن فإن المجتمع الأثينى هو الذى أوحى إلى أفلاطون بمحاوراته ، وهذا المجتمع هو مرجعها وموضوعها . وفى وسط هذا الجو المنعش المنبه جو النابهين الأحرار تكونت العقلية الأثينية .

الفصل الحادى عشر

الشيخوخة

لقد كان اليونانى يحب الحياة ويكره الشيخوخة ويندبها . على أن هذه الشيخوخة نفسها كان فيها ما يذهب ببعض أحزانها ، فقد كان يعزى الشيخ الهرم أن يرى قبل أن يبلى جسمه حياته الجديدة فى صورة أبنائه وأحفاده فيخدع نفسه ويظنه مخلدا ، كأنه درهم بال عاد إلى دار الضرب ليصهر ويسك من جديد . لسنا ننكر أن فى تاريخ اليونان أمثلة من إهمال الشباب للشيوخ أو إساءة معاملتهم إهمالا وإساءة مبعثهما الأثرة الممقوتة ، وسبب ذلك أن المجتمع الأثينى مجتمع تجارى ، فردى النزعة ، مجدد غير محافظ ؛ وكل هذه عوامل تجعله ينزع إلى عدم الشفقة على الشيوخ ، لأن احترامهم من خصائص المجتمع الدينى المحافظ مثل مجتمع اسپارطة ؛ أما الدمقراطية فإن ما فيها من حرية يحل عرى الصلات ، ويركز اهتمام الناس بالشباب ، ويفضل الجديد على القديم . ولهذا نجد فى تاريخ الأثينيين أمثلة عدة لأبناء يستولون على ملك آبائهم فى حياتهم ، وإن لم يثبت العته على هؤلاء الآباء[١٢٣] ، ولكن سفكليز ينجى نفسه من هذا المصير ، ولا يكلفه هذا أكثر من أن يقرأ للمحكمة أن تنظر فى أمره فقرات من آخر مسرحية له . غير أن الشرائع الأثينية تأمر الأبناء أن يعولوا آباءهم العجزة أو الطاعنين فى السن[١٢٤] ، والرأى العام ، الذى يخشاه الناس على الدوام أكثر مما يخشون القانون ، يفرض على الشباب أن يبجلوا الكبار ويتواضعوا أمامهم . ويروى أفلاطون أن من الأمور المسلم بها أن يظل الشباب الحسن التربية صامتاً فى حضرة الكبار إلا إذا طلب إليه الكلام[١٢٥] : وفى الآداب الأثينية صور كثيرة للشباب المتواضع ، منها المحاورات الأولى لأفلاطون

ومنها مقالات زنوفون الدورية ، وفى هذا الأدب قصص مؤثرة عن وفاة الأبناء للآباء ، كوفاة أرمنتيز لأجممنون ووفاة أنتجونى لأوديب .

فإذا حانت منية الشيخ حرص الأحياء أشد الحرص على أن يجنبوا روحه كل ما يستطيعون أن يجنبوها من الآلام . فالجسم يجب أن يدفن أو يحرق ، وإلا فإن الروح تهيم قلقة مضطربة حول العالم ، وتثأر لنفسها من أبناء الشيخ المهملين . فقد تظهر مثلا فى صورة طيف ، وتصيب النبات والإنسان بالأمراض والكوارث . وكان إحراق الموتى أكثر انتشاراً فى عصر الأبطال ودفنهم أكثر انتشاراً فى العصر الذهبى . والدفن عادة مأخوذة عن الميسينيين وقد بقيت إلى العصر المسيحى ، ويبدو أن عادة إحراقهم جاءت إلى بلاد اليونان مع الآخيين والدوريين . لأن عاداتهم البدوية لا تمكنهم من أن يعنوا العناية الواجبة بالقبور . وجملة القول أن الدفن أو الإحراق واجب يلزم به الأثينيون ، وقد بلغ من حرصهم عليه أن القواد المنتصرين فى أرجنوسى قد أعدموا [illegible] عاصفة حالت بينهم وبين استعادة جثث موتاهم ودفنها .

وأبقت عادات الدفن اليونانية الأساليب القديمة إلى ما بعد عصرها بزمن طويل . من ذلك أن الجثة كانت تغسل بالماء ، وتدهن بالعطور ، وتكلل بالأزهار ، وتلبس أحسن ما تستطيع الأسرة أن تبتاعه لها من الثياب ، ثم توضع أبلة بين أسنانها لتؤديها أجراً لكارون صاحب القارب الأسطورى الذى ينقل الموتى فى نهر أستيكس إلى مقرهم الأخير(*) . وتوضع الجثة فى تابوت من الفخار أو الخشب . وكان من أمثال اليونان الأقدمين قولهم « إن إحدى قدمى الشخص فى التابوت » ويعنون بذلك ما نعنيه نحن بهذا المثل

(*) لقد كان من عادة اليونان أن يحملوا الكعكة فى أفواههم .

نفسه(*) . ويتخذ الحزن على الموتى عدة مظاهر مقررة : منها لبس الثياب السود ، وقص الشعر كله أو بعضه ليقدم هدية للميت . وفى اليوم الثالث بعد الموت تحمل الجثة فى نعش ويطوف موكب الجنازة بشوارع المدينة ، والنساء من خلف الجثة يبكين ، ويضربن صدورهن ، وقد تستأجر نادبات محترفات يندبن الميت . وتصب الخمر على التراب الذى يغطى القبر لتروى به روح الميت غليلها ، وقد تذبح بعض الحيوانات لتكون طعاماً لها . ويضع مشيعو الجنازة على القبر أكاليل من الأزهار أو ورق السرو[١٢٧] ، ثم يعودون إلى منزل الميت ليحتفلوا بالجنازة . وإذ كان من معتقداتهم أن روح الميت تشهد هذا الاحتفال ، فقد كان من عاداتهم المقدسة « ألا يذكروا عن الميت إلا الخير(**) » . وقد كانت هذه العادة منشأ قانون قديم يفرض على الأحياء ألا يذكروا إلا محاسن الموتى ؛ ولعلها هى أيضاً منشأ ما يكتب على شواهد القبور من مديح . وكان أبناء الميت يزورون قبور أسلافهم فى مواسم معينة ، ويقدمون لهم الطعام والشراب ؛ وقد تعهد أهل بلاتية بعد المعركة المسماة باسم مدينتهم والتى قتل فيها عدد من اليونان من مختلف المدن ، تعهدوا أن يقيموا لجميع الأموات وليمة سنوية ، وكانوا لا يزالون يوفون بوعدهم هذا بعد أن مضت على المعركة ستة قرون كاملة .

وكانت الروح تنفصل من الجسم بعد الموت وتصبح طيفاً غير مادى يسكن فى الجحيم . ويستفاد من أقوال هومر أن الأرواح التى ارتكبت ذنوباً شنيعة أو مرقت من الدين هى وحدها التى تعذب فى تلك الدار ، أما سائر الأرواح

(*) ويقابل هذا قول عامة مصر « إن رجله فى القبر » .

(**) قارن هذا بقولنا : « اذكروا محاسن موتاكم » . (المترجم)

بعدئذ ، سواء كانت أرواح قديسين أو مذنبين ، فكان مصيرها كلها أن تطوف إلى أبد الدهر حول مملكة پلوتو المظلمة . وقد نشأ فى التاريخ اليونانى على تعاقب الأيام اعتقاد جديد بين الطبقات الفقيرة مضمونه أن الجحيم مكان يكفر فيه المذنبون عن ذنوبهم ؛ ويصور إسكلس زيوس وهو يحاسب الموتى فى ذلك المكان ، فيعاقب المذنبين ، وإن كان لا يذكر كلمة واحدة عن إثابة الصالحين (١٢٩) . ولسنا نسمع إلا القليل عن الجزائر المباركة أو الحقول الإليزية مواطن السعادة الأبدية التى ينعم فيها عدد قليل من أرواح الأبطال . فالتفكير فيما ينتظر جميع الأموات من مصير محزن نكد يخيم على الأدب اليونانى ويجعل الحياة اليونانية أقل بهجة وانشراحاً مما يجب أن تكون عليه الحياة تحت هذه السماء الصافية .

الباب الرابع عشر

الفن اليونانى فى عصر پركليز

الفصل الأول

زينة الحياة الدنيا

تقول إحدى الشخصيات فى كتاب « الاقتصاد » لزنوفون : « جميل أن ترى الأحذية مرتبة فى صف حسب أنواعها ؛ وجميل أن ترى الثياب والأغطية مقسمة حسب منافعها ؛ وجميل أيضاً أن ترى أوانى الطبخ مرتبة بذوق وتنسيق ، وإن سخر من ذلك الثرثارون المتفيهقون . أجل إن الأشياء جميعها بلا استثناء يزداد جمالها إذا نسقت وصفت بانتظام . فهذه الأوانى كلها تبدو حينئذ كأنها مجموعة متناسقة يكمل بعضها بعضا ومركزها المتكون منها جميعاً يخلق فيها جمالا يزيده بُعد القطع الأخرى من المجموعة .

هذه الفقرة التى كتبها قائد حربى تكشف عن مدى إحساس اليونان بالجمال ، وعن بساطة هذا الإحساس وقوته . وهذا الإحساس بأهمية الشكل والتناسق ، وبالدقة والوضوح ، وبالتناسب والنظام ، هو العامل الأساسى فى الثقافة اليونانية ؛ وتراه واضحاً فى شكل كل وعاء ومزهرية ونقشهما ، وفى كل مؤلف يونانى فى العلم والفلسفة . إن الفن اليونانى هو العقل مجسما واضحاً والتصـــوير اليونانى هو منطق الخطوط ، والنحت اليونانى هو عبادة التناسب ، والعمارة اليونانية هى الهندسة الرخامية . ليس فى الفن

البركليزى مغالاة فى العواطف ، ولا شذوذ فى الشكل أو محاولة تهدف إلى التجديد عن طريق الغريب غير المألوف(*) ؛ وليس الغرض الذى يرمى إليه هو تمثيل ما فى الحقائق الواقعية من الخلط وعدم التناسق ، بل الغرض من هذا الفن هو الاستحواذ على جوهر الأشياء الذى ينيرها ، وتصوير إمكانيات الناس المثالية . ولقد استحوذ السعى للحصول على الثراء والجمال والمعرفة على عقول الأثينيين فشغلهم عن التفكير فى التقى والصلاح ، وفى ذلك يقول أحد المدعوين إلى وليمة عند زنوفون : « قسما بالآلهة جميعهم أنى لو أعطيت كل ما لملك الفرس من سلطان لفضلت عليه الجمال »(٣) .

ولم يكن اليونانى ، مهما تكن الصـورة التى يرسمها له الروائيون فى العصور التى هى أقل من عصره رجولة ، عابداً مخنثاً للجمال ، أو إنساناً يستخفه الطرب ويتغنى بأسرار الفن حباً فى الفن ، بل كان يُخضع الفن فى فكره للحياة ، ويفكر فى الحياة على أنها أعظم الفنون على الإطلاق . وكان ذا نزعة نفعية تميل به عن الجمال الذى لا نفع فيه ، وكان النافع والجميل والطيب مرتبة كلها فى تفكيره ارتباطها فى فلسفة سقراط(**) ، وكان يرى أن الفن هو قبل كل شىء تجميل طرق الحياة ووسائلها . فكان يتطلب أن تكون آنيته ومصابيحه ، وصناديقه ونضده ، وسرره وكراسيه نافعة وجميلة معاً ، وألا تبلغ من الرشاقة والجمال حداً يفقدها صلابتها . وكان وضوح « إدراكه للدولة » يوحد بينه وبين قوة المدينة وعظمتها ، فاستخدم من ثم آلاف الفنانين لتجميل أماكنها العامة ، وتعظيم أعيادها ، وإحياء تاريخها . وأهم من هـذا كله أنه كان يحرص على أن يكرم آلهته ، ويستجلب عطفهم ورضاهم ، ويعبر عن شكره لهم لمـا وهبوه من حياة أو نصر . وكان يهدى إليهم النذور من الصور والتماثيل ، ويهب الهياكل الشىء

(*) يقول توكيديدز على لسان بركليز : « نحب الجمال دون إسراف »(٢) .

(**) يقول استندال Stendhal : « ليس الشىء الجميل عند الأقدمين إلا صورة رائعة للشىء النافع »(٤) .

الكثير من ماله ، ويستأجر الفنانين لينحتوا صور آلهته أو موتاه فى الحجارة . ومن أجل هذا لم ينشأ الفن اليونانى ليوضع فى المتاحف فيتردد عليها الناس ليتأملوه فى اللحظات القليلة التى يشعرون فيها بالرغبة فى إشباع حاسة الجمال ، لكنه نشأ لكى يخدم مصالح الناس ومشروعاتهم الحقيقية ؛ ولم يكن ما صاغه من تماثيل لأپلو قطعاً متينة من الرخام تصف فى معرض للفن ، بل كانت صوراً تمثل أرباباً محبوبة ؛ ولم تكن المعابد أماكن يعجب بها الزائرون ، بل كانت مواطن لهذه الأرباب الحية ، ولم يكن الفنان فى المجتمع الأثينى ناسكا يعتزل الناس مفلساً عاكفاً فى مرسمه ، يعبر عما فى نفسه بلغة لا يفهمها المواطن العادى ؛ بل كان فى حقيقة أمره صانعاً ماهراً ، يشتغل مع عمال من جميع الدرجات بعمل عام يفهمه جميع الناس . وقد جمعت أثينة من جميع أنحاء اليونان طائفة من الفنانين ، ومن الفلاسفة والشعراء ، أكبر مما جمعته أية مدينة أخرى فى العالم إذا استثنينا رومة فى عهد النهضة . وكان هؤلاء الناس يتنافسون أشد التنافس ويتعاونون فيما بينهم فى ظل حكم مستنير ، وبفضـــل هذين التنافس والتعاون حققوا إلى حد كبير أحلام بركليز .

والفن يبدأ فى المنزل وبشخص الفنان . فالناس يصورون أنفسهم قبل أن يصوروا شيئاً آخر ، ويزينون أجسامهم قبل أن يزينوا بيوتهم ؛ فالحلى ، كأدهان الزينة ، قديمة العهد قدم التاريخ نفسه . ولقد برع اليونانى فى قطع الجواهر ونقشها ، وكان يستخدم فى هذا العمل آلات بسيطة من البرنز ، كالمثاقب البسيطة والأنبوبية ، وحجر الجلخ ، ومادة للصقل مكونة من (الصنفرة) والزيت(٥) . ولكن عمله مع هذا كان يبلغ من الدقة والإتقان درجة يحتاج إنجاز دقائقها ، فى أكبر الظن ، إلى منظار مكبر ، وإلى هذا المنظار بلا ريب لتتبع هذه الدقائق(٦) . ولم تكن النقود على درجة كبيرة من الجمال فى أثينة حيث كانت صورة البومة الكثيية هى التى تنقش على معظم النقود ؛

وكانت إليس صاحبة الزعامة على جميع مدن اليونان الأصلية فى هذا الميدان ، ثم أصدرت سرقوسة فى أواخر القرن الخامس قطعة ذات عشر درخمات لم تفقها قط قطعة أخرى فى جمالها الفنى . وقد احتفظ فنانو كاسيس بزعامة المدن اليونانية فى النقش على المعادن ، وكانت كل مدينة فى حوض البحر الأبيض المتوسط تعمل للحصول على أدواتها الحديدية ، والنحاسية ، والفضية . وكانت المرايا اليونانية أبعث للسرور مما تستطيعه معظم المرايا بطبيعتها ، ذلك أن الإنسان وإن لم يكن فى وسعه أن يرى خياله واضحاً كل الوضوح فى سطح من البرنز المصقول ، فإن المرايا نفسها كانت على أشكال مختلفة جذابة ، وكثيراً ما كانت منقوشة نقشاً متقناً بديعاً ، وكانت تحملها تماثيل الأبطال ، أو النساء الحسان ، أو الآلهة .

وظل الفخرانيون يمارسون صنع الأشكال ويتبعون الأساليب التى كانت لديهم فى القرن السادس محتفظين بهزلهم ومنافساتهم التقليدية . وكانوا أحياناً ينقشون على الآنية قبل إحراقها كلمة حب يوجهونها إلى غلام ؛ وقد جرى فدياس نفسه على هذه العادة حين حفر على إصبع الصورة التى صنعها لزيوس : « إن بنتاركس جميل » . وفى النصف الأول من القرن الخامس وصل طراز الصور الحمراء ذروته فى مزهرية أخيل وبنثيسيليا ، وكأس إيسوپ والثعالب المحفوظة فى متحف الفاتيكان ، وصورة أرفيوس بين التراقيين المحفوظة فى متحف برلين . وأجمل من هذه كلها قوارير الدهن البيضاء التى صنعت فى منتصف ذلك القرن . وكانت هذه القوارير الرفيعة تصنع لأموات خاصة وتدفن معهم عادة ، أو تلقى فوق كومة الحطب التى تحرق عليها أجسامهم حتى يمتزج ما فيها من الزيت المعطر بلهب الحطب . وحاول ناقشو المزهريات أن يحتذوا مستقلين فرديين فى عملهم ، وكانوا أحياناً ينقشون على الآنية قبل إحراقها موضوعات لو رآها فنانو العصر القديم المحافظون لأثارت دهشتهم . من ذلك أن مزهرية رسمت عليها صورة شبان يعانقون بعض عشيقاتهم بلا حياء ، ورسم على مزهرية أخرى

رجال يتقايئون وهم خارجون من وليمة ؛ وعلى مزهرية تصغير هذه وتلك صور تمثل كل ما يستطاع عمله فى شئون التربية الجنسية(٨). وقد ترك صناع المزهريات فى عصر پركليز — بريجوس Brygus. وسوتاذيز، وميدياس — الأساطير القديمة واختاروا لهم مناظر من حياة الناس فى عصرهم، وأكثر ما كانوا يسرون منه حركات النساء الرشيقة، ولعب الأطفال الطبيعى. وكانوا أصدق فى رسمهم من سابقيهم: فكانوا يظهرون من الجسم منظره الجانبى أو يظهرون ثلاثة أرباع منظره الكامل؛ وكانوا يبينون الضوء والظل باستعمال محلول للطلاء الزجاجى خفيف أو غليظ، ويرسمون الصور بحيث تبين الخطوط الخارجية والعمق وثنايا أثواب السيدات. وكانت كورنثة وچيلا الصقلية مركزين لطلاء المزهريات الدقيقة التى كانت تصنع فى ذلك العهد، ولكن أحداً لم يكن يشك فى تفوق الأثينيين على كل من عداهم فى هذه الناحية. ولم يكن الذى انتزع السيادة من فخرانى السرمكس (حى الفخرانيين فى ضواحى أثينة) هو منافسة غيرهم من الفخرانيين، بل كان قيام فن النقش المنافس لفنهم هذا. وحاول رسامو المزهريات أن يردوا هذا الهجوم بتقليد موضوعات الناقشين على الجدران وطرزهم، ولكن أذواق العصر لم تكن معهم، وأخذ فن الفخرانى يتحول شيئاً فشيئاً فى خلال القرن الرابع من فن جميل إلى صناعة تسد حاجة الناس.

الفصل الثاني

نشأة فن التصوير

اجتاز تاريخ التصور اليوناني خمس مراحل ، فني القرن السادس كان معظمه يهدف إلى تزيين الخزف وبخاصة المزهريات ؛ وفى القرن الخامس كان أهم ما يعنى به العمارة وبخاصة طلاء المبانى العامة والتماثيل بالألوان المختلفة ؛ وفى القرن الرابع كان يحوم حول المنازل والأفراد فيزين المساكن ويرسم الصور ؛ وفى العصر الذى اصطبغت فيه البلاد الخارجية بالصبغة اليونانية كان معظمه فردياً يخرج صوراً تباع لمن يرغب فيها من الأفراد . وقد بدأ فن التصوير حين تفرع من الرسم العادى وبقى إلى آخر مراحله رسماً وتخطيطاً فى أساسه وجوهره ؛ وقد استخدم فى تطوره ثلاث طرق : طريقة المظلمات أو التصوير على الجص الطرى ، وطريقة الطلاء المائى أو التصوير على الأقمشة أو الألواح المبللة بألوان ممزوجة بزلال البيض ، وطريقة تثبيت الرسوم بالحرارة وذلك بمزج الألوان بالشمع المذاب ؛ وكانت هذه الطريقة الأخيرة أقرب ما صل إليه الأقدمون إلى طريقة التصوير بالزيت . ويؤكد لنا بلنى — وهو الذى لا يقل أحياناً عن هيرودوت رغبة فى تصديق كل ما يسمع — أن فن التصوير قد تقدم فى القرن الثامن تقدما جعل كندولس Candaules ملك ليديه يبتاع صـورة من صنع بولاركس Bularchus بمثل وزنها ذهباً[٩] . لكن بداية كل الأشياء غامضة. وفى وسعنا أن ندرك ما كان لهذا الفن من الشهرة فى بلاد اليونان إذا علمنا أن بلنى قد خصه من صفحاته بأكثر مما خص به النحت . ويبدو أن الرسوم الجيدة التى أنتجها عصر اليونان الذهبي كانت موضع النقاش من النقاد وموضع

الإجلال من الشعب وأنها لم تكن تقل فى هذين عن أعظم نماذج فنى العمارة والنحت[١٠] .

ولم يكن پوبلجنوتس Polygnoius الثاسوسى أقل شهرة فى بلاد اليونان فى القرن الخامس من إنكتينس Inctinus أو فدياس . ونجد هذا المصور فى أثينة فى عام ٤٧٢ ؛ ولعل سيمون الثرى هو الذى توسط له فكلف بتزيين عدة مبان عامة ورسم صور على جدرانها(*) . وقد صور فى ذلك العهد على الاستوا Stoa ، التى سميت من ذلك الحين البوسيلى Boecile أو الرواق المصور ، والتى اشتق منها بعد ثلاثة قرون اسم فلسفة زينون(**) ، صور عليها منظر نهب طروادة — ولم يكن ذلك المنظر منظر المذبحة الرهيبة التى حدثت فى ليلة النصر ، بل كان منظر السكون الرهيب الذى ساد المدينة فى صباح اليوم الثانى ، والمنتصرون قد هدأ من سورتهم ما يحيط بهم من الخراب ، والمغلوبون ملقون على الأرض هادئين . وقد رسم على هيكل الديسكوريين صورة اغتصاب اللوسيپيديات . وكان تصويره النساء فى أثواب شفافة سابقة احتذاها من جاء بعـــده من الفنانين . ولم تثر هذه البدعة ثائرة المجلس الأمفكتيونى ، بل إن هذا المجلس دعا پوبلجنوتس إلى دلفى حيث صور فى اللسكى Lesche أو ردهة الاستراحة صورة أوديسيوس فى الجحيم وصورة أخرى لانتهاب طروادة . وكانت هذه الصور كلها مظلمات كبيرة خالية من المناظر الطبيعية أو الخلفيات ، مزدحمة بصور الأشخاص إلى حد كان لا بد معه أن يستعان بعدد كبير من المساعدين ليرسموا بالألوان ما بين الخطوط الخارجية التى خططها المصور بعناية فائقة . أما الصورة الجدارية التى تمثل طروادة فكان فيها بحارة منلوس على أهبة الإبحار عائدين إلى بلاد اليونان ؛ وكانت هلن تجلس فى وسط الملاحين ، ومعها كثيرات غيرها من النساء ولكنهن كن جميعاً يبهرهن جمالها الفتان ،

(*) وقد جازى سيمون على عمله هذا بأن أحب أخته الپنيس ورسم صورة لها تمثل لوديسيا بين الطروادبات[١١] .

(**) لفظة stoi أى رواق مشتقة من stoa كما اشتقت اللفظة العربية من رواق .

ووقفت أندرمكي فى إحدى الزوايا محتضنة أستياناكس ؛ ووقف فى زاوية أخرى غلام صغير يتعلق بمذبح من شدة الخوف ، وعلى بعد من البحارة كان جواد يتمرغ على رمال الشاطئ (١٢) . فى هذه الصورة كانت مسرحية « الطرواديات » قبل أن يكتبها يوربديز بخمسين عاماً . وأبى پوليجنوتس أن يتقاضى أجراً على عمله هذا ، ووهب الصور لأثينة ودلفى كرماً منه وثقة بقدرته ومواهبه . وأعجبت بلاد اليونان كلها بعمله ، ومنحته أثينة مواطنيتها . وقرر المجلس الأمفكتيونى أن يحل ضيفاً على حساب الدولة فى كل مدينة يونانية ينزل بها (كما كان يريد سقراط لنفسه) ، ولم يبق من آثاره كلها إلا قطعة صغيرة من اللون على جدار فى دلفى تذكرنا بأن الخلود الفنى ليس إلا لحظة عابرة فى حساب الأزمنة الجيولوجية .

وفى عام ٤٧٠ ق . م أقامت دلفى وكورنثة مباريات دورية فى التصوير تعقد كل أربع سنين لتكون جزءاً من الألعاب البيثية والبرزخية . وتقدم الفن وقتئذ تقدماً أمكن پانينس شقيق فدياس (أو ابن أخيه) أن يرسم صوراً لقواد الأثينيين والفرس فى واقعة مرثون يمكن تمييز أشخاصهم فيها . ولكنه كان حتى ذلك الوقت لا يزال يضع الأشخاص المصوَّرين جميعهم فى مستوى ويجعل طول قامتهم كلهم واحداً ، ولم يكن يمثل البعد بتصغير حجم الأشخاص شيئاً فشيئاً وبتنظيم الضوء والظل ، بل كان يمثله بالخطوط المنحنية التى تمثل الأرض الواقفين عليها . ثم تقدم الفن فى عام ٤٤٠ خطوة هامة . ذلك أن أجاثارخس Agatharchus ، الذى استخدمه إسكلس وسفكليز ليرسم مناظر مسرحياتهما تبين أن ثمة علاقة بين الضوء والظل من جهة والبعد من جهة أخرى . وكتب رسالة فى فن المنظور بوصفه وسيلة لإيجاد الخداع المسرحى . وعالج أنكساغوراس ودمقريطس الفكرة من الناحية العلمية ، فلما أوشك القرن على نهايته اشتهر اپلودورس Apollodorus الأثينى باسم اسكياجرافوس Skiagraphos أى مصور الظلال ، لأنه رسم صوراً استخدم

فيها الضوء والظل ، ولذلك قال عنه بلني إنه كان « أول من رسم الأشياء كما تبدو حقاً[١٤] .

على أن المصورين اليونان لم يفيدوا من هذه الاستكشافات فائدة تامة ؛ فكما أن صولون كان يسخر من الفن المسرحي ويعتقد أنه خداع ، فكذلك يبدو أن الفنانين كانوا يرون أنه لا يليق بهم وأنه يحط من كرامتهم أن يظهروا السطح المستوى بمظهر الجسم ذى الثلاثة الأبعاد . ولكن فن المنظور وتوزيع الضوء والظل هما اللذان رفعا من شأن زكسيس Zeuxis تلميذ أپلودورس وجعلاه أعظم المصورين فى القرن الخامس . وقد قدم زكسيس من هرقلية (پنتيكا Pontica ؟) إلى أثينة حوالى ٤٢٤ ق . م ، وعد مجيؤه إليها حادثاً تاريخياً خطيراً رغم ضجيج الحرب القائمة وقتئذ . وكان « شخصاً » جريئاً مغروراً بنفسه ، يصور تصوير المغرورين . وكان فى الألعاب الأولمبية يتبختر فى قباء ذى مربعات طرز عليه اسمه بالذهب ؛ وكان فى مقدوره أن يكون له مثل هـــذه القباء لأنه كان وقتئذ قد جمع « من عمله ثروة طائلة »[١٥]. ولكنه كان يعمل بعناية الفنان العظيم وإخلاصه ، ولما أن أخذ اجثاركس Agatharchus يزدهى بسرعته فى التصوير رد عليه زكسيس فى هدوء : « إنى أحتاج إلى وقت طويل » . وتخلى عن عدد كبير من روائع صوره بحجة أنها لا تقدر بثمن مهما عظم ، وكان الملوك يعدون أنفسهم ســعداء حين يحصلون عليها ، ولم تكن المدن أقل حرصاً على اقتنائها من الملوك .

ولم يكن فى جيله إلا منافس واحد هو پرهسيوس Parrhassius الإفسوسى الذى لا يكاد يقل عنه فى عظمته ، ولم يكن بالتأكيد أقل منه عجباً بنفسه . وكان پرهسيوس يضع على رأسه تاجاً من الذهب ويلقب نفسه « أمير المصورين » ، ويقول إنه أوصل الفن إلى درجة الكمال[١٧]. وكان يعمل هذا كله فى مرح ومزاح ويغنى وهو يرسم[١٨] . وتقول الشائعات إنه اشترى عبداً وعذبه لكى يدرس عليه ما يبدو على وجهه من مظاهر الألم فيستطيع أن يرسم صورة پروميثيوس[١٩] . وما أكثر القصص متى يتناقلها الناس عن الفنانين . وكان

پرهسيوس واقعياً مثل زكسيس . وقد بلغ من صدق صورة العداء وإتقانها أن الناظرين إليها كانوا يتوقعون أن يروا العرق يتصبب من الصورة ، وأن يروا العداء نفسه يسقط من فرط الإعياء . ومن صوره صورة كبرى على جدار ، هي صورة أهل أثينة يمثلهم فيها قساة ورحماء ، متكبرين وأذلاء ، متوحشين وجبناء ، متقلبين وكرماء ؛ ويبلغ من أمانته في هذه الصورة أن الجمهور الأثيني — على ما تقول الرواية — أدرك لأول مرة ما في طباعه من تعقيد وتناقض(٣٠) .

وأدى التنافس الشديد بينه وبين زكسيس Zeuxis إلى اشتراك الرجلين في مباراة عامة . ذلك أن زكسيس رسم بعض عناقيد العنب رسما بلغ من إتقانه ومشابهته للعنب الطبيعي أن الطيور حاولت أكله . وأعجب المحكمون أشد الإعجاب بهذه الصورة ، ووثق زكسيس من الفوز وثوقاً جعله يأمر پرهسيوس أن يزيح الستار الذي يخفي وراءه الصورة التي رسمها الفنان الإفسوسي ؛ فلما تبين أن الستار جزء من الصورة ، وأن زكسيس نفسه قد خدع اعترف في غير حقد بهزيمته . ولم يفقد زكسيس بهذا شيئاً من شهرته ، فقد اتفق في كرتونا على أن يرسم صورة لهلن توضع في معبد هيرا اللسينية Lacinian Hera ، على شريطة أن تقف أمامه عاريات أجمل خمس نساء في المدينة ، ليختار من كل واحدة منهن أجمل ما فيها ، ثم يجمع مما أخذه منهن صورة ثانية لربة الجمال(٣١) . وحييت بنلپي بفضل تصويره حياة جديدة ، ولكن أكثر ما كان يعجب به من صُوَره صورة رياضي كتب تحتها يقول إن الناس يجدون نقده أيسر عليهم من مجاراته . وكانت بلاد اليونان كلها تسر من غروره وتتحدث عنه بقدر ما تتحدث عن أي كاتب مسرحي ، أو حاكم سياسي ، أو قائد حربي . ولم يكن أحد أوسع منه شهرة إلا المتبارون لنيل الجوائز الرياضية .

الفصل الثالث

أساتذة النحت

---

١ – أساليبهم

على أن التصوير بقى رغم هذا التفوق غريباً على العبقرية اليونانية التي كانت تحب الشكل أكثر مما تحب اللون ، والتي جعلت تصوير العصر الذهبي (إذا حكمنا عليه بأقوال الناس فيه) دراسة فى الجماد للخطوط والتصميم لا إداركاً حسياً لألوان الحياة . أما ما كان يولع به الرجل اليوناني ويسر منه فهو منتجات النحت ، ولذلك كان يملأ بيته ، وهياكله ، وقبوره ، بتماثيل صغيرة من الطين المحروق ، ويعبد آلهته بتصويرها فى الحجارة ، ويقيم على قبور موتاه ألواحاً منقوشة تعد من أكثر منتجات الفن اليوناني وأوقعها فى النفس . وكان العمال الذين ينقشون هذه الألواح من الصناع غير ذوى الحذق ، ينقشون ما حفظوه عن ظهر قلب ، ويكررون ألف مرة الموضوع المألوف ؛ موضوع فراق الأحياء للأموات فراقاً هادئاً وأيدى الأحياء مقبوضة . غير أننا يجدر بنا أن نذكر أن فى هذا الموضوع من النبل ما يحتمل التكرار . لأنه يظهر ما اتصف به خلائق العصر الذهبي من ضبط للنفس فى أحسن صوره ، ويعلم النفس المرهفة الحس أن الشعور يبلغ أقصى قوته حين يعبر عن نفسه بصوت هادئ منخفض . وتظهر هذه الألواح الموتى ، أكثر ما تظهرهم ؛ يعملون عملا من أعمال الحياة الدنيا — كطفل يلعب بالطوق ، وبنت تحمل إبريقاً ؛ ومحارب يعجب بعدته الحربية ، وفتاة تفخر بحليها ، وغلام يقرأ كتابه وكلبه راقد تحت مقعده.

راض بموضعه ولكنه يرقب سيده . وتظهر هذه الألواح الموت مظهر الحادث الطبيعى ، وهو لذلك عندهم شىء يمكن العفو عنه ، وعدم الحقد عليه .

وأكثر من هذه الألواح تعقيداً ما خلفه هذا العصر من نقوش محفورة هى أرق ما وجد من نوعها ؛ ويمثل أحدها أرفيوس يلقى نظرة وداع طويلة على يوريديس Eurydice التى استردها هرمس إلى العالم السفلى[٢٢] . وفى نقش ثان نرى دمتر تعطى تربتولموس الحية الذهبية التى يستحدث بها فن الزراعة فى بلاد اليونان ؛ ولا يزال بعض اللون فى هذا النقش لاصقاً بالحجر ، يوحى بما كان عليه النقش اليونانى فى العصر الذهبى من روعة وصدق تعبير[٢٣] . وأجمل من هذين النقشين مولد أفروديتى الذى حفره على أحد أوجه « عرش لدفيزى »(*) حفار غير معروف لعله تدرب على فنه فى أيونيا . وترى فيه إلهتان ترفعان أفروديتى من البحر ، وثوبها الرقيق المبلل ملتصق بجسمها ، يظهر كل ما فيه من روعة الأنوثة الناضجة . ورأسها شبيه بعض الشبه برءوس الأسيويات ، ولكن أثواب من يرافقنها من الإلهات ووقفتهن الرشيقة الجميلة عليهما طابع العين واليد اليونانيتين الحساستين . وعلى جانب آخر من جوانب العرش نقشت فتاة عارية تعزف على القيثارة المزدوجة ، وعلى جانب ثالث امرأة مقنعة تعد مصباحها لتضىء به ظلمة المساء ؛ ولعل وجه هذه المرأة وأثوابها أقرب إلى الكمال مما على الجانب الرئيسى للعرش .

ويدهش الإنسان حين يرى رقى مثَّالى القرن الخامس عن أسلافهم . ففى هذا القرن لم يعد المثالون يظهرون المنظر الأمامى ، وفيه يصبح فن المنظور عظيم الأثر إذ يمثل الأشياء كأنها بارزة نحو الناظر إليها ؛ وتحل فيه الحركة محل

(*) هى كتلة من الرخام عثر عليها فى رومة حين هدم قصر لدفيزى الصغير . والحجر الأصل فى متحف ترى Muse delle Terme برومة ، وتوجد نسخة جيدة منه فى متحف الفن بنيويورك .

السكون ، والحياة محل الجمود . والحق أن المثال اليونانى حين يخرج على العرف القديم ويصور الإنسان يتحرك إنما يحدث ثورة فى الفن . ذلك أننا قلما نعثر قبل ذلك العهد ، فى مصر أو فى الشرق الأدنى أو فى بلاد اليونان نفسها قبل مرثون ، على مثال ينحت إنساناً يتحرك . وكان من أهم أسباب هذا التطور ما امتازت به الحياة اليونانية بعد سلاميس ... حيوية جديدة ونشاط لم يكن لها من قبل ، ولكن أكبر الفضل فيه إنما يرجع إلى دراسة الفنان وتلاميذه للتشريح الحركى فى صبر وأناة أجيالا طوالا .

انظر إلى سؤال سقراط المثال الفيلسوف : « أليس الذى يجعلك تظهر تماثيلك كأنها أشخاص حية هو أنك تنحتها على مثال الكائنات الحية نفسها ؟ . . . وإذا كانت مواقفنا المختلفة تؤثر فى بعض عضلات أجسامنا فيرتفع بعضها وينخفض البعض الآخر ، وبذلك ينقبض بعضها وينبسط البعض ، وتلتوى هذه وترتخى تلك ، إذ كان هذا يحدث أليس تعبيرك عن هذه الجهود هو الذى يجعلك تظهر ما تنحته صادق التعبير عن الحقيقة »[٢٤] .

لقد كان المثال فى عهـــد بركليز عظيم الاهتمام بكل جارحة من جوارح الجسم لا تقل عنايته بالبطن عن عنايته بالوجه ، يعبر أدق تعبير عن حركات اللحم المرن على الهيكل العظمى المتحرك ، وعن انتفاخ العضلات ، والأوتار ، والأوعية ؛ وعما فى تركيب اليدين والأذنين والقدمين من عجائب تجل عن الحصر ، ويفتتن بما يلقى من الصعاب فى تمثيل أطراف الجسم . ولم يكن فى غالب الأحيان يستخدم نماذج حية تقف أمامه فى منحته ، بل كان يكتفى فى أكثر الأوقات بملاحظة الرجال عارين نشطين فى مدارس الألعاب وميادينها ، وملاحظة النساء يمشين فى وقار فى المواكب الدينية أو ينهمكن انهماكاً طبيعياً فى أعمالهن المنزلية . ولهذا السبب ، لا لحيائه ، نراه يركز دراســته للتشريح على الرجال دون النساء ، ونراه فى تصويره للنساء يستبدل بدقة التشريح الجسمى تمثيل دقائق الثياب أحسن

عثيل — وإن كان يجعل الملابس شفافة إلى أبعد حد تمكنه منه جرأته . وكأن هذا الفنان قد مل رؤية أنصاف الثياب السفلى الجامدة التى يشاهدها على تماثيل مصر واليونان فى عهدهم الأقدم ، فتاقت نفسه إلى إظهار ملابس النساء يلعب بها النسيم لأنه فى هذا الوضع أيضاً قد أدرك خصائص الحركة والحياة .

وهو لا يكاد يترك أية مادة تقع فى يده ويستطيع استخدامها فى ذهنه إلا استخدمها — من خشب ، وعاج ، وطين محروق ، وحجر جيرى ، ورخام ، وفضة ، وذهب . وهو يستخدم أحياناً الذهب لصنع الثياب ، والعاج لصنع الجسم ، كما فعل فدياس فى تماثيله الذهبية العاجية . وكان البرنز هو المادة المحببة لمثال البلوبونيز ، لأنه يعجب بألوانها القاتمة التى تصلح كل الصلاحية لتمثيل أجسام الرجال الذين لوحتهم الشمس وهم عراة ، وكان لجهله بجشع الإنسان يظن أنه أبقى على الدهر من الحجارة . أما فى أيونيا وأتكا فكان يفضل الرخام ، لأن ما يلقاه فيه من صعوبة يستثير همته ، ولأن ما فيه من صلابة يمكنه من أن ينحته بإزميله وهو آمن ، وكأن نعومته ونصف شفافيته قد خلقا لتمثيل لون النســاء الوردى ورقة أجسامهن . وقد كشف المثال بقرب أثينة رخام جبل پنتلكس Pentelicus ، ولاحظ أن ما فيه من حديد ينضجه طول الزمان والعوامل الجوية فيبدو للرائى وكأنه عرق من الذ ـ ، متلألأ وسط الحجر ، وأفلح بفضل ما وهب من الصبر ، وهو نصف العبقرية ، فى أن ينحت على مهل من المحاجر تماثيل حية . ومثال القرن الخامس حين يعمل فى البرنز يستخدم طريقة الصب الأجوف بالعملية المعروفة بعملية الشمع المفقود cire perdu ، وذلك بصنع نماذج من الجبس أو الصلصال للتمثال الذى يريد صبه ، ثم يغطيه بطبقة رقيقة من الشمع ، ويغطى هذا كله بعدئذ بقالب من الجبس أو الصلصال مسنن فى عدة مواضع ، ويضعه فى تنور تذيب حرارته الشمع فيخرج من الثقوب ، ثم يصب ذوب البرنز فى القالب من أعلاه حتى يملأ المعدن جميع المسافة التى كان يشغلها الشمع قبل

أن يذوب : ثم يبرد الشكل كله ويزيل عنه القالب الخارجي ، ويبرده ويصقله ، ثم يطلى البرنز باللك أو يلونه أو يذهبه حتى يتخذ صورته النهائية . فإذا فضل الرخام بدأ بالكتلة غير المشكلة ، غير مستعين بأى نظام من نظم التوجيه(*) ، ويعمل من غير قواعد موضوعة ، مسترشداً فى أكثر الأحيان بعينه لا بالآلات [٢٠] ، ويزيل من الحجر بضرباته المتتالية ما لا حاجة له به ، ويوالى هذه الضربات حتى تتشكل من الحجر الفكرة الكاملة التى صورها لنفسه فى ذهنه ، وحتى تصبح المادة غير المنتظمة صورة وشكلا على حد قول أرسطاطاليس .

أما موضوعاته فتختلف من الآلهة إلى الحيوانات ، ولكن أيا كان الموضوع ، فإنه يجب أن يكون من حيث الجسم خليقاً بالإعجاب ، ولم يكن الضعفاء أو العقليون ، أو الأصناف الشاذة غير السوية ، أو العجائز أو الشيوخ ، لم يكن هؤلاء يجدون لهم مكاناً عنده ؛ وكان يجيد نحت تماثيل الخيل ، ولكنه لم يكن شديد العناية بغيرها من الحيوان ، وكان أكثر إجادة فى نحت تماثيل النساء ؛ ومن آياته الفنية التى لا تمثل نساء بعينهن كتمثال الفتاة المستغرقة فى أفكارها والممسكة بثوبها فوق ثديها المحفوظ بمتحف أثينة ، ما يبلغ درجة من الجمال الهادئ تعجز اللغة عن وصفه . وخير ما يجيده على الإطلاق تماثيل اللاعبين الرياضيين ، لأنه يعجب بهؤلاء إعجاباً لا حد له ، ولأنه لم يكن يحول بينه وبين مراقبتهم حائل . وكنت تراه من حين إلى حين يبالغ فى إظهار قوتهم ، ويصور على بطونهم عضـــلات لا وجود لها غليها ، ولكنه كان يســـعه رغم هذا الخطأ أن يصب تماثيل من البرنز كالتمثال الذى وجد فى البحر قرب أنتيسثرا Anticythera والذى يقال إنه تمثال إفبوس Ephebos تارة وتارة يقال إنه تمثال پرسيوس Perseus الذى أمسك

(*) المراد بالتوجيه هنا بيان العمق الذى يجب أن يصل إليه النحات فى قطع الكتلة الحجرية التى يريد صناعتها قبل أن يبدأ الفنان عمله فيها . وكان بدء استخدام هذه الطريقة فى البلاد التى اصطبغت بالصبغة اليونانية [٢٥] .

بيده فى وقت ما رأس مدوزا Medusa وشعره المكون من الأفاعى . وكان فى بعض الأحيان يصوره شاباً أو فتاة منهمكة فى عمل بسيط تقوم به من تلقاء نفسها ، كتمثال الغلام الذى يخرج شوكة من قدمه(*) ؛ غير أن أساطير بلاده كانت أهم ما يوحى إليه بموضوعات فنه . ولم يكن ذلك النزاع الرهيب الذى قام بين الفلسفة والدين ، والذى يبدو فى تفكير القرن الخامس كله ، نقول لم يكن ذلك النزاع قد بدا على الآثار بعد ، فهنا كانت الآلهة لا تزال صاحبة السيادة العليا ؛ وحتى لو كانت قد أخذت فى الاضمحلال فقد كانت تنتقل أنبل انتقال وأعظمه إلى شعر الفن . ترى هل كان المثال الذى يشكل فى البرنز زيوس أرتمزيوم القوى يعتقد بحق أن يصور شريعة العالم(**) ؟ وهل كان الفنان الذى ينحت تمثال ديونيسس الظريف الحزين المحفوظ فى متحف دلفى ، هل كان هذا الفنان يعرف فى أعماق إدراكه الذى لا تعبر عنه الألفاظ أن ديونيسس قد طعنته سهام الفلسفة طعنة نجلاء ، وأن الملامح المتواترة للمسيح خليفة ديونيسس قد وجدت فى هذا الرأس من قبل أن يولد المسيح .

٢ — المدارس

إذا كان فن النحت اليونانى قد أخرج هذا القدر كله فى القرن الخامس ، فقد كان من أسباب ذلك أن كل مثال كان ينتمى إلى مدرسة بعينها ، وأن له مكاناً فى ثبت طويل من الأساتذة والطلاب ، يتوارثون حذق فنهم هذا ، ويقاومون تطرف الفردية المستقلة ، ويشجعون مواهبهم الخاصة ، ويسيطرون عليها ويهذبونها بالتضلع فى فنون الماضى وما أخرجته من بدائع ،

(*) فى متحف الكبتولين برومة ؛ وأكبر الظن أنه صورة من تمثال يونانى أصلى نحت فى القرن الخامس .

(**) فى متحف أثينة ، وهناك صورة منه فى المتحف الفنى بنيويورك .

وتشكيلها بتفاعل هذه الأعمال مع القواعد الجديدة حتى أصبحت فناً أعظم مما تبتدعه فى العادة العبقرية المنعزلة المتحررة من القواعد والقوانين . إن الفنانين العظام يكونون فى الغالب نتاجاً لتسامى التقاليد الماضية وارتقائها إلى ذروتها أكثر مما يكونون نتيجة للخروج عليها . ومع أن الثائرين على التقاليد الماضية يكونون بطبيعتهم منشقين على تاريخ الفن الطبيعى ، فإن أسلوبهم الجديد لا ينتج شخصيات فذة سامية إلا بعد أن تثبته الوراثة ويطهره الزمن .

وقد قامت بهذا العمل خمس مدارس فى بلاد اليونان فى عهد بركليز : مدارس رجيوم ، وسكيون ، وأرجوس ، وإيجينا ، وأتكا . وفى عام ٤٩٦ أو حواليه استقر فى رجيوم فيثاغورس آخر من ساموس وصب تمثالا لفلكتيتس أذاع شهرته فى بلاد البحر الأبيض المتوسط . وقد أظهر فى وجوه تماثيله من علائم الانفعال ، والألم ، والشيخوخة ما هز مشاعر المثالين اليونان بأجمعهم حتى قرر المثالون فى العصر الذى انتشرت فيه الحضارة اليونانية خارج بلادهم الأصلية أن يحاكوه فى تماثيلهم . وفى سكيون واصل كناكس Canackus وأخوه أرسطكليز Aristocles العمل الذى بدأه قبلهما بمائة عام ديبونس Dipoenus وسليس Scllis من فنانى كريت . ورفع كلوون Calloln وأناتس Onatas مقام إيجينيا بين المدن اليونانية بما أظهرا من حلق فى صب البرنز ، ولعلهما هما اللذان صنعا قواصر إيجينيا . وفى أرجوس نظم أجلداس مراحل انتقال فن النحت فى مدرسته وبلغت ذروة مجدها على يد بليكليتس .

جاء بليكليتس من أرجوس وذاعت شهرته فيها حين وضع حوالى عام ٤٢٢ تصميما لتمثال من الذهب والعاج لهيرا إلهة المدينة ليوضع فى معبدها : وكان العصر الذى صنع فيه يرى أنه لا يفوقه فى دقته غير تماثيل فدياس الضخمة العاجية الذهبية(*) .

(*) ولعلنا نجد صدى لعظمة التماثيل فى رأس يونيو العظيم المحفوظ فى المتحف البريطانى والذى يقال عنه إنه مصنوع على مثال رؤوس تماثيل بليكليتس .

واشترك فى إفسوس فى مباراة مع فدياس ، وكرسلاس Cresilas وفردمون Phradmon لصنع تمثال لامرأة محاربة يوضع فى هيكل أرتميز . وعين الفنانون الأربعة قضاة للحكم فى هذه المباراة . وتقول الرواية المتواترة إن كلا منهم حكم بأن تمثاله خير التماثيل جميعها ، وأن تمثال بليكليتس ثانيها ، وبناء على هذا الحكم منح الفنان السكيونى الجائزة(*)(٢٧) . لكن بليكليتس كان يحب الرياضيين أكثر مما يحب النساء أو الآلهة ؛ ولما أراد أن ينحت تمثاله الشهير لديادمنوس Diadumenos (وهو الذى توجد أحسن نسخة منه فى متحف أثينة) مثّل هذا الظافر فى اللحظة الذى كان يربط حول رأسه العصابة التى يضع القضاة فوقها إكليل الغار . ويرى الناظر إلى صدر التمثال وبطنه عضلات أكثر وأضخم مما يصدقه العقل ، ولكن الجسم يرتكز ارتكازاً واضحاً على قدم واحدة ، وملامح التمثال تعبر عما امتاز به العصر الذهبي من تناسق أصدق تعبير . لقد كان بليكليتس يهيم بهذا التناسق بل يكاد يعبده ، وكان همه فى حياته أن يضع قانوناً أو قاعدة لتحديد النسبة الصحيحة بين كل جزء وجزء فى التمثال ؛ فكان والحالة هذه هو فيثاغورس النحت ، ينشد الرياضة القدسية فى التناسب والشكل ؛ وكان يظن أن أبعاد أى جزء من أجزاء الجسم الكامل يجب أن تتناسب تناسباً محدداً معروفاً مع أبعاد أى جزء آخر كالسبابة مثلا . وكان قانون بليكليتس هذا يستدعى أن يكون الرأس مستديراً ، والكتفان عريضتين ، والجذع ممتلئاً قصيراً ، والعجيزتان واسعتين ، والساقان قصيرتين ، وكل هذه تجعل التمثال مظهراً للقوة لا للرشاقة . وأولع الفنان بقانونه ولعاً حمله على أن يؤلف رسالة يشرحه فيها وأن يوضحه بتمثال من صنعه : ولعل هذا التمثال هو تمثال الدوريفوروس Doryphoros أو حامل الرمح الذى توجد نسخة رومانية منه فى متحف نابلى . وفيه يرى مرة أخرى الرأس القصير

(*) لعل تمثال المحاربة المحفوظ فى الفاتيكان نسخة رومانية من هذا التمثال .

العريض الجمجمة ، والكتفان القويتان ، والجذع القصير ، والعضلات المتغضنة المسدولة على الحقو . وأجمل من هــذا تمثال إفبوس Ephebos المحفوظ فى المتحف البريطانى ، وفيه تظهر أحاسيس الغلام كما تظهر عضلاته، ويبدو أنه منهمك فى تفكير هادئ لطيف فى شيء آخر غير قوته . وأضحت قواعد بليكليتس بفضل هذه التماثيل القانون الذى يتقيد به المثالون فى البلوپونيز ؛ وقد تأثر به فدياس نفسه ، وظلت له السيادة على النحاتين حتى قضى عليه پركسيتس وأحل محله ذلك القانون الآخر المناقض له والذى يجعل الجسم طويلا ، نحيلا ، رشيقاً ، وقد بقى هذا القانون الأخير ظاهر الأثر فى التماثيل الرومانية فى أوربا المسيحية .

وكان ميرون Myron يمثل المرحلة الوسطى بين المدرستين البلوپونيزية والأتكية . وقد ولد هــذا المثال فى إلوثيرا Eleuthera ، وعاش فى أثينة ، ودرس وقتاً ما (كما يقول بلنى[٢٨]) مع أجلاداس Ageladas ؛ فتعلم كيف يجمع بين الرجولة البلوپونيزية والرشاقة الأيونية . وكان ما أضافه إلى مدارس الفن جميعها هو الحركة : فهو لم ير اللاعب الرياضى كما يراه بليكليتس قبل المباراة أو بعدها ، بل يراه فى أثنائها ، وقد حقق ما رآه فى البرنز تحقيقاً فاق به كل مثال آخر حاول تصوير جسم الرجل فى أثناء العمل . وصب حوالى عام ٤٧٠ أشهر تماثيل صنعها للاعبين وهى تماثيل رماة القرص (disocobolo)[٢*] . وفيها بلغت عجائب أجسام الرجال غايتها ! فقد درس الجسم دراسة دقيقة فى جميع حركات المفاصل ، والأوتار ، والعظام ، التى يتطلبها القيام بعمل ما ، وانحنت الساقان والذراعان وانحنى

(*) فى متحف ترمى Musco dell Terme جذع رخامى هو نسخة من هذا التمثال صنعته يد فنان رومانى وفى معهد الأحياء المائية بميونخ نسخة برنزية من هذا التمثال صنعت فى عصر متأخر ، وفى المعهد الفنى بنيويورك نسخة تجمع بين جذع كاللى فى متحف الفاتيكان ورأس كالرأس الذى فى قصر لانسلتى Lancelotti .

بالجذع لكى تكسب الرمية أعظم قوتها ؛ ولم يتلو الوجه ويشوه بسبب ما يبذله الرامى من جهد ، بل ظل منبسطاً ، والرامى هادئ واثق من قدرته ؛ وليس الرأس ثقيلا أو وحشياً ، بل هو رأس رجل من لحم ودم ورقة وتهذيب ، فى وسعه أن يؤلف الكتب إذا نزل إلى مستوى من يكتبونها . ولم تكن هذه الآية الفنية إلا عملا واحداً من أعمال ميرون الكثيرة ، وقد أعجب بها مواطنوه ، ولكنهم أعجبوا أكثر من ذلك بتمثال أثينة ومرسياس(*) وتمثال لاداس . وتمثال أثينة هذا أجمل مما يتطلبه الغرض الذى صنع من أجله ، فليس فى مقدور أى إنسان ينظر إليه أن يظن أن هذه العذراء المحتشمة ترقب وهى هادئة راضية صاحب الناى يسلخ . أما تمثال مرسياس فأشبه بتمثال ليرنارد شو أدركه الفنان فى وضع معيب ولكنه مفصح بليغ . ويصور هذا التمثال عازف القيثارة وقد عزف عليها آخر مرة ، وأدركه الموت ولكنه يأبى أن يموت من غير أن يتكلم . ولم يكن لاداس لاعباً رياضياً خارت قواه لأن النصر أنهك جسمه ، بل إن ميرون قد صوره تصويراً بلغ من واقعيته أن صاح يونانى قديم حين رآه : « لقد صاغك لاداس من النحاس بالصورة التى كنت عليها فى الحياة ، تخرج روحك اللاهثة من صدرك مع أنفاسك ، وأسبغ على جسمك كله حرصك على تاج النصر » ، وقال اليونان عن عجلة ميرون إنها تستطيع أن تفعل كل شىء عدا الخوار(٣٠) .

وأضافت المدرسة الأتكية أو الأثينية إلى البلوپونيزيين وإلى ميرون ما تهبه النساء للرجال : جمالا ، ورقة ، ورشاقة ، وظرفاً ؛ وكانت وهى تفعل هذا تحتفظ من عناصر الرجولة بالقوة . فقد وصلت إلى مستوى عال قد لا يصل إليه المثالون مرة أخرى . وكان كلميس Calamis لا يزال وقتئذ محتفظاً بعض الشىء بطابعه العتيق ، ولم يكن نسيوتيز Nesiotes وكريتيوس Critius وهما يصبان طائفة أخرى من تماثيل قتلة الطغاة قد تحررا من البساطة الجامدة

(*) فى متحف نيويورك الفنى نسخة جميلة من النسخة اللاترانية .

التي كانت تسود تماثيل القرن السادس . وقد حذر لوشان الخطباء من أن يكون مسلكهم كسلك هذه التماثيل العديمة الحياة . فلما أن نحت بيونيوس Paeonius من أهل مندى Mende المقدونية للمسينين تمثال النصر بعد أن درس فن النحت فى أثينة أظهر فيه من الرقة والرشاقة والجمال ما لم يظهره أحد غيره من الفنانين اليونان إلى عهد پركستيليز ؛ وحتى پركستيليز نفسه لم يفقه فى تمثيل طيات الثياب المنسدلة على الجسم أو فى تمثيل نشوة هذه الحركة(*) .

٣ – فدياس

كان فدياس وأعوانه بين عامى ٤٤٧ ، ٤٣٨ منهمكين فى نحت تماثيل البرتنون وحفر نقوشه . وكما كان أفلاطون كاتباً مسرحياً قبل أن يصير فيلسوفاً مسرحيا ، كذلك كان فدياس فى أول الأمر مصوراً ، تتلمذ بعض الوقت على پولجنوتس . ويلوح أنه أخذ عنه أساليب التصميم والتأليف بين الوحدات المختلفة والجمع بين الأشكال لإحداث الأثر الكلى للصورة . ولعله أخذ عنه أيضاً ذلك « النمط العظيم » الذى جعله أعظم مثال فى بلاد اليونان بأجمعها . ولكنه لم يجد فى التصوير ما يشبع كفايته لأنه كان فى حاجة إلى أبعاد أوسع ، فاتجه إلى النحت ، ولعله درس فن أجلاداس فى صب البرنز وظل يمارسه فى صبر وأناة حتى برع فى كل فرع من فروعه .

وكان حين فرغ من نحت تمثال أثينة پارثنون فى عام ٤٣٨ قد أصبح شيخاً طاعناً فى السن ، وشاهد ذلك أنه صور نفسه على درعه شيخاً أصلع به طائف

(*) لقد جمعت أجزاء هذا التمثال بعد أن عثر عليها الألمان فى أولمبيا عام ١٨٩٠ ، وهو الآن فى متحف أولمبيا . ولا تكاد تقل عنه جمالا تماثيل حور البحر التى عثر عليها من غير رءوس بين أنقاض أحد الأبنية القديمة فى زنثوس الليشية Lycian Xanthus وهى الآن فى المتحف البريطانى . لقد نفذت الروح اليونانية إلى آنية غير اليونانية .

الحزن . ولم يكن أحد ينتظر منه أن ينحت بيديه مئات التماثيل التي امتلأ بها فضاء البارثنون ، وإفريزه ، وقواصره ، وكان حسبه أن يشرف على جميع أبنية بركليز ويضع خططها يزينها من التماثيل ، ثم يعهد إلى تلاميذه ، وخاصة إلى الكيمنيز ، أن يقوموا هم بتنفيذها . على أنه هو نفسه قد نحت ثلاثة تماثيل لإلهة المدينة تقام في الأكربوليس . وقد كلفه بنحت واحد منها المستعمرون الأثينيون في لمنوس ، وكان هذا التمثال من البرنز أكبر قليلا من الحجم الطبيعي ، وبلغ من دقته أن كان النقاد اليونان يعدون تمثال أثينة اللمنوسية أجمل تماثيل فدياس كلها بلا استثناء(*)(٣٠) ، وثاني هذه التماثيل تمثال أثينة بروماكوس وهو تمثال برنزي ضخم يمثل الإلهة في صورة المدافعة الحربية عن المدينـــة . وقد أقيم بين البروبليا Propylaea والإركثيوم Erchtheum ، وكان ارتفاعه هو وقاعدته سبعين قدماً ، وكان دليلا للملاحين وتحذيراً لأعداء المدينة(**) . وأشهر هذه التماثيل الثلاثة تمثال أثينة بارثنوس ويبلغ ارتفاعه . ثماني أقدام وثلاثين قدماً ، وكان مقاما في داخل البارثنون ويمثل أثينة العذراء إلهة الحكمة والعفة . وكان فدياس يريد أن ينحت هذا التمثال الأخير من الرخام ، ولكن الشعب أبى إلا أن يكون من العاج والذهب . فاستخدم الفنان العاج للأجزاء الظاهرة من الجسم كما استخدم أربعين وزنة (٢٠٤٥ رطلا) من الذهب لصنع الثياب(٣٢) ، ثم زينه بالمعادن الثمينة والنقوش المتقنة البديعة على الخوذة ، والحذاءين ، والدروع . وقد وضع هذا التمثال بحيث تقع أشعة الشمس مباشرة في يوم عيد أثينة على الثياب الجميلة وعلى وجه العذراء الشاحب بعد

(*) لم تبق منه نسخة صادقة .

(**) وقد نقل هذا التمثال إلى القسطنطينية حوالي عام ٢٣٠ م ، ويلوح أنه دمر في أثناء شغب قام فيها عام ١٢٠٣(٣١) .

خولها من أبواب المعبد العظيمة(*) .

ولم يكن إتمام هذا التمثال من أسباب سعادة فدياس ، لأن بعض ما قدم له من الذهب والعاج لصنعه قد اختفى من مُحتَرفه ولم تعرف أسباب اختفائه . وانتهز أعداء بركليز هذه الفرصة السانحة : فاتهموا فدياس بسرقة الذهب والعاج وأدانوه(**) . ولكن أهل أولمبيا شفعوا له وأدوا الكفالة المطلوبة منه وقدرها أربعون ؟ وزنة على شريطة أن يذهب إلى أولمبيا ويصنع فيها تمثالاً من الذهب والعاج لمعبد زيوس(٣٤) . وسرهم أن يقدموا له من العاج والذهب أكثر مما قدم له قبل . وبنوا له ولمساعديه مصنعاً خاصاً بجوار حرم الهيكل ، وكلف أخوه پانينوس Panaenus أن يزين بالصور العرش الذى يجلس عليه التمثال وجدران الهيكل(٣٥) . وإذا كان فدياس مولعا بالضخامة ، فقد جعل ارتفاع تمثال زيوس الجالس ستين قدما ، ولما أن وضع فى مكانه فى الهيكل شكا النقاد من أن الإله سيخترق سقفه إذا ما بدا له أن يقوم واقفا . ووضع فدياس على « جبينى » الإله الراعد « القاتمين » و « غدائره المعطرة » تاجا من الذهب فى صورة أغصان شجر الزيتون وأوراقه . ووضع فى يد الإله اليمنى تمثالا للنصر صغيراً مصنوعاً من الذهب والعاج ، وفى يده اليسرى صولجاناً مطعماً بالأحجار الكريمة ، وألبسه ثوبا ذهبياً نقشت عليه الأزهار ، ووضع فى قدميه خفين من الذهب المصمت . أما عرشه فكان من الذهب ، والأبنوس ، والعاج . وكان عند قاعدته تماثيل صغيرة للنصر ، لأپلو ، وآتميز ، ونيوبى ، ولصبيان من طيبة اختطفهم أبو الهول(٣٧) . وكان الأثر الذى يبعثه فى النفس هذا التمثال وتوابعه رائعاً قوياً

(*) لو أننا حكمنا على هذا التمثال من أنموذجى « لنورمانت Lenormant » و « ڤارڤاكا Varvaka » المحفوظين فى متحف أثينة لما عنينا كثيراً به . فأول هذين الأنموذجين ضخم منتفخ الوجه ، وصدر الثانى تزحف عليه كثير من الأفاعى المقدسة .

(**) حوالى ٤٣٨ ؛ وهذا التاريخ مشكوك فيه كثيراً ، ومثل هذا يقال عن تتابع الحوادث فى السنين الأخيرة من حياة فدياس .

إلى حد جعل الناس ينسجون حوله كثيراً من الخرافات والأساطير . فمن قائل إنه عندما أتمه فدياس طلب أن تطلع عليه السماء آية تدل على رضائها عن عمله ، فأرسلت صاعقة نزلت على الأرض غير بعيد عن قاعدة التمثال — وهى آية كمعظم الآيات السماوية تقبل عدة تفاسير مختلفة(*) ، وعد التمثال من عجائب الدنيا السبع ، وكان يحج إليه كل من استطاع الحج ليشاهد الإله المتجسد فيه . ولما فتح إيميليوس پولس Aemilus Paulus القائد الرومانى بلاد اليونان ورأى هذا التمثال الضخم استولى عليه الرعب ، واعترف أن ما شاهده بعينه قد فاق كل ما كان يصوره له خياله[٣٨]. ووصفه ديوكريسوتوم Dio Chrysotom بأنه أجمل تمثال على وجه الأرض، وأضاف إلى قوله هذا ما قاله بيتهوفن فى الموسيقى : « إذا وقف أمام هذا التمثال إنسان قد تراكمت عليه الهموم ، وتجرع فى حياته كأس المصائب والأحزان حتى الثمالة ، وطار النوم الحلو من أجفانه ، نسى كل ما يصيب الإنسان فى حياته من متاعب وأحزان[٣٩] » . وقال فيه كونتليان Qutntilian : « إن جمال التمثال قد أضاف بعض الشىء إلى دين البلاد ؛ ولقد كان جلاله خليقاً بالإله الذى يمثله[٤٠] » .

ولسنا نعرف عن أواخر أيام فدياس شيئاً موثوقاً به . فمن القصص ما يرى أنه عاد إلى أثينة حيث قضى نحبه فى السجن[٤١] ؛ ومنها ما يقول إنه أقام فى إليس Elis ، وإن هذه المدينة نفسها قد قتلته فى عام ٤٣٢[٤٢]. وليست إحدى هاتين القصتين اللتين تتحدثان عن خاتمة فدياس أصدق من أختها ، وواصل تلاميذه عمله ، وبرهنوا على نجاحه معلماً بما أخرجوه من آيات فنية لا تكاد تقل روعة عن آياته هو . فقد نحت أجركريتس Agoracritus أحب تلاميذه إليه تمثالا لنمسيز Nemesis طبقت شهرته الآفاق

(*) لم يبق من تمثال زيوس هذا إلا قطع صغيرة من قاعدته .

ونحت الكمنيز تمثالا لأفروديتى إلهة الحدائق كان لوشان يضعه فى مصاف أرقى ما أخرجه المثالون من آيات(*) فنية(٤٣) . وكانت خاتمة مدرسة فدياس فى نهاية القرن الخامس ، لكنها تركت فن النحت اليونانى أرقى كثيراً مما كان حين بدأت حياتها الفنية ؛ فقد أشرف الفن بفضل فدياس وأتباعه على الكمال فى اللحظة التى بدأت فيها حرب البلوبونيز تنزل بأثينة الخراب . لقد أتقنت هذه المدرسة أصول الفن وقواعده ، وفهمت تشريح الجسم ، وصبت الحياة والحركة والرشاقة فى البرنز والحجر صبا ؛ ولكن العمل الجليل الذى يميز فدياس من غيره من المثالين هو ما أخرجه من طراز فى النحت جديد عبر عنه أصدق تعبير ، ذلك الطراز السامى أو « الطراز العظيم » كما يسميه ونكلمان . وهو طراز يجمع بين القوة والجمال ، والتهور والإحجام ، والحركة والسكون ، واللحم والعظم مع الروح والعقل . وفى هذا الطراز تمثل الفنانون على الأقل بعد ما بذلوا من جهود دامت خمسة قرون ذلك « الصفاء » الذائع الصيت الذى يعزوه المؤرخين بخيالهم إلى اليونان ، وكان فى وسع الأثينيين ذوو العاطفة الثائرة الجياشة إذا ما تدبروا تماثيل فدياس أن يروا كيف يقترب الآدميون من الآلهة ، وإن يكن ذلك فيما أبدعوا من تماثيل فحسب .

(*) وقد يكون تمثال فينوس المكسورة المحفوظ فى متحف اللوفر نسخة من هذا التمثال

الفصل الرابع

البنـــاءون

١ — ارتقاء فن العمارة

تمت سيطرة الطراز الدورى فى العمارة على بلاد اليونان فى القرن الخامس قبل الميلاد ؛ ولم يبق إلى الآن من الهياكل اليونانية التى شيدت فى ذلك العصر الزاهر إلا قليل من الأضرحة الأيونية وأهمها الإركثيوم وهيكل نيكى أپتروس Nike Opteros المقام على الأكربولس . وبقيت أتكا فى ذلك العهد محافظة على الطراز الدورى ، فلم تخضع للطراز الأيونى إلا حين كانت تستخدمه فى العمد الداخلية للبروپيليا ، وفى صنع إفريز حول الثسيوم والپارثنون . ولعل ما يشاهد من نزعة ذلك العصر إلى إطالة العمود وتقليل سمكه عما كان من قبل يدل على أثر آخر من آثار الطراز الأيونى .

وفى آسية الصغرى أشرب اليونان حب الشرقيين للتحلية الدقيقة وعبروا عن هذا الحب بتنميق الدعامات الأيونيـــة المرتكزة على العمد تنميقاً فيه كثير من التعقيد ، وبإيجاد طراز جديد من هذه الدعامات أكثر زخرفاً من الطراز الأيونى يعرف بالطراز الكورنثى . وحدث حوالى عام ٤٣٠ (حسب رواية فتروفيوس Vitruvius) أن استلفتت نظر مثال أيونى يدعى كلمكس Callimachus سلة لتقديم النذور مغطاة بقرميدة ، تركتها مربية على قبر نسيدتها ؛ وقد نبتت شجيرة أكنتوس(*) حول السلة والقرميدة . وأعجب المثال بالصورة الطبيعية التى أوحت بها إليه السلة وما حولها فعدل

(*) جنس من الأعشاب الأوربية تعرف أيضاً بالكتكر ، وطابة الشوك ، وشوكة اليهود . (المترجم)

تيجان العمد الأيونية فى هيكل كان يشيده فى كورنثة بأن أضاف أوراق الأكنتوس إلى الحلى اللولبية[٤٤]. ونحن نرجح أن هذه القصة خرافة لا أصل لها ، وأن سلة المربية كان أثرها فى نشأة الطراز الكورنثى أقل من أثر تيجان العمد المصرية المحلاة بسعف النخل وأوراق البردى. ولكننا نستطيع أن نقول واثقين إن الطراز الجديد لم ينتشر انتشاراً واسعا فى بلاد اليونان فى عصرها الذهبى ، وإن كان إكتينس قد استخدمه فى عمود منفرد فى ساحة هيكل أيونى فى فيجاليا Phigalea ، وإن كان قد استخدم أيضا حوالى آخر القرن الرابع فى هيكل أقيم تخليداً للذكرى لسكارتيز Lysicartes . ولم يبلغ هذا الطراز الدقيق أرقى صورة له إلا على يد الرومان المتأنقين فى عهد الإمبراطورية .

وكان العالم اليونانى كله يشيد الهياكل فى ذلك العهد ، وأوشكت المدن أن تفلس فى تنافسها لإقامة أجمل التماثيل وأكبر الأضرحة ، وأضافت أيونيا إلى مبانيها الضخمة فى ساموس وإفسوس هياكل أيونية جديدة فى مجنيزيا ، وتيوس وبريني ؛ وأقام المستعمرون اليونان فى أسوس Assus من أعمال بلاد اليونان الطروادية مزاراً لأثينة لا يكاد طرازه يختلف فى شيء عن الطراز الدورى العتيق ، وشادت كروتونا فى الطرف الآخر من بلاد هلاس حوالى عام ٤٨٠ ق . م بيتاً دورياً واسعاً لهيرا ظل باقياً إلى عام ١٦٠٠ م حين ظن أحد الأساقفة أن فى مقدوره أن يستخدم حجارته فى غرض أنفع من الغرض الذى كانت تستخدمه فيه[٤٥] . وأقيمت فى القرن الخامس أعظم هياكل بسدونيا (بستم Paestum) ؛ وسجستا Segesta ، وسلينس ، وأكرجاس ؛ وفيه أيضاً أقيم معبد أسكلبيوس Asclepius فى إبدورس . ولا تزال تشاهد فى سرقوسة عمد هيكل شاده جيلون الأول Gelon I لأثينة ، وقد بقى بعض هذا الهيكل لأنه حول إلى كنيسة مسيحية ؛

واختط إكتينس فى باسيا بالقرب من فيجاليا من أعمال البلوبونيز هيكلا لأبلو يختلف اختلافاً عجيباً عن البارثنون آيته الفنية الأخرى . ذلك أن صفوف الأعمدة الدورية تحيط بفضاء يشغله محراب صغير وبهو مكشوف كبير تحيط به أعمدة أيونية . وحول هذا البهو الداخل فى مقابل الوجه الداخلى للعمد الأيونية يمتد إفريز لا يقل فى رشاقته عن إفريز البارثنون نفسه ، ويمتاز عنه فى أنه ظاهر تراه العين(*) :

وشاد ليبون Libon المهندس الإيلى فى أولمبيا قبل أن يشاد البارثنون بجيل من الزمان مزاراً لزيوس دورى الطراز يضارع البارثنون نفسه . وقد أقيمت فى كل طرف من أطرافه ستة أعمدة ، وثلاثة عشر عموداً فى كل جانب من جانبيه ، ولعلها قد بلغت من الضخامة حداً لا يتفق مع جمال الشكل ، كما أن المادة التى صنعت منها كانت غير خليقة بهذا الأثر الجليل — فهى من الجير الخشن المطلى بالمصيص ؛ أما السقف فقد صنع من القرميد البنتيلى Pentelic(**) . ويحدثنا بوسنياس(٤٦) أن بيونيوس Paeonius وألكمنيز قد نحتا للقواصر أشكالا قوية(†) تمثل على الجانب الشرقى من السقف سباق المركبات بين بلبيس وإينوماؤس Aenomaus ، وعلى الجانب الغربى منه صراع اللبيثيين والقناطرة(††) . واللبيثيون ، كما تروى الخرافات اليونانية قبيلة جبلية تقيم فى تساليا ؛ ولما أن تزوج ملكها برثوس Pirithous بهيوداميا Hippodameia ابنة إينوماؤس ملك بيزا إحدى مدائن إليس Elis ، دعا القنطرة إلى وليمة العرس . وكانت القناطرة تسكن الجبال المحيطة ببليون ويصورها الفن اليونانى مخلوقات نصفها خيل ونصفها آدميون ، ولعلهم

(*) ولا تزال ثمانية وثلاثون عموداً من أعمدته وجدران محرابه وأجزاء من العمد الداخلية باقية إلى الآن . وفى المتحف البريطانى قطع من الإفريز .

(**) وصف لرخام وجد فى جبل بنتلكس Pentelicus بالقرب من أثينة .

(†) وهى الآن فى متحف أولمبيا .

(††) جمع قنطروس Centaur وهو حيوان خرافى يونانى نصفه حصان ونصفه ثور .

أرادوا بهذا أن يدلوا الناس على طبيعة أولئك الأقوام الوحشيـة غير المروضة أو يوحوا بأن القناطرة كانوا فرساناً مهرة إلى حد يخيل معه إلى من رآهم أن الفارس هو وفرسه حيوان واحد . وسكر أولئك الفرسان فى أثناء الوليمة وحاولوا أن يختطفوا النساء اللبيثيات ، لكن اللبيثيين دافعوا عن نسائهم دفاع الأبطال وهزموا القناطرة (ولم يمل الفنانون اليونان تصوير هذه القصة ، ولعلهم كانوا يرمزون بها إلى تنظيف الغابات من الحيوانات البرية وإلى الكفاح القائم بين طبيعتى البشر الإنسانية والحيوانية) .

والأشكال المصورة على القوصرة الشرقية عتيقة الطراز جامدة ساكنة أما التى على القوصرة الغربية فإن من أصعب الأمور أن يعتقد الإنسان أنها عملت فى نفس هذا العصر ، ذلك بأنها نشيطة تنبض بالحياة ، وتدل على تمكن ناضج من التأليف بين المجاميع . وإن كان بعضها فجا ، وإن كان الشعر قد مثل على النمط الذى جرى به العرف فى الزمن القديم . أما العروس فذات جمال بارع يثير الدهشة ، فهى امرأة نحيفة فى غير ضعف ، كاملة النمو ، جميلة المحيا ، جمالا لا نعجب إذا قامت بسببه الحرب بين الطائفتين المتقاتلتين . ونرى قنطروساً ملتحياً يطوق خصرها بذراعه ، ويضع إحدى يديه على صدرها ، ويوشك أن يختطفها من دار عرسها ، ولكن الفنان مع هذا يصورها هادئة الملامح ساكنة سكوناً يظن الإنسان معه أنه قد قرأ لسنج Lessing أو ونكلمان ، أو أنها ككل الغوانى يغرها الثناء عليها والرغبة فيها .

وأقل من هذه الصور شأناً وأصغر منها حجما ، وإن كانت أحسن منها صقلا ، الأجزاء الباقية من جبهة الهيكل ، وهى التى تروى بعض أعمال هرقل الأسطورى ، فتصور بعضها هرقل يرفع العالم الأطلس . وقد أجاد الفنان فى هذا كل الإجادة ، فليس هرقل هنا جباراً شاذاً مخالفاً للمألوف ، مفتول العضلات المحيطة بجسمه كأنها قدت من الحجر الصلد ، بل هو رجل كامل النمو ، متناسق الجسم ، وقد وقف أمامه أطلس له رأس لو أنه وضع على كتفى أفلاطون لزانهما .

وإلى يسارها وقفت إحدى بنات أطلس ،كتملة النمو بارعة الجمال الطبيعى الذى أكسبتها إياه صحتها وكمال أنوثتها .

ولعل المصور كان يرمز إلى صورة مرسومة فى ذهنه حين صورها تساعد فى رقة وظرف الرجل القوى على حمل العالم . إن فى مقدور الفنان الإخصائى أن يعثر على بعض أغلاط فى التنفيذ وفى التفاصيل الدقيقة عندما يتأمل هذه الجبهة نصف المخربة ، لكن الملاحظ الهاوى إذا نظر إلى العروس . وإلى هرقل ، وابنة أطلس ، يرى أن هذه المجموعة تقرب من الكمال قرب أية مجموعة أخرى فى تاريخ النحت البارز .

٢٠ - إعادة بناء أثينة

تفوق أتكا سائر بلاد اليونان فى كثرة ما أقيم فيها من أبنية فى القرن الخامس ، وفى حسن هذه الأبنية . فهنا نرى الطراز الدورى ، الذى يبدو فى غيرها منتفخاً ضخماً ، قد اكتسب الكثير من الرشاقة والانسجام الأيونيين ، وأضيف اللون إلى الخطوط ، والتحلية إلى التناسب . ولقد أقام الذين خاطروا بركوب البحر معبد پسيدن على رأس شديد الخطر عند سنيوم Sunium ، بقى منه الآن أحد عشر عموداً . واختط إكتينس فى إلوسيس هيكلا رحباً لدمتر وقدمت أثينة بناء على نصيحة پركليز ما يلزمه من المال لجعل هذا المعبد خليقاً بالحفلات الإلوسيسية . وفى أثينة نفسها شجع الفنانين على مواصلة عملهم وجود الرخام الجيد بالقرب منها فى جبل بنتلكس وفى پاروس ، لأنه أجمل مواد البناء على الإطلاق . وقلما استطاعت الدمقراطية أو رغبت فى عهد من العهود ، قبل حلول الكارثات الاقتصادية فى أيامنا هذه أن تنفق المال بمثل هذا السخاء على إقامة المبانى العامة . فلقد تكلف البارثنون سبعمائة وزنة (٤٫٢٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) ، وتكلف تمثال أثينة پارثنوس (وقد كان تمثالا ومستودعاً للذهب فى آن واحد) ما قيمته

٦٫٠٠٠٫٠٠٠ ريال ، وتكلف هيكل البروبليا ٢٫٤٠٠٫٠٠٠ ريال ، وأنفقت ١٨٫٠٠٠٫٠٠٠ ريال على مبانى أصغر من هذه أقامها بركليز فى أثينة وبيرية ، و ١٦٫٢٠٠٫٠٠٠ ريال فى إقامة تماثيل وما إليها من أسباب الزينة . وجملة القول أن أثينة خصصت من مواردها فى الستة عشر عاماً الواقعة بين ٤٤٧ ، ٤٣١ نحو ٥٧٫٠٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى للمنشآت العامة والتماثيل والتصوير[٤٧] ؛ وكان توزيع هذا المبلغ الضخم بين الصناع ، والفنانين ، والمنفذين لأعمالهم ، والأرقاء ، أثر كبير فى الرخاء الذى عم أثينة فى عهد بركليز .

وفى وسعنا أن نرسم فى مخيلتنا صورة غامضة للعوامل التى كانت تستند إليها هذه المغامرة الفنية الجريئة . ذلك أن الأثينيين ، بعد أن عادوا من سلاميس ، وجدوا أن الفرس لم يكادوا يبقون على شىء من المدينة فى أثناء احتلالهم إياها ، فقد أحرقوا كل بناء ذى قيمة فيها ، وتلك كارثة ، إذ لم تقض على السكان كما تقضى على المدينة ، تزيد السكان قوة وصلابة ؛ كما أن هذه النيران تطهر المدينة من الأحياء القذرة والمبانى غير الصالحة للسكنى ، وبذلك تعمل المصادفات ما يحول عناد الإنسان دون عمله ؛ وإذا ما وجد الأهلون الطعام فى خلال هذه الأزمنة استطاعوا بجهودهم وعبقريتهم أن ينشئوا مدينة أجمل من المدينة المخربة . ولقد كان الأثينيون بعد الحرب الفارسية أغنياء بجهودهم وعبقريتهم ، وضاعفت روح النصر من قوة إرادتهم ومن رغبتهم فى الإقدام على جلائل الأعمال ، فلم يمض جيل واحد حتى أعيد بناء أثينة ، فأقيم فيها بناء جديد لمجلسها ، وشيدت فيها دار جديدة للبلدية ، ومنازل جديدة ، وأروقة جديدة ذات أعمدة ، وأسوار جديدة لصد المغيرين ، وأقيمت أرصفة ومخازن فى مرفأ لها جديد . ذلك أن هبودامسر Hippodamus الملطى أشهر من خططوا المدائن فى الزمن القديم وضع أساس فرضة جديدة مكان بيرية ، ووضع هذا الأساس على طراز جديد ، فقد استبدل بالحواضر القديمة وبالأزقة الملتوية التى كانت تشق فى المدينة على

غير نظام شوارع واسعة مستقيمة تتقاطع متعامدة . وشاد فنانون مجهولون على ربوة تبعد عن الأكروبوليس بميل واحد ذلك البارثنون الأصغر المعروف بالثسيوم أو هيكل ثسيوس(*) . وملأ المثالون قواصر البناء ووجهاته بالنقوش المحفورة . وأنشئوا له إفريزاً فوق الأعمدة الداخلية القائمة على جانبيه . وطلى الرسامون (الكرانيش) والحزوز ، والواجهات والإفريز ، كما طلوا بالألوان الزاهية الجدران من الداخل التي لا يدخل إليها إلا قليل من الضوء ينفذ في المربعات الرخامية(**) .

وكان خير ما قام به البناؤون في عصر پركليز هو الأكروبوليس ، الحاضرة القديمة لحكومة المدينة ودينها ؛ وقد بدأ ثمستكليز تجديده ، فاختط هيكلا طوله مائة قدم سمي لهذا السبب « ذا المائة قدم » Hecatompedon . فلما سقط ثمستكليز وقف العمل في بنائه لمعارضة الحزب الألجركي في ذلك ، بحجة أنه إذا أريد إقامة بيت للإلهة أثينة لا يكون شؤماً على المدينة وجب أن يقام هذا البيت في موضع الهيكل القديم هيكل أثينة پولياس (أثينة المدينة) الذي دمره الفرس . لكن پركليز ، الذي لم يكن من طبعه أن يعنى بهذه الأوهام ، رأى أن يقيم البارثنون في موضع الهكتمپدون وسار في العمل وفقاً لهذه الخطة رغم احتجاج الكهنة . وشاد فنانوه على منحدر تل الأكروبوليس الجنوبي الغربي بهواً للموسيقى (أوديوم Odeum) يمتاز عن جميع أبهاء أثينة

(*) وهذه التسمية خاطئة لأن هذا الهيكل الذي أقيم في عام ٤٢٥ لا يمكن أن يكون هو الثسيوم الذي جاء إليه سيمون في عام ٤٦٩ بعظام ثسيوس المزعومة ؛ لكن الزمن يضفي القداسة على الخطأ كما يضفيها على السرقة ، ولهذا بقيت هذه التسمية التقليدية متداولة لأننا تعوزنا التسمية المؤكدة الصحيحة .

(**) والثسيوم هو خير ما احتفظ به من المباني اليونانية القديمة ، ولكنه رغم العناية به تنقصه مربعاته الرخامية ، وما كان على جدرانه من الصور وبداخله من التماثيل ، وعلى قواصره من نقوش ، كما تنقصه جميع ألوانه الخارجية تقريباً . وقد لحقت أضرار كثيرة بواجهاته جعلت تمييز النقوش في حكم المستحيل .

بقبته المخروطية الشكل . وقد أتاح هذا البناء لهجائى پركليز المستمسكين بالقديم فرصة اغتنموها فأخذوا من ذلك الحين يسمون رأس پركليز المخروطى « أودينه Odeion أى بهو غنائه » وأقيم معظم الأوديوم من الخشب فلم يلبث إلا قليلا حتى عدا عليه الدهر . وكانت تقام فيه الحفلات الموسيقية ، ويتدرب فيه الممثلون على تمثيل مسرحيات ديونيسس ، وتجرى فيه كل عام المباريات التى أنشأها پركليز فى الموسيقى الصوتية والوترية . وكثيراً ما كان هذا السياسى الذى نبغ فى كثير من الأعمال يقوم بالحكم فى هذه المباريات .

وكان الطريق الموصل إلى قمة التل فى الأيام القديمة ملتوياً متدرجا ، على جانبيه تماثيل وقرابين الشكر للآلهة . وكان بالقرب من قمة التل مجموعة من الدرج الرخامية العريضة الفخمة تستند إلى بروج على كلا الجانبين . وشاد كلكراتيز فوق البرج الجنوبى أنموذجا مصغرا لهيكل أيونى لأثينة فى صورة نيكى أپتروس Nike Apteros أو النصر غير ذى الجناح(*) . وكانت نقوش جميلة (لايزال بعضها محفوظا فى متحف أثينة) تزين الحاجز ذا العمد الصغيرة هى وطائفة من التماثيل تمثل النصر المجنح وتحمل لأثينة الغنائم التى جاءت بها من أماكن قاصية . وقد صنعت هذه التماثيل على صورة أجمل تماثيل فدياس ، وهى أقل قوة وعنفا من تماثيل الإلهيات الضخمة التى فى الپارثنون ، ولكنها أكثر منها رشاقة فى حركتها ، وأرق منها وأقرب إلى الطبيعة فى شكل ملابسها ؛ وتمثال النصر الذى يربط خفيه خليق باسمه لأنه نصر خق للفن اليونانى .

وأقام نسكليز Mnesicles فى أعلى سلم الأكربوليس مدخلا ذا خمس

(*) كثيراً ما كانت تماثيل نصر تصنع من غير أجنحة حتى لا تستطيع مغادرة المدينة. وقد هدم الأتراك هذا المعبد فى عام ١٦٨٧ م ليقيموا مكانه حصنا . واستطاع لورد إلجين Lord Elgin أن ينتزع من العطب بعض قطع من الإفريز ويرسلها إلى المتحف البريطانى وفى عام ١٨٣٥ أعيدت أحجار الهيكل وأعيد بناؤه فى مكانه الأصلى ، ووضعت قوالب من الصلصال المحروق فى موضع الأماكن المفقودة من الإفريز التى أصابه كثير من الدمار .

فتحات أمام كل واحدة منها رواق ذو عمد دورية من طراز الأبواب الميسينية ، ولكنها أكثر منها إحكاماً . ومن هذه العمد أخذ الاسم الذى أطلق على البناء كله فيما بعد وهو البروبليا Propylaea أى ما أمام الأبواب . وكان لكل رواق إفريز ذو واجهة محززة ، من فوقه قوصرة . وكان فى داخل الممشى طائفة من العمد الأيونية لم يتحرج من شادوها أن يضعوها داخل هذا المحيط الدورى . وزين داخل الجناح الشمالى برسوم من صنع پولجنوتس وغيره من الفنانين ، ووضعت فيه لوحات نذور من الأحمر أو الرخام ؛ ومن أجل ذلك سميت الپناكثكا Pinakotheka أى بهو الرخام . وبقى جناح صغير فى الجهة الجنوبية ناقصاً ، فقد تعطل العمل فيه بسبب الحرب أو بسبب الانقضاض على پركليز ، فترك مدخل الپارثنون مجموعة مشوهة من القطع الصغيرة المتفرقة الجميلة .

وكان إلى إلى يسار الداخل من هذه الأبواب مزار الإركثيوم ذو الطراز الشرقى العجيب . وهذا أيضاً قد أدركته الحرب فلم يتم أكثر من نصفه حين وقعت أثينة فى مخالب الفوضى والفاقة على أثر نكبة إيجسپتماى Aegospotamai . وقد بدئ العمل فيه بعد موت پركليز بإيعاز المحافظين الذين كانوا يخشون أن يعاقب البطلان القديمان إركثيوس Erectheus وسكرپس Cecrops هما وأثينة ساكنة الضريح القديم ، والأفاعى المقدسة التى كانت تأوى إلى هذا المكان ، نقول كانوا يخشون أن تعاقب هـــذه كلها مدينة أثينة لأنها شادت الپارثنون فى مكان غير مكانه الأول . وكانت الأغراض المختلفة التى شيد من أجلها البناء هى التى عينت شكله ، وقضت على وحدته . فقد خصص أحد أجنحته لأثينة پولياس (أثينة المدينة) ، ووضعت فيه صورتها القديمة ، وخصص جناح آخر لإركثيوس وپسيدن ، ولم يكن يحيط بالمحراب أو جسم المعبد رواق بين أعمدة بضم أجزاءه المتفرقة ، بل كان يستند إلى ثلاثة أروقة متفرقة . وكان المدخلان الشمالى والشرقى تسندهما عمد أيونية رفيعة لا تفوقها

فى جمالها أية عمد أخرى من نوعها(*) . وكان المدخل الشمالى بابا كامل البناء مزيناً بأزهار مجفورة فى الرخام . ووضع فى المحراب تمثال أثينة الخشبي البدائى الذى هبط ، فى اعتقاد الصالحين ، من السماء . وهناك أيضاً كان المصباح العظيم الذى لا تنطفئ ناره أبداً ، والذى صاغه كلمكس ، سلينى Cellinus زمانه ، من الذهب المصفى وزينه بأوراق الأكنتوس كتيجان الأعمدة الكورنثية . وكان المدخـل الجنوبى هو باب القدارى أو الكَرْيَتيدات Caryatids(**) الذائع الصيت . وأكبر الظن أن تلك النساء الصابرات كن من نسل حاملات السلال الشرقيات . وفى تراليس Tralles من أعمال آسية الصغرى عمود قديم فى صورة امرأة لا يترك مجالا للشك فى أن هذا الطراز من العمد شرق الأصل ، وأكبر الظن أنه بابلى . والثياب التى تغطى أجسام العذارى فاخرة ، ويدل انحناء الركبة عن أنهن مستريحات فى وقفتهن ، ولكن أولئك الفتيات أنفسهن لا يشعرن الإنسان بأن فيهن من القوة ما يعينهن على حمل ذلك البناء ، كما يشعر الإنسان حين ينظر إلى أجمل أنواع الأبنية . لقد كان هذا انحرافاً فى الذوق أكبر ظننا أن فدياس لم يكن يجيزه قط .

(*) لقد كانت هذه العمد ، لا عمد البارثنون ، هى التى أقيمت على مثالها العمد التى أنشئت فيما بعد . وكان أسفل كل عمود يتصل بصف الأعمدة و بقاعدة أتكية ، مكونة من ثلاثة أجزاء مربوطة بعصابات شبكية أو أربطة . ويتدرج أعلى العمود حتى يصل إلى تاجه الولبى برباط من الأزهار . وكان للدعامة المرتكزة على العمود حلية عليها نقوش ، وإفريز من الحجر الأسود ؛ ومن تحت الطنف طائفة من النقوش البارزة . ولم تكن عناية الفنانين بحفر الحليات المكونة من أزهار البياضية ، والقنان ، والياسمين البرى ، أقل من عنايتهم بالتماثيل نفسها . وقد نال الفنانون على كل قدم من هذه الحليات مثل ما نالوه من الأجر على كل صورة فى الإفريز .

(**) كان المهندس الرومانى فتروفيوس Vitruvius هو الذى أطلق هذا الاسم على هذه الأشكال ، وقد أخذه من الاسم الذى كان يطلق على كاهنات أرتميس فى مدينة كرية Caryae من أعمال لكونيا Loconia . أما الأثينيون فلم يسموهم بأكثر من كوراى Karai أى العذارى .

٣ — البارثنون

فى عام ٤٤٧ بدأ إكتنوس ينشئ هيكلا جديداً لأثينة پارثنوس يساعده ذلك العمل كلكراتيز Callicrates ويشرف عليها فدياس وبركليز إشرافاً عاماً . وأنشأ فى الطرف الغربى من البناء حجرة لكاهناتها العذارى سماها حجرة « العذارى » ton parthenos ، ثم استعير هذا الاسم على توالى الزمن فأطلق على البناء كله . واختار إكتنوس لبناء الهيكل رخام جبل بنتكلوس الأبيض المشوب بحبيبات حديدية ، ولم يستخدم فى بنائه ملاطا ، بل نحتت كتل الحجارة وصقلت بحيث تمسك كل كتلة فى التى تليها كأن الاثنتين كتلة واحدة ، وثقبت صفحات الأعمدة ووضعت فى ثقب الصفحة قطعة من خشب الزيتون تصل كلا منها بالأخرى وتدور على التى تحتها حتى سوى السطحان المتقابلان ويصقلان فلا يكاد يرى فارق بينهما(٤٩) . وكان طراز البناء دوريا خالصا وبسيطا بسلطة أبنية العصر الذهبى ؛ أما شكله فكان رباعياً لأن اليونان لم تكن تعجبهم الأشكال المستديرة أو المخروطية ، ومن أجل هذا لم تكن فى العمارة اليونانية عقود وإن يكن المهندسون اليونان على علم بها من غير شك . ولم تكن أبعاد البناء كبيرة فهى ٢٢٨ × ١٠١ × ٦٥ قدما ، وأكبر الظن أنه كان يسود البناء كله تناسب معين كالتناسب التى يفرضه قانون بليكليتس ، فكانت جميع مقاييسه تتناسب تناسبا معينا مع قطر العمود(٥٠) . ففى بسدونيا كان ارتفاع العمود أربعة أمثال قطره ، أما هنا فكان الارتفاع خمسة أمثال القطر ؛ وكان هذا الطراز الجديد وسطا بين المتانة الاسبارطية والرشاقة الأتكية . وكان قطر كل عمود يزداد قليلا من قاعدته إلى وسطه (نحو ثلاثة أرباع البوصة) ثم ينقص كلما علا ؛ ويميل نحو مركز بهو الأعمدة . وكان سمك كل عمود فى ركن البناء يزيد قليلا على سمك سائر الأعمدة ، وكل خط أفقى من قاعدة كل صف ومن الدعامة

المرتكزة عليه ينحنى إلى أعلى نحو وسط حتى إذا نظر إليه الإنسان من أحد طرفى هذا الخط الذى يظنه مستقيما لم يستطع رؤية طرفه الثانى البعيد عنه . ولم تكن واجهات البنـــاء كاملة التربيع ، ولكنها خططت بحيث تظهر لمن ينظر إليها من أسفل كأنها مربعة . ولم تكن هذه الانحناءات كلها إلا تصحيحا دقيقا للخداع البصرى ، ولولاها لبدت قواعد صفوف الأعمدة منخفضة فى وسطها مائلة نحو الخارج . وما من شك فى أن هذا الضبط يتطلب قدراً كبيرا من العلم بالرياضيات والبصريات ، وأنه كان من المظاهر الهندسية الآلية التى جعلت الهيكل صرحا يجمع بين العلم والفن . فقد كان كل خط مستقيم فى البارثنون ، كما هو فى علم الطبيعة ، خطا منحنيا ، وكان كل جزء من البناء ينسحب نحو الوسط ، كما هو الشأن فى التصوير ، انسحابا دقيقا بارعا . وقد نشأ من هذا كله نوع من المرونة والرشاقة يخيل إلى الإنسان معه أنه يخلع على الحجارة نفسها حياة وحرية .

وكان فوق العارضة البسيطة (العارضة الراكزة على الأعمدة) سلسلة من الحزوز والأجنبة (ما بين الحزوز) تلى كلتاهما الأخرى . وقد نقشت على الأجنبة الاثنين والتسعين نقوش بارزة تقص مرة أخرى كفاح « الحضارة » و « الوحشية » فى حروب اليونان والطروادين ، واليونان والأمزونيات ، واللبيثيين والقناطره (Centaurs) ، والجبابرة والآلهة . ولا شك فى أن هذه الألواح من صنع فنانين كثيرين يختلفون فى مهارتهم ، فهى لا تعادل النقوش البديعـــة التى على إفريز المحراب وإن كانت بعض رؤوس القناطرة لا تقل دقة وجمالا عن صور رمبرانت Rembrandt ، وإن كانت هذه الرؤوس قد صنعت من الحجارة . وكان فى قواصر السقف المرمى طائفة من التماثيل المقامة من حجارة منحوتة كبيرة الحجم ، وفى القوصرة الشرقية المقامة فوق المدخل . كان يسمح للزائر أن يشهد مولد أثينة

من رأس زيوس . وفى هذا المكان يشاهد تمثالا متكئاً لثسيوس(*) قوى الجسم جباراً ، قادراً على تفكير الفلاسفة وسكون المتحضرين ، وتمثالا جميلا لإيريس Iris (وهى هرمس فى صورة نسوية) فى ثياب ملتصقة بجسمه ولكنها تلعب بها الريح ، لأن فدياس كان يرى أن الريح التى لا تلعب بالثياب نذير سوء .

وهناك أيضا كان تمثال فخم لهبى Hebe إلهة الشباب التى كانت تصب الرحيق فى كؤوس الآلهة الأولمبية ، وثلاثة تماثيل رائعة « للأقدار » . وكان فى الركن الأيسر أربعة رؤوس جياد — تبرق أعينها ، وتنخر مناخيرها ، وتزبد أفواهها وهى مسرعة فى علوها ، تعلن شروق الشمس . وكان الركن الأيمن يسوق القمر للمغيب عربته ذات الجياد الأربعة والرؤوس الثمانية أجمل رؤوس الخيل فى تاريخ النحت كله . وفى القوصرة الغربية نرى أثينة تنازع بسيدن السيادة على أتكا . وهناك أيضا كانت خيول ، كأنها وضعت لتكفر عن سخافات الإنسان الكثيرة ، وكانت هناك تماثيل لأناس متكئين تمثل فى فخامتها غير الواقعية نهيرات أثينة الصغيرة . ولعل تماثيل الرجال كانت كثيرة العضلات فوق ما يجب ، ولعل تماثيل النساء كانت أكبر مما ينبغى ، ولكننا نشاهد تماثيل قد تجمعت بحالتها الطبيعية التى تجمعت بها هنا ، وقلما نرى تماثيل بهذه الكثرة قد نسقت فى ذلك المكان الضيق من قوصرة البناء . ويصفها كنوفا Canova وصفاً لا نشك أنه قد غالى فيه فيقول : « إن سائر التماثيل من حجارة أما هذه فمن لحم ودم » .

وأجمل من هذه وأكثر منها جاذبية صور الرجال والنساء التى فى الإفريز ، فهنا نشاهد أشهر النقوش كلها على الإطلاق تمتد إلى مدى ٥٢٥ قدما فى أحد الجدران الخارجية للمحراب ، وفى داخل الرواق . وأكبر الظن أن هذه

(*) إن الأسماء التى نطلقها على التماثيل القائمة فى البارثنون ظنية فى أكثر الأحيان .

النقوش تمثل فتيان أتكا وفتياتها يقدمن الهدايا وفروض الطاعة للإلهة أثينة فى يوم الاحتفال بألعاب الجامعة الأثينية ، فترى جزءاً من الموكب يتحرك بمحاذاة الجانبين الغربى والشمالى ، وجزءاً آخر يتحرك بمحاذاة الجانب الجنوبى ، ثم يلتقيان فى الواجهة الشرقية أمام الآلهة ، وهى تقدم فى فخر وكبرياء هدايا المدينة وجزءاً من مغانمها إلى زيوس وغيره من الآلهة الأولمبية . وهناك أيضاً فرسان حسان تتمثل فيهم المهابة والرشاقة فوق خيول أجمل منهم ، وعربات تقل طائفة من كبراء المدينة تتبعهم جماعات من العامة تبدو عليهم مظاهر السعادة وهم يسيرون فى الموكب رجالا . ونرى فتيات حساناً ، وشيوخاً هادئين يحملون أغصان الزيتون وصحاف الكعك ، ونرى الخدم وعلى أكتافهم أباريق من الخمر المقدسة ، ونساء موقرات يحملن إلى الإلهة الأثواب الخارجية التى نسجنها وطرزنها استعداداً لهذا اليوم المقدس وقبل أن يحل بزمن طويل . ونرى الأضحية تمشى لتلاقى مصيرها وهى صابرة كالأثوار أو غاضبة عارفة بما ينتظرها من بلاء ، وعذارى الطبقات الراقية يأتين بآنية الطقوس والتضحية ، وموسيقيين يعزفون على القيثارات أناشيد خالدة لا تسمع لها نغما . وقلما نرى حيوانات أو أناسى قد بذل فى تكريمها من الفن مثل ما بذل فى هذه النقوش ؛ فقد استطاع المثالون بما رسموا وظللوا فيما لا يزيد على بوصتين ونصف بوصة من النقش البارز أن يخدعوا العين فيخيل إليها أن جواداً أو فارساً بعيداً عن آخر ، وإن كان أقربها لا يرتفع عن خلفية الصورة أكثر من سائر النقوش[٥١] . ولربما كان من الخطأ أن يكون هذا النقش البديع عاليا لا يستطيع الناظر إليه أن يتأمله فى يسر وراحة ويستوعب كل ما فيه من رونق وجمال ، وما من شك فى أن فدياس كان يتعلل عن هذا وهو يغمز بعينيه بحجة أن الآلهة كانت تستطيع رؤيته ؛ ولكن الآلهة كانت تحتضر وهو ينقش هذه النقوش .

وكان مدخل الهيكل الداخلى تحت الآلهة الجالسة المنقوشة فى الإفريز . وكان داخل هذا الهيكل صغيراً نسبياً لأن معظم الفراغ كانت تشغله صفوف من الأعمدة الدورية التى تحمل السقف وتقسم المحراب إلى صحن وممسين ، وفى الطرف الغربى كان سنا أثواب أثينة الذهبية يذهب بأبصار عبادها ، وكان رمحها ودروعها وأفاعيها توقع الرعب فى قلوبهم . وكان من خلفها حجرة العذارى تزينها أربعة أعمدة دورية الطراز . وكان فى الألواح الرخامية التى تغطى السقف من الصفاء ما يسمح بنفاذ بعض الضوء إلى صحن المحراب ، ومن العتمة ما يكفى لمنع الحرارة عنه ؛ هذا إلى أن التق ، كالحب ، يصد عن المتقين حر الشمس . وكانت الطنف منقوشة نقشاً دقيقاً بذل فيه كثير من العناية ، وكانت تعلوها وقايات من الآجر ركبت فيها ميازيب لإزالة مياه الأمطار . وكانت أجزاء كثيرة من الهيكل مطلية بالألوان الزاهية الصفراء والزرقاء والحمراء . فأما الرخام فقد طلى باللونين الزعفرانى واللبنى ، وكانت الحروز وبعض النقوش زرقاء ، وكذلك كانت أرضية الإفريز . أما الواجهة فكانت حمراء ، وكان كل ما فيها من الصور ملوناً (٥٢) . وقد فضل اليونان الألوان الناصعة على الألوان الهادئة لأنهم شعب اعتاد جو البحر الأبيض المتوسط ولأن فى طاقته أن يتحمل الألوان البراقة ، بل هو يفضلها عن الألوان الخفيفة الهادئة التى توائم جو شمال أوربا القاتم . والآن وقد تجرد البارثنون من ألوانه فإنه يبدو أجمل ما يكون فى الليل حين تظهر من الفراغ الذى بين العمد مناظر السماء المتغيرة ، أو منظر القمر معبود الأقدمين ، أو أضواء المدينة النائمة مختلطة بتلألأ النجوم (*) .

(*) لقد كان الذى أبقى على البارثنون ، كما أبقى على الإركثيوم والتسيوم ، هو أن هذه الهياكل حولت إلى كنائس ؛ ولم تكن هذه المبانى تحتاج فى هذا التحويل إلى تغيير كبير فى أسمائها . لأنها فى كلتا الحالتين مخصصة للعذراء . وحول البارثنون بعد أن احتل الترك البلاد فى عام ١٤٥٦ إلى مسجد وأقيمت فيه مئذنة . ولما حاصر البنادقة مدينة أثينة فى عام ١٦٨٧ استخدم الأتراك الهيكل ليختزنوا فيه كل يوم ما تحتاجه مدافعهم من البارود . ولما أبلغ هذا —

لقد كان الفن اليونانى أعظم ما أبدعه اليونان ؛ ذلك أن روائعه ، وإن لم تقو على مقاومة عوادى الأيام ، قد بقى من صورتها وروحها ما يكفى لأن يجعلها نبراسا تهتدى به كثير من الفنون ، ووحيا يلهمها مدى كثير من الأجيال وفى كثير من البلدان . ولقد كان فى هذا الفن أخطاء ، شأنه فى هذا شأن كل عمل يعمله الإنسان ؛ ولقد كانت التماثيل تعنى بالجسم فوق ما يجب أن تعنى به ، وقلما كانت تنفذ إلى الروح ؛ فهى تحملنا على الإعجاب بكمالها ، لا بالشعور بما فيها من حياة . وكان شكل المبانى وطرازها محصورين فى حدود ضيقة ، وظلت هذه المبانى مدى ألف شكل متشبثة بالشكل الرباعى البسيط الذى أخذته عن المبانى الميسينية(*) ، ولم تكن تبتدع شيئاً فى غير ميدان الدين ؛ ولم تحاول إلا طرق البناء السهلة ، وتجنبت الأساليب الصعبة كالأقواس والقباب ، ولعلهم لو أقدموا عليها لوجدوا فيها

— الخبر لقائد البنادقة أمر بأن تطلق نيران مدافعه على البارثنون ، واخترقت قذيفة سقف الهيكل ونسف البارود وخربت نصف البناء . ولما استولى مروسينى **Morosini** على المدينة حاول أن ينهب تماثيل القواصر ، ولكنها سقطت من عماله وهم ينزلونها من أماكنها وتحطمت . وفى عام ١٨٠٠ م حصل لورد إلجين ، سفير بريطانيا فى تركيا ، على إذن من الباب العالى بأن ينقل بعض التماثيل والنقوش إلى المتحف البريطانى حيث تكون ، على حد قوله ، أكثر أماناً من تقلبات الجو وخطر الحروب . وكان من بين ما غنمه بهذه الطريقة اثنا عشر تمثالا ، وخمسون لوحة من لوحات الواجهة ، وست وخمسون قطعة من الإفريز . وأشار خبير النحت فى المتحف البريطانى بعدم شراء هذه الآثار ، ولم يوافق المتحف على أداء ١٧٥٫٠٠٠ ريال أمريكى ثمناً لها إلا بعد مفاوضات دامت عشر سنين . وكان هذا المبلغ أقل من نصف ما أنفقه لورد إلجين فى الحصول عليها ونقلها(٥٣) . إلى إنجلترا ؛ وأطلقت المدافع مرتين على الأكربوليس فى أثناء حرب الاستقلال اليونانية (١٨٢١ – ١٨٣٠) بعد بضع سنين من ذلك الوقت ودمر بذلك جزء كبير من هيكل الإركثيوم(٥٤) ولا تزال بعض أجزاء من جبهة البارثنون فى أماكنها ، وبعض ألواح من الإفريز فى متحف أثينة ، وعدد قليل غيرها فى متحف اللوفر . ولقد شاد سكان ناشفيل ، وتنسى ، نماذج البارثنون بأبعاده الأصلية ومن نفس المواد التى استخدمت فى بنائه ؛ ومبلغ علمنا أنها زينت ولونت بنفس الزينات والألوان . ويحتوى المتحف الفنى بنيويورك على أنموذج ظنى لداخل الهيكل .

(*) وفى مقدور الإنسان أن يلحظ أيضاً عدم النظام فى الأبنية المقامة على الأكربوليس وفى الأفنية المقدسة بألمپيا . ولكن يصعب عليه أن يحكم هل كان عدم النظام هذا ناشئاً من فساد فى الذوق أو أنه كان مصادفة من مصادفات التاريخ .

ميادين للعمل واسعة . وكانوا يقيمون سقفهم بالطريقة غير الجميلة طريقة العمد الداخلية المقامة بعضها فوق بعض . وكانوا يزحمون داخل هياكلهم بالتماثيل التي لا يتناسب حجمها مع حجم البناء الكلي ، وكانت زينتها تنقصها البساطة والتحفظ اللذين يتوقع الإنسان وجودهما في طراز أبنية العصر الذهبي.

على أنه مهما تكن أغلاط ذلك الفن فإنها لا ترجح تلك الحقيقة الماثلة في الأذهان ، وهي أن الفن اليوناني قد خلق على طراز أبنية العصر الذهبي . وجوهر هذا الطراز — إذا سمح لنا أن نذكر مرة أخرى موضوع هذا الفصل قبل أن نختمه — من حيث نظامه وشكله هو : التوسط والاعتدال في التخطيط والتصميم والتغيير . والتزيين ، والتناسب بين الأجزاء ، والوحدة التي تشمله كله ، وعلو سلطان العقل دون أن يقضي بذلك على الشعور ، والكمال الهادئ الذي يقنع بالبساطة ، والسمو الذي لا يدين بشيء إلى انضمامه . ولم يكن لطراز من الأبنية اللهم إلا الطراز القوطي ، من الأثر مثل ما كان لهذا الطراز ، والحق أن التماثيل اليونانية لاتزال هي المثل الأعلى في فنها ، وقد ظلت العمد اليونانية حتى الأمس القريب هي المسيطرة على فنون العمارة تحول دون قيام طرز أخرى أجمل منها وأوقع في النفس . وإن من الخير أنا قد أخذنا نتحرر من سيطرة الفن اليوناني لأن كل شيء ، حتى الكمال نفسه ، يصبح ثقيلا بغيضاً إذا لم يتغير . ولكننا بعد أن يتم تحررنا بزمن طويل سنجد علما وحافزاً في هذا الفن الذي كان حياة العقل ممثلة في ذلك الطراز ، وهو خير ما أهدته بلاد اليونان إلى بني الإنسان .

الباب الخامس عشر

تقدم العلوم

لقد ظهر النشاط الثقافي في عصر پركليز في ثلاثة أشكال رئيسية — هي الفن والتمثيل والفلسفة : وكان الدين الملهم لأولها ، وميدان القتال الملهم لثانيها ، والتضحية هي الملهمة لثالثها . وإذ كان تنظيم الجماعة الدينية يتطلب وجود عقيدة مشتركة .مستقرة ، لأن كل دين لا بد أن يتعارض عاجلا أو آجلا مع تيار التفكير الدنيوي السائد المتبدل الذى نطلق عليه بحق اسم تقدم المعرفة . ولم يكن هذا التعارض في أثينة ظاهراً للعين على الدوام ، ولم يؤثر في جمهرة الشعب تأثيراً مباشراً ، فقد كان العلماء والفلاسفة يواصلون عملهم دون أن يهاجموا العقائد الدينية للشعب مهاجمة صريحة ، وكثيراً ما كانوا يخففون من حدة النزاع باتخاذ المصطلحات الدينية القديمة رموزاً أو استعارات لعقائدهم الجديدة ، ولم يظهر هذا النزاع سافراً ويصبح مسألة حياة أو موت إلا في فترات متفرقة كما حدث حين وجهت التهم إلى أنكساغوراس ، وأسبازيا ، وديُجراس الميلوسي Diogaras of Melos ويوربديز ، وسقراط . ولكن النزاع رغم خفائه كان موجوداً بحق ، وكان تياره يسرى في عصر پركليز ، وكان من الموضوعات الكبرى التي تشغل الأذهان ؛ كما كان يظهر في صور وأشكال مختلفة قوياً تارة وضعيفا تارة أخرى . وأوضح ما كان يسمع في أحاديث السوفسطائيين المتشككة ، وفي آراء دمقريطس المادية ، وكانت أصداؤه الخفية تتردد في آراء إسكلس الصالحة التقية ، وفي زندقة يوريديز وحتى في أقوال أرسطوفان المحافظ المليئة بالهزل وقلة الاحتشام . وظهرت مرة أخرى قوية في محاكمة سقراط وموته . ذلك هو الموضوع الذى تدور حوله الحياة العقلية لأثينة في عصر پركليز .

الفصل الاول

علماء الرياضة

كان العلم الخالص فى بلاد اليونان فى القرن الخامس لا يزال يسير فى ركاب الفلسفة ، وكان يدرسه ويعمل على ترقيته رجال فلاسفة أكثر منهم علماء . ولم تكن علوم الرياضة العليا فى نظر اليونان أداة عملية بل كانت منطقية ، تهدف إلى التركيب الذهنى للعالم المعنوى أكثر مما تهدف إلى السيطرة على البيئة المادية الطبيعية .

ويكاد علم الحساب المتداول بين جمهرة اليونان قبل عصر بركليز أن يكون علما بدائياً لم يدخل عليه إلا القليل من الصقل والتهذيب(*) ، فكان يرمز لرقم ١ بشرطة عمودية ولرقم ٢ بشرطتين ، وبثلاث شرط لرقم ٣ وبأربع لرقم ٤ ؛ وكانت الأعداد ٥ ، ١٠ ، ١٠٠ ، ١٠٠٠ ، ١٠٠٠٠ يرمز لها بالحروف الأولى من الكلمات اليونانية التى تسمى بها هذه الأعداد وهى : بنتى pente ، وديكا deka ، وهكتون hekaton ، وكليوى chilioi ، مريوى myrioi . ولم يضع علماء الحساب اليونان رمزاً للصفر . ومما يدل على أن علم الحساب اليونانى كعلم الحساب عندنا ، مصدره بلاد الشرق أنه أخذ عن المصريين النظام العشرى فكان اليونان يعدون بالعشرات ، وأنه أخذ عن البابليين فى علمى الفلك وتقويم البلدان الطريقة الاثنى عشرية والستينية فكانوا يعدون فى هذين العلمين بالاثنى عشرات والستينات ، ولا نزال نحن نستخدم هذه الطريقة فى الساعات وعلى الكرات الأرضسية والخرائط

(*) إذا أراد القارىء أن يعرف طريقة كتابة الأرقام الحسابية بعد ذلك العهد فليقرأ الفصل الأول من الباب الثامن والعشرين (ولعل ما جاء به ينطبق على عصر بركليز أيضاً)

الجغرافية . ولعل العامة كانوا يستعينون بمعداد لإجراء عمليات الحساب السهلة . أما الكسور الاعتيادية فكانت تسبب لهم عناء شديداً ، فكانوا إذا أجروا عملية حسابية تحتوى على كسر اعتيادى بسطه أكبر من ١ حولوا هذا الكسر إلى عدة كسور بسطها كلها ١ فالكسر الاعتيادى $\frac{٢٣}{٣٢}$ مثلا كان يقسم $\frac{١}{٢} + \frac{١}{٨} + \frac{١}{١٦} + \frac{١}{٣٢}$ (٣)(*)

وليست لدينا معلومات مدونة عن الجبر عند اليونان قبل التاريخ المسيحى . أما الهندسة النظرية ، فكانت من الدراسات المحببة إلى الفلاسفة ، ولم تكن تدرس لفائدتها العملية بقدر ما كانت تدرس لفائدتها البحتية النظرية وما فيها من استدلال منطقى خلاب ، وما فيها من دقة ووضوح ، وتفكير متتابع ينبنى بعضه على بعض : وكانت ثلاث مسائل بوجه خاص تسترعى انتباه هؤلاء العلماء الرياضيين الباحثين فيما وراء الطبيعة ، ومما يدل على ما أصبح للمشكلة الأولى من شأن عندهم أن شخصية من شخصيات مسرحية الطيور لأرسطوفان تمثل ميتون Meton تأتى إلى المسرح بمسطرة وفرجار وتعلن أنها سترى النظارة كيف « تحول الدائرة إلى مربع » أى كيف يرسم مربع مساحته تساوى مساحة دائرة معلومة . ولعل هذه المسائل وأمثالها هى التى جعلت الفيثاغوريين المتأخرين يضعون قواعد الأعداد الصماء والكميات غير المتناسبة(**) . كذلك كانت دراسات الفيثاغوريين القطع المكافئ والقطع الزائد ، والقطع الناقص هى التى مهــدت السبيل إلى مؤلف

(*) لقد كان كتبة الدوائر الزراعية إلى عهد قريب يقولون مثلا « نصف وربع وثمن » بدل $\frac{٧}{٨}$ وفى « سورة الفدان » أمثلة كثيرة من هذه الطريقة . (المترجم)

(**) الأعداد الصماء هى الأعداد التى لا يمكن التعبير عنها بعدد كامل ، أو كسر من عدد كالجذر التربيعى للعدد ، والكميتان غير المتناسبتين هما الكميتان اللتان لا يمكن إيجاد كمية ثالثة بينهما وبينهما نسبة يمكن التعبير عنها بعدد غير أصم ، كضلع المستطيل وقطره ، ونصف قطر الدائرة ومحيطها .

أبولونيوس البرجى Appolonius of Perga فى القطاعات المخروطية ، وهو المؤلف الذى كان عظيم الشأن فى تاريخ العلوم الرياضية[٢]. وفى عام ٤٤٠ ق.م. نشر أبقراط الطشيوزى (وهو غير أبقراط الطبيب) أول كتاب معروف فى الهندسة النظرية وحل مشكلة تربيع المساحة الكائنة بين قوسين متقاطعين[*] . وفى عام ٤٢٠ أفلح هيلياس الإلياثى Hippias sf Elia فى تقسيم الزاوية ثلاثة أقسام متساوية بآلاستعانة بالمنحنى ، وحوالى عام ٤١٠ أعلن دمقريطس الأبدرى على الملأ قوله : «لم يفقنى أحد قط ولا المصريون أنفسهم فى رسم خطوط حسب شروط معلومة»[٤] ؛ وكاد يفلح فى تبرير هذا الازدهاء بتأليف أربعة كتب فى الهندسة النظرية ، ووضع قوانين لمعرفة مساحتى المخروط والهرم[٥] . وملاك القول أن براعة اليونان فى الهندسة قد بلغت من العظمة ما بلغه ضعفهم فى الحساب . وكان للهندسة شأن عظيم فى جميع نواحى نشاطهم ، وحتى فنونهم نفسها قد تدخلت فيها فوضعت أشكالا كثيرة للحلى المنقوشة على خزفهم وأبنيتهم ، وحددت النسب بين أجزاء البارثنون ومنحنياته .

(*) هو شكل هلالى يحدث من تقاطع قوسى دائرتين .

الفصل الثاني

أنكساغوراس

كان من مظاهر النزاع القائم بين الدين والعلم أن حرمت الشرائع الأثينية دراسة علم الفلك فى الوقت الذى بلغ فيه عصر پركليز أعلى درجاته(٦) . وكان هذا العلم قد خطا خطوته الأولى فى بلاد اليونان حين أعلن أنبادوقليس فى أكرجاس أن الضوء يستغرق بعض الوقت فى انتقاله من نقطة إلى أخرى(٧) . ثم خطا خطوة ثانية حين أعلن بارمنيدس فى إيليا Elea ان الأرض كرية الشكل ، ثم قسم هذا الكوكب الأرضى إلى خمس مناطق ؛ وعرف أن القمر يواجه الشمس بجزئه المنير على الدوام(٨) . ثم قام فيلولوس Philolaus الفيثاغورى فى طيبة فخلع الأرض عن عرشها فى مركز الكون وأنزلها منزلة كوكب من الكواكب الكثيرة التى تطوف حول « نار تتوسطها » جميعاً(٩) : وجاء لوقيبوس Leucippus تلميذ فيلولوس. فقال إن النجوم قد نشأت من الاحتراق المتوهج لمواد « تندفع فى مجرى الحركة العالمية للدوامة الدائرية » ومن تجمع هـــذه المواد وتركزها(١٠) . وقام فى أبدرا دمقريطس تلميذ لوقيبوس بعد أن درس العلوم البابلية ، فوصف المجرة بأنها مكونة من عدد لا يحصى من النجوم الصغرى ، ولخص التاريخ الفلكى بقوله إنه تصادم دورى وتحطيم لعدد لا يحصى من العوالم(١١) . وفى طشيوز كشف إينوپديز انحراف منطقة البروج(١٢) وجملة القول أن القرن الخامس كان فى جميع المستعمرات اليونانية عصر تطور علمى عجيب فى زمن يكاد يكون خلواً من الآلات العلمية .

فلما حاول أنكساغوراس أن يقوم بمثل هذه الأعمال فى أثينة وجد أن مزاج الأهلين ومزاج الجمعية معاديان للبحث الحر بقدر ما كانت صـــداقة پركليز

مشجعه له . وكان أنكساغوراس قد أقبل على أثينة من كلزمينى Chlazomenae حوالى عام ٤٨٠ ق . م . وهو فى الخامسة والعشرين من عمره . وحبب إليه أنكسيمانس Anaximenes دراسة النجوم إلى حد جعله يقول جواباً عن سؤال وجهه إليـــه بعضهم عن الغرض من الحياة : « هو البحث عن حقيقة الشمس والقمر والسماء[١٢] » . وأهمل العناية بالثروة التى خلفها له والده وصرف وقته فى رسم خريطة للأرض والسماء ، وحلت به الفاقة فى الوقت الذى رحبت فيه الطبقات فى أثينة بكتابه فى الطبيعة وعدته أعظم الكتب العلمية التى ظهرت فى ذلك القرن .

وكان هذا الكتاب حلقة من سلسلة البحوث العلمية التى قامت بها المدرسة الأيونية ، وفيه يقول أنكساغوراس إن العالم كان فى بادئ الأمر فوضى أوعماء مكونا من بذور مختلفة الأنواع (spermata) ، يسرى فيها فكر (nous) أو عقل مادى ، لطيف ، قوىُّ الصلة بأصل الحياة والحركة فى الآدميين ، وكما أن العقل يصدر الأوامر إلى الفوضى التى تسود أعمالنا ، فكذلك أصدر العقل العالمى أمره إلى البذور الأولية فبعث فيها دوامة رحوية(*) ، وهداها إلى طريق نشأة الأشكال العضوية[١٣] . وقسم هذا الدوران البذور إلى الأركان أو العناصر الأربعة — النار ، والهواء ، والماء ، والأرض — وقسم العالم طبقتين دوارتين طبقة خارجية مكونة من « الأثير » وأخرى داخلية مكونة من الهواء . وبسبب هذه الحركة الدوارة العنيفة انتزع الأثير النارى الملتف حول الأرض حجارة من الأرض وأضاءها فكانت نجوماً[١٤] » . والشمس والنجوم فى رأيه كتلة من الصخور حمراء متوهجة أكبر من البلوبونيز مراراً كثيرة[١٥] » . وحين تضعف حركتها الدائرية تسقط أحجار الطبقة الخارجية على الأرض فتكون شهباً[١٦] ٥

(*) هذه هى الدوامة التى يسخر منها أرسطوفان فى كتابه « السحب » سخرية لاذعة ويقول إن سقراط قد استبدل بها زيوس .

والقمر جسم صلب متوهج ، فى سطحه سهول وجبال وأخاديد[١٧] ، يستمد ضوءه من الشمس ، وهو أقرب الأجرام السماوية إلى الأرض[١٨] . « ويخسف القمر إذا توسطت الأرض بينه وبين الشمس كما تكسف الشمس إذا توسط القمر بينها وبين كالأرض[١٩] » . وربما كانت بعض الأجرام السماوية مسكونة عليها خلائق الأرض ؛ وعليها « يتكون أناس وتتكون حيوانات أخرى ذات حياة ؛ ويسكن الناس المدن ، ويزرعون الأرض كما نزرعها نحن[٢٠] » . وقد نشأ من التكثف المتتابع للطبقة الداخلية أو الغازية من طبقتى كوكبنا سحب ، وماء ، وتراب ، وحجارة . وتنشأ الرياح من رقة الجو الناشئة من حرارة الشمس كما « ينشأ الرعد من تصادم السحب والبرقُ من احتكاكها[٢١] » وكمية المادة ثابتة لا تتغير ، ولكن الأشكال جميعها تبدأ ثم تزول ، وستصبح الجبال فى مستقبل الأيام بحاراً[٢٢] . وينشأ كل ما فى العالم من أشياء وأشكال يتجمع أجزاء متماثلة homoiomeria وفقاً للنظام يزداد تحديداً على مدى الأيام[٢٣] . وقد ولدت جميع الكائنات العضوية فى بادئ الأمر من التراب ، والرطوبة ، والحرارة ، وبذلك نشأ بعضها من البعض الآخر[٢٤] . وقد تطور الإنسان أكثر مما تطورت سائر الحيوانات لأن قامته المعتدلة أطلقت يديه فاستطاع بهما أن يمسك الأشياء[٢٥] .

وأصبح أنكساغوراس بفضل ما حققه من النتائج وهى وصفه أساس علم الظواهر الجوية ، وتفسير الكسوف والخسوف تفسيراً علمياً صحيحاً ، ووضع فرض معقول لتكوين الكواكب السيارة ، وإدراكه أن القمر يستمد نوره من الشمس ، وقوله بتطور الحياة الحيوانية والبشرية — أصبح بفضل هذه النتائج كوبرنيق ذلك العصر وداروينه معاً . ولعل الأثينيين كانوا يعفون عن هذه الآراء لو أن أنكساغوراس لم يهمل تفسير منشأ عقله ومواهبه فيما فسر من حادثات طبيعية وتاريخيـة ؛ ولعلهم ظنوا أنه

لجأ إلى هذا الصمت ، كما يـ‍ ‍ ‍ ‍ يديز فى إحدى تمثيلياته إلى « آلة إسقاط الآلهة من السماء » لينجو بها من غضب مواطنيه . ويقول عنه أرسطاطاليس إنه كان يبحث عن العلل الطبيعية لكل شيء . من ذلك أنه جيء لبركليز بكبش ذى قرن واحد فى وسط جبهته وقال أحد العرافين إنه نذير من نذر الآلهة ، فأمر أنكساغوراس بفتح رأس الحيوان وأظهر للحاضرين أن مخه قد نما فى مقدم الجبهة بدل أن يملأ جانبى الجمجمة كلها ، فنشأ من نموه على هذا النحو قرن الكبش الوحيد(٢٧) . وقد أثار أنكساغوراس مشاعر السذج بتفسير سقوط الشهب على أساس القوانين الطبيعية ، وأرجع كثيراً من الشخوص الأسطورية إلى تجسيم المجردات العقلية(٢٨) .

وصبر عليه الأثينيون وداروه إلى حين ، وكل ما فعلوه به أن أطلقوا عليه لفظ nous (الفكر — العقل(٢٩)) . فلما لم يجد كليون Cleon الذى كان يناقش بركليز فى تزعم الشعب وسـيلة أخرى يضعف بها خصمه .اتهم أنكساغوراس بالإلحاد لأنه وصف الشمس (وكانت لا تزال فى نظر الشعب إلهاً من الآلهة) بأنها كتلة من الحجارة المحترقة ، ولم يترك وسيلة يستعين بها على تأييد دعواه إلا اتبعها . وأدين أنكساغوراس رغم دفاع بركليز المجيد عنه(*) . ولم يكن أنكساغوراس راغباً فى تعاطى عصير الشوكران السام ، ففر إلى لمبسكوس Lampasacus على مضيق الهلسبنت ، وأخذ يكسب عيشه بتدريس الفلسفة(**) . ولما تراءى إليه أن الأثينيين حكموا عليه بالإعدام قال : « لقد قضت الطبيعة عليهم وعلىَّ بهذا الحكم من زمن بعيد(٣٢) » . ومات بعد بضع سنين من ذلك الوقت فى الثالثة والسبعين من عمره .

(*) حوالى ٤٣٤(٣٠). وفى رواية أخرى أن المحاكمة حدثت فى عام ٤٥٠(٣١) .

(**) وفى رواية أخرى أنه سجن فى أثينة ، وظل ينتظر أن يسقى كأس السم ولكن بركليز دبر له أمر هروبه

ويُرى تأخر الأثينيين فى علم الفلك واضحاً فى تقويمهم ؛ ذلك أنه لم يكن لليونان تقويم عام بل كان لكل دولة تقويم خاص بها ، وكانت كل نقطة من النقاط الأربع التى يصح اتخاذها بداية للسنة الجديدة متبعة فى مكان ما من بلاد اليونان ؛ وحتى الشهور نفسها كانت تتغير أسماؤها فى الدويلات المختلفة ، فكان تقويم أتكا يحسب الشهور بمنازل القمر والسنين بأبراج الشمس[٣٤] . وإذ كان فى كل اثنى عشر شهراً قمرياً ٣٦٠ يوماً (*) فقط ، فقد كانوا يزيدون شهراً على كل سنتين لكى يتفق حساب السنة مع حساب الشمس والفصول[٣٥] . وهذا الحساب نفسه يجعل السنة تطول عشرة أيام فوق ما يجب أن تكون ، ولذلك وضع صولون النظام الذى يقضى بأن تكون أيام الشهور القمرية ٣٠ يوماً و ٢٩ بالتناوب مقسمة إلى ثلاثة أسابيع (ديكادوى) فى كل أسبوع عشرة أيام (أو تسعة فى بعض الأحيان)[٣٦] . وتبقى بعد هذا أربعة أيام صححها اليونان بحذف شهر من كل ثمان سنين : وبهذه الطريقة الملتوية التى لا يكاد يدركها العقل وصل اليونان آخر الأمر إلى احتساب السنة ٣٦٥ يوماً وربع يوم(**) .

وحدث فى هذه الأثناء تقدم قليل فى علم الجغرافية . فقـــد فسر أنكساغوراس فيضان النيل السنوى تفسيراً صحيحاً بقوله إنه ينشأ من ذوبان جليد بلاد الحبشة فى فصل الربيع ومن سقوط الأمطار فيها[٣٨] . وفسر علماء طبقات الأرض اليونان وجود مضيق جبل طارق بأنه نتيجة لتشقق الأرض من أثر زلزال ، كما فسروا وجود جزائر بحر إيجه بأنه ناشئ من انخفاض قاع البحر[٩] . وقال زنثوس الليدى Zainhus of Lydia حوالى ٤٩٥ إن البحرين الأبيض المتوســط والأحمر كانا فى الزمن القديم متصلين أحدهما بالآخر عنـــد السويس ، وسجل إسكلس ما كان

(*) ليست السنة القمرية ٣٦٠ يوماً بل هى حوالى ٣٥٤ . (المترجم) .

(**) يشير هيرودوت إلى فضل التقويم المصرى على التقويم اليونانى . وقد أخذ اليونان من المصريين المزولة وأخذوا من آسية الساعة المائية واتخذوهما وسيلتين لحساب الزمن .

يعتقده أهل زمانه من أن صقلية قد انفصلت من إيطاليا نتيجة لاضطراب في القشرة الأرضية(٤٠) . وارتاد إسكيلاكس الكارى Scylax of Caria (٥٢١ — ٤٨٥ ق . م) جميع شواطئ البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود . ويبدو أن أحداً من اليونان لم يجازف بالقيام برحلة استكشافية كالرحلة التى قام بها هنو Hanno القرطاجي بأسطول مؤلف من ستين سفينة ، اخترق به مضيق جبل طارق وسار به نحو ٢٦٠٠ ميل بإزاء الساحل الغربى لإفريقية (حوالى ٤٩٠ ق . م) . وكانت خرائط عالم البحر الأبيض المتوسط منتشرة فى أثينة فى أواخر القرن الخامس . أما الطبيعة فمبلغ علمنا أنها لم تتقدم على أيدى اليونان وإن كانت منحنيات البرثنون تدل على أنهم كانوا يعرفون الكثير عن البصريات . غير أن الفيثاغوريين أعلنوا حوالى عام ٤٥٠ أبقى الفروض العلمية اليونانية ، وهو التركيب الذرى للمادة . كذلك وضع أنبادوقليس وغيره من العلماء نظرية نشوء الإنسان وارتقائه من صور للحياة أدنى منه ، ووصفوا رقيه البطيء من الهمجية إلى الحضارة(٤١) .

الفصل الثالث

أبقـــراط

لقد كان أهم الحوادث فى تاريخ العلوم اليونانية فى عصر بركليز نهضة الطب القائم على العقل لا على الخرافة . ذلك أن الطب اليونانى قبل ذلك الوقت حتى فى القرن الخامس نفسه كان وثيق الارتباط بالدين إلى حد كبير ، وكان كهنة هيكل أسكلبيوس Asclepius لا يزالون يقومون بعلاج المرضى . وكان العلاج فى هـــذا الهيكل يقوم على خليط من الأدوية التجريبية ، والطقوس المؤثرة الرهيبة ، والرقى السحرية التى تؤثر فى خيال المريض وتطلقه من عقاله ، وليس ببعيد أنهم كانوا يلجأون أيضاً إلى التنويم المغنطيسى وإلى بعض المخدرات[٤٢] . وكان الطب الدنيوى ينافس الطب الدينى ويحاول أن يتغلب عليه . وكان أنصار هذا وذاك يعزون منشأ علمهم إلى أسكلبيوس ، ولكن الأسكلبيسيين غير الدينيين كانوا يرفضون الاستعانة بالدين فى علمهم ، ولا يدعون أنهم يعالجون المرضى بالمعجزات ، وقد أفلحوا شيئاً فشيئاً فى إقامة الطب على قواعد العقل .

وتطور الطب الدنيوى فى بلاد اليونان أثناء القرن الخامس فى أربع مدارس كبرى : فى كوس ونيدس من مدن آسية الصغرى ؛ وفى كرتونا بإيطاليا ، وفى صقلية . وفى أكرجاس اقتسم أنبادوقليس — وهو نصف فيلسوف ونصف رجل معجزات — مفاخر الطب مع أكرون Acron الطبيب المفكر المنطقى[٤٣] . وقد وصلت إلينا أنباء مدونة ترجع إلى عام ٥٢٠ عن طبيب يدعى دمسديز Democedes ولد فى كرتونا ، ومارس مهنة الطب فى إيجينا ، وساموس ، وسوسة ، وعالج دارا والملكة أتسا Atossa ، ثم عاد ليقضى آخر أيامه فى مسقط رأسه[٤٤] . وفى كرتونا أيضاً أخرجت المدرسة الفيثاغورية أوسع أطباء اليونان شهرة قبل أبقراط ،

ونعني به ألقميون Alcmaeon الذى يلقبونه الأب الحق للطب اليونانى(٤٥) . ولكنه لم يكن فى واقع الأمر إلا اسماً متأخراً فى ثبت طويل من أسماء الأطباء غير الديفيين ضاعت أسماؤهم فيما وراء أفق التاريخ . وقد نشر هذا الطبيب فى أوائل القرن الخامس كتاباً فى الطبيعة Peri physeos — وكان ذلك هو العنوان المألوف فى بلاد اليونان لأى بحث عام فى العلوم الطبيعية . ومبلغ علمنا أنه كان أول من حدد من اليونان موضع العصب البصرى وقناة أستاخيو(*) ، وشرح الحيوانات ، وفسر فسلجة النوم ، وقرر أن المخ هو العضو الرئيسى فى عملية التفكير ، وعرف الصحة تعريفاً فيثاغوريا فقال إنها التوافق بين أجزاء الجسم المختلفة(٤٦) . وكان أكبر رجال الطب فى نيدس هو يوريفرون Euryphron الذى كتب فى الطب خلاصة موجزة تعرف باسم الجمل النيدية Cnidian Sentences ، وقال عن التهاب البلورا إنه مرض من أمراض الرئتين ، وإن الإمساك منشأ الكثير من الأمراض ؛ وذاع صيته لنجاحه فى عمليات التوليد(٤٧) . وقامت حرب مشئومة بين مدرستى كوس ونيدس لأن النيديين لم يكونوا يحبون ولع أبقراط فى أن يقوم « التشخيص » على معرفة طبائع الأمراض ، ومن ثم أصروا على وجوب العناية بتصنيف الأمراض كلها تصنيفاً دقيقاً ، وعلاج كل مرض منها بطريقته الخاصة . وتسرب فى آخر الأمر ، بنوع من العدالة الفلسفية ، كثير من الكتابات النيدية إلى المجموعات الطبية الأبقراطية .

ويبدو أبقراط ، كما تراه فى سيرته الموجزة التى كتبها سويداس Suidas ، أعظم أطباء زمانه بلا منازع . وقد ولد فى جزيرة كوس فى السنة التى ولد فيها دمقريطس ، وأصبح الرجلان صديقين حميمين بالرغم من بعد موطنيهما ، ولربما كان « للفيلسوف الضاحك » نصيب فى توجيه الطب وجهة دنيوية . وكان

(*) الموصلة من الطبلة إلى البلعوم . (المترجم)

أبقراط ابن طبيب ونشأ ومارس صناعته بين آلاف المرضى والسياح الذين وفدوا على كوس « لأخذ الماء من عيونها الساخنة » . ووضع له معلمه هيرودكس السلمبرى Herodicus of Selymbria الأساس الذى بنى عليه فنه بتعويده الاعتماد على نظام التغذية وعلى الرياضة الجسمية أكثر من اعتماده على الأدوية . وذاعت شهرة أبقراط حتى كان من بين مرضاه حكام مثل پردكاس Perdiccas ملك مقدونية ؛ وأردشير الأول ملك الفرس ؛ وفى عام ٤٣٠ ق . م . استدعته أثينة ليحاول وقف انتشار الطاعون فيها وأخجله صديقه دمقريطس بأن عاش من العمر مائة عام كاملة ، على حين أن الطبيب العظيم مات فى الثالثة والثمانين من عمره .

وليس فى كل ما كتب فى الطب وفى كل ما يمكن أن يكتب فيه ما هو أكثر اختلافاً وأقل تجانسا من مجموعة الرسائل التى كانت تعزى فى القديم إلى أبقراط . ففيها كتب مدرسية للأطباء ، ونصائح لغير رجال الطب ، ومحاضرات للطلبة ، وتقريرات ، وبحوث ، وملاحظات ، وتسجيلات سريرية (كلينيكية)(*) لحالات طريفة ، ومقالات كتبها سوفسطائيون ممن يهتمون بالناحيتين العلمية والفلسفية فى الطب . وكانت الاثنان والأربعون سجلا سريرياً هى السجلات الوحيدة من نوعها فى السبعة عشر قرناً التى أعقبت ذلك العهد ، وكانت أعلى الأمثلة فى الأمانة باعترافها أن المرض أو العلاج قد أعقبه الموت فى ستين فى المائة من الحالات[٤٨] . وأربعة لا أكثر من هذه المؤلفات هى التى انعقد إجماع المؤرخين على أنها من كتابات أبقراط : وهى « الحكم » و « الأدلة » و « تنظيم التغذية والعوائد فى الأمراض الحادة » ، ورسالته « فى جروح الرأس » أما ما عدا هذه الأربعة من المؤلفات المعزوة إلى أبقراط فن وضع مؤلفين مختلفين عاشوا فى

(*) مأخوذة على سرير المريض . (المترجم)

أوقات مختلفة بين القرنين الخامس والثانى قبل الميلاد[٤٩]. وفى هذه المجموعة قدر غير قليل من السخف والهذيان ، ولكن أكبر الظن أنه ليس أكثر مما سيجده علماء المستقبل فى رسائل هـــذه الأيام وتواريخها . وكثير من المعلومات التى فى هذه الكتب والرسائل شذرات متفرقة ، موضوعة فى صورة حكم وقواعد مفككة تقترب بين الفينة والفينة من الغموض الذى يلازم كتابات الفيلسوف هرقليطس . ومن بين « حكم أبقراط » تلك العبارة الذائعة الصيت : « الفن طويل ، ولكن الوقت يمر مر السحاب »[٥٠].

وأكبر فضل لأبقراط وخلفائه أنهم حرروا الطب من الدين والفلسفة . نعم إنهم يشيرون فى بعض الأحيان بأن يستعين المريض بالصلاة والدعاء ، كما نرى ذلك فى كتاب « التنظيم » ولكن النغمة السارية فى صفحات المجموعة كلها هى وجوب الاعتماد الكلى على العلاج الطبي . وتهاجم رسالة « المرض المقدس » صراحة النظرية القائلة بأن الأمراض ترسلها الآلهة ، ويقول مؤلفها إن للأمراض جميعها عللا طبيعية بما فى ذلك الصراع نفسه الذى يفسره الناس بأنه تقمص الشيطان جسم المريض : « وما زال الناس يعتقدون بأنه من عند الآلهة ، لعجزهم عن فهمه . ويتورى المشعوذون والدجالون وراء الخرافات ويلجأون إليها لأنهم لا يجدون علاجاً ناجعاً لهذا الداء ، ومن أجل هذا يطلقون عليه اسم المرض المقدس حتى لا ينكشف للناس جهلهم الفاضح[٥١] » . وكانت روح العصر البركليزى تتمثل أوضح تمثيل فى عقلية أبقراط . فقد كان واسع الخيال ولكنه واقعى ، يكره الخفاء ، ولا يطيق الأساطير ، يعترف بقيمة الدين ولكنه يكافح لفهم العالم على أساس العقل والمنطق . وإنا لنحس بأثر السوفسطائيين فى الحركة التى تهدف إلى تحرير الطب ، والحق أن الفلســفة قد أثرت فى طرق العلاج اليونانية تأثيراً بلغ من قوته أن قام النزاع بين العلم والفلسفة كما قام بينه وبين العقبات التى يضعها الدين فى سبيله . ويقول أبقراط ، ويصر

على قوله ، إن النظريات الفلسفية لا شأن لها بالطب ولا موضع لها فيه ، وإن العلاج يجب أن يقوم على شدة العناية بالملاحظة[٣٥] وعلى تسجيل كل حالة من الحالات وكل حقيقة من الحقائق تسجيلا دقيقاً ، ولسنا ننكر أنه لم يدرك كل الإدراك قيمة التجارب العلمية ، ولكنه كان يصر على أن يهتدى فى جميع أعماله بالخبرة والتجربة العملية .

وفى وسعنا أن نتبين ما تلوث به الطب الأبقراطى فى منشئه من عدوى الفلسفة بالنظر إلى عقيدة « الأخلاط » المشهورة . يقول أبقراط : إن البدن يتكون من الدم ، والبلغم ، والصفراء ، والصفراء السوداء ، وإن الإنسان يستمتع بالصحة الكاملة إذا امتزجت فيه هذه الأركان (العناصر) بنسبها الصحيحة ، وإن الألم ينشأ من نقص بعض هـــذه « الأخلاط » أو زيادتها أو انفصالها عن الأخلاط الأخرى[٥٣] . وقد بقيت هـــذه النظرية وعاشت بعد زوال جميع الفروض الطبية القديمة ، ولم يتخل عنها الناس إلا فى القرن الماضى ، ولعلها لا تزال باقية فى صورة أخرى هى عقيدة الأتوار (الهرمونات) أو إفراز الغدد ، التى يقول بها الأطباء فى هذه الأيام . إذ كان اليونان يعتقدون أن سير هـــذه الأخلاط يتأثر بالجو والطعام ، وإذ كانت أكثر الأمراض انتشاراً فى بلاد اليونان هى أمراض البرد ، وذات الرئة ، والملاريا ، فقد كتب أبقراط (؟) رسالة موجزة فى « الأهوية ، والمياه ، والأماكن » وعلاقتها بالصحة ، وفيها يقول « فى وسع الإنسان أن يعرض نفسه للبرد وهو واثق من أنه لن يصيبه منه سوء ، إلا إذا فعل ذلك بعد الأكل أو الرياضة . . وليس من الخير للجسم ألا يتعرض لبرد الشتاء[٥٤] » . وليس لنا أن نستخف بأقوال أبقراط وأتباعه هذه لأن من واجب الطبيب العلمى ، أياً كان مستقره ، أن يدرس الرياح والفصول ، وموارد ماء الشرب ، وطبيعة الأرض ، وأثر هذه العوامل كلها فى السكان .

والتشخيص أضعف النقط فى طب أبقراط . فقد يبدو أنه لم يكن يعنى

بقياس النبض ؛ وكانت الحمى تعرف باللمس البسيط كما كان الاستماع يحدث بالأذن مباشرة . وكان يؤمن بالعدوى فى أحوال الجرب ، والرمد ، والسل[٥٥] وفى كتابه عن (الجسم Corpus) صور إكلينيكية كثيرة للصرع ، والتهاب الغدة التكفية الوبائى ، وحمى النفاس ، والحمى اليومية ، وحمى الثلث ، وحمى الربع . ولم يرد فى المجموعة ذكر للجدرى أو الحصباء ، أو الخناق (الدفتريا) أو الحمى القرمزية أو الزهرى ، كما لم يرد فيه ذكر صريح للتيفود[٥٦] . وتنزع رسائل : « التنظيم » نحو الطب الوقائى بدعوتها إلى دراسة أحوال الداء فى أول ظهوره — وهى محاولة لمعرفة أولى علامات المرض والقضاء عليه قبل أن يستفحل[٥٧] . وكان أبقراط شديد الولع بمعرفة العواقب فى الطب ويرى أن الطبيب الماهر يعرف بتجاربه نتائج أحوال الجسم المختلفة ، وفى مقدوره أن يتنبأ بسير المرض من مراحله الأولى . ويقول إن معظم الأمراض تصل إلى مرحلة يقضى فيها إما عليها وإما على المريض ذاته ، وإن تقديره الحسابى — الذى يكاد يبلغ فى دقته الحساب الفيثاغورى — الذى يصل فيه المرض إلى أشد حالاته لمن أخص خصائص النظرية الأبقراطية . وهو يقول فى هذا المعنى إنه إذا استطاعت حرارة الجسم فى هذه الأزمات أن تتغلب على سبب العلة وتطرده من الجسم شفى المريض . ويقول إن الطبيعة — أى قوى الجسم وبنيته — هى أهم علاج لكل مرض أيا كان نوعه وإن كل ما يستطيع الطبيب أن يفعله هو أن يقلل أو يزيل العقبات القائمة فى طريق هذين الدفاع والشفاء الطبيعيين . ولهذا فإن الطريقة الأبقراطية لا تستخدم العقاقير فى العلاج إلا قليلا ، وأكثر ما تعتمد عليه هو الهواء النقى ، والمقيئات ، والأقماع ، والحقن الشرجية ، والحجامة ، والإدماء ، والكمادات ، والمراهم ، والتدليك ، والمياه المعدنية . ومن أجل ذلك كان دستور الأدوية اليونانى جد صغير يتكون معظمه من المسهلات . وكانت أمراض الجـــلد تعالج بالحمامات الكبريتية ، وبالتدليك يدهن كبد

الدلفين(٥٨) ويسدى أبقراط للناس هذه النصيحة : « عش عيشة صحية تنج من الأمراض إلا إذا انتشر فى البلد وباء أو أصابتك حادثة . وإذا مرضت ثم اتبعت نظاماً صالحاً فى الأكل والحياة أتاح لك ذلك أحسن الفرص للشفاء(٥٩) » . وكثيراً ما كان يوحى بالصوم إذا سمحت بذلك قوة المريض لأنا « كلما أكثرنا من تغذية الأجسام المريضة زدنا بذلك تعريضها للأذى(٦٠) » . ويمكن القول بوجه عام إن « الإنسان يجب الا يتناول إلا وجبة واحدة من الطعام فى اليوم إذا كانت معدته شديدة الجفاف(٦١) » .

وكان تقدم علمى التشريح ووظائف الأعضاء فى بلاد اليونان بطيئاً ، وكان أكبر العوامل فيما أحرزاه من تقدم هو الفحص عن أحشاء الحيوانات فى عمليات العرافة . وفى المجموعة الأبقراطية كراسة صغيرة « فى القلب » تصف البطينين ، والأوعية الكبرى ، وصماماتها . وكتب سينيسيس Syennesis القبرصى وديوجين الكريتى يصفان الجهاز الدموى ، وعرف ديوجين أهمية النبض(٦٢) . كذلك عرف أنبادوقليس أن القلب مركز الجهاز الدموى ، ووصفه بأنه العضو الذى « يحمل النيوما Pneuma أو الهواء الحيوى (الأكسجين ؟) من الأوعية الدموية إلى جميع أجزاء الجسم(٦٣) » . وفى كتاب الجسم Corpus يحذو أبقراط حذو القميون فيجعل المخ مركز الشعور والتفكير ويقول : « وبه نفكر ، ونبصر ، ونسمع ، ونميز القبيح من الجميل والغث من الثمين »(٦٤) .

أما الجراحة فكانت لا تزال فى معظم الأحوال عملا لا يتخصص فيه الطلاب ، ويشتغل به كبار الأطباء ، وإن كان من الموظفين فى الجيوش جراحون(٦٥) . وتصف مؤلفات أبقراط عمليات التربنة ، والطريقة التى تصفها لعلاج انخلاع الكتف أو الفك « حديثة » فى كل شىء عدا استخدام المخدرات(٦٦) .

وقد وجدت فى هيكل إسكلبيوس بأثينة لوحة نذور نقشت عليها علبة تحتوى مباضع ذات أشكال مختلفة(٦٧) . ويحتفظ متحف أثينة الصغير بعدد من

الملاقط ، والمسابر ، والمباضع والقناطر ، والنظارات الطبية القديمة لا تختلف فى جوهرها عن أمثالها المستحدثة فى هذه الأيام . ويبدو أن بعض ما هنا لك من تماثيل هى نماذج أعدت لشرح الوسائل التى تتبع لرد الخلع فى مفاصل العجز[٦٨] . وفى رسالة أبقراط « فى الطب » تعليمات مفصلة لتحضير حجرة العمليات الجراحية وتنظيم ما فيها من ضوء طبيعى وصناعى ، وتنظيف اليدين ، والعناية بآلات الجراحة وطريقة استخدامها ، وموضع المريض ، وتضميد الجروح وما إلى ذلك[٦٩] .

ويتضح من هذه الفقرات وغيرها أن الطب اليونانى فى عهد أبقراط تقدم تقدماً عظيماً من الناحيتين الفنية والاجتماعية . لقد كان الأطباء اليونان قبل أيامه ينتقلون من مدينة إلى أخرى كلما دعتهم الحاجة إلى هذا الانتقال ، شأنهم فى هذا شأن السوفسطائين فى أيامهم والوعاظ فى أيامنا نحن . أما فى عهده فقد استقروا فى مدنهم وافتتحوا مكاتب أو « أمكنة للعلاج iatreia » يعالجون فيها المرضى تارة ويعالجونهم فى منازلهم[٧٠] تارة أخرى . وكثرت عندهم الطبيبات ، وكن يستخدمن عادة فى علاج أمراض النساء ؛ وقد كتب بعضهن رسائل فى العناية بالجلد والشعر تعد حجة فى موضوعاتها[٧١] . ولم تكن الدولة تحتم على من يريد ممارسة الطب أن يؤدى امتحاناً عاماً ؛ ولكنها كانت تطلب إليه أن يقدم لها أدلة مقنعة على أنه قد تمرن أو تتلمذ على طبيب معترف به[٧٢] . ووقفت حكومات المدن بين الطب المأتم والطب الخاص باستخدام أطباء للعناية بالصحة العامة ، ولعلاج الفقراء . وكان أكبر أطباء الدولة هؤلاء ، أمثال دموسيدز Democedes يتقاضون وزنتين (١٢٫٠٠٠ ريال أمريكى) فى العام[٧٣] . وكان عندهم بطبيعة الحال دجالون كثيرون ، كما كان عندهم عدد لا يحصى من الهواة الذين يدعون العلم بكل شىء فى الطب ، وهؤلاء موجودون فى كل زمان ومكان . ولقد قاست المهنة فى تلك الأيام ، كما تقاسى فى كل جيل من الأجيال ، الأمرين من أعمال أقلية فيها خربة الذمة ، عاجزة عن القيام

يواجها (٧٤) ، وثار اليونان لأنفسهم ، كما ثار غيرهم من الأمم ، من عدم عدم وثوقهم بأطبائهم بما كالوه لهم من السخرية والفكاهة اللاذعة ، التى لا تقل عن سخرياتهم من الزواج .

وقد رفع أبقراط من شأن هذه المهنة بتوكيده شأن الأخلاق فى الطب ، ذلك أنه لم يكن طبيباً فحسب بل كان طبيباً ومدرساً معاً ، وربما كان القسم الشهير الذى يعزى إليه قد وضع لضمان ولاء طالب الطب لأستاذه (*) .

قسم أبقراط

أقسم بأپلو الطبيب ، وبأسكلپيوس ، وبهچيائيا Hygiaea وپاناسيا Panacea وبجميع الآلهة والإلهات ، وأشهدها جميعاً على ، أن أنفذ هذا القسم وأوفى بهذا العهد بقدر ما تتسع له قدرتى وحكمتى ، وأن أضع معلمى فى هذا الفن فى منزلة مساوية لأبوى ، وأن أشركه فى مالى الذى أعيش منه ؛ فإذا احتاج إلى المال اقتسمت مالى معه ، وأقسم أن أعد أسرته إخوة لى ، وأن أعلمهم هذا الفن إذا رغبوا فى تعلمه ، من غير أن أتقاضى منهم أجراً أو ألزمهم باتفاق ، وأن ألقن الوصايا والتعاليم الشفوية وسائر التعاليم الأخرى لأبنائى ، ولأبناء أستاذى ، وللتلاميذ المتعاقدين الذين أقسموا يمين الطبيب ، ولا ألقنها لأحد سواهم . وسوف أستخدم العلاج لأساعد المرضى حسب مقدرتى وحكمتى ، ولكن لا أستخدمه للأذى أو لفعل الشر . ولن أسقى أحداً السم إذا طلب إلىّ أن أفعل هذا ، أو أشير بسلوك هذه السبيل ، كذلك لن أعطى امرأة صوفة لإسقاط جنينها ؛ ولكنى سأحتفظ بحياتى وفنى كليهما طاهرين مقدسين ؛ ولن أستعمل المبضع ولو كنت محقاً فى استعماله ، لمن يشكو حصاة ، بل أتخلى عن مكانى لمن يحذقون

(*) يقولون القسم من وضع المدرسة الأبقراطية لا من وضع أبقراط نفسه ؛ ولكن إروتيان Erotian الذى كتب فى القرن الأول بعد الميلاد يعزوه إلى أبقراط (٥٧).

هذا الفن . وإذا دخلت بيت إنسان أياً كان ، فسأدخله لمساعدة المرضى ، وسأمتنع عن كل إساءة مقصودة أو أذى معتمد ، وسأمتنع بوجه خاص عن تشويه جسم أى رجل أو أية امرأة ، سواء كانا من الأحرار أو من الأرقاء . ومهما رأيت أو سمعت فى أثناء قيامى بفروض مهنتى ، وفى خارج مهنتى فى خلال حديثى مع الناس ، إذا كان مما لا تجب إذاعته ، فلن أفشيه ، وسأعد أمثال هذه الأشياء أسراراً مقدسة . فإذا ما ألزمت نفسى بإطاعة هذا القسم ولم أحنث فيه ، فإنى أرجو أن أشتهر مدى الدهر بين الناس جميعاً بحياتى وبفنى ؛ أما إذا نقضت العهد وحنثت بالقسم فليحل بى عكس هذا »[٧٦] .

ويضيف أبقراط إلى هذا أن من واجب الطبيب أن يحتفظ بحسن مظهره الخارجى وأن ينظف جسمه ويتأنق فى ملبسه . ويجب عليه أن يكون هادئاً على الدوام ، وأن يكون سلوكه بحيث يبعث الثقة والاطمئنان فى نفس المريض[٧٧] ويجب عليه :

« أن يعنى بمراقبة نفسه ، و . . . . وألا يقول إلا ما هو ضرورى . . . ؛ وإذا دخلت حجرة مريض فتذكر طريقة جلوسك ، وكن متحفظاً فى كلامك ، معتنياً بهندامك ، صريحاً حاسما فى أقوالك ، موجزاً فى حديثك ، هادئاً . . . ؛ ولا تنس ما يجب أن تكون عليه أخلاقك وأنت إلى جانب فراش المريض . . . . واضبط أعصابك ، وازجر من يقلقك ، وكن على استعداد لفعل ما يجب أن يُفعل . . . . وأوصيك ألا تقسو على أهل المريض ، وأن تراعى بعناية حال مريضك المالية ، وعليك أيضاً أن تقدم خدماتك من غير أجر ؛ وإذا لاحت لك فرصة لأن تؤدى خدمة لإنسان غريب ضاقت به الحال ، فقدم له معونتك كاملة ؛ ذلك أنه حيث يوجد حب الناس يوجد أيضاً حب الفن »[٧٨] .

وإذا أضاف الطبيب إلى هذا دراسة الفلسفة والعمل بها ، كان هو المثل الأعلى لأبناء مهنته لأن « الطبيب الذى يحب الحكمة لا يقل عن الآلهة فى شىء »[٧٩] .

وبعد فإن الطب اليونانى لا يرقى رقيا جوهريا عما كانت تعرفه مصر عن الطب وعن الجراحة قبل عصر آباء الطب المختلفين بألف عام ، وإذا ما نظرنا إلى التخصص بدا لنا أن ما وصل إليه اليونان فيه أقل مما وصل إليه المصريون . على أننا يجب من الناحية الأخرى أن نجل اليونان ولا نبخسهم حقهم ، لأن الطب من ناحيته النظرية والعملية قد بقى حتى القرن التاسع عشر عند الحد الذى أوصله إليه اليونان . وجملة القول أن العلوم اليونانية قد بلغت الدرجة التى ينتظر الإنسان أن يبلغها علم من العلوم من غير الاستعانة بآلات دقيقة للرصد والملاحظة ، ومن غير التجارب العلمية . ولولا العقبات التى أقامها فى طريقه الدين والفلسفة لكان له شأن أعظم من شأنه هذا ، فقد حدث فى الوقت الذى كان فيه كثيرون من الشبان فى أثينة يتحمسون لدراسة الفلك والتشريح المقارن ، أن حالت التشريعات الرجعية الجاهلة دون تقدم العلوم ، وكانت سبباً فى اضطهاد أنكساغوراس ، وأسپازيا ، وسقراط . وكذلك كان « تحول » سقراط والسوفسطائيين عن دراسة العالم الخارجى إلى دراسة العالم الداخلى ، ومن الطبيعة إلى علم الأخلاق ، كان هذا التحول سبباً فى تحويل التفكير اليونانى من مشاكل الطبيعة والنشوء والتطور إلى مشاكل ما وراء الطبيعة والأخلاق . وظل العلم واقفاً لا يتحرك مائة عام كاملة خضع فيها اليونان لسحر الفلسفة ومفاتنها .

الباب السادس عشر

النزاع بين الفلسفة والدين

الفصل الأول

المثاليون

كان عصر بركليز شبيهاً بعصرنا هذا فى تنوع أفكاره واضطرابها ، وفى تحديه لجميع المعايير والعقائد التقليدية القديمة ؛ ولكن ما من عصر من العصور يضارع عصر بركليز فى كثرة آرائه الفلسفية وعظمتها أو فى غزارتها وفى القوة التى كانت تناقش بها . فقد كانت كل المسائل التى يضطرب بها العالم اليوم تدور على ألسنة الناس فى أثينة القديمة ، يناقشها الناس بحرارة وحماسة روعت جميع اليونان ما عدا شبابهم . وقد حرمت كثير من المدن — وخاصة اسپارطة — أن يبحث الجمهور المسائل الفلسفية بسبب ما كانت تثيره من « حقد ، ونزاع ، وجدل عقيم » ، على حد قول أثنيوس . ولكن « بهجة » الفلسفة « العزيزة » كانت تستحوذ على خيال الطبقات المتعلمة فى أثينة ، فكان أغنياء المدينة يفتحون أبواب بيوتهم وأبهائهم للباحثين كما كان يحدث فى عهد الاستنارة فى فرنسا ، وكانت الولائم تولم للفلاسفة ، والبحوث الطريفة يصعق لها كما يصفق للضربات القوية فى الألعاب الأولمبية .

ولما أن أضيفت حرب السيوف إلى حرب الألفاظ فى عام ٤٣٢ ، استحال هياج العقول الأثينية إلى حمى احترق فيها كل ما كانت تتصف به تلك العقول من اعتدال وحكمة . وخبت نار هذه الحمى بعض الوقت بعد استشهاد سقراط

أو بالأحرى توزعت من أثينة على غيرها من مراكز الحياة اليونانية . وحتى أفلاطون نفسه الذى عرف ما بلغته هذه الحمى وما أدت إليه من أزمات استنفدت قواه بعد أن دامت هذه الحال الجديدة ستين عاماً كاملة ، وكان يحسد مصر على إيمانها الدينى واستقرار أفكارها وهدوئها . ولم يشهد عصر من العصور المقبلة إلى أن حل عصر النهضة ما شهده هذا العصر من حماسة فى التفكير وقوة فى النقاش .

وكان أفلاطون يمثل أعلى منزلة وصلت إليها الحركة التى بدأت ببارمنيدس ، وكان لها بمثابة هجل Hegel لكانت Kant ؛ ومع أنه لم يكن يتورع عن التنديد بآراء الفلاسفة ، فإنه لم ينقطع يوما ما عن تعظيم أبيه الميتافيزيقى . وفى بلدة إيليا الصغيرة القائمة على ساحل إيطاليا الغربى نشأت فى عام ٤٥٠ ق . م . الفلسفة المثالية التى أثارت فى كل قرن من القرون المقبلة حرباً شعواء على المادية(*) ؛ وقذفت فى بوتقة التفكير الأوربى مشكلة المعرفة الغامضة العجيبة ، ومشكلة الفرق بين الظاهر من جهة وما لا يعرف ولا يمكن أن يعرف من جهة أخرى ؛ وبين الحقيقى غير المنظور والمنظور غير الحقيقى ، وظلت هذه الأفكار تغلى أو تغطمط طوال تاريخ اليونان القديم وفى أثناء العصور الوسطى حتى انفجرت مرة أخرى فى عصر « كانت » وعلى يديه وأضحت ثورة فكرية عارمة .

وكما أن هيوم Hume « أيقظ » كانت كذلك كان أكسانوفان Xenophanes هو الذى دفع بارمنيدس إلى الاشتغال بالفلسفة ؛ ولعل عقل بارمنيدس كان واحداً من عقول كثيرة أثارها قول أكسانوفان إن الآلهة ليست إلا أساطير ، وإنه لا توجد إلا حقيقة واحدة هى العالم والله جميعاً . كذلك درس بارمنيدس مع الفيثاغوريين وسرى فيه شغفهم بعلم الفلك ، ولكنه لم يضل فى بيداء النجوم ،

(*) ولقد واجه المفرد هذه المشكلة قبل ذلك بزمن طويل ، وبقوا بارمنيديين إلى آخر عهودهم ، ولعل نزعة اليوبانيشاد Upanishads المضادة للمادية قد تسربت إلى بارمنيدس عن طريق أيونيا أو فيثاغورس .

بل كان كمعظم فلاسفة اليونان يهتم بالشئون الحية ومنها شئون الدولة. وقد كلفته إيليا أن يضع لها قوانينها، فلما وضعها أعجبت به إعجابا جعلها تطلب إلى جميع قضاتها أن يحكموا فى جميع القضايا بمقتضاها(٣). ولعله أراد أن يرفه عن نفسه فى حياته المفعمة بالعمل فأنشأ قصيدة فلسفية فى الطبيعة بقى منها إلى الآن نحو مائة وستين بيتاً تكفى لأن تجعلنا نأسف لأن پارمنيدس لم يكتب نثرا. وفى القصيدة يعلن الشاعر، وهو يغمز بعينه، أن إلهة قد أوحت إليه أن الأشياء جميعها وحدة، وأن الحركة، والتغير، والنمو، أشياء غير حقيقية، فهى خيالات لمشاعر سطحية، متعارضة تافهة؛ وأن من وراء هذه المظاهر وحدة، متجانسة لا تتبدل، ولا تنقسم، ولا تتحلل ولا تتحرك، وهى وحدة الكائنات، والحقيقة التى لا حقيقة سواها، والإله الذى لا إله غيره. لقد كان هرقليطس يقول إن كل شىء يتغير Panta rei أما پارمنيدس فيقول إن الأشياء بأجمعها كل واحد أبدا Hen ta panta. وهو فى بعض الأحيان يقول كما يقول أكسانوفان إن هذا الواحد هو الكون، ويصفه بأنه شبه كرى ومحدود؛ وكان فى بعض الأحيان حين ينظر إليه نظرة فكرية مجردة يرى أن هذا الكائن هو الفكر ويقول: «إن الفكر والكون شىء واحد(٤)». وكأنه يريد بهذا أن يفهمنا أن الأشياء لا وجود لها فى إدراكنا؛ وأن البداية والنهاية، والمولد والموت، والتكوين والتدمير، لا تصيب إلا الأشكال والصور، أما الواحد الحق فلا بداية له ولا نهاية، وليس ثمة صيرورة، وليس ثمة إلا وجود، وأن الحركة أيضاً غير حقيقية لأنها تفترض انتقال شىء من المكان الذى هو فيه إلى مكان لا يوجد فيه شىء أى إلى الفراغ؛ ولكن الفراغ الذى هو غير كائن لا يمكن أن يكون، إذ ليس ثمة فراغ قط، لأن الواحد يملأ كل ركن وكل شق فى العالم، وهو ساكن سكوناً سرمدياً(*).

(*) إن هذه الأقوال مجهدة للخيال، ولكننا نكاد نفعل ما فعله پارمنيدس حين نقول إن منضدة ما فى حالة سكون مع أنها (كما يقولون) تتكون من «كهارب» (الكترونات) —

ولم يكن ينتظر بطبيعة الحال أن يستمع الناس إلى هذه الأقوال كلها وهم صابرون ، ويبدو أن السكون البارمنيدى كان الهدف الذى صوبت إليه مئات من الهجمات الميتافيزيقية . وترجع أهمية زينون الإيلياتى الحصيف تلميذ بارمنيدس إلى محاولته إثبات أن فكرتى التعدد والحركة كانتا من الوجهة النظرية على الأقل مستحيلتين كاستحالة واحد بارمنيدس الثابت القديم الحركة — وأراد زينون أن يدرب نفسه على الضلال والمشاكسة ، وأن يسلى شبابه فى الوقت نفسه ، فألف كتاباً فى المتناقضات وصلت إلينا تسع منها ، حسبنا أن نورد منها ثلاثاً : وأولى هذه المتناقضات كما يقول زينون أن الجسم لكى يتحرك إلى نقطة أ لا بد أن يصل إلى ب وهى منتصف طريقه إلى أ ؛ ولكى يصل إلى ب يجب أن يصل أولا إلى ج منتصف طريقه إلى ب ؛ وهكذا إلى ما لا نهاية . وإذ كانت هذه السلسلة التى لا نهاية لها من الحركات تتطلب قدراً لا نهاية له من الزمن ، فإن تحرك أى جسم إلى أية نقطة فى زمن محدد أمر مستحيل . والثانية وهى صورة أخرى من الأولى أن أخيل السريع العدو لا يستطيع أن يدرك السلحفاة البطيئة . وذلك لأنه كلما وصل إلى النقطة التى كانت فيها السلحفاة ، تكون السلحفاة فى هذه اللحظة نفسها قد انتقلت من هذه النقطة . والثالثة أن السهم الطائر فى الهواء هو فى الحقيقة ساكن غير متحرك ، لأن فى كل لحظة من طيرانه لا يكونُ إلا فى نقطة واحدة فى الفضاء ، أى أنه يكون ساكناً ، وحركته منطقياً وميتافيزيقياً غير حقيقية مهما بدا للحواس أنها واقعة فعلا(*)(٥) .

—

— دائمة الحركة . وقد كان بارمنيدس يرى العالم كما نرى نحن المنضدة ؛ ولو قدر للكهرب أن يرى العالم لرآه كما نراها نحن .

(*) وقد انتقل البحث فى هذه المناقضات من أفلاطون(٦) إلى برتراند رسل(٧) ، وقد يستمر ما دام الناس يعتقدون خطأ أن الأسماء هى المسميات . والذى تجمل هذه الألغاز عديمة القيمة هى افتراض واضعها أن « غير محدود » شىء وليس كلمة تدل على عجز العقل عن أن يدرك النهاية المطلقة ، وأن الزمان والمكان والحركة كلها أشياء غير متصلة أى أنها تتكون من نقط أو أجزاء منفصلة بعضها عن بعض .

وجاء زينون إلى أثينة حوالى عام ٤٥٠ ق . م . ولعله جاء إليها مع پارمنيدس وأثار ثائرة المدينة السريعة التأثر بقدرته على تحويل أى نوع من أنواع النظريات الفلسفية إلى سخافات غير معقولة . وقد وصف تيمون الفليوس Timon of Phlius « لسان زينون ذى الحدين الذى يستطيع أن يبرهن على أن كل قوله يقول الإنسان غير حقيقى »[٨] .

ومن هذه النعرة قبل السقراطية (ونحن نسميها نعرة لأن جهلنا بالماضى يضطرنا إلى تسمية هذه المعانى بتلك الأسماء) كانت بداية علم المنطق كما كان پارمنيدس بالنسبة لأوروبا هو واضع علم ما وراء الطبيعة . ولقد حاكى سقراط طريقة زينون الجدلية[٩] محاكاة شديدة وإن كان قد ندد بها وشنع عليها ، وبلغ من تحمسه لهذه الطريقة أن اضطر قومه إلى قتله لكى يريحوا عقولهم من جدله . ولقد كان أثر زينون فى السوفسطائيين المتشككين حاسماً قوياً ، وكان لتشككه آخر الأمر الغلبـــة فى پيرون Purrho وقرنيادس Carneades . وقد أصبح فى شيخوخته رجلا « ذا حكمة عظيمة وعلم غزير[١٠] » فأخذ يشكو من أن الفلاسفة قد حملوا مزاحه العقلى فى أيام شبابه محمل الجد . وكان انقلابه الأخير سبب القضاء عليه . ذلك أنه اشترك فى حركة تهدف إلى خلع الطاغية نيارقيس Nearches فى إيليا ولكنه أخفق فى محاولته ، وقبض عليه ، وعذب ، وقتل[١١] ، وصبر الفيلسوف على عذابه صبر الأبطال ، وكأنما أراد بذلك أن ينضم اسمه بعد قليل من الزمن إلى أسماء أصحاب الفلسفة الرواقية .

الفصل الثانى

الماديون

لقد كان إنكار پارمنيدس للحركة والتغير بمثابة ثورة على ميتافيزيقية هرقليطس المائعة المزعزعة ، وكذلك كانت عقيدة وحدة الكون ثورة عنيفة على عقائد الفيثاغوريين المتأخرين . ذلك أن هؤلاء الفلاسفة قد حولوا نظرية الأعداد التى قال بها كبيرهم إلى المبدأ القائل بأن الأشياء جميعها تتكون من أعداد أى من وحدات غير قابلة للانقسام(١٢) . ولما أن أضاف فيلولوس الطيبى إلى هذا المبدأ أن « الأشياء جميعها تحدث بالضرورة والتوافق »(١٣) كان كل شىء قد أعد لظهور المذهب الذرى أو مذهب الجوهر الفرد فى الفلسفة اليونانية .

ففى عام ٤٣٥ جاء لوقيبوس الملطى إلى إيليا وتلقى العلم على زينون ؛ ولعله قد سمع هناك بالذرية العددية التى يقول بها الفيثاغوريون ، ذلك أن زينون كان قد وجه بعض متناقضاته الدقيقة إلى عقيدة التعدد(١٤) . واستقر لوقيبوس آخر الأمر فى أبدرا وهى مستعمرة أيونية مزدهرة فى تراقية . وقد ضاعت تعاليمه المباشرة فلم يبق منها إلا هنامة صغيرة هى قوله : « لا شىء يحدث من غير علة ، بل إن الأشياء كلها تحدث لعلة ، وبالضرورة »(١٥) .

ولعل لوقيبوس قد أوجد فكرة الفراغ ليرد بها على أقوال زينون و پرمنيدس ، وكان يأمل بهذه الطريقة أن يجعل الحركة مستطاعة من الوجهة النظرية كما هى واقعية من الناحية الحسية . ويقول : إن العالم يحتوى على جواهر فردية وعلى فراغ ولا شىء غيرهما ، وإن هذه الجواهر التى تتساقط فى دوامة كبرى تسقط بالضرورة إلى الصور الأولية للأشياء جميعها ، وينضم كل شىء

إلى مثيله ؛ وبهذه الطريقة وجدت الكواكب والنجوم[١٦] ؛ والأشياء جميعها بما فيها النفس البشرية مكونة من جواهر فردية (ذرات) .

وكان دمقريطس تلميذ لوقيبوس أو زميله فى تحويل فلسفة الجوهر الفرد إلى نظرية مادية كاملة . وكان والده من ذوى المكانة الملحوظة والثراء العظيم فى أثينة[١٧] ، ويقال إنه ورث منه مائة وزنة من المال (٨٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) أنفق معظمها فى الأسفار[١٨] . وتقول بعض الروايات التى لا نجد ما يؤيدها إنه سافر إلى مصر وبلاد الحبشة وبابل وفارس والهند[١٩] ، ويقول هو نفسه فى ذلك : « لقد طفت بين معاصرى فى أكبر جزء من الأرض للبحث عن أبعد الأشياء ، ورأيت أكثر الجواء والأقطار ، وسمعت إلى أكبر عدد من المفكرين[٢٠] »(*) . وأقام فى بؤوتية الطيبية زمنا يكفى لتشبعه بنظرية فيلولوس فى الذرية العددية[٢٢] ؛ ولما فرغت منه نقوده لجأ إلى الفلسفة ، واخشوشن فى معيشته ، ووجه جهوده كلها إلى الدرس والتفكير ، وقال : « إن الكشف عن برهان واحد (فى الهندسة) خير لى من الحصول على عرش فارس[٢٣] » . وكان على شىء من التواضع لأنه كان يبتعد عن الجدل والنقاش ؛ ولم يوجد مدرسة خاصة ، وأقام فى أثينة من غير أن يتعرف إلى أحد من فلاسفتها[٢٤] . وقد ذكر ديوجين ليرتيوس Diogenese Laertius (ديوجانس) ثبتا طويلا من كتبه فى علوم الرياضة والطبيعة والفلك والملاحة ، والجغرافية ، والتشريح ، ووظائف الأعضاء ، وعلم النفس ، والعلاج النفسانى ، والطب ، والفلسفة ، والموسيقى[٢٥] . ويسميه ثراسيلس Thrasyllus صاحب التمارين الخمسة فى الفلسفة ، ويطلق عليه بعض معاصريه اسم الحكمة (Sophia) نفسها[٢٦] . وقد بلغت معارفه من السعة والتعدد ما بلغته معارف أرسطاطاليس

(*) ومن أقواله : « إن الأرض كلها وطن للرجل الحكيم الصالح »[٢١] .

نفسه ، ونال أسلوبه من الإعجاب ما ناله أفلاطون[٢٧] ، ووصفه فرانسس بيكن Francis Bacan فى ساعة تخلى فيها عن عناده بأنه أعظم الفلاسفة الأقدمين على بكرة أبيهم[٢٨] .

وهو يبدأ كما يبدأ پارمنيدس ببحث تحليلى فى الحواس فيقول إنه لا بأس علينا من الوثوق بها فى الأغراض العملية ؛ ولكننا لا نكاد نحلل ما تمدنا به من المعلومات حتى نجد أنفسنا ننتزع من العالم الخارجى طبقة بعد طبقة مما تضفيه عليه الحواس من اللون ، والحرارة ، والطعم ، والنكهة ، والحلاوة ، والمرارة ، والصوت . وهذه « الصفات الثانوية » كائنة فينا نحن أو فى عملية الإدراك الكلية ، لا فى الشىء الموضوعى ، وفى العالم الخالى من الآذان لا تُحدث الغابة الساقطة صوتاً ، ولا يكون لماء البحر مهما غضب هدير » والعرف (Nomos) هو الذى يجعل الحلو حلواً والمر مراً ، والحار حاراً ، والبارد بارداً ؛ أما الحقيقة فهى أنه لا وجود إلا للجواهر الفردية (الذرات) والفراغ[٢٩] » . ومن ثم فإن الحواس لا تمدنا إلا بالمعلومات أو الآراء العامة ؛ أما المعرفة الحقة فلا سبيل إليها إلا البحث والتفكير » . والواقع أننا لا نعرف شيئاً ؛ فالحق مدفون على بعد منا عظيم . . . ولسنا نعرف شيئاً معرفة أكيدة ، بل كل ما نعرفه هو ما يحدث فى جسمنا من تغيرات بتأثير القوى التى تصطدم به[٣٠] » . وكل الأحاسيس ناشئة من الجواهر الفردية التى يقذف بها الجسم الخارجى فتقع على أعضاء الحواس[٣١] ، وليست الحواس كلها إلا أشكالا من اللمس[٣٢] .

وتختلف الجواهر الفردية التى يتكون منها العالم فى شكلها وحجمها ووزنها ؛ وكلها تنزع إلى السقوط إلى أسفل ، وتنتج من هذا حركة دائرية تتحد فيها الجواهر المتماثلة بعضها ببعض فتنتج من اتحادها الكواكب والنجوم . وهذه الجواهر لا يقودها فكر (Nous) أو ذكاء ، ولا يرتبها « حب » أو « كراهية » كما يقول أنبادوقليس ، بل إن الضرورة — أى الأثر الطبيعى للعلل الكامنة فيها هى التى تسيطر عليها جميعاً[٣٣] . وليس ثمة مصادفة ، بل المصادفة

خرافة اخترعت لتبرير جهلنا[٣٤] ، وكمية المادة تبقى على حالها ، لا يضاف إليها شيء جديد ، ولا يفنى منها شيء[٣٥] ، وكل الذى يحدث هو تغير فى اتحاد الجواهر الفردية . لكن صور الأشياء مع هذا لاحصر لها ، وحتى العوالم نفسها يوجد منها فى أكبر الظن عدد « غير محدود » وهى تنشأ وتزول فى موكب لا نهاية له[٣٦] . وقد نشأت الكائنات العضوية فى مبدأ أمرها من التراب المبلل[٣٧] ، وكل شيء فى الإنسان مصنوع من جواهر فردية ، والروح نفسها مكونة من جواهر جد صغيرة ملساء مستديرة كجواهر النار ؛ والعقل ، والنفس ، والحرارة الحيوية ، والمبدأ الحيوى ، كلها شيء واحد ، لا يختص بها الإنسان أو الحيوان بل هى منتشرة فى العالم كله موزعة عليه ، والجواهر الفردية العقلية الكائنة فى الإنسان وغيره من الحيوانات التى بها نفكر فى جميع أجزاء الجسم[٣٨](*) .

بيد أن هذه الجواهر الفردية الدقيقة التى تتكون منها النفس هى أكثر أجزاء الجسم نبلا وأعظمها إثارة للدهشة . والرجل العاقل ينمى فكره ؛ ويحرر نفسه من الانفعالات ، والخرافات ، والمخاوف ، ويبحث بالتأمل والإدراك عن السعادة العقلية التى فى متناول الحياة البشرية . والسعادة لا تنشأ من الطيبات الخارجية ، بل ينبغى للإنسان أن يتعود على أن يجد فى داخل نفسه مصادر متعته وسعادته[٤٢] » . والثقافة خير من الغنى . . . ولا تستطيع قوة أو ثروة أن ترجح اتساع دائرة العلم[٤٣] » . والسعادة تأتى متقطعة ، و « اللذائذ المادية لا تشبع صاحبها إلا زمناً قصيراً » ؛ لكن الإنسان ينال سروراً أدوم إذا حصل على سلام النفس وصفائها (أتاركسيا ataraxia) وعلى البهجة (euthumia) . والاعتدال (metriotes) قدر من النظام والتناسب فى الحياة (biou symmetria) . وفى وسعنا أن نتعلم الشيء الكثير من الحيوانات —

(*) يعزو لكرتيوس Lucretius إلى « دمقريطس العظيم » القول بوجود نوع من الموازاة النفسية الجسمية ، فقد « قال (دمقريطس) إن جواهر الجسم وجواهر العقل توضع أزواجاً كل منها بجوار الآخر ؛ وبهذا ترتبط هيكل الجسم بعضه ببعض » .

« الغزل من العنكبوت ، والبناء من العصفور ، والغناء من العندليب والتم[٤٨] » ؛ و« قوة الجسم لا تكون من أسباب النبل إلا فى دواب النقل أما قوة الخُلق فهى سبب النبل فى الإنسان[٤٩] » . وهكذا يفعل دمقريطس ما فعله من بعده الضالون فى إنجلترا فى عصر الملكة ڤكتوريا فيقيم على ميتافيزيقاه الشائنة صرحاً من المبادئ الخلقية الخلابة الظاهر . « والأعمال الحسية يجب أن تصدر عن عقيدة لا عن قسر ، ويجب أن يفعلها الإنسان للرغبة فيها لا أملا فيا يناله عليها من جزاء . . . . » ومن واجب الإنسان أن يشعر بالعار أمام نفسه إذا فعل الشر أكثر مما يشعر به أمام العالم كله[٤٧] » .

وقد أوضح حكمته ، ولعله برر أيضاً نصائحه ، بأن عاش حتى بلغ من السن مائة عام وتسعة أعوام ، أو تسعين عاماً كما يقول بعضهم[٤٨] . ويروى ديوجين ليرتيوس أنه لما قرأ دمقريطس على الجماهير أهم مؤلفاته كلها وصور كتاب العلم الأكبر Megas diakosmos أهدت إليه مدينة أبدرا مائة وزنة (٦٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) ، ولكن لعل أبدرا كانت وقتئذ قد خفضت قيمة نقدها . ولما سأله بعضهم عن سر عمره الطويل أجاب بأنه كان يأكل عسل النحل فى كل يوم وأنه كان يستحم بالزيت[٤٩] ولما رأى آخر الأمر أنه قد عاش من العمر ما يشتهى أخذ يقلل من طعامه يوماً عن يوم يريد بذلك أن يميت نفسه جوعاً شيئاً فشيئاً[٥٠] ؛ ويقول ديوجين « إنه بلغ أرذل العمر[٥١] وإنه خيل إلى الناس أنه يحتضر ؛ وحزنت أخته لأنه سيموت فى أثناء عيد ثزموفوريا Thesmophori فيحول موته دون قيامها بما يجب عليها نحو الإلهة ، فما كان منه إلا أن أمرها بأن تخفف من لوعتها ، وأن تأتيه كل يوم ببضعة أرغفة من الخبز الساخن (أو بقليل من عسل النحل[٥٢]) . وأخذ يضع هذا

الطعام فوق منخريه ، واستطاع بذلك أن يطيل حياته خلال أيام العيد . فلما أن انقضت ثلاثة أيام العيد لفظ آخر أنفاسه دون أى ألم ، كما يؤكد لنا هباركس وذلك بعد أن عاش مائة عام وتسعة أعوام » .

واحتفلت مدينته بجنازته احتفالا عاماً ، وأثنى عليـــه تيمن الأثينى Timon of Athens . ولم ينشئ دمقريطس مدرسة خاصة ، ولكنه صاغ أهم فرض من الفروض العلمية وأوجد للفلسفة نظاماً بقى بعـــد أن عفا الزمان على غيره من النظم التى ظلت تندد به ، ولا يزال يظهر فى العالم جيلا بعد جيل .

الفصل الثالث

أنبادوقليس

المثالية تضايق الحواس ، والمادية تكدر النفس ، لأن أولاهما تفسر كل شيء ما عدا العالم ، والأخرى تفسر كل شيء ما عدا الحياة ؛ وإذا أريد مزج هذين النصفين من أنصاف الحقائق فلا بد من العثور على مبدأ محرك دافع يتوسط بين التركيب والنماء ، وبين الأشياء والأفكار ؛ وقد حاول أنكساغوراس أن يبحث عن هـذا المبدأ فى العقل الكونى ، وحاول أنبادوقليس أن يبحث عنـه فى القوى الكامنة التى تنزع إلى الثورة والانقلاب .

وكان مولد هذا الأكرغاسي الشبيه بليونارد Leonarda فى عام مرثون ، من أسرة غنية كانت مولعة بسباق الخيل ولعاً لم يكن يرجى معه أن ينبغ أحد أبنائها فى الفلسفة . وقد درس بعض الوقت مع الفيثاغوريين ، فلما نضج عقله أخذ يفشى بعض عقائدهم السرية فطرد من زمرتهم(٥٤) . وأولع أشد الولع بعقيدة تناسخ الأرواح ، وأعلن بخيال الشعراء وعواطفهم أنه كان « فى سالف الأيام شاباً ، وفتاة ؛ وغصناً مزهراً ؛ وطائراً ، وسمكة تسبح صامتة فى البحر العميق »(٥٥) . وذم أكل الطعام الحيوانى ووصفه بأنه لا يخرج عن أن يكون صورة من أكل اللحوم البشرية ، أليست هـذه الحيوانات تجسيداً جديداً لبعض الآدميين(٥٦) ؟ وكان يعتقـد أن الناس جميعاً كانوا من قبل آلهة ، ولكنهم خسروا مكانهم فى السماء لارتكابهم شيئاً من الدنس أو العنف ، ويقول إنه واثق بأنه يشعر فى قرارة نفســه بما يوحى إليه بألوهيته قبل مولده . « وأى مجد عظيم وأية سعادة ليس فوقها سعادة قد تدهورتُ منهما الآن ، وأصبحت أطوف الأرض مع

الآدميين [٥٧] » . وإذا كان واثقاً من هـذا الأصل الإلهي فقد احتذى حذاءين من الذهب ، ولبس ثوبين أرجوانيين ، ووضع على رأسه إكليلا من الغار ؛ وقال لأبناء وطنه متواضعاً إنه محبوب أپلو ، ولم يعترف لغير أصدقائه بأنه إله . وادعى أن لها قوى فوق قوى البشر ، ومارس بعض لقوس السحر . وحاول بطريق العزائم والرقى أن ينتزع من العالم الآخر أسرار مصير الإنسانية . وعرض على الناس أن يشفى مرضاهم بسحر الألفاظ ، وشفى كثيرين منهم حتى كاد الناس يصـدقون دعواه . أما الحق فإنه كان طبيباً نطاسيا ذا آراء كثيرة فى علم الطب ، ومتمكناً من سيكولوجية الفن ؛ وكان فوق ذلك خطيباً مصقعاً ، « اخترع » كما يقول أرسطاطاليس ، أصول البلاغة وعلمها غورغياس ، فعرضها هذا للبيع فى أثينة ؛ وكان مهندسا أنجى سلينس من الوباء بتجفيف المستنقعات وتحويل مجارى الأنهار [٥٩] . وكان سياسياً شجاعاً تزعم ، وهو أرستقراطى الأصل ، ثورة على الأرستقراطية الضيقة ، وأبى أن يكون حاكماً بأمره ؛ وأقام حكماً دمقراطياً معتدلا . وكان شاعراً كتب فى الطبيعة وفى التطهير شعراً بديعاً اضطر أرسطاطاليس وشيشرون إلى أن يضعاه فى مصاف الشعراء المجيدين ، وأظهر لكريشيوس إعجابه به بمحاكاته . وقال فيه ديوچين ليرتيوس : « وإذا ذهب إلى الألعاب الألمپية استلفت جميع الأنظار ، حتى لم يكن يذكر إنسان آخر بمثل ما يذكر به هو [٦١] » ، ولعله كان كما يقول إلهاً :

ولم يبق لنا من أشعاره إلا ٤٧٠ بيتا لا نجد فيها إلا إشارات منقطعة لفلسفته ، فنرى منها أنه كان يختار مبادئه من فلسفات مختلفة ، ويرى فى كل طريقة من طرائقها شيئاً من الحكمة ، ولا يوافق پارمنيدس على رفض جميع ما يجىء إلينا من المعلومات عن طريق الحواس ، بل يثنى على كل حاسة ويرى أنها « طريقا موصلا للإدراك [٦٣] » . وعنده أن الحس ينشأ من انبعاث جزيئات تنتقل من الجسم الخارجى ، وتقع على « مسام » (poroi) الحواس ،

ومن أجل هذا يحتاج الضوء إلى بعض الوقت لكي يصل إلينا من الشمس[٦٤]، وينشأ الليل من اعتراض الأرض لأشعة الشمس[٦٥] ، والأشياء كلها تتكون من عناصر(*) أربعة : الهواء ، والنار ، والماء ، والتراب ، وتعمل فى هذه العناصر قوتان رئيسيتان هما الجذب والطرد ، أو قوتا الحب والبغض .

وينتج من اجتماع العناصر وتفرقها بفعل هاتين القوتين اجتماعا وتفرقا لا آخر لهما عالم الأشياء والتاريخ . فإذا كانت الغلبة للحب أى النزعة إلى الاتحاد تحولت المادة إلى نبات ، واتخذت الكائنات العضوية أشكالا مطردة الرقى . وكما أن تناسخ الأرواح يؤلف من الأنفس كلها سيرة واحدة ، كذلك لا يوجد فى الطبيعة فرق واضح بين جنس وجنس ، أو بين نوع ونوع . ألا ترى مثلا أن « الشّعر ، وأوراق الشجر ، وريش الطيور السميك والحراشف التى تتكون على الأعضاء الصلبة ، كلها من نوع واحد[٦٨] ؟ » . والطبيعة تنتج كل نوع من أنواع الأعضاء والأشكال ، والحب يؤلف بينها ، فيجعل منها تارة هولات غريبة تهلك لعدم قدرتها على التكيف لتلائم البيئة المحيطة بها ، وتارة أخرى يجعل منها كائنات عضوية قادرة على التكاثر ومواءمة ظروف الحياة[٦٩] والأشكال العليا كلها تنشأ من الأشياء السفلى[٧٠] ، وقد كانت الذكورة والأنوثة فى بادئ الأمر مجتمعتين فى جسم واحد ، ثم انفصلتا وظلت كلتاهما تتوق إلى الاتحاد مع الأخرى(**)[٧١] . ويوجد فى مقابل عملية التطور هذه عملية الانحلال ، يمزق فيها الكره ، أو قوة التقسيم ، البنيان المعقد الذى أقامه الحب ، فتعود الكائنات العضوية والنباتات عوداً بطيئاً إلى صورة تزداد بدائية يوماً بعد يوم ، ويظل هذا يحدث حتى تختلط الأشياء جميعها مرة أخرى فى كتلة فطيرة غير محددة الشكل[٧٢]

(*) أو أركان كما كان العرب يسمونها . (المترجم)

(**) لعل أفلاطون قد استمد من هذا خطبة أرسطوفان فى « معرض آرائه » .

وهاتان العمليتان المتبادلتان عملية التطور وعملية الانحلال مستمرتان إلى أبد الدهر فى كل جزء على حدة وفى الكل مجتمعا ؛ وتتنازع القوتان قوة الائتلاف وقوة التفرقة ، قوة الحب وقوة الكره ، قوة الخير وقوة الشر ، وتتوازنان فى نظام عالمى شامل هو نظام الحياة والموت . ألا ما أقدم فلسفة هربرت اسپنسر !(٧٣) .

ومكان الله فى هذه العملية غير واضح ، وذلك لأنه من الصعب أن نفرق بين الحقيقة والمجاز أو بين الفلسفة والشعر فى أقوال أنبادوقليس ؛ فهو فى بعض الأحيان يوحد بين الإله وبين الكون نفسه ، وفى بعضها الآخر يوحد بينه وبين حياة كل حى أو عقل كل عاقل ؛ ولكنه يدرك أننا لن نستطيع قط أن نكون فكرة صحيحة عن القوة الخالقة الأساسية الأصلية . انظر مثلا إلى قوله : « لن نستطيع أن نقرب الله منا قربا يمكننا من أن ندركه بأعيننا ، ونمسكه بأيدينا . . . ذلك أنه ليس له رأس بشرى ملتصق بأعضاء جسمه ، وليس له ذراعان متفرعتان تتدليان من كتفيه ، وليس له قدمان ولا ركبتان ولا أعضاء مكسوة بالشعر . إنه كله عقل لا غير ، عقل مقدس لا ينطبق عليه وصف ، يومض فى طيات العالم كله وميض الفكر الخاطف »(٧٤) . ويختم أنبادوقليس حديثه هذا بنصيحة الشيخوخة التى أنطقته بها الحكمة والكلالة : « ما أضعف وما أضيق القوى المودعة فى أعضــاء الإنسان ؛ وما أكثر المصائب التى تثلم حد التفكير ، وما أقصر الحياة التى يكدح فيها الناس والتى تنتهى بالموت . فإذا حل بهم زالوا من الوجود وتلاشوا كما يتلاشى الدخان وصاروا هواء ، يعرفون أن ما يعلمون به ليس إلا الصغائر التى عثر عليها كل واحد منهم أثناء تجواله فى هذا العالم . ومع هذا تراهم جميعاً يفخرون بأنهم عرفوا كل شىء . ألا ما أشد حمقهم وأكثر غرورهم ! ذلك أن هذا الكلى الذى يفخرون بمعرفته لم تره عين ولم تسمعه أذن ، ولا يمكن أن يدركه عقل إنسان »(٧٥) .

واستحال فى آخر سن من حياته واعظا دينيا أكثر مما كان من قبل ،

منهمكاً فى نظرية التجسيد ، وأخذ يتوسل إلى بنى جنسه أن يتطهروا من الخطيئة التى طردوا بسببها من السموات ، ويدعو الجنس البشرى ، بما أوتى من حكمة بوذا وفيثاغورس ، وشوپنهور ، أن يمتنع عن الزواج ، والتناسل[٧٦]. ولما حاصر الأثينيون سرقوصة فى عام ٤١٥ ، بذل أنبادوقليس كل ما فى وسعه لتأييد المقاومين وأغضب بذلك أكرجاس ، التى كانت تحقد على سرقوصة بكل ما فى قلوب الأقارب من حقد دفين ، ونفى من بلده ، فذهب إلى أرض اليونان القارية حيث وافاه الأجل فى ميغارا كما تقول بعض الروايات[٧٨] . ولكن ديوچين ليرتيوس يروى عن هپوبوتس Hippobotus أن أنبادوقليس بعد أن أعاد إلى الحياة الكاملة امرأة اعتقد الناس أنها قضت نحبها غادر الوليمة التى أقيمت احتفاء بشفائها ، واختفى فلم ير بعد ذلك أبداً . وتقول بعض الأساطير إنه ألقى بنفسه فى فوهة بركان إتنا الثائر لكى يموت من غير أن يخلف وراءه أثراً ، فيؤيد بذلك دعواه أنه إله . ولكن النار العنصرية غدرت به ، فقذفت بخفيه النحاسيين ، وتركتهما على حافة كأس البركان ، كأنهما رمزان ثقيلان للفناء[٩٠] .

الفصل الرابع

السوفسطائيون

إن الذين يقولون إن بلاد اليونان هى أثينة يكذبهم أن أحداً من كبار المفكرين اليونان قبل سقراط لم يكن من أهل تلك المدينة ، وأنه لم يعقبه مفكر من أهلها حتى جاء أفلاطون . وإن المصير الذى لاقاه أنكساغوراس وسقراط ليدل على أن الجمود الدينى كان فى أثينة أقوى منه فى المستعمرات ، وذلك لأن انفصال هذه المستعمرات من الناحية الجغرافية قد حطم بعض قيود التقاليد القديمة . ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا إن أثينة كانت تبقى مدينة غير متسامحة إلى حد السخف والغباء ولا مجال فيها للتفكير الحر لو لم تقم فيها طبقة دولية من التجار ، ولم يفد إليها جماعة السوفسطائيين .

وقد كانت المناقشات التى تدور فى الجمعية ، والمحاكمات التى تجرى أمام الهيليا ، والحاجة المتزايدة إلى القدرة على التفكير تفكيراً منطقى الظاهر ، وإلى التعبير عن الأفكار تعبيراً واضحاً مقنعاً ، لقد كانت هذه كلها مضافة إلى ثراء المجتمع الإمبراطورى وتشوفه عاملا فى إشعار الناس بالحاجة إلى شىء لم يكن معروفاً فى أثينة قبل بركليز ، ونعنى بذلك الدراسة العليا المنظمة للآداب ، والخطابة ، والعلوم ، والفلسفة ، وأساليب الحكم ، والسياسة . ولم تقابل هذه الحاجة فى بادئ الأمر بتنظيم الجامعات ، بل قوبلت بوجود طائفة العلماء الجوالين يستأجرون قاعات المحاضرات ، ويدرّسون فيها ما يضعونه للتعليم من مناهج ، ثم ينتقلون إلى مدن أخرى ليعيدوا فيها هذه الدراسة . وكان بعض هؤلاء المعلمين ، ومنهم بروتاغوراس Protagoras ، يطلقون على أنفسهم لقب سوفسطاى أى معلمو الحكمة(٨١) ، وكان الناس يفهمون من هذا اللفظ ما نفهمه نحن من لفظ « أستاذ جامعى » ، ولم يكن

له معنى محط بالكرامة حتى قام النزاع بين الدين والفلسفة فأدى إلى هجوم المحافظين على السوفسطائيين ، وأثارت نزعة بعضهم التجارية أفلاطون إلى تسوىء سمعتهم بأن عزا إليهم تهمة « السفسطة » بغية المكسب ، وهى الوصف الذى ظل لاصقاً بهم إلى يومنا هذا . ولعل الجمهور كان يشعر نحو هؤلاء بشىء من الكره الخفى من بدء ظهورهم ، لأن ما كانوا يتقاضونه من باهظ الأجر نظير تدريس المنطق والبلاغة لم يكن يطيقه إلا الأغنياء الذين أفادوا من علمهم هذا فى دور القضاء[٨٢] . ولسنا ننكر أن المشهورين من السوفسطائيين كانوا يتقاضون ممن يعلمونهم أكثر ما يرضى هؤلاء أن يؤدوه إليهم من الأجور ، وذلك هو قانون الأثمان فى كل مكان ... فكان پروتاغوراس ، وغورغياس ، كما يقول الرواة ، يطلبان عشرة آلاف درخمة (١٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) أجرا لتعليم تلميذ واحد . غير أن من كانوا أقل من هذين شأناً كانوا يقنعون بأجور معتدلة ؛ فكان پرودكس Prodicus مثلا — وهو الذى ذاع صيته فى جميع أنحاء بلاد اليونان — يطلب ما بين درخمة وخمسين أجراً للاشتراك فى مناهجه[٨٣] .

وقد ولد پروتاغوراس أشهر السوفسطائيين جميعهم فى أبدرا قبل مولد دمقريطس بجيل من الزمان . وكان فى أثناء حياته أشهر الرجلين وأعظمهما نفوذا ؛ وفى وسعنا أن نستدل على ما كان له من شهرة واسعة بما أحدثته زياراته لأثينة من حماسة بالغة(*)[٨٤] واهتياج فيها كبير ؛ وحتى أفلاطون نفسه — وهو الذى لم يقل كلمة طيبة فى السوفسطائيين عن قصد — كان يجله ويصفه بأنه على خلق عظيم . وفى الحوار الأفلاطونى الذى سمى باسمه نرى پروتاغوراس أحسن مظهراً من سقراط الشاب الكثير الجدل ؛ فسقراط فى هذا الحوار

(*) أكبر الظن أن هذه الزيارات كانت فى الأعوام الآتية : ٤٥١ — ٤٤٥ ، ٤٣٢ ، ٤٢٣ ، ٤١٥[٨٥]

هو الذى يتحدث كما يتحدث السوفسطائيون . وپروتاغوراس هو الذى يسلك مسلك الرجل المهذب والفيلسوف ، فلا يغضب أو يثور ، ولا يحقد على أحد لما يبديه من دلائل الفطنة والذكاء ، ولا يُحَمِّل حجج مناظريه من الجدل أكثر مما تحتمله ، ولا يهتم قط بأن يتكلم . ويعترف بأنه أخذ على نفسه أن يعلم تلاميذه التبصر والحذر فى الشئون الخاصة والعامة ، وحسن تنظيم المنزل والأسرة ، وفنون البلاغة أو الكلام المقنع والقدرة على فهم شئون الدولة وحسن إدارتها[٨٦] .. وهو يبرر ما يأخذه من أجور عالية بقوله إن من عادته ، إذا عارض تلميذ فيما يطلبه من أجر ، أن يقبل منه أى أجر يراه التلميذ عادلا على شريطة أن يؤكد ذلك فى خشوع أمام مزار مقدس[٨٧] — وتلك لعمرى خطة حمقاء من معلم يشك فى وجود الآلهة . ويتهمه ديوچين ليرتس بأنه « أول من سلح المجادلين بسلاح المغالطات المنطقية » وهى تهمة يسر منها سقراط بلا ريب ، ولكن ديوچين يضيف إلى ذلك قوله : « كان بالإضافة إلى هذا أول من اخترع ذلك النوع من الجدل الذى يسمونه الجدل السقراطى[٨٨] » — وهى تسمية قد لا يرتاح لها سقراط .

وكان من أفضاله الكثيرة أنه وضع أساس النحو وفقه اللغة الأوربيين ، ويقول عنه أفلاطون إنه بحث فى الطريقة الصحيحة لاستعمال الألفاظ ، وإنه كان أول من قسم الأسماء إلى مذكرة ومؤنثة وغير مذكرة ولا مؤنثة ، وأول من ذكر أزمان الأفعال وحالاتها (إخبارية أو شرطية الخ[٩٠]) : ولكن أهم ما يعنينا من أمره أن به ، لا بسقراط ، تبدأ النظرة الذاتية فى الفلسفة . فقد كان على عكس الأيونيين يعنى بالأفكار أكثر ما يعنى بالأشياء ونعنى بالأفكار عملية الإحساس ، والإدراك ، والفهم والتعبير بأكملها؛ فبينا كان بارمنيدس يرى أن الإحساس لا يهدى إلى الحقيقة ، كان پروتاغوراس يرى كما يرى لُك Locke أنه السبيل الوحيدة إلى المعرفة ، ويأبى أن يعترف بوجود أية حقيقة تعلو على العقل ولا تدركها الحواس . ومن

أقوال پروتاغوراس أن الحقيقة المطلقة لا وجود لها ، وأن كل ما يوجد هو الحقائق التي يعتنقها بعض الناس في ظروف خاصة ، وقد تكون الأقوال المتناقضة حقائق متساوية القيمة في اعتقاد أشخاص مختلفين أو في أزمنة مختلفة[٩١] . والحقيقة كلها والخير والجمال ، أمور نسبية وشخصية ؛ « والإنسان هو المقياس الذي تقاس به جميع الأشياء فهو الذي يقرر أن الأشياء الكائنة كائنة ، وأن الأشياء غير الكائنة غير كائنة[٩٢] » . ولقد يخيل إلى المؤرخ أن العالم كله قد بدأ يرتجف ويتزعزع كيانه حين أعلن پروتاغوراس هذا المبدأ البسيط من مبادئ الإنسانية والنسبية ، وأن الحقائق المقررة والمبادئ المقدسة جميعها أخذت تتصدع وتنهار ؛ وأن الفردية قد وجدت صوتاً ينادي بها وفلسفة تؤيدها ، وأن الأسس فوق الطبيعية للنظام الاجتماعي قد تعرضت كلها لخطر الزوال .

ولولا أن پروتاغوراس قد طبق في وقت من الأوقات هذا التشكك البعيد الأثر ، والذي يتضمنه هذا القول الذائع الصيت ، على شئون الدين لبقي قولا نظرياً مأمون العاقبة . ذلك أن پروتاغوراس قرأه على جماعة من كبار المفكرين في بيت يوريپديز الملحد الحر التفكير البغيض إلى الشعب . وقد أثارت أول جملة في هذه الرسالة ثائرة الناس في أثينة وكانت الجملة الأولى فيها هي : « أما من حيث الآلهة فلست أدري أهي موجودة أم غير موجودة كما لا أعلم لها شبهاً . وثمة أشياء كثيرة تقف في سبيل هذه المعرفة : فالموضوع غامض ، وحياتنا الفانية قصيرة الأجل[٩٣] » . وارتاعت الجمعية الأثينية من هـــذه الكلمة الافتتاحية التي تنذر بشر مستطير فقررت نفي پروتاغوراس ، وأمر الأثينيون على بكرة أبيهم أن يسلموا كل ما عساه أن يكون لديهم من كتاباته ، وأحرقت كتبه في السوق العامة . وفر پروتاغوراس إلى صقلية ولكنه ؛ على ما ترويه القصة ؛ غرق في الطريق[٩٤] .

وواصل غورغياس الليونتيني Gorgias of Leontini هذه الثورة التشككية ، ولكنه أوتى من الحكمة ما جعله يقضى معظم حياته فى خارج أثينة . وكانت سيرته أنموذجاً لسير الرجال الذين يجمعون بين الفلسفة والسياسة فى بلاد اليونان . وقد ولد فى عام ٤٨٣ ، ودرس الفلسفة والبلاغة مع أنبادوقليس ، وبلغ من شهرته فى الخطابة وفى تدريسها أن أرسلته ليونتيني فى عام ٤٢٧ سفيراً لها فى أثينة . واستحوذ فى الألعاب الأولمبية التى أقيمت فى عام ٤٠٨ على قلوب حشد كبير من الناس بخطاب له طلب فيه إلى اليونان المتحاربين أن يعقدوا الصلح فيما بينهم لكى يواجهوا وهم متحدون واثقون من الفوز قوة بلاد الفرس الآخذة فى الانتعاش ، وأخذ ينتقل من مدينة إلى مدينة ويشرح أينما حل آراءه بأسلوب خطابى طلى ، وألفاظ ممتعة وعبارات منسقة فى معناها ومبناها ، متزنة اتزاناً دقيقاً بين الشعر والنثر ، لم يجد معها أية صعوبة فى جذب الطلاب إليه يعرضون عليه مائة مينا نظير منهجه الدراسى . وقد حاول فى كتابه فى الطبيعة أن يثبت ثلاث قضايا مدهشة مروعة هى أنه : (١) لا وجود لشىء ما . (٢) ولو أن شيئاً وجد لكانت معرفته غير ممكنة . (٣) ولو أن شيئاً كانت معرفته ممكنة لما أمكن نقل هذه المعرفة من شخص إلى آخر(*)[٩٥] . ولم يبق من كتابات غورغياس غير هذه القضايا . وبعد أن استمتع بكرم كثير من الدول وأجورها ألقى عصا التسيار فى تساليا وهدته حكمته إلى استهلاك معظم ثروته الطائلة قبل وفاته[٩٦] . ويؤكد لنا كل من أرخوا له أنه عاش حتى يبلغ من العمر مائة سنة وخمس سنين على أقل تقدير ؛ ويقول لنا كاتب قديم إن غورغياس ، وإن بلغ من

(*) ومعنى هذه القضايا التى يقصد بها الحط من فلسفة الحواس التى يقول بها پارمنيدس : (١) أن لا وجود لشىء خارج الحواس . (٢) وأنه لو وجد شىء خارج الحواس لما أمكن معرفته لأن المعرفة جميعها تصل إلينا عن طريق الحواس . (٣) ولو أن شيئاً خارج دائرة الحواس أمكن معرفته فإن معرفته لا يستطاع نقلها من شخص إلى آخر لأن كل انتقال للمعرفة لا يكون إلا عن طريق الحواس .

العمر مائة سنة وثمان سنين ، لم يضعف جسمه من طول العمر ، بل ظل إلى آخر حياته فى جيد الصحة لا تقل قوة حواســه عن قوة حواس الشباب(٩٧) .

وإذا كان السوفسطائيون مجتمعين قد كونوا مدرسة متفرقة ، فإن هيبياس الإليسى (Elis) كان مدرسة بمفرده ، وكان أنموذجاً للرجل المتعدد المعارف فى عالم لم تكن المعرفة فيه قد بلغت من الاتساع حداً يجعلها فى غير متناول عقل واحد . فقد كان يعلم الفلك والرياضيات ، وكانت له بحوث مبتكرة فى الهندسة وكان شاعراً ، وموسيقياً ، وخطيباً . وكان يلقى محاضرات فى الأدب ، والأخلاق والسياسة ، وكان مؤرخاً ، وضع أساس التأريخ اليونانى وتقويمه وتسلسله بأن جمع ثبتاً من أسماء الفائزين فى الألعاب الأولمبية ، وأرسلته إليس مبعوثاً لها لدى دول أخرى ، وكان يعرف من الفنون والحرف عدداً كبيراً أمكنه به أن يصنع ملابسه وأدوات زينته(٩٨) . وكان عمله فى الفلسفة صغيراً ولكنه خطير ؛ فقد كان يعترض على حياة المدن المصطنعة المؤدية إلى الانحلال ، ويوضح الفرق بين الطبيعة والقانون ، ويقول : ان القانون ظالم مستبد بالخلق(٩٩) . وواصل پرودكس ألكيوس عمل پروتاغوراس فى النحو ، وحدد أجزاء الكلام ، وأدخل السرور على الشيوخ بوضعه قصة خرافية يصف فيها هرقل وهو يختار الفضيلة المجهدة بدل الوذيلة الهينة(١٠٠) . ولم يكن غيره من السوفسطائيين أتقياء مثله : وكان منهم أنتيفون الأثينى الذى حذا حذو دمقريطس فى ماديته وإنكاره الآلهة ، والذى عرف العدالة تعريفاً يجعلها هى الطريقة الملائمة للظروف الموصلة إلى الغاية المطلوبة ، ومنهم ثرازيماكس الخلقدونى Thrasymachus of Chalcedon الذى قال إن الحق هو القوة (إذا أخذنا بما يقوله عنه أفلاطون) وإن نجاح الأوغاد ليبعث فى نفوسنا الشك فى وجود الآلهة(١٠١) .

والسوفسطائيين فى مجموعهم يعدون من العوامل التى كان لها أعظم الأثر

فى تاريخ اليونان ؛ فهم الذين اخترعوا لأوربا النحو والمنطق ؛ وهم الذين رقو فن الجدل ، وحللوا أشكال الحوار ، وعلموا الناس كيف يكشفون الخطأ المنطقى وكيف يمارسونه ؛ وبفضل ما بعثوه فى اليونان من حافز قوى وما ضربوه بأشخاصهم من أمثلة شغف مواطنوهم بالمناظرة والاستدلال ؛ وهم الذين استخدموا المنطق فى اللغة فزادوا الأفكار وضوحاً ودقة ، ويسروا انتقال المعرفة انتقالا صحيحاً دقيقاً . وهم الذين جعلوا للنثر صورة من صور الأدب والشعر ووسيلة للتعبير عن الفلسفة ؛ وطبقوا التحليل على كل شىء ؛ وأبوا أن يعظموا التقاليد المتواترة التى لا تؤيدها شواهد الحس أو منطق العقل ؛ وكان لهم شأن كبير فى الحركة العقلية التى حطمت آخر الأمر دين اليونان القديم عند طبقات الذهنيين . وفى ذلك يقول أفلاطون : إن « الرأى السائد » فى زمنه هو أن « العالم وكل ما فيه من حيوان ونبات . . . وجماد نشأ من علة تلقائية غير مدركة » ولا عاقلة . ويحدثنا ليسياس Lysias عن وجود مجتمع يكفر بالآلهة يطلق على نفسه اسم « نادى الشياطين kadodaimoniotai كان أعضاؤه يتعمدون أن يجتمعوا ليطعموا فى الأيام المقدسة التى كان الصيام مقرراً فيها[١٠٣] . وكان پندار فى بداية القرن الخامس يقبل ما ينطق به الوحى فى دلنى قبول الأتقياء الصالحين ؛ وكان إسكلس يدافع دفاع السياسيين ؛ وفى عام ٤٥٠ انتقده هيرودوت وهو خائف وجل ، وكفر به توكيديدس صهره فى آخر ذلك القرن ؛ وشكا أو طيفرون Euthyphro من أن الناس كانوا يسخرون منه إذا تحدث عن النبوءات فى الجمعية ، ويعدونه من البلهاء الذين دالت دولتهم[١٠٤] .

وليس من حقنا أن نعزو الفضل فى هـذا كله إلى السوفسطائيين أو أن نلومهم عليه ؛ فقد كان الكثير منه فى الجو الذى يحيط بهم ، وكان نتيجة طبيعية لازدياد الثراء ، والفراغ ، والأسفار ، والبحث والتفكير . وكذلك كان نصيبهم فى تدهور الأخلاق أنهم اشتركوا فى هـذا التدهور

مع غيرهم ، ولم يكونوا العامل الأساسي فيه ؛ ذلك أن الثراء في حد ذاته ، إذا لم تقترن به الفلسـفة ، يقضي على التزمت وعلى الرواقية . ولكن السوفسطائيين عجلوا ، في نطاق هذه الحدود الضيقة وعلى غير علم منهم ، سير حركة الانحلال . لقـد كان معظمهم إذا غضضنا النظر عن حبهم الجم للمال وهو حب متأصل في طبائع البشر ، من ذوي الأخلاق الطيبة والحياة المحتشمة المهذبة ، ولكنهم لم ينقلوا إلى تلاميذهم التقاليد أو الحكمة التي جعلتهم أو أبقتهم فضلاء رغم علمهم أن المبادئ الخلقية قد نشأت بين بني الإنسان ولم تنزل عليهم من آلهة السماء ، وأنها تختلف باختلاف الزمان والمكان . ولعل نشأتهم في المستعمرات لا في بلاد اليونان الأصلية قد جعلتهم يستخفون بقوة العادة ، بوصفها بديلا سلميا للقوة أو القانون ، في المحافظة على النظام والأخلاق . ولقد كان تعريفهم للأخلاق أو لقيمة الإنسان تعريفاً قائماً على أساس المعرفة، كما فعل پروتاغوراس قبل سقراط بجيل من الزمان(١٠٨) ، كان هـذا التعريف باعثاً قوياً على التفكير ، ولكنه كان ضربة زلزلت قواعد الأخلاق نفسها ، كذلك كان توكيد المعرفة وتعظيم شأنها من الأسباب التي رفعت مستوى اليونان العلمي والثقافي ؛ ولكنه لم يقو من ذكائهم بنفس السرعة التي حرر بها عقولهم . ولم يكن قولهم إن المعرفة شيء نسبي سبباً في حمل الناس على التواضع كما يجب أن يكون ، بل إنه أغرى كل إنسان بأن يتخذ من نفسه معياراً يقدر به جميع الأشياء ، فأصبح كل شاب نابه يحس بأنه خليق بأن يحكم على القانون الأخلاقي الذي يسـير عليه بنو وطنه ، وأن يرفضه إذا لم يفهمه أو يعجبه ، ثم يصبح بعدئذ حراً في أن يبرر رغباته حسب ما يراه هو بعقله ، ويقول إنها فضائل النفس التي تحررت من رق القانون . وكانت التفرقة بين « الطبيعة » والعرف ، وميل صغار السوفسطائيين إلى القول بأنه ما تبيحه « الطبيعة » خير في ذاته على الرغم

من حكم العادة أو القانون ، كان هذا الميل وتلك التفرقة عاملا فى تقويض الدعائم القديمة للأخلاق اليونانية ، ومشجعاً للناس على القيام بكثير من التجارب فى أساليب العيش . وأخذ الشيوخ يأسفون لانقضاء ما كان يسود المنزل من بساطة وإخلاص ، ولانهماك الناس فى السعى وراء اللذة وجمع المال متحللين فى ذلك من قيود الدين[١٠٦] . ويحدثنا أفلاطون وتوكيديدس عن المفكرين والقادة الذين يقولون إن الأخلاق وهم خرافة ، والذين لا يعترفون بأى حق غير حق القوة . وهذه الفردية العارمة التى لا قيد لها من الضمير هى التى جعلت منطق السوفسطائيين وبلاغتهم وسيلة للاحتيال لقانونى والتهريج السياسى ، وحطت من قيمة نزعتهم العالمية الواسعة الأفق فجعلتها مجرد إحجام وحذر عن الدفاع عن بلادهم أو استعداد لبيعها لمن يؤدى فيها أغلى الأثمان ، دون أن يشعروا بشىء من وخز الضمير . وأخذ الزراع المتدينون والأشراف المحافظون يرون ما يراه عامة المواطنين من أهل الحواضر الدمقراطيين وهو أن الفلسفة قد أصبحت خطراً تهدد كيان الدولة وينذرها بشر مستطير .

واشترك بعض الفلاسفة أنفسهم فى مهاجمة السوفسطائيين ، فاتهمهم سقراط (كما اتهم أرسطوفان سقراط من بعد) بأنهم يموهون الخطأ بزخرف المنطق ويقنعونه بقوة البلاغة ، وكان يحتقرهم لأنهم يتقاضون من الناس أجورا[١٠٧] ويبرر جهله بالنحو بأنه لم يكن يستطيع حضور منهج پروديكس الذى يكلف خمسين درخمة ، ويقول إن كل ما كان فى وسعه أن يحضر منهج الدرخمة الواحدة الذى يقتصر على المبادئ الأوليه[١٠٨] . وكتب فى ساعة مشئومة تلك المقارنة القاسية يكشف فيها عن أمرهم :

« إنا لنعتقد يا أنتيفون أن فى وسعنا أن نتصرف فى الجمال أو فى الحكمة تصرفاً شريفاً أو غير شريف ، فالشخص إذا باع جماله بالمال إلى كل راغب

فى شرائه ، سماه الناس « عاهراً » ذكراً ؛ أما إذا صادق إنسان شخصاً يعرف أنه إنسان شريف جليل القدر يعجب به حسبناه رجلا فطنا حصيفا . والذين يبيعون الحكمة بالمال لكل من يتقدم لشرائها يسميهم الناس سوفسطائيين أو عاهرى الحكمة إذا صح هذا التعبير . أما من يضاحب شخصاً يعرف أنه جدير بصحبته ، ويعلمه كل ما يعرف من الخير فإنا نصفه بأنه يضطلع بالعمل الذى يليق بالمواطن الشريف[١٠٩] » ولم ير أفلاطون حرجاً فى أن يوافق على هذا الرأى لأنه كان من الأثرياء . وبدأ إسقراط Isocrates حياته بخطبة ضد السوفسطائيين ، ثم صار أستاذاً ناجحا للبلاغة ، يتقاضى ألف درخمة (ألف ريال أمريكى) عن المنهج الواحد[١١٠] . وواصل أرسطاطاليس هجومه عليهم وعرف السوفسطائى بأنه الرجل « الذى لا يحرص إلا على أن يثرى من وراء التظاهر بالحكمة[١١١] » ، واتهم بروتاغوراس بأنه « يعلم الناس بجعل أسوأ الأسباب يبدو كأنه أحسنها[١١٢] » .

وكان شر ما فى هذه المأساة أن كلتا الطائفتين كانت على حق . فالشكوى من الأجور كانت غير عادلة . ذلك أنه لم تكن ثمة وسيلة غيرها يستطاع بها الإنفاق على التعليم العالى إلا إذا أمدته الدولة بالمال ؛ وإذا ما انتقد السوفسطائيون التقاليد والأخلاق السائدة فى عصرهم فلم يكن ذلك بطبيعة الحال عن سوء قصد فقد كانوا يظنون أنهم بعملهم هذا يحررون الناس من رق العقول ، وكانوا بهذا الوصف وهم الطبقة الراجحة العقل فى زمانهم يتصفون بما يتصف به أهل ذلك الجيل من شغف بالحرية العقلية ، وقد فعلوا ما فعله علماء الموسوعات فى عصر الاستنارة فى فرنسا إذ انقضوا على الماضى الميت انقضاضا جديرا بالإعجاب فاكتسحوه أمامهم دفعة واحدة . ولم يطل عمرهم ، أو لم يكونوا بعيدى النظر فى تفكيرهم ، حتى يقيموا نظماً جديدة بدل النظم التى قوضها العقل بعد انطلاقه من عقاله . ولا بد فى كل حضارة أن يحين الوقت

الذى يتحتم فيه بحث الأساليب القديمة من جديد إذا أريد أن تكيف الحضارة نفسها لكى توائم التغيرات الاقتصادية التى لا تستطاع مقاومتها . ولقد كان السوفسطائيون أداة هذا البحث الجديد ، ولكنهم عجزوا عن أن يضعوا السياسة المؤدية إلى هذا التكييف . وكفاهم فخراً أنهم كانوا حافزا قوياً لطلب المعرفة ، وأنهم جعلوا التفكير سنة العصر ، وأنهم جاءوا من كافة أركان العالم اليونانى إلى أثينة بأفكار جديدة وأسباب للتفكير جديدة ، وأيقظوا فيها الوعى الفلسفى والنضوج الذهنى . ولولاهم لما وجد سقراط أو أفلاطون أو أرسطاطاليس .

———

الفصل الخامس

سقراط

١ - قناع سيلينس Silenus

مما يختبط له الإنسان أن يقف آخر الأمر وجهاً لوجه أمام شخصية تبدو فى ظاهر أمرها واقعية كشخصية سقراط . ونقول فى ظاهر أمرها لأننا إذا تدبرنا المصدرين اللذين لا مناص لنا من الاعتماد عليهما فى كل ما نعرفه عن سقراط ، وجدنا أن أحدهما وهو أفلاطون يكتب مسرحيات خيالية ، وأن الآخر وهو أكسانوفون يكتب روايات تاريخية ، وهذه وتلك لا يمكن أن تعدا من التاريخ الصادق الصحيح . وقد كتب ديوچين ليرتيوس فى ذلك يقول : « يقولون إن سقراط حين سمع أفلاطون يقرأ الليسيس Lysis صاح قائلا : أى هرقل ! ما أكثر الأكاذيب التى قالها عنى هذا الشاب ! ذلك بأن أفلاطون قد أنطق سقراط بأشياء كثيرة لم ينطق هو بشىء منها(١١٣) » .

والحق أن أفلاطون لا يدعى بأنه يقصر أقواله على الحقائق ؛ وأكبر الظن أنه لم يدر بخلده قط أن المستقبل قد يعدم الوسائل التى يفرق بها بين ما هو سيرة حقة وما هو من نسج الخيال فى كتابه . ولكن أفلاطون يرسم فى المحاورات صورة منسقة لأستاذه من أيام شباب سقراط الوجل فى البارمنيدس وثرثرته الوقحة فى البروتاغوراس إلى تقواه المكبوتة واستسلامه فى الفيدون ، لا يسع الإنسان معها إلا أن يعتقد أنه إذا لم يكن هذا سقراط بحق فإن أفلاطون يعد من أكبر مبتدعى الشخصيات فى الأدب بأجمعه . ويعتقد أرسطاطاليس أن الآراء المعزوة إلى سقراط فى البروتاغوراس هى آروه بحق(١١٤) . وقد كشفت

حديثاً هتامات من كتاب عن ألقبيادس كتبها إسكنيز الاسفتوزى Aeschines of Sphettos أحد تلاميذ سقراط نفسه ترجح تأييد الصورة التى رسمها له أفلاطون فى الأجزاء الأولى من محاوراته كما ترجح تأييد قصة العلاقة الوثيقة التى كانت بين الفيلسوف وبين ألقبيادس(١١٥). غير أن أرسطاطاليس من جهة أخرى يعد الذكريات Memorapilia والمائدة Banquet من القصص الموضـــوعة أى الأحاديث الخيالية التى يردد سقراط فى أكثرها آراء أكسانوفون(*) نفسه(١١٦) وإذا كان أكسانوفون قد صدق فيما نقله عن سقراط صدق إكرمان Eckerman فيما نقله عن جيته ، فإن كل ما نستطيع أن نقوله فى هذه الحال أنه عنى بجمع سخافات المعلم التى لا ضرر منها ، وأنه ليس من المعقول أن "رجلا أوتى من الفضائل ما أوتى سقراط حسب ا وصفه به أكسانوفون يستطيع أن يقلب الحضارة القائمة رأساً على عقب. على أن غير أكسانوفون من الكتاب الأقدمين لم يصوروا الحكيم القديم فى صورة القديسين الصالحين كما صوره أكسانوفون . من ذلك أن أرسطوقسانيس التارنتى Aristoxenus of Tarentum ينقل عن أبيه — الذى يدعى أنه كان يعرف سقراط شخصياً — حوالى عام ٣١٨ أن الفيلسوف كان شخصاً مجرداً من التعليم « جاهلا فاجراً(١١٧) » ، وأن يوپوليس Eupolis الشاعر الهزلى فاق منافسه أرسطوفان فى الافتراء على المشاء العظيم(١١٨). وإذا أسقطنا من حسابنا ما يجر إليه الجدل من قسوة فى اللفظ اتضح لنا على الأقل أن سقراط كان رجلا نال من كره الناس وحبهم أكثر مما ناله أى إنسان آخر فى عصره .

وكان أبوه مثالا ، ويقال إنه هو نفسه نحت تمثالا لهرمس ، وآخر لربات القدر الثلاث أقيم قرب مدخل الأكربوليس(١١٩). أما أمه فكانت قابلة ، وكان من الفكاهات التى لا ينفك ينطق بها عن نفسه أنه لم يفعل أكثر من

(*) وفى الكتاب الثالث من الذكريات ينطق أفلاطون سقراط بشرح الأساليب والحيل الحربية .

مواصلة حرفة أمه ، ولكنه نقلها إلى دائرة الأفكار ، فكان يساعد غيره على أن يخرجوا للعالم آراءهم . وتقول إحدى الروايات إنه ابن أحد الأرقاء[١٢٠] ، ولكننا نرجح بطلان هذه الرواية لأنه عمل هيليتا أى جنديا فى فرق المشاه الثقيلة (وذلك واجب لا يضطلع به إلا المواطنون[١٢١]) ، وأنه ورث عن أبيه بيتا ، وكان عنده من المال سبعون مينا (٧٠٠٠ ريال أمريكى) ، يستثمرها له صديقه أقريطون[١٢١] ؛ أما فيما عدا هذا فإنه يصور لنا على أنه رجل فقير[١٢٢] . وقد عنى عناية كبيرة بصحة جسمه ، وكان غالب أيامه قوى البنية جيد الصحة ، واكتسب شهرة فائقة فى الجندية أثناء حرب البلوپونيز ؛ وحارب فى بوتيديا Potidaea عام ٤٣٢ ، وفى ديليوم Delium عام ٤٢٤ ، وفى أمفپوليس عام ٤٢٢ . وفى بوتيديا أنقذ حياة الشاب ألقبيادس وسلاحه ، ونزل عن جائزة الشجاعة إكراما لخاطر هذا الشاب ، وفى ديليوم كان آخر من تقهقر من الأثينيين أمام الاسبارطيين ، ويلوح أنه أنجى نفسه بالتحديق فى العدو ، فخافه الاسبارطيون وهم قوم لا يخافون . ويقال إنه فى هذه الوقائع كلها بزجميع أقرانه فى قوة الاحتمال وفى الشجاعة ، وإنه كان يصبر على الجوع والتعب والبرد فلا يشكو ولا يتململ[١٢٤] . أما فى بلده ، إذا طاوعته نفسه على الإقامة فيه ، فكان يشتغل بقطع الأحجار ونحت التماثيل ؛ ولم يكن مولعا بالأسفار ، وقلما كان يخرج من المدينة ومرفئها . وتزوج من إكسانثبى Xanthippe التى كانت تعيب عليه إهماله شئون أسرته ؛ فكان يعترف بعدالة شكواها[١٢٥] ، ويثنى على كرم أخلاقها وحسن معاملتها لابنه وأصدقائه . ولم يكن الزواج يضايقه قط فقد يبدو أنه اتخذ لنفسه زوجة ثانية حين أباح القانون تعدد الزوجات مدة قصيرة لكثرة من قتل فى الحروب من الذكور[١٢٨] .

والعالم كله يعرف وجه سقراط وملامحه .. وإذا حكمنا عليه من تمثاله النصفى المحفوظ فى متحف ترمى Museo dell Terme بروما، وذلك حكم لا يستند إلى

أساس قوى ، قلنا إنه إنه لم يكن أنموذجاً صادقاً للوجه اليونانى[١٢٩] . ذلك أن سعة وجهه ، وأنفه الأفطس العريض ، وشفتيه الغليظتين ، ولحيته الكثة ، كلها توحي بأنه ينتمى إلى أرض السهوب التى جاء منها أناكارسيس Anacharsis صديق صولون ، أو ذلك السكوذى الحديث تولستوى . وقد كتب عنه ألقبيادس فى إصرار عجيب ، حتى فى الوقت الذى يجهر فيه بحبه يقول : « أقول إن سقراط يشبه كل الشبه أقنعة سيلينس ، التى يمكن رؤيتها فى حوانيت التماثيل ، وفى أفواهها مزامير وصفارات ، وتنفتح فى أوساطها فترى فى داخلها صور الآلهة . وأقول أيضاً إنه يشبه مارسياس Marsyas الكائن الخرافى الذى يتكون نصفه الأعلى من إنسان ونصفه الأسفل من ماعز (satyr) ، ولست أعتقد أنك يا سقراط تنكر أن وجهك هو وجه ذلك المخلوق الخرافى[١٣٠] » . ولم يعترض سقراط على هذا القول ، بل إنه فعل ما هو شر من هذا فقد اعترف بأن له كرشاً مفرطة فى الكبر وأنه يرجو أن ينقصها بالرقص[١٣١] .

ويتفق أفلاطون وأكسانوفون فى وصفهم عاداته وأخلاقه . من هذه أنه كان يقنع بثوب بسيط رث يلبسه طول السنة ، ويفضل الحفاء على الأحذية أو الأخفاف[١٣٢] . وقد تحرر إلى حد لا يصدقه العقل من داء التملك الوبيل المصاب به الجنس البشرى ، ويقال إنه أبصر ذات مرة كثرة البضائع المعروضة للبيع فقال : « ما أكثر الأشياء التى لا أحتاجها[١٣٣] ! » وكان يشعر بأنه غنى فى فقره . وكان مضرب المثل فى الاعتدال وضبط النفس ، ولكنه ، كان أبعد الناس عن حياة القديسين . وكان فى وسعه أن يشرب كما يشرب أى رجل مهذب مثقف ، ولم يكن فى حاجة إلى الزهد لكى يحتفظ باستقامة خلقه(*) . ولم يكن ناسكاً يعتزل الناس ؛ بل كان

(*) يقول أكسانوفون على لسان سقراط : « إذا سألتنى عن الشراب قلت لك إن الخمر ترطب النفس ، وتسكن الأحزان ... ولكنى أظن أن أجسام الناس كأجسام النبات ... وأن الله إذا غمر النبات بالماء ليرتوى منه لم يقو على الوقوف معتدلا ، ولم يمكن النسيم من —

يحب الرفقة الطيبة ، وكان لا يأبى أن يدعى إلى ولائم الأغنياء من حين إلى حين ، ولكنه لم يخضع لهم أو ينحنى امتثالا لأمرهم ؛ وكان فى وسعه أن يعيش أحسن العيش دون معونتهم ، وكان يرفض هدايا الكبراء والملوك وولائمهم(١٣٥) . وجملة القول أنه كان رجلا محظوظاً يعيش من غير كد ، ويقرأ من غير ان يكتب ، ويعلم من غير أن يلتزم خطة رتيبة ، ويشرب دون أن يدور رأسه ، ثم يموت قبل أن يدركه وهن الشيخوخة ، وكان موته بلا ألم .

وكانت أخلاقه أحسن الأخلاق الملائمة لعصره ، ولكنها أخلاق يصعب أن يرضى بها كل الرجال الصالحين الذين يثنون عليه . فقد « سرت نار » الحب فى جسمه حين رأى كرميدس Charmides ، ولكنه ضبط عواطفه بأن سأل نفسه هل لهذا الفتى هو الآخر « نفس نبيلة(١٣٦) ؟ » . ويصف أفلاطون سقراط وألقبيادس بأنهما عاشقان ، ويقول عن الفيلسوف إنه « يطارد الفتى الوسيم(١٣٧) » ؛ والشيخ وإن كان يبدو أنه قد جعل حبه فى الغالب حباً أفلاطونياً ، لم يستنكف أن يقدم النصح للائطين والسرارى عن خير الوسائل لاصطياد المحبين . وقد دفعته شهامته إلى أن يعد الحظية ثيودورا بمعونته ، وقد جازته على هذه المعونة بدعوتها إياه أن « يتردد عليها ليزورها(١٣٩) » . ولم تكن تفارقه دعابته ورقة حاشيته ، ومن أجل هذا فإن الذين يطيقون آراءه السياسية يجدون من السهل عليهم أن يحتملوا أخلاقه . ولما قضى نحبه قال عنه أكسانوفون إنه بلغ من إنصافه أنه لم يتظلم إنساناً حتى فى أتفه الأمور . . . ؛ وبلغ من عدالته أنه لم يفضل فى وقت من الأوقات اللذة عن الفضيلة ؛ وبلغ من حكمته أنه لم يخطئ قط فى تمييز الخبيث من الطيب ؛ ومن قدرته على تبين أخلاق الناس ومن حضهم على اتباع سبيل الفضيلة

— أن يسرى فى خلاله ، ولكنه إذا لم يشرب إلا بالقدر الذى يكفيه لأن يستمتع به نما واستوى على سوقه وأثمر أكمل الثمار وأجودها .

والشرف أن بدا أنه بلغ أحسن ما يأمله أحسن الناس وأسعدهم(١٤٠) » : وقد عبر أفلاطون عن هذا المعنى نفسه ببساطة خلابة فقال إنه « كان بحق أعقل وأعدل ، وأحسن من عرفت من الناس فى حياتى كلها(١٤١) » ٥

٢ — صورة ذبابة الخيل

وإذا كان سقراط طلعة محباً للجدل فقد عمد إلى دراسة الفلسفة وأعجب وقتاً ما بالسوفسطائيين الذين غزوا أثينة فى أيام شبابه . وليس لدينا شاهد على أن أفلاطون قد اخترع نبأ التقاء سقراط ببارمنيدس ، وبروتاغوراس ، وغورغياس ، وپرودكس ، وهيبياس ، وثرازمكس ، وما دار فى لقائه بهم من الأحاديث ؛ وليس ببعيد أيضاً أن يكون قد رأى زينون حين وفد هذا إلى أثينة حوالى عام ٤٥٠ ق . م وأنه تأثر بجدله تأثراً لم يفاوقه طول حياته(١٤٣) . وأكبر الظن أنه عرف أنكساغورس بشخصه إن لم يكن عن طريق مبادئه ، وذلك لأن أركلوس الملطى تلميذ أنكساغورس كان فى وقت ما معلم سقراط . وقد بدأ أركلوس هذا حياته العلمية عالماً فى الطبيعة ثم اختتمها بأن كان دارساً لعلم الأخلاق ، وقد فسر هذا العلم وأساسه على قواعد العقل ، ولعله هو الذى حول سقراط من الطبيعة إلى علم الأخلاق . ومن هذه الطرق كلها وصل سقراط إلى الفلسفة ، ومذ تم له ذلك وجد « الخير أعظم الخير فى حديثى كل يوم عن الفضيلة ، وفحصى عن نفسى وعن غيرى ، لأن الحياة التى لا يفحص عنها غير خليقة بالرجال »(*) . وهكذا أخذ يطوف بمعتقدات الناس ، يخزهم بالأسئلة ، ويطلب إليهم إجابات دقيقة محددة وآراء منسقة غير متناقضة ، ويلقى الرعب فى قلب كل من لا يستطيع أن يتحدث حديثاً واضحاً ، وحتى فى الجحيم نفسه يعرض أن يكون مشاء طلعة

(*) ص ٢٧ Apology. أفلاطون De anexetastos bios ou biotos anthropo.

« يعرف مَن من الناس حكيم ومن منهم يدعى الحكمة وهو من غير أهلها[١٤٤] » وقد حمى نفسه من التعرض لأسئلة الناس ومناقشتهم إياه بمثل ما يناقشهم هو بأن أعلن أنه لا يعرف شيئاً . . وأنه يعلم الأسئلة جميعاً ولكنه لا يعلم شيئاً من أجوبتها ؛ وقال عن نفسه متواضعاً إنه من « هواة الفلسفة[١٤٥] » . ولعل الذى يقصده بقوله هذا أنه ليس واثقاً من شىء غير تعرض الإنسان للخطأ ، وأنه ليس لديه طائفة من العقائد والمبادىء المقررة الجامدة : ولما أن أجاب مهبط الوحى فى دلنى جوابه المزعوم عن سؤال كريفون Chaerephon المزعوم : « هل فى الناس من هو أعقل من سقراط » وهو : « لا أحد[١٤٦] » ، عزا سقراط هذا الجواب إلى اعترافه هو بجهله ، وشرع من تلك اللحظة يقوم بذلك الواجب العملى واجب الحصول على أفكار واضحة ، وقال عن نفسه : « إنه سيتحدث عن حين إلى حين عما يهم الجنس البشرى ، فيبحث عن الصالح وغير الصالح ، والعادل وغير العادل ، وما يتفق مع العقل وما لا يتفق معه ، وعما يعد شجاعة وما يعد جبناً ، وعن ماهية الحكومة التى تسيطر على الناس ، وعن صفات الرجل البارع فى حكمهم ، ثم يستطرد إلى موضوعات أخرى . . . يرى أن من يجهلونها يعدون بحق طبقة العبيد[١٤٧] » . وكان إذا صادف فكرة غامضة . أو تعميما هيناً غير قائم على الحقائق ، أو هوى خامر المتحدث إليه على غير علم منه ؛ تحدى محدثه بقوله : « ما هو » ؟ ثم سأله أن يحدد ما يقول تحديداً دقيقاً . وأصبح من عادته أن يصحو مبكراً ؛ ويذهب إلى السوق العامة ، أو ساحات الألعاب أو مدارسها أو إلى حوانيت الصناع ، ويأخذ فى مجادلة أى إنسان يتوسم فيه الذكاء الحافز أو الغباء المسلى ، وكان يسأل : « ألم يعمل الطريق إلى أثينة لكى يتحدث الناس فيه[١٤٨] » ، وكانت الطريقة التى يتبعها سهلة خالية من التعقيد : كان يطلب إلى من يحدثه أن يعرّف فكرة عامة شاملة ، ثم يبحث هذا التعريف ليكشف

فى العادة عما فيه من نقص ، و تناقض ، أو سخف وبطلان ؛ ثم يستدرج محدثه بأسئلته المتعاقبة إلى تعريف أتم وأصح لا يقوله هو أبدا . وكان ينتقل أحياناً إلى فكرة عامة أو عرض فكرة أخرى جديدة ببحث سلسلة طويلة من الحالات المفردة الخاصة مكنته من أن يدخل قدراً من طريقة الاستقراء فى المنطق اليونانى ؛ وكان فى بعض الأحيان يكشف بطريقة التهكم السقراطى المشهور عن النتائج المضحكة السخيفة التى تترتب على التعريف أو الرأى الذى يريد أن يهدمه . وكان مولعاً بالتفكير المنظم شغوفا به ، يحب أن يصنف الأشياء المفردة حسب جنسها ، ونوعها ، وما بينها من فوارق معينة ، وبذلك مهد السبيل إلى طريقة أرسطاطاليس فى التعريف ، وإلى نظرية أفلاطون فى الأفكار . وكان يصف الجدل بأنه فن التمييز بين الأشياء بعناية ، وأنار دياجير المنطق المظلمة بفكاهته التى قدر عليها ألا يطول أجلها فى تاريخ الفلسفة .

وكان معارضوه يعيبون عليه أنه يهدم ولا يبنى ، وأنه يرفض كل جواب ولا يجيب هو بشىء من عنده ، وأنه بهذا أفسد الأخلاق وشل التفكير ، وأنه فى كثير من الحالات ترك الفكرة التى أراد أن يوضحها وهى أكثر غموضاً من ذى قبل . وكان إذا حاول شخص حازم مثل أقريتياس Critias أن يسأله حول جوابه إلى سؤال آخر فأصبحت له من فوره ميزة على سائله . نعم إنا نراه فى البروتاغوراس يعرض أن يجيب عن الأسئلة لا أن يسأل ؛ ولكن هذه النية الطيبة لا تدوم إلا لحظة قصيرة ، وعندئذ ينسحب بروتاغوراس ، وهو الذى تمرس فى المنطق من زمن طويل ، من ميدان الجدل بهدوء[١٤٩] . ويستشيط هيبياس غضباً من تملص سقراط وهروبه من الإجابة عما يوجه إليه من أسئلة ، ويرفع عقيرته بقوله : « قسما بزيوس إنك لن تسمع (جوابى) حتى تعلن أنت ما ترى أنه العدالة ؛ لأنه لا يكفى أن تسخر من الناس ، وأن تسأل كل إنسان وتربكه ، ثم تأبى أن تفصح

عن سبب لأى إنسان ، أو أن تعلن عن رأيك فى موضوع ما[150] » . وقد أجاب سقراط عن هذا التقريع وأمثاله بقوله إنه ليس إلا قابلة كأمه ؛ « إن اللوم الذى يوجه إلىّ كثيرا ، وهو أنى أسأل الناس أسئلة وأن ليس لدى من العقل ما أستطيع به أن أجيب عنها ، لوم عادل لااعتراض لى عليه ؛ وسببه أن الله أرغمنى على أن أكون قابلة ، ونهانى عن أن ألد[151] » ، وذلك لعمرى هروب واضح ما أخلقه بصديقه يوربيديز .

وهو يشبه السوفسطائيين من وجوه كثيرة ، ولم يكن الأثينيون يترددون فى أن يطلقوا عليه هذا الاسم ، على أنهم لم يكونوا يقصدون بهذا أن يعيبوه أو ينقصوا من قدره[152] . والحق أنه كان سوفسطائيا بالمعنى الحديث لهذا اللفظ أى أنه كان بارعاً فى المراوغات الماكرة ، والحيل الجدلية ، يبدل مجال الألفاظ أو معانيها بحذق ودهاء ، ويغرق المسألة التى يجادل فيها بالتشبيهات والاستعارات المفككة ، ويماحك ويغالط كما يغالط صبيان المدارس ، ويحارب بالألفاظ حرب الأبطال ولكن إلى غير غاية[153]. وقد يعفو الإنسان عمن جرعوه السم لأنا لا نرى أن ثمة آفة شرا من المنطقى العارف بقوة منطقه . وكان يختلف عن السوفسطائيين فى أربعة أمور : كان يكره البلاغة ، وكان يرغب فى تقوية الأخلاق ، ولم يكن يدعى أنه يعلم أكثر من فن بحث الأفكار ، وكان يأبى أن يأخذ أجراً على تعليمه — وإن كان يبدو أنه قبل فى بعض الأحيان عونا من بعض الأغنياء من أصدقائه[154]. وكان تلاميذه يحبونه أشد الحب رغم عيوبه التى كانت تضايقهم ، وقد قال مرة لواحد منهم : « ربما استطعت أن أساعدك فى السعى لنيل الشرف والفضيلة ، لأن كلانا يميل إلى حب صاحبه ؛ وأنا إذا أحببت الناس من كل قلبى وبادلونى هم حبهم من كل قلوبهم ، يسوءنى غيابهم عنى كما يسوءهم غيابى عنهم ، وأتوق لصحبتهم كما يتوقون لصحبتى[155] » .

ويمثل أرسطوفان فى رواية السحب تلاميذ سقراط بأنهم قد أنشأوا مدرسة ذات مكان معين يجتمعون فيه ، وفى أكسانوفون فقرة تؤيد هذه الفكرة بعض التأييد[١٥٦] ، ولكنه يصوّر لنا عادة بأنه يعلم فى أى مكان يجد فيه من يعلمه ، أو من يستمع إليه ؛ غير أننا لا نجد عقيدة خاصة أو مبدأ خاصاً يجمع عليه أتباعه ، فقد كانوا يختلفون فيما بينهم اختلافاً بلغ من شدته أن أصبحوا زعماء لأشد المدارس اختلافاً فى بلاد اليونان — الأفلاطونية ، والكلبية ، والرواقية والأبيقورية ، والتشككية . فكان منهم انتسان Antisthenes الفخور الذليل الذى أخذ عن أستاذه مبدأ البساطة فى الحياة وحاجاتها ، وأسس المدرسة الكلبية . ولعله كان حاضراً حين قال سقراط لأنتيفون : « يبدو أنك تظن أن السعادة فى الترف والإسراف ؛ أما أنا فأرى أنك إذا لم تكن فى حاجة إلى شىء كنت شبيهاً بالآلهة ، وأنك إذا أقللت من حاجاتك قدر استطاعتك أصبحت أقرب ما تكون إلى الآلهة[١٥٧] » . وكان منهم أيضاً أرستبوس الذى بنى على اعتراف سقراط بأن « فى اللذة خيراً » العقيدة التى نشرها بعدئذ فى قوريني Cyrene والتى دعا إليها أبيقور أثينة فيما بعد . ومنهم إقليدس الميغارى الذى جعل من الجدلية السقراطية تشككية تنكر المقدرة على كل معرفة حقة . وكان منهم الشاب فيدون الذى كان قد انحط إلى طبقة العبيد ثم افتداه قريطون Crito بإيعاز سقراط ، وأحب سقراط هذا الشاب و « جعله فيلسوفاً » . وكان منهم أكسانوفون القلق المضطرب الذى تخلى عن الفلسفة ليكون جنديا ، ولكنه أثبت أن « لا شىء أعظم نفعا من صحبة سقراط ، والتحدث إليه فى أية مناسبة وفى أى موضوع مهما يكن شأنه[١٥٩] » . ومنهم أفلاطون الذى تأثر خياله القوى بالفيلسوف الحكيم تأثراً لم يفارقه طول حياته حتى امتزج العقلان وصارا فى تاريخ الفلسفة عقلا واحداً . ومنهم أقريطون الثرى ، الذى كان « هيم حباً بسقراط » والذى كان يحرص أشد الحرص على ألا يكون الفيلسوف الكبير فى حاجة إلى

شيء ما(١٦٠) » . وكان منهم الشاب ألقبيادس المتهور الجريء الذي أساء بعدم وفائه إلى معلمه ، وعرضه للأخطار فى مستقبل الأيام ، ولكنه كان فى الوقت الذى نتحدث عنه يحب سقراط ويهيم به هيام الواله المتيم ، والذى يقول فيه :

« إنا إذا سمعنا متحدثا غيرك ، وإن كان من أحسن الناس حديثاً ، لم يكن لألفاظه أثر قط إذا قورنت بألفاظك ؛ أما نتف ألفاظك أنت يا سقراط ، ولو لم نسمعها منك أنت بل نقلت إلينا عنك مهما أخطأ فيها الناقلون ، أما هذه النتف فإنها تخلب الألباب وتستحوذ على نفس كل رجل أو امرأة وكل طفل يستمع إليها . . . وإنى لأعرف أنى إذا لم أصم أذنى عن سماع أقواله وأفر من صوته الذى يسلب العقل للازمته حتى بلغ سن الشيخوخة وبقيت جالسا تحت قدميه . . . ولقد أحسست فى نفسى أو قلبى . . . بذلك الألم الشديد الذى هو أشد إيلاما لنفس الشاب الشريف من أنياب الأفاعى ألا وهو ألم الفلسفة . . وأنت يا فيدروس وأنت يا أغاثون ، وأنت يا إركسماكوس ، وأنت يا بوزنياس ، وأنت يا أرسطوديمس وأنت يا أرسطوفان ، أنتم كلكم ، ولا حاجة لى بأن أضم إليكم سقراط نفسه ، قد طافت بكم هذه التجربة نفسها وشغفتم بالفلسفة شغفى أنا بها(١٦١) .

وكان منهم الزعيم الألجركى كرتياس الذى يستمتع بتهكم سقراط على الدمقراطية والذى كانت له يد فى إدانته بأن كتب مسرحية وصف فيها الآلهة بأنها من ابتداع مهرة الصناع الذين يستخدمونها كما يستخدم خفراء الليل ليرهبوا بها الناس ويرغموهم على حسن الأدب(١٦٢) . وكان منهم أيضاً ابن الزعيم الدمقراطى أنيتوس Anytus وهو شاب آثر أن يستمع إلى حديث سقراط عن العناية بعمله وهو الاتجار فى الجلود . وشكا أنيتوس من أن سقراط قد أفسد عقل الغلام بما بث فيه من تشككك ، فلم يعد يبجل أبويه أو يعظم الآلهة ؛

هذا إلى أن أنيتوس كان يشمئز من نقد سقراط للدمقراطية(*)(١٦٣) ويقول : « أى سقراط ! إنى أظنك مفرطاً فى استعدادك لأن تتحدث بالشر عن الناس ، فإذا قبلت نصحى أشرت عليك أن تصطنع الحذر ؛ ولعله لا توجد قط مدينة ليس إيذاء الناس فيها أيسر من عمل الخير لهم ؛ وتلك بلا شك حال أثينة نفسها(١٦٤) » وأخذ أنيتوس يتربص به الدوائر .

٣ — فلسفة سقراط

وكان من وراء هذه الطريقة فلسفة مراوغة ، تجريبية ، تجرى على غير نظام ، ولكنها فلسفة بلغ من جديتها وحقيقتها أن مات الرجل فى واقع الأمر من أجلها . وقد يبدو لأول وهلة أن ليست هناك فلسفة سقراطية ، ولكن أكبر السبب فى هذا أن سقراط قبل نزعة بروتاغوراس النسبية فرفض النزعة التحكمية ولم يكن واثقاً إلا من جهله .

وقد حكم على سقراط لأنه لا يؤمن بالدين ، ولكنه مع هذا كان يعبد آلهة المدينة بلسانه إن لم يعبدها بقلبه ، ويشترك فى احتفالاتها الدينية ، ولم يعرف عنه أنه نطق مرة بكلمة تدل على عدم تقواه(١٦٦) . وكان يعترف بأنه يتبع فى جميع قراراته الهامة السلبية روحاً Diamonion داخلياً كان يصفه بأنه إشارة من السماء ، ومن يدرى فلعل هذا الروح كان هو الآخر سخرية من سخريات سقراط وتهكماته ؛ فإن كان كذلك فإن سقراط لم يكن ينفك يؤكد دعواه هذه تأكيداً عجيباً ، ولم تكن هذه الدعوى إلا مثلا من أمثلة عدة لالتجاء سقراط إلى النبوءات والأحلام وقوله إنها وحى من عند الآلهة(١٦٧) . وكان يقول إن فى الكون من الأمثلة الدالة على التناسق المدهش العجيب ، ومن الخطة الواضحة المرسومة ، ما لا يصح معه

(*) ولعل أنيتوس ، كما يؤكد لنا فلوطرخس وأثينيوس ، كان يعشق ألقبيادس ولكن ألقبيادس لم يبادله الحب وفضل عليه سقراط(١٦٤) .

أن يعزى وجود العالم إلى الصدفة المحضة أو إلى أية علة غير عاقلة ، أما الخلود فلم يكن واثقا منه مثل هذه الثقة أو قاطعا فى أمره هذا القطع ؛ فهو يستمسك به ويدافع عنه فى الفيدون Phaedo أما فى الأپولوجيا Apology فهو يقول: « إذا جاز لى أن أدعى بأنى أكثر حكمة من غيرى فسبب ذلك أنى لا أعتقد أن عندى كثيراً من العلم بالدار الآخرة ، وأنا فى واقع الأمر لا علم لى بها على الإطلاق »(١٦٨) . ويطبق هذه النزعة اللاأدرية نفسها على الآلهة فى كتابه الكراتلس فيقول : « أما الآلهة فلسنا نعرف عنها شيئا »(١٦٩) . وكان ينصح أتباعه بألا يجادلوا فى مثل هذه الأمور ، يسألهم كما يسأل كنفوشيوس أتباعه هل عرفوا شئون البشر حق المعرفة فأصبحوا بعدئذ على استعداد لأن يتدخلوا فى شئون السماء(١٠٧) ؟ وكان يحس أن خير ما نفعله فى هذه الناحية أن نقر بجهلنا ، وأن نطيع فى الوقت نفسه وحى دلفى حين سئل كيف يعبد الإنسان الآلهة فأجاب : « حسب قانون بلادكم »(١٧١) .

وكان يطبق هذا التشكك نفسه تطبقاً أشد من هذا صراحة فى العلوم الطبيعية فيقول إن من واجب الإنسان ألا يزيد فى دراستها على القدر الذى يهتدى به فى حياته ؛ أما فيما عدا هذا فإن هذه العلوم بيداء يضل فيها العقل ؛ يكشف كل لغز غامض فيها حين يحل عن لغز آخر أشد منه غموضاً(١٧٢) . وكان فى شبابه قد درس العلوم الطبيعية مع أركلوس Archelaus ، فلما كبر ونضج عقله تركها وهو يعتقد أنها أسطورة خداعة إلى حد ما ، ولم يعد يهتم بالحقائق أو بأصول الأشياء بل وجه اهتمامه إلى القيم والغايات . وفى ذلك يقول أكسانوفون« إنه كان على الدوام يتحدث فى البشرية(١٧٤) . وكان السوفسطائيون أيضاً قد حولوا اهتمامهم من العلوم الطبيعية إلى الإنسان ، وبدءوا يدرسون الإحساس ، والإدراك والمعرفة ، ولكن سقراط تعمق أكثر من هذا فى داخل الإنسان وأخذ يدرس الأخلاق والأغراض البشرية : « قل لى يا يوثيديموس ،

هل ذهبت فى حياتك إلى دلفى ؟ » : وهل لاحظت ما هو مكتوب على جدار الهيكل — أعرف نفسك ؟ » نعم لاحظته » . « وهل لم تفكر فى هذه الكتابة ، أو هل عنيت بها ، وحاولت أن تفحص عن نفسك وتعرف عن يقين أخلاقك ؟ »(١٧٥) .

فلم تكن الفلسفة إذن عند سقراط هى الدين ، أو ما وراء الطبيعة ، أو الطبيعة نفسها ، بل كانت علم الأخلاق والسياسية ، مدخلها والوسيلة إليها المنطق ، وإذ كان قد عاش فى ختام عصر السوفسطائيين فقد أدرك أن هذه الطائفة قد أوجدت حالة من أشد الحالات خطورة فى تاريخ أية ثقافة من الثقافات وتلك هى إضعاف أحد الأسس التى تقوم عليها الأخلاق ونعنى به خوارق الطبيعة . وبعد أن أدرك هذا لم يعد خائفاً مرتاعاً إلى الإيمان بالدين بل سلك السبيل إلى أعمق الأسئلة فى علم الأخلاق : هل يستطاع وجود علم للأخلاق قائم على أساس من الطبيعة ؟ أى يمكن أن تبقى الأخلاق من غير الاعتقاد بخوارق الطبيعة ؟ وهل فى مقدور الفلسفة إذا صاغت قانوناً قوياً أخلاقياً دنيوياً غير دينى أن تنقذ الحضارة التى تهددها حريتها الفكرية بالانهيار والزوال ؟ وحين يقول سقراط فى الأوطيفرون أن ليس الخير خيراً لأن الآلهة ترضى عنه ، بل إن الآلهة ترضى عن الخير لأنه خير ، حين يقول هذا يعرض فى واقع الأمر ثورة فلسفتنا ولم تكن فكرته عن الخير فكرة دينية ، بل كانت فكرة دنيوية إلى حد يجعلها نفعية . فهو يرى أن الصلاح ليس فكرة عامة مجردة ، ولكنها فكرة خاصة عملية فالصالح صالح لشىء ما » ، والصلاح والجمال شكلان من أشكال المنفعة والفائدة البشرية ؛ وحتى السلة من الروث تكون جميلة إذا أحسن إعدادها للغرض الذي تؤديه(١٧٦) . وإذ لم يكن ثمة (فى رأى سقراط) شىء غير المعرفة يعادلها فى نفعها ، فإن المعرفة هى أسمى الفضائل والرذيلة جميعها هى الجهل (١٨٧) ، وإن كان المقصود بالفضيلة (arete) هنا هو التفوق لا البراءة من الذنوب . والعمل الصالح غير مستطاع بغير المعرفة الحقة ، وبالمعرفة الحقة يكون العمل الصالح أمراً محتوماً لا مفر منه ،

والناس لا يفعلون قط ما يعرفون أنه خطأ – أى مضاد للعقل ، ضار بهم . وأسمى أنواع الخير والسعادة ، وخير سبيل للوصول إليها هى سبيل المعرفة أو الذكاء .

ويقول سقراط إنه إذا كانت المعرفة هى أسمى الفضائل كانت الأرستقراطية خير أشكال الحكم ، وكانت الدمقراطية سخفاً وعبثاً . وفى ذلك يقول أكسانوفون على لسان سقراط : « من السخف أن نختار الحكام بالقرعة على حين أن أحداً لا يفكر قط فى أن يختار بالقرعة مرشد السفن أو البناء أو النافخ فى الناى ، أو أى صانع على الإطلاق ، مع أن عيوب هؤلاء أقل ضرراً من عيوب أولئك الذين يفسدون حكوماتنا »[١٧٩] . وهو يعيب على الأثينيين حبهم للتقاضى ، وتحاسدهم الصاخب ، ومرارة أحقادهم ومنازعاتهم السياسية ؛ ويقول ذلك : « ولهذه الأسباب ترانى على الدوام أخشى أشد خشية أن يحل بالدولة شر تنوء به وتعجز عن تحمله »[١٨٠] . وكان يظن أن لا شىء ينجى أثينة إلا حكم أصحاب المعرفة والكفاية ، وليست السبيل إلى هذا الحكم هى الاقتراع ، كما أن الاقتراع لا يصلح سبيلا لتقدير كفاية مرشد السفن أو الموسيقى أو الطبيب أو النجار . كذلك يجب ألا يختار موظفو الدولة على أساس جاههم أو ثرائهم ؛ ذلك أن الاستبداد وسلطان المال لا يقل شرهما عن شر الدمقراطية . والسبيل الوسطى المعقولة هى النظام الأرستقراطى الذى تقصر فيه المناصب على الذين تؤهلهم لها عقولهم .والذين يدربون على القيام بما تتطلبه من الواجبات[١٨١] . على أن سقراط كان يعترف بما للدمقراطية الأثينية من مزايا رغم ما يوجهه إليها من نقد ، ويقدر ما أسدته إليه من حريات وما أتاحته له من فرص . وكان يبتسم ساخراً من ميل بعض أتباعه للدعوة إلى « العودة إلى الطبيعة » ، وقد وقف من أنستانس ومن الكلبيين نفس الموقف الذى وقفه فلتير من روسو فيما بعد – وهو أن الحضارة ، رغم عيوبها الكثيرة ، كنز ثمين لا يصح أن نتخلى عنه لنستبدل به البساطة الأولية[١٨٢] .

ومع هذا كله فقد كان الأثينيون ينظرون إليه نظرة الريبة والسخط ؛ فأما

المتمسكون منهم بالدين فقد كانوا يرونه أشد السوفسطائيين خطورة ؛ لأنه وإن راعى ما فى الدين القديم من أسباب المتعة والمسرة ، رفض التقاليد المرعية ، وأراد أن يخضع كل قاعدة من قواعده إلى حكم العقل بعد تقص وفحص ، وأن يقيم قواعد الأخلاق على أساس ضمير الأفراد لا على أساس خير المجتمع أو أوامر الآلهة ؛ وانتهى به الأمر إلى تشكك ترك العقل فى حال من الاضطراب زعزعت كيان كل عادة وكل عقيدة . وكان الذين يمجدون الأيام الخوالى أمثال أرسطوفان يعزون إليـه كما يعزون إلى پروتاغوراس ويوريپديز زعزعة أركان الدين ، وقلة احترام الصغار للكبار ، والانحلال الخلقى عند الطبقات المتعلمة ، وفوضى العزوبة التى كانت تقوض أركان الحياة الأثينية . ولقد كان الكثيرون من زعماء الحزب الألجركى من تلاميذ سقراط أو من أصدقائه ، وإن كان هو نفسه قد أبى أن يؤيد هـذا الحزب ؛ ولما أن قام رجل منهم يدعى أقريتياس وقاد الألجركيين فى ثورة بسطوا خلالها عهـداً من الإرهاب الوحشى ، اتهم الدمقراطيون أمثال أنيتوس ، وملاتوس سقراط بأنه العقل المحرك للرجعية الألجركية ، وأجمعوا أمرهم على إبعاده عن مجرى الحياة الأثينية .

وأفلحوا فيما أجمعوا أمرهم عليه ، ولكنهم لم يفلحوا فى القضاء على ما كان من نفوذ لا حد لقوته . ذلك أن الطريقة الجدلية التى تلقاها عن زينون انتقلت منه عن طريق أفلاطون إلى أرسطاطاليس فحولها هذا إلى نظام منطقى بلغ من الكمال درجة استطاعت بها أن تبقى دون أن يطرأ عليها تغيير ما تسعة عشر قرناً كاملة . أما العلم فقد كان له فيه أثر ضار ؛ ذلك أنه حول الطلاب من البحث فى العلوم الطبيعية ، كما أن نظرية الغرض الخارجى لم تكن من العوامل المشجعة للتحليل العلمى . وربما كان لنزعة سقراط الفردية والذهنية فى علم الأخلاق بعض الأثر فيما أصاب الأخلاق فى أثينة من انحلال ، ولكن رفعها من شأن الضمير ، وقولها إنه أعلى من القانون ، أصبحا من العقائد الجوهرية فى الديانة المسيحية . وقد انتقل الكثير

من آرائه على أيدى تلاميذه فأصبح مادة جميع الفلسفة الكبرى فى القرنين التاليين . وكان أقوى أسباب نفوذه هو المثل الذى ضربه للناس بحياته وأخلاقه ، فقد أضحى فى التاريخ اليونانى شهيداً وقديساً ؛ حتى لقد كان كل جيل يبحث عن مثل أعلى للحياة البسيطة والتفكير الجرىء يعود إلى الماضى ليستمد من ذكرى سقراط غـذاء لمثله العليا ، وفى ذلك يقول أكسانوفون : « كلما فكرت فى حكمة الرجل ونبل أخلاقه رأيت أن ليس فى مقدورى أن أنساه أبداً . أو أن أحاجز نفسى عن الثناء عليه حين أذكره ؛ وإذا كان من بين أولئك الذين جعلوا الفضيلة غايتهم إنسان قد اتصل بشخص أكثر معونة له فى هذا الغرض النبيل من سقراط ، فإنى أرى أن هذا الرجل خليق بأن يعد أسعد الناس على الإطلاق »[١٨٣] .

الباب السابع عشر

أدب العصر الذهبي

الفصل الأول

بنـدار

إن فلسفة عصر من العصور تصبح فى الأحوال العادية أدب العصر الذى يليه ؛ ذلك أن الآراء والمسائل التى يتجادل فيها الناس فى ميدان البحث والتفكير تكون فى الجيل التالى أساس مسرحياته وقصصه وشعره . لكن الأدب فى بلاد اليونان لم يتأخر عن ركب الفلسفة ، لأن الشعراء كانوا هم أنفسهم فلاسفة ، يفكرون لأنفسهم ، وكانوا فى مقدمة أرباب العقل والتفكير فى أزمانهم . ولذلك فإن النزاع الذى قام بين التحفظ والتطرف والذى اضطرب به دين اليونان وعلومهم وفلسفتهم قد تردد صداه أيضاً فى الشعر والتمثيل بل وفى كتابة التاريخ نفسه . وإذ كانت براعة الصورة الفنية قد اجتمعت فى الأدب اليونانى إلى عمق التفكير ، فقد وصل أدب العصر الذهبى إلى درجة من الرقى لم يصل إليها الأدب فى العالم كله مرة أخرى إلا فى عصر شيكسبير ومنتانى .

ويسبب هذا العبء الثقيل من الأفكار وانعدام وجود طبقة من الملوك أو الأشراف يناصرون الأدب ويشجعون الأدباء ، كان القرن الخامس أقل غناء من السادس فى الشعر الغنائى بوصفه فناً مستقلا . وكان بندار أداة الانتقال بين العصرين ، فقد ورث الصيغة الغنائية من العصر الذى قبله ولكنه ملأها

بالفخامة المسرحية ، ولم يلبث الشعر من بعــده أن تخطى حدوده التقليدية وجمع فى المسرحيات الديونيشية بين الدين ، والموسيقى ، والرقص لكى يصبح أداة أعظم من الأدوات السابقة للتعبير عن فخامة العصر الذهبى وعواطفه الجياشة .

وكان بندار ينتمى إلى أسرة طيبية تعود بأصلها إلى أبعد العصور البدائية ، وتدعى أنها تضم الكثيرين من الأبطال القدامى الذين خلد ذكرهم فى شعره . وقد أورثه عمه ، وهو موسيقى يجيد النفخ فى الناى ، كثيراً من حب الموسيقى ، وشيئاً من براعته فيها ، وأرسله أبوه إلى أثينة ليستزيد من هذا الفن ، وفيها علمه لاسوس Lasus ، وأجثكليز Agathocles تآليفه الغنائية الجماعية . ثم عاد إلى طيبة قبل أن يتم العقد الثانى من عمره أى قبل عام ٥٠٢ ق . م ، وأخذ يدرس مع الشاعرة كورنا Corinna . وقد تبارى معها خمس مرات فى الغناء أمام الجماهير وتغلبت عليه فى المرات الخمس . ولكن كورنا كانت جميلة تسر الناظرين ، والمحكمين كانوا رجالا[1] . وكان پندار يسميها خنزيرة ، ويسمى سمنيدس غراباً ، ويسمى نفسه نسراً . لكن شهرته رغم عيبه هذا قد ازدادت إلى حد جعل أبناء بلدته يخترعون قصة يقولون فيها إنه بينا كان الشاعر نائماً فى الحقل يوماً إذ حطت بضع نحلات على شفتيه وخلفت عليهما شهدها[2] . ولم يلبث أن كلف بإنشاء قصائد ، يكافأ عليها بسخاء ، فى مدح الأمراء والأثرياء ، واستضافته الأسر النبيلة فى رودس ، وتندوس ، وكورنثة ، وأثينة ، وأقام وقتاً ما فى بلاط الإسكندر الأول المقدونى ، وثيرون الأكرغاسى ، وهيرون الأول ملك سرقوصة ، وكان فيها كلها شاعر هؤلاء الملوك . وكان عادة يؤجر على أغانيه مقدماً ، كما لو أن مدينة فى أيامنا هذه قد كلفت مؤلفاً موسيقياً أن يكرمها بتأليف قطعة غنائية تنشدها إحدى الفرق ويرقص على أنغامها الراقصون ، ويتولى هو تنظيم الغناء والرقص . ولما أن عاد پندرا إلى طيبة حوالى السنة الرابعة والأربعين من عمره ، حيته المدينة وعدته أعظم هدية أهدتها بؤوتية إلى بلاد اليونان .

وأخذ يعمل بجد فى تلحين كل قصيدة من قصائده ، وكثيراً ما كان يدرب المغنين على غنائها . وكتب ترانيم وأناشيد نصر للآلهة ، وأغانى خمرية تغنى فى أعياد ديونيشس ، وأناشيد للعذراى تغنيها الفتيات ، ومديحا للمشهورين من العظماء ، وأغانى للموائد ، ومراثى للجنائز ، وأغانى للنصر ينشدها الفائزون فى المباريات الأثينية الجامعة . ولم يبق من هذه كلها إلا خمس وأربعون أغنية سميت باسم الألعاب التى تتغنى بمديح أبطالها . وليس لدينا من هذه الأغانى الخمس والأربعين إلا ألفاظها ، أما موسيقاها فلم يبق منها أثر . ونحن إذا شئنا أن نحكم عليها كنا فى وضع شبيه بوضع مؤرخ فى مستقبل الزمان لديه نصوص مسرحيات فجنر التلحينية وليس لديه شىء من موسيقاها فحكم بأن فجنر هذا شاعر وليس مؤلفا موسيقيا ، ثم قدره مستنداً إلى الألفاظ التى كانت فى وقت ما تصاحب ألحانه . أو كان عالماً صينياً لا يعرف شيئاً عن القصص المسيحى يقرأ ذات مساء فى ترجمة عرجاء عشر تراتيل من وضع باخ Bach نزعت عنها موسيقاها ومراسمها الدينية . على هذا النحو يكون حكمنا على پندار من آثاره ، فنحن إذا قرأنا أغانيه اليوم ، أغنية بعد أغنية فى سكون حجرة المكتب حكمنا أنه لا يماثلها شعر آخر فى عصر اليونان الذهبى فى بعث السآمة والكآبة .

وليس فى وسعنا أن نشرح تكوين هذه القصائد إلا بتشبيه كل منها بقطعة موسيقية ، فلقد كان پندار يرى ما يراه سمنيدس وبكليدس Bacchylites وهو أن القالب الذى تصب فيه أغنية النصر قالب محتوم لا مفر منه شأنه فى هذا شأن النغم الموسيقى الذى يوضع لمغن واحد ولآلة موسيقية واحدة فى الأغانى الأوربية الحديثة . وكان يبدأ أولا بإيراد موضوع الأغنية — وهو اسم اللاعب الذى نال الجائزة وقصته ، أو اسم الشريف الذى فازت جياده فى مباراة جر العربات . ويشيد پندار فى العادة « بحكمة الإنسان ، وجماله ، واتساع شهرته[٤] » . فهو فى واقع الأمر لم يكن يهتم كثيراً بالموضوع الأصيل

الذى يعرض له ؛ بل كان يتغنى بمدح العدائين والمحاظى والملوك ؛ ولم يكن يتردد فى الرضاء بأن يتخذ أى طاغية يهبه المال مسرعاً نصيراً له وقديساً [٥] إذا ما أعانه على ذلك خياله الخصيب وشعره المعقد الذى كان موضعاً لزهوه . ولم يكن يستنكف أن يتخذ أى شىء موضوعاً لقصائده سواء كان سباق البغال أو مجد الحضارة اليونانية على اختلاف أنواعها وفى كل مكان انتشرت فيه . وكان وفياً لطيبة ، ولم يكن أكثر إلهاماً وتوفيقاً من وحى دلفى حين دافع عن حيادها فى الحرب الفارسية ؛ ثم استحى فيما بعد من غلطته هذه ، وخرج عن مألوف عادته ، وأثنى على زعيمة الدفاع اليونانى ووصفها بأنها « أثينة الذائعة الصيت ، الغنية ، المتوجة بالنفسج ، الجديرة بأن يتغنى بمدحها الشعراء ، حصن هلاس الحصين ، والمدينة التى تحميها الآلهة [٦] » . ويقال إن الأثينيين وهبوه خمسة آلاف درخمة (١٠،٠٠٠ ريال أمريكى) مكافأة له على القصيدة التى وردت فيها هذه الأبيات [٧] ؛ وتقول رواية أخرى أقل جدارة بالثقة من هذه إن طيبة فرضت عليه غرامة جزاء له على ما فيها من تعنيف خفى ، وإن أثينة أدت عنه هذه الغرامة [٨] .

والجزء الثانى من أغانى پندار يتكون من مختارات من الأساطير اليونانية وفى هذا أسرف پندار إسرافاً لا يشجع الإنسان على متابعة قراءته . وقد شكا من ذلك كورنا Corinna فقال إنه : « كان يَبْذُر بالزكيبة لا باليد [٩] » . وقد كانت للآلهة عنده مكانة عالية ، فكان يعظمها ويستمد منها معظم موضوعاته . وكان الشاعر المحبب لكهنة دلفى ، وقد حصل منهم فى حياته على مزايا كثيرة ولما مات كرمت روحه بأن دعيت إلى أن تنال نصيبها من باكورة الفاكهة التى تقدم فى ضريح أپلو [١٠] . وكان آخر من دافع عن الدين القويم ، وإن إسكلس على تقواه ، ليبدو إذا قورن به رجلا زنديقاً . ولو أن پندار اطلع على قصيدة پروميثيوس المحرر ورأى ما فيها من تجديف فى حق الآلهة لروعه هذا أشد الترويع . وهو يسمو أحياناً فى فكرته عن زيوس إلى ما يقرب من التوحيد كقوله فيه :

المسيطر على كل شىء والمطلع على كل شىء[١١] » . وهو يؤمن بالطقوس الغامضة الخفية ويرجو كما يرجو أورفيوس أن يكون مقره الجنة . وينادى بأن الروح البشرية من أصل إلهى وأن مآلها إلهى[١٢] . وقد وصف يوم الحساب ، والجنة ، والنار وصفاً يعد من أقدم أوصافها فقال : « وبعد الموت مباشرة تعاقب الروح الخارجة على القانون ، وينظر فى الخطايا التى ارتكبت فى مملكة زيوس واحدٌ يصدر فيها أحكامه الصارمة التى لا تنقض » .

وفى ضياء الشمس الجميل يقيم المتقون لا فرق بين أيامهم ولياليهم فى بهجتها وبهائها ، ولا يفعلون ما كانوا يفعلونه فى الأيام الخالية ، يكدحون كدحاً كنوداً فى حرث الأرض وإثارتها ليحصلوا على حاجاتهم الباطلة ؛ أو يخضون بسفنهم عباب البحار بل يقيمون فى نعيم دائم مع الآلهة العظام ويقضون معهم حياة خالية من الأحزان ، يستمتعون فيها بسرور جزاء لهم على ما حفظوا من عهودهم وهم على ظهر الأرض . وعلى بعد منهم نرى فريقاً آخر يقاسون ألوان العذاب ويقبعون فى دياجير مظلمة لا ينفذ فيها البصر[١٣] » .

وكان القسم الثالث والأخير فى أغانى پندار يتألف عادة من نصيحة خلقية . وليس من حقنا أن ننتظر منه فى هذا القسم فلسفة عميقة ؛ وذلك أن پندار لم يكن من أبناء أثينة . وأكبر الظن أنه لم يلق فى حياته سوفسطائياً ؛ ولم يقرأ لأحد من السوفسطائيين شيئاً ، بل كان يوجه قواه العقلية بأجمعها إلى فنه ، فلم تبق لديه قدرة على التفكير المبتكر الأصيل ؛ وكان يكتفى بأن يستحث الرياضيين الفائزين ، أو الأمراء الحاكمين ، على أن يكونوا متواضعين يجلون الآلهة ، ويوقرون بنى جنسهم ، ويحترمون أنفسهم . وكان ما بين الحين والحين يمزج اللوم بالمديح ، وبلغ من الجرأة أن حذر هيرن Hieron ذات مرة عاقبة الشره[١٤] . ولكنه لم يحاجز نفسه عن أن يقول كلمة طيبة فى حق المال أخبث الطيبات كلها وأحبها إلى قلوب الناس وكان يمقت الثوريين الصقليين ، وقد حذرهم من عاقبة أمرهم بألفاظ

لا تكاد تختلف عن ألفاظ كنفوشيوس : « إن من أسهل الأشياء حتى على الضعفاء أن يقوضوا مدينة من أساسها ؛ أما إعادتها إلى مكانها بعد تدميرها فتتطلب جهوداً مضنية وكفاحاً مريراً [١٥] » . وكان يحب فى أثينة دمقراطيتها المعتدلة بعد سلاميس ، ولكنه كان يعتقد مخلصاً أن الأرستقراطية أقل أنواع الحكم ضرراً . ذلك بأنه كان يرى أن الكفاية متأصلة فى الدم ، لا تكتسب بالتعليم ، وتنزع إلى الظهور فى الأسر التى ظهرت فيها من قبل . والدم الطيب وحده هو الذى يهيئ الخلق إلى القيام بالأعمال النادرة التى يجعل الحياة الكريمة جديرة بأن يحياها الإنسان . « ما أقصر الحياة ! أى شىء نكونه وأى شىء لا نكونه ؟ الإنسان حلم يحوم حول خيال ؛ أما إذا نزل عليه بهاء من قبل أحد الأرباب فإن هالة من المجد تحيط به وتصبح حياته حلوة ممتعة [١٦] » .

ولم يكن پندار محبباً إلى الجماهير فى أثناء حياته ، وسيظل بضعة قرون يستمتع بما يستمتع به من خلود لا حياة فيه أولئك الكتاب الذين يشيد الناس كلهم بذكرهم ، ولا يقرأ أحد كتاباتهم . لقد كان يطلب إلى العالم أن يقف عن الحركة فى الوقت الذى كان يتحرك فيه إلى الأمام ، ومن أجل هذا خلفه العالم وراءه ، حتى ليبلو أكبر سناً من ألكمان وإن كان أصغر من إسكلس . وقد كتب شعراً متقناً محبوكاً ، معقداً ملتوياً ، لا يقل فى هذه الصفات كلها عن نثر تاستوس Tacitus ، وكتبه بلهجة له خاصة مصطنعة تعمد أن يجعلها كلغة الأقدمين ، وبأوزان متقنة دقيقة إلى درجة لم يعن معها أحد الشعراء بأن يحذو حذوه (*) ، ومتنوعة تنوعاً لا نجد معه إلا أغنيتين اثنتين من بين أغانيه الأربع والخمسين ذواتى وزن واحد . وشعره غامض المعنى رغم سذاجة تفكيره ، وقد بلغ هذا الغموض حداً يضطر معه النحاة إلى قضاء حياتهم كلها يحاولون حل تراكيبه

(*) ويستثنى من هذا التعميم شاعر عظيم هو دريدن Dryden فى قصيدته وليمة الإسكندر Alexander's Fe .

الشبيهة بتراكيب اللغات التيوتونية ، ثم لا يجدون بعد هذا العناء إلا عبارات طنانة جوفاء . وإذا كان بعض الطلعة من العلماء لا يزالون يقبلون على قراءة شعره رغم هذه العيوب ، ورغم جموده وتمسكه الشديد بالشكليات واصطناعه التشبيهات المتفخة ، وإثقال هذا الشعر بالأساطير المملة ، إذا كان بعضهم لا يزالون يقبلون على قراءته رغم هذا كله فما ذلك إلا لما فيه من قصص واضح تتتابع حوادثه سراعا ، ولإخلاصه فى مبادئه الأخلاقية ، ولروعة لغته التى ترفع أتفه الموضوعات إلى سماء العظمة ، وإن كانت لا تحتفظ بمكانها فيها إلا زمنا قصيراً .

وعاش پندار حتى بلغ الثمانين من العمر ، متحصنا فى طيبة من اضطراب التفكير الأثينى ، وقد تغنى بذلك فى شعره فقال : « ما أحب موطن الإنسان إلى قلبه ، وما أعزر فاقه ، وأقاربه ، يعيش بينهم قانعا راضيا ؛ أما الحمقى فيحبون الأشياء الفاتنة[١٧] » . ويقال إنه قبل أن ينصرم أجله بعشرة أيام (٤٤٢) أرسل إلى مهبط وحى أمون يسأله : « ما أحسن الأشياء للإنسان ؟ » فكان جواب الوحى فى مصر كجواب الوحى فى بلاد اليونان « الموت[١٨] » . وأقامت أثينة تمثالا له أنفقت عليه من الأموال العامة ، ونقش أهل رودس أغنيته الأولمبية السابعة — التى يمدح فيها جزيرتهم — بحروف من ذهب على جدار هيكل من هياكل الجزيرة . ولما أن أمر الإسكندر الأكبر بإحراق طيبة الثائرة ودك أبنيتها فى عام ٣٣٥ ، حذر جنوده أن يمسوا بسوء البيت الذى عاش فيه پندار وتغنى فيه ربه .

الفصل الثانى

ملهى ديونيشس

ورد فى معجم سويداس The Lexicon of Suidas أنه حدث فى أثناء تمثيل مسرحيَة من تأليف پراتينـــاس Pratinas حوالى ٥٠٠ ق . م أن سقطت المقاعد الخشبية التى كان النظارة يجلسون عليها ، وأن أصيب بعضهم بجروح ، وأن استولى الذعر عليهم ، وأن الأثينيين شادوا بعد هذا الحادث ملهى من الحجر على المنحدر الجنوبى للأكرپوليس وهبوه للإله ديونيشس(*) . ثم شيدت ملاه أخرى على غراره فى المائتى عام التالية فى إرتريا Eretria ، وإپدورس ، وأرغوس ، ومنتينيا Mantinea ، ودلفى ، وتورومينيوم Tauromenium (تورومينا Tauromina) ؛ وسرقوصة ، وغيرها من المدائن فى مختلف أنحاء العالم اليونانى . ولكن مسرح ديونيشس هو الذى مثلت عليه المآسى والمسالى الكبرى فى أول الأمر ، وهو الذى ناضل أشد النضال فى المعركة التى احتدمت بين الدين القديم والفلسفة الحديثة ، والتى ربطت أجزاء التاريخ الفكرى لعصر بركليز ، وجعلته عملية كبيرة واسعة النطاق من عمليات التفكير والتغيير .

ولا حاجة بنا إلى القول بأن الملهى العظيم كان مكشوفاً للسماء . وأن مقاعده الخمسة عشر ألف كانت ترتفع على شكل نصف دائرة كالمروحة ، مشيدة من

(*) ليس هذا هو ملهى ديونيشس الذى يزوره السياح اليوم ، بل إن هذا الملهى الباقى إلى اليوم قد شيده وزير المالية عام ٣٣٨ بأمر من ليقورغ ، ويظن أن أجزاء منه يرجع تاريخها إلى ٤٢١ ، ويبدو أن أجزاء أخرى قد أضيفت إليها فى القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد .

القرميـــد مطلة على البارثنون ، ومتجهة نحو جبل هيمتس Hymettus والبحر . ومن أجل هذا فإن أشخاص المسرحية حين ينادون الشمس والنجوم والبحار ، كانوا ينادون حقائق واقعية يستطيع معظم النظارة ، وهم يستمعون إلى الحديث أو الغناء ، أن يروها ويشعروا بوجودها . وقد صنعت المقاعد من الخشب أولا ، ثم من الحجارة بعدئذ ، ولم تكن لها مساند خلفية ؛ وكان كثيرون من النظارة يأتون معهم بوسائد يجلسون عليها ، ولكنهم كانوا يحضرون خمس مسرحيات فى اليوم الواحد دون أن يسندوا ظهورهم إلى شىء معروف لنا غير ركب من خلفهم من النظارة ، وهى بلا ريب مساند غير مريحة . وكان فى الصفوف الأمامية عدد قليل من المقاعد الرخامية ذات الظهور يجلس عليها كبار كهنة ديونيشس المحليين وموظفو المدينة(*) . وكان عند قاعدة منصة الخطابة مكان للرقص وللمغنين ، وكان من خلفها بناء خشبى صغير يسمى الاسكينى skene أو المنظر ، يتخذ تارة لتمثيل قصر ، وتارة لتمثيل معبد ، أو بيت خاص ؛ وأكبر الظن أنه كان يستخدم فوق هـــذا لجلوس الممثلين حين لا يكونون على المسرح يمثلون أدوارهم(**) . وهناك معدات بسيطة « كمذابح » القرابين ، والأثاث وما إليها مما قد تحتاجه المسرحية ؛ وأخرى كالمناظر والملابس يؤتى بها عنـــد تمثيل مسرحية لأرسطوفان[٢٠] وقد صور أجاثاركس الساموسى عدة مناظر تصويراً توهم الرائى بوجود مسافات بينها . وكانت هناك عدة وسائل آلية تساعد على تغيير مجرى الحوادث أو مكانها(†) . من ذلك أنه إذا أريد إظهار انتهاء

(*) هذا الوصف وما يليه من وصف المسرح يفترض فيهما أن الملهى الذى شاده ليقورغ قد شيد على غرار الملهى القديم الذى حل محله .

(**) لسنا نعلم علم اليقين أكانت الحوادث تقع على سقف المسرح أم على مقدمته ، وربما كانت الحوادث تتحرك عليه من مستوى إلى مستوى آخر كلما تغيرت الأمكنة فى القصة .

(†) كانت ستارة تسقط من أعلى تستخدم فى العهد الرومانى فتتدلى فى فجوة فى بداية المنظر وترفع فى نهايته . ولكن المرحيات الباقية لدينا من القرن الخامس ليس فيها شواهد على هذا ، ويلوح أنها كانت تعتمد على أناشيد ترتل بين الفصول لتؤدى الغرض الذى يؤديه إنزال الستار .

حادثة من الحوادث داخل المنظر دار سطح خشبي (ekkyklema) على عجل إلى خارج المسرح وصنعت عليه صور بشرية بطريقة تعبر أمام النظارة ما حدث ، وقد توضع عليه جثة ومن حولها القتلة بأيديهم أسلحتهم ملوثة بالدماء ، ولم يكن من تقاليد التمثيل اليونانى أن تمثيل الحوادث العنيفة على المسرح مباشرة . وكان على جانبي صدر المسرح لوحة كبيرة منشورية الشكل مثلثة تتحرك على محور لها ، وقد رسم على كل وجه من أوجه المنشور منظر يخالف ما على الوجه الآخر ، فإذا أديرت هذه الأوجه تغير المنظر فى لمح البشر : وكان أعجب من هذا جهاز آخر يتكون من آلة رافعة ذات بكرة وأثقال توضع على يسار المسرح وتستخدم فى إنزال الآلهة أو الأبطال من « السماء » إلى المسرح أو إعادتهم إلى « السماء » أو إظهارهم معلقين فى الهواء بين السماء والأرض . وكان يوربديز بنوع خاص مولعاً باستخدام هذه الآلة لإنزال إله يحل بتقواه ما فى مسرحياته اللاأدريه من تعقيد .

ولم تكن المأساة فى أثينة من الشئون الدنيوية أو الأعمال التى تتكرر طول العام ، بل كانت جزءاً من الأحتفال السنوى بعيد ديونيس(*) . وكانت تعرض على الأركون بهـــذه المناسبة عدة مسرحيات يختار منها عدداً قليلا ليمثل فى هذا العيد . وكانت كل قبيلة من القبائل العشر فى أتكا تختار واحداً من مواطنيها الأثرياء يشرف على جوقة المرتلين . وكان من امتيازاته أن يؤدى نفقات تدريب المغنين ، والراقصين ، والممثلين ، وما إلى ذلك من النفقات التى يتطلبها تمثيل إحدى المسرحيات . وكان المشرف ينفق فى بعض الأحيان مبالغ طائلة على إعداد المناظر والملابس وتدريب الممثلين . وبهـــذه الطريقة كانت كل مسرحية ينفق عليها نيسياس تنال جائزة[٢١] . وكان بعض المشرفين الآخرين يقتصدون فى

(*) وكانت المسرحيات تمثل أيضا فى الديونيشيا الصغرى أو العليا Lenaea التى تقام عادة فى پيرية ، وتمثل كذلك من حين إلى حين فى الملاهى المحلية بمدن أتكا .

هذه النفقات باستئجار ملابس مستعملة من باعة ملابس التمثيل(٢٢) . وكان واضع المسرحية هو الذى يقوم عادة بتدريب جوقة المرتلين .

وكانت هذه الجوقة أهم عناصر التمثيل وأكثرها نفقة من عدة وجوه . وكثيراً ما كانت المسرحية تسمى باسمها ، وعن طريقها كان الشاعر فى أكثر الأحيان يعبر عن آرائه فى الدين والفلسفة . وتاريخ التمثيل اليونانى كفاح خاسر تقوم به جوقة المرتلين للسيطرة على المسرحية . ولقد كانت هى فى بادئ الأمر كل شىء فيها ؛ ثم نقص شأنها فى ثسپيس وإسكلس ، كلما زاد عدد الممثلين ؛ ثم اختفت نهائياً فى مسرحيات القرن الثالث . ولم تكن الجوقة تتألف عادة من مغنين محترفين ، بل كانت تتألف من هواة يختارون من الكشوف المحتوية على أسماء أبناء القبيلة المدنيين . وكانوا جميعاً من الرجال ، وكان عددهم بعد إسكلس خمسة عشر رجلا ؛ وكانوا يقومون بالرقص والغناء معاً ويسيرون فى موكب مهيب فوق المسرح الطويل العتيق ؛ يشرحون بحركاتهم الموزونة ألفاظ المسرحية ومواقفها .

وكان للموسيقى فى المسرحيات اليونانية شأن لا يعلو عليه إلا شأن الشعر والتمثيل نفسه ، وكان المؤلف هو الذى يضع عادة الموسيقى المسرحية كما يضع ألفاظها(٢٣) . وكان معظم الحوار يلقى بشكل أحاديث أو خطب حماسية ، وكان بعضه ينشد ؛ ولكن الأدوار الهامة كانت تحتوى على قطع غنائية يغنيها شخص واحد أو شخصان أو ثلاثة أشخاص معاً ، أو تنشد مع النشيد الجماعى أو تتعاقب معه(٢٤) . وكان الغناء بسيطاً غير مقسم إلى أدوار أو ألحان متوافقة . وكان يصحبه فى العادة نفخ فى الناى يوافق أنغام المغنين نغمة بعد نغمة . وبهذه الطريقة كان فى وسع النظارة أن يتابعوا ألفاظ القصيدة دون أن تضيع فى نغمات الغناء ؛ وليس فى وسعنا أن نحكم على هذه المسرحيات بقراءتها قراءة صامتة ، ذلك أن الألفاظ

عند اليونان لم تكن إلا صورة فنية معقدة ينسج منها الشعر ، والموسيقى ، والتمثيل ، والرقص وتتألف منها كلها وحدة عميقة متحركة(*) .

ولكن المسرحية رغم هذا هي أهم شيء ، والجائزة تمنح لها أكثر مما تمنح للموسيقى ، وتمنح للتمثيل أكثر مما تمنح للمسرحية ؛ وكان في وسع الممثل الماهر أن يرفع من شأن مسرحية متوسطة فتفوز هي بالجائزة(٣٦) . ولم يكن الممثل — وهو دائماً من الذكور — شخصاً محتقراً كما كانت الحال في روما ؛ بل كان يكرم أعظم التكريم ، فيعفى من الخدمة العسكرية ، ويمر آمناً بين صفوف الجند في زمن الحرب . وكان يلقب هيكريتسس hypokrites ، وكان معنى هذا اللفظ عندهم هو المجيب ، أي المجيب على النشيد الجماعي . ولم يؤد الدور الذي يقوم به الممثل من انتحال شخصية إنسان آخر إلى تغيير معنى هذه الكلمة فيصبح معناها « المنافق » إلا بعد ذلك بعد . وكان الممثلون يؤلفون لهم طائفة أو نقابة قوية تسمى نقابة « الفنانين الديونيشيين » ، انتشر أعضاؤها في جميع بلاد اليونان ؛ وكانت جماعات من ممثلين تنتقل من مدينة إلى أخرى ، يؤلفون مسرحياتهم ويلحنون موسيقاها ، ويصنعون ملابسهم ، ويقيمون مسارحهم . وكان دخل كبار الممثلين عظيماً كما هو شأنهم في جميع الأوقات ، أما المتوسطون منهم فكان دخلهم قليلا مزعزعاً(٣٧) ؛ وكانت أخلاقهم هي الأخلاق التي يتوقع الإنسان وجودها في أقوام يتنقلون من مكان إلى مكان ، وتختلف معيشتهم بين الترف والفقر ، يمنعهم توتر أعصابهم من أن يحيوا حياة سوية مستقرة .

(*) ولقد ظلت الموسيقى ذات شأن هام في ثقافة عصر اليونان الزاهر (٤٨٠ — ٣٢٣) واشتهر من مؤلفيها في القرن الخامس تيموثيوس الملطى Timotheus of Miletus وكتب مقطوعات كانت الموسيقى فيها تطغى على الشعر ، وكانت عبارة عن قصة ذات حوادث صالحة للتمثيل . وقد زاد أوتار القيثارة اليونانية فجعلها أحد عشر وتراً ، وقام بتجارب في الأساليب المعقدة المحكمة ، فأثار بهذا جماعة المحافظين في أثينة وظلوا يندودن به حتى هم بالانتحار ، ولكن يوربديز هدأ ثورته واشترك معه في عمله ، وتنبأ بأن بلاد اليونان ستخر ساجدة له ، وقد صدقت نبوءته .

وكان الممثل فى المآسى والمسالى على السواء يلبس على وجهه قناعاً ، ركب فيه عند فمه مبسم من الشبهان . وكانت طريقة تنظيم الصوت فى الملهى اليونانى ، ووضع المسرح بحيث يراه الجالس فى أى مقعد من المقاعد ، طريقة فذة مدهشة . على أن اليونان مع هذا رأوا أنه يحسن بهم أن يقووا صوت الممثل ، وأن يساعدوا عين الناظر البعيد على تميز مختلف أشخاص الرواية ، وكانوا يضحون فى سبيل هذا بكل مميزات الصوت وتعبيراتهما : فإذا كانوا يمثلون على المسرح أشخاصاً حقيقيين مثل يوربديز فى مسرحية إكلزيازوسى ، وسقراط فى مسرحية السحب ، فإن الأقنعة كانت تحاكى ملامحهم الحقيقية ، وتحاكيها فى الغالب محاكاة هزلية .

وقد جاءت الأقنعة إلى المسرحيات من طريق التمثيل الدينى ، وكانت فيها من وسائل الإرهاب أو الفكاهة . وقد ظلت تسير على هذه السنة فى المسالى ، وكان فيها من القبح ، وغرابة الشكل ، والإسراف فى هذا كل ما يستطيع خيال اليونان أن يبتدعه . وكانت الوسائد والمساند تزيد من أجسام الممثلين ، والقلانس العالية والأحذية ذات النعال السميكة تزيد من أطوالهم ، كما كانت الأقنعة تقوى أصواتهم وتزيد فى حجم وجوههم . وقصارى القول أن الممثل القديم كان ، كما يقول لوشيان ، شخصاً ذا «منظر بشع مفزع[٢٨]» .

وليس النظارة أقل جدارة باهتمامنا من المسرحية نفسها . لقد كان الدخول لمشاهدة التمثيل مباحاً لجميع الرجال والنساء من كافة الطبقات[٢٩] . وكان جميع المواطنين بعد عام ٤٢٠ ق . م . يعطون من الدولة الأبلتين اللتين يؤدونها أجراً للدخول إذا كانوا فى حاجة إليهما . وكان النساء يجلسن بمعزل عن الرجال كما كان للسرارى مكان خاص بهن ، وقد جرت العادة أن تمنع النساء الساقطات من حضور المسرحيات إلا إذا كانت المسرحية مسلاة[٣٠] .

وكان النظارة جماعة مرحين ليسوا أحسن ولا أسوأ أخلاقاً من أمثالهم فى غير بلاد اليونان . وكانوا وهم يشاهدون التمثيل ويستمعون إليه يأكلون البندق والفاكهة ويشربون الخمر . وكان أرسططاليس يقترح أن تقدر قيمة إخفاق المسرحية بمقدار ما يؤكل من الطعام فى أثناء تمثيلها . وكانوا يتنازعون المقاعد ، ويصفقون ويصرخون لمن يحبون من الممثلين ، ويصفرون ويزمجرون حين يغضبون ؛ فإذا رأوا ما يدعو إلى احتجاج أقوى من هذا ، دفعوا المقاعد بأقدامهم إلى الأرض ، وإذا ثاروا أخرجوا الممثل عن المسرح بالزيتون أو التين أو الحجارة[٣١] . وكاد إسكنيز أن يلقى حتفه رجماً بالحجارة عقاباً له على وضع مسرحية بغيضة ، وكاد إسكلس أن يقتل لأن النظارة اعتقدوا أنه أفشى بعض أسرار الطقوس الإليوزينية الغامضة . وقد حدث أن استعار موسيقى كمية من الحجارة ليبنى بها بيتاً ، ووعد من استعارها منه أن يردها إليه مما سيجمعه من عمله فى المسرحية التالية[٣٢] . وكان الممثلون فى بعض الأحيان يستأجرون جماعة من المصفقين ، لكى يطغى تصفيقهم على ما يخشونه من صفير النظارة ، وكان بعض الممثلين الهزليين يلقون بالبندق إلى النظارة يرشونهم به لكى يظلوا هادئين[٣٣] . وكان النظارة يستطيعون إذا شاءوا أن يحولوا دون إتمام التمثيل بما يحدثونه من ضجة متعمدة ، ويحتمون تمثيل المسرحية الثانية[٣٤] ، وبهذه الطريقة كان يمكن اختصار البرنامج التمثيلى إلى الحد الذى يطيقونه .

وكان التمثيل فى مدينة ديونيشيا يدوم ثلاثة أيام ، تمثل فى كل منها خمس مسرحيات — ثلاث مآس ومسرحية خرافية يكتبها شاعر ، وملهاة يكتبها شاعر آخر[٣٣] . وكان التمثيل يبدأ فى الصباح الباكر ويستمر إلى ما بعد الغروب ؛ ولم تكن مسرحية ما تمثل مرتين فى ملهى ديونيشس إلا فى أحوال نادرة ،

فإذا لم يشاهدها بعضهم فى ملهى هذه المدينة استطاع أن يشاهدها فى ملاهى غيرها من المدن اليونانية ، أو أن يشاهدها ممثلة تمثيلا أقل روعة على مسرح قروى فى أتكا . وبلغ عدد المسرحيات الجديدة التى مثلت فى أثينة بين عامى ٤٨٠ ، ٣٨٠ نحو ألفى مسرحية[٣٦] . وكانت الجائزة التى تمنح لأحسن المآسى الثلاث عنزة ، والتى تمنح لأحسن مسلاة سلة ملأى بالتين وزقا من الخمر ، أما فى العصر الذهبى فكانت الجوائز الثلاث التى تمنح للمأساة ، والجائزة الوحيدة التى تمنح للمسلاة ، بدرة من المال تقدمها الدولة . وكان المحكمون العشرة يختارون بالقرعة فى الملهى نفسه فى صباح اليوم الأول من أيام المباراة ، وكانوا يختارون من بين ثبت طويل يحتوى أسماء من يرشحهم المجلس لهذا الغرض ، فإذا انتهت المسرحية الثالثة كتب كل قاض على لوحة ما يختاره من المسرحيات لنيل الجوائز الأولى والثانية والثالثة ، ثم وضعت اللوحات جميعاً فى قارورة ليختار الأركون خمساً منها حيثما اتفق . وهذه الأحكام الخمسة مجتمعة تنال الجائزة النهائية ، أما الخمسة الثانية فتتلف دون أن تقرأ . ولهذا فإن أحداً من الناس لم يكن يعرف مقدماً من هم القضاة ، أو أيهم سيكون الحكم فعلا . على أنه كان يحدث فى بعض الأحيان ورغم هذه الاحتياطات أن تقدم الرشا للمحكمين أو أن يرهبوا لكى يحكموا لشخص بعينه . ويشكو أفلاطون من أن القضاة لخوفهم من الجماهير كانوا فى كل مرة تقريباً يقضون حسب ما يوحى به تصفيق الجماهير ، ويقول إن هذا « الحكم المسرحى » يفسد المؤلفين والنظارة جميعاً[٣٨] : فإذا انتهت المباراة توج الشاعر الفائز ومنظم فرقة المنشدين بالحباب[*] ، وكان الفائزون فى بعض الأحيان يقيمون نصباً كالنصب الذى أقيم لليسكراتس Lysicrates ، ليخلدوا به فوزهم ؛ وكان الملوك أنفسهم يتبارون لنيل هذا التاج .

(*) ١٧٧ نقلا عن معجم الدكتور شرف . (المترجم)

ويقرر حجم الملهى وتقاليد الاحتفال طبيعة المسرحيات اليونانية إلى حد بعيد ، وإذ كان من غير المستطاع إظهار الفروق الضعيفة بين الشخصيات بملامح الوجه أو تغيير نبرات الصوت ، فقد كانت الدقة فى تصوير شخصيات المسرحية قليلة الوجود فى الملهى الديونيشى . لقد كانت المسرحيات اليونانية دراسة للأقدار أى للإنسان فى كفاحه مع الآلهة ، أما المسرحيات التى كتبت،فى عصر الملكة إلزابث فكانت دراسة فى تتابع الحادثات أى دراسة للإنسان فى صراعه مع أخيه الأنسان ، وكانت الجيدة منها دراسة فى الأخلاق أى دراسة للإنسان فى صراعه مع نفسه . وكان النظارة اليونان يعرفون مقدماً مصير كل شخصية من الشخصيات الممثلة ، كما يعرفون نتيجة كل حادثة من حوادث التمثيل ؛ ذلك بأن العادات الدينية كان لا يزال لها فى القرن الخامس من القوة ما يكفى لتحديد موضوع المسرحيات الديونيشية بحيث لا يخرج عن قصة من الأساطير والخرافات الشائعة عند اليونان الأولين(*) . ولم يكن فى المسرحية شىء من ترقب النتائج غير المعروفة أو من المفاجآت ، بل كان فيها بدلا من هذا لذة الشعور السابق بالنتائج المرتقبة ومعرفة ما سيكون قبل وقوعها . وكان مؤلفو المسرحيات جيلا بعد جيل يقصون على النظارة أنفسهم القصة بعينها ؛ ولم يكن بينهم اختلاف إلا فى الشعر ، والموسيقى ، والتفسير ، والفلسفة . وحتى الفلسفة نفسها كانت

(*) ولقد كانت هناك مسرحيات قليلة مأخوذة من تاريخ اليونان بعد عهد الأساطير . ولم يبق من هذه المسرحيات الأخيرة حتى الآن إلا مسرحية « المرأة الفارسية » لإسكلس . وقد مثل فرنكس Phrynichus فى عام ٤٩٣ « سقوط ميليطس » ، ولكن اليونان كانوا يحزنون أشد الحزن حين يذكرون استيلاء الفرس على مدينتهم الجديدة ، ولهذا فإنهم فرضوا على فرنكس غرامة قدرها ألف درخمة لهذه البدعة الجديدة التى أدخلها فى التأليف المسرحى وحرموا إعادة تمثيل مسرحيته(٣٩) . ولدينا من الشواهد ما يدل على أن تمستكليز كان يدبر فى السر تمثيل هذه المسرحية ليتخذها وسيلة لإثارة حمية الأثينيين ودفعهم إلى محاربة الفرس(٤٠) .

تحددها التقاليد إلى حد كبير : فنرى الموضوع الرئيسى فى مسرحيات إسكلس وسفكليز هو العقاب الذى تفرضه الآلهة الحاسدة أو الأقدار اللاشخصية جزاء على التعاظم الوقح والتكبر عليها وعدم تعظيمها ؛ والمغزى الذى يتكرر على الدوام هو ما فى إطاعة صوت الضمير والشرف، وما فى الاعتدال المتواضع ، من حكمة بالغة . وإن اجتماع الفلسفة بالشعر ، وبتتابع الحوادث ، والموسيقى ، والغناء ، والرقص هو الذى جعل المسرحيات اليونانية من طراز جديد فى تاريخ الأدب . وهو الذى جعلها ترق منذ نشأتها تقريباً إلى درجة من العظمة والفخامة لم ترق إلى مثلها فيما بعد :

الفصل الثالث

إسكلس

ونقول تقريباً عامدين ، فكما أن وجود عدد كبير من ذوى المواهب المتوارثة والمتتابعة يمهد السبيل إلى ظهور العباقرة ، فإن كاتباً مسرحياً ، لا نرى خيراً من أن ننسى اسمه وأن نكرمه رغم هـذا النسيان ، قد عاش بلا ريب بين ثسيس وإسكلس . ولعل وقوف أثينة الموفق فى وجه الفرس هو الذى بعث فيها العزة والقوة الدافعة اللتين لا بد منهما لوجـود عصر المسرحيات الكبرى ، كما أن الثروة التى أتت بها التجارة والإمبراطورية فى أعقاب الحرب قد أعانت على قيام المباريات الديونيشية فى الأغانى والمسرحيات الغنائية . وكان إسكلس يحس فى قرارة نفسه بهاتين العزة والقوة الدافعة ، فكان ككثيرين غيره من كتاب اليونان فى القرن الخامس يكتب ويستمتع بالحياة ، ويعرف كيف يعمل وكيف يتكلم ، وأخرج فى عام ٤٩٩ وهو فى السادسة والعشرين من عمره مسرحيته الأولى ؛ وفى عام ٤٩٠ حارب هو وأخواه فى واقعة مرثون وأظهروا من الشجاعة ما جعل أثينة تأمر بعمل صورة تخلد بها بطولتهم ؛ وفى عام ٤٨٤ نال جائزته الأولى فى العيد الديونيشى ؛ وفى عام ٤٨٠ حارب فى أرتميزيوم وسلاميس ، وفى ٤٧٩ فى بلاتيه ؛ وفى ٤٧٦ ؛ ٤٧٠ زار سرقوصة واستقبل بمظاهر التكريم فى بلاط هيرون الأول ؛ وفى ٤٦٨ انتزع منه سفكليز الشاب الناشئ الجائزة الأولى للمسرحية بعد أن ظل هو مسيطراً على الأدب الأثينى جيلا كاملا ، وفى عام ٤٦٧ عاد إلى مكانته العليا على أثر ظهور مسرحيته « سبعة ضد طيبة » ، وفى عام ٤٥٨ نال آخر انتصاراته وأعظمها بإخراج أورستيا مسرحيته الثلاثية ؛ وفى عام ٤٥٦ عاد إلى صقلية ، حيث وافته منيته فى تلك السنة نفسها.

وكانت الحاجة ماسة إلى رجل بهذه الهمة ليصوغ المسرحية اليونانية فى صورتها النهائية ؛ فقد كان إسكلس هو الذى أضاف ممثلا ثانيا إلى الممثل الأول الذى أخرجه تسپيس من بين فرقة المغنين ، وأتم بذلك نقل الترتيلات الديونيشية من قصيدة دينية غنائية إلى مسرحية(*) ، وكتب سبعين (ويقول بعضهم تسعين) مسرحية ، لم يبق منها إلا سبع . وليست الثلاث الأولى من هذه المسرحيات ذات شأن كبير(**) ؛ وأشهرها كلها مسرحية بروميثيوس المقيد وأعظمها هى التى تتكون منها مسرحية أورستيا الثلاثية .

وقد تكون مسرحية پروميثيوس المقيد هى الأخرى جزءاً من مسرحية ثلاثية وإن لم نجد مؤرخاً قديماً يؤيد هذا الظن . فنحن نسمع عن مسرحية دينية تدعى پروميثيوس جالب النار ، ولكنها كانت تمثل مستقلة عن مسرحية پروميثيوس المقيد وفى مجموعة أخرى من المسرحيات[41] . ولدينا قطع صغيرة باقية من مسرحية بروميثيوس الطليق من تأليف إسكلس ، وتكاد هذه القطع أن تكون خالية من المعانى ، ولكن العلماء الحريصين يؤكدون لنا أننا لو حصلنا على نص المسرحية كاملا لوجدنا إسكلس يجيب إجابة مقنعة على جميع الضلالات التى تُنطق بها المسرحية الحالية بطلها . وحتى لو أخذنا بهذا الرأى فإنا لا يسعنا إلا أن نعجب كيف يطيق النظارة الأثينيون الاستماع إلى تجديف هذا الجبار فى حق

(*) لم يكن عدد الممثلين فى مسرحيات إسكلس يزيد على اثنين ، ولكن الأدوار التى يمثلانها فى أية مسرحية لم يكن يعددها إلا أن شخصيتين من أشخاص المسرحية لا أكثر يمكن أن يظهرا على المسرح فى وقت واحد . وكان رئيس فرقة المرتلين يعمل أحيانا ممثلا ثالثاً ، ولم يكن صغار الشخصيات كالخدم والجند وأمثالهم يعدون من الممثلين .

(**) ومسرحية « المرأة المتوسلة » ضئيلة الشأن ، وللمرتلين فيها المكانة العليا . ومثل هذا يقال عن مسرحية « المرأة الفارسية » فهى غنائية قبل كل شىء ، وتصف وصفاً واضحاً معركة سلاميس . أما « سبعة ضد طيبة » فكانت القسم الثالث من مسرحية ثلاثية تروى قصة الملك لايوس Laius وزوجته الملكة جوكستا Jocasta ، وكيف قتل ابنهما أوديب أباه وتزوج أمه ، ثم تصف النزاع الذى قام بين أبناء أوديب من أجل عرش طيبة .

الآلهة فى عيد دينى . ونجد بروميثيوس فى مستهل المسرحية مشدوداً إلى صخرة فى جبال القوقاز شده إلهها هفستس Hephaestus بأمر زيوس حين غضب على بروميثيوس لأنه علم الآدميين فن النار ويقول هفستس :

يا ابن ثميس يا حصيف الرأى يا حكيم !
لقد كتب عليك أن تشد بالأغلال
إلى هذه الصخرة العالية التى لا يرقاها إنسان
ولا تسمع فيها صوت آدمى
أو ترى وجه أحد ممن كنت تحبهم ، وحيث تذبل زهرة جمالك
محترقة فى حر الشمس اللافح الصافى
وسيقبل الليل مزدانا بالنجوم
وتتسلى بظلاله ، فإذا طلعت الشمس
بددت بأشعتها صقيع الصباح ؛
ولكن شعورك ببلواك الحاضرة يقض مضجعك
مهما يكن ما تتعرض له من أخطار ، لأن أحد لا يمد يده
لحل وثاقك . إن هذا هو الذى تجنيه من حبك لبنى الإنسان ،
لأن زيوس شديد صارم ، ولأن الملوك المحدثين قساة غلاظ الأكباد(٤٩)

ويتحدى بروميثيوس ، وهو معلق فى الصخرة لا حول له ولا طول ، رب أولمبس ، ويعد فى زهو وكبرياء الخطوات التى نقل بها الحضارة إلى الخلائق الأولين الذين كانوا حتى ذلك الوقت :

يعيشون كالنمل الأخرق تحت الثرى فى الكهوف الخاوية التى لا تدخلها أشعة الشمس ، ولا تصل إليها دلائل على حلول الشتاء ، ولا يعطرها شذى أزهار الربيع ، ولا تملؤها فاكهة الصيف ، ولكنهم كانوا يعملون كل شىء وهم عمى البصائر لا يخضعون لقانون ، حتى علمتُهم كيف تشرق النجوم وتغرب

فى أماكن خافية على عقولهم ؛ واخترعت لهم العدد باعث الفلسفة ، وعلمتهم تركيب الحروف ، ووهبت لهم الذاكرة صانعة كل شىء ، وأم التفكير الحلو الجميل . وكنتُ أول من ذلل الحيوان لخدمة الإنسان ... وأنا دون سواى الذى ابتدعت السفن . . . وأنا الذى اخترعت كل هذه الفنون لبنى الإنسان لا أجد الآن وسيلة أنجى بها نفسى »(٤٣) .

وتحزن الأرض كلها لحزنه ، « فإذا تلاطمت أمواج البحر صرخت ، وخرج من أعماق البحار أنين حزين ، وانبعث من كهوف الموتى عويل » ؛ وترسل الأمم كلها تعازيها إلى هذا السجين السياسى ، وتأمره أن يذكر أن الألم يطوف بكل الخلائق ، « فالحزن يسير فى الأرض ، ويجلس عند قدمى المخلوقات واحداً بعد واحد » ، ولكنهم لا يفعلون شيئاً لإنقاذه . ويشير عليه « أقيانوس » بالخضوع لزيوس « لأن الذى يحكم ، يحكم بالقسوة لا بالحق » ؛ وتعجب الأقيونوسات بنات البحر ولا تدرى هل الإنسانية جديرة بأن يعذب أحد من أجلها فيصلب على هذا النحو ؛ « لقد كانت تضحيتك هذه أيها الحبيب تضحية لا جدوى منها . ألم تر الجنس البشرى ضعيفاً فى جهده ونشاطه ، يتألف من حالمين خياليين مكبلين بالأغلال ؟ »(٤٤) . ومع هذا فإن تلك البنات يعجبن به إعجاباً يحملهن على البقاء إلى جانبه حين يهدده زيوس بإلقائه إلى طرطروس Tartarus ليواجهن معه الصاعقة التى تقذف به وبهن إلى الهاوية . غير أن پروميثيوس تُمنع عنه راحة الموت لأنه من الآلهـة ومن أجل ذلك يرفع فى الخاتمة المفقودة للرواية الثلاثية من طرطروس ليشد مرة أخرى إلى صخرة جبلية ، ويرسل زيوس نسراً ينخر قلب المارد الجبار . لكن القلب ينمو بالليل بنفس السرعة التى ينخره بها النسر بالنهار ، وبهذه الطريقة يقاسى پروميثيوس العذاب مدى ثلاثة عشر جيلا من أجيال الآدميين . ثم يقتل الجبارُ الرحيمُ هرقلُ النسرَ ويُقنع زيوس بفك أغلال

بروميثيوس ، ويندم هذا على فعلته ويصطلح مع زيوس القادر على كل شيء ، ويضع فى إصبعه الخاتم الحديدى رمز الضرورة .

وفى هذه المسرحية الثلاثية القوية يقرر إسكلس موضوع المسرحيات اليونانية — وهو كفاح الإرادة البشرية ضد القدر المحتوم — ، وموضوع حياة بلاد اليونان فى القرن الخامس — وهو الصراع بين الفكر الثائر والإيمان التقليدى . والنتيجة التى يستخلصها نتيجة غير صريحة ، ولكنه يدرك قضية الثائر ويحبوها بعطفه كله ؛ ولسنا نجد حتى فى مسرحيات يوريديز مثل ما نجده هنا من النظرة الانتقادية لرب أولمپس ، وما أشبه هذه المسرحية بالفردوس المفقود يحتل فيها الملك الساقط مكان بطل القصة رغم ما يتصف به الشاعر من تقى وصلاح . والراجح أن ملتن كان كثيراً ما يذكر بروميثيوس وهو يؤلف الخطب البليغة التى ينطق بها الشيطان . وكان جوته مولعاً بهذه المسرحية ، واتخذ بروميثيوس أداة يعبر بها عن نزعة الشباب الجامح ؛ أما بيرُن فقد اتخذه نموذجا ينسج على منواله طول حياته ؛ وأعاد شلى Shelley ؛ وهو الذى كان على الدوام هدفاً لنوب الدهر ، القصة إلى الحياة فى قصيدته المشهورة بروميثيوس الطليق التى لا يخضع فيها الجبار الثائر قط . وتنطوى هذه الخرافة على عدد كبير من الاستعارات والتشبيهات : منها أن العذاب هو ثمرة شجرة المعرفة ، ومنها أن معرفة المستقبل تحطم قلب الإنسان كمدا ؛ وأن العذاب والصلب هما جزاء المخلص على الدوام ، وأن الإنسان مضطر فى آخر الأمر أن يرضى بالقيود man muss enstagen ، وأن عليه أن يحقق غايته داخل نطاق طبيعة الأشياء . وذلك لعمرى موضوع جليل ، يمكن إسكلس بفضل لغته الجزلة من أن يجعل من بروميثيوس مأساة من الطراز العظيم » . ولم نر قط أن الكفاح بين العلم والخرافة ، أو بين الاستنارة والجهل ، أو بين العبقرية والتحكم ، قد صور بأقوى مما صور به هنا ، أو سما فى الرمزية أو فى الصراحة إلى أسمى مما سما به فى هذه المأساة . ويقول شليجل

Schlegel فى هذا : « إن المآسى الأخرى التى أنتجها المؤلفون اليونان مآس عادية أما هذه فهى المأساة الحقة[٤٥] » .

ومع هذا فإن أرستيا أعظم منها — وهى بإجماع الآراء أجمل المسرحيات اليونانية على الإطلاق ، ولعلها أجمل المسرحيات فى العالم كله[٤٦] . وقد مثلت فى عام ٤٥٨ ، وأكبر الظن أن تمثيلها حدث بعد عامين من تمثيل مسرحية پروميثيوس المقيد وقبل أن يموت مؤلفهما بعامين . وموضوع المسرحية هو نشأة العنف من العنف ، والجزاء المحتوم الذى لا بد أن يؤدى إليه الكبرياء والطرف المصحوبان بالعتو والصلف . ونحن نسمى القصة خرافة ، ولكن اليونان كانوا يسمونها تاريخاً ، ولعلهم كانوا على حق فى هذه التسمية . وهذه القصة كما يرويها اثنان من كبار كتاب المسرحيات اليونان يمكن أن تسمى أطفال تانتلوس لأن هذا الملك الفريجى المستهتر الفخور بثرائه هو الذى بدأ سلسلة الجرائم الطويلة ، واستنزل غضب ربات الانتقام جزاء له على سرقة شراب الآلهة وطعامها ، وتقديم الطعام المقدس لابنه پلوپس ؛ وفى كل عصر من العصور يجمع بعض الناس من الثروة أكثر مما يليق بالإنسان ، ويستخدمونها لإفساد أبنائهم . وفى هذه القصة ترى كيف استطاع پلوپس أن يستحوذ على عرش إليس Elis بشر الوسائل ، وكيف اغتال بعدئذ شريكه فى جرمه ، وتزوج ابنة الملك الذى خدعه وقتله ، ثم رزق من هپوداميا Hippodamia بثلاثة أبناء : ثيستيز Theyestes وإيروپى Aerope وأتروس Atreus . وفسق ثيستيز بإيروپى ؛ وانتقم أتروس لأخته بأن أطعم أخاه أبنا لحمة ؛ فما كان من إجستس Aegisthus بن ثيستيز من أخته إلا أن أقسم لينتقمن من أتروس وأبنائه . وكان لأتروس ولدان هما أجممنون ومنلوس ، وتزوج أجممنون كليتمنسترا ورزق منها ابنتين هما إفجينيا وإلكترا وولدا واحداً هو أرستيز . ولما أن سكنت الريح ووقفت سفن أجممنون عند أوليس وهى فى طريقها إلى طروادة ، روعت كيتمنسترا حين ضحى أجممنون بابنته إفجينيا لكى تهب الريح ، وبينا كاد أجممنون يحاصر

طروادة أخذ إيجستس يغازل زوجته الحزينة ، فمالت له وائتمرت معه على قتل الملك . ومن هذه النقطة يبدأ إسكلس قصته .

وجاءت الأنباء إلى أرجوس بأن الحرب قد وضعت أوزارها ، ونزل أجممنون الفخور على شواطئ البلوبونيز « مسربلا بدروع من الصلب وترتعد الجيوش فرقاً إذا غضب » ، واقترب من ميسينى ، ويظهر جماعة من الكبراء أمام قصر الملك وينشدون نشيداً يعيد إلى الأذهان تضحية أجممنون بإفجينيا .

« وتسلح على مهل بما لا بد من التسلح به ، وتحركت فى صدره ريح عجيبة هزته هزا ، ريح من الأفكار السود ، نجسة ، دنسة ؛ فقام وقد امتلأ قلبه جرأة ، لأن الناس تقوى قلوبهم إذا عميت بصائرهم ؛ وهم بتنفيذ رغبته الدنيئة التى أورثته الحزن فيما بعد ؛ بل إنما هى الحزن بعينه . وهكذا تحجر قلب هذا الرجل فقتل ابنته لكى يستطيع بهذا القتل أن يثأر لنفسه من ضحكة ضحكتها امرأة وأن يعين سفائنه على السير . . .

« وألقت بقميصها الزعفرانى اللون على الأرض بقوة وغضب مكبوت لم تنطق به ؛ ونفذت فى قلب كل رجل من أولئك الرجال المحاربين القتلة سهام الرأفة التى أطلقتها الفتاة من عينيها ، وارتسمت فى عقولهم صورة وجه يحاول بقوة ما أعجبها أن يستدر الرحمة من القلوب ، وجه الفتاة الصغيرة التى كانت ترقص إلى جانب سفينة أبيها . ولم يؤثر ذلك الصوت البرىء فى قلب الأب حين انضم إلى صوته بعد أن صبت الكأس الثالثة »[٤٧] .

ويدخل رسول أجممنون ليعلن قدوم الملك . ويدرك إسكلس بخياله الرقيق ما يهتز به قلب الجندى البسيط من نشوة السرور وهو يطأ بقدمه أرض بلاده بعد غيابه الطويل ؛ فينطق الجندى بقوله : « إنى الآن مستعد للموت إذا أراد الله أن أموت » : ويصف الجندى لفرقة المرتلين أهوال الحرب وأقدارها «

والمطر الذى تنفذ مياهه إلى العظام ، والحشرات التى تضاعفت فى الشعر ، وحرارة الصيف الخانقة فى إليون ، وبرد الشتاء القارس الذى تساقطت منه الطيور جميعها موتى . وتخرج كلتيمنسترا من القصر كئيبة متهيجة الأعصاب ، ولكنها مع ذلك ذات كبرياء ، وتأمر أن تنثر فى طريق أجممنون السجف الثمينة . ويقبل الملك فى عربته الملكية ، يحف به جنده ، منتصب القامة فخوراً بما أحرزه من نصر ، ومن خلفه عربة أخرى تحمل كسندرا الجميلة السمراء ، وهى الأميرة والمتنبئة الطروادية ، جارية أجممنون ومشبعة شهوته رغم أنفها ، وهى التى تتنبأ وقلبها غاضب حاقد بأنه سوف يلقى جزاءه ، كما تتنبأ فى حزنها بموتها . وتصف كلتيمنسترا للملك بلسان زلق شوقها لعودته خلال السنين الطوال : « لقد نضبت من أجلك ينابيع دموع عينى الفياضة ، فلم تبق فيها قطرة واحدة ، ولكنك تستطيع أن ترى فيهما كيف أضناهما سهرى ، وأنا أترقب فى حزن بشائر نصرك المبطئة ، وكيف كنت أقوم مسرعة من نومى المضطرب إذا هزت البعوضة جناحها لأنى كنت أحلم بمتاعبك المضنية الطويلة ، وقد تجمعت كلها أثناء نومى القصير[٤٨] » . ويرتاب أجممنون فى إخلاصها ويلومها أشد اللوم على إسرافها فى فرش السجف المطرزة تحت سنابك خيله ، ولكنه يتبعها إلى القصر وتصحبه كسندرا مذعنة مستسلمة . وتردد فرقة المرتلين بصوت منخفض فى خلال فترة الراحة الطويلة أغنية تنذر بشر مستطير . ثم تنبعث من الداخل صرخة كان كل سطر من أسطر المأساة يهيئ الآذان لسماعها ، صرخة أجممنون حين يغتاله إيجستس وكلتيمنسترا . وتفتح الأبواب ، وتظهر كلتيمنسترا والبلطة فى يدها والدم يلوث جبهتها ، وقد وقفت منتصرة فوق جثتى كسندرا والملك ، وترتل الفرقة خاتمة المسرحية :

« ألا ليت الله يمن على بأن يعاجلنى الموت فجاءة دون ألم أشد ، ومن غير

انتظار مؤلم طويل ، فأقضى نحبي وأنام النوم الأبدى الذى لا صحوة منه .
ليت الله يمن على بهذا بعد أن لاقى الردى من كان يرعانى حبه[٤٩] » .

والمسرحية الثانية من هذه الثلاث المسرحيات المجتمعة هى الكتفورى Choephoroe أو حاملات قربان الخمر . واسمها مشتق من جماعة النساء اللاتى يأتين بالقرابين إلى قبر الملك . وكانت كلتيمنسترا قد أرسلت أرستيز ابنها الصغير ليربىَ فى فوسيس Pyocis القاصية عساه أن ينسى مقتل أبيه ، ولكن شيوخ تلك الجزيرة يعلمونه قانون الثأر القديم : « إن نقطة الدم المراقة تتطلب دماً جديداً » ، وكانت الدولة فى تلك الأيام المظلمة تترك عقاب القتل لأولياء القتيل ، وكان الناس يعتقدون أن روحه لا تجد الراحة حتى يثأر له . واستحوذت فكرة الانتقام على أرستيز وأقضت مضجعه ، وكانت توحى إليه أن يقتل أمه وإيجستس . وتحقيقاً لهذا الغرض يأتى سراً إلى أرجوس مع رفيقه پيلديز Pylodes ، ويبحث عن قبر أبيه ، ويضع عليه خصلة من شعره . ويسمع الشابان وقع أقدام ساكبى قربان الخمر على القبر فيبتعدان عنه ويصغيان فى ذهول إلى إلكترا أخت أرستيز الحزينة وقد أقبلتْ مع جماعة من النساء ، ووقفت عند القبر ، وأخذت تناجى روح أجممنون وتدعوه لأن يثير أرستيز فيأخذ بثأر أبيه . وهنا يكشف أرستيز عن نفسه ، فتصب من قلبها المثقل بالهموم فى عقله الساذج أن عليه أن يقتل أمه ، ويذهب الشابان إلى قصر الملك فى زى تاجرين ؛ وترحب بهما كلتيمنسترا وتكرمهما فيرق لها قلباهما ، ولكن أرستيز يخبرها بقوله إن الغلام الذى أرسلته إلى فوسيس قد مات ، ويستولى عليه الفزع حين يرى البهجة بادية فى حزنها . وتستدعى إيجستس يستمع معها إلى أن الفتى الذى يخشيان انتقامه قد قضى نحبه ، فيقتله أرستيز ويدفع أمه إلى القصر ، ثم يخرج بعد هنيهة وقد جن جنونه أو كاد لشعوره بأنه قتل أمه ويقول :

« وقبل أن يذهب عقلى أعلن فى هذا المكان إلى كل من يحبنى ، وأعترف أنى قتلت أمى[٥٠] » .

وفى المسرحية الثالثة نرى الشاعر يصور أرستيز تطارده ربات الانتقام المكلفة بعقاب المجرمين ، وتشتق المسرحية اسمها من اسم هذه الإلهات الملطّف « اليومنيديات Eumenides » أى « الراجيات الخير » . ويصبح أرستيز طريداً مهدر الدم ، يتجنبه سائر الناس ؛ تتعقبه ربات الانتقام أينما ذهب ، وتحوم حوله فى صورة أشباح سود تنادى بسفك دمه . ويلقى الفتى بنفسه فوق مذبح أبلو فى دلفى فيهدئ الإله روعه ، ولكن شبح كلتيمنسترا يقوم من تحت الثرى ويوعز إلى ربات الانتقام ألا تتوانى عن تعذيب ولدها . ويسافر أرستيز إلى أثينة ويخر راكعاً أمام ضريح الإلهة أثينا ويتوسل إليها أن تنجيه . وتسمع أثينا نداءه وتصفه بالذى « كمله العذاب » . وتحتج ربات الانتقام عليها فتدعوهن أن يعرضن قصة أرستيز على مجلس الأريجس ؛ ويمثل المشهد الأخير هذه المحاكمة العجيبة التى ترمز إلى استبدال حكم القانون بالقصاص وسفك الدماء . وتتولى أثينا ربة المدينة رياسة المجلس ، وتعرض ربات الانتقام حجتهن فى طلب الانتقام من أرستيز ، ويدافع عنه أبلو . وتنقسم المحكمة على نفسها وتتساوى الأصوات ، وترجح أثينا رئيسة المجلس الجانب الذى يريد تبرئة أرستيز ، وتعلن براءته ، وتقرر من ذلك الوقت رسمياً أن مجلس الأريجس هو المحكمة العليا فى أتكا ، وأن حكمه السريع على القاتل سيطهر البلاد من المنازعات ، وأن حكمته ستهدى الدولة إلى طريق النجاة مما يحيط بالشعب من أخطار . وتهدئ الإلهة بألفاظها العذبة ثائرة ربات الانتقام ، وتكسب قلوبهن ، وتقول زعيمتهن إن « نظاماً جديداً قد ولد فى ذلك اليوم » .

وتعد الأرستيا أروع آيات الأدب اليونانى بعد الإلياذة والأوديسة ، ففيها تظهر سعة الإدراك ، وَوَحدة التفكير والتنفيذ ، وقوة الترقى المسرحى ، والقدرة

على فهم أخلاق الناس ، وروعة الأسلوب وهى مميزات لا نراها مجتمعة مرة أخرى إلا فى شيكسپير ، والمسرحية الثلاثية محبوكة حبكاً قوياً كأن أجزاءها ثلاثة فصول فى مسرحية حديثة ، فكل جزء منها يمهد للجزء الذى يليه ويستدعيه فى تتابع منطقى محتوم لا مفر منه ، وكلما أعقبت إحدى مسرحيات المجموعة المسرحية التى قبلها تزداد رهبة الموضوع ، ويبدأ الإنسان يدرك كيف كانت هذه القصة تثير أحاسيس اليونان . ولسنا ننكر أن الرواية مثقلة بالكلام الكثير الذى لا يبرره مقتل أربعة أشخاص ، وأن ما فيها من أغان كثيراً ما يكون غامضاً عسير الفهم ، وأن ما فى هذه الأغانى من تشبيهات واستعارات قد بولغ فيه كثيراً ، وأن لغتها فى بعض الأحيان ثقيلة خشنة متكلفة . لكن هذه الأغانى مع ذلك لا يفوقها شىء من نوعها ، فهى مليئة بالعظمة والحنو ، بليغة فيما تدعو إليه من دين جديد هو دين العفو والمغفرة ، ومن فضائل النظام الساسى الذى كان يؤذن بالزوال .

ذلك أن الأرستيا تبلغ من التحفظ ما تبلغه پروميثيوس من التطرف وإن لم يكن بينهما إلا فترة من الزمان لا تزيد على سنتين . لقد جرد إفيلتيز الأريپجس من اختصاصه فى عام ٤٦٢ ، وفى عام ٤٦١ قتل ، وفى عام ٤٥٨ عرض إسكلس فى الأرستيا دفاعاً عن هذا المجلس قال فيه إنه أحكم هيئة فى حكومة أثينة . وكان الشاعر فى ذلك الوقت قد طال أجله وضرسته السنون ، وكان فى وسعه أن يفهم الشيوخ أكثر مما يفهم الشبان ، وكان مثل أرسطوفان يتوق لأن يتحلى بفضائل رجال مرثون . ويريد أثنيوس منا أن نعتقد أنه كان سكيراً[٥١] ولكننا نراه فى الأرستيا رجلا متزمتاً يعظ الناس من فوق المسرح ، ويحذرهم من الخطيئة وما يتبعها من عقاب ، ويبين لهم ما يعقب الألم من حكمة ، ويشرح قانون العتو والانتقام ، وهو مبدأ آخر من مبادئ الخطيئة الأولى ، ويقول إن كل عمل غير صالح سينكشف يوماً ما ويعاقب مقترفه فى إحدى حيواته : وبهذا حاول التفكير

اليونانى أن يوفق بين الشر والله ، فيقول إن العذاب كله ناشئ من الخطيئة، ولو كانت خطيئة جيل من الأجيال البائدة . ولم يكن مؤلف بروميثيوس تقيا ساذجا ، ودليلنا على ذلك أن فى مسرحياته ، ومنها الأرستيا ، كثيراً من العبارات الدالة على الإلحاد ، وقد اتهم بالكشف عن أسرار الطقوس الدينية ولم ينجه إلا شفاعة أخيه أمينياس الذى كشف عما أصيب به من جروح فى سلاميس[٥٣] . ولكن إسكلس كان يعتقد واثقاً أن الأخلاق الصالحة لا بد لها أن تعتمد على قوى غير قوى البشر لكى تصمد لقوة الغرائز المضرة بالهيئة الاجتماعية ، وكان يرجو :

« أن يكون هناك واحد يستمع إلى الناس من عرشه الأعلى ، بان أوزيوس أو أپلو ، مطلع على الخلق ، يعاقب على خرق القانون بالغضب ويتعقب من خرقه ، وهو يقصد بهذا « تعذيب الضمير والجزاء الحق »

ومن أجل هذا تراه يجل الدين ويحاول أن يسمو عن الشرك ، ويفكر فى التوحيد .

« أى زيوس ، زيوس أينما يكون ، إذا كان يحب أن يسمع هذا الاسم فسوف أدعوه به . أنقب فى البر والبحر والهواء ، فلا أجد فى مكان ما ملجأ إلا إليه وحده ، إذا نبذ عقلى ، قبل موته ، عبء هذا الغرور[٥٤] » .

وهو يرى أن زيوس هو طبيعة الأشياء مجسدة ، وهو قانون العالم أو علته ، وأن « القانون الذى هو القدر والأب الذى يدرك كل شىء يلتقيان هنا ويصبحان شيئاً واحداً[٥٥] » .

وربما كانت هذه الأبيات الختامية آخر ما نطق به من الشعر . ويعود بعد عامين من إخراج أرستيا إلى صقلية . ويعتقد البعض أن النظارة ، وهم فى العادة أكثر تطرفاً من القضاة ، لم تعجبهم هذه المسرحية الثلاثية ، ولكن يصعب التوفيق بين هذا الاعتقاد وبين ما قرره الأثينيون بعد بضع سنين ،

وعلى خلاف العادة ، من إعادة تمثيل مسرحياته فى ملهى ديونيشيس . وقد أقبل على هذا كثيرون وظل إسكلس ينال الجوائز بعد وفاته . وبينا كان هذا يحدث إذ قتله نسر فى صقلية ، على ما تقول إحدى القصص القديمة ، بأن ألقى سلحفاة على رأسه الأصلع لأنه حسبه حجراً[٥٦] . وفيها دفن إسكلس ونقش على شاهد قبره تلك العبارة التى كتبها بنفسه والتى يدهشنا أنها لم تذكر شيئاً عن مسرحياته ، والتى يفخر فيها بندوب جراحه .

تحت هذا الحجر يرقد إسكلس ، الذى تحدثنا عن بسالته أيكة مرثون أو ملك الفرس ذو الشعر الطويل الذى يعرفه حق المعرفة .

الفصل الرابع

سفكليز

في عام ٤٦٨ انتزع الجائزة الأولى للمأساة من إسكلس قادم حديث في سن السابعة والعشرين يسمى سفكليز (سوفكل) أي العاقل المكرم: وكان سفكليز هذا أسعد الناس حظا ويكاد أن يكون أشدهم تشاؤماً. وكان موطنه الأصلي ضاحية كولونس إحدى ضواحي أثينة، وكان ابن صانع سيوف، ومن أجل هذا فإن الحرب الفارسية والبلوبونيزية التي أفقرت الأثينيين كلهم تقريباً جاءت لهذا الكاتب المسرحي بثروة طائلة[٥٧]. وكان فضلا عن ثرائه رجلا عبقرياً وسيما جيد الصحة، نال جائزتي المصارعة والموسيقى — فجمع بذلك بين كفايتين لو شهدهما أفلاطون لاغتبط أشد الاغتباط بوجودهما في رجل واحد. وقد أمكنته مهارته في لعب الكرة وفي العزف على القيثارة من أن يقيم حفلات عامة في الفنين؛ وكان هو الذي اختارته المدينة بعد واقعة سلاميس ليقود شبان أثينة العراة في رقصة النصر ونشيده[٥٨]. وقد ظل محتفظا ببهاء طلعته إلى أواخر أيامه، ويظهره تمثاله المحفوظ في متحف لاتران **Lateran** شيخاً ملتحياً بديناً ولكنه قوي طويل القامة. وقد نشأ في أسعد عهود أثينة، وكان صديقاً لبركليز وشغل في عهده أعلى مناصب الدولة؛ فكان في عام ٤٤٣ أمين بيت المال الإمبراطوري؛ وفي عام ٤٤٠ كان أحد القواد الذين تولوا قيادة قوات أثينة في الحملة التي سيرها بركليز على ساموس، وإن كان من واجبنا أن نضيف إلى هذا أن بركليز كان معجب بشعره أكثر من إعجابه بخططه الحربية. وعين بعد الكارثة التي حلت بأثينة في سرقوصة عضواً في لجنة الأمن العام[٥٩]، وانتزع

بحكم منصبه هذا على عودة الدستور الأبجركى فى عام ٤١١ . وكان الشعب يعجب بأخلاقه أكثر من إعجابه بسياسته ، فقد كان ظريفا ، لبقا ، متواضعا ، محبا للهو ، وهب من قوة الجاذبية ما يكفر عن جميع أخطائه . وكان يحب المال(٦٠) والغلمان(٦١) ، حتى إذا ما بلغ سن الشيخوخة تحول حبه هذا نحو السرارى(٦٢) ؛ وكان شديد الصلاح ، وقد شغل مراراً منصب الكاهن(٦٣) .

وكتب سفكليز ١١٣ مسرحية ؛ لم يبق منها إلا سبع لا نعرف الترتيب الذى خرجت به . وقد نال الجائزة الأولى فى الحفلات الديونيشية ثمانى عشرة مرة ، ونالها مرتين فى الحفلات اللينيائية Lenaean ، وحصل على أولى جوائزه فى سن الخامسة والعشرين وعلى آخرها وهو فى الخامسة والثمانين ، وظل يسيطر على المسرح الأثينى ثلاثين عاما ، وكان له عليه من السلطان أكثر مما كان لمعاصره پركليز على الحكومة الأثينية . وهو الذى زاد عدد الممثلين إلى ثلاثة ، وظل يقوم ببعض الأدوار حتى فقد صوته . وقد غير نظام المسرحية الثلاثية الذى كان يتبعه إسكلس وفضل أن يدخل المباريات بثلاث مسرحيات مستقلة كل منها عن الأخرى (وحذا حذوه يورپديز من بعده) .

وكان إسكلس مولعا بالموضوعات الكونية التى تطغى على أشخاص مسرحياته ، أما سفكليز فكان مولعا بالأخلاق ، ويكاد أن يكون حديث النزعة فى إدراكه للآثار النفسانية . ومسرحية « المرأة التراقينية » فى ظاهرها مسرحيـــة غنائية عاطفية ؛ وخلاصتها : أن ديانيرا Deianeira تتملكها الغيرة من حب زوجها هرقل لأيولا Iola فتبعث إليه على غير علم منها بثوب مسمم يقضى عليه فتقتل هى نفسها . وليس الذى يعنى به سفكليز فى هذه القصة هو العقاب الذى يحل بهرقل — أى العقاب الذى كان يبدو لإسكلس أنه أهم ما فى المسرحية — وليس هو عاطفة الحب القوية نفسها ، — وهى التى كانت تبدو أهم ما فيها فى نظر يورپديز — بل الذى يعنى به هو سيكولوجية الغيرة . وفى مسرحية

أجاكس لا يعنى المؤلف بأعمال القوة التى يقوم بها بطل المسرحية ، بل إن الذى يعنى به هو دراسة رجل ذهب عقله . ولا نكاد نرى فى فلكتيتس حادثة ما ، بل الذى نراه هو تحليل سافر للسذاجة التى أوذيت وللخيانة الدبلوماسية . والقصة فى مسرحية إلكترا قليلة الشأن قديمة ، ولقد كان إسكلس يفتتن بما تثيره القصة من مشاكل أخلاقية ، أما سفكليز فيكاد يغفل هذه المشاكل فى حرصه على دراسة كراهية الفتاة لأمها دراسة تحليلية نفسانية لا أثر للعاطفة أو للشفقة فيها . وقد اشتق من اسم هذه المسرحية اسم لنوع من الاضطراب العصبى كان موضوع البحث فى يوم من الأيام ، كما اشتق من مسرحية أوديب الملك اسم لنوع آخر من هذا الاضطراب .

وأشهر المسرحيات اليونانية بأجمعها مسرحية أوديب تيرانس ، والفصل الأول من فصولها قوى الأثر : ترى فيه خليطاً من الرجال ، والنساء ، والغلمان ، والبنات ، والأطفال جالسين أمام قصر الملك فى طيبة يحملون أغصان الغار والزيتون رمزاً لأنهم جاءوا راجين متوسلين . ذلك أن وباء قد اجتاح المدينة فاجتمع الشعب يطلب إلى الملك أوديب أن يقرب للآلهة قرباناً يسترضيها به . وتعلن إحدى النبوءات أن الطاعون سيذهب عن طيبة إذا خرج القاتل غير المعروف الذى اغتال ملكها السابق . ويلعن أوديب هذا القاتل أياً كان لعنة شديدة ، لأن جريمته قد سببت هذا الشقاء كله للمدينة ، وبداية المسرحية على هذا النحو خير مثل لتلك الطريقة التى يشير بها هوارس طريقة الاندفاع فى وسط الأشياء in mediias res أى مفاجأة النظارة بالمشكلة أولا على أن يأتى شرحها فيما بعد . لكن النظارة فى هذه المسرحية كانوا يعرفون مجرى الحوادث بطبيعة الحال لأن قصة ليوس Laius وأوديب وأبى الهول كانت جزءاً من القصص الشعبى اليونانى . وتقول الرواية المأثورة إن لعنة قد حلت بليوس وأبنائه لأنه أدخل إلى ملاس رذيلة غير طبيعية[٦٤] ، وكانت نتائج هذه الخطيئة التى أهلكت الناس

جيلا بعد جيل موضوعاً شائعاً للمآسى اليونانية ، وقد قال الوحى إن ليوس وزوجته جكستا Jocasta سيرزقان ولداً يقتل أباه ويتزوج أمه ، وكانت نتيجة هذه النبوءة أن وجد فى العالم للمرة الأولى زوجان يريدان أن يكون أول أبنائهما بنتاً ؛ ولكنهما رزقا ولداً ، وأرادا ألا تتحقق النبوءة فعرضاه للموت على أحد التلال ، حيث وجده راع وسماه أوديپ لتورم قدميه ، وأهداه إلى ملك كورنثة وملكتها فتبنياه وربياه . ولما كبر أوديپ عرف من مهبط الوحى أيضاً أنه قد كتب عليه أن يقتل أباه ويتزوج أمه . واعتقد أن ملك كورنثة وملكتها هما أبوه وأمه ، ففر من المدينة واتخذ طريقه إلى طيبة . والتقى فى الطريق بشيخ طاعن فى السن فتشاجر معه وقتله وهو لا يعرف أن هذا الشيخ أبوه . ولما اقترب من طيبة التقى بأبى الهول ، وهو مخلوق له وجه امرأة ، وذنب أسد ، وجناحا طائر . وقد سأل أبو الهول أوديب أن يجيب عن ذلك اللغز المشهور : « ما قولك فى مخلوق ذى أربع أقدام ، وثلاث أقدام ، وقدمين ؟ » . وكان أبو الهول يقتل كل من لا يعرف الجواب الصحيح عن هذا السؤال ؛ واستولى الهلع على أهل طيبة واشتدت رغبتهم فى تطهير طريق مدينتهم من هذا المخلوق المهول ، فنذروا أن يكون ملكهم الثانى هو الرجل الذى يحل هذا اللغز ، وذلك لأن أبا الهول قد قرر أن ينتحر إذا عرف إنسان الجواب الصحيح . وأجابه أوديب بقوله : « هو الإنسان ، لأن الطفل الرضيع يحبو أولا على أربع أقدام ، فإذا كبر مشى على قدمين ، وإذا هرم استعان بعصا » . وكانت إجابة عرجاء ، ولكن أبا الهول رضى بها ووفى بوعده فقتل نفسه . ورحب الطيبيون بأوديپ وعدوه منقذاً لهم ، ولما لم يعد ليوس إلى المدينة اختاروا هذا القادم الجديد ملكاً عليهم . واتبع أوديپ العادة المألوفة فى المدينة فتزوج الملكة ورزق منها أربعة أبناء : أنتجونى ، وپولينيسز Polynices ، وإتيكليز Eteocles ، وازمينى Ismene »

وفى المنظر الثانى فى مسرحية سفكليز — وهو أقوى منظر فى المسرحيات

اليونانية بأجمعها — يأمر أوديب كاهناً من كبار الكهنة بأن يكشف إذا استطاع عمن قتل ليوس فيقول إن القاتل هو أوديب نفسه . وليس فى الفجائع كلها فجيعة أشد وقعاً أو أعظم هولا من إدراك الملك على الرغم منه أنه هو قاتل أبيه وزوج أمه . وتأبى جوكستا أن تصدق هذا النبأ وتقول إنه حلم فرويدى Freudian (*) ، وتؤكد لأوديب « أن كثيرين من الناس حلموا أنهم ضاجعوا أمهاتهم ؛ ولكن الذى يرى أن هذه أضغاث أحلام يعيش طول حياته مستريح البال[٦٥] » . ثم تعرف الحقيقة كاملة فتشنق نفسها ، ويجن أوديب من شدة الندم فيفقأ عينيه ويغادر طيبة منفياً عنها ، وليس معه من يعينه فى منفاه غير أنتجونى .

وفى مسرحية أوديب فى كولونس(**) وهى الجزء الثانى من مسرحية ثلاثية غير مقصودة ، نرى الملك السابق طريداً ، أشيب الشعر ، متكئاً على ذراع ابنته يطوف بالمدن يستجدى الناس الخبز ، ويصل فى طوافه إلى كولونس الظليلة ، وينتهز سفكليز هذه الفرصة فينشد لقريته التى ولد فيها ، ولزيتونها ، أغنية من أحسن الأبيات اليونانية لا تستطاع ترجمتها ترجمة تظهر جمالها يقول فيها :

« أيها الغريب ، إنك تنزل الآن فى هذه الأرض ، أرض الجهاد والفرسان ؛ تلك أرض لا مثلها أرض سواها ؛ ها هى ذى كولونس البيضاء تتلألأ . كم من مرة غنى العندليب بصوته الشجى وهو عائد إلى عشه تخفيه الأيك الخضر ، يروى قصته الحلوة الحزينة ... وترى النرجس فى كل يوم يرتشف رضاب الندى فيتفتح ، وتعلوه أول عناقيد من التيجان البيض !

(*) أى من أحلام فرويد العالم النفسانى الشهير ، ووصف الحلم بأنه « فرويدى » من عند المؤلف بطبيعة الحال . (المترجم)

(**) ثلاث مسرحيات أوديب الملك ، وأوديب فى كولونس ، وأنتيجونى تمثل كل منها بمفردها مستقلة عن الأخرى .

« وهنا تخرج الأرض عشباً عجيباً لم يتغن أحد بمثله فى جزيرة پلپس Pelops الدورية القريبة ، ولم ينبت قط فى أرض آسية البعيدة ، وهو نبات متجدد النضارة على الدوام ، يجدد نفسه ، ويتوالد بنفسه ، يلقى الرعب فى قلوب أعدائها المسلحين : فهو لا يبلغ فى غير هذه البلدة ما يبلغه فيها من جمال وازدهار ، بأوراقه الزيشية الملساء ذات الزرقة السنجابية البراقة كالفضة ، والذى يغذى البلدة بعصير زيتونه . ولن تستطيع قوة أو يد مخربة أن تخرب المدينة سواء كانت قوة الشباب الأهوج أو حكمة الشيخوخة المجربة لأن قرص زيوس السماء يرعاها هو والضياء الأزرق المنبعث من عين أثينا » .

وكانت نبوءة قد سمعت بأن أوديپ سيموت بجوار اليمنيديات ، فلما عرف أنه الآن فى أيكتهن المقدسة بكولونس أيقن هذا الشيخ الذى لم يجد فى الحياة جمالا أن الموت يحلو فى ذلك المكان . وينادى لثسيوس ملك أثينة بأبيات كأنه يخترق بها حجب الغيب ويجمع فيها القوى التى كانت تعمل على إضعاف بلاد اليونان وهى فقر التربة ، وقلة الإيمان وضعف الأخلاق والرجال :

« إن آلهة السماء وحدها هى التى لا تصل إليها الشيخوخة ولا الموت لأى سبب من الأسباب ، وكل ما عداها يعدو عليه الزمان المسيطر على كل شىء ، فتذهب قوة الأرض ، وتذبل زهرة الرجولة ، وينعدم الإيمان ، ويزدهر الإلحاد ازدهار الزهرة ، ومنذا الذى يستطيع أن يجد فى شوارع الناس المفتوحة ، أو فى مكنون حبه الخفى ريحاً تهب صادقة إلى أبد الدهر ؟(٦٧) » .

ثم يبدو كأن أوديب يسمع نداء إله من الآلهة فيودع أنتجونى وإزمينى وداعا رقيقاً ، ويسير إلى الأيكة المظلمة وليس معه إلا ثسيوس وحده .

« وسرنا قليلا ثم التفتنا فإذا الرجل قد اختفى ؛ ولم يبق إلا الملك(*) ، وقد رفع إحدى يديه ليظلل بها عينيه ؛ كما يفعل الإنسان إذا تراءت له رؤية

(*) ثسيوس .

رهيبة مروعة لا تقوى عيناه على التطلع إليها . . . وما من أحد غير ثسيوس يعرف كيف قضى نحبه . . . فلعل إنساناً أرسلته الآلهة ليهدى خطاه ، أو لعل الأرض قد أشفقت عليه ففغرت فاها وابتلعته حتى لا يصيبه ألم ؛ وهكذا اختفى الرجل ولم يخلف وراءه شيئاً نحزن لأجله — لم يترك العالم بعد أن ينهكه المرض والألم ؛ بل اختتم حياته ، إن كان قد اختتمها ، ختاماً عجيباً (٦٨) .

وفى المسرحية الثالثة فى ترتيب الحوادث ، والظاهر أنها هى أول ما كتب من المسرحيات الثلاث ، توارى أنتجونى الوفية فى قبرها . فقد سمعت أن أخويها پولينيسير وإتيكليز يتنازعان عرش المملكة ، فعادت مسرعة إلى طيبة ترجو أن توفق بينهما ، ولكنهما لا يصغيان إليها ، ويواصلان الحرب حتى يقضى عليهما ويستولى كريون Creon حليف إتكليز على العرش ، ويأمر ألا تدفن جثة پولينيسيز عقابا له على ثورته . ولكن أنتجونى تعصى هذا الأمر وتدفن جثة أخيها لأنها تعتقد ، كما يعتقد سائر اليونان ، أن روح الميت لا تفتأ تعذب ما دامت جثته لم تدفن . وفى هذا المقام تغنى فرقة المرتلين أغنية تعد من أشهر أغانى سفكليز :

« ما أكثر العجائب فى هذا العالم ، ولكن لا شىء أعجب من الإنسان ؛ فهو يشق طريقه المحفوف بالأخطار خلال المضيق ذى الماء المزبد فوق متن البحار الصاخبة ، تدفعه ريح الجنوب الهوجاء . والأرض أقدم الآلهة التى لا يعتريها نصب ولا وهن يفلحها ويقلبها سنة بعد سنة بمحراثه ونيره المعلق على رقاب جياده .

« ويصيد بفخاخه المنسوجة طيور الهواء الحمقاء ، ووحوش الغاب والفلوات ، وسمك البحار المالحة . ألا ما أشد مكره . فهو يذلل بحيله التى لا آخر لها الثور الوحشى والأيل الذى يمرح حراً فى الجبال ، ويخضع للجامه الجواد الأشعث ذا اللبد . أما الكلام وإسداء النصح العاجل والذكاء فقد عرفها كلها بنفسه ،

وعرف كيف يسقط المطر السريع وكيف تهب الريح العاتية الطليقة التى تتجمد تحت سماء الشتاء . وهو مستعد لكل ما يصادفه ، فقد عرف كيف يتحمل الوباء الوخيم ، وكيف ينجو من كل ما يصيبه ، ولكنه مع هذا كله لم يجد دواء يرد عنه الموت(٦٩) » .

ويحكم كريون أن تدفن أنتجونى حية ، ويحتج ابنها هيمون على هذا الحكم الظالم الرهيب ، فلا يفيد احتجاجه فيقسم لأبيه « إنك لن ترى وجهى بعد الآن » . وهنا لأول مرة يحدث الحب أثره فى مأساة سفكليز وينشد الشاعر لإله الحب نشيداً ظل الأقدمون يذكرونه عهداً طويلا :

« أيها الحب ، يا من لا يقوى على صدك شىء فى الكفاح ، كل الناس يخضعون إذا ألقيت عليهم نظرة من عينيك . الحب يرقد طول الليل على خد العذراء ، ويطوى الربا والقفار ، ويشق عباب البحار . أيها الحب يا من يقع الآلهة فى أسرك ، هل يقوى الآدميون على النجاة من قبضتك ؟ (٧٠) » .

ويختفى هيمون ، ويجد كريون فى البحث عنه ويأمر جنوده بأن يفتحوا الكهف الذى دفنت فيه أنتجونى ، فيجدها ميتة ، وإلى جانبها هيمون قد وطد العزم على الموت .

« ونظرنا ، وفى قبوة الكهف المظلم رأيت الفتاة مخنوقة هناك ، وقد لف حبل من التيل وعقد حول عنقها ، وإلى جانبها حبيبها ممسك بجثتها الهامدة يندب عروسه الميتة . . . فلما أن رآه الملك صرخ صرخة مروعة واتجه نحوه وهو يصيح : « أى ولدى ، ماذا فعلت بنفسك ؟ وماذا يؤلمك ؟ وأية كارثة حلت بك فسلبت عقلك ؟ أقبل يا ولدى أقبل ، إن أباك يتوسل إليك » . ولكن ابنه أحدق فيه بعينين كعينى النمر ، وبصق فى وجهه ، ثم استل سيفه ذا المقبضين دون أن ينبس ببنت شفة وضرب ؛ غير أن أباه تراجع إلى الوراء فأخطأته الضربة . وغضب الغلام الداعر البائس من نفسه ، فسقط على حد سيفه ،

فتقلد السيف فى جنبه، وقبل أن تخمد أنفاسه أمسك الفتاة بذراعيه المسترخيتين ، وقد اصطبغ خدها المصفر بشهيقه . وهكذا قضى الاثنان نحبهما ، وأصبحا جثتين هامدتين وحَّد بينهما الموت(٧١) .

وأهم ما تمتاز به هذه المسرحيات صفتان لم يذهب بروعتهما مر الزمان ولا عبث المترجمين وهما جمال الأسلوب وسمو الفن . ففيها النموذج الحق لعبارات العصر الذهبي المصقولة ، الهادئة ، الرصينة ، القوية فى غير إسراف ، الجزلة الرشيقة ، التى تجمع بين قوة فدياس ورقة برلستيليز . ولا يقل السياق نفسه سمواً عن الألفاظ ، فكل سطر قد وضع فى الموضع اللائق به ، وكل سطر يستحوذ على فكرك ويسير بك إلى تلك اللحظة التى تصل فيها الحوادث إلى غايتها ومغزاها . وقد بنيت كل مسرحية من هذه المسرحيات كما تبنى المعابد يصقل كل جزء منها على حدة ، ولكنه يوضع فى مكانه اللائق به من البناء كله ، إذا استثنينا فيها عيباً واحداً هو أن المؤلف فى مسرحية فلكتيتس يقبل فى غير جهد فكرة إنزال الآلهة بالآلات (وهى فكاهة من فكاهات يوربديز) ويعدها حلا جدياً للعقدة المستعصية على الحل . وأهم النقاط البارزة فى حبكة هذه المسرحيات ، وفى مسرحيات إسكلس ، هى أولا انتقام لغطرسة شديدة وسفاهة فى أحد الفصول (كلعنة أوديب للقاتل المجهول) ، ثم معرفة فجائية لحقيقة كانت قبل غامضة ، ثم تعثر الحظ ، ثم الانتقام الإلهى والعقاب المحتوم . وكان أرسطاطاليس يتخذ « أوديب الملك » مثلا للمسرحية الكاملة البناء الخالية ن النقص ، وإن مسرحيتى أوديب الأخريين لتوضحان أتم الوضـــوح تعريف أرسطو للمسرحية ، وقوله إنها تطهير للرحمة والفزع بعرضهما عرضاً موضوعياً . والشخصيات هنا مصورة تصويراً أوضح من شخصيات إسكلس وإن لم تبلغ واقعيتها مبلغ شخصيات يوربديز . وفى ذلك يقول سفكليز نفســـه : « إنى أصور الرجال كما يجب أن يكونوا ، أما يوربديز فيصورهم كما هم(٧٢) » ،

وكأنه يعنى بهذا أن التمثيل يجب أن يتجه إلى حد ما نحو المثل العليا ، وأن الفن يجب ألا يكون تصويراً شمسياً . ولكن أثر يوربيديز يظهر واضحاً فى النقاش الذى يدور فى الحوار ، وفى استغلال العواطف فى بعض الأحيان ، وشاهد ذلك أنا نرى أوديب يغفل صفاته الملكية ويحاج تيرسياس Teiresias ، ونراه حين يفقد بصره يتحسس أوجه بناته تحسساً يبعث الحسرة فى النفس ؛ أما إسكلس فلو أنه كان فى هذا الموقف نفسه لنسى البنات وأخذ يفكر فى قانون من القوانين الخالدة .

وسفكليز أيضاً فيلسوف وواعظ ، ولكن نصائحه لا تعتمد على رضاء الآلهة بالقدر الذى تعتمد به عليها نصائح إسكلس . وسبب ذلك أنه قد مسته روح السوفسطائيين ، وهو وإن كان يستمسك بأصول الدين يظهر فى مسرحياته أنه لولا أن الحظ قد واتاه لكان هو ويوربيديز سواء . ولكن حساسيته الشاعرية الشديدة تمنعه أن يتلمس المعاذير لما يصيب الناس من ضر لا يستحقونه فى أغلب الأحيان . انظر مثلا إلى قول ليلس Lyllus أمام جسم هرقل وهو يتلوى من شدة الألم :

« نحن لم نقترف ذنباً ، ولكننا نقر بأن قلوب الآلهة خالية من الرحمة ، فهم يلدون الأبناء ، ويطلبون أن يعبدوا باسم الآباء ، ولكنهم ينظرون إلى أبنائهم نظرة مليئة بالأحقاد[٧٣] » .

وهو ينطق جوكستا بالسخرية من النبوءات ، مع أن مسرحياته تدور حول هذه النبوءات نفسها وتبدو فيها واضحة ، وترى كريون يندد بالمتنبئين ويقول عنهم إنهم « طائفة لا هم لها إلا جمع المال » ، ويسأل فلكتيتس السؤال القديم « كيف نبرر تصرفات السماء إذا كنا نجد السماء ظالمة ؟[٧٤] » ويجيب سفكليز عن هـــذا السؤال إجابة تبعث الأمل فى النفس فيقول

إن النظام الأخلاقى فى العالم أدق من أن تفهمه عقولنا ، ولكنه نظام قائم بالفعل ، وستكون الغلبة فيه للحق فى آخر الأمر(٧٥) . وهو يحلو حذو إسكلس فيرى أن زيوس هو نفسه النظام الأخلاقى ، وهو يقترب من الوحدانية أكثر مما يقترب منها إسكلس نفسه . ويشبه الصالحين من الإنجليز فى عصر الملكة فكتوريا ، فتراه قوياً فى إيمانه بالأخلاق الفاضلة وإن كان غير واثق كل الثقة من دينه ، ويرى أن أرقى أنواع الحكمة أن نعرف القانون الذى هو زيوس ، المرشد الأخلاقى لهذا العالم ، وأن نتبعه متى عرفناه .

« ألا ليت قدمى الثابتتين لا تعجزان عن السير فى طريق الحق والصلاح . وليتنى أقضى حياتى مبرأ من الخطايا فى القول والفعل ، مستمسكا بتلك القوانين الأزلية التى تسمو على الدوام إلى أبراج السماء الأثيرية النقية التى نشأت فيها : ذلك أن موطنها الوحيد هو أولمبس ، ولم تكن هى وليدة حكمة البشر ؛ ومهما غفل عنها الناس فإنها مستيقظة لا تنام عيناها أبدا(٧٦) » .

ذلك قلم سفكليز ولكنه صوت إسكلس ، أو هو الإيمان يقف وقفته الأخيرة فى وجه الكفر . وكأنا نشهد فى هذا الموقف ، موقف التقى والاستسلام للقضاء ، أيوب يندم على ما فرط منه ويرضى بما كتب له ، ولكننا نلمح بين السطور شيئاً من إلهام يوربديز قبل أن يوجد يوربديز نفسه .

ويرى سفكليز ، كما يرى صولون ، أن أسعد الناس هو الذى لم يولد ، ويليه فى هذه السعادة من يموت فى طفولته . ولقد وجد أحد المتشائمين المحدثين بعض اللذة فى ترجمة الأبيات المحزنة فى النشيد الجنازى الذى أنشد عند موت أوديب ، وهى أبيات يظهر فيها الملل من العالم الناشئ من آلام الشيخوخة ، ومن حرب البلوبونيز حيث يقتتل الإخوة ويفتك بعضهم ببعض :

« أى رجل ذاك الذى يتوق إلى طول الأجل ؟ إن عينى ترى الحماقة

تكتنف كل أساليبه ، وكلما مرت بك السنون تبدلت حياتك سوءاً بعد سوء . سوف يقترب منك الحزن ، ويمتنع عن عينيك السرور .. هذا هو الجزاء الذى يناله من يطول أجلهم .

« وخير الناس فى نظرى هو الذى لم يولد(*) ؛ ويليه فى هذا من يولد ثم يموت لساعته . إن الشباب ليجىء للإنسان بالحماقات التى هى أخف وزناً من الريش ، ثم تجتمع الشرور كلها فلا ينقصها شر : من غضب ، وحسد ، وشقاق ، ونزاع ، وسيف يتعقب الحياة . وتختتم هذه المتاعب كلها باقتراب الشيخوخة التى توهن الجسم فيفر من الأصدقاء والأقارب ، الشيخوخة التى يتضاعف فيها كل ما تحت قبة السماء من أحزان .

« والذى يتحرر من الكدح ، تنعقد أواصر الصداقة بينه وبين غيره من الناس ، ولا تصحبه عروس ولا أهل عروس ، ولا يسمع صوت الدفوف والغناء لأن الموت يقضى على ذلك كله » .

ويعرف كل من درس حياة سفكليز أنه كان يتسلى فى شيخوخته مع حظيته ثيوريس Theoris ، وأنه رزق منها بطفل[٧٨] ، وأن أيوفون Iophon ابنه الشرعى أقام دعوى على أبيه يتهمه فيها بالسفه ، ولعل الدافع له إلى هذا خوفه أن يترك الشاعر ثروته لابنه من ثيوريس . ودافع سفكليز عن نفسه وقدم دليلا على تمتعه بكامل قواه بعض مقطوعات قرأها على المحكمة من مسرحية كان يكتبها ، ولعلها كانت مسرحية « أوديب فى كولونس » ؛ ولم يكتف القضاة بتبرئته من التهمة بل ساروا يحفون به إلى بيته[٧٩] . ومع أنه قد ولد قبل يوربديز بزمن طويل . فقد عاش حتى لبس عليه الحداد ، ثم مات فى السنة التى مات فيها هذا الكاتب سنة ٤٠٦ . ومن الخرافات الشائعة أنه لما حاصر الاسپارطيون .

(*) تذكرنا هذه العبارة والعبارة التى فى مستهل الفقرة السابقة بقول أبى العلاء المعرى : « تعب كلها الحياة » و « هذا جناه أبى على » : (المترجم)

أثينة ، تجلى ديونيشس إله التمثيل للمتحاربين وشفع لأصدقاء سفكليز ، فحصل لهم على ممر أمين ، وأمكنهم بذلك أن يدفنوه فى مقبرة آبائه فى ديسيليا Deceleia ، وأجله اليونان وكرموه كما يكرمون آلهتهم ، وكتب له الشاعر سمياس Simmias قبرية هائلة قال فيها :

تسلق بلطف أيها الحلباب إلى حيث يرقد سفكليز فى راحته الهادئة ، وأرسل غدائرك الصفراء المخضرة على قبره الرخامى ، الذى يتفتح حوله الورد الأرجوانى . ولتتدل حوله عناقيد الورد المكتنزة ، وتلتى حول الحجر أعناقها الصغيرة الجميلة ، جزاء وفاقا له على حكمته الحلوة التى هو منشؤها والتى تدعى ربات الشعر وثالوث الجمال أنها أغانيها

الفصل الخامس

يوزپديز

١ - المسرحيات

كما شق جيتو Giotto الطريق الوعر للتصوير الإيطالى فى بداية عهده، ثم أوصله بروحه الهادئة إلى كماله الفنى، وأتم ميكل أنجلو تطوره بأعماله التى صدرت عن عبقريته المعذبة؛ وكما شق باخ Bach بجهوده الجبارة الطريق الرحب إلى الموسيقى الحديثة، وأبلغها موزار ببساطتها العذبة الرخيمة إلى أرقى الدرجات، ثم أتم بتهوفن تطورها بمؤلفاته التى لا يدانيها شىء فى فخامتها وجلالها؛ كذلك شق إسكلس بشعره القوى وفلسفته الصارمة الطريق الذى سارت فيه المسرحيات اليونانية، وحدد أشكالها، ثم هذب سفكليز هذا الفن بموسيقاه المتزنة وحكمته الهادئة، وأتم يوريپديز تطوره بمؤلفاته التى تفيض بالشعور الجائش والشك القوى. لقد كان إسكلس مسرحياته واعظا لا يكاد يقل صراحة عن أنبياء بنى إسرائيل، وكان سفكليز فناناً سامياً يتشبث بإيمان مزعزع موشك على الانهيار، وكان يوريپديز شاعراً عاطفياً إبداعياً لا يستطيع أن يكتب مسرحية كاملة لأن الفلسفة شتتت قواه. وكان هؤلاء هم إشعيا وأيوب والجامعة فى كتاب اليونان المقدس.

ولد يوريبديز فى عام سلاميس، ويقول بعضهم إنه ولد فى يوم سلاميس بالذات، وأكبر الظن أن مسقط رأسه هو تلك الجزيرة التى يقال إن أبويه فرا إليها هرباً من الغزاة الميديين(٨٠). وكان أبوه رجلا من أصحاب المال والسلطان فى مدينة فيلا Phyla الأتكية، وكانت أمه تنحدر من أسرة شريفة(٨١)،

وإن كان منافسه أرسطوفان يصر على أنها كانت تدير حانوت بقال ، وتبيع الفاكهة والأزهار فى الطرقات . وقضى يوربيديز أيامه الأخيرة فى سلاميس ، مولعاً بعزلة تلالها ، وجمال مناظرها ، وزرقة بحارها ؛ وكما أراد أفلاطون أن يكون كاتباً مسرحيا فكان فيلسوفا ، كذلك أراد يوربيديز أن يكون فيلسوفاً فكان كاتباً مسرحيا . ويقول استرابون[٨٢] إنه « تلقى منهج أنكساغورس كله ، ودرس بعض الوقت على پرودكس ، وكان صديقاً حميا لسقراط ، وبلغ من صلته به أن بعض الناس يظنون أن قد كان للفيلسوف يد فى مسرحيات الشاعر[٨٣] . وكان للحركة السوفسطائية كلها أثر كبير فى تعليمه ، واستحوذت عن طريقه على المسرح الديونيشى ، فكان هو فلتير عصر الاستنارة اليونانى ، يعبد العقل ويلمح إلى هذه العبادة فى ثنايا مسرحياته التى كانت تمثل لتمجيد إليه من الآلهة تلميحاً أفسدها وكان له أسوأ الأثر فيها .

وتعزو إليه سجلات المسرح الديونيشى فضل تأليف خمس وسبعين مسرحية ، بدأت ببنات بلياس فى عام ٤٥٥ واختتمت بالباخيه **Bacchae** فى عام ٤٠٦ ، ووصلت إلينا منها ثمان عشرة كاملة وقطعات مختلفة من باقى المسرحيات(*) . ومادتها هى أساطير اليونان الأولين ، تتخللها إشارات من التشكك تبـدو أولا فى حذر ثم تظهر سافرة جريئة بين السطور . ونرى فى مسرحية أيون Ion أبا القبائل الأيونية المزعوم وقد وقع فى ورطة حرجة : فقد جاء على لسان وحى أپلو أن أباه هو أكسوثوس Xuthus ، ولكن أيون يكشف أنه ابن أپلو الذى أغوى أمه ثم خلعها على أكسوثوس ، ويسأل أيون نفسه أيمكن أن يكون الإله النبيل كاذباً ؟ وفى مسرحيتى هرقل وألسستيز **Alcestis** نرى الفتى القوى ابن

(*) ظهرت المسرحيات الكبرى بالترتيب الآتى أو ما يقرب منه : ألسستيز ٤٣٨ ، ميديا ٤٣١ ، هپوليتس ٤٢٨ ، أندرمكى ٤٠٧ ، هكيبا ، حوالى ٤٢٥ ، المرأة الطروادية ٤١٥ ، إلكترا فى طوريس حوالى ٤١٣ ، أرستيز ٤٠٨ ، إفجنيا فى أوليس ٤٠٦ ، الباخية ٤٠٦ .

زيوس وألكمينا فى صورة إنسان سكير طيب القلب ، له نهم جارجنتوا Gargantua وعقل لويس السادس عشر . وتقص مسرحية ألسستيز القصة المنفرة فتصف كيف اشترطت الآلهة نظير إطالة عمر أدميتس Admetus (ملك فيرى Pherae فى تساليا) أن يرضى إنسان ما أن يموت بدلا منه . وتعرض زوجته أن تفتديه بحياتها ، وتودعه بقصيدة من مائة بيت يستمع إليها فى صبر ونبل ، وتُحمل ألسستيز باعتقاد أنها قد ماتت ولكن هرقل يخرج من مجلس الخمر والولائم ، ويجادل الموت ، وينهره ، ويرغمه على ترك ألسستيز ، ويعيد إليها حياتها . ولا يمكن فهم المسرحية إلا على أنها محاولة خبيثة لتسخيف هذه الخرافة(*) .

وتستخدم مسرحية هيبوليتس Hippolytus هذه الطريقة عينها طريقة إقامة البرهان بنقض نقيضه ، ولكن بطريقة أظرف وأكثر دهاء . فالبطل الوسيم هنا شاب صياد يقسم لأرتميس Artemis العذراء إلهة الصيد أن يكون على الدوام وفياً لها ، وأن يتجنب النساء طول حياته ، وأن يجد أعظم لذته فى الأدغال . وتغضب أفرديتى لهذه العزوبة المهينة فتصب فى قلب فدرا Phaedra زوجة ثسيوس هياماً جنونياً بهيوليتس بن ثسيوس من أنتيوپى Antiope زوجته المحاربة . وهــذه هى أولى مآسى العشق فيما لدينا من كتابات أدبية ، وفيها نجد من بداية الأمر جميع أعراض الحب فى أعقد أزماتها وأقوى درجاتها ، وذلك حين يصد هيوليتس عن فدرا فيتحطم قلبها ، ويذوى غصنها ، وتكاد تقضى من فرط الأسى . وتصبح مربيتها فيلسوفة

(*) وقد مثلت فى عام ٤٣٨ ، مع ثلاث مسرحيات أخرى بقلم يوربديز ؛ ولعل المقصود منها أن تكون مسرحية نصف خرافية ونصف جدية ، لا مسرحية بين المأساة والملهاة . وقد أخذ براوننج Browning فى قصيدته Balaustion's Adventure هذه المسرحية على ظاهرها مدفوعا إلى هذا بسذاجته وكرم نفسه .

على غير انتظار فتأخذ فى التفكير فى الحياة بعد الموت ، وتظهر فى تفكيرها هذا من الشك فى هذه الحياة ما لا يقل عن شك هملت فيها :

« ومع هذا فحياة الإنسان كلها ألم وكدر ، وليس ثمة راحة على ظهر هذه الأرض ، وإذا كانت هناك حالة بعيدة أحب إلى الموتى من الحياة فإن يد « الظلماء » تقبض عليها وتحجبها فى ظلمات من فوقها ومن أسفل منها : ومن الناس من يرغبون فى الحياة ويتعلقون بالبقاء على هذه الأرض بهذا الشىء البراق الذى لا أعرف ماذا أسميه ، وذلك لأن الحياة الأخرى نبع مختوم مغلق ، والأعماق التى من تحتنا لم تكشف لنا ، ونحن تتقاذفنا الخرافات والأوهام إلى أبد الدهر[٨٤] » .

وتحمل المربية رسالة إلى هپوليتس تقول إن فدرا ترحب به فى فراشها ، ويرتاع هو لهذه الرسالة لأنه يعرف أن التى تدعوه إلى فراشها زوجة أبيه ، وينطلق لسانه بإحدى الفقرات التى اشتهر من أجلها يوربديز بأنه عدو النساء :

« رباه ! لم وضعت فى سبيلنا هذا الشرك البراق ، تلك النساء اللاتى يتعقبن خطانا على ظهر هذه الأرض السعيدة ؟ هل إرادتك هى التى اقتضت أن يولد الإنسان عن طريق الحب والمرأة ؟[٨٥] » .

ثم تموت فدرا ، ويجد زوجها فى يدها رسالة كتب فيها أن هپوليتس أغواها ، ويستشيط ثسيوس غضباً ، ويدعو پوسيدن أن يقتل هپوليتس ، ويحتج الشاب بأنه برىء ولكن أحداً لا يصدقه ، ويخرجه ثسيوس من البلاد . وبينا كانت عربته تمر فى سيرها بشاطئ البحر إذ يخرج من الموج أسد بحر ويطارده ، ويجفل جواداه ويقلبان العربة ويجران هپوليتس (بعد أن مزقه الجوادان) فوق الصخور حيث يموت شر ميتة . وترفع فرقة المنشدين صوتها بهذه الأبيات التى أدهشت أثينة وأزعجتها بلا ريب :

« أيتها الآلهة ، يا من أوقعته فى الشرك ، إنى أقذف فى وجهك كرهى واحتقارى » .

وفى مسرحية ميديا ينسى يوربيديز إلى حين غضبه على الآلهة ويصوغ من قصة ركاب السفينة أرجوس أقوى مسرحياته على الإطلاق . فعند ما يصل چيسن Jason إلى كلشيز ، تهيم الأميرة ميديا بحبه ، وتساعده على أخذ الجزة الذهبية ، وفى دفاعها عنه تخدع أباها وتقتل أخاها . ويقسم چيسن أن يحبها حباً أبدياً ويأخذها معه إلى أيولكس Iolcus . وهناك تدس ميديا الوحشية الطباع السم إلى الملك پلياس Pelas لكى تجلس چيسن على العرش الذى وعد به ، وإذ كانت شريعة تساليا تحرم الزواج من الأجنبيات فإن چيسن يعيش مع ميديا عيشة العاشقين بغير زواج وتلد له طفلين . ولكنه لا يلبث أن يضيق ذرعاً بشهوتها الوحشية ، ويتطلع حوله باحثاً عن زوجة شرعية ووارث لملكه ، ويعرض أن يتزوج ابنة كريون ملك كورنثة . ويوافق كريون على هذا الزواج وينفى ميديا من البلاد ؛ وتفكر ميديا فيما ارتكبته من أخطاء ، وتنطق بفقرة من أشهر فقرات يوربيديز التى يدافع فيها عن النساء :

« لم أر بين جميع الأشياء التى تنمو ويسيل منها الدم ، شيئاً تهشم كما تهشمت المرأة . إن علينا أن نقدم كل ما جمعناه من الذهب وادخرناه لهذا اليوم الوحيد ، لنبتاع به حب رجل ، ولكننا نبتاع به سيداً ليتصرف فى أجسامنا ! وهذا لعمرى أشد ما يؤلمنا فى هـــذا العمل المشين ولا نعرف بعد ذلك هل سيكون هذا السيد إنساناً خيراً أو شريراً ، وذلك هو خطر يتهددنا طوال حياتنا . . . إن بيتها لم يعلمها أحسن وسيلة تهدى بها ذلك الشىء الذى ينام بجانبها سبل السلام . وإن التى تجد بعد جهودها المضنية الطويلة وسيلة تجعله يحسب لها حسابها ، فلا ينفض عن ظهره عبأها بعنف ، تعد نفسها سعيدة . أما التى تعجز من النساء عن العثور على تلك الوسيلة فلتتمن الموت . إن زوجها إذا مل رؤية وجهها فى داخل المنزل

غادره ، وذهب إلى مكان أروح من المنزل وأحب منه إلى قلبه ؛ أما هى فقد كتب عليها البقاء حيث هى ، لا تقع عيناها إلا على نفس واحدة . ثم يقولون بعدئذ إنهم هم الذين يلبون نداء الحرب ، على حين أننا نجلس فى عقر دورنا وفى حمايتها بعيدات عن كل خطر ! إن هذا لسخرية وبهتان ! ولأن أنزل ثلاث مرات إلى ميدان القتال ، أخوض المعارك وترسى فى يدى لأحب إلى من أن أحمل طفلاً واحداً (٨٦) .

ثم تتبع هذا قصة انتقامها الرهيب ، فترسل إلى منافستها مجموعة من الأثواب الثمينة متظاهرة بأنها تريد بذلك أن تسترضيها . وتلبس الأميرة الكورنثية أحد هذه الأثواب فتحترق بالنار ؛ ويحاول كريون أن ينجيها فيحترق هو أيضاً ويموت . وتقتل ميديا أطفالها ، وتخرج بجثثهم على مرأى من چيسن ، وتنشد فرقة المرتلين هذه الخاتمة الفلسفية :

« لزيوس فى السماء ردهات ملأى بالكنوز يفرق منها على بنى الإنسان مصائرهم القريبة من خير وشر لم يكونوا يرجونه أو يرهبونه . فأما الغاية التى كانوا يتطلعون إليها فلا ينالونها ؛ فهناك طريق لم يفكر أحد فيه ! ذلك ما حدث فى هذا المكان » .

وتدور سائر المسرحيات فى الغالب حول قصة طروادة . ففى مسرحية هلن نرى القصة كما رواها استسكورس Stesichorus وهيرودوت (٨٧) ؛ فملكة اسپارطة حسب هذه الرواية لا تفر مع باريس إلى طروادة ، بل تنتقل رغم إرادتها إلى مصر ، حيث تنتظر مجىء زوجها دون أن يعتدى أحد على عفافها ؛ ويقول يوريپديز إن بلاد اليونان كلها قد خدعتها خرافة هلن فى طروادة . وفى مسرحية إفجينيا فى أوليس يغمر يوريپديز قصة تضحية أجممنون بفيض من العواطف لم تعهد من قبل فى المسرحيات اليونانية ، وبطائفة من أشنع الجرائم التى دفع الناس إليها دينهم القديم . وكان إسكلاس وسفكليز قد كتبا أيضاً فى هذا الموضوع ، ولكن

مسرحياتهما لم تلبث أن نسيت وطغى عليها سناً من المسرحيات الحديثة : وفى هذه المسرحية ينظر يوربيديز إلى قدوم كليتمنسترا وابنتها نظرة عطف وحنان ، ويظهر أرستيز « وهو لا يزال بعد طفلا رضيعاً لا يستطيع الكلام » ليشهد خرافة القتل التى تقرر مصيره فيما بعد . وترى الفتاة يجللها الخفر وتغمرها السعادة وهى تهرول لتحيي الملك :

إفچينيا : ما أشد شوقى يا أبتاه إلى أن أرتمى على صدرك بعد هذا الغياب الطويل ؟ وأرجو ألا يغضبك أننى قد سبقت غيرى إليك — لأنى مشتاقة إلى طلعتك . . . . ولأنك يسرك كل السرور أن ترانى . ولكن لم أراك مهموماً محزوناً ؟

أجممنون : إن الملوك والقادة كثيرو الهموم .

إفچينيا : لتكن هذه الساعة لى — هذه الساعة لا أكثر . لا تستسلم للهموم ! .

أجممنون : سأكون كلى لك ، فلا تتشتتى يا أفكارى . . .

إفچينيا : ومع هذا — ومع هذا — فإنى أرى الدموع تترقرق فى عينيك !

أجممنون : نعم ، لأن الغياب فى المستقبل سيطول .

إفچينيا : لست أعرف ، لست أعرف ، يا أبتى العزيز ماذا تقصد ؟

أجممنون : إن فطنتك الرشيدة تضاعف أحزانى .

إفچينيا : سأنطق إذن بالسخف لأدخل السرور على قلبك(٨٨) .

وحين يقبل أخيل تتبين أنه لا يعرف شيئاً عن زواجهما المزعوم ، بل تعرف بدل هذا أن الجيش قد طال انتظاره للتضحية بها ، فتلقى بنفسها على قدمى أجممنون وتتوسل إليه أن يبقى على حياتها :

لقد كنت أولى أبنائك — وأولى من قال لك يا أبت ، وأولى من جلس على ركبتيك من أطفالك ، وتبادلت وإياك الحديث فى مسرات الحياة . وهذا

ما كنت تقوله لى: « أى بنيتى العزيزة ، هل يقدر لى أن أن أراك ممتعة سعيدة فى بيت سيدك وزوجك الخليق بك ؟ » واحتضنت لحيتك التى أمسك بها الآن متوسلة ، وأجبتك بقولى : « وأنا الأخرى سأرحب بك يا أبت حين يبيض شعرك من طول السنين ، فى داخل بيتى الحلو الجميل ، وسأجزيك على حبك إعزازاً وتكريماً » . هذا ما كنا نتحدث به ، أذكره جيداً « ولكنى أراك تنساه وتريد أن تقضى على حياتى[٨٩] » .

وتندد كليتمنسترا باستسلام أجممنون لهذه الطقوس الوحشية ، وتتوعده بعبارات تحتوى على كثير من المآسى — : « لا تضطرنى إلى الغدر بك » ، وتشجع أخيل على ما يبذله من الجهد لإنقاذ الفتاة ، ولكن إفجينيا تغير رأيها وتأبى أن تهرب :

استمعى يا أماه إلى ما خطر ببالى وأنا أقلب الفكر فى أمرى :

لقد اعتزمت أن أموت ، ويسرنى أن أموت هذه الميتة المجيدة — وأن أبعد عنى جميع الأفكار الدنيئة ... إن هلاس العظيمة كلها تتطلع إلى ، وما من أحد غيرى يستطيع أن يمد إليها يداً ويسدى إليها تلك النعم : فتسير سفنها ، وتهزم فريجيا عدوتها ، وتنقذ بناتها من البرابرة فى أيامها المقبلة ، حتى لا يستطيع الناهبون أن يختطفوهن من بيوتهن ويقضوا بذلك على سعادتهن ، بعد أن يعاقب باريس على اعتدائه وهلن على ما جلبت به نفسها من عار : كل هذا الخير ستناله البلاد بموتى ، وسيكون اسمى مباركا محوطاً بالإجلال لأنى وهبت الحرية لهلاس[٩٠] .

وحين يقبل الجنود ليأخذوها تأمرهم بألا يمسوها بأيديهم وتسير طائعة مختارة إلى كومة وقود التضحية .

وفى مسرحية هكيبا تضع الحرب أوزارها ، ويستولى اليونان على طروادة ، ويقتسم المنتصرون الأسلاب . وترسل هكيبا زوجة بريام پوليدورس

أصغر أبنائها ومعه كنز من الذهب إلى پولمنستر Polymnestor ملك تراقيا وصديق پريام . لكن پولمنستر يطمع فى الذهب فيقتل الغلام ويلقى بجثته فى البحر ، فتقذفها الأمواج فوق ساحل إليون ، وتحمل إلى هكيبا . وفى هذه الأثناء يمنع شبح أخيل الميت الريح من أن تدفع الأسطول اليونانى إلى بلاده ، حتى يضحى له بپولكسينا Polyxena أجمل بنات پريام : ويأتى تلثبيوس Talthybius رسول اليونان إلى هكيبا ليأخذ منها الفتاة ، فيجدها ملقاة على الأرض منفوشة الشعر ذاهلة ، وقد كانت منذ قليل ملكة مكرمة ، وينشد أبياتاً من الشعر تدل على تشكك يوريپديز :

ماذا أقول يا زيوس ؟ — أأقول إنك تنظر إلى الخلق ؟ أم إلى قولنا إن هناك جيلا من الآلهة ليس إلا وهما وخداعاً كاذباً نستمسك به ولا يجدينا نفعاً وإن المصادفة دون غيرها هى التى تسيطر على جميع مصائر البشر؟[٩١] .

والفصل التالى فى المسرحية المركبة هو المرأة الطروادية . وقد مثلت هذه المسرحية الجزئية فى عام ٤١٥ ، بعد أن دمر الأثينيون ميلوس فى عام ٤٠٦ بزمن قليل ، وقبيل الحملة التى سيرت إلى صقلية للاستيلاء عليها وضمها إلى الإمبراطورية الأثينية . وكانت هذه هى اللحظة التى روع فيها يوريپديز بالمذبحة التى وقعت فى ميلوس ، وبالنزعة الاستعمارية الوحشية التى دفعت الأثينيين إلى مهاجمة سرقوصة ، فجرؤ على الجهر بدعوة حارة إلى السلم ، صور فيها ما حدث تصويراً جريئاً على أنه انتصار من وجهة نظر المغلوبين ، وكان تصويره هــــذا « أعظم تشهير بالحرب فى الأدب القديم[٩٢] » . وهو يبدأ حيث ينتهى هومر — بعد الاستيلاء على طروادة . فالطرواديون ملقون على الأرض بعد مذبحة جامعة ، ونساؤهم قد ذهب الروع بعقولهن ، وهن يخرجن من مدينتهن المخربة ليكن سبايا للغالبين . وتقبل هكيبا مع ابنتيها أندرمكى وكسندرا بعد أن ضحى بحياة پولكسينا ، ويأتى تلثيبيوس ليأخذ كسندرا إلى خيمة أجممنون . وتسقط هكيبا على الأرض

من فرط الحزن ، وتحاول أندرمكي أن تواسيها ، ولكنها هي الأخرى يغلب عليها الجزع حين تضم الأمير الصغير أستياناكس Astyanax إلى صدرها وتذكر أباه الميت .

أندرمكي . . . ولقد شددت وتر قوسي من زمن بعيد وصوبت سهمي نحو حسن سمعتي ، وأدركت أن سهمي قد أصاب هدفه ، ومن أجل هذا فأنا بعيدة كل البعد عن السلام . لقد أحببت من أجل هكتور كل ما يثني عليه الرجال فينا ، وبذلت جهدي في الوصول إليه . لقد عرفت أن التجوال في خارج البلاد يسئ إلى سمعة المرأة سواء أصابها شر في هذا التجوال أو عادت منه بريئة طاهرة ، ومن أجل هذا قمعت في نفسي هذه الرغبة ، وكان تجوالي في حديقة بيتي ، ولم تدخل قط من باب داري ألفاظ النساء المستهترة أو أحاديثهن المرحة . وتحدثت إلى قلبي ، ولم أكن أبغي ذلك الحديث ، فسعدت به . وكثيراً ما لزمت الصمت وأسبلت العين حين كان هكتور يجيبني ، وحرصت كل الحرص على أساليب الحياة الطيبة وعرفت أين أرشد ، وأين أطيع . . .

ولقد قال الناس إن ليلة واحدة تذلل المرأة وتلقيها في أحضان الرجل . فيا للعار ، يا للعار ! أي شفتين هاتين اللتين توردان المرأة موارد المهلكة وتسمحان للغريب أن يقبلهما ؟ . إن أنثى الحيوان الأعجم ، إن المهرة ، لا تجري خالية من الهموم إذا كان رفيقها بعيداً عنها . . .

أي هكتور ! يا أحب الناس إلىّ ، لقد كنت زوجي ، وكنت كل شيء لي ، كنت أميري ، وحكيمي ، يا أشجع الشجعان ! إن رجلا ما لم يمسني أو يقترب مني من يوم أن أخذتني من دار أبي وجعلتني زوجة لك . . . وها أنت ذا قد مِتَّ وقذفت بي الحرب إلى الرق وعيش المذلة في هلاس وراء البحار الكريهة ! .

وتفكر هكيبا في يوم انتقام بعيد فتأمر أندرمكي أن ترضى بسيدها

الجديد لعله يسمح لها أن تربى استياناكاس ، حتى يستطيع فى يوم من الأيام أن يعيد بيت پريام ومجد طروادة . غير أن اليونان كانوا قد فكروا هم أيضاً فى هذا ، ويقبل تلثيبوس ليعلن أن استياناكاس لا بد أن يموت : « لقد قرروا أن يلقى ولدك من فوق سور طروادة العالى ذى الأبراج » . وينتزع الطفل من بين ذراعى أمه ، وتتشبث به أندرمكى إلى آخر لحظة وتودعه وداعاً حاراً وعقلها مشتت مضطرب :

الق الموت يا أحب الناس إلىّ وأعزهم علىّ ، بأيدى رجال قساة غلاظ الكباد ، واتركنى وحيدة فى هذا المكان ؛ لقد كان أبوك شجاعاً مقداماً ، ومن أجل هذا يقتلونك . . . ولا تجد من يرحمك ! . . . ألا أيها المخلوق الصغير الذى تتلوى بين ذراعى ، ما أزكى هذه الرائحة التى تنبعث من حول عنقك ! أيها الحبيب أعبثاً ضمك هذا الصدر وغذاك ، وهل إلى غير غاية قضيت الليالى قلقة أسهر عليك فى مرضك حتى أضنانى السهر ؟ قبلنى قبلة واحدة لن تتكرر بعد ذلك أبداً . أمدد ذراعيك وارفع نفسك حول عنقى ، قبلنى الآن وضع شفتيك فوق شفتى . . . آه أيها اليونان الظرفاء ، لقد عثرتم على نوع من العذاب لم يعرف مثله الشرق من قبل ! . . . أسرعوا خذوه ، جروه ، ألقوه من فوق الأسوار ، إن كنتم تريدون أن تلقوه من فوقها ! مزقوه أيها الوحوش ، عجلوا ! لقد خارت عزيمتى فلست أقوى على رفع يدى لأنجى طفلى من الهلاك .

ثم تأخذ فى الهذيان ، ويغشى عليها ، ويخرج بها الجند ، وحينئذ يظهر منلاوس ، ويأمر جنوده أن يأتوه بهلن ، وكان قد أقسم ليقتلنها ، وترتاح هكيبا حين تفكر أن هلن ستلقى آخر الأمر جزاءها :

أباركك يا منلوس ، أباركك إن أنت قتلتها ! ولكن حذار أن تنظر إلى وجهها لئلا تأسرك فتخر صريعاً !

وتدخل هلن ، لم يمسسها أحد بسوء . ولا تخشى أن تمس بسوء ، تزهو إذ تشعر بأنها جميلة .

هكيبا : هل أتيت الآن مزدانة الصدر والجبين ، وهل تتنفسين مع سيدك ما يتنفسه من هواء ، أنت يا ذات القلب الخبيث ، فليطأطأ رأسك ، ولينفش شعرك ، ولتمزق أثوابك ، فلن يكون من تحتها شيء يرفع من شأنك بل سيكون من داخلها ما يجللك العار لما ارتكبت من الآثام . كن صادق العزم أيها الملك ، وضع على جبين هلاس تاج العدالة ، اقتل هذه المرأة . . .

منلوس : صه ، أيها العجوز صه . . . (ثم يلتفت إلى الجند) :

أعدوا لها سفينة كبيرة متعددة الحجرات تجوب فيها البحار . . .

هكيبا : إن من أحب مرة سيظل محباً على الدوام .

وحين تخرج هلن ويخرج منلوس يعود تلثبيوس يحمل جثة أستيانا كس القتيل !

تلثبيوس : لقد سحرت أندرمكي . . . هذه الدموع فى عيني وهي تبكي بلادها من وراء البحار . لقد نظرت إلينا ، وأخذت تتحدث إلى قبر هكتور ، وترجو أياً كان ما نفعله به ألا نغفل المراسم المرعية فى دفن هذا الطفل . . . وأمرتني أن ألفه فى أربطة الموت وأثوابه وأن أضعه بين يديك . . .

(تأخذ هكيبا الطفل) .

هكيبا : آه ! أي موت لاقيت أيها الصغير ! . . . أيتها الذراعان الرقيقتان ، إن صورتكما العزيزة لهي بعينها صورة ذراعيه . . . ويا أيتها الشفتان اللتان يشع منهما الكبرياء ، لقد انطبقتا إلى أبد الدهر ! ماذا كانت تلك الكلمات الكاذبة التي نطقت بها وأنت تحبو إلى فراشي ؟ لقد ناديتني بأسماء رقيقة وقلت لي : أي جدتي ، سأقص شعري حين تموتين وأركب على رأس القواد إلى قبرك » . لم خدعتني هذا الخداع ؟ وهأنذا ، العجوز ، الطريدة ، الثكلى ، أبكيك بالدمع الغزير ، أبكي طفولتك وأبكي ميتتك التعسة . أي إلهي ! وأبكي خطاك حين تجيء لترحب بي ، وأبكي جلوسك فى حجري ، وأبكي رقادنا معاً ! لقد ذهب كل هذا ولن يعود . وكيف يستطيع شاعر أن ينحت شاهد قبرك ليقص قصتك صادقة ؟

« هنا يثوى طفل خافه اليونان ، فقتلوه لأنهم خافوه » . نعم ، وستبارك بلاد اليونان بأجمعها القصة التى يقصها ذلك الشاهد .

ألا ما أشد غرور الإنسان ، إنه يتباهى بمسراته ولا يخاف شيئاً ، ومن حوله صروف الزمان ترقص رقص البلهاء فى الريح ! . . . (تلف الطفل فى أكفانه) .

إن أحسن الثياب الفريجية التى كنت أحتفظ بها ليوم زواجك بإحدى ملكات الشرق بعد أن جبت البلاد القاصية للبحث عنها ، إن هذه الثياب تلفك الآن إلى أبد الدهر (٩٨) . .

وفى مسرحية إلكترا نرى الموضوع القديم قد خطا خطوات إلى الأمام فأجممنون قد مات ، وأرستيز فى فوسيس ، وإلكترا قد زوجتها أمها بفلاح يخلص لها إخلاصاً ساذجاً ، ويرهب أصلها الملكى أشد رهبة ؛ ولا يؤثر فى إخلاصه لها ورهبته إياها طول تفكيرها فى أمرها وإهمالها شئونه . وبينا هى تفكر هل يعثر عليها أرستيز ويأتى إليها إذ يأمره أپلو نفسه (ويؤكد يوريپديز هذه النقطة ويحرص على إبرازها) بأن يثأر لموت أجممنون . وتستفزه إلكترا ؛ وتقول إنه إذا لم يقتل السفاح فستقتله هى ، ويبحث الصبى عن إيجستس ويقتله ثم ينقلب على أمه . وتبدو كليتمنسترا هنا عجوزاً شمطاء ، ذليلة ، منهوكة القوى ، ويؤنبها ضميرها على جرائمها ، يتنازع قلبها خوف الأطفال الذين يكرهونها وحبها إياهم فى نفس الوقت ، وتطلب الرحمة فى غير توسل ، وترضى إلى حد ما بما جوزيت به على ذنوبها . وحين ينتهى القتل يرتاع أرستيز من هول ما حدث ويقول :

شقيقتى هل لمستها مرة أخرى ، واحسرتاه غطى جسدها ، وضعى عليه ثوبها الجميل ، وسدى هذا الجرح الأحمر المميت . أى أماه ، هل كانت نتيجة آلامك أن ولدت قاتلك (٩٩) ؟ .

ويسمى يوريپديز الفصل الخامس من فصول المسرحية إفچينيا فى توريس

أو إفچينيا بين التوريين . وفيه يبدو أن أرتميس قد وضعت على كومة الحريق فى أوليس غزالة بدل ابنة أجممنون ، واختطفت الفتاة من اللهب ، وجعلتها كاهنة فى معبد أرتميس بين التوريين أنصاف الهمج سكان القرم . وكانت عادة التوريين أن يضحوا للآلهة بكل غريب تطأ قدمه بلادهم ، وتقوم إفچينيا بدور العاملة البائسة الشقية التى تقدم الضحايا . وكانت الثمان عشرة سنة المليئة بالأحزان التى قضتها خارج بلاد اليونان قد بلدت ذهنها . وكان أپلو قد وعد أرستيز على لسان الوحى أن ينزل السكينة على قلبه إذا انتزع من التوريين صورة أرتميس المقدسة وجاء بها إلى أتكا . ويبحر أرستيز وپيلاديز ويصلان آخر الأمر إلى أرض التوريين ، ويقبلهما هؤلاء الناس ويرونهما هدية طيبة أهداها البحر إلى أرتميس ، ويسرعون بهما ليذبحوهما على مذبحها . وتنتاب أرستيز نوبة عصبية يخر على أثرها مغشياً عليه عند قدمى إفچينيا ، وهى ، وإن كانت لا تعرفه ، تأخذها الشفقة عليه حين ترى رفيقين فى نضرة الشباب يساقان إلى الموت :

إفچينيا : إن أحداً من الناس لم يعط علم بداية أحزانه أو نهايتها ؛ ذلك أن الله خفى ، وأساليبه كلها تخفيها المصادفات العمياء عنا فلا نعرفها : ألا أيها الرجلان الشقيان ، من أين جئتما ؟ . . . ومن أمكما . . . ؟ ومن أبوكما ؟ أفصحا أيها الغريبان ، ومن هى أختكما إن كانت لكما أخت ؟ ولم تتركانها من غير أخوة وكلا كما فى ميعة الصبا ونضرة الشباب وشجاعته . . . ؟

أرستيز : ألا ليت يد أختى تسبل عينى وأنا مسجى على فراش الموت !

إفچينيا : وا أسفاه ، إنها تعيش تحت سماوات بعيدة ، ودعاؤك أيها الشقى لا يجديك نفعاً . ولكنك من أرجوس ، ومن أجل هذا فسأقدم لك كل ما فى وسعى من عناية ، ولن أضن عليك بشىء منها . سآتيك بثياب ثمينة تدفن فيها ، وبزيت يبرد كومة حريقك حين يلفها اللهب الذهبى ، وسألقى عليها الشهد الذى جمعه النحل الطنان من آلاف الأزهار الجبلية لكى يفنى معك فى وسط العبير . .

وتعدهما بأن تنجيهما إذا حملا معها إلى أرجوس رسالة تأمرهما بأن ينقشاها فى ذاكرتهما .

إفجينيا : قولا « لأرستيز بن أجممنون إن التى قتلت فى أوليس ، والتى قتلتها بلاد اليونان ولكنها لا تزال حية ، إن إفجينيا تبعث إليه السلام » ؛

أرستيز . إفجينيا ! أين هى ؟ أعادت من بين الأموات ؟

إفجينيا أنا هى ! ولكن لا تتكلم حتى لا تفسد علىّ تدبيرى . « خلنى يا أخى إلى أرجوس قبل أن أموت » .

ويريد أرستيز أن يضمها بين ذراعيه ، ولكن الحراس يمنعونه ، لأن كاهنة أرتميس لا يصح أن يمسها إنسان . ويعلن أنه أرستيز ، ولكنها لا تصدقه فيقنعها بأن يذكر لها القصص التى روتها لها إلكترا .

إفجينيا : أهذا هو الطفل الذى عرفته ، الطفل الصغير قد انتقل خفيفاً كما ينتقل الطير ؟ . أى أرض أرجوس ، أيها الموقد ، أيها اللهب المقدس الذى أشعلك سكلوبس الشيخ ، إنى أباركك لأنه عاش ، ولأنه نما ، وصار ضياء وقوة ، أخى وابن أبى ، إنى أبارك اسمك إلى أبد الدهر(٩٥) .

ويعرضان عليها أن ينجياها من أسرها ، وتساعدهما هى على أن يأخذا صورة أرتميس . ويستطيعان بحيلتها الماهرة أن يصلا آمنين إلى سفينتهما ، ويحملان التمثال إلى برورون Brauron . وفيها تصير إفجينيا كاهنة ، وتصبح بعد موتها إلهة معبودة . ويتخلص أرستيز من ربات الانتقام ، وينعم بالطمأنينة والسلام بضع سنين ، وتروى الآلهة غليلها وتتم مسرحية أطفال تنتالوس .

٢ — يوربديز الكاتب المسرحى

لا مناص لنا من أن نوافق أرسطاطاليس عن أن هذه المسرحيات ، إذا نظرنا إليها من ناحية الفن المسرحى ، لا تصل إلى المستوى الذى وضعه له إسكلس

وسفكليز[٩٦] . نعم إن مسرحيات ميديا ، وهيبوليتس ، والباخيات قد رسمت لها خطة محكمة ، ولكن هذه المسرحيات نفسها لا يمكن مع ذلك أن توازن من حيث سلامة التركيب والبناء بمسرحية أرستيا ، أو من ناحية الوحدة المعقدة بمسرحية أوديب الملك . ذلك أن يوربديز لا يثب دفعة واحدة إلى الحادثة الهامة فى المسرحية فيعرضها ثم يفسر بعدئذ مقدماتها تفسيراً تدريجياً طبيعياً فى سياق القصة ، بل نراه يستخدم الوسيلة المصطنعة وسيلة المقدمة التمهيدية ، بل يفعل ما هو أسوأ من هذا فيضعها على لسان إله من الآلهة . وهو لا يظهر لنا هذه الحادثة من بادئ الأمر كما يقضى بذلك فن التمثيل ، بل نراه يأتى فى كثير من الأحيان برسول يصفها وإن لم يكن فيها شىء من العنف . يضاف إلى هذا أنه لا يجعل الغناء الجماعى جزءاً من الحوادث التى تمثل ، بل يحوله إلى عمل فرعى ثانوى ، ويستخدمه لوقف تطور حوادث المسرحية بما يتضمنه من أغان جميلة على الدوام ، ولكنها كثيراً ما تكون عديمة الصلة بتلك الحوادث . وهو لا يعرض ما يريد من آراء عن طريق الحادثات التى تتضمنها المسرحية ؛ بل يعمد إلى استبدال الأفكار بالحادثات ويجعل المسرح مدرسة للتأمل والبلاغة والجدل . وما أكثر ما تعتمد حبكات مسرحياته على المصادفات « والذكريات » — وإن كانت الأفكار هنا حسنة التنظيم ومعروضة عرضاً مسرحياً صادقاً . وتختتم معظم مسرحيات يوربيديز بإله ينزل من آلة (كما كان يفعل بعض الكتاب من قبله) ، وتلك وسيلة لا يمكن أن نغتفرها له إلا إذا افترضنا أن المسرحية الحقيقية قد اختتمت قبل هذا الحيلة الدينية . وأن الإله لم ينزل إلا لكى يختتم التمثيل بخاتمة فاضلة لولاها لكان فى نظرهم شائناً فاضحاً[٩٧] . وقد استطاع عظماء الكتاب الإنسانيين دون غيرهم أن يعرضوا بهذه الوسيلة مروقهم وإلحادهم على المسرح :

أما مادة المسرحية فهى ، كصيغتها وشكلها ، خليط من العبقرية والصناعة ، وسبب ذلك أن أهم ما يمتاز به يوربيديز هو الإحساس المرهف كما يجب أن

يكون سائر الشعراء . وهو يحس بمشاكل الجنس البشرى إحساساً قوياً ويعبر عنها تعبيراً مؤثراً عظيم الوقع فى النفوس ؛ ومآسيه أشد المآسى فجائع وهو أعظم كتابها إنسانية ، ولكن إحساسه يكون فى أغلب الأحيان مفرطاً فى الحنو أو متكلفاً له ؛ و « إذرافه الدمع السخين(٩٨) » أيسر مما يجب أن يكون ؛ وهو لا يدع فرصة تفلت منه ويستطيع أن يظهر فيها أماً تفارق طفلها ، وينتزع كل ما يستطيع انتزاعه من العواطف من كل موقف من المواقف : وتلك المناظر دائمة الحركة ، وهو يصفها فى بعض الأحيان بقوة لا تعادلها قوة أى وصف من المآسى قبله أو بعده ، ولكنها تنحط أحياناً إلى التمثيل الشجوى الغنائى وتتخم بالعنف والرعب كما ترى فى خاتمة مسرحية ميديا . وقصارى القول أن يوربديز فى بلاد اليونان هو بيرن ، وشلى ، وهوجو ، مجتمعين ، وهو بمفرده حركة إبداعية كاملة .

وهو يفوق منافسيه فى تصوير الشخصيات ، ويحل عنده التحليل النفسى ، أكثر مما يحل عند سفكليز نفسه ، محل تصاريف القضاء . وهو لا يمل من تقصى القوانين الأخلاقية والبواعث التى تحدد سلوك بنى الإنسان . ويدرس أنواعاً مختلفة من الرجال : من زوج إلكترا الفلاح إلى ملوك بلاد اليونان وطروادة ؛ ولسنا نجد كاتبا مسرحيا غيره قد صور مثل ما صور هو من أصناف النساء المختلفة ، أو صورها بمثل ما صورها هو من العطف عليها ؛ فقد كان كل لون من ألوان الرذيلة أو الفضيلة يهمه ويسترعى انتباهه ، فيصوره تصويراً واقعياً . وهو فى هذا يختلف عن إسكلس وسفكليز ؛ فقد كان هذان الكاتبان مستغرقين فيما هو عام وأبدى استغراقاً عجزا معه عن رؤية ما هو فردى وموقت سريع الزوال ؛ وقد خلقا بذلك أصنافاً من الشخصيات عميقة غير عادية ، أما يوربديز فقد صور أفراداً أحياء ، وحسبنا شاهداً على هذا أن أحداً ممن عاش قبله لم يتصور إلكترا بمثل الوضوح الذى تصورها هو به . وفى هذه المسرحيات نرى المسرحيات التى تمثل الصراع مع الأقدار تتخلى عن مكانها شيئاً فشيئاً إلى المسرحيات التى

تمثل المواقف والأخلاق ، وهى تمهد السبيل للمسلاة الخلقية التى استحوذت فى القرن التالى على المسرح اليونانى على أيدى فلمون Philemon ، ومننلر Menander .

٣ – يوربديز الفيلسوف

لكن من السخف أن يكون أهم ما نقدر به يوربيديز هو مسرحياته ، ذلك أن أهم ما يعنى به لم يكن الفن المسرحى ، بل كان البحث الفلسفى والإصلاح السياسى ؛ فهو وليد السوفسطائيين ، وشاعر الاستنارة ، وممثل الشباب المتطرف الذى كان يسخر من الأساطير القديمة ، ويرنو بطرف إلى الاشتراكية ، ويدعو إلى نظام اجتماعى جديد يقل فيه استغلال الرجال للرجال والرجال للنساء ، واستغلال الدولة لهؤلاء وأولئك ؛ وهذه النفوس الثائرة هى التى كان يكتب لها يوربيديز ، وهى التى كان من أجلها يضيف إلى مسرحياته تلك الغمزات المتشككة ، ويحشر مئات الضلالات بين سطور مسرحياته الدينية المزعومة ، وهو يغطى هذه وتلك بفقرات مليئة بعبارات التقى والصلاح وبالأغانى الوطنية . وكان يعرض الأساطير المقدسة بحرفيتها فيبدو ما فيها من سخافات وأباطيل واضحاً جلياً ، ومع ذلك فإن أحداً لا يستطيع أن يتهمه بالمروق من الدين ؛ وهو يدعو فى مسرحياته بوجه عام إلى التشكك فى الآلهة والدين ، ولكنه يوجه ألفاظها الأولى والأخيرة إلى الآلهة . ويرجع بعض ما يمتاز به من الدهاء والذكاء ، كما يرجع دهاء رجال دوائر المعارف الفرنسيين وذكاؤهم ، إلى أنه قد أرغم على أن يفصح عن آرائه وهو يحاول إنقاذ حياته . ولقد كان شعاره هو شعار لكريشيوس :

Tantum religio potuit suader emelorum . ما أكثر الشرور التى يدفع إليها الدين : نبوءات تولد العنف فى أثر العنف ، وأساطير ترفع من شأن الفساد الخلقى بما تضربه من أمثلة قدسية ، وما تعلنه من رضا الآلهة عن الخيانة

والزنا والتلصص ، والتضحية بالآدميين ، والحروب . وهو يصف العراف بأنه « رجل ينطق بقليل من الحقائق وكثير من الأباطيل[٩٩] » ؛ ويقول ؛ إن « من البلاهة المحضة » تعرف المستقبل بالفحص عن أحشاء الطير[١٠٠] ؛ ويندد بجميع الوسائل التي تستخدم لمعرفة الغيب واستنزال الوحي[١٠١] ؛ وأهم من هـذا كله أنه يستنكر أشد الاستنكار ما تؤدي إليه الخرافات الرائجة من نشر الفساد ويقول :

سيدرك الناس أن لا وجود لآلهة ، وأن لا ضوء فى السماء ، إذا كان الباطل سيغلب الحق فى آخر الأمر . . . لا تقل إن فى السماء زانياً وزانية ، وآلهة مسجونين وآلهة سجانين : لقد أحس قلبي من زمن بعيد أن هـذه خسة ودناءة ، ولن أتحول قط عن هذا الإحساس . . . إنما هـذه كلها أقاصيص كاذبة ، شأنها شأن الحفلات الهمجية التي تقام لتنتالوس ، وللآلهة التي تمزق أجساد الأطفال . إن هذه الأرض أرض السفاحين قد خلعت على الآلهة ما تتصف به هي من جشع وشهوانية . والشر ليس مقره السماء . . . وهذه كلها أقاصيص ميتة آثمة من اختراع المغنين[١٠٢] .

وتراه أحياناً يقلل من حدة هذه الفقرات بترانيم لديونيشس أو مزامير دينية للآلهة مجتمعة ، ولكنه فى بعض الأحيان ينطق إحدى شخصياته بتشككه فى الآلهة جميعاً :

هل فى الناس من يقول إن فى السماء آلهة ؟ كلا ! ليس فى السماء آلهة ، ليس فيها آلهة ، لا تسمحوا لأحد هؤلاء الحمقى الذين غرتهم هذه الخرافات الباطلة أن يخدعكم ويضللكم هـذا الضلال . انظروا إلى الحقائق فى ذاتها ، ولا تثقوا بكلماتي أكثر مما تستحق أن يوثق بها ؛ إنى أصارحكم أن الملوك يقتلون ، وينهبون ، ويحنثون فى أيمانهم ، ويخربون المدن زوراً وغدراً ، ولكنهم رغم هذه الآثام أسعد حالاً من الذين يحيون حياة هادئة ملؤها التقى والصلاح[١٠٣]

وهو يبدأ مسرحية ميلانبي المفقودة بهذين البيتين اللذين يثيران أعظم الدهشة :

أى زيوس ، إن كان ثمة زيوس ، لأنى لا أعرف عنه إلا ما يقوله الناس فيه .

ويقال إن النظارة حين سمعوا هذا القول هبوا واقفين احتجاجاً عليه ، وهو يختم هذه المسرحية بقوله :

والآلهة الذين يعدهم البشر حكماء ، ليسوا أكثر وضوحاً من أحلام مجنحة ، ولا تختلف أساليبهم عن أساليب الآدميين ، فهى كلها فوضى واضطراب يتلوه اضطراب . ومن أراد أن يكون أقل الناس عذابا ، وألا تعمى بصيرته كما يعمى الكهنة بصائر البلهاء ، يمضى إلى الموت الذى يعرفه من يعرفونه[١٠٤] .

وهو يعتقد أن مصائر الناس نتيجة لأسباب طبيعية ، أو للمصادفات العمياء ، وليست من تدبير قوى عاقلة مفكرة تتصف بها كائنات تسمو على الكائنات البشرية[١٠٥] ، ويفسر بعض ما يظنه الناس معجزات تفسيراً يستند إلى العقل والمنطق : فيقول مثلا إن ألسستيز لم تمت حقاً ، بل أخذت لكى تدفن حية ، ولكن هرقل أدركها قبل أن تموت[١٠٦] وهو لا يقول لنا صراحة ما يعتقده هو نفسه فى هذا ، ولعل منشأ ذلك هو شعوره بأن ما يورده من الشواهد لا يؤدى إلى الاعتقاد الواضح ؛ لكن عباراته التى هى أكثر ما يمتاز بها عن غيره هى العبارات الدالة على الإيمان بوحدة الوجود ، وعلى العقيدة التى أخذت من ذلك الوقت تحل عند المتعلمين من اليونان محل عقيدة الشرك القديمة :

« ياصاحب الأساس العميق الذى يقوم عليه العالم ، ويا ذا العرش الرفيع الذى يعلو على العالم ، أيا كنت ، يا من لا نعرفك ويصعب علينا أن نتصورك ، يا منسق الموجودات ، ويا عقل عقولنا ؛ إليك يا الله أرفع صوتى بالثناء ، لأنى أرى فيك السبيل الصامتة التى تأتى بالعدالة ، قبل أن يصل إلى نهاية أجله كل من يحيا ويموت[١٠٧] .

والعدالة الاجتماعية هى النغمة الصغرى فى أغانيه ؛ وهو يتمنى ، كما يتمنى جميع من امتلأت قلوبهم عطفا على الخلق ، أن يحين الوقت الذى يكون فيه الأقوياء أكثر مما هم عطفاً على الضعفاء ، والذى يقضى فيه على أسباب البؤس والنزاع[١٠٨] ؛ وتراه حتى فى أيام الحرب ، وما تستلزمه من إثارة الروح الوطنية والحماسة للقتال ، يصف مصائب الحرب وأهوالها وصفاً واقعياً لا يخفى فيه شيئاً هذه الأهوال :

كيف تعمى عيونكم يا من تدكون المدن ، وتخربون المعابد ، وتدمرون القبور ، تلك الأجداث المحرمة التى يثوى فيها الموتى القدامى ؟ ألا تعلمون أنكم عما قريب ستموتون[١٠٩] ؟ :

ويمتلئ قلبه حسرة حين يرى الأثينيين يقاتلون الاسپارطيين ، وتدوم الحرب بينهم خمسين عاماً ، يستعبد فيها بعضهم بعضاً ، ويهلك فيها خير رجالهم ؛ ويدعو فى إحدى مسرحياته المتأخرة دعوة حارة مؤثرة إلى السلام :

« أيتها السلم ؛ إنك تفيضين بالخير العميم كأنك تأتين به من نبع عميق ؛ ليس فى العالم كله جمال كجمالك ، بل إنا لا نرى له مثيلا حتى بين الآلهة الأخيار . إن قلبي يكاد يتفطر لطول غيابك ، لقد وهن العظم منى ولم تعودى ؛ وهل تكل عيناى قبل أن تريا زهرتك وجمالك ؟ وهل يقضى علىّ المشيب والأحزان قبل أن تسمع أذناى مرة أخرى أغانى الراقصين الشجية ووقع أقدام من تطوق رؤوسهم أكاليل الزهر ؟ ألا عودى إلى مدينتنا أيتها الحبيبة المقدسة ولا تقيمى بعيدة عنا يا من تطفئين الحقد . إن العداوات والأحقاد ستفارقنا إذا أقمت معنا وسيخرج من أبوابنا الجنون وظبا السيوف[١٠٩] .

ويكاد ينفرد من بين كتاب عصره العظام بالجرأة على مهاجمة الرق . ذلك أنه قد اتضح له فى أثناء حرب البلوپونيز أن معظم الأرقاء لم يكونوا كذلك بطبيعتهم ، بل إنهم قد ساقتهم إلى هذه الحال ظروف الحياة وحدها ؛

وهو لا يعترف بوجود أرستقراطية طبيعية ، ويرى أن البيئة لا الوراثة هي التي تخلق الرجال . والأرقاء فى مسرحياته يضطلعون بأدوار هامة ، وكثيراً ما ينطقون بأجمل أشعاره . وهو حين يبحث حال النساء يعطف عليهن عطف الشاعر الواسع الخيال ؛ فهو يعرف أغلاطهن ويعرضها عرضاً واقعياً جعل أرسطوفان يتهمه بأنه يكره النساء ؛ ولكنه فى الحقيقة قد عرض قضية المرأة أحسن مما عرضها أى شاعر قديم آخر أيد حركة تحريرها التى كانت وقتئذ فى بداية عهدها . وتكاد بعض مسرحياته أن تكون حديثة الطابع ، تحتوى على دراسات فى مشاكل الجنس البشرى كالدراسات التى نشأت بعد أيام إبسن Ibsen بل إنها تحتوى على دراسات فى الشذوذ الجنسى نفسه[١١٠] . وهو يصف الرجال وصفاً واقعياً ، أما النساء فوصفه إياهن ينطوى على كثير من الشهامة ، وتنال ميديا الرهيبة من عطفه أكثر مما يناله جيسن البطل غير الوفى ؛ وهو أول كاتب مسرحى جعل المسرحية تدور حول الحب ؛ حتى لقد كان آلاف من شباب اليونان يتغنون بأغنيته إلى إيروس إله الحب فى مسرحية إندرمدا التى لم تصل إلينا :

« أيها الحب ، إلهنا ، ملك الآلهة والبشر ! هلا امتنعت عن تعليمنا ما هو الحب ؟ أو ساعدت المحبين المساكين ، الذين تشكلهم كما تشكل الطين ، كى يصلوا بكدحهم وجدهم إلى غاية موفقة سعيدة[١١١] » .

ويوربديز بطبيعته متشائم ، لأن كل من يروى قصص الحب يصبح متشائماً حين تصطدم الحقيقة بالخيال ، وفى ذلك يقول هوراس ولپول Heraces Walpole « إن الحياة مسلاة عند من يفكرون ، ومأساة عند من يحسون[١١٢] » : ويقول شاعرنا :

لقد نظرت من أمد بعيد إلى حياة الإنسان فلم أجد إلا خيالا أشمط . وفى وسعى أن أؤكد أيضاً أن الذين يعدون من بين الناس حكماء ، شديدى الذكاء ، مبتدعين لأعظم الخطط ، يجزون على هذا شر الجزاء . وهل

أبصرت عين الله مذ بدأت الحياة رجلا واحداً سعيداً[١١٣] ؟ .

وهو يعجب من جشع الإنسان وقسوته ، ومن الشريرين وسعة حيلتهم ، ومن اختطاف الموت للناس اختطافاً دنيئاً خبط عشواء : وهو ينطق الموت فى بداية مسرحية ألسيس بقوله : « أليست مهمتى أن أقبض أرواح المقضى عليهم ؟ » ؛ ويجيبه أپلو بقوله : « لا ؛ بل مهمتك أن تقبض من نضجوا ووصلوا إلى الشيخوخة الكاملة » . ومن رأيه أن الموت إذا جاء بعد أن يحيا الإنسان حياته كاملة كان أمراً طبيعياً ، لا يصح أن يغضب أحد منه : « لو أن كل جيل من الناس جاء فى أثر الجيل الذى قبله ، وازدهر ثم ذبل ، ثم انقضى أجله ، كما يأتى الحصاد بعد الحصاد على مر السنين ، لو أن هذا حدث لما بكينا صروف الزمان وما تصيبنا به الأقدار : إن هذا هو الذى تجرى به سنن الطبيعة ، ومن واجبنا ألا نبتئس بما تجعله قوانينها أمراً محتوما لا مفر منه[١١٤] » . وينتهى أمره إلى الرواقية : « اصبر كما يجب أن يصبر الرجال ، ولا تضجر[١١٥] » . وتراه من حين إلى حين يحلو حلو أنكسيانس Anaximenes ويستبق فلسفة الرواقيين فيواسى نفسه بالتفكير فى أن روح الإنسان جزء من الهواء المقدس ، النيوما Pneuma ، وفى أنها ستبقى بعد الموت جزءاً من روح العالم[١١٦] .

من يدرى ؟ لعل هذا الذى نسميه موتا هو حياة ، ولعل ما نسميه حياة هو الموت ؟ وكل ما هنالك من فرق أن الناس وهم أحياء يقاسون مرارة الأحزان ، فإذا ما أسـاموا الروح ، لم تبق لديهم أحزان ، ومن ثم لا يحزنون[١١٧] .

---

٤ - يوربديز الطريد

إن الرجل الذى نصوره من مسرحياته هذا التصوير ليشبه تمثاله الجالس فى متحف اللوفر ، وتماثيله النصفية فى نابلى ، شبهاً يحملنا على الاعتقاد بأن هذه التماثيل منقولة نقلا أميناً عن أصول يونانية حقيقية . فوجهه الملتحى وسيم ، ولكنه أضناه التفكير ، ورققه الحزن الحنون ، ويتفق أصدقاؤه وأعداؤه على أنه كان مكتئب الطبع يكاد أن يكون نكداً ، لا يميل إلى المرح أو الضحك ، وأنه قضى سنيه الأخيرة فى عزلة فى أرض الجزيرة التى ولد فيها . وكان له ثلاثة أبناء ذكور كانت طفولتهم سبباً فيما استمتع به من سعادة قليلة[١١٨] . وكان يجد سلواه فى الكتب ، ومبلغ علمنا أنه كان أول مواطن فرد فى بلاد اليونان جمع لنفسه مكتبة كبيرة(*)[١١٩] . وكان له أصدقاء أخيار ، منهم پروتاغوراس ومنهم سقراط ؛ ولم يكن ثانيهم يهتم بالمسرحيات ولكنه كان يقول إنه لا يتردد فى أن يسير إلى پيريه مشياً على قدميه ليشهد مسرحية من مسرحيات يوربديز ، وذلك لعمرى قول خطير لصدوره من فيلسوف كبير . وكان الجيل الناشئ ممن تحررت عقولهم ، من أسر التقاليد يعدونه زعيما لهم ، ولكنه كان له من الأعداء أكثر مما كان لأى كاتب آخر فى تاريخ اليونان . وقد اقتصر القضاة اللذين كانوا فيما نظن يرون

(*) لقد كان فى بلاد اليونان على الدوام دور كتب تقتنيها الدولة أو الملوك كما رأينا فى خلال هذه القصة ؛ ويمكن تتبع هذه المجموعات فى مصر إلى أيام الأسرة الرابعة . وكانت المكتبة اليونانية تتألف من ملفات مرتبة فى عيون صوان . وكان نشر الكتاب عندهم يعنى أن مؤلفه أجاز نسخ مخطوطة ونشر النسخ المنقولة عنه . فإذا حدث هذا جاز بعد ذلك كتابة عدة نسخ من المخطوط من غير حاجة إلى إذن المؤلف أو الحصول منه على « حق النشر » . وكانت النسخ المنقولة من المؤلفات المتقولة من المؤلفات الشعبية المتداولة كثيرة العدد ولم تكن كثيرة التكاليف . ويحدثنا أفلاطون فى الأپولوجيا أن رسالة أنكسانوروس فى الطبيعة يمكن شراؤها بدرخمة واحدة (أى ريال أمريكى) ، وقد أصبحت أثينة فى عصر بركليز مركز تجارة الكتب فى بلاد اليونان .

أن واجبهم يقضى عليهم بأن يحموا الدين والأخلاق من سهام تشككه ، اقتصر هؤلاء القضاة على تتويج خمس من مسرحياته بتاج النصر ، ولقد كان الأركون المشرف على شئون الدين سخياً غاية السخاء حين قبل هذا العدد من مسرحيات يوربديز ضمن المسرحيات التى يجيز تمثيلها الدين . وكان المحافظون على اختلاف نزعاتهم يلقون عليه هو وسقراط تبعة انتصار نزعة الكفر بالآلهة بين شباب أثينة . وحاربه أرسطوفان من بادئ الأمر فى مسرحية الأركانيين ، وهجاه وصوره تصويراً هزلياً مرحاً فى مسرحية الشموفريازوسى ؛ وفى السنة التالية لموت الشاعر واصل هجومه عليه فى مسرحية الضفادع . على أنه يقال لنا رغم هذا إن الكاتبين كاتب المآسى وكاتب المسالى ، ظلا صديقين إلى النهاية[١٢٠] . أما النظارة فكانوا يندِّدون بإلحاده ويهرعون إلى مشاهدة مسرحياته . ولما أن نطق الصياد الشاب فى السطر ٦١٢ من مسرحية هپوليتس بقوله « لقد أقسم لسانى ، ولكن عقلى لا يزال طليقاً » احتج الجمهور احتجاجاً قوياً على ما ظنه انتهاكاً شديداً لحرمة الآداب والدين حتى اضطر يوربديز أن يقف فى مكانه ويهدئ ثائرتهم بأن يؤكد لهم أن هپوليتس سيجزى على قوله هذا الجزاء الأوفى قبل انتهاء القصة — وهو وعد مأمون العاقبة يكاد يصدق على كل شخصية فى المأساة اليونانية .

ووجهت إليه حوالى عام ٤١٠ تهمة المروق من الدين ، ولم يمض بعدئذ إلا قليل من الوقت حتى وجه إليه هجيانون Hygianon تهمة أخرى ، تتصل بالجزء الأكبر من ثروته ، واستدل على خيانة يوربديز بالبيت الذى نطق به هپوليتس . وبرئ الشاعر من التهمتين ، ولكن موجة السخط التى قوبلت بها مسرحية المرأة الطروادية أشعرت يوربديز أنه لم يكد يبقى له صديق واحد فى أثينة . ويقال إن زوجته نفسها قد انقلبت عليه لأنه لم

يشترك فى حفلات الزواج الحماسية فى المدينة ، وما وافت سنة ٤٠٨ ، وكان قد بلغ الثانية والسبعين من العمر ، حتى قبل دعوة وجهها إليه الملك أرخلوس Archelaus لينزل ضيفا عليه فى عاصمة مقدونية . ووجد يوريبديز فى مدينة پلا Pella تحت حماية هذا الفردريك(*) — ولم يكن كملك بروسيا يخشى منه على عقائد شعبه — وجد فى هذه المدينة الطمأنينة والراحة ، وفيها كتب مسرحية إفچينيا فى أوليس التى تكاد تكون كلها من قصائد الرعاة ، ومسرحية الباخيات الدينية العميقة . ومات بعد ثمانية عشر شهرا من قدومه إلى تلك المدينة ، ويقول أشقياء اليونان إن موته كان نتيجة لهجوم كلاب الملك وتمزيقها جسده .

وبعد سنة من موته عرض ابنه المسرحيتين فى احتفال المدينة بعيد الديونيشيا ومنحهما القضاة الجائزة الأولى . ويظن النقاد ، ومنهم العلماء المحدثون أنفسهم ، أن مسرحية الباخيات كانت ترضية قدمها يوريبديز للدين اليونانى(١٢٢) . على أنه ليس ببعيد أن يكون قد قصد بالمسرحية أن تكون قصة رمزية لما لقيه يوريبديز من معاملة على أيدى الشعب فى أثينة .

وتقص المسرحية كيف مزقت جماعة من النساء المتظاهرات فى الحفلات الديونيشية تقودهن أجيف Agave أم پنثيوس Pentheus ملك طيبة ، تقول كيف مزقت أولئك النسوة جسم هذا الملك لأنه طعن خرافتهن الباطلة الهمجية وتدخل من غير حق فى شئون حفلاتهن .

ولم تكن هذه الفكرة جديدة ؛ فإن القصة من الأساطير الدينية المأثورة . وكانت أسطورة التضحية بحيوان أو تمزيق جسم إنسان إذا جرؤ على حضور هذه المواكب جزءا من الطقوس الديونيشية . وقد ربطت هذه المسرحية

(*) يقصد أرخلوس نفسه الذى استضاف يوريبديز كما استضاف فردريك الأكبر ملك بروسيا فلتير . (المترجم)

القوية بين المأساة اليونانية فى عنوان قوتها وبين المأساة اليونانية فى بداية نشأتها ، وذلك بعودتها إلى استمداد حبكتها من قصة ديونيشس . وقد ألف الشاعر هذه المسرحية بين جبال مقدونيا التى تصفها فى أشعار لا تضعف قوتها ، ولعله كان يقصد أن تمثل فى بلاد حيث كانت عبادة باخوس Bacchus ذات قوة عظيمة . وهى تدل على علم مدهش غزير بالطقوس الدينية ونشوتها ؛ وفيها ينطق عباد باخوس بمزامير تدل على الخشوع والصلاح ليس ببعيد أن يكون الشاعر قد تجاوز فيها حدود العقلية ، وأدرك وقتئذ ضعف العقل ، وأن العواطف والمشاعر لا بد منها للنساء والرجال على السواء . ولكن القصة تحيي من طرف خفى الدين الديونيشى ، وموضوعها هى الأخرى هو ما قد ينشأ من العقائد الخرافية من شرور .

وتفصيل ذلك أن الإله ديونيشس يزور طيبة متخفيا فى صورة باخوس أو متجسداً ويدعو إلى عبادة ديونيشس . وترفض بنات كدمس رسالته فيسلبهن وعيهن ويبث فيهن نشوة دينية قوية ، فيذهبن إلى التلال ليعبدنه بالرقص الهمجى العنيف ، ويرتدين جلود الحيوان . ويتمنطقن بالأفاعى ، ويضعن على رؤوسهن أكاليل من اللبلاب ، ويرضعن صغار الذئاب والظباء ، ويقاوم ملك طيبة هذه الطقوس ويقول إنها تناقض العقل والأخلاق والنظام ، ويسجن الداعى إليها فيصبر على العقاب صبر المسيحيين الأولين . ولكن الإله الذى فيه يتجلى ويفتح جدران السجن ويستعين بقوته الإلهية على تخدير الحاكم الشاب . ويلبس بنثيوس تحت هذا التأثير ثياب امرأة ، ويتسلق التلال وينضم إلى جماعة المحتفلات وتتبين النسوة أنه رجل ، فيمزق جسمه إرباً . وتحمل أمه ، التى تملكتها « النشوة » ، فأفقدتها وعيها ، رأسه

المفصول في يديها ظناً منها أنه رأس أسد ، وتغنى عليه أغنية نصر . ثم تفيق فتدرك أنها تمسك برأس ابنها ، وتشمئز من تلك الطقوس التي أسكرتها وأفقدتها وعيها ، ويقول لها ديونيشس إنها سخرت منه وهو إله ، وإن ذلك هو جزاؤها على هذه السخرية ، فتجيبه بقولها وهل يليق بالإله أن يشبه بالرجل المتكبر في نوبة غضبه ؟ والدرس الأخير الذي يلقيه علينا يوربيديز في هذه المسرحية هو بعينه الذي يلقيه علينا في أولى مسرحياته ، ولقد كان يوربيديز في مسرحيته التي وضعها وهو يحتضر هو بعينه يوربيديز الذي عهدناه في أيامه الأولى .

وذاع صيته وأحبه الناس بعد موته حتى في أثينة نفسها ، وأصبحت الفكرة التي جاهد من أجلها هي الآراء المسيطرة على العقول في القرون التالية . ولما انتشرت الحضارة اليونانية خارج بلاد اليونان نفسها أخذ المتحضرون الجدد يعدونه هو وسقراط أعظم من عرفتهم بلاد اليونان من أصحاب العقول الملهمة الحافزة . ذلك أن يوربيديز كان يعالج المسائل الحية لا أقاصيص الشعر الميتة ، ولقد ظل العالم يذكره ولم ينسه إلا بعد زمن طويل . فقد خيم النسيان على مسرحيات من سبقوه من المؤلفين ؛ أما مسرحياته فكان تمثيلها يتكرر في كل عام ، وفي كل مكان أنشئ فيه مسرح يوناني . ولما أخفقت الحملة التي وجهت إلى سرقوصة (٤١٥) والتي تنبأ يوربيديز بإخفاقها في مسرحية المرأة الطروادية ، وواجه الأسرى الأثينيون الموت أحياء وهم يعملون عبيداً مصفدين بالأغلال في محاجر صقلية ، ولما حدث هذا أطلق سراح كل من استطاع أن ينشد فقرات من مسرحيات يوربيديز (كما يحدثنا بذلك فلوطرخس[١٢٣]) . وقد صيغت المسلاة الجديدة على غرار مسرحياته ، وتطورت منها ؛ وفي ذلك يقول أحد زعماء هذه المسلاة : « لو أنني كنت واثقاً من أن للموتى عقولا تدرك لشنقت نفسي لكي

أرى يوريبديز[١٢٤]». وكان إحياء فلسفة التشكك ، والحرية العقلية ، والنزعة الإنسانية ، فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، كان هذا الإحياء سبباً فى بعث يوريبديز إلى الوجود وجعله أكثر اندماجاً فى ذلك العهد من شيكسبير . وجملة القول أن شيكسبير وحده هو الذى كان يضارع يوريبديز ، وإن كان جيته يستكثر هذا على شيكسبير نفسه . ومن الأسئلة التى يوجهها جيته إلى إكرمان : «هل أنجبت أم الأرض بعد يوريبديز كاتباً مسرحياً جديراً بأن يخلفه ؟»[١٢٥] . والجواب على هذا أنها لم تنجب أكثر من كاتب واحد[*] .

(*) يريد شيكسبير . (المترجم)

الفصل السادس

أرسطوفان

---

١ – أرسطوفان والحرب

المأساة اليونانية أشد قتاما من المآسى الإنجليزية فى عصر الملكة إليزابث لأنها قلما تستخدم مبدأ الترفيه التهكمى الذى يتخلل المأساة فيزيد قدرة السامع على احتمال ما فيها من فواجع . والكاتب اليونانى المسرحى لم يكن يلجأ إلى هذه الطريقة لأنه كان يفضل أن تكون مأساته عالية المستوى من بدايتها إلى نهايتها ، ولذلك ترك المسلاة إلى كتاب المسرحيات الهزلية الخالية من المغزى والتى تهدئ عواطف النظارة المهتاجة بما تهيئه لهم من الفكاهة والراحة . وقد انفصلت المسلاة على مر الزمن من المأساة واستقلت عنها ، وأفرد لها يوم خاص فى الحفلات الديونيشية اقتصر منهج الاحتفال فيه على ثلاثة مسال أو أربع يكتبها مؤلفون مختلفون وتمثل واحدة بعد واحدة لتحصل كل منها على جائزة مستقلة .

وازدهرت المسلاة اليونانية كما ازدهرت الخطابة ، فى صقلية أول الأمر . ذلك أنه قدم إلى سرقوصة من كوس فى عام ٤٨٤ فيلسوف ، شاعر ، طبيب ، كاتب مسرحى يدعى إبكارمس Epicharmus أخذ يعرف الناس بفيثاغورس وهرقليطس ومبادئ العقليين فى خمس وثلاثين مسلاة لم يبق منها إلا عبارات متفرقة منقولة عنها ، وبعد اثنى عشرة سنة من قدوم إبكارمس إلى صقلية أجاز الأركون الأثينى لفرقتها أن تمثل مسلاة ؛ وسرعان ما نما الفن الجديد وتطور بتأثير الدمقراطية والحرية حتى أصبح أهم وسائل الهجو الأخلاقى والسياسى فى أثينة ؛ وكانت حرية التعبير الواسعة المسموح بها فى المسلاة تقليد يرجع إلى المواكب الديونيشية التى كانت تحمل عضو التناسل فى الذكور . ولما أسيء استعمال هذه

الحرية سن فى عام ٤٤٠ ق . قانون يحرم التهجم على الأشخاص فى المسلاة ، لكن هذا الحظر ألغى بعد ثلاث سنين من ذلك الوقت وظل الكتاب يستمتعون بحرية الكلام وحرية السباب كاملتين حتى أيام حرب البلوپونيز ، فكانت المسلاة اليونانية والحالة هذه تؤدى واجب الصحافة الحرة فى الدمقراطيات الحديثة ، أعنى بذلك واجب النقد السياسى .

ونحن نسمع عن كثيرين من كتاب المسالى قبل أرسطوفان ، بل إن أرسطوفان نفسه — وهو ربيبه العهد العظيم ، قد نزل من عليائه فأثنى على بعضهم بعد أن انقشع عجاج المعارك التى احتدمت بينه وبينهم . ومن هؤلاء الكتاب أقراطينوس Cratinus لسان سيمون Cimon الناطق ، والذى أثار حرباً شعواء على بركليز ولقبه « الإله القادر ذا الراس الشبيه ببصل الفأر(*) »[١٣٦] . ولقد أنجانا الزمان الرحيم من قراءة مسرحيات هذا الكاتب . ومن هؤلاء السباقين أيضا فركراتس الذى هجا فى مسرحية الزجال الممج التى كتبها حوالى ٤٢٠ ق م الأثينيين الذين يعلنون أنهم يمقتون الحضارة ويتمنون العودة إلى الطبيعة . ألا ما أقدم البدع التى يبتدعها الناس فى شبابهم ! على أن أقدر منافسى أرسطوفان هو يوپوليس Eupolis ، قد تعاونا أولا فى العمل ثم تنازعا وافترقا ، وأخذ كلاهما يهجو صاحبه أقذع الهجاء ، ولكنهما مع ذلك اتفقا فى حملتهما على الحزب الدمقراطى . وإذا كانت المسلاة قد عادت الدمقراطية طوال القرن الخامس فقد كان من أسباب هذا العداء أن الشعراء يحبون المال ، وأن الأشراف كانوا أغنياء ؛ لكن أكبر أسبابه أن وظيفة المسلاة اليونانية كانت تسلية الجماهير عن طريق النقد ، وأن الحزب الدمقراطى كان وقتئذ صاحب السلطان . وإذ كان بركليز زعيم الدمقراطية يعطف على الأفكار الجديدة كتحرير المرأة والنزعة العقلية فى الفلسفة فإن كتاب المسالى قد اتفقوا جميعا اتفاقا يبعث على الريبة فى مصدره ، على مقاومة التطرف فى جميع

(*) لبات يصل يسمى أيضا العنصل والسيقل squill . (المترجم)

أشكاله ، وأخذوا يدعون إلى العودة إلى أساليب « رجال مرثون » وما كان يعزى إليهم من مبادئ أخلاقية . وكان أرسطوفان لسان هــذه الرجعية ومردد صداها ، كما كان سقراط ويوريپديز رائدى الآراء الجديدة . وهكذا استحوذ النزاع بين الدين والفلسفة على مسرح التمثيل المزلى .

وكان لدى أرسطوفان من الأسباب ما يبرر حبه للأرستقراطية ، فقد كان ينتمى إلى أسرة مثقفة غنية ، ويبدو أنه كان يمتلك أرضاً فى إيجيلنيا، بل إن اسمه نفسه ليدل على أنه من النبلاء لأن معناه « الأفضل يظهر » . وكان مولده حوالى عام ٤٥٠ ق . م ، وإذن فقد كان فى عنفوان الشباب حين دارت بين أثينة واسپارطة تلك الحرب العوان التى أضحت فيما بعد موضوعاً مشئوماً لمسرحياته . وقد اضطره غزو اسپارطة لأتكا إلى مغادرة مزرعته فى الريف والسكنى فى أثينة ، وكان يكره حياة المدن ، وأظهر شديد استيائه حين طلب إليه فجأة أن يكره الميغاريين ، والكورنثيين ، والإسپارطيين ، وأخذ يندد بهذا التطاحن الذى يقتل فيه اليونانى أخاه ، ويدعو فى كل مسرحية يكتبها إلى السلم .

وانتقلت السلطة العليا فى أثينة بعد موت پركليز فى عام ٤٢٩ إلى يدى كليون Cleon دابغ الجلد الغنى ممثل المصالح التجارية التى تدعو إلى القضاء قضاء مبرماً على اسپارطة منافسة أثينة فى السيادة على بلاد اليونان . وقد سخر أرسطوفان فى مسرحية له مفقودة تدعى « البابليين » (٤٢٦) سخرية لاذعة من كليون وأســاليبه السياسية قدم بسببها إلى المحاكمة بتهمة الخيانة وحكم عليه بغرامة . وثأر أرسطوفان لنفسه بعد عامين من هذا الحكم بإخراج مسرحية الفرسان The Knights ، وكانت أهم شخصية فى هذه المسرحية هى شخصية ديموس Demos (أى الشعب) ؛ وكان لديموس هذا رئيس خدم يدعى « الدباغ » . ولم يكن أحد يجهل من المقصود بهذه الألقاب حتى كليون نفسه الذى كان ممن شاهدوا المسرحية . وكان ما فيها من هجو لاذعاً شديداً إلى حد امتنع منه الممثلون جميعاً عن تمثيل دور الدباغ خوفاً

من العقاب السياسى الصارم ، فلم يجد أرسطوفان بداً من أن يمثل بنفسه هذا الدوروفى هذه المسرحية يعلن نيشياس Nicias (وهو اسم الزعيم المحترف رئيس الحزب الألحركى) أن الوحى أنبأه بأن الحاكم الثانى الذى سيتولى الأمر فى بيت ديموس سيكون بائع وزم ، ويُقبل هذا البائع الدوار ويحييه العبيد ويلقبونه « زعيم المستقبل فى أثينتنا المجيدة ! » ويخاطبه بائع الوزم بقوله : « أرجو أن تسمح لى بأن أذهب لأغسل سقطى . . . إنك تسخر منى » . ولكن رجلا يدعى دمستين يؤكد له أنه يتصف بالصفات التى تؤهله لأن يحكم الشعب — أليس هو وغداً منحطاً ، مجرداً من العلم على اختلاف أنواعه ؟ ويخشى الدباغ أن يفقد مركزه فيؤكد ولاءه لديموس واستعداده لخدمته ، ويقول إن أحداً غيره لم يخدم ديموس كما خدمه هو إلا العاهرات . وتحوى المسرحية المجون الذى اعتاد أرسطوفان : فالوزام يضرب الدباغ بالسقط ويستعد لمباراة خطابيـــة فى الجمعية بأكل مقدار من الثوم ؛ ويعقب هذا تنافس فى الملق والدهان ليعرف مَن من المتنافسين يستطيع أن يسرف فى مديح ديموس أكثر من سواه ، فيكون بذلك « أكثر استحقاقاً لرضاء ديموس وبطنه » . ويحضر المتنافسون قدراً عظيما من الطيبات ، يبسطونها أمام ديموس قبل الانتخاب لتكون وعداً منهم بما سوف يقدمونه له بعدها . ويقترح الوزام أن يختبر شرفهم وأمانتهم بأن تفتش خزانة كل مرشح ، فيعثر فى خزانة الدباغ على كومة من المأكولات الشهية الطرية ، أهمها كعكة ضخمة لم يقطع منها لديموس إلا قطعة جد صغيرة (وكان ذلك إشارة إلى تهمة رائجة فى ذلك الوقت تقول إن كليون قد سرق قدراً كبيراً من أموال الدولة) . وعلى أثر هذا يفصل الدباغ من عمله ويصبح الوزام حاكم بيت ديموس .

وتواصل مسرحية الزنابير السخرية من الدمقراطية سخرية أخف من السخرية السابقة . ففيها يظهر جماعة من المواطنين المتعطلين — على هيئة زنابير — يسعون إلى كسب أبلة أو أبلتين فى كل يوم بأن يكونوا قضاة ، حتى

يستطيعوا بالاستماع إلى « المتزلفين » وجباية الضرائب الباهظة أن يستولوا على أموال الأغنياء ويضعونها فى خزانة الدولة وفى جيوب الفقراء .

ولكن أكثر ما يهتم به أرسطوفان فى هذه المسرحيات الأولى هو السخرية من الحرب والدعوة إلى السلم . فبطل مسرحية الأكارنيين (٤٢٥) رجل يسمى دسيوپوليس Dicaeopoles « المواطن الشريف » وهو مزارع يشكو من أن الجيوش قد أتلفت أرضه حتى لم يعد يستطيع العيش بعصر النبيذ من كرومه . وهو لا يجـد ما يدعو إلى الحرب ، ويؤمن بأنه ليس بينه وبين الاسپارطيين سبب للخصام . ويطول انتظاره لأن يعقد القواد السياسيون الصلح ، فيوقع هو معاهدة شخصية مع اللسديمونيين ، ويشهر به جماعة من جيرانه الوطنيين دعاة الحرب فيجبهم بقوله :

إنى أشك كثيراً هل الاسپارطيون هم الملومون وحدهم فى جميع الأحوال .
الجيران : أتقول إنهم غير ملومين فى جميع الأحوال ؟ يالك من وغد أفاق !
كيف تجرؤ على النطق بهذه الخيانة الوطنية أمامنا ، ثم تظن أنك ستنجو منا ؟

ويوافق على أن يسمح لهم بقتله إذا عجز عن البرهنة على أن أثينة يقع عليها من اللوم فى إشعال نار الحرب بقدر ما يقع على اسپارطة . ويوضع رأسه على وضم ، ويبدأ فى الإدلاء بحجته . وفى هذه اللحظة يدخل قائد أثينى ، مهزوم ، متبجح ، منتهك لحرمة الآلهة ، يشمئز منه الحاضرون ، فيخلو سبيل ديسيوپوليس ، ويدخل السرور على قلب كل إنسان بأن يبيع لهم خمراً يسمى السلم . وكانت هذه المسرحية غاية فى الجرأة ولا يجيزها إلا شعب تعود أن يستمع إلى ما يقال ضده . وقد استفاد أرسطوفان من عادة الاستطراد التى كانت تجيز لكاتب الملهاة أن يخاطب النظارة على لسان فرقة المنشدين أو إحدى شخصيات المسرحية ، فأخذ يشرح للجمهور الغرض الذى يهدف له بوصفه رجلا دوارا فكها بين الاثينيين ينقب عن عيوبهم ويكشفها لهم .

« لم يعمد شاعرنا منذ كتب المسالى إلى إطراء نفسه على المسرح . . . ولكنه

يعتقد أنه فعل لكم الخير الكثير . وإذا لم تقبلوا بعد الآن أن يسرف الغرباء فى خداعكم ، أو يغروكم بالملق والدهان ، وإذا لم تكونوا فى السياسية إمعات كما كنتم من قبل ، فالفضل فى ذلك راجع إليه . وقد كنتم من قبل إذا أرادت وفود المدن الأخرى أن تخدعكم لا تطلب ذلك منهم إلا أن يصفوكم بأنكم « الشعب المتوج بالنفسج » . فلا تكادون تسمعون لفظ بنفسج حتى تعتدلوا فى جلستكم على أطراف أعجازكم . وإذا أراد أحد أن يستثير غروركم وتحدث عن « أثينة الغنية الناعمة نال كل ما يبغيه منكم لأنه يتحدث عنكم كما يتحدث عن السردين فى الزيت . ولقد أحسن الشاعر إليكم كل الإحسان حين حذركم من هذه الحيل الخادعة[١٢٧] » .

ولقد نال الشاعر أعظم النصر فى مسرحية السلم التى أخرجها عام ٤٢١ . ففى ذلك الوقت كان كليون قد مات ، وأوشك نيشياس أن يوقع مع اسپارطة معاهدة سلام وصداقة تدوم خمسين عاما . ولكن الحرب اشتعلت نارها مرة أخرى بعد بضع سنين ، وخاب أمل أرسطوفان فى بنى وطنه فدعا نساء اليونان فى عام ٤١١ أن يعملن لحقن الدماء . وتبدأ مسرحية ليسستراتا باجتماع نساء أثينة ، فى مطلع الفجر ورجالهن نائمون فى مجلس حربى قرب الأكربولس ويتفقن على أن يمنعن عن أزواجهن جميع متع الحب حتى يعقدوا الصلح مع العدو ، ثم يرسلن رسولا إلى نساء اسپارطة يدعونهن إلى معاونتهن فى حملة السلم الجديدة . ثم يستيقظ الرجال آخر الأمر من نومهم فيدعون النساء أن يعدن إلى بيوتهم ، وتأبى النساء العودة فيحاصرهن الرجال بدلاء ملأى بالماء الساخن وبسيل من الكلاء ؛ وتلقى ليسسترا (منقذة أثينة) على الرجال درساً تقول فيه :

لقد صبرنا عليكم كثيراً فى الحروب الماضية . . . ولكننا كنا نفرض عليكم رقابة شديدة ، وكثيراً ما كنا نسمع ، ونحن فى منازلنا ، أنكم قد

أخطأتم فى تقرير أمر من الأمور . فإذا سألنا عنه قال الرجال : « وما شأنكن أنتن والمسألة عن هذا ؟ اصمتن » . وسألنا « كيف يحدث يا زوجى أن تسير الأمور بهذه السخف على أيدى الرجال ؟ » . ويجيب زعيم الرجال بقوله إن النساء يجب أن يبتعدن عن شئون الدولة ، لأنهن عاجزات عن تصريف شئون الخزانة العامة . (وتتسلل بعض النساء فى أثناء هذه النقاش إلى أزواجهن وهن يتمتمن بحجج من نوع حجج أرسطوفان) . وترد ليسسترا على ذلك بقولها : « وكيف لا يستطعن ؟ فطالما دبرت الزوجات شئون أزواجهن المالية لخيرهم ولخيرهن » . ونبدى من الحجج القوية ما يقنع الرجال آخر الأمر بعقد مؤتمر من الدول المحاربة ، ويجتمع مندوبو هذه الدول ، وتهيئ لهم ليسسترا كل ما يستطيعون أن يشربوه من الخمر . وسرعان ما تلعب الخمر برؤوسهم فيوقعون المعاهدة التى طال انتظارها ويختم المنشدون المسرحية بنشيد مدح السلم .

٢ - أرسطوفان والمتطرفون

يرى أرسطوفان أن انحلال الحياة الأثينية العامة يرجع إلى شرين أساسين هما الدمقراطية والخروج على الدين . وهو يتفق مع سقراط فى أن سيادة الأمة قد انقلبت فأصبحت سيادة السياسيين ؛ ولكنه كان واثقا من أن تشكك سقراط ، وأنكساغورس والسوفسطائيين قد ساعد على انحلال عرى الروابط الخلقية التى كانت فى الزمن القديم عاملا قويا فى تدعيم النظام الاجتماعى والاستقامة الفردية . وقد سخر أشد السخرية من الفلسفة الجديدة فى مسرحية السحب . وخلاصتها أن رجلا من الطراز القديم يدعى استرپسياديز Stripsiades كان يبحث عن حجة يبرر بها التنصل من ديونه ، فيغتبط إذ يسمع أن سقراط يدير متجرا للتفكير ، يستطيع كل إنسان أن يتعلم فيه كيف يثبت كل ما يريد إثباته ولو كان خاطئاً . ويتخذ الرجل طريقة إلى مدرسة « المفكرين الأشداء » ، ويرى

فى وسط حجرة الدرس سقراط معلقا من السقف فى سلة ، ومنهمكا فى التفكير كما يرى بعض الطلاب منحنين متجهين بأنوفهم نحو الأرض :

استرپسياديز : ماذا يفعل هؤلاء الناس الذين ينحنون هذا الانحناء العجيب ؟

الطالب : إنهم يفحصون عن الأسرار العميقة عمق ترتروس .

استرپسياديز : ولكن لم — عفوا ولكن — أجزاءهم الخلفية — لم أراهم مثبتين فى الهواء على هذا النحو العجيب ؟

الطالب : ان أطرافهم الأخرى تدرس الفلك

يطلب استرپسياديز إلى سقراط أن يعلمه بعض الدروس

سقراط : وبأى الآلهة تقسمون ، لأن الآلهة ليست من العملة الرائجة عندنا ؟ .

ويشير إلى فرقة المرتلين فى مسرحية السحب

إن هؤلاء هم الآلهة الحقيقون .

استرپسياديز : لكن قل لى ، ألا تؤمن بزيوس ؟ .

سقراط : ليس لزيوس وجود :

استرپسياديز : ومن الذى ينزل المطر إذن ؟ .

سقراط : هذه السحب ، فهل رأيت مطرا ينزل من غير سحاب ؟ ولو أن زيوس كان هو الذى ينزل المطر لأنزله فى الجو الصحو وحين تظهر السحب . . . .

استرپسياديز : ولكن قل لى من الذى يرسل الرعد ؟ إن جسمى ليرتجف منه

سقراط : إن هذه السحب فى اندفاعها تحدث الرعد .

استرپسياديز : كيف ؟

سقراط : إذا امتلأت بالماء واندفعت فى سيرها تساقطت بقوة عنيفة بعضها على بعض وأحدثت هذه القعقعة .

استربسياديز : ولكن من الذى يسوقها ؟ أليس هو زيوس ؟

سقراط : كلا ؛ إن الدوامة الأثيرية هى التى تسوقها .

استربسياديز : إذن فأعظم الآلهة كلها هى الدوامة . ولكن ما الذى يحدث قعقعة الرعد ؟

سقراط : سأعلمك من حالتك أنت نفسك . ألم يحدث لك مرة ما أن امتلأت بالطعام فى إحدى الولائم ، ثم اضطربت معدتك فحدثت فى داخلك كركرة ؟

وفى منظر آخر يلتقى فيدبيديز Pheidippides بن استربسياديز بالحجة الصحيحة والحجة الباطلة مجتمعتين . وتخبره أولاهما بأن عليه أن يقلد الفضائل الرواقية التى كان يتصف بها رجال مرثون ، ولكن الأخرى تشير عليه بأن يتخلق بالأخلاق الحديثة . وتسأله الحجة الباطلة : هل فى الناس من نال شيئاً بالعدالة أو الفضيلة أو الاعتدال ؟ وتقول : إنه إذا وجد رجل شريف ناجح وجد معه على الدوام عشرة رجال خونة ناجحين معظمين . وتضيف إلى ذلك قولها : انظر إلى الآلهة نفسها . لقد كذبت ، وسرقت ، وقتلت ، وزنت . وها هى ذى يعبدها اليونان جميعهم . وحين تشك الحجة الصحيحة فى أن معظم الناجحين كانوا خونة ، تسألها الحجة الباطلة :

من أية طبقة من الناس يخرج رجال القانون عندنا ؟

الحجة الصحيحة : من بين السفهاء .

الحجـــة الباطلة : هذا حق . ومن أى صنف يخرج شعراؤنا كتاب المآسى ؟

الحجة الصحيحة : من بين السفهاء .

الحجـــة الباطلة : وخطباؤنا العموميون ؟

الحجة الصحيحة : كلهم سفهاء :

الحجـــة الباطلة : انظرى الآن إلى من حولك ؛

تلتفت وتشير إلى النظارة

أية طبقة من الطبقات تنتمى إليها الكثرة الغالبة من أصدقائنا الحاضرين هنا ؟ .

وتفحص الحجة الصحيحة عن النظارة فى جد ووقار

الحجة الصحيحة : إن الكثرة الغالبة منهم سفهاء .

وفيدپديز تلميذ للحجة الباطلة يأتمر بأمرها ويبلغ من طاعته إياها أن يضرب أباه بحجة أنه يقوى على ضربه وأنه يستمتع بهذا الضرب ، ويسأل فوق ذلك : « ألم تضربنى وأنا غلام ؟ » ويستحلفه استرپسياديز بزيوس أن يرحمه ولكن فيدپديز يرد عليه بقوله إن زيوس لم يعد له وجود ، لأن الدوامة قد حلت محله . ويستشيط الوالد غضباً ، ويهيم فى الطرقات ، ويدعو جميع المواطنين الصالحين إلى القضاء على هذه الفلسفة الجديدة ، فيهاجمون متجر التفكير ويحرقونه ولا ينجو سقراط بحياته إلا بعد مجهد شديد .

ولسنا نعرف ماذا كان لهذه المسلاة من أثر فى مأساة سقراط . وكل الذى نعرفه أنها مثلت فى عام ٤٢٣ قبل المحاكمة الشهيرة بأربع وعشرين سنة ؛ ويبدو أن ما فيها من فكاهة طيبة لم يغضب الفيلسوف ، بل يقال إنه ظل واقفاً طوال التمثيل(١٢٨) ليمكن أعداءه من أن يروه أوضح رؤية . ويصور أفلاطون سقراط وأرسطوفان فى صورة الصديقين بعد التمثيل ، وقد أوصى أفلاطون نفسه ديونيشيوس الأول ملك صقلية بهذه الأعجوبة المسلية ؛ وظل محتفظاً بصداقته لأرسطوفان حتى بعد أن مات أستاذه(١٢٩) . وقد كان ملاتوس أحد الثلاثة الذين اتهموا سقراط فى عام ٣٩٩ طفلا

حين مثلت المسلاة ، وكان ثانيهما وهو أنيتس على وفاق مع سقراط بعد أن مثلت[١٣٠] ؛ وأكبر الظن أن انتشار المسرحية بعدئذ بوصفها قطعة أدبية أضر بالفيلسوف أكثر مما أضر به تمثيلها الأول . ولقد أشار سقراط فى دفاعه عن نفسه — كما يرويه أفلاطون — إلى هذه المسرحية وقال عنها إنها من أكبر الأسباب التى سوأت سمعته وألبت القضاة عليه .

وكان فى أثينة هدف آخر وجه إليه أرسطوفان سهام هجائه ، وقد وجهها هذه المرة سهام عداوة لا تنطفىء نارها . ذلك أنه لم يكن يثق بتشكك السوفسطائيين ؛ أو بالفردية الأخلاقية ، والاقتصادية ، والسياسية التى كانت تنخر فى عظام الدولة ؛ أو بالدعوة النسائية العاطفية التى ترمى إلى مساواة النساء بالرجال ، والتى كانت تثير ثائرة النساء ؛ أو بالاشتراكية التى كانت تعمل عملها بين الأرقاء . لقد رأى هذه المبادئ كلها واضحة أجلى وضوح فى يوربديز ، واعتزم أن يقضى بالضحك والسخرية على ما كان للكاتب المسرحى الكبير من أثر فى العقلية اليونانية .

وبدأ يعمل لهذه الغاية فى عام ٤١١ بمسرحية أسماها السموفريزوسيات Thesmophoriazusae . وقد اشتق هذا اللفظ من اسم النساء اللاتى كن يحتفلن بعيد دمتر وپروسفونى عن طريق الامتناع الجنسى . وفيه يجتمع عبادهما ليناقش آخر ما سخر به يورپديز من بنات جنسهن ، ويدبرن أمر الانتقام منه . وتترامى أنباء هذه الخطة إلى يورپديز فيشير على نسيلكس Mnesilochus والد زوجته بأن يلبس ثياب النساء ويدخل الاجتماع ليدافع عنه . وتشكو أولاهن من أن الكاتب المسرحى قد حرمها من وسيلة كسب عيشها ؛ فقد كانت من قبل تصنع أكاليل الزهور للهياكل ، فلما أن قال يورپديز إنه لا وجود للآلهة ، كسدت تجارتها . ويدافع نسيلكس عن يورپديز بقوله إن أسوأ ما قاله عن النساء حق لا مراء ، فيه ، وإنه أخف مما تعرفه النساء أنفسهن من أخطائهن . وترتاب النساء فى أن هذا

الطعن فى النساء صادر عن امرأة ، فيمزقن ثياب نسيلكس ، ولا يستطيع النجاة من تمزيق جسمه إرباً إلا بأن يختطف طفلا رضيعاً من بين ذراعى امرأة ، وينذرهن بأنه سيقتله إذا مسسنه هو بسوء . ولكنهن لا يعبأن بهذا التهديد ويهجمن عليه ، فيخلع عن الطفل لفافاته ، فيجد أنه زق خمر قد لف فى ملابس طفل هربا من أداء ضريبة الإيراد . ويقول إنه رغم هذا سيقطع عنقه وتحزن لهـذا صاحبة الزق وتصيح قائلة : « سألتك ألا تتلف زقى العزيز ، فإن كنت لا بد فاعلا فجئ بجفنة تتلق فيها دماءه » . ويحل نسيلكس المشكلة بأن يشرب الخمر ، ويرسل فى الوقت نفسه دعوة إلى يوربديز بأن يخف لإنقاذه من ورطته . وخليق بنا أن نقول بهذه المناسبة إن يوربديز يظهر فى أجزاء مختلفة من مسرحياته — فى صورة منلوس ، أو پرسيوس ، أو إكو Echo . وفى هذه المرة يفلح أخيرا فى تمكين نسيلكس من الهرب .

ويعود فى مسرحية الضفادع إلى مهاجمة يوربديز رغم موته : ذلك أننا نرى ديونيشس إله المسرحية غاضباً على من بقى حيا فى أثينة من كتاب المسرحيات ، فينزل إلى الجحيم ليعود بيوربديز . وتلتقى به وهو ينتقل فى قارب إلى العالم السفلى طائفة من الضفادع فتحييه بنقيقها تحية لا نشك فى أن شباب أثينة ظل يتندر بها شهراً كاملا . ولا ينسى أرسطوفان أيضاً أن يسخر من ديونيشس ولا يخشى من تمثيل طقوس إلوسيز تمثيلا ساخراً . ذلك أن الإله حين يصل إلى العالم السفلى يجد يوربديز يحاول خلع إسكلس عن زعامة كتاب المسرحيات جميعهم . ويتهم إسكلس يوربديز بأنه يعمل على نشر التشكك ، والحيل القانونية الخطرة ، وعلى إفساد أخلاق نساء أثينة وشبابها . ويقول إن من سيدات الطبقة العليا من قتلن أنفسهن لأنهن لم يطقن سماع بذاءة يوربديز . ثم يؤتى بميزان ويلقى كل شاعر فى إحدى كفتيه أبياتاً من مسرحياته . وترجح عبارة قوية من عبارات إسكلس على اثنتى عشرة عبارة من عبارات يوربديز (وهذا هجاء فى الشاعر الشيخ

نفسه) . ويعرض إسكلس آخر الأمر أن يقفز الشاعر الشاب إلى إحدى الكفتين ومعه زوجه ، وأبناؤه ، ومتاعه ، ويقول إنه يؤكد أن بيتاً واحداً من الشعر يرجح عليهم جميعاً . ويخسر المتشكك العظيم فى آخر الأمر المباراة ، ويعود إسكلس إلى أثينة منتصراً(*) . وقد منح القضاة هذه المقالة الأولى فى النقد الأدبى الجائزة الأولى ، وبلغ من سرور النظارة بها أن أعيد تمثيلها مرة أخرى بعد بضعة أيام .

وكذلك وجه أرسطوفان سخريته إلى الحركة المتطرفة بوجه عام فى مسرحية متوسطة القدر تدعى الإكليزيازوسيات The Ecclesiazusae أى نساء الجمعية (٣٩٣) . وموضوعها أن نساء أثينة يتخفين فى زى الرجال ، ويملأن مقاعد الجمعية ، وترجح أصواتهن على أصوات أزواجهن ، وإخوتهن ، وأبنائهن ، ويختار منهن حكام الدولة : وتتزعم هذه الحركة امرأة تدعى براكساغورا Praxagora شديدة التحمس لنيل النساء حقوقهن السياسية ، وتتهم بنات جنسها بالغفلة لأنهن يرضين بأن يحكمهن الرجال البلهاء . وتقترح أن تقسم الثروة بالتساوى بين المواطنين على أن يترك الأرقاء من غير أن يفسدهن الذهب . ويتخذ الهجوم على « المدينة الفاضلة » صورة أخف من هذه وأرحم فى مسرحية الطيور أرق مسرحيات أرسطوفان جميعها (٤١٤) . ومضمونها أن اثنين من مواطنى أثينة يستولى عليهما اليأس ، فيتسلقان إلى مسكن الطيور ، يأملان أن يجدا فيه الحياة المثالية التى ينشدانها . ويستعينان بالطيور على بناء مدينة فاضلة بين الأرض والسماء تدعى نفلوككسيجيا Nepheloccygia أى « أرض وقوق السحاب » . وتوجه الطيور مجتمعة خطابها إلى الآدميين فى نشيد لا يفوقه أى نشيد آخر وضعه شعراء المآسى تقول فيه :

(*) ربما كان هذا إشارة إلى تكرار تمثيل مسرحيات إسكلس .

أى بنى الإنسان ، يا قصار الأجل ، ويا من تملأ الأحزان حياتكم يوماً بعد يوم ، يا عراة ، يا منزوعى الريش ، يا ضعاف الأجسام ، يا كثيرى النزاع ، يامرضى ، يا من تنتابكم النوائب ، يا من خلقتم من طين ! استمعوا إلى أقوال السادة الطيور ، الخالدة ، مالكة الهواء ، التى تشرف من عل بأعينها الرحيمة ، على ما بينكم من نزاع ، وشقاء وكدح ، وقلق .

وتضع الطيور خطة لمنع كل الاتصال بين الآلهة والبشر ، ولا تسمح بأن تصعد القرابين إلى السماء . وتقول المصلحة منها إن الآلهة القدامى لن تلبث أن تموت جوعاً فتسود الطيور . ثم تخترع آلهة جدد على صورة الطير ، وتنزل الآلهة التى صورت فى صورة الآدميين عن عروشها ، ثم يأتى آخر الأمر وفد من أولمپس يسعى لعقد هدنة ، ويقبل زعيم الطير أن يتزوج من خادمة زيوس ، وتختتم المسرحية بهذا الزواج الموفق .

٣ — الفنان والمفكر

أرسطوفان مزيج من الجمال والحكمة والقذارة لا تستطيع أن نحدد الصنف الذى ينتمى إليه من الناس . كان فى وسعه إذا اعتدل مزاجه أن يكتب أغانى من الشعر اليونانى الخالص الرصين ، لم يستطع مترجم حتى الآن أن ينقله بروعته إلى لغة غير لغته الأصلية . وحواره هو الحياة نفسها ، أو لعله أكثر سرعة ، وأعظم طلاوة ، وأشد قوة مما تجرؤ أن تكون عليه الحياة ، وهو يشبه ربليه Rabelais وشيكسپير ، ودكنز ، فى قوة أسلوبه وحيويته ، وشخصياته كشخصياتهم أصدق تصويراً للعصر الذى عاش فيه من جميع ما ألفه المؤرخون فى ذلك العصر ، ويفوح منها شذاه أقوى مما يفوح من هذه المؤلفات كلها مجتمعة ؛ وليس فى وسع أحد أن يعرف الأثينيين حق المعرفة إذا لم يكن قد قرأ مسرحيات أرسطوفان . ومع هذا فإن حبكات مسرحياته هزأة سخيفة ، جمع أطرافها بإهمال يكاد أن

يكون مرتجلا . وتراه فى بعض الأحيان يستنفد موضوع المسرحية الرئيسى قبل أن يبلغ منتصفها ، ويتعارج ما بقى منها على عكازتى المجون والهزل حتى يصل إلى نهايتها . والفكاهة فى العادة من النوع الدنىء ، مثقلة بالجناس السهل الساذج ، وتطول حتى لا يطيق الإنسان طولها ، وكثيراً ما تستعار عباراتها من عمليات الهضم ، والتكاثر ، والتبرز . ففى مسرحية الأركانيين تسمع عن شخص لا ينقطع ساعة عن التبرز طيلة ثمانية أشهر(١٣١) . وفى السحب نرى فضلات الإنسان الكبيرة تمتزج بالفلسفة العليا(١٣٢) ، ولا تمر صفحة إلا نجد فى التى تليها أردافاً ، وصدراً ، وغدداً تناسلية ، وسفاداً ، ولواطاً ، واستمناء ، كل ذلك يعرض علينا(١٣٣) ؛ ثم نراه يتهم منافسه الشيخ أقراطينوس Cratinus بسيأ البول ليلا(١٣٤) . وهو بهذا كله أكثر الشعراء القدامى شبهاً بأهل هذه الأيام لأن الإسفاف والبذاء لا يختص بهما عصر من العصور . وإذا ما تحدثنا عنه بعد حديثنا عن مؤلف يونانى سواه — وبخاصة بعد حديثنا عن يوربديز — بدا لنا مسفاً إلى حد تشمئز منه النفس وتنقبض ، حتى ليصعب علينا أن نتصور أن النظارة الذين يستمعون إلى أحدهم هم بعينهم الذين يستمعون إلى الآخر .

وإذ كنا محافظين صادقين أطقنا هذا كله ، وحجتنا فى ذلك أن أرسطوفان يهاجم التطرف بكافة أشكاله ، ويستمسك مخلصاً بالفضائل والرذائل القديمة أياً كان نوعها . وهو على ما نعلم أحط الكتاب اليونان جميعهم خلقاً ، ولكنه يأمل أن يعوض هذا النقص بمهاجمة الفساد الخلقى ، ونراه دائماً إلى جانب الأغنياء ، ولكنه يشتهر بالجبن ؛ ويكذب كذباً يوسف على يوربديز حياً وميتا ، ولكنه يهاجم الغدر والخيانة ؛ ويصف نساء أثينة بالفظاظة إلى حد غير معقول ، ولكنه يشهر بيوربديز لأنه يفترى ويسخر بالآلهة سخرية جريئة(*) . وإذا وازنا بينه وبين سقراط التقى لم نجد بداً من أن نصوره

(*) وقد ورد فى أقواله : إن بعض الآلهة تقيم المواخير فى السماء .

كافراً مهزاراً ، لكنه رغم هذا يدعو بقوة إلى الدين ويتهم الفلاسفة بأنهم يعملون للقضاء على الآلهة . لكن تصوير كليون ذى السلطان القوى تصويراً هزليا ، وكشف عيوب ديموس أمام ديموس نفسه يتطلبان شجاعة حقة ؛ وتبين الخطر الشديد الذى يتهدد حياة أثينة من جراء اتجاه الدين والأخلاق من التشكك السوفسطائى إلى الفردية الأبيقورية ، نقول إن تبين هذا الخطر يتطلب كثيرا من الفطنة ونفاذ البصيرة . ولعل أثينة كان يصلح حالها لو أنها عملت ببعض نصائحه ، ولم تشتط فى نزعتها الاستعمارية ، وعقدت صلحا مبكراً مع اسپارطة ، وخففت بزعامة أرستقراطية ما فشا فى الدمقراطية التى قامت بعد عصر پركليز من فوضى وفساد .

ولقد أخفق أرسطوفان لأنه لم يكن جاداً فى نصائحه إلى الحد الذى يحمله على العمل بها . وكان إسرافه فى تمثيل الدعارة وفى الشتائم من الأسباب التى أدت إلى تحريم الهجو الشخصى ؛ ومع أن القانون الذى صدر بهذا التحريم قد ألغى بعد قليل من الوقت ، فإن « الملهاة القديمة » ذات النقد السياسى قد ماتت قبل موت أرسطوفان (٣٨٥) ، وحلت محلها فى مسرحياته الأخيرة نفسها « الملهاة الوسطى » ملهاة الأخلاق والغرام . لكن الحيوية التى كانت تمتاز بها الملهاة اليونانية قد اختفت باختفاء ما كان فيها من إسرف ووحشية ، وظهر فليمون ومناندر واختفيا وعفا ذكرهما ، أما أرسطوفان فقد ظل باقيا رغم تبدل المبادئ الأخلاقية والأنماط الأدبية ، حتى وصل إلى عصرنا هذا ومعه إحدى عشرة مسرحية من مسرحياته الاثنتين والأربعين كاملة لم ينقص منها شىء . ولا يزال إلى هذا اليوم حيا فى هذه المسرحيات رغم ما يعترض فهمها وترجمتها من صعاب . وإذا ما استطعنا أن نسد أنوفنا حتى لا يؤذيها فحشه وبذاءته استطعنا أن نقرأ مسرحياته بكثير من البهجة الدنسة .

الفصل السابع

المؤرخون

لم ينس اليونان النثر كل النسيان فى نشوة الشعر المسرحى ، فقد أولعوا أشد الولع بالخطابة مدفوعين إلى هذا بنزاعهم القضائى ونظامهم الدمقراطى . وإذا رجعنا إلى ذلك التاريخ البعيد — عام ٤٦٦ ق . م — رأينا كوراكس Corax السرقوصى يكتب رسالة يسميها تكنى لوجون Techne Logon (فن الكلمات) يرشد بها المواطنين الذين يريدون أن يخاطبوا الجمعية أو القضاة ؛ ونجد فيها منذ ذلك العهد تقسيم الخطبة إلى ديباجة ، وقصة ، ونقاش ، وملاحظات ثانوية ، ومسك الختام . ونقل غورغياس هذا الفن إلى أثينة ، واستخدم أنتيفون Antiphon الأسلوب المنمق فى الخطب والنشرات التى خصها بالدعاوة الأبلجركية ، ثم أضحت الخطابة اليونانية على يد ليسياس أكثر وضوحاً وأقرب إلى الأسلوب الطبيعى ؛ غير أن الخطب التى كانت تلقى على الجماهير لم تتخلص من خداع الألفاظ ، ولم تثبت ما للأسلوب الحديث البسيط من قوة الأثر ، إلا عند أعظم الساسة والحكام أمثال ثمستكليز وپركليز . وشحذ السوفسطائيون هذا السلاح الجديد واستغله تلاميذهم استغلالا بلغ من قوته أن حرم الحزب الأبلجركى تعليم فنون البلاغة بعد استيلائه على مقاليد الحكم فى عام ٤٠٤[١٣٦] .

وكان التاريخ أعظم ما أنتجه النثر فى عصر پركليز ، ونستطيع أن نقول إن القرن الخامس هو الذى كشف عن الماضى وبحث عن علاقة الإنسان بالزمن . ويمتاز فن التاريخ عند هيرودوت بكل ما فى الشباب من مصر وقوة ؛ فإذا ما وصلنا إلى توكيديدز بعد خمسين عاماً من عصر هيرودوت رأيناه قد بلغ حداً من النضوج لم يفقه فيه أى عهد من العهود التى أعقبته ، وكانت

الفلسفة السوفسطائية هى التى فصلت بين هذين المؤرخين وميزت كلا منهما من الآخر فقد كان هيرودوت أكثر بساطة من صاحبه ، ولعله كان أكثر منه رأفة ، وما من شك فى أنه كان أبهج منه روحاً . وقد ولد فى هليكرنسس Halicarnassus حوالى عام ٤٨٤ ، من أسرة بلغت من رفيع المنزلة درجة أمكنتها أن تشترك فى الدسائس السياسية . ونفى من بلده وهو فى الثانية والثلاثين من عمره بسبب مغامرات عمله السياسية . فبدأ من ذلك الوقت تلك الرحلات البعيدة التى كان لها أكبر الأثر فى تواريخه . وقد مر بفينيقية فى طريقه إلى مصر وتوغل فيها حتى وصل إلى جزيرة إلفنتين ، ووصل فى ترحاله غربا إلى قورينة وشرقا إلى السوس وشمالا إلى المدن اليونانية القائمة على شاطئ البحر الأسود . وكان حيثما ذهب يلاحظ ، ويبحث بعين العالم وتطلع الطفل ؛ ولما ألقى عصا التسيار فى أثينة حوالى عام ٤٤٧ كان فى جعبته مقدار ضخم من المذكرات المختلفة عن جغرافية الدول المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط ، وتاريخها وعادات أهلها . وقد استعان بهذه المذكرات وسرقات قليلة من هكتيوس Hecataeus وغيره من المؤرخين السابقين على تأليف أشهر الكتب التاريخية على الإطلاق . وقد وصف فى كتابه هذا حياة الناس فى مصر ، والشرق الأدنى ، وبلاد اليونان ، وسجل فيه تاريخ هذه البلاد كلها ، من بدايته الخرافية إلى نهاية الحرب الفارسية . وتقول إحدى القصص القديمة إنه قرأ أجزاء من كتابه هذا على الجمهور فى أثينة ، وإن الأثينيين أعجبوا أشد الإعجاب بما ورد فيه من وصف الحرب وما قاموا به فيها من أعمال مجيدة ، فقرروا له اثنتى عشرة وزنة (تالنت) أى ما يعادل ستين ألف ريال أمريكى— وهو مبلغ يرى أى مؤرخ أنه يبلغ من الضخامة حداً يجعله غير معقول . ويعلن هيرودوت فى مقدمة الكتاب بأسلوب رائع الغرض من وضعه فيقول :

« هذا عرض لبحوث (Historia) هيرودوت الهليكرنسي يقصد به

ألا يمحو الزمان ما قام به الهلينيون والبرابرة من أعمال مجيدة عجيبة ، ويقصد بنوع خاص ألا تنسى الأسباب التى من أجلها شنوا الحرب بعضهم على بعض » :

والكتاب إلى حد ما « تاريخ عالمى » لأنه يتناول قصة جميع الأمم التى تسكن فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، وهو أوسع فى مجال بحثه من الموضوع الضيق الذى شمله كتاب توكيديدز ، وتسرى فى الكتاب روح الوحدة غير المقصودة بما يتضمنه من باب الفرق بين حكم البرابرة المطلق والدمقراطية اليونانية ، ثم ينتقل بخطى وئيدة واستطرادات مضطربة إلى الخاتمة الروائية المتوقعة فى سلاميس . والغرض من الكتاب كما يقول المؤلف هو تسجيل « الأعمال العجيبة والحروب »(١٣٨) ، والحق أن القصة فى بعض مواضعها تعيد إلى الذاكرة سوء فهم جبن Gibbon للتاريخ حين يقول إنه « لا يعدو أن يكون سجلا لجرائم البشرية وحماقاتها ومصائبها »(١٣٩) . على أن هيرودوت رغم هذا يتسع له المجال لإيراد حقائق طريفة لا تحصى عن ملابس الجماعات التى يصفها ، وعاداتها ، وأحلامها ، ومعتقداتها . وهو يذكر لنا كيف يستطيع المصريون أن يقفزوا إلى النار ، وكيف يسكر أهل الدانوب من رائحة الخمر ، وكيف بنيت أسوار بابل ، وكيف يأكل المساجيتى Massagetee آباءهم ، وكيف كانت لكاهنة أثينا فى بداسس Pedasus لحية ضخمة . وهو لا يقتصر على تصوير الملوك والملكات ، بل يصور كذلك الرجال من جميع الطبقات ، ويبعث الحياة فى صحفه بذكر النساء اللاتى لا يجدن لهن مكانا فى كتاب ثوكيديدز . ويصف أحذيتهن ، وجمالهن ، وقسوتهن ، وفتنتهن .

وفى « هيرودوت كثير من الهراء » كما يقول استرابون(١٤٠) ، ولكن المجال الذى يبحث فيه مؤرخنا واسع سعة مجال أرسطاطاليس ، وفيه فرص كثيرة للزلل ، وجهله لا يقل سعة عن علمه ، كما لا تقل سذاجته وسرعة

تصديقه لكل ما يروى عن حكمته ؛ فهو يعتقد أن نطفة الأحباش سوداء[١٤١] ، ويصدق الخرافة القائلة إن اللسدمونيين قد نالوا النصر لأنهم جاءوا بعظام أرستيز إلى اسپارطة[١٤٢] ، وينقل أعداداً ضخمة عن جيوش خشيارشاى ، وعن قتلى الفرس وعن انتصارات اليونان الذين لم يكادوا يصابون فيها بجروح . وتسرى فى قصته روح الوطنية ولكنها ليست بعيدة عن الإنصاف ، فهو يعطى قسطاً من العناية لكلا الطرفين فى معظم المنازعات السياسية[*] . ويمجد بطولة الغزاة ، ويعترف بما كان يتصف به الفرس من شرف وشهامة ، وهو يقع فى أشنع أخطائه حين يعتمد على ما يحدثه به الأجانب ؛ فهو يظن أن نبوخذ نصر امرأة ، وأن جبال الألب نهر ، وأن كيوپس عاش بعد رمسيس الثالث ، لكنه حين يبحث فى أشياء أتيحت له الفرصة لمشاهدتها بنفسه ، يكون أدعى للثقة به ، وكلما ازداد علمنا بالتاريخ ازدادت أقواله ثباتا .

وهو لا يتردد فى قبول الكثير من الخرافات والأوهام ، ويسجل الكثير من المعجزات ، ويرى النبوءات فى خشوع الأتقياء ، ويسود صحفه بالتفاؤل والتطير ؛ ويحدد تواريخ سميلى Semele ، وديونيشس ، وهرقل ؛ ويعرض التاريخ كله ، كما يعرضه بوسيه Bossuet كأنه مسرحية من وضع القوة الإلهية المدبرة لشئون العالم ، تثاب فيها الفضائل ، وتعاقب الخطايا والجرائم ، وطغيـــان الناس إذا استغنوا . لكن عقله تكون له الغلبة أحياناً ؛ ولعل سبب ذلك أنه يستمع للسوفسطائيين فى آخر حياته . فهو يشير إلى أن هومر وهزيود هما اللذان وضعا أسماء آلهة أولمپس وخلعا عليها صورها ، وأن أديان الناس وليدة عاداتهم ، وأن ما يعرفه إنسان ما عن الآلهة يعادل ما يعرفه غيره[١٤٣] . وهو يرى أن العناية الإلهية هى الحكم الذى لا معقب لحكمه فى تاريخ العالم ، لكنه يهمل بعد ذلك أمرها

(*) قارن بحثه الخيالى البارع فى الملكية ، والأرستقراطية ، والدمة اطية فى الكتاب الثالث ص ٨٠ — ٨٢)

ويبحث عن الأسباب الطبيعية للحادثات ، ويوازن بين شخصيات ديونيشس وأوزيريس ، وأساطيرهما موازنة العالم المحقق ؛ ويبتسم ابتسامة المتسامح مما يروى عن تدخـــل الآلهة فى حوادث العالم ، ويعرض لتفسيرها أسبابا طبيعية[١٤٤] ؛ ويكشف لنا عن خطته العامة ويغمز بطرف عينه حين يقول : « إنى مضطر إلى أن أقص ما ينقل إلىّ ، ولكنى غير ملزم بتصديقه ، وأحب أن يصدق هذا القول على كل قصة أرويها فى هذا التاريخ »[١٤٥] ، وهو أول من وصلت إلينا مؤلفاتهم من المؤرخين اليونان ، وعلى هذا الاعتبار لا نلوم شيشرون على وصفه إياه بأنه أبو التاريخ . ويضعه لوشيان ، كما يضعه معظم الأقدمين ، فى منزلة أرق من منزلة توكيديدز[١٤٦] .

ومع هذا كله فإن الفرق بين عقل هيرودوت وعقل توكيديدز كالفرق بين المراهقة والنضوج ، ذلك أن توكيديدز ظاهرة من ظواهر عصر الاستنارة اليونانى ، وهو من سلالة السوفسطائيين ، كما كان جبن من الناحية الروحية من سلالة بايل Bayle وفولتير . وكان والده من أثرياء الأثينيين يمتلك مناجم للذهب فى تراقية ، وكانت أمه تراقية من أسرة عريقة . وقد تلقى كل ما كان فى أثينة فى أيامه من تعليم ، ونشأ فى جو التشكك الفلسفى ، ولما شبت نار حرب البلوپونيز أخذ يسجل حوادثها يوما فيوما ، ثم مرض بالطاعون فى عام ٤٣٠ ، وفى عام ٤٢٤ اختير وهو فى سن السادسة والثلاثين (أو الأربعين) أحد قائدين توليا قيادة حملة بحرية سيرت إلى تراقية ، ولما أن عجز عن قيادة قواته إلى أمفپوليس Amphipolis ليفك عنها الحصار فى الوقت المناسب — نفاه الأثينيون ، فقضى العشرين سنة التالية من عمره يتنقل من بلد إلى بلد وبخاصة فى إقليم البلوپونيز . وإلى هذا العلم المباشر بأحوال العدو يرجع بعض ما يمتاز به كتابه من نزاهة ذات أثر كبير فى النفس . ولما شبت الثورة الأبجركية فى عام ٤٠٤ انتهى أجل نفيه فعاد إلى أثينة . ومات — ويقول بعضهم انه اغتيل — فى عام ٣٩٦ أو قبله قبل أن يتم تاريخ

حرب البوبونيز . وهو يبدأ ذلك التاريخ بهذه العبارة البسيطة :

كتب توكيديدز — وهو رجل أثيني — تاريخ الحرب التي دارت رحاها بين البلوبونيز والآثينيين ، من ساعة أن اشتعلت نارها . وكان يعتقد أنها حرب خطيرة الشأن ، أجدر بالرواية من أية حرب سبقتها .

ويبدأ قصته الافتتاحية من النقطة التي انتهى إليها هيرودوت في ختام حرب الفرس . ومما يؤسف له أن عبقرية أعظم المؤرخين اليونان لاترى في الحياة اليونانية شيئاً أجدر بالتسجيل من حروبها . لقد كان هيرودوت يكتب وهو يستهدف تسلية القارئ المتعلم ، أما توكيديدز فيكتب ليمد مؤرخي المستقبل بالمعلومات ، ويسجل السوابق ليسترشد بها الحكام في المستقبل . وكان هيرودوت يكتب بأسلوب سهل مهلهل غير متماسك ، ولعل الذي أوحى إليه بهذا الأسلوب هو ملاحم هومر الجوالة الهائمة . أما توكيديدز فيكتب كما يكتب من استمع إلى الفلاسفة ، والخطباء ، والكتاب المسرحيين ، بأسلوب يكثر فيه التعقيد والغموض ، لأنه يحاول أن يجمع فيه بين الإيجاز والدقة والعمق ، أسلوب تفسده في بعض الأحيان بلاغة غورغياس وزخرفها ، ولكنه في بعض الأحيان لا يقل عن أسلوب ناستس وضوحاً وإحكام سبك ، ويسمو في اللحظات الحاسمة إلى العبارات المسرحية التي تبلغ من القوة ما تبلغه أية عبارة من عبارات يوربديز. ولسنا نجد في المسرحيات اليونانية ما هو أروع من الصفحات التي يصف فيها حملة سرقوصة ، أو تردد نيشياس ، أو ما أعقب الهزيمة من فزع وروع . ولنعد مرة أخرى إلى الموازنة بين هيرودوت وتوكيديدز فنقول إن هيرودوت يتنقل من مكان إلى مكان ، ومن عصر إلى عصر ؛ أما توكيديدز فيضغط قصته في إطار جامد من الفصول والسنين ، مضحياً في ذلك بتسلسلها . وكان هيرودوت يكتب عن الأشخاص أكثر مما يكتب عن مجرى الحوادث لأنه يحس أن الشخصيات هي التي تجرى الحادثات ، أما توكيديدز فهو وإن كان يعترف بما للأفراد غير

العادين من خطر فى التاريخ ، وإن كان يخفف من أعباء موضوعه بما يبثه فيه من صورة بركليز ، وألقيبادس ، ونيشياس وأمثالهم ، يجنح لتدوين الحادثات أكثر مما يجنح لذكر الأشخاص ، ويبحث فى علل الحوادث وتطوراتها ، ونتائجها . وكان هيرودوت يكتب عن حوادث جد بعيدة عنه نقلت إليه أخبارها معنعنة مرتين أو ثلاث مرات فى معظم الحالات ، أما توكيديديز فكثيراً ما يحدثنا عما شاهده بعينيه ، أو عما سمعه ممن شاهدوا بعيونهم ، أو اطلعوا على وثائقه الأصلية ، وكثيراً ما يثبت الوثائق التى يتحدث عنها . وهو شديد الحرص على الدقة ، وحتى وصفه الجغرافى نفسه قد ثبتت صحة تفاصيله . وقلما يصدر أحكاماً أخلاقية على الرجال أو الحادثات. ويطلق العنان لسخريته الأرستقراطية من الدمقراطية الأثينية فتتغلب عليه وهو يصور كليون ، ولكنه فى أكثر الأحيان يبعد شخصيته من قصته ، ويروى الحقائق بنزاهة لا يتحيز لأحد الطرفين ، ويقص قصة حياته توكيديدز العسكرية القصيرة وكأنه لم يعرف ذلك الرجل قط ، دع عنك أنه هو الرجل الذى يقص قصته . وهو مبتدع الطريقة العلمية فى التاريخ ، ويفخر بما بذله فى تأليفه من الجد والعناية . ويقول وهو يشير من طرف خفى إلى هيرودوت :

وإنى عتقد أن النتائج التى وصلت إليها من الأدلة التى ذكرتها هنا يمكن أن يوثق بها ويعتمد عليها . وما من شك فى أنها لن تؤثر فيها قصص شاعر يعرض ما فى صناعته من مبالغات ، ولا تآليف الإخباريين التى يضحى فيها بالحقائق فى سبيل الطرافة والجاذبية لأن الموضوعات التى يعالجونها خارجة عن نطاق الأدلة والبراهين ، ولأن قدم عهدها قد سلبها قيمتها التاريخية ورفعها إلى مقام الخرافات . أما نحن فلم نلجأ إلى هذه الطريقة أو تلك ، ولا ريب عندنا فى أننا قد اعتمدنا على أصح المعلومات وأكثرها وضـــوحاً ، وأننا قد وصلنا إلى نتائج تبلغ من الدقة أقصى ما ينتظره الإنسان فى أمثال هذه المسائل الموغلة فى القدم . . . وإنى لأخشى أن يفقد كتابى بعض ما يجب أن يحتويه من طرافة ومتعة بسبب خلوه

من القصص الخيالية المثيرة للعواطف ، ولكن إذا رأى الباحثون الذين يرغبون فى الوصول إلى حقائق الماضى الصحيحة ليستعينوا بها على تفسير حوادث المستقبل — وهى التى تشبه بلا ريب حوادث الماضى ، إن لم تكن صورة مطابقة لها — إذا رأى هؤلاء الباحثون أن فيه فائدة لهم ، فإنى أرضى بهذا وأقنع به . وملاك القول أنى لم أكتب كتابى هذا ليكون مقالة يكسب بها تصفيق الناس وثناؤهم لحظة قصيرة ، بل كتبته ليكون ملكا لجميع العصور(١٤٧) .

لكنه مع هذا يضحى بالدقة فى سبيل الطرافة فى حالة واحدة معينة ، فهو مولع بأنه ينطق شخصياته بالخطب الطنانة ، ويعترف صراحة بأن معظم هذه الخطب من نسج الخيال ، ولكنها مع ذلك تساعده على توضيح الشخصيات والأفكار والحوادث وإنعاشها . وهو يدعى بأن كل خطبة من هذه الخطب تتضمن خلاصة خطبة حقيقية ألقيت فعلا فى الوقت الذى يتحدث عنه . فإذا كان هذا صحيحاً فإن جميع رجال الحكم وقواد الجيش من اليونان قد درسوا بلا ريب فنون البلاغة مع غورغياس ، والفلسفة مع السوفسطائيين ، وعلم الأخلاق مع ثرازمكس . يضاف إلى هذا أن الخطب جميعها واحدة فى أسلوبها وفى مراوغتها ودهائها ، ونظرتها الواقعية إلى الأمور . وهى تجعل الاسپارطى صاحب الرد الموجز المسكت مراوغاً كأى أثينى تربى بين السوفسطائيين ، وتنطق الدبلوماسيين بحجج أبعد ما تكون عن الدبلوماسية(*) وتضفى على عبارات قادة الجند أمانة صارمة لا قبل لهم بها . وليست « خطبة پركليز الجنازية » إلا مقالا بديعاً فى فضائل أثينة ، كتبها بأسلوب رشيق رجل مطرود من بلده ، مع أن پركليز قد اشتهر ببساطة خطبه وبعدها من فنون البلاغة ، هذا إلى أن فلوطرخس يفسد على توكيديدز دعواه الخيالية الروائية بقوله إن پركليز لم يخلف وراءه شيئاً مكتوباً ، وإن أقواله لا يكاد يبقى منها شىء على الإطلاق(١٤٨) .

(*) خطب ألقبيادس فى اسپارطة ، المجلد الرابع (ص ٢٠ ، ٩٨) .

ولتوكيديدز من العيوب ما يعادل فضائله ، فهو صارم كصرامة التراقى ، وتنقصه روح المرح والفكاهة الأثينية ، ولذلك يخلو كتابه من الفكاهة أياً كانت ، وتراه منهمكا على الدوام فى « هذه الحرب التى يؤرخها توكيديدز » (وهى عبارة يكررها فى كثير من الفخر) إنهماكا يصرفه عن كل شىء عدا الحوادث السياسية والحربية . وهو يملأ صفحاته بالتفاصيل العسكرية ، ولا يذكر قط فناناً واحداً ولا عملا من أعمال الفن . وهو دائم البحث عن علل الأشياء ، ولكنه قلما يتعمق إلى العوامل الاقتصادية التى تكمن وراء العوامل السياسية وتحدد مجرى الحادثات ؛ وهو وإن كان يكتب للأجيال المقبلة ، لا يحدثنا بشىء عن دساتير الدول اليونانية أو عن حياة المدن ، أو نظم المجتمعات . وهو يتجنب التحدث عن النساء بقدر تجنبه التحدث عن الآلهة ، ويأبى أن يكون لهن موضع فى قصته ، وهو ينطق پركليز صاحب الشهامة والمروءة الذى عرض حياته للخطر من أجل محظية تطالب بحرية المرأة ، ينطقه بقوله : « إن سمعة المرأة إنما تقوم على امتناع الرجال عن ذكرها بالخير أو بالشر قدر المستطاع[١٤٩] » . وهو وإن عاش فى عصر يعد أعظم عصور التاريخ ثقافة ، يضل فى بيداء الانتصارات والهزائم العسكرية المتعاقبة التى تقوض قواعد المنطق من أساسها ، ولا يتغنى بالحياة العقلية الأثينية التى تهز المشاعر هزاً ، بل يبقى قائداً عسكرياً بعد أن يصبح مؤرخا .

على أننا رغم هذا كله مدينون له بالشىء الكثير ، وليس من حقنا أن نعيبه فوق ما يستحق لأنه لم يكتب ما لم يتكفل بكتابته ، فهاهنا نجد فى القليل طريقة لكتابة التاريخ منظمة ، واحتراماً للحقائق ، ودقة فى الملاحظة ، ونزاهة فى الحكم ، وجزالة فى اللفظ لم تبق بعده طويلا ، وسحراً فى الأسلوب ، وعقلا قويا سديدا عميقا ، تصلح واقعيته الصارمة لأن تكون دعامة لأرواحنا الروائية الخيالية بفطرتها . ولسنا نجد فى كتابه شيئا من

القصص الخرافية ، أو الأساطير ، أو المعجزات . وهو يقبل قصص البطولة ، ولكنه يحاول أن يفسرها بالاستناد إلى العلل الطبيعية ؛ ويغفل ذكر الآلهة إغفالا تاما ، ولا يجعل لها موضعا فى كتابه ، ويسخر من النبوءات والوحى ومن غموضها الذى يجعلها فى مأمن من الخطأ[١٥٠] ، ويندد فى سخرية بغباء نيشياس إذ يركن إلى النبوءات بدل أن يركن إلى المعرفة الحقة . وهو لا يعترف بوجود قوة عليا مدبرة مرشدة ، أو خطة إلهية موضوعة محكمة ، بل إنه لا يعترف حتى « بالتقدم » نفسه ؛ وهو ينظر إلى الحياة والتاريخ نظرته إلى مسرحية دنيئة ونبيلة معا ، يرفع من شأنها بين الفينة والفينة عظماء الرجال ، ولكنها تهوى على الدوام إلى وهدة الخرافة ، والحرب . وفى شخصه يحسم النزاع بين الدين والفلسفة وتنتصر الفلسفة ؟

وبعد ، فإن فلوطرخس وأثنيسوس يشيران فى كتبهما إلى مئات من المؤرخين اليونان ، ولكن الذين عاشوا منهم فى العصر الذهبى ، عدا هيرودوت وتوكيديدز قد عدا الدهر عليهم كلهم تقريبا فعفت آثارهم ، ومن جاء بعدهم من المؤرخين لم يبق من كتبهم إلا فقرات متفرقة . وقد حدث هذا بعينه لمختلف الآداب اليونانية الأخرى ؛ فليس لدينا من آثار كتاب المآسى المسرحية الذين يعدون بالمئات والذين نالوا الجوائز فى حفلات ديونيشيا إلا عدد قليل من المسرحيات كتبها ثلاثة من الشعراء ، أما كتاب الملاهى الكثيرون فلم يبق إلا أثر لواحد منهم ، ولم يبق من فلسفة ذلك العصر إلا آثار رجلين اثنين . وفى وسعنا أن نقول بوجه عام إنه لم يبق من الآداب اليونانية التى يعزوها النقاد إلى القرن الخامس قبل الميلاد أكثر من جزء واحد من عشرين جزءا من نتاج ذلك القرن ، وإنه لم يبق من آثار القرون التى سبقته أو تلته إلا أقل من هذا القليل[١٥١] . والكثرة الغالبة مما بقى لنا قد جاءتنا من أثينة ؛ ولقد أنبتت المدن الأخرى ، كما نستدل من عدد الفلاسفة الذين بعثت بهم إلى أثينة ، عدداً كبيرا من العباقرة ؛ ولكن البربرية التى طغت عليها من خارجها ومن أسفل منها

قد ابتلعت ثقافتها أسرع مما ابتلعت ثقافة أثينة ، فضاعت مخطوطاتها فى فوضى الثورات والحروب ، وليس فى وسعنا إلا أن نحكم على الكل من هتامات الجزء .

لكن تراث هذه الحضارة رغم هذا كله تراث عظيم ، عظيم فى شكله بلا ريب إن لم يكن فى مقداره (ومنذ الذى استطاع أن يستوعبه كله ؟) ؛ والشكل والنظام هما جوهر أسلوب العصر الذهبى فى الأدب وفى الفن على السواء ؛ فالكاتب اليونانى ، كالفنان اليونانى الذى يعد أنموذجا لذلك العصر ، لا يقنع بمجرد التعبير عما يريد ، بل يتوق إلى أن يكسب مادته شكلا وجمالا . وهو يعمد إلى مادته فيقصها من أطرافها ويشذبها ، ويعيد تنظيمها لتكون واضحة جلية ، ويحولها إلى صورة من البساطة المعقدة ؛ وهو دائماً واضح يسلك أقصر الطرق إلى قصده ، وقلما يلجأ إلى الدوران أو الغموض ، يتجنب المبالغة والتحيز ، وإذا ما لجأ إلى الخيال فى مشاعره حاول أن يكون منطقياً فى تفكيره . وهذا الجهد الدائم الذى لا ينفك يبذله لإخضاع الخيال للعقل ، هو الصفة الغالبة المسيطرة على العقل اليونانى ؛ لا بل على الشعر اليونانى نفسه . ومن أجل هذا كان الأدب اليونانى أدباً « حديثاً » بل قل أدباً معاصراً ؛ فإنا ليصعب علينا أن نفهم دانتى أو ملتن ؛ أما يوربديز ، وتوكيديدز ، فهما شديدا القرب من عقولنا وينتميان إلى عصرنا . وسبب ذلك أن العقل يبقى من غير تغيير وإن تغيرت الأساطير ، وأن حياة العقل تؤاخى بين أنصارها ومحبيها فى كل زمان ومكان .

الباب الثامن عشر

انتحار بلاد اليونان

الفصل الأول

العالم اليونانى فى عهد بركليز

خليق بنا قبل أن نواجه منظر حرب البلوبونيز المحزنة أن نلقى نظرة على العالم اليونانى خارج أتكا . ولكن معلوماتنا عن الدولة الواقعة فى هذا العالم ضئيلة إلى حد لا يسعنا معه إلا أن نفترض ما لا تستطيع أن نقيم عليه الدليل ؛ وهو أنها كانت تشترك مع أثينة فى الازدهار الثقافى الذى امتاز به العصر الذهبى وإن لم تبلغ مبلغ أثينة نفسها فى هذا الازدهار .

فى عام ٤٥٩ سير بركليز أسطولا ضخماً ليطرد الفرس من مصر حرصاً منه على أن يضمن لبلاده قمحها . وأخفقت الحملة فى غرضها ، وسار بركليز من ذلك الحين على السياسة التى كان يسير عليها ثمستكليز ، وهى أن يكسب العالم بالتجارة لا بالحرب . من أجل ذلك ظلت مصر وقبرص طوال القرن الخامس خاضعتين لحكم الفرس ، واحتفظت رودس بحريتها ، ثم انضمت مدنها الثلاث وأصبحت مدينة واحدة عام ٤٠٨ فتهيأت بذلك إلى أن تكون فى العهد الذى اصطبغ فيه العالم المعروف بالصبغة اليونانية مركزاً من أغنى المراكز التجارية فى حوض البحر الأبيض المتوسط . واحتفظت المدن اليونانية فى آسية باستقلالها الذى ظفرت به فى ميكالى عام ٤٧٩ حتى أضحت بعد تدمير الإمبراطورية الأثينية

ضعيفة عاجزة عن مقاومة جباة الملك العظيم(*) . وازدهرت المستعمرات اليونانية فى تراقية وعلى شواطئ الهلسپنت والپروپنتس واليوكسين(**) تحت السيطرة الأثينية ، ولكن الحرب الپلوپونيزية أكلت فيها الأخضر واليابس . وخرجت مقدونية تحت حكم أرخلوس Archelaus من غمار الهمجية وأضحت إحدى الدول الكبرى فى العالم اليونانى . فأنشئت فيها الطرق الصالحة ، وصار لها جيش حسن النظام والتدريب من رجال الجبال الأشداء ، وبنيت لها عاصمة جديدة جميلة فى پلا ، ورحب بلاطها بكثيرين من عباقرة اليونان أمثال تموثيوس Timotheus ، وزيوكسيز Zeuxis ، ويوريپديز ، وضربت بلاد اليونان فى الحلف البؤونى مثلا طيباً لم تنتفع به لحياة الدول حرة مستقلة فى ظلال السلم والتعاون الدولى .

وفى إيطاليا عانت المدن اليونانية أشد البلاء من جراء الحروب المتكررة ومن تفوق أثينة فى مجال التجارة البحرية . وأرسل پركليز فى عام ٤٤٣ جماعة من الهلينيين جمعهم من عدة دول لينشئوا بالقرب من سيبارس مستعمرة ثوريای Thurii الجديدة لتكون تجربة فى سبيل الوحدة الهلينية الجامعة ، ووضع پروتاغوراس قانوناً عاماً للمدينة ، وخطط هپودامس المهندس المعمارى شوارعها على نظام مربع حذت كثير من المدن الأخرى حذوه فى القرون التالية . ولكن لم تمض على تلك التجربة إلا بضع سنين حتى انقسمت المستعمرات أحزاباً وشيعاً حسب أصولها ، وحتى عاد معظم الأثينيين ، وأكبر الظن أن هيرودوت كان منهم ، إلى أثينة .

وظلت صقلية — وهى التى كانت دائماً مضطربة ولكنها كانت دائماً غنية — تنمو ثروتها وتزداد ثقافتها . وشادت سلينس وأقراغاس معابد ضخمة

(*) يريد ملك الفرس . (المترجم)

(**) أى الدردنيل وبحر مرمرة والبحر الأسود . (المترجم) .

وبلغت أقراغاس فى عهد ثيرون درجة من الغنى قال فيها أنبادوقليس : « ينغمس رجال أقراغاس فى الترف كأنهم يموتون غداً ، ولكنهم يوثثون بيوتهم كأنهم يعيشون أبداً[1] » . وترك چيلون الأول بعد موته فى عام ٤٧٨ لسرقوصة نظاماً إدارياً لا يكاد يقل إحكاماً عن النظام الذى خلفه ناپليون لأوربا الحديثة . وأضحت المدينة فى عهد أخيه هيرون الأول الذى جلس على العرش من بعده مركزاً للأدب والعلم والفن فضلا عن التجارة والثروة . وفيها أيضاً بلغ الترف غايته . فكانت المآدب السرقوصية مضرب المثل فى البذخ ، وكثرت « البنات الكورنثيات » فى المدينة حتى كان الرجل الذى ينام فى منزله يعد من القديسين ؛ وكان الأهلون سريعى البديهة حداد الألسنة ، يستمتعون بالخطب البليغة إلى حد أفسد عليهم أمورهم ، ويتزاحمون فى الملهى الفخم ذى الهواء الطلق ليستمعوا إلى مسالى إپكارمس ومآسى إسكلس(*) .

وكان هيرون هذا ملكاً مستبداً غليظ القلب حسن القصد ، قاسياً على أعدائه ، مكرماً لأصدقائه . فتح بابه وخزائنه لسمونيديز ، وبكليديز ، وپندار ، وإسكلس ، واستعان بهم على جعل سرقوصة إلى وقت ما عاصمة اليونان العقلية ؛

لكن الناس لا يعيشون على الفن وحده ؛ وكان السرقوصيون يتوقون إلى نعمة الحرية ، فلما توفى هيرون خلعوا أخاه وأقاموا حكومة دمقراطية مقيدة ، وشجع هذا مدن الجزيرة الأخرى ، فحذت حذو سرقوصة وطردت الطغاة الحاكمين ، وقضت على الأشراف ملاك الأراضى وأنشأت دمقراطيات تجارية تقوم على نظام من الاسترقاق القاسى الشديد . وقضت الحرب بعد سبتين

(*) وأكبر الظن أن هذا الملهى قد بنى فى عهد هيرون الأول (٤٧٥ — ٤٦٨) ثم أعيد بناؤه فى عهد هيرون الثانى (٢٧٠ — ٢١٦) . وقد بقى منه جزء كبير . ومثلت فيه فى هذا القرن كثير من المسرحيات اليونانية القديمة .

سنة من ذلك الوقت على هذه الفترة من فترات الحرية كما قضت من قبل على فترة أخرى مماثلة لها عن يد چيلون الأول . وفى عام ٤٠٩ غزا القرطاجيون صقلية بأسطول ضخم مؤلف من ألف وخمسمائة سفينة وعشرين ألف رجل بقيادة هنيبال حفيد هملكار ؛ وذلك بعد أن ظلوا ثلاثة أجيال محتفظين بذكرى هزيمة هملكار فى هيميرا Himera . وحاصر هنيبال سلينس وكانت قد جنحت إلى السلم بعد أن عمها الرخاء ، وأهملت معاقلها فلم تصلح شأنها . فلما أن باغت العدو المدينة استغاثت بأقراغاس وسرقوصة ، وتباطأ أهلهما المنعمون فى إغاثتها تباطؤ الاسپارطيين ، حتى استولى العدو على سلينس ، وذبح كل من بقى حيا من أهلها وقطع أوصالهم ، وأصبحت المدينة جزءاً من الإمبراطورية القرطاجية . وواصل هنيبال زحفه على هيميرا ، واستولى عليها دون عناء ؛ وعذب وقتل ثلاثة آلاف من أهلها ، ليرضى بذلك شبح جده المهزوم . ثم فشا الطاعون بين جنوده فأهلك أكثرهم ، ومات به هنيبال نفسه فى أثناء حصار أقراغاس ، غير أن القائد الذى خلفه سكن غضب آلهة قرطاجة بأن حرق ابنه زلفى لهذه الألهة . واستولى القرطاجيون على المدينة ، وعلى چيلا Gela وكمرينا Camarina وزحفوا على سرقوصة . وبوغت السرقوصيون وهم منهمكون فى ولائمهم ، فأسلموا زمام السلطة المطلقة لديونيشس أعظم قائد فى بلدهم ، ولكن ديونيشس عقد الصلح مع القرطاجيين وترك لهم القسم الجنوبى من صقلية بأجمعه واستخدم جنوده فى إقامة الدكتاتورية ثانية (٤٠٥) . ولم يكن ذلك كله غدرا منه وخيانة لبلاده ، فقد كان يعرف أن المقاومة غير مجدية ، فنزل للعدو عن كل شىء عدا مدينته وجيشه ، واعتزم أن ينهض بالمدينة والجيش حتى يستطيع أن يفعل ما فعله چيلون من قبله فيطرد الغزاة من صقلية .

الفصل الثانى

كيف شبت نار الحرب الكبرى

لا يستطيع المواطن الساذج إلا أن يعتقد أن سبب كل الحروب هو على اللوام سبب شخصى — بل شخص واحد فى العادة ، كما لا تستطيع النفس الساذجة إلا أن تصور إلهها فى صورة إنسان . وحتى أرسطوفان نفسه قد فعل ما فعله الثرثارون النمامون من رجال عصره فادعى أن پركليز هو الذى أوقد نار الحرب البلوپونيزية بهجومه على ميغارا لأن ميغارا أساءت إلى إسپانيا[3] .

والراجح أن پركليز الذى لم يتردد فى الاستيلاء على أيجينا ، كان يأمل أن تستحوذ أثينة على التجارة اليونانية بأجمعها ، وذلك بسيطرتها على ميغارا وعلى كورنثة أيضاً ؛ ولقد كان مركز كورنثة بالنسبة لبلاد اليونان كمركز اسطنبول فى شرق البحر الأبيض المتوسط فى وقتنا الحاضر — كانت باباً ومفتاحاً لتجـارة نصف قارة . لكن سبب الحرب الجوهرى هو نمو الإمبراطورية الأثينية ، وازدياد سيطرة أثينة على الحياة التجارية والسياسية فى بحر إيجة . لقد كانت أثينة تترك التجارة حرة فى هذا البحر وقت السلم ، لكنها لم تكن تفعل ذلك إلا إذا أجازته هى وسمحت به مصالحها الإمبراطورية ؛ ولم يكن فى مقدور أية سفينة أن تمخر عباب هذا البحر إلا برضائها .

وكان رجال أثينيون موكلون منها يحددون مستقر كل سفينة تغادر ثغور الحبوب فى البلاد الشمالية ؛ ولما أن كاد الجذب يهلك ميثونى Methone لم تستطع أن تستورد القليل من الحبوب إلا بعد استئذان أثينة[4] . وكانت تلك المدينة تدافع عن هـــذه السيطرة لأنها تراها أمراً حيوياً لا بد منه لبقائها ، فقد كانت تعتمد فى طعامها على ما تستورده من خارج بلادها ، وقد أجمعت أمرها على أن تحرس الطرق التى يصل منها هذا

الطعام إليها ؛ على أنها بحراستها طرق التجارة الدولية كانت تؤدى خدمة حقة للسلم والرخاء فى بحر إيجة ، ولكن الطريقة التى سارت عليها فى أداء هذه الخدمة ازدادت إيلاماً للمدن الخاضعة لها وجرحاً لكبريائها كلما زاد ثراء هذه المدن وقوى إحساسها بعزتها القومية . وكانت أثينة قد أخذت تنفق الأموال التى تبرعت بها هـذه المدن لتصد بها غارات الفرس عنها فى تجميلها ، بل لقد بلغ منها أن أخذت تنفقها فى شن الحرب على غيرها من مدن اليونان[٥] . وكانت الأحوال المفروضة على تلك المدن تزداد عاماً بعد عام حتى بلغت فى عام ٤٣٢ ق . م ٤٦٠ وزنة (٠٠٠ر٣٠٠ر٢ ريال أمريكى) فى العام . وكانت أثينة قد قصرت على المحاكم الأثينية حق النظر فى جميع القضايا التى تنشأ فى داخل الحلف إذا كان أحد طرفى النزاع مواطناً أثينياً أوكانت القضايا تشمل جرائم كبرى . فإذا ما وقفت مدينة فى وجه أثينة أخضعتها بالقوة ، وعلى هذا النحو أخمد پركليز بسرعة ومهارة الفتن التى ثار نقعها فى إيجينا (٤٥٧) ، وعوبية (٤٤٦) ، وساموس ٤٤٠ .

وإذا جاز لنا أن نصدق قول توكيديدز فإن زعماء الدمقراطية الأثينية كانوا يعترفون أن حلف المدن الحرة قد أصبح إمبراطورية تقوم على القوة ، وإن كانوا قد اتخذوا الحرية الغرض الأسمى لسياستهم فى داخل أثينة نفسها . وفى ذلك يقول توكيديدز على لسان كليون مخاطباً الجمعية فى عام ٤٢٧ : « عليكم أن تذكروا أن إمبراطوريتكم ليست إلا طغياناً تفرضونه على أقوام خاضعين لسلطانكم رغم أنوفهم ، وأنهم لا ينفكون يأتمرون بكم ، وهم لا يطيعونكم نظير خير تقدمونه لهم وتضرون به أنفسكم لتنفعوهم فتؤثروهم بذلك على أنفسكم ، بل يطيعونكم لأنكم سادتهم ، وهم يحبونكم مرغمين ، ولكنهم لا يخضعون لكم إلا بالقوة »[٦] ، وقد أدى هذا التناقض الأساسى بين عبادة الحرية ، وطغيان الإمبراطورية منضماً إلى النزعة الفردية المتأصلة

فى الدول اليونانية أدى هـذا وذاك إلى القضاء على العصر الذهبى فى بلاد اليونان .

وشرعت مدن اليونان جميعها تقريباً تقاوم سياسة أثينة[٧] ، فقاومت بؤوتية فى كورونيا (٤٤٧) ما بذلته أثينة من جهود لضمها إلى الإمبراطورية . واستغاثت بعض المدن الخاضعة لأثينة وبعضها الآخر الذى يخشى الخضوع لها باسپارطة ، وطلبت إليها أن تقف فى وجه أثينة . ولم يكن الإسپارطيون متحمسين للحرب راغبين فيها ، لعلمهم بقوة الأسطول الأثينى وشجاعة رجاله ، ولكن الكراهة العنصرية القديمة بين الدوريين والأيونيين أشعلت نار البغضاء فى قلوبهم ، وبدا للألجركية الإسپارطية مالكة الأراضى أن الخطة التى جرت عليها أثينة وهى إقامة حكومة دمقراطية تستمد سلطتها من الإمبراطورية فى كل مدينة من المدن الخاضعة لها ، نقول بدا لهذه الألجركية أن تلك الخطة تهدد كيان الحكومات الأرستقراطية أينما كانت ، واكتفى الأسپارطيون حيناً من الدهر بتقديم المعونة للطبقات العليـا فى كل مدينة من هذه المدن ، وأخذوا يعملون على مهل فى تكوين جبهة متحدة ضد أثينة .

ورأى پركليز نفسه يحيط به الأعداء من داخل أثينا وخارجها ، فأخذ يعمل للسلم ويستعد للحرب . وهداه تفكيره إلى أن فى مقدور الجيش أن يدافع عن أتكا ، أو عن جميع سكان أتكا إذا اجتمعوا داخل أسوار أثينة ، وأن فى مقدور الأسطول أن يحمى الطرق التى تسلكها السفن المحملة بالحبوب من بلاد اليوكسين أو مصر إلى ثغر أثينـة المسور ويبقيها مفتوحة . وكان يعتقد أنه لا يستطيع النزول عن شىء لأعدائه دون أن يعرض للخطر موارد الطعام الذى تعتمد عليه أثينة ؛ وبدا له كما يبدو لإنجلترا فى هذه الأيام ، أنه أمام واحدة من اثنتين إما الإمبراطورية أو الموت جوعاً ولا وسط بينهما . ولكنه مع هذا أرسل الرسل إلى جميع الدول اليونانية يدعوها إلى عقد مؤتمر هلينى للبحث عن حل للمشاكل التى تدفع

اليونان للحرب . فرفضت اسپارطة الدعوة ، إذ أحست أن قبولها إياها سيفسر بأنه اعتراف منها بزعامة أثينة ، وحذت كثير من الدول الأخرى حذوها بوحي منها[٨] ، وبذلك فشل مشروع بركليز . وفى هذا يقول توكيديدز قالة تفسر كثيراً من الحقائق التاريخية : « لقد كانت البلوپونيز وأثينة مملوءتين بالشباب تدفعهم نقص تجربتهم إلى الرغبة فى امتشاق الحسام[٩] » .

كانت هذه العوامل الأساسية تعمل عملها ، ولم يكن قيام الحرب يتطلب أكثر من حادث يستفز النفوس . وقد وقع هذا الحادث فى عام ٤٣٥ . وذلك أن كرسيرا Corcyra إحدى المستعمرات الكورنثية أعلنت استقلالها عن كورنثة وانضمت إلى الحلف الأثينى ليحميها من تلك المدينة . وأرسلت كورنثة عمارة بحرية لإخضاع الجزيرة . واستغاث الدمقراطيون المنتصرون فى كرسيرا بأثينة فسيرت أسطولا لإغاثتهم . وحدثت معركة غير حاسمة بين أهل كرسيرا وأثينة من جهة ، وأهل ميغارا وكورنثة من جهة أخرى . وفى عام ٤٣٢ حاولت بوتيديا Potidaea وهى مدينة فى جزائر خلقيدية تؤدى الجزية لأثينة ولكن أهلها من عنصر كورنثى ، حاولت هذه المدينة أن تخلع النير الأثينى عن كاهلها ، فسير عليها بركليز جيشاً يحاصرها ، ولكنها ظلت تقاومه سنتين كاملتين استنفدت فى خلالها موارد أثينة العسكرية وأضعفت هيبتها . ولما أن مدت ميغارا يدها مرة أخرى بالمعونة إلى كورنثة أمر بركليز بمنع كل محصولاتها من دخول أسواق أتكا والإمبراطورية . واستغاثت ميغارا وكورنثة باسپارطة ، ففرضت على أثينة أن تلغى قرار التحريم ، ووافق بركليز على شريطة أن تسمح اسپارطة للدول الأجنبية بأن تتجر مع لكونيا ، فرفضت اسپارطة هـذا الشرط ، واشترطت من جانبها للصلح أن تعترف أثينة باستقلال جميع المدن اليونانية استقلالا تاما ، أى أن تنزل أثينة عن إمبراطوريتها . وأقنع بركليز الأثينيين أن يرفضوا هذا الطلب ، فما كان من اسپارطة إلا أن أعلنت الحرب[١٠] .

الفصل الثالث

من الوباء إلى السلم

وانضمت بلاد اليونان كلها إلى هذا الطرف أو ذاك من الطرفين المتنازعين فانضمت دول البلوبونيز ما عدا أرغوس إلى اسپارطة ، وحذت حذوها كورنثة ، وميغارا وبؤوتية ، ولكريس ، وفوسيس . أما أثينة فقد قدمت لها المدائن الأيونية واليكسينية ، والجزائر الإيجية فى بادئ الأمر بعض معونتها . وكانت المرحلة الأولى من مراحل تلك الحرب كالمرحلة الأولى من الحرب العالمية الكبرى فى هذه الأيام(*) صراعاً بين القوتين البحرية والبرية ، فقد ضرب الأسطول الأثينى مدن البلوبونيز الساحلية ، وأما الجيش الأسپارطى فغزا أتكا واستولى على غلاتها وأتلف تربتها . ودعا پركليز سكان أتكا إلى الاعتصام داخل أسوار أثينة ، وأبى أن يخرج جيوشه للقتال ، ونصح الأثينيين الذين هاج هائجهم بأن يصبروا ويصابروا حتى ينتصر أسطولهم .

وقد كان هذا تدبيراً سديدا من الناحية العسكرية الفنية ، ولكنه غفل من عامل كاد أن يحسم النزاع . فقد كان ازدحام أثينة بأهل أتكا سبباً فى تفشى وباء فيها — لعله الملاريا(11) — فى عام ٤٣٠ دام قرابة ثلاث سنين ، وأهلك ربع جنودها ، وعددا كبيرا من أهلها المدنيين(**) . واستولى اليأس على قلوب الأهلين لما لحقهم من العذاب بسبب الوباء والحرب فاتهموه بأنه أصل كليهما . وتقدم كليون وغيره للقضاة متهمين پركليز بأنه أساء التصرف

(*) يريد الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) . (المترجم)

(**) انظر وصف لكريشس القوى لهذا الوباء فى ص ١١٣٥ — ١٢٨٦ من الجزء الرابع من De Rerum Natura .

فى الأموال العامة ؛ وإذا كان قد استخدم أموال الدولة كما يبدو فى إرشاء ملوك اسپارطة لعقد الصلح فقد عجز عن أن يقدم حساباً مقنعاً عما تصرف فيه من الأموال ، وثبتت عليه التهمة ، وأخرج من منصبه ، وفرضت عليه غرامة باهظة مقدارها خمسون وزنة (٣٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) . وفى ذلك الوقت عينه أو حواليه ماتت أخته ومات اثنان من أبنائه الشرعيين بالوباء ، لكن الأثينيين لم يجدوا لهم زعيماً يخلفه فأعادوه إلى منصبه (٤٢٩) ؛ وأرادوا أن يظهروا تقديرهم له وعطفهم عليه فى محنته ، فخرقوا قانوناً كان هو واضعه ، ومنحوا ابناً له من اسپازيا حقوق المواطنية الأثينية . ولكن الأثينى الطاعن فى السن كان هو نفسه قد أصيب بالوباء ، ووهنت قواه يوماً بعد يوم ومات بعد بضعة أشهر من عودته إلى منصبه . ولقد وصلت أثينة فى عهده إلى ذروة مجدها ، وصلت إليها بفضل الثروة التى أفاءها عليها حلف كاره من جهة ، وبفضل القوة التى أوغرت عليها صدور الدول جميعاً من جهة أخرى ، ولهذا فإن القواعد التى رست عليها دعائم العصر الذهبى لم تكن سليمة ، وكان لا بد أن تتقوض حين عجزت السياسة الأثينية عن تسيير دفة الحكم فى زمن السلم .

ولعل أثينة ، كما يشير توكيديدز ، كانت تستطيع أن تظفر بالنصر رغم هذا العجز ، لو أنها ظلت تسير على خطة فابيوس Fabius التى وضعها بركليز . ولكن خلفاءه تعجلوا فى تنفيذ منهاج كان يتطلب كثيراً من ضبط النفس . فقد كان زعماء الحزب الدمقراطى الجدد تجاراً من نمط كليون تاجر الجلود ، ويكراتيز Eucrates بائع الحبال ، وهيپربولس Hyperbolus صانع المصابيح . وكان هؤلاء الرجال يدعون إلى مواصلة الحرب فى البر والبحر ، وكان كليون أقدرهم جميعاً وأعظمهم كفاية ، وأفصحهم لساناً ، وأكثرهم استهتاراً بالمبادئ الأخلاقية ، وأشدهم فساداً . ويصفه فلوطرخس بأنه « أول خطيب من الأثينيين خلع رداءه وضرب على فخذه وهو يخاطب الجماهير[١٢] » ؛ ويقول أرسطاطاليس إن كليون كان شديد الحرص على الظهور على المنصة فى ثياب العمال[١٣] . وكان على رأس

عدد كبير من الزعماء الشعبيين حكموا أثينة منذ مات پركليز إلى أن فقد الأثينيون استقلالهم يوم خيرونة Chaeronea (٣٣٥) .

وأثبت كليون كفايته عام ٤٢٥ حين حاصر الأسطول الأثيني جيشاً اسبارطياً فى جزيرة اسفكتيريا Sphacteria القريبة من پيلس Pylus المسينية . ولاح أنه لا يوجد قائد بحرى يستطيع الاستيلاء على الحصن ، فلما أن عهدت الجمعية إلى كليون الإشراف على الحصار (وكانت ترجو بعض الرجاء أن يقتل فى الهجوم عليه) ، أدهش الناس كلهم بتوجيه الهجوم بمهارة وشجاعة أجبرتا اللسدمونيين على الاستسلام على غير عادتهم . وأذل هذا الاستسلام اسبارطة فطلبت الصلح والتحالف مع أثينة نظير الإفراج عن أسراها ، ولكن كليون استطاع بفصاحته الخطابية أن يقنع الجمعية بأن ترفض هذا العرض وأن تواصل الحرب . وقويت سيطرته على الجماهير بعد أن عرض على الجمعية اقتراحاً أجازته من فورها يعفى الأثينيين فيما بعد من أداء الضرائب التى تتطلبها مواصلة الحرب ، على أن يؤخذ ما يلزمها من المال بزيادة الخراج الذى تؤديه المدن الداخلة فى نطاق الإمبراطورية (٤٢٤) . وكانت السياسة التى يسير عليها كليون فى هذه المدن ، كالسياسة التى يسير عليها فى أثينة ، هى أن يستولى من الأغنياء على أكبر قدر يجده عندهم من المال . ولما أن ثارت الطبقات العليا فى متليني ، ونبذت الحكم الدمقراطى ، وأعلنت تحرر لسبوس من ولائها لأثينة (٤٢٩) ، اقترح كليون أن يقتل جميع الذكور البالغين من سكان المدينة العاصية . ووافقت الجمعية على هذا الاقتراح — ولعل الذين حضروا هذه الجلسة لم يكونوا سوى العدد القانونى الذى يصح أن تعقد بحضوره — وأرسلت سفينة تحمل أوامره بتنفيذه إلى پاكيز Paches القائد الأثينى الذى قمع الثورة . ولما أن ذاع نبأ هذا الأمر الوحشى فى أثينة دعا العقلاء المعتدلون إلى عقد اجتماع ثان للجمعية ، واستصدروا منها قراراً بإلغاء القرار السابق ، وأرسلوا سفينة أخرى أدركت پاكيز قبيل تنفيذ أمر

المذبحة . وبعث باكيز إلى أثينة ألفاً من زعماء الثوار ، قتلوا عن آخرهم إجابة لاقتراح كليون وجرياً على سنة ذلك العصر[١٤] . وكفر كليون عن ذنبه بأن مات فى الميدان وهو يحارب البطل الاسپارطى براسيداس Brasidas الذى كان يستولى على المدن فى شمال بلاد اليونان الأصلية والخاضعة لأثينة أو المتحالفة معها مدينة فى إثر مدينة . وهذه الحرب هى التى خسر فيها توكيديدز منصبه البحرى ومسكنه فى أثينة من جراء تباطؤه فى إنقاذ أمفپوليس المدينة التى كانت تتحكم فى مناجم الذهب فى ترافية . وقتل براسيداس فى هذه الحرب نفسها ، فلم تجد اسپارطة زعيماً يستطيع مواجهة الهيلوتيين الذين كانوا يهددونها بالثورة فعرضت الصلح مرة أخرى على أثينة ، وانصاعت أثينة للمرة الأولى لنصيحة الزعيم الأبلجركى فوقعت صلح نيشياس (٤٢١) . ولم تكتف المدن المتحاربة بأن تعلن انتهاء الحرب ، بل وقعت شروط حلف يستمر خمسين عاماً ، وتعهدت أثينة أن تخف لمساعدة اسپارطة إذا ما ثار عليها الهيلوتيون[١٥] .

الفصل الرابع

ألقبيادس

واجتمعت ثلاثة عوامل حولت هذا العهد الذى أخذته المدن اليونانية على نفسها بأن تدوم المودة بينها خمسين عاماً كاملة إلى هدنة مؤقتة لم تدم الاست سنين . وهذه العوامل الثلاثة هى : الفساد الذى طرأ على السلم فجعله « حرباً بوسائل أخرى » ؛ وقيام ألقبيادس على رأس حزب ينادى بامتشاق الحسام ؛ ومحاولة أثينة الاستيلاء على المستعمرات الدورية فى صقلية ، ورفض حلفاء اسپارطة أن يوقعوا شروط الاتفاق مع أثينة ، وانشقوا عليها بعد أن ذهبت قوتها ، وحولوا ولاءهم إلى أثينة ، واحتفظ ألقبيادس فى أثينة بالسلم رسمياً ، ولكنه كان فى واقع الأمر يعد العدة لمحاربة اسپارطة ، وحشد المدن اليونانية الموالية لأثينة فى واقعة دارت رحاها عند منتينيا Mantinea (٤١٨) . وانتصرت اسپارطة فى المعركة ؛ وعقدت المدن اليونانية هدنة أخرى على الرغم منها .

وفى هذه الأثناء سيرت أثينة أسطولا إلى جزيرة ميلوس الدورية تطلب إليها أن تكون دولة خاضعة لسلطان الإمبراطورية الأثينيـة (٤١٦) ، ويقول توكيديدز — وأكبر الظن أن المؤرخ الذى فيه يخضع للفيلسوف السوفسطائى أو الطريد المنتقم — إن الرسل الأثينيين لم يبرروا اعتداءهم بأكثر من قولهم إن القوة هى الحق : « لقد أملت علينا الآلهة وعلمنا الناس أن هؤلاء وأولئك يحكمون أينما استطاعوا وفقاً لقانون محتوم متأصل فى طبيعتهم ، ولسنا نحن أول من سن هذا القانون أو عمل به ؛ لقد وجدناه قائماً من قبلنا ؛ وسنتركه قائماً سرمدياً من بعدنا ؛ وكل ما نستطيع أن نفعله أن نسير على سننه ، لأنا نعرف أنكم أنتم وكل من عداكم من الناس ستفعلون فعلنا إذا أوتيتم ما أوتينا من قوة »[١٦] . وأبى أهل

ميلوس أن يخضعوا وأعلنوا أنهم سيفوضون أمرهم إلى الآلهة ويضعون فيها ثقتهم . ولما أن وصلت بعدئذ إلى الأسطول الأثيني إمدادات لا قبل لهم بها استسلموا للغزاة الفاتحين بلا شرط ولا قيد . وأعدم الأثينيون كل من وقع فى أيديهم من الذكور البالغين ، وباعوا النساء والأطفال بيع الرقيق ، وأقطعوا الجزيرة لخمسمائة من المستعمرين الأثينيين . وابتهجت أثينة بهذا الفتح المبين ، وشرعت من ذلك الحين تبرهن ، بما مثل بين جدرانها من مآس حية ، على ذلك المبدأ الذى مثله كتابها على المسرح ، وهو أن الانتقام الإلهى يتعقب الانتصار الوقح .

وكان ألقبيادس ممن أيدوا فى الجمعية القرار القاضى بإعدام الذكور من أهل ميلوس[١٧] . وكان تأييده لكل اقتراح أيا كان نوعه يكفى فى الغالب لإقراره ، لأنه كان وقتئذ أقوى رجل فى أثينة ، تعجب به لفصاحة لسانه ، وبهاء طلعته ، وعبقريته المتعددة الكفايات ، بل تعجب به أيضاً لعيوبه وجرائمه . وكان أبوه أقلينياس Cleinias الثرى قد قتل فى واقعة كورونيا Coronea ، وكانت أمه وهى القيمونية Alemaeomid تمت بالقرابة إلى بركليز ، قد أقنعت ذلك السياسى أن يربى ألقبيادس فى منزله . وكان الغلام مشاكساً ، ولكنه ذكى شجاع ، حارب وهو فى سن العشرين بجانب سقراط فى بوتيديا Potidaea ، وحارب فى السادسة والعشرين من عمره فى واقعة دليوم Delium (٤٢٤) . ويبدو أن الفيلسوف كان يحس بعطف قوى على الغلام ، وأنه رده إلى الفضيلة ، كما يقول فلوطرخس ، بألفاظ ، « بلغ من تأثيرها فى ألقبيادس أن استدرت الدمع من عينيه ، وأقلقت باله ، ولكنه مع ذلك كان يسلم نفسه أحياناً للمتلقفين ، حين كانوا يعرضون عليه ألواناً من الملاذ ، فيهجر سقراط ، ويأخذ الفيلسوف فى مطاردته كأنه عبد آبق »[١٨] .

وكانت بديهة الشاب الوقادة ومجونه حديث الناس فى أثينة وموضع دهشتهم وإعجابهم . ولما أن عاب عليه بركليز تكبره واستبداده برأيه بقوله إنه لم يفعل فعله هو مع أنه هو الآخر كان زلق اللسان فى صباه ، رد عليه ألقبيادس

بقوله : « أشد ما آسف له أنني لم أعرفك حين كان عقلك فى عنفوانه »[١٩] . وأراد مرة أن يرد على تحدى أحد رفاقه المتهورين الصخابين فصفع رجلا من أغنى الأثينيين وأشدهم بطشاً يدعى هپونكس Hipponicus على وجهه ، ثم دخل فى اليوم الثانى بيت ذلك العظيم ، وخلع ملابسه ، ورجا هپونكس أن يضربه بالسوط عقاباً له على فعلته . وتأثر الشيخ بفعل الشاب فزوجه بابنته هپريتى ومهرها بعشر وزنات ، وأقنعه ألقبيادس بأن يضاعف المهر وأنفق معظمه على نفسه ، وعاش عيشة بلغت من الترف درجة لم تعرف أثينة مثلها من قبل . فقد ملأ بيته بالأثاث الثمين ، واستخدم الفنانين فى رسم الصور على الجدران ، وجمع طائفة من جياد السباق ، فاز بها مراراً فى سباق المركبات فى أولمپيا . وقد فازت خيله فى إحدى هذه المباريات بالجوائز الأولى والثانية والرابعة فما كان منه إلا أن أولم وليمة لجميع أعضاء الجمعية[٢٠] . وكان فى بعض الأحيان يعد السفن ويؤدى نفقات الممثلين من ماله الخاص ، وإذا ما طلبت الدولة تبرعات للحرب من أبنائها كان هو أكبر المتبرعين .

ولم يكن ألقبيادس يتقيد بواعز من ضمير أو عرف أو بخوف ، ولهذا كان يعبث فى صباه وكهولته عبثاً بهيمياً ، وكأن أثينة بقضها وقضيضها كانت تستمتع معه بسعادته . وكان يلعثم قليلا فى نطقه تلعثما بلغ من سحره أن أصبح التلعثم الطراز الشائع بين شباب أثينة العصريين ، واحتذى مرة طرازاً جديداً من الأحذية ، فلم يلبث شباب المدينة الأثرياء المتأنقون أن لبسوا أحذية ألقبيادس ؛ وقد خرج على مائة قانون ، وأساء إلى مائة رجل ، ولكن أحداً لم يجرؤ على مقاضاته . وقد بلغ من حب السرارى له أنه نقش على درعه الذهبى صورة لإله الحب وإلى جانبه صاعقة كأنه يعلن بذلك انتصاراته فى الحب[٢١] ، وصبرت زوجته على خياناته صبر الكرام ، فلما تمادى فيها عادت إلى منزل أبيها وأخذت تستعد لمقاضاته طلباً للطلاق ، ولما ظهرت أمام الأركون ، احتضنها ألقبيادس ، وسار بها إلى منزله مخترقاً السوق

العامة دون أن يجرؤ إنسان على اعتراضه فلم يسعها والحالة هذه إلا أن تطلق له العنان ، وأن تقنع منه بفتات حبه ، ولكن موتها المبكر يوحى بأنها ماتت كسيرة القلب بسبب خياناته الزوجية .

ولما أن دخل ميدان السياسة بعد موت پركليز لم يجد فيه إلا منافساً واحداً له ، هو نيشياس الثرى التقى . ولكن نيشياس كان ضالعاً مع طبقة الأشراف جانحاً للسلم ، ومن أجل هذا شرع ألقبيادس يخص بعطفه طبقات التجار ، ويدعو إلى النزعة الاستعمارية دعوة أثارت كبرياء الأثينيين . وكان صلح نيشياس مشيناً فى نظره لأنه يحمل اسم منافسه . ولما اختير فى عام ٥٢٠ قائداً من عشرة قواد بدأ يضع تلك الخطط الطموحة التى قذفت بأثينة مرة أخرى فى معمعان القتال ، ولما أن هتفت له الجمعية ابتهج لهتافها تيمن Timon كاره المجتمع وتنبأ بما سوف يحل بها من الفواجع[٢٢].

الفصل الخامس

المغامرة الصقلية

كان خيال ألقبيادس هو الذى أفسد عمل بركليز . ذلك أن أثينة قد انتعست بعد ما حل بها من كوارث الحرب ، وأخذت التجارة تدر عليها ثروة جزائر بحر إيجة . لكن القانون الطبيعى الذى يخضع له كل كائن حى هو قانون النماء الذاتى ؛ فأما المطامع والإمبراطوريات فلا تقنع أبداً بما تبلغ ؛ ولا تقف أبداً عند حد . وكان ألقبيادس يطمع فى أن يبنى لأثينة إمبراطورية جديدة فى مدائن إيطاليا وصقلية الغنية ، حيث تستطيع أن تجد الغلال ، والمواد ، والرجال ، وحيث تستطيع أن تسيطر على موارد الطعام البلوبونيز ، وتضاعف الخراج الذى كان يوشك أن يجعلها أعظم المدن اليونانية : ولم يكن فى وسع أية مدينة أن تنافسها غير سرقوصة ، ولم تكن هى تطيق التفكير فى هذه المنافسة ، وكانت ترى أنها إن استولت على سرقوصة خضع لسلطانها جميع حوض البحر الأبيض المتوسط الغربى ، ونالت أثينة من المجد ما لم يحلم به بركليز نفسه :

وحدث فى عام ٤٢٧ أن حذت صقلية حذو بلاد اليونان الأصلية فانقسمت إلى معسكرين متنازعين ، تتزعم أحدهما سرقوصة الدورية ، وتتزعم الأخرى ليونتينى Leontini الأيونية . وأرسلت ليونتينى غورغياس إلى أثينة يستنجدها ، ولكن أثينة كانت وقتئذ أضعف من أن تغيث مستغيثاً .

وفى عام ٤١٦ أرسلت سجستا رسلا إلى أثينة يبلغونها أن سرقوصة تعد العدة لتخضع صقلية كلها ، وتفرض عليها حكومة دُورية ، وتمد اسبارطة بالمؤن والأموال إذا ما تجددت الحرب الكبرى . واغتنم ألقبيادس هذه الفرصة السانحة وقال إن اليونان فى صقلية منقسمون على أنفسهم انقساماً لا يرجى من ورائه لهم

خبر ، وإن كل مدينة فيها منقسمة على نفسها ، وإن من أيسر الأمور وبقليل من الشجاعة أن تضم الجزيرة كلها إلى الإمبراطورية ، وإن من أوجب الواجبات أن تظل الإمبراطورية تتسع رقعتها ، وإلا فلا مناص لها من أن تبدأ فى الاضمحلال ، وإن الشعب الذى يريد أن تكون له إمبراطورية فى حاجة إلى مناوشة من آن إلى آن لتدريبه على أساليب حكم الشعوب[٢٣] . وقام نيشياس فى الجمعية يعارضه ويطلب إليها ألا تستمع لرجل يغريه بلخه بالإقدام على مشروعات التوسع الخيالية ، ولكن بلاغة ألقبيادس وخيال شعب تحلل الآن تحللا خطيراً من المبادئ الأخلاقية تغلبا على حجج نيشياس ، وأعلنت الجمعية الحرب على سرقوصة ووافقت على الأموال اللازمة لإعداد أسطول ضخم لغزوها ، وكأنما أرادت أن تجعل هزيمة أثينة مؤكدة فوزعت القيادة بين ألقبيادس ونيشياس .

وسارت الاستعدادات على قدم وساق مدفوعة بالحماسة الشديدة التى هى من أخص خصائص الحرب ؛ وأخذ الأهلون ينتظرون سفر الأسطول ليحتفلوا به احتفالا وطنياً عظيما . ولكن حدث قبل اليوم المحدد لسفره بأيام قلائل حادث عجيب هز مشاعر المدينة التى كانت قد فقدت كثيراً من تقواها وإن لم تفقد شيئاً من خرافاتها وأوهامها . وتفصيل ذلك أن أشخاصا مجهولين تسللوا فى جنح الظلام وحطموا أنوف تماثيل الإله هرمس ، وآذانها ، وأعضاء تذكيرها . وكانت هذه التماثيل قائمة أمام المبانى العامة وكثير من المساكن الخاصة رمزاً للإخصاب ووقاية لها من كل سوء . وجاء باحث متحمس يفضى إلى القوم بشهادة لا سند لها منقولة عن جماعة من الغرباء والأرقاء يقولون فيها إن هذا العبث من فعل طائفة من أنصار ألقبيادس السكارى بزعامة ألقبيادس نفسه . واحتج القائد الشاب على هذا القول وحاول أن يبرئ نفسه منه ، وطلب أن يقدم إلى المحاكمة على الفور ، حتى يدان أو يبرأ قبل سفر الأسطول . ولكن أعداءه الذين كانوا يتوقعون صدور الحكم ببراءته ، أفلحوا فى تأجيل المحاكمة : وعلى هذا أبحر الأسطول

العظيم فى عام ٤١٥ وقد عقد لواؤه لداعية من دعاة السلم خوار القلب يبغض الحرب ، ورجل جرىء من أنصار الحرب ، يقف توزيع القيادة وخشية البحارة أن يكون قد استحق غضب الآلهة ، حائلا بين عبقريته وبين الجهود التى لا بد من بذلها لنيل النصر . ولم تكد تمضى على سفر الأسطول بضعة أيام حتى وردت أدلة كالأدلة السابقة لا سند لها يؤيدها ولا يمكن الوثوق بها تقول إن ألقبيادس وأصدقاءه قد اشتركوا فى تمثيل الطقوس الإلوريتية الخفية تمثيلا هزليا ساخراً . وأسرعت الجمعية تدفعها الجماهير الهائجة الغاضبة ، فأرسلت السفينة السريعة سلامينيا Salaminia للحاق بألقبيادس وإعادته إلى أثينة ليقدم فيها للمحاكمة . وقبل ألقبيادس الدعوة ، وانتقل إلى سلامينيا ؛ ولما أن رست السفينة عند ثورباى نزل إلى البر خفية وفر هاربا . فلما أن غلبت الجمعية الأثينية على أمرها أصدرت حكمها بنفيه ومصادرة جميع أملاكه ، وإعدامه إذا ما استطاع الأثينيون القبض عليه . واستولى عليه الحزن إذ رأى أن مشروعاته التى تهدف إلى مجد أثينة وتوطيد دعائم إمبراطوريتها قد قضى عليها من جراء حكم لا يزال يعـده ظالما ، فلجأ إلى البلوپونيز ، وحضر إحدى جلسات الجمعية الاسپارطية ، وعرض أن يساعد إسپارطة على هزيمة أثينة وإقامة حكومة أرستقراطية فيها . ويقول توكيديدز على لسانه : « أما الدمقراطية فإن العقلاء منا يعرفون حقيقة أمرها ، ولست أنا أقل علما بذلك من أى واحد منهم ، لأن عندى من أسباب الشكوى منها أكثر مما عندهم ، ولكنى لا أجد شيئاً جديداً أذكره عن هذا السخف المتأصل فيها »[٢٤] . وأشار على الاسپارطيين أن يسيروا أسطولا لمساعدة سرقوصة ، وجيشا للاستيلاء على دسيليا Decelcia -- وهى مدينة فى أتكا إذا استولت عليها اسپارطة تحكمت عسكرياً فى أتكا بأجمعها ما عدا أثينة ، فتمنع بذلك مناجم الفضة فى لوريوم أن تمد أثينة بالأموال التى تمكنها من مقاومة الغزو ، حتى إذا

رأت المدن الخاضعة لأثينة أن هزيمتها محققة امتنعت عن أداء الجزية . وعملت اسپارطة بهذه النصيحة .

وظهرت قوة عزيمته حين نبذ ما تعوده فى حياة الترف وعاش كما يعيش الاسپارطيون متقشفاً ، مقتصداً ، متحفظاً ، يأكل غليظ الطعام ، ويلبس خشن الثياب ، ويسير حافى القدمين ، ويستحم فى نهر اليوروتاس Eurotas صيفاً وشتاء ، ويطيع قوانين لسدمونيا وعاداتها عن وفاء وإخلاص . لكن طلعته البهية ، وجاذبيته رغم هذا كله أفسدتا عليه خططه ، فقد هامت الملكة بحبه ، وحملت منه بولد ، وأسرّت إلى أصدقائها فى زهو وفخار أنه أبوه . واعتذر هو لأصدقائه عن فعلته هذه بأنه لم يستطع أن يقاوم رغبته فى أن يكون ملوك لكونيا من نسله . وجاء الملك أجيس إلى بلده ، وكان متغيباً عنه مع جيشه . وعلم ألقبيادس بذلك فحصل على منصب فى قسم من أسطول اسپارطة كان مسافراً إلى آسية . وتبرأ الملك من الطفل ؛ وبعث بأوامر سرية تقضى باغتيال ألقبيادس ، ولكن أصدقاءه حذروه من هذا ، ففر وانضم لطشفرن Tissaphernes قائد الأسطول الفارسى فى سرديس .

وكان نيشياس يواجه فى الطرف الآخر من ميدان القتال مقاومة لا يستطيع الغلب عليها إلا عبقرية ألقبيادس العسكرية ومهارته فى حبك الدسائس وتدبير المؤامرات . ذلك أن صقلية بأجمعها تقريباً خفت لمساعدة سرقوصة . وفى عام ٤١٤ استطاع أسطول صقلية بمساعدة أسطول اسپارطى يقوده جيلبس Gylippus أن يحصر السفن الأثينية الحربية فى ميناء سرقوصة ويمنع عنها الطعام . وفقدت هذه السفن آخر فرصة أتيحت لها للخروج من هذا المأزق حين خسف القمر فارتاع لذلك نيشياس وكثيرون من جنوده وحملهم هذا الروع على أن ينتظروا فرصة أخرى أكثر من هذه إرضاء للآلهة ؛ لكنهم فى اليوم الثانى وجدوا أنفسهم يحيط بهم أعداؤهم فاضطروا كارهين

أن يخوضوا المعركة ، ومنوا بالهزيمة فى البحر أولا ثم فى البر بعدئذ . وحارب نيشياس رغم ضعفه ومرضه بيسالة ، ولكنه أسلم نفسه آخر الأمر لرحمة السرقوصيين ، فلم يكن منهم إلا أن أعدموه ؛ ثم أرسل من بقى على قيد الحياة من الأثينيين ، وكانوا كلهم من طبقة المواطنين ، إلى العمل فى مناجم صقلية ، حيث ذاقوا طعم الحياة التى ظل يحياها عدة أجيال أولئك الذين ظلوا عدة قرون يكدحون فى استخراج الفضة من مناجم لوريوم وهلكوا فيها كما هلك هؤلاء .

الفصل السادس

انتصار اسبارطة

وقضت هذه الكارثة على روح أثينة المعنوية ، فقد هلك أو استرق فيها نصف مواطنيها تقريباً ، وترمل نصف هذه الطبقة من النساء ، وتيتم نصف الأطفال . ولم يكد يبق لها شيء من الأموال التي جمعها بركليز في خزائنها ، وكان عام آخر كفيلا باستنفاد كل درهم فيها . وحسبت المدن الخاضعة لأثينة أنها ساقطة لا محالة فامتنعت عن أداء الجزية ، وتخلف عنها معظم حليفاتها وانضمت الكثيرات منهن إلى اسبارطة . وفي عام ٤١٣ ادعت اسبارطة أن أثينة قد خرجت أكثر من مرة شروط صلح « الخمسين عاماً » فأعلنت إليها الحرب من جديد ، واستولى اللسديمونيون في هذه المرة على ديسيليا ، وحاولوا دون وصول الطعام إليها من عوبية والفضة من لوريوم . وتمرد الأرقاء الذين كانوا يعملون في هذه المناجم ، وانضموا بكامل عددهم البالغ عشرين ألف رجل إلى الاسبارطيين . وبعثت سرقوصة جيشاً لينضم إلى المهاجمين ، ورأى ملك الفرس الفرصة سانحة ليثأر لنفسه من هزيمة مرثون وسلاميس ، فأمد بالمال الأسطول الاسبارطي الناشئ ، بعد أن اتفق مع اسبارطة ذلك الاتفاق المشين ، وهو أن تساعد الفرس على أن يستعيدوا سيادتهم على مدائن أيونيا اليونانية(٢٥) .

ومما يدل على شجاعة الدمقراطية الأثينية وما كان فيها من حية أن أثينة استطاعت أن تقاوم أعداءها عشر سنين أخرى ، فقد نظمت حكومتها تنظيما راعت فيه قواعد الاقتصاد ، وجدت في جمع الضرائب وفرض الإعانات لبناء أسطول جديد ، فلم تكد تمضي سنة على هزيمتها في سرقوصة

حتى أصبحت متأهبة لأن تنازع اسپارطة سيادتها الجديدة على البحار . ولما كاد انتعاش أثينة يبدو أمراً مؤكداً نظم الحزب الأبجركي ثورة فى البلاد ، واستولى على أزمة الحكم وأنشأ مجلساً أعلى قوامه أربعمائة ألف (٤١١) . ولم يكن أعضاء هذا الحزب فى يوم من الأيام فى جانب الحرب ، بل إنهم كانوا فى واقع الأمر يودون لو انتصرت اسپارطة على أثينة لتنتعش فيها الأرستقراطية : واستولى الرعب على الجمعية بعد أن اغتيل كثيرون من زعماء الدمقراطية فاقترعت على أن تكفى نفسها بنفسها . وناصر الأغنياء الثورة لأنهم رأوا فيها الوسيلة الوحيدة للقضاء على حرب الطبقات التى وحدت صفوف الطبقات المتماثلة فى أثينة واسپارطة ، كما وحد كفاح الطبقات الوسطى ضد الأرستقراطية أحزاب الأحرار فى إنجلترا وأمريكا إبان الثورة الأمريكية . وما كاد الأبجركيون يستولون على أزمة الحكم حتى أرسلوا الرسل لعقد الصلح مع اسپارطة ، وأخذوا يمهدون السبيل سراً لدخول الجيش الإسپارطى فى أثينة . وفى هذا الوقت تولى ثرمنيز ، وهو زعيم حزب وسط من الأرستقراط المعتدلين ، ثورة مضادة للثورة السالفة الذكر ، واستبدل بمجلس الأربعمائة الذى تولى الحكم نحو أربعة أشهر مجلساً آخر من خمسمائة عضو (٤١١) ، واستمتعت أثينة فترة قصيرة بحكم دمقراطى أرستقراطى مشترك كان فى نظر توكيديدز وأرسطاطاليس[٣٦] (وكلاهما من الأشراف) خير ما رأته أثينة بعد عهد صولون من أنظمة الحكم وأكثرها عدلا . ولكن الثورة الثانية نسيت ، كما نسيت الثورة الأولى ، أن طعام أثينة وحياتها نفسها يعتمدان على أسطولها ، الذى حرمت الثورتان رجاله عدا قليلين من زعمائهم من حقوقهم السياسية . وثارت ثائرة البحارة حين سمعوا هذا الخبر ، فأعلنوا أنهم سيحاصرون أثينة إن لم تعد إليها حكومتها الدمقراطية . وانتظر الأبجركيون قدوم الجيش الاسپارطى ولكن الاسپارطيين تباطأوا شأنهم فى كل مرة ، وولى الحكام الجدد الأدبار ، وأعاد الدمقراطيون المنتصرون الدستور القديم (٤١١) .

وكان ألقبيادس قد أيد الثورة الألجركية سراً ، وكان يرجو أن تمهد السبيل لعودته إلى أثينة ، فلما عادت الدمقراطية إلى سابق عهدها استدعته إليها ووعدته بالعفو عنه ؛ ولعلها كانت تجهل دسائسه ، ولكنها كانت تعرف بلا ريب سيئات الحكومات التي توالت عليها بعد نفيه منها . غير أن ألقبيادس أرجأ عودته ظافراً إلى أثينة ، وتولى قيادة الأسطول المرابط عند ساموس ، وأقدم على العمل بسرعة ونجاح سعدت بهما أثينة فترة قصيرة من الزمان . فقد اجتاز الهلسپنت مسرعا ، والتقى بأسطول اسپارطى عند سزكس Cyzicus ودمره تدميراً تاماً تاماً (٤١٠) . ثم حاصر خلقيدون وبيزنطية حصاراً دام عاما كاملا استولى بعده عليهما وأعاد بذلك إلى أثينة سيطرتها على مواد الطعام المارة بالبسفور . ثم عاد بأسطوله نحو الجنوب فالتقى بعمارة اسپارطة أخرى قرب جزيرة أندروس وهزمها دون عناء . ورجع بعدئذ إلى أثينة (٤٠٧) ، فحياه أهلها على بكرة أبيهم أحسن تحية واستقبلوه أحسن استقبال . لقد نسوا وقتئذ ذنوبه ولم يذكروا إلا عبقريته وحاجة أثينة الشديدة إلى قائد قدير مثله[٢٧] . ولكن أثينة وهى تحتفل بانتصاراته لم ترسل إليه المال الذى يؤدى به رواتب بحارة أسطوله . وهنا أيضا قضى على ألقبياس عدم استمساكه بالمبادئ الأخلاقية الكريمة . ذلك أنه ترك الجزء الأكبر من أسطوله عند نوتيوم Notium (قرب إفسوس) تحت إمرة رجل يدعى أنتيكس Antiochus ، وأمره أن يبقى فى الميناء وألا يشتبك فى القتال مهما تكن الأسباب ، ثم سار هو ومعه عدد قليل من السفن إلى كاريا Caria ليجمع منها المال إلى رجاله بأساليب لا يرضى عنها القانون . وطمع أنتيكس فى الشهرة فغادر الميناء ، وتحدى أسطولا اسپارطيا صغيراً بقيادة ليسندر Lysander فقبل هذا القائد التحدى ، وقَتَل أنتيكس بيده وأغرق معظم سفائن الأسطول الأثينى أو استولى عليها (٤٠٧) . ولما علمت أثينة بهذه الفاجعة ، وكان لها فى الجمعية رد فعل سريع ، فقد اجتمعت من فورها ووجهت اللوم إلى ألقبيادس

لتركه أسطوله وعزلته من قيادته . وأصبح ألقيبادس يخشى أثينة واسبارطة على السواء ، فلم ير بداً من الالتجاء إلى بيثينيا Bithynia .

وأمرت أثينة فى يأسها أن يصهر ما فى التماثيل والقرابين القائمة على الأكربوليس من ذهب وفضة ، وأن ينفق هذا كله فى بناء أسطول جديد من مائة وخمسين سفينة ذات ثلاث صفوف من المجاديف ، .ثم قررت أن تعتق الأرقاء ، وتمنح حقوق المواطنية للغرباء ، الذين يدافعون عن المدينة . وهزم الأسطول الجديد عمارة اسبارطية بالقرب من جزائر أرجنوسى Arginusae (جنوب لسبوس) فى عام ٤٠٦ ، واهتزت مشاعر أثينة مرة أخرى بنشوة الظفر ، ولكن الجمعية استشاطت غضباً حين سمعت أن قوادها(*) قد تركوا بحارة خمس وعشرين سفينة من السفن التى أغرقها العدو يموتون غرقاً على أثر عاصفة بحرية . ونادى المتحمسون أن أرواح هؤلاء الغرقى الذين لم يدفنوا طبقاً للمراسم المرعية ، ستطوف قلقة حوالى العالم ؛ واتهموا الباقين على قيد الحياة بإهمالهم إنقاذ الغرقى ، واقترحوا أن يحكم بالقتل على ثمانية من القواد المنتصرين (ومنهم ابن بركليز من أسبازيا) . وتصادف أن كان سقراط عضواً فى لجنة الرياسة فى ذلك اليوم فأبى أن يعرض هذا الاقتراح على الجمعية . ولكنه عرض ووافقت عليه على الرغم منه ، ونفذ الحكم بنفس السرعة التى صودق بها عليه . وما هى إلا أيام قلائل حتى ندمت الجمعية على فعلتها ، وحكمت بالإعدام على من أقنعوها بقتل القواد . وفى هذه الأثناء عرض الاسبارطيون ، بعد أن أوهنتهم الهزيمة ، أن يعقدوا الصلح مرة أخرى ، ولكن الجمعية الأثينية رفضت هذا العرض متأثرة ببلاغة كليوفون المخمور(٢٨) .

واتجه الأسطول الأثينى بعدئذ نحو الشمال ، تحت إمرة قواد من الطبقة

(*) كان لفظ استراتجوس Strategos يطلق على قواد الجيش والأسطول على السواء .

الثانية ، ليلاقى الاسپارطيين بقيادة ليسندر فى بحر مرمرة . ورأى ألقبيادس من مخبئه بين التلال أن السفن الأثينية قد اتخذت لها موضعاً شديد الخطورة عند إيجسپتماى Aegospotami قرب لمپسكس Lampascus ، فما كان منه إلا أن خاطر بحياته ونزل إلى الشاطئ على ظهر جواده ، ونصح أمراء البحر الأثينيين أن يبحثوا لهم عن موضع أقل تعرضاً للخطر من موضعهم ؛ ولكنهم لم يثقوا بنصحه ولم يعملوا به ، وذكروه بأنه لم يعد له شأن بالقيادة . وفى اليوم الثانى حدثت المعركة الفاصلة ، وأغرقت فيها مائتان من سفن الأسطول الأثيني المائتين والثمان ، أو استولى عليها العدو ، وأمر ليسند بقتل ثلاثة آلاف من الأسرى الأثينيين(٢٩) . وترامى إلى ألقبيادس أن ليسندر قد أمر بقتله ، ففر إلى فريجيا مع القائد الفارسى فرنبزوس Pharnapazus الذى وهبه قصراً وحظية . ولكن ملك فارس أمر فرنبزوس بأن يقتل ضيفه عملا بنصيحة ليسندر . وحاصر اثنان من القتلة ألقبيادس فى قصره ، وأشعلا النار فيه ، فخرج منه عاريا يائسا ، يريد أن يقاتل دفاعا عن حياته ، ولكن سهام مهاجميه وحربتيهما اخترقت جسمه قبل أن يمسهما سيفه فقضى نحبه فى السادسة والأربعين من عمره ؛ وكان أعظم العباقرة فى تاريخ اليونان العسكرى ، كما كان إخفاقه أعظم الفواجع فى هذا التاريخ .

وأصبح ليسندر بعدئذ صاحب السلطان المطلق فى بحر إيجة ، فأخذ يتنقل بأسطوله من مدينة إلى مدينة ، يقضى على الدمقراطيات ويقيم مكانها حكومات ألجركية خاضعة لاسپارطة ، ثم دخل ثغر بيرية من غير أن يلقى مقاومة ، وضرب الحصار على أثينة ، وقاومه الأثينيون ببسالتهم المعهودة ، ولكن ما كان لديهم من الطعام لم يكفهم أكثر من ثلاثة أشهر ، وامتلأت طرقات المدينة بالموتى أو المحتضرين . وعرض ليسندر على أثينة شروطاً للصلح مذلة ولكنها رحيمة . فقد قال إنه لا يريد أن يخرب مدينة أدت فى الماضى خدمات مشرفة إلى بلاد اليونان ، ولن يريد فوق ذلك أن يستعبد أهلها ،

ولكنه طلب دك الأسوار الطويلة واستدعاء الألجركيين المنفيين ، وتسليم جميع ما كان باقياً من أسطولها عدا ثمان سفن ، وأن تقطع على نفسها عهداً بأن تساعد اسپارطة مساعدة جدية فى كل حرب تخوض غمارها فى المستقبل . واحتجت أثينة على هذه الشروط ولكنها قبلتها صاغرة .

واستولى الألجركيون العائدون بزعامة أقرتياس وثرمنيز على أزمة الحكم بتأييد ليسندر ، وألفوا مجلساً من ثلاثين عضواً ليحكم أثينة (٤٠٤) . ولم يفد هؤلاء العائدون من دروس الماضى شيئاً ، كما لم يفد منها آل بربون Bourbon بعد أن عادوا إلى حكم فرنسا . فقد صادروا أموال كثيرين من أغنياء التجار ، وأوغروا عليهم صدورهم . ونهبوا أموال الهياكل ، وباعوا بثلاث وزنات أرصفة پيرية التى كلفت أثينة ألف وزنة[٣٠] ، ونفوا من المدينة خمسة آلاف من الدمقراطيين ، وأعدموا ألفاً وخمسمائة آخرين ؛ وقتلوا جميع الأثينيين الذين لم يكونوا هم راضين عنهم لأسباب سياسية أو شخصية ؛ وقضوا على حرية التعليم والاجتماع ، والكلام ؛ وحرم أقريتياس على سقراط ، وقد كان يوماً ما تلميذ هذا الفيلسوف ، أن يواصل أحاديثه العامة . وأراد الثلاثون أن يعرضوا الفيلسوف للشبهات ويضموه إلى قضيتهم فأمروه هو وأربعة غيره أن يقبضوا على ليون Leon الدمقراطى ، فأطاع الأربعة أمرهم ورفضه سقراط .

وازدادت جرائم الألجركيين وتضاعفت إلى حد أنسى الأثينيين أوزار الدمقراطية ، فأخذ عدد من يريدون التخلص من هذا الطغيان الدموى ، ومن بينهم كثيرون من ذوى اليسار ؛ يزداد يوماً بعد يوم ؛ ولما أن اقترب من پيرية ألف من الدمقراطيين المدججين بالسلاح بقيادة ثرازيبولس Thrasypulus لم يكد الثلاثون يجدون من يدافع عنهم غير شيعتهم الأقربين . ونظم أقريتياس جيشاً صغيراً ، وخرج هو إلى ميدان القتال فهزم وقتل . ودخل ثرازيبولس

أثينة وأعاد إليها الحكم الدمقراطى (٤٠٣) . وسارت الجمعية بإرشاده سيراً معتدلا لم تألفه من قبل ، فلم تحكم بالإعدام إلا على أكابر من بقوا على قيد الحياة من زعماء الثورة ، وسمحت لهم بالنجاة من هذا الحكم بالخروج من المدينة ؛ ثم أعلنت العفو العام عن جميع من ساعد الألجركيين من غير هؤلاء الزعماء ، بل إنها ردت إلى اسپارطة المائة الوزنة التى أعارها حكامها إلى الثلاثين[٣١] . وأعادت هذه الأعمال المنطوية على كثير من الإنسانية وحسن السياسة إلى أثينة ذلك السلام الذى حرمت منه جيل من الزمان .

الفصل السابع

موت سقراط

من أغرب الأشياء أن العمل القاسي الوحيد الذى ارتكبته الدمقراطية بعد عودتها ، قد ارتكبته مع فيلسوف طاعن فى السن تحول سنوه السبعون بينه وبين القيام بأى عمل يضر الدولة . ولكن كان بين زعماء الحزب المنتصر ذاك الأنيتوس Anytus الذى هدد قبل عدة سنين من ذلك الوقت بأن ينتقم لنفسه من سقراط لبعض إهانات لحقته من جدله ، ولأن الفيلسوف « أفسد » ابنه . وكان أنيتوس هذا رجلا صالحاً ، حارب ببسالة تحت إمرة ثرازيبولس ، وأنقذ حياة بعض من أسرهم جنوده من الألجركيين . وكانت له يد فى إصدار العفو العام ؛ وسمح للذين ابتاعوا أملاكهم ، بعد أن صادر الثلاثون الأملاك ، أن يتبقوها لأنفسهم لا ينازعهم فيها منازع . ولكنه لم يحتفظ بهذه الصفات الكريمة فى معاملته لسقراط . فهو لم ينس أن ابنه بقى مع سقراط وصار سكيراً عربيداً بعد أن ذهب هو إلى منفاه[٣٢] ؛ ولم يخفف من حقده على الفيلسوف أن سقراط أبى أن يطيع الثلاثين وأعلن أن أقريتياس حاكم ظالم (هذا إذا كان لنا أن نصدق رواية أكسانوفون عن هذا الحادث[١٣]) . فقد بدأ لأنيتوس أن تأثير سقراط فى الأخلاق وفى السياسة أسوأ من تأثير أى سوفسطائى آخر ، وأنه يقوض دعائم العقيدة الدينية التى كانت تستند إليها الأخلاق ، وأن انتقاداته الدائمة كانت تضعف إيمان الأثينيين المتعلمين فى الأنظمة الدمقراطية(*) . وبدا لأنيتوس أن من الخير أن يخرج سقراط من أثينة أو أن يموت .

(*) لقد انتقطع أقريتياس وألقبيادس على سقراط فى أوائل عهده بالتدريس لأنهما لم يقبلا القيود التى كان يدعو إليها .

ووجّه الاتهام إلى سقراط أنيتوس ، وملاتوس ، وليقون فى عام ٣٩٩ وكان نصه : « أن سقراط مذنب عام لأنه لا يعترف بالآلهة التى تعترف بها الدولة ، بل يدخل فيها كائنات شيطانية » (الديمونيون السقراطية) ؛ « وأنه مذنب كذلك لأنه أفسد الشباب(*)(٣٥) » . وجرت المحاكمة أمام محكمة شعبية (ديكاستريون Dikasterion) مؤلفة من حوالى خمسمائة من المواطنين معظمهم ممن لم ينالوا قسطاً كبيراً من التعليم . وليس لدينا وسيلة نعرف بها ما فى رواية أفلاطون وأكسانوفون الخاصة بدفاع سقراط عن نفسه من دقة ؛ وكل ما نعرفه محققاً أن أفلاطون شهد المحاكمة بنفسه(٣٧) ، وأن روايته عن اعتذار سقراط تتفق فى كثير من المواضع مع رواية أكسانوفون . يقول أفلاطون إن سقراط قد أكد أنه يؤمن بألوهية الشمس والقمر نفسيهما . « تقولون أولا إنى لا أومن بالآلهة ثم تقولون بعدئذ إنى أومن بإنصاف الآلهة... إن مثلكم فى هذا كمثل من يؤكد وجـود البغال ثم ينكر وجود الخيل والحمير(٣٨) » ثم أشار وهو مكتئب حزين إلى ما كان لهجاء أرسطوفان من أثر فعال :

« لقد اتهمنى كثيرون ، اتهمونى فى الزمن القديم ، وظلت تهمهم الكاذبة تطاردنى كثيراً من السنين ؛ وأنا أخشاهم أكثر مما أخشى أنيتوس ورفاقه . . . لأنهم بدءوا يتهموننى وأنتم أطفال ، واستحوذوا بأكاذيبهم على عقولكم ، إذ حدثوكم عن شخص يسمى سقراط ، وهو رجل حكيم ، يفكر فى السموات العلا ، ويفحص عن الأرض من تحتنا ، ويجعل أسوأ الأسباب تبدو للعين كأنها أحسنها . أولئك هم المتهمون الذين أخشى بأسهم ، لأنهم هم الذين ينشرون

(*) يعتقد كروازيه Croiset أن سبب الاتهام الحقيق هو عداء زراع أتكا لكل من يثير الشك فى آلهة الدولة . فقد كان من أشهر أسواق الماشية سوق تقام ليشترى منها الأتقياء الصالحون ما يقربونه للآلهة من الماشية . وكان أى نقص فى العقيدة الدينية يسبب الكساد لهذه السوق ، وكان أرسطوفان وهو يعلل العداء على هـذا النحو إنما ينطق بلسان أولئك الزراع الذين تعرض عليهم مسرحياته إذ نجحت مراراً كثيرة(٣٦)

هذه الشائعة ، وسرعان ما يخيل إلى المستمعين ليهم أن من يفكر هذا التفكير لا يؤمن بالآلهة . وما أكثر هؤلاء ، وما أقدم التهم التى يوجهونها إلىّ ، وقد كانوا يوجهونها أثناء طفولتكم التى ينطبع فيها كل شىء قوياً فى عقولكم ، أولعلهم وجهوها إلىّ فى أثناء شبابكم ، وسواء كان هذا أو ذاك فإن التهمة إذا وجهت ولم تجد من يفندها ثبتت فى العقول . وأصعب ما فى الأمر كله أنى لا أستطيع ذكر أسمائهم لأننى أجهلها ، اللهم إلا اسم واحد عرفته مصادفة وهو شاعر هزلى . . . تلك هى حقيقة التهم الموجهة إلىّ ، وهذا هو الذى رأيتموه بأعينكم فى مسلاة أرسطوفان(٣٩) » .

وهو يقول إنه مكلف برسالة إلهية هى أن يهدى الناس إلى الحياة الصالحة البسيطة ، وإنه لن يمتنع عن إبلاغ الناس هذه الرسالة أياً كان ما يهدد به .

« ولو فعلت لكان مسلكى عجيباً بحق . أى رجال أثينة ، إذا كنت وأنا تحت إمرة القواد الذين اخترتموهم رؤساء علىّ فى پوتيديا ، وأمفپوليس ، وديليوم قد ثبت حيث أمرونى بالثبات ، وواجهت الموت كما واجهه كل رجل آخر — وإذا كنت الآن ، وأنا أعتقد وأتصور أن الله يأمرنى بأن أؤدى رسالة الفيلسوف فأفحص عن نفسى وعن غيرى من الناس ، إذا كنت أنا أتخلى عن مهمتى خشية الموت . . . ، وإذا ما قلتم لى : يا سقراط إنا سنعفو عنك الآن ولا نشترط عليك إلا أن تكف من هذه الساعة عن البحث والتفكير على هذا النحو . . . أجبتكم : أى رجال أثينة ، إنى أجلكم وأحبكم ، ولكنى سأطيع الله ولا أطيعكم ، ولن أمتنع ، ما دمت حياً وما دامت لدى قوة ، عن ممارسة الفلسفة أو تعليمها للناس ، أعظ كل من ألقاه على طريقتى الخاصة ، وأقنعه ، وأقول له : أى صديقى ، لم تعنى كل هذه العناية كلها بادخار أكبر قدر مستطاع من المال والشرف والسمعة الطيبة ولا تدخر إلا النزر اليسير من الحكمة والحقيقة وأنت مواطن فى مدينة أثينة العظيمة ، القوية ، الحكيمة ؟ وأهيب بكم يا رجال

أثينة أن تفعلوا ما يأمركم به أنيتوس ، برئونى أو لا تبرئونى ، ولكن أيا كان ما تفعلونه بى ، فلتعلموا أنى لن أبدل طرائقى ، ولو مت مرات كثيرة[٤٠] .

ويبدو أن القضاة قد قاطعوه عند هذه النقطة ، وأمروه ألا يسترسل فيما بدا لهم أنه وقاحة ، ولكنه واصل دفاعه بكبرياء أشد من ذى قبل :

أحب أن تعرفوا أنكم إذا قتلتم رجلا مثلى ، أسأتم إلى أنفسكم أكثر مما تسيئون إلىّ ... لأنكم إن قتلتمونى لن يسهل عليكم أن تجدوا رجلا آخر مثلى ، فأنا ، إذا سمح لى أن ألجأ إلى هذا التشبيه المضحك السخيف ، كذبابة بعثها الله إلى الدولة ، والدولة شبيهة بجواد عظيم كريم ، بطىء الحركة لضخامة جسمه ، فى حاجة إلى ما يبث فيه الحياة ... وإذ كنتم لن تجدوا غيرى رجلا مثلى ، فإنى أنصحكم أن تبقوا علىّ[٤١] .

وصدر الحكم بإدانته بأغلبية ضئيلة لا تزيد على ستين صوتا ، ولو أن دفاعه كان أقل حدة وأكثر استرضاء للقضاة لكان من الجائز أن يبرأ . وكان من حقه أن يقترح عقابا آخر بدل الإعدام ، ولكنه أبى فى أول الأمر أن يطلب هذا الطلب ؛ فلما ألح عليه أفلاطون وغيره من الأصدقاء ، عرض أن يؤدى غرامة قدرها مائة مينا (٣٠٠٠ ريال أمريكى) . وضمنه أفلاطون وهؤلاء الأصدقاء فى تعهده . فلما أخذ الرأى للمرة الثانية زاد عدد أصوات الذين حكموا بإعدامه ثمانين صوتا على عددهم فى المرة الأولى[٤٢] .

وقد كان فى استطاعته بعدئذ أن يفر من السجن ، وقد مهد له أقريطون وغيره من الأصدقاء (إذا جاز لنا أن نصدق أفلاطون) بالرشا سبيل الفرار[٤٥] ، والراجح أن أنيتوس كان يأمل أن ينتهى الأمر على هذا النحو . ولكن سقراط بقى كما هو إلى آخر يوم من حياته : فقد كان يحس أنه لن تطول حياته أكثر من بضع سنين وأنه « لن يلقى عن كاهله إلا أبهظ جزء من الحياة ؛ وهو الجزء الذى يشعر فيه الناس كلهم أن قواهم العقلية آخذة فى النقصان[٤٦] »

لهذا لم يقبل اقتراح أقريطون ، بل أخذ يبحثه من وجهة النظر الأخلاقية ، ويناقشه على الطريقة الجدلية ، ويطبق عليه المنطق إلى النهاية(٤٧) . ولم ينقطع تلاميذه عن زيارته فى سجنه كل يوم خلال الشهر الذى انقضى بين إدانته وتنفيذ الحكم فيه ، ويبدو أنه ظل يتحدث إليهم وهو هادئ حتى الساعة الأخيرة من حياته . ويحدثنا أفلاطون أنه أخذ يعبث بشعر فيلون Phaedo ويقول : « يخيل إلى يافيدون أن هذه الغدائر الجميلة ستقص غداً » - حزناً علىّ . وجاءته زانثبي باكية وبين ذراعيها أصغر أطفالها ؛ فأخذ يواسيها ، وطلب إلى أقريطون أن يصحبها إلى دارها . وقال له أحد تلاميذه المتحمسين : « إنك لا تستحق هذه الميتة » فأجابه سقراط بقوله : « هل تريد إذن أن أستحقها(٤٩) ؟ » .

ويقول ديودور الصقلى(٥٠) . إن الأثينيين ندموا على فعلتهم بعد موته وأعدموا من اتهموه . ويقول سويداس إن ملاتوس مات رجماً بالحجارة(٥١) ، ولكن فلوطرخس يروى رواية أخرى فيقول إن الشعب غضب على متهميه غضباً بلغ من شدته أنهم لم يجدوا مواطناً يوقد لهم النار ، أو يجيب لهم عن سؤال ، أو يستحم فى ماء استحموا هم فيه ، فلم يسعهم آخر الأمر إلا أن يقتلوا أنفسهم(٥٢) . ويروى ديوجانس ليرتيوس أن ملاتوس أعدم ، وأن أنيتوس نفى ، وأن تمثالاً من البرنز أقيم فى أثينة تخليداً لذكرى الفيلسوف(٥٣) . ولكننا لا نعرف ما فى هذه القصص من الصدق أو الكذب(*) .

وانتهى العصر الذهبى بموت سقراط . فقد خارت قوى أثينة المادية والمعنوية ؛ ولم يكن ثمة ما يستطاع به تعليل القسوة المتناهية التى عاملت بها ميلوس ، والحكم الوحشى الذى أصدرته على متلينى ، وإعدام قواد أرجنوسى ،

(*) أما جروت(٥٤) . فيشك فيها ، ومما يبعث فى نفوسنا نحن الشك فى صدقها مايبذله أفلاطون وأكسانوفون من الجهد فى الدفاع عن سمعة سقراط . ولكن هذه الروايات كان يقبلها الناس بوجه عام فى الزمن القديم (كان يقبلها مثلا ترتليان وأوغسطين(٥٥)) ، وهى تتفق كل الاتفاق مع عادات الأثينيين .

والتضحية بسقراط على مذبح الدين المحتضر ، لم يكن ثمة ما يستطاع به تعليل هذا كله إلا ما أصاب الأخلاق فيها من تدهور بسبب الحروب الطوال التى خاضت غمارها وما جرته على أهلها من عذاب وآلام . لقد تصدعت جميع الدعائم التى تستند إليها الحياة الأثينية : فأقفرت تربة أتكا من جراء الغارات الاسپارطية ، وأحرقت أشجار الزيتون البطيئة النمو ، ودمر الأسطول الأثينى فلم تستطع أثينة بعد تدميره أن تسيطر على الطرق التجارية وتضمن ما يلزمها من الطعام ؛ وأقفرت خزائنها من المال ، وفرض على الثروات الخاصة من الضرائب الباهظة ما كاد يذهب بها كلها ؛ وقتل نحو ثلثى مواطنيها . وكان ما أصاب بلاد اليونان من الضرر بسبب غزوة الفرس أقل مما أصابها بسبب حروب البلوپونيز . لقد تركت موقعتا سلاميس وپلاتيا بلاد اليونان فقيرة ولكنها مرفوعة الرأس تملأ نفوس أهلها العزة وتعمر قلوبهم الشجاعة ، أما الآن فقد افتقرت بلاد اليونان مرة أخرى ، وأثخنت أثينة بجراح فى روحها مستنسرة لا يرجى لها برء :

ولم يكن يحفظ عليها حياتها إلا شيئان : عودة الديمقراطية على أيدى رجال من ذوى الحكمة والاعتدال ، وشعورها بأنها فى خلال الستين سنة الأخيرة ، وحتى فى خلال الحرب نفسها ، قد أخرجت إلى العالم فناً وأدباً لا يدانيهما نتاج أى عصر آخر فى تاريخ البشر . نعم إن أنكساغورس قد نفى ، وأن سقراط قد أعدم ، ولكن القوة التى بعثاها فى الفلسفة كانت تكفى لأن تجعل أثينة من ذلك الحين ، وعلى الرغم منها ، مركز التفكير اليونانى الذى بلغ فيها ذروته . فقد نضجت فيها تلك الآراء التى كانت من قبل أفكاراً تجريبية لم تتشكل بعد وأضحت نظماً عظيمة مستقرة ظلت مصدر الحركة فى الحياة الفكرية الأوربية عدة قرون ؛ وحلت محل نظم التربية العالية المضطربة التى لا تخضع لقاعدة والتى كان يتولى أمرها السوفسطائيون ، حلت محلها أولى الجامعات التى عرفها التاريخ — وهى الجامعات التى جعلت أثينة فى

مستقبل الأيام « مدرسة هلاس » كما تعجل وسماها سيديدز قبل اكتمالها . ولم تقض الحروب وما أزيق فيها من دماء وما أحدثته من فوضى واضطراب على مقومات الفن وتقاليده قضاء تاماً ، بل ظل المثالون والمهندسون اليونان عدة قرون بعد ذلك الوقت ينحتون ويشيدون لجميع بلاد البحر الأبيض المتوسط ؛ ولقد انتعشت أثينة من اليأس الذى دب فيها بعد هزيمتها ، وعادت إليها حيويتها عودا يثير الدهشة ، فتجددت ثروتها ، وثقافتها ، وقوتها ، وازدهر خريف حياتها وأثمر أحسن الثمار .

الكتاب الرابع

اضمحلال الحرية اليونانية وسقوطها

من ٣٩٩ الى ٣٢٢ ق . م

ثبت مسلسل للحوادث التاريخية

فى الكتاب الرابع

ق . م .

٣٩٩ — ٦٠ أجلسوس ملك اسپارطة .
— ٣٩٧ الحرب بين سراقوصة وقرطاجة .
— ٣٩٦ أرستپوس فى سيرينى وأنتستانس فى أثينه ، فيلسوفان .
— ٣٩٥ أثينة تعيد بناء الأسوار الطويلة .
— ٣٩٤ واقعتا كرونيا وثيدس .
— ٣٩٣ أپولوچية أفلاطون ؛ ومرابلية أكسانوفون ، وإكلازوسية أرسطوفان .
٣٩٠ — ٣٨٧ ديونيشيوس يخضع إيطاليا الجنوبية .
— ٣٩١ إسقراط يفتتح مدرسته .
— ٣٩٠ إفوراس يصبغ قبرص بالصبغة اليونانية .
— ٣٨٧ صلح أنتلسداس ، أو صلح الملك ؛ أفلاطون يزور أرقطاياس التاراسى العالم الرياضى ، وديونيشيوس الأول .
— ٣٨٦ أفلاطون ينشئ المجمع العلمى (الأقاديمة) .
— ٣٨٣ الاسپارطيون يحتلون كدمية عند طيبة .
— ٣٨٠ پنيچركس لإسقراط .
— ٣٧٩ پلپداس وميلون يحرران طيبة .
٣٧٨ — ٥٤ الإمبراطورية الأثينية الثانية .
— ٣٧٥ ثياثيتس ، العالم الرياضى .
— ٣٧٢ ديجين السينوبى ، الفيلسوف .
— ٣٧١ أپامننداس ينتصر عند لكترا .
— ٣٧٠ ديوقليس الصوبى عالم الأجنة ، وديوكسس النيدى الفلكى .
٣٦٧ — ٥٧ ديونيشيوس الثانى طاغية فى سراقوصة ، ديون يضع خططاً للإصلاح .
— ٣٦٧ أفلاطون يزور ديونيشيس الثانى .
— ٣٦٢ أپامننداس ينتصر ويموت عند منتنيا .
— ٣٦١ زيارة أفلاطون الثالثة لسراقوصة .

ق . م .

— ٣٦٠ پركستليز الأثيني ، واسكوپاس الپاروسي المثالان ؛ إفورس الكيمي
وثيوپمپس الخيوزى المؤرخان .

— ٣٥٩ فليپ الثانى نائب الملك فى مقدونية .

٣٥٧ — ٤٦ الحرب بين أثينة ومقدونية .

٣٥٧ — ٤٦ نفى ديونيشيوس الثانى .

٣٥٦ — ٤٦ الحرب المقدسة الثانية .

— ٣٥٦ مولد الإسكندر الأكبر ؛ حرق الهيكل الثانى فى إفسوس ، مسرحية
« فى السلم » لإسقراط .

— ٢٥٥ مسرحية أريبجستس لسقراط .

— ٣٥٤ اغتيال ديون .

٣٥٣ — ٤٩ تابوت هليكرنسس .

— ٣٥١ « فليپ الأول » تأليف دمستين .

— ٣٤٩ فليپ يهاجم أولنثس ، دمستين يكتب « أولنثياكس الأول والثانى » .

— ٣٤٨ هرقليدس الپنتوسى الفلكى ، اسپوسيپوس يخلف أفلاطون فى رياسة
المجمع العلمى .

— ٣٤٦ « فى السلم » تأليف دمستين ؛ « رسالة لفليپ » لإسقراط .

— ٣٤٤ تيمليون ينقذ سرقوصة ؛ « فليپ الثانى » تأليف دمستين .

— ٣٤٣ محاكمة إسكنيز وتبرئته .

٣٤٢ — ٣٨ أرسطاطاليس معلم الإسكندر .

— ٣٤٠ تيمليون يهزم القرطاجيين .

— ٣٣٨ فليپ يهزم الأثينيين فى قيرونية ؛ موت إسقراط .

— ٣٣٦ اغتيال فليپ ، ارتقاء الإسكندر ودارا الثالث عرشى بلادهما .

— ٣٣٥ الإسكندر يحرق طيبة ويبدأ الحملة الفارسية .

— ٣٣٤ أرسطاطاليس يفتتح اللوقيون ، واقعة نهر غرنيقوس ؛ نصب تذكارى
ليسقراطس .

— ٣٣٣ واقعة إسوس .

— ٣٣٢ حصار صور والاستيلاء عليها ؛ تسليم أورشليم ؛ تأسيس الإسكندرية .

— ٣٣١ واقعة جوجميلا (أربيلا) ؛ الإسكندر فى بابل والسوس .

ق . م .

— ٣٣٠ أپليز السيوفى المصور ، ايسيوش الأرجوسى المثال ، مسرحية « شبه تسيفون » لإسكنيز ، ومسرحية « على التاج » لدمستين .

٣٢٩ — ٢٨ الإسكندر يغزو آسية الوسطى .

— ٣٢٧ موت كليتس وكلستنيز .

٣٢٧ — ٢٥ الإسكندر فى الهند .

— ٣٢٥ رحلة نيركس .

— ٣٢٤ نفى دمستين .

— ٣٢٣ موت الإسكندر ؛ الحرب اللامية .

— ٣٢٢ موت أرسطاطاليس ، ودمستين ، وديجين .

الباب التاسع عشر

فليب

الفصل الأول

إمبراطورية اسبارطة

بسطت اسبارطة الآن سيادتها البحرية على بلاد اليونان ، ودامت لها هذه السيادة فترة قصيرة من الزمان مثلت فى التاريخ مرة أخرى مأساة من مآسى النجاح يذل صاحبه الكبرياء . فهى لم تمنح المدن التى كانت من قبل خاضعة لأثينة ما وعدتها به من حرية ، بل فرضت عليها بدلا من هذا جزية سنوية مقدارها ألف وزنة (٦٠٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) ، وأقامت فى كل منها حكماً أرستقراطياً يشرف عليه حاكم لسدمونى تؤيده حامية اسپارطية . ولم تكن هذه الحكومات مسئولة إلا أمام الحكام الاسپارطيين البعيدين عنها ، فأوغلت فى الفساد والظلم إيغالا لم يلبث أن أوغر الصدور على الحكومة الجديدة أكثر مما كانت موغرة على الحكومة القديمة .

وفى اسپارطة نفسها كان سيل المال والهدايا المنهمر من المدائن الخاضعة لاستبدادها والأجركيين الأذلاء سبباً فى تقوية العوامل الداخلية التى كانت تدفع المدينة دفعاً إلى الانهيار . فلم يستهل القرن الرابع حتى تعلمت الطبقة الحاكمة كيف تجمع بين الترف فى الحياة الخاصة والبساطة فى الحياة العامة ، وحتى الحكام أنفسهم لم يعودوا يتأدبون بأدب ليتورغ إلا فى

المظهر الخارجى دون غيره . وانتقل الكثير من الأراضى عن طريق البائنات والوصايا إلى النساء ؛ وهذه الثروة المكدسة جعلت النساء الاسپارطيات — وهن اللائى لم يكن يتحملن عبء تربية الذكور من الأبناء — يحيين حياة مريحة متحللة من القيود الأخلاقية لا تلائم الأنوثة بحال من الأحوال . هذا إلى أن ما تعاقب على بعض الضياع من تقسيم فى إثر تقسيم قد أفقر بعض الأسر فقراً عجزت معه عن تقديم نصيبها من الطعام العام ، ففقدت بذلك ماكان لها من حقوق المواطنية ، على حين أن تضخم بعض الثروات الأخرى عن طريق الزواج والوصايا قد أوجد لدى العدد القليل من « الأنداد » الباقين ثراوت كبيرة مركزة أثارت الغيرة والحسد فى القلوب(*) . وفى ذلك يقول أرسطاطاليس : « من الاسپارطيين من يمتلك ضياعاً واسعة ، ومنهم من لا يكادون يمتلكون شيئا على الإطلاق ، فالأرض بأجمعها فى أيدى عدد قليل منهم[٣] » . وتكون من الطبقات العليا التى فقدت حقوقها السياسية ومن البريسيين المحرومين من هذه الحقوق ، والهيلوتيين الحانقين ، مجموعة من الأهلين يضطرب فى نفوسها من القلق والعداء ما لا يسمح للحكومة أن تقدم على شئ من المغامرات العسكرية الخارجية التى يتطلبها الحكم الإمبراطورى إقداما يشغلها زمناً طويلا فى أماكن واسعة .

وكانت الحرب الأهلية القائمة فى بلاد الفرس وقتئذ تشكل مصائر بلاد اليونان ؛ فقد ثار قورش الأصغر فى عام ٤٠١ على أخيه أرتخشتر الثانى ، واستعان عليه باسپارطة ، وجند جيشا من آلاف اليونان وغيرهم من الجنود المرتزقة الذين أصبحوا ولا عمل لهم فى آسية على أثر انتهاء حرب البلوپونيز الفجائى . والتقى الأخوان المتقاتلان فى كونكسا بين دجلة والفرات وقرب ملتقاهما . وهزم قورش فى هذه الواقعة وقتل وأسر جيشه كله أو أبيد عدا فرقة مؤلفة من اثنى عشر ألفاً من اليونان استعانوا بسرعة بديهتهم وإقدامهم

(*) كان عدد المدوبرى Homoioi أو « الأنداد » ثمانية آلاف فى عام ٤٨٠ ، وألفين فى عام ٣٧١ وسبعمائة فى عام ٣٤١ .

على الهرب إلى داخـــل بلاد بابل . وطاردتهم قوات الملك فاختاروا على طريقتهم الدمقراطية الساذجة ثلاثة قواد يهدونهم سبيل السلامة . وكان من بين هؤلاء القواد أكسانوفون الذى كان فى يوم من الأيام تلميذاً لسقراط ، والذى كان وقتئذ جندياً شاباً مغامراً ، قدر له أن يخلد اسمه على الأخص بمؤلفه المعروف بالأناباسيس Anabasis أو الصعود الذى وصف فيه وصفاً بسيطا رائعاً « ارتداد العشرة الآلاف » الطويل متتبعين مجرى نهر الفرات نحو منبعه وفوق تلال كردستان وأرمينية إلى البحر الأسود . وكان هذا الارتداد من أعظم المغامرات فى تاريخ البشر . وإنا لتدهشنا أشد الدهشة بسالة هؤلاء اليونان وهم يشقون طريقهم سيراً على أقدامهم يوما بعد يوم خمسة شهور كاملة ، قطعوا فى أثنائها ألفى ميل كاملة فى بلاد معادية لهم ، واجتازوا سهولا قائظة لا يجدون فيها طعاما ، وطرقا وعرة خطرة فوق الجبال تتراكم فيها الثلوج إلى عمق ثمان أقدام ، يتعرضون فيها لهجمات الجيوش والعصابات المسلحة من خلفهم وأمامهم ، وعن أيمانهم وشمائلهم ، ولا يترك أهل البلاد وسيلة إلا اتبعوها لقتلهم أو إضلالهم أو سد الطريق فى وجوههم . ونحن حين نقرأ هذه القصة الرائعة ، التى شوهها فى شبابنا إرغامنا على ترجمتها ، ندرك أن أهم سلاح تحتاجه الجيوش هو سلاح الطعام ، وأن مهارة القائد فى تدبير المؤن لجيشه لا تقل أهمية عن مهارته فى تدبير الفوز فى المعركة . وقد هلك من هؤلاء اليونان من التعرض للعوامل الجوية أكثر ممن هلك منهم فى الوقائع الحربية ، وإن كانت هذه الوقائع لم تنقطع يوماً واحداً . ولما أن وقعت عيون الباقين منهم أحياء ، وكانت عدتهم ٨٫٦٠٠ ، على بحر اليوكسين عند تربيزى (طربزون) غمرت قلوبهم موجة من السرور ؟

« ولم تكد مقدمتهم تصل إلى قمة الجبل حتى علت فى الجو صيحة شديدة سمعها أكسانوفون ومن فى المؤخرة فخيل إليهم أن أعداء آخرين يهاجمون المقدمة لأن الأعداء كانوا يقتفون آثارهم من خلفهم . . . فاستحثوا الخطى إلى

الأمام ليساعدوا رفاقهم ، وسرعان ما سمعوا الجنود يصيحون « البحر ! البحر ! » والصيحة تنتقل من صف إلى صف . وحينئذ هرول جنود المؤخرة جميعهم ، وأخذت دواب الحمل تتسابق إلى الأمام . . . ولما صعدوا جميعاً إلى قمة الجبل أخذ كل منهم يعانق زميله ، لا فرق بين الجنود والضباط والقواد ، والدموع تترقرق فى أعينهم من فرط السرور[٤] » .

ذلك أن هذا البحر بحر يونانى وأن مدينة ترابيزى مدينة يونانية ، فهاهم أولاء قد وصلوا سالمين ، وفى وسعهم أن يستريحوا ولا يخشوا أن يفاجئهم الموت فى سكون الليل . وترددت أصداء جهودهم المضنية فى طول بلاد هلاس القديمة وعرضها ، وشجعت فليب بعد مائتى عام من ذلك الوقت على الاعتقاد بأن قوة يونانية حسنة التدريب خليقة بأن يركن إليها فى هزيمة جيش فارسى يفوقها فى العدد أضعافاً مضاعفة . وهكذا مهد أكسانوفون على غير علم منه السبيل إلى الإسكندر .

ولعل أجسلوس الذى اعتلى عرش اسپارطة فى عام ٣٩٩ قد شعر بهذا الأثر . فلقد كان فى الاستطاعة إقناع بلاد الفرس أن تغفر لاسپارطة إقدامها على معونة قورش ، لكن هذا الملك ، وهو أقدر ملوك اسپارطة على الإطلاق ، لم يكن ينظر إلى حرب الفرس أكثر من نظرته إلى مغامرة ممتعة ، ولذلك سار على رأس قوة صغيرة ليحرر جميع بلاد آسية اليونانية من حكمهم(*) . ولما علم أرتخشتر الثانى أن أجسلوس لم يكن يلاقى عناء فى تشتيت شمل جميع الجيوش الفارسية التى أرسلت لصده ، بعث الرسل يحملون كميات كبيرة من الذهب إلى أثينة وطيبة ليرشوا بها هاتين المدينتين كى تعلنا الحرب على اسپارطة[٦] . وسرعان ما أفلح هؤلاء الرسل فى مهمتهم ، وتجددت الحرب بين اسپارطة وأثينة بعد أن دامت السلم بينهما تسعة أعوام ؛ واستدعى أجسلوس من آسية ليواجه جيوش أثينة وطيبة مجتمعة عند

(*) وقال وقتئذ : « فى أى شىء يعلو علىّ ملك الفرس ، إلا إذا كان أكثر منى استقامة وأشد منى كبحاً بلجام نفسه ؟[٥] » .

كرونيا . واستطاع أن يهزمها بشق الأنفس ؛ ولكن أسطولى أثينة وفارس مجتمعين بقيادة كونون Conon دمرا الأسطول الاسپارطى قرب نيدس بعد شهر واحد من ذلك الوقت وقضيا بذلك على ما كان لاسپارطة من سيادة بحرية قصيرة الأجل . وابتهجت أثينة بهذا النصر المؤزر وأخذت تعمل بجد مستعينة بما أمدتها به فارس من المال لإعادة بناء أسوارها الطويلة . ودافعت اسپارطة عن نفسها بأن أرسلت رسولا يدعى أنتلسداس Antalcidas إلى الملك العظيم يعرض عليه أن تسلمه المدن اليونانية فى آسية ليحكمها الفرس إذا فرضت فارس على مدن اليونان الأصلية صلحاً يحمى اسپارطة من العدوان . ووافق الملك العظيم على هذا الشرط ، وامتنع عن مساعدة أثينة وطيبة بالمال ، وأرغم المتنازعين جميعاً على أن يوقعوا فى سرديس (٣٨٧) « صلح أنتلسداس » أو « صلح الملك » وأعطيت بمقتضى هذا الصلح لمنوس ، وأمبروس ، وسيروس إلى أثينة ، وضمن الاستقلال للدول اليونانية الكبرى ؛ ولكنه أعلن أن جميع المدائن اليونانية فى آسية ، وجزيرة قبرص ، قد أضحت للملك العظيم . ووقعت أثينة على شروط الصلح بعد أن احتجت عليها لعلمها أن هذه كانت أكثر الحوادث إذلالا لها فى تاريخ اليونان كله . وهكذا ضاعت ثمار نصر مرثون كلها ، وظلت أثينة ضائعة جيلا كاملا ، وبقيت دول اليونان الأصلية حرة بالاسم ، أما فى واقع الأمر قد ابتلعتها قوة الفرس . ونظرت بلاد اليونان بأجمعها إلى اسپارطة نظرتها إلى الخائن الغادر ، وأخذت تنتظر على أحر من الجمر أن تقوم أمة من الأمم تهلكها وتدمرها .

الفصل الثانى

إپامينينداس

وكأنما أرادت اسپارطة أن تقوى هذا الحقد فى صدور الدول اليونانية الأخرى ، فادعت لنفسها حق تفسير شروط « صلح الملك » وإرغام هذه الدول على الخضوع لها . وأرادت أن تضعف قوة طيبة فأصرت على أن الحلف البؤوتى لايتفق مع الشرط القاضى باستقلال الدول اليونانية الكبرى وحتمت حله . وتذرعت اسپارطة بهذه الحجة فأقامت فى كثير من المدن البؤوتية حكومات ألجركية موالية لها ، تؤيدها فى كثير من الحالات حاميات اسپارطية ، ولما احتجت طيبة على هذا العمل استولت قوة لسديمونية على كدميا Cadmeia معقلها الحصين ، وأقامت فيها حكومة ألجركية خاضعة لسيطرة اسپارطة . وأثارت هذه الأزمة فى نفس طيبة بطولة لا عهد لها بها . فاغتال پلپداس Plopidas وستة من رفاقه طغاة طيبة الأربعة صنائع اسپارطة ، وأعادوا إلى المدينة حريتها واستقلالها . وأعيد تنظيم الحلف واختير پلپداس زعيماً له ، واستدعى پلپداس لمعونته صديقه وحبيبه إپامينينداس ، فدرب الجيش الذى أعاد اسپارطة إلى عزلتها القديمة ، وقاده بنفسه فى المعارك التى انتهت بهذه النتيجة .

وكان إپامينينداس من أسرة عريقة أخنى عليها الدهر تفخر بأن ترجع بأصولها إلى أنياب الحولة التى زرعها كدمس قبل مولده بألف عام : وكان رجلا هادئاً قيل عنه إنه ليس بين الناس من هو أقل منه كلاماً أو أكثر منه معرفة[٧] ؛ وقد حببه إلى أهل طيبة ، على الرغم من النظام العسكرى الذى أخذهم به ، تواضعه واستقامته ، وحياته التى لا تكاد تفترق فى شىء عن حياة الزهاد ، وإخلاصه لأصدقائه ، وسداد رأيه إذا استنصح ، وشجاعته

المصحوبة بالتؤدة ، ضبط النفس وقت العمل : ولم يكن يحب الحروب ولكنه كان يعتقد أنه لا توجد أمة على ظهر الأرض تستطيع الاحتفاظ بحريتها إذا فقدت روحها وعاداتها الحربية . ولما اختير المرة بعد المرة رئيساً للحلف البؤوتى حذر الذين أرادوا أن يعطوه أصواتهم بقوله : « فكروا فى الأمر مرة أخرى لأنى إذا وليتمونى قيادتكم سأضطركم إلى الخدمة فى جيشى »[٨] . ودرب الطيبيون المتراخون تحت قيادته حتى صاروا جنوداً بواسل ، وحتى العشاق اليونان الذين كثر عددهم فى المدينة ألف منهم بلپداس « عصبة مقدسة » تبلغ عدتها ثلثمائة من المحاربين قطع كل منهم على نفسه عهداً بأن يقف فى المعركة إلى جانب صديقه حتى يموت .

ولما غزا بؤوتية جيش اسپارطى عدته عشرة آلاف جندى يقوده الملك كليمبروتس ، التقى به إپامينداس عند لكترا بالقرب من پلاتية ومعه ستة آلاف رجل وانتصر عليه نصراً كان له أعظم الأثر فى تاريخ اليونان كله وفى أساليب أوربا العسكرية . وكان هو أول يونانى وجه عنايته إلى دراسة الحركات العسكرية ، وكان يقدر على الدوام أنه سيواجه فى كل معركة عدواً يفوقه فى عدد الرجال ، فكان يركز نخبة مقاتليه ليهاجم بهم أحد جناحى العدو ؛ ثم يأمر بقية الجيش أن تلتزم خطة الدفاع ، فإذا تقدم العدو فى القلب أمكن تشتيت شمله بهجوم على جناحه الأيسر . ولما تم له النصر فى واقعة لكترا زحف هو وپلپداس إلى الپلوپونيز وحررا مسينيا من تبعيتها لإسپارطة التى دامت قرناً من الزمان ، وأسسا مدينة مغالوپوليس لتكون معقلا لجميع الأركاديين . ونزل الجيش الطيبى إلى لكونيا نفسها ؛ وتلك حادثة لم يكن لها مثيل منذ مئات من السنين ، ولم تستفق اسپارطة قط مما لحق بها من الخسارة فى هذه الحملة : « فلم تستطع » على حد قول أرسطاطاليس « أن تفيق من هزيمة واحدة ، وقضى عليها قلة عدد مواطنيها »[٩] .

ولما أقبل فصل الشتاء انسحب الطيبيون إلى بؤوتية . واغتر إپامينداس

بالنصر كما كان يغتر به سائر قواد اليونان المنتصرون ، فبدأ يفكر فى إنشاء إمبراطورية طيبية تحل محل الوحدة التى أقامتها زعامة أثينة أو اسپارطة من قبل على بلاد اليونان ، وقد جرته هذه الخطة إلى محاربة الأثينيين ، وأرادت اسپارطة أن تسترد مكانتها السابقة فتحالفت مع أثينة ، والتقت جيوش الأعداء عند منتينيا عام ٣٦٢ ق . م ، وانتصر إپامينونداس فى هذه المعركة ، ولكنه قتل فى أثنائها بيد جرلس Gryllus بن أكسانوفون . ولم تجن هلاس خيراً دائماً من زعامة طيبة القصيرة . نعم إنها حررت بلاد اليونان من طغيان اسپارطة ، ولكنها عجزت ، كما عجز من قبلها ، عن أن توجد خارج نطاق بؤوتة وحدة متجانسة متماسكة ، وكان من أثر النزاع الذى خلقته فى بلاد اليونان أن أضحت الدول اليونانية من أثره مضطربة ضعيفة عاجزة عن لقاء فليب حينما انقض عليها من الشمال .

الفصل الثالث

الإمبراطورية الأثينية الثانية

وحاولت أثينة للمرة الأخيرة أن تؤلف هذه الوحدة : واستطاعت بفضل أسوارها الطويلة ، وأساطيلها التي جددت بناءها ، وماليتها الثابتة الموثوق بها ، وما تيسر لها من زمن بعيد من الوسائل المالية والتجارية ، استطاعت بفضل هذا كله أن تستعيد ما كان لها من سيادة تجارية في بحر إيجة . وكانت الدول التي خضعت لها من قبل والدول المتحالفة معها قد علمتها الحروبُ التي دامت خمسين عاماً كاملة أنها في مسيس الحاجة إلى سلامة أعظم مما تهيؤه لها السيادة الفردية ، ولهذا اتحدت معظم هذه الدول مرة أخرى في عام ٣٧٨ بزعامة أثينة ، ولم يحل عام ٣٧٠ حتى كانت هذه المدينة مرة أخرى أقوى الدول سلطاناً في شرق البحر الأبيض المتوسط .

وكانت الصناعة والتجارة هما وقتئذ عماد حياتها الاقتصادية . ذلك أن أرض أتكا لم تكن في يوم من الأيام مما يوائم الزراعة الجماعية . نعم إن العمل الشاق الطويل قد جعلها أرضاً مثمرة بفضل عناية الأهلين بأشجار التوت وبالكروم ، ولكن الإسپارطيين كانوا قد دمروا هذه الغروس ، وقلما كان من المزارعين من يستطيع الصبر نصف جيل حتى تثمر بساتين الزيتون الجديدة ثمارها . وكان معظم الزراع الذين عاشوا قبل الحروب قد قضوا نحبهم ، وكان معظم من بقي من الزراع قد دب اليأس في نفوسهم فمنعهم أن يعودوا إلى أملاكهم المخربة فباعوها بأبخس الأثمان لملاك يستغلونها وهم بعيدون عنها ، وفي وسعهم أن يستثمروا أموالهم فيها استثماراً طويل الأجل . وبهذه الطريقة ، وبانتزاع ملكية الأراضي الزراعية المثقلة بالدين ، انتقلت هذه الأراضي في أتكا إلى أيدي عدد قليل من الأسر كانت

تستغل كثيراً من المزارع الواسعة بجهود الأرقاء[١٠]. وأعيد فتح مناجم لوريوم، وأرسل إلى الحفر ضحايا جدد، وتكونت ثروات جديدة من الفضة النغل ومن الدماء البشرية؛ وعرض أكسانوفون[١١] طريقة ظريفة تستطيع بها أثينة أن تملأ خزائنها بالمال، ولا تكلفها أكثر من أن تشترى مائة ألف من الأرقاء تؤجرهم إلى المقاولين فى لاريوم. وأثمرت هذه الطريقة ثمرتها المرجوة فاستخرجت من الفضة مقادير تفوق ما كان ينتج من السلع، فارتفعت الأثمان أسرع من ارتفاع الأجور، ووقع عبء هذا الانقلاب على كاهل الفقراء:

وازدهرت الصناعة وتلقت محاجر پنتلكس مصانع الفخار فى السرمكس طلبات من عالم بحر إيجة كله. وجمع بعضهم ثروات طائلة بشراء منتجات الصناع اليدويين أو المصانع الصغيرة بأثمان بخسة وبيعها بعدئذ بأغلى الأثمان فى الأسواق المحلية أو الخارجية. وسرعان ما تضاعف عدد المصارف المالية فى أثينة تبعاً لنمو التجارة وتجمع الثروة النقدية بدل الثروة العقارية. وتلقت هذه المصارف كثيراً عن النقود أو الذخائر القيمة لحفظها لديها، ولكن يلوح أنها لم تكن تؤدى فوائد من هذه الودائع. وسرعان ما وجد أصحاب المصارف أن هذه الودائع لا تسترد كلها فى وقت واحد فى الظروف العادية، فشرعوا يقرضون المال بفوائد عالية، وقتصروا فى بادئ الأمر على إقراض المال دون الاشتغال بوسائل الائتمان الأخرى، فكانت تضمن عملاءها، وتحصل لهم مطلوباتهم، وتقرض النقود بضمان العقار أو النفائس، وتمد السفن التى تنقل البضائع بحاجتها من المال. وكان فى وسع التاجر بفضل هذه المصارف وأكثر من هذا بفضل القروض التى يقدمها الأفراد مجازفة منهم ومضاربة لجنى الأرباح الطائلة، أن يستأجر سفينة ينقل عليها بضاعته إلى إحدى الأسواق الأجنبية، ويشترى منها بدل هذه البضاعة شحنة أخرى، إذا وصلت إلى پيرية بقيت فيها ملكاً لأصحاب الديون حتى يستردوا ديونهم[١٢]؛ ولما تصرم بعض القرن الرابع نشأ نظام من نظم الائتمان الحقيقى: فشرع

أصحاب المصارف يصدرون خطابات الاعتماد ، والأذون المالية ، والتحاويل المصرفية بدل أن يقدموا النقود ؛ وبهذه الطريقة أصبحت الثروة تنتقل من عميل إلى عميل بتدوينها فى سجلات المصارف لا غير[١٣] . وكان رجال الأعمال أو أصحاب المصارف يصدرون السندات للحصول على القروض التجارية ، حتى صارت هذه السندات جزءاً كبيراً من كل شركة . وكان لبعضهم — كالمعتوق پاسيون مثلا — صلات مالية متشعبة ، واشتهروا بين الناس بأمانتهم ونزاهتهم فوثقوا بهم ، وكانت سنداتهم موضع الثقة فى جميع بلاد اليونان : وكان لمصرف پاسيون Pasion أقسام متعددة يعمل فيها عدد كبير من الموظفين معظمهم من الأرقاء ، ويحتفظ بطائفة كبيرة من السجلات المختلفة الأنواع تدون فيها كل عملية مالية بعناية فائقة جعلت فى المحاكم أدلة لا يقبل الطعن فيها . ولم يكن إفلاس المصارف أمراً غير مألوف ، ويحدثنا المؤرخون عما كان يحدث من « ذعر » مالى يغلق فيه مصرف بعد مصرف أبوابه[١٤] . وكانت توجه أحياناً إلى المصارف ، ومنها أعظمها نفوذاً ، تهم خطيرة من سوء استعمال ما آل إليها من سلطان ، وكان الناس ينظرون إلى رجال المصارف نظرة يجتمع فيها من الحسد والإعجاب ، والكراهية مثل ما يجتمع فى نظرة الفقراء إلى الأغنياء فى جميع العصور[١٥]

وأنتج تبدل الثروة من عقارية إلى منقولة كفاحاً شديداً للحصول على المال ، وكان لا بد للغة اليونانية من أن تخترع لفظاً تعبر به عن هذه الشهوة الجامحة للحصول على « أكثر فأكثر » من المال ، فأطلقت عليها لفظ « بليونكسيا Pleonexia » ولفظاً آخر يعبر عن الانهماك فى طلب الثراء « كرماتستيكى Chrematistike » . وأخذت السلع والخدمات من ذلك الوقت تقدر قيمتها بالمال ؛ بل إن الناس أنفسهم أصبحوا يقدرون به وبما يمتلكون منه ، وأصبحت الثروات تتكون ثم تزول بسرعة لا عهد للناس بها ، وتنفق فى مظاهر من البذخ لو شهدتها أثينة فى عصر پركليز لارتاعت واهتزت منها مشاعرها . فأخذ « الأثرياء المحدثون » (وكان له

عند اليونان اسم خاص هو نيوبلوتوى neoplutoi) يشيدون البيوت الكثيرة الزخرف ، ويزينون نساءهم بالملابس والجواهر الغالية ، ويفسدونهن بكثرة الخدم ، وأصبح تقديم أغلى أصناف المأكل والمشرب للضيوف دون غيرها من المأكولات والمشروبات هو القاعدة المقررة المألوفة[١٦] .

وانتشر الفقر وسط هذه الثروة الطائلة ، ذلك بأن حرية التبادل وأنواعه المختلفة اللتين أمكنتا مهرة الناس من جمع المال جعلتا السذج منهم يفقدونه أسرع مما كانوا يفقدونه من قبل ، فكان الفقراء فى نظام الاقتصاد التجارى الجديد أفقر نسبيا مما كانوا فى أيام استرقاقهم فى أملاك الإقطاعيين ؛ فكان الفلاحون فى الريف يكدحون ليحصلوا بكدحهم وعرقهم على قليل من الزيت أو الخمر ؛ وفى الحواضر ظلت أجور العمال الأحرار منخفضة المستوى بسبب منافسة الأرقاء ؛ وكان مئات من المواطنين يعتمدون فى معيشتهم على الأجور التى ينالونها نظير حضور جلسات الجمعية أو المحاكم ؛ ولم يكن آلاف من الناس يجدون طعاما إلا ما تقدمه لهم المعابد أو الدولة ، ولا يملكون شيئاً . وفى عام ٤٣١ وبلغ عدد من لا يملكون شيئاً قط من الناخبين (دع عنك عدد السكان بوجه عام) خمسة وأربعين فى المائة من مجموعهم الكلى ، فلما حلت سنة ٣٣٥ ارتفعت هذه النسبة إلى سبعين وخمسين فى المائة[١٧] . وفقدت الطبقات الوسطى ، التى كانت لكثرة عددها وسلطانها تحفظ التوازن بين الأشراف والعامة ، جزءاً كبيراً من ثروتها ، ولم يعد فى وسعها أن تتوسط بين الأغنياء والفقراء ، بين المتحفظين الشديدى العناد والخياليين المتطرفين ، وبذلك انقسم المجتمع الأثينى إلى « مدينتى » أفلاطون — « إحداهما مدينة الفقراء والأخرى مدينة الأغنياء ، وكتاهما فى حرب مع الأخرى »[١٨] . وأخذ الفقراء يضعون الخطط لسلب مال الأغنياء بالتشريع أو الثورة ، كما أخذ الأغنياء ينظمون أنفسهم جماعات لاتقاء شر الفقراء . ويقول أرسطاطاليس إن المنتمين إلى بعض النوادى الحركية كان كل منهم يقسم بأن « أكون عدو الشعب »

(أى العامة) « وأن أوذيهم فى المجلس بكل ما أستطيع من الأذى »[١٩] . وقد كتب إسقراط حوالى عام ٣٦٦ يقول : « لقد أصبح الأغنياء ينفرون من سائر الطبقات الأخرى نفوراً يفضلون معه أن يلقوا بثروتهم فى البحر عن أن يعينوا بشىء منها المحتاجين على حين أن الرقيق الحال يسرهم أن ينتهبوا أموال الأغنياء أكثر مما يسرهم العثور على كنز ثمين »[٢٠] .

وانحاز عدد متزايد من أفراد الطبقات المتعلمة إلى جانب الفقراء[٢١] . ذلك بأنهم كانوا يحتقرون التجار ورجال المصارف لما بدا لهم من أن ثروتهم تتناسب تناسبا عكسيا مع ثقافتهم وأذواقهم . وحتى الأغنياء من هؤلاء العلماء أخذت تدور بخلدهم أفكار شيوعية . وكان پركليز قد اتخذ من الاستعمار صمام أمان ليقلل به حدة النزاع بين الطبقات[٢٢] ؛ ولكن ديونيشيوس كان يسيطر على الغرب ، ومقدونية كانت تمد أملاكها فى الشمال ، فأخذت الصعاب تزداد فى سبيل فتح أثينة بلاداً جديدة والاستقرار فيها . واستحوذ الفقراء فى آخر الأمر على جميع السلطة فى الجمعية وشرعوا يقررون مصادرة أموال الأغنياء ويحولونها إلى خزائن الدولة ، لتوزعها من جديد على المحتاجين والناخبين عن طريق المشروعات الحكومية والأجور[٢٣] . وأخذ رجال السياسة يبذلون كل ما فى وسعهم من جهود ويستخدمون كل ما وهبوا من ذكاء ليكشفوا عن موارد جديدة لزيادة إيراد الدولة ، فضاعفوا الضرائب غير المقررة ، والضرائب الجمركية على الواردات والصادرات ، وضريبة الواحد فى المائة على نقل الملكية العقارية ، وظلوا فى وقت السلم يجبون الضرائب غير الاعتيادية التى قررت زمن الحرب ، وأخذوا يطالبون بالتبرعات « الاختيارية » ، وفرضوا على الأغنياء « فروضا » أو « خدمات » جديدة متزايدة لتمويل المشروعات العامة من أموالهم الخاصة . وكانوا يلجأون بين الفينة والفينة إلى مصادرة الأموال ونزع الملكيات ، ووسعوا نطاق ضريبة الإيراد حتى شملت مستويات من الثروة أدنى مما كانت تشملها من قبل[٢٤] .

وكان فى وسع كل من يلقى عليه عبء إحدى الخدمات العامة أن يستعين بالقانون لكى يرغم غيره على أدائها إذا استطاع أن يثبت أن هذا الممول الثانى أكثر منه ثروة ، وأنه لم تفرض عليه خدمة ما فى خلال سنتين . وعملوا على تسهيل جميع الإيراد بتقسيم دافعى الضرائب إلى مائة جماعة من الشركاء . فكان يطلب إلى أغنى الأعضاء فى كل جماعة أن يؤدوا فى بداية كل سنة ضرائبية جميع الضريبة المفروضة على هذه الجماعة طوال السنة ، ثم يترك لهم بعدئذ أن يجبوا فى خـــلال السنة ما يخص غيرهم من الأعضاء بما يرونه من الوسائل .

وكانت نتيجة هذه الفروض أن أخذت الجماعات والأفراد تخفى ثروتها وإيرادها إخفاء تاماً ، وانتشر التهرب من الضرائب بين الناس جميعاً ، وتفننوا فى أساليبه تفنن الدولة فى فرضها وجبايتها . وفى عام ٣٥٥ عين أندروتيون Androtion على رأس فرقة من رجال الشرطة مهمتها البحث عن الإيرادات المخبوءة ، وجباية الضرائب المتأخرة ، وحبس الذين يفرون من الضرائب ، فكانت تكبس البيوت وتصادر الأمتعة ، ويلقى الرجال فى السجون . ولكن الثروة مع ذلك ظلت تختفى أو تذوب . وقال إسقراط الشيخ الغنى الغاضب فى عام ٣٥٣ يشكو مما فرض عليه من خدمات : « لما كنت فى صباى ، كانت الثروة تعد من الأشياء المأمونة التى يعجب بها الناس ، حتى كان الواحد منا يتظاهر بأن لديه أكثر مما يملك فعلا . . . أما الآن فقد أصبح من واجب كل إنسان أن يدفع عن نفسه تهمة الغنى ، كأن هذا أشنع الجرائم »[٢٥] . ولم تكن الطريقة التى اتبعت فى غير أثينة لمنع تركيز الثروة تستند إلى القانون كما كانت تستند إليه فيها . من ذلك أن المدينين فى متلينى قتلوا دائنيهم جملة بحجة أنهم جياع ، وأن الدمقراطيين فى أرغوس (٣٧٠) انقضوا فجاءة على الأغنياء وقتلوا منهم ألفا ومائتين ، وصادروا أملاكهم ، وعقدت الأسر الغنية فى غير هذه من الدول التى كان العداء قائماً بينها لغير هذا من الأسباب حلفاً سرياً تعهدت فيه أن يساعد بعضها بعضاً إذا قامت

فى إحداها ثورات شعبية . وأخـــذت الطبقات الوسطى تحذو حذو الطبقات العليا فى عدم الثقة بالدمقراطية وترى أنها حسد أتيح له السلطان ، كما أخذ الفقراء يفقدون ثقتهم فيها ويرونها مساواة زائفة بين الناخبين تنقضها الفروق الهائلة بين الثروات . وقد تركت هذه الأحقاد المريرة بين الطبقات بلاد اليونان منقسمة على نفسها داخلياً ودولياً حين انقض عليها فليب ، حتى لقد رحب بقدومه كثيرون من الأغنياء فى المدن اليونانية ، ورأوا أنه لولاه لما كان هناك مفر من اندلاع لهيب الثورة فى أرجائها[٢٦] .

وسار الانهيار الخلقى مع ازدياد الترف واستنارة العقل جنباً إلى جنب ، واعتزت العامة بخرافاتها واستمسكت بأساطيرها ، فقد كانت آلهة الأولمبس تلفظ أنفاسها الأخيرة ولكن آلهة أخرى كانت تولد ، فكانت أرباب غريبة مثل إيزيس وأمون ، وأتيس ، وبنديس ، وسبيل ، وأدنيس تستورد من مصر وآسية ، وجمع انتشار الأرفية عباداً جدد للديونشس فى كل يوم . ولم يكن للدين التقليدى القديم فائدة تذكر لطبقة الملاك الوسطى النصف الأجنبية الآخذ شأنها فى الارتفاع ، فلم تكن آلهة المدينة التى ترعاها تنال من هذه الطبقة إلا الاحترام الصورى الرسمى ، ولم تعد توحى إلى أفرادها بالمبادئ الخلقية أو الإخلاص للدولة والولاء لها(*) . وكافحت الفلسفة لكى تجد فى الولاء السياسى ومبادئ الأخلاق الطبيعية بديلا من الأوامر الإلهية ، أو أن تتخذ منها رباً يرقب الناس من علٍ ، ولكن قل من المواطنين من كان يهمه أن يعيش عيشة البساطة السقراطية أو عيشة رجل سقراط السامى « ذى العقل العظيم » .

ولما فقد دين الدولة سلطانه على الطبقات المتعلمة زاد بالتدريج تحرر الأفراد

(*) يقول أفلاطون (فى القوانين صفحة ٩٤٨) : « والآن وفى الناس طائفة لا تؤمن قط بوجود الآلهة ... أصبح الواجب وضع شرائع تستند إلى العقل وتضع حداً للأيمان التى تقسمها كلتا الطائفتين » .

من القيود الأخلاقية القديمة — فتحرر الابن من سلطان أبويه ، وتحرر الذكور من الزواج ، وتحررت المرأة من الأمومة ، وتحرر المواطن من التبعة السياسية . وما من شك فى أن أرسطوفان قد بالغ فى وصفه لهذه التطورات ، وإذا كان أفلاطون ، وأكسانوفون ، وإسقراط كلهم يتفقون معه فى رأيه ، فإنهم كانوا جميعاً من المحافظين الذين ترتعد فرائصهم من مثال الجيل الناشئ الجديد . وتحسنت أخلاق الناس فى الحربية خلال القرن الرابع ، وجاءت موجة من الإنسانية المستنيرة أعقاب تعاليم يوربديز وسقراط والمثل الذى ضربه للناس أجسلوس[٢٧] . ولكن الآداب والجنسية السياسية ظلت سائرة فى طريق الانهيار ، وزاد عدد العزاب والسرارى وأصبحت الصلات بين هؤلاء وأولئك هى الطراز الحديث الذى يهواه الناس ، كما أن الاتصال الحر بين الرجال والنساء أصبحت له الغلبة على الزواج الشرعى[٢٨] . انظر مثلا إلى هذا السؤال الذى يسأله أحد الأشخاص فى مسلاة ألفت فى القرن الرابع : « أليست الحظيــة مرغوباً فيها أكثر من الزوجة ؟ ولم لا ؟ إن إحداهما فى جانبها القانون الذى يرغمنا على الاحتفاظ بها ، مهما نكن كارهين لها ، أما الأخرى فهى تعلم أن من واجبها أن تتسلط على الرجل بحسن سلوكها ، وإلا فإن عليها أن تبحث لها عن رجل غيره[٢٩] » وعلى هذا النحو عاشر بركسشليز ومن بعــده هيبريديز Hypereides فريني Phryne ، وعاشر أرستبوس لئيس Lais ، وعاشر أستلبو Stilpo نكريتى Nikaaete ، وعاشر ليسياس متيرا Metaneira ، وعاشر إسقراط الصارم لجسكيوم Lagiscium[٣٠] . وفى ذلك يقول ثيوبمبس مبالغاً فى قوله كعادة رجال الأخلاق : « لقد كان الشبان يقضون كل أوقاتهم بين السرارى والقيان ، أما الذين هم أكبر من هؤلاء قليلا فكانوا منهمكين فى الميسر والفسق ، وكان الناس كلهم ينفقون على المآدب العامة والملاهى أكثر مما ينفقون على الأعمال اللازمة لحفظ كيان الدولة ورعاية مصالحها[٣١] »

وأصبح تحديد عدد أفراد الأسرة تحديداً اختيارياً هو الطراز العصرى فى ذلك الوقت ؛ وكانوا يصلون إلى هـــذا الغرض بمنع الحمل ، أو الإجهاض ، أو قتل الأطفال : ويقول أرسطاطاليس إن بعض النساء كن يمنعن الحمل بطلاء جزء الرحم الذى يسقط عليه منى الرجل بزيت شجر الأرز ، أو بمرهم الرصاص . أو الكندر الممزوج بزيت الزيتون(*) »(٣٢). وكانت الأسر القديمة سائرة فى طريق الانقراض فلم تكن توجد ، على حد قول إسقراط ، إلا فى قبورها ؛ وأخذت الطبقات الدنيا يتضاعف عدد أفرادها ، أما طبقة المواطنين فى أتكا فقد نقص عددها من ٤٣٫٠٠٠ فى عام ٤٣١ إلى ٢٢٫٠٠٠ فى عام ٤٠٠ وإلى ٢١٫٠٠٠ فى عام ٣١٣(٣٣) . ويقابل هذا نقص فى عدد المواطنين الذين كانوا يجندون للخدمة العسكرية ؛ ويرجع بعض هذا النقص إلى مذابح الحرب ، وبعضه إلى قلة من لهم فى الدولة أملاك يتحتم عليهم الدفاع عنها ، وبعضه إلى رغبة الناس عن الخدمة العسكرية . ذلك أن حياة الدعة والانصراف إلى العناية بالشئون المنزلية ، والانهماك فى الأعمال التجارية والصناعية ، وطلب العلم ، كل ذلك قد حل محل حياة الرياضة البدنية ، والتربية العسكرية ، والعناية بالشئون العامة ، وهى الحياة التى كان يألفها الناس فى عهد بركليز(٣٤) . فأما الرياضة فقد أصبحت حرفة ، وصار المواطنون الذين كانوا فى القرن السادس يملأون مدارس التدريب الرياضية يقنعون الآن بأن يجهد غيرهم أنفسهم بالنيابة عنهم ، وحسبهم هم أن يشاهدوا استعراض المحترفين . وكان بعض الشبان يتلقون بعض الدروس فى فن الحرب ، ولكن الكبار كانوا يجدون عشرات من الطرق للهرب من الخدمة العسكرية . وأضحت الحرب نفسها مهنة بسبب ما دخل عليها من التعقيدات الفنية ، تحتاج إلى رجال مدربين

(*) إذا شاء القارئ أن يعرف استعمال زيت الزيتون لهذا الغرض ذاته فى الوقت الحاضر فليطالع على كتاب التاريخ الطبى لمنع الحمل **Medical History of Contraception** تأليف هيمز **Himes** ص ٨٠ .

لها تدريباً خاصاً يستغرق وقتهم كله ؛ وكان لا بد من استبدال الجنود المرتزقة بالمحاربين المواطنين ، وكان هذا نذيراً بأن زعامة بلاد اليونان لن تلبث أن تنتقل من رجال السياسة إلى رجال الحرب . وبينا كان أفلاطون يتحدث عن الملوك الفلاسفة ، كان الملوك العسكريون ينشئون تحت سمعه وبصره . وكان مرتزقة اليونان يبيعون أنفسهم إلى القواد سواء كانوا من اليونان أو « البرابرة » بلا تفريق بين هؤلاء وأولئك ؛ ولقد حاربوا فى الجيوش التى غزت بلاد اليونان بقدر ما حاربوا دفاعاً عنها ، وشاهد ذلك أن الجيوش الفارسية التى واجهها الإسكندر كانت ملأى باليونان ؛ فلم يكن الجنود وقتئذ يسفكون دماءهم دفاعا عن بلادهم ، بل كانوا يسفكونها فى سبيل من يؤدى لهم أكبر الأجور .

وظل الفساد السياسى والاضطراب اللذان أعقبا موت بركليز سائرين فى طريقهما خلال القرن الرابع ، إذا استثنينا من ذلك حكم يكلديز الطاهر النزيه (٤٠٣) ، وإدارة ليقورغ المالية (٣٣٨ — ٣٢١) . فالرشوة مثلا كان يعاقب عليها ، حسب نص القانون ، بالإعدام ؛ لكن إسقراط يقول إن المرتشى كان يجزى على ارتشائه بالترقى فى المنصب العسكرية والسياسية . ولم يجد الفرس أية صعوبة فى إرشاء ساسة اليونان وحملهم على أن يشنوا الحرب على الدول اليونانية أو على مقدونية ، وحتى دمستين نفسه أصبح فى آخر الأمر مرآة تنعكس عليها أخلاق أهل زمانه . لقد كان من أنبل الأفراد فى جماعة من أحط الجماعات فى أثينة — أعنى جماعة الخطباء المأجورين الذين صاروا فى ذلك القرن محامين وساسة محترفين . ومن هؤلاء الناس من كانوا مثل ليقورغ شرفاء معقولين ، ومنهم من كانوا مثل هيردين ذوى شهامة ومروءة ، ومنهم من لم يكونوا خيراً مما وجب عليهم أن يكونوه ؛ وإذا جاز لنا أن نصدق ما يقوله عنهم أرسطاطاليس فقد كان منهم من تخصص فى إبطال نصوص الوصايا[٣٦] . وجمع الكثيرون منهم ثروات طائلة بانتهاز الفرص السياسية وبالتهريج والخطابة فى الجماهير .

وانقسم الخطباء المأجورون أحزاباً ، ومزقوا الهواء بحملاتهم ، ونظم كل حزب لنفسه لجانا ، ووضع له كلمات سر ، وعين له وكلاء ، وجمع له مالا . وكان الذين يؤدون نفقات هذه الأعمال كلها يعترفون صراحة بأنهم « سيستردونها ضعفين »[٣٧] .

وكانت الروح الوطنية تضعف كلما زادت السياسية قوة واستنفدت مرارة الانقسام كل الجهود العامة والوفاء للوطن ، فلم تترك للمدينة من هذه الجهود وذلك الإخلاص إلا القليل الذى لا يغنى ، وكان دستور كليستنيز ، والنزعة الفردية التى أثارتها التجارة والفلسفة ، قد زعزعا كيان الأسرة ، وحررا الفرد ؛ وكأنما أراد الفرد الحر وقتئذ أن يثأر للأسرة مما أصابها من انحلال فهوى بمعوله على الدولة يقوض أركانها .

وأراد الدمقراطيون المنتصرون فى عام ٤٠٠ ق . م أو حواليه أن يضمنوا حضور المواطنين الفقراء فى الإكليزيا ، وأن يمنعوا بذلك ذوى الأملاك أن تكون لهم السيطرة عليها ، فجعلوا حضور الجمعية هو الآخر عملا من الأعمال التى يؤجر الناس عليها . وكان كل مواطن فى بادئ الأمر يؤجر على حضور الجلسة أبلة (١٧/١٠٠ من الريال الأمريكى) ، ولما زادت نفقات المعيشة زيد هذا الأجر إلى أبلتين ، ثم إلى ثلاث أبلات ، وظل يزداد حتى كان فى زمن أرسطاطاليس درخمة (أى ريالا أمريكيا) عن اليوم الواحد[٣٨] . ولقد كان هذا فى حد ذاته تدبيرا معقولا لا غبار عليه ، لأن المواطن العادى كان يكسب فى أواخر القرن الرابع درخمة فى كل يوم ؛ ولم يكن ينتظر منه أن يترك عمله دون أن يعوض عن تركه . وما لبثت هذه الخطة أن جعلت للفقراء الأغلبية فى الجمعية ، ويئس الأغنياء من الانتصار فيها . فزاد إعراضهم عنها تدريجاً ، وامتنعوا عن حضور جلساتها . وعدل الدستور فى عام ٤٠٣ وقصر حق التشريع على هيئة مكونة من خمسة مشترعين nomothetei يختارون من بين المواطنين الذين انتخبوا بالقرعة ليكونوا

قضاة ، ولكن هذا التعديل لم تكن له أقل فائدة فى الحد من طغيان الطبقات الدنيا . ذلك أن هذه الهيئة الجديدة انحازت هى الأخرى إلى جانب العامة ، والانتقاص من سلطانه . ويبدو أن مستوى الذكاء فى الجمعية قد نقص فى القرن الرابع ، ولعل منشأ هذا النقص هو أداء الأجور على حضور جلسات الجمعية . نقول هذا ببعض التحفظ لأن الذين نعتمد عليهم فى هذا القول هم الرجعيون المتحيزون أمثال أرسطوفان وأفلاطون[٣٩] . ويقول إسقراط إن أعداء أثينة هم الذين يجب عليهم أن يؤدوا الأجور لحضور جلسات الجمعية حتى يكثر اجتماعها ، وذلك لكثرة ما ترتكبه من الأغلاط[٤٠] فى أعمالها .

وخسرت أثينة بسبب هذه الأغلاط إمبراطوريتها وحريتها جميعا . ذلك أن الحرص الشديد على المال والسلطان الذى قوض أركان الحلف الأولى قد دك وقتئذ قواعد الحلف الثانى أيضاً ، فقد شعرت أثينة بعد سقوط اسپارطة فى لكترا أن فى وسعها الآن أن توسع أملاكها ، وكانت وهى تنظم إمبراطوريتها الجديدة قد قطعت على نفسها عهداً ألا تسمح للرعايا الأثينيين بامتلاك أرضين خارج حدود أتكا[٤١] . ولكنها بعد أن فتحت ساموس ، والكرسنيز التراقية ، ومدائن پدنا ، وپوتيديا ، وميتونى على سواحل مقدونية وتراقية استعمرتها على أيدى المواطنين الأثينيين . واحتجت على ذلك الدول المتحالفة معها وانسحب الكثير منها الحلف . واستخدمت أثينة وسائل القسر والعقاب التى استخدمتها من قبل فى القرن الخامس ، ولكنها لم تجن من ورائها فائدة فى هذه المرة كما لم تجن منها فائدة فى المرة السابقة . وكانت النتيجة أن أعلنت طشيوز ، وكوس ، ودرس ، وبيزنطية فى عام ٣٥٧ « حرب » عصيان « اجتماعية » : ولما أن رفض تموثيوس Timotheus وأفكراتيز ، وهما قائدان من أعظم القواد الأثنيين كفاية ، أن يهاجما الأسطول الثائر فى الهلسپنت أثناء عاصفة هوجاء ، اتهمتهم الجمعية

بالجبن ، وفرضت على تموثيوس غرامة باهظة لا قبل لأحد بأدائها قدرها مائة وزنة (٦٠٠ر٠٠٠ ريال أمريكى) . فلم يجــد أمامه سبيلا إلا الفرار من البلاد ، وبرئ إفكرتيز ولكنه لم يقم لأثينة بخدمة ما فيا بقى من حياته . وأحبط الثوار كل ما بذلته من محاولات لإخضاعهم ، فاضطرت فى عام ٣٥٥ إلى أن توقع صلحا تعترف فيه باستقلال بلادهم ، وأضحت المدينة العظيمة بلا أحلاف ، ولا زعماء ، ولا مال ، ولا أصدقاء .

ولعل عوامل أخرى أدق وأخفى من العوامل السابقة كان لها أثر فى إضعاف أثينة . ذلك أن حياة الفكر تعرض للخطر كل حضارة تزدان بهذه الحياة . ففى المراحل الأولى من تاريخ الأمة قل أن يكون للتفكير وجود ، بل الذى يسود وينتشر هو العمل ، ويكون الناس فى هذه المرحلة صريحين ، محررين من عوامل الكبت جريئين فى مشاكساتهم وصلاتهم الجنسية . وكلما أرتقوا فى مدارج الحضارة وفرضت عليهم العادات ، والأنظمة ، والشرائع ، وقواعد الآداب والأخلاق ، قيودا تزداد على مر الأيام كبتاً للغرائز ، حل التفكير محل العمل ، والخيال محل الإقدام ، والاحتيال محل الصراحة ، والخفاء محل التعبير الصادق ، والعطف محل القسوة ، والشك محل اليقين ؛ وزالت الوحدة الأخلاقية التى يشترك فيها الإنسان البدائى مع الحيوان ؛ وأصبح السلوك مجزءا طابعه التردد ، والإدراك ، وتقدير العواقب ، وضعفت الرغبة فى القتال ، واستحالت ميلا إلى الجدل الذى لا يقف عند حد : وما أقل الأمم التى استطاعت أن تصل إلى الرقى العقلى والإحساس القوى بالجمال من غير أن تضحى فى سبيل ذلك بالقدر الكثير من رجولة أبنائها ووحدتها ، فلم تستطع صد الاقوام الهمج المعدمين الطامعين فى ثروتها : فحول كل رومة يحوم الغاليون ، وحول كل أثينة يحوم المقدونيون .

الفصل الرابع

نهضة سراقوصة

كانت سراقوصة طوال القرن الرابع من أكبر المدن اليونانية ثروة وأعظمها قوة ، رغم ما كان ينتابها من الاضطرابات السياسية الكثيرة . وكان ملكها ديونيشيوس الأول مجرداً من الضمير ، خائنا غدارا ، مختالا مغروراً ، ولكنه كان أقدر رجال زمانه فى الشئون الإدارية . حول هذا الرجل جزيرة أرتيجيا Ortygia إلى قلعة حصينة اتخذها مسكنا له ، وسور الطريق الذى يوصلها بأرض القارة ، فأصبح مركزه فيها أمنع من عقاب الجو ، ثم ضاعف أجور جنده ، وقادهم بنفسه إلى انتصارات هينة ، فحبب نفسه إليهم وكسب ولاءهم ؛ فاستطاع البقاء على العرش ثمانية وثلاثين عاما . ولما أن ثبت قواعد حكمه استبدل بسياسة القسوة التى نهجها فى بداية أمره سياسة رحيمة استرضى بها الأهلين ، وبسط على البلاد حكماً استبدادياً طابعة العدالة والمساواة(*) ، وأقطع ضباطه وأصدقاءه أجزاء من أحسن الأراضى وأعظمها خصبا ، وخص جنوده بجميع المساكن فى أرتيجيا والطريق الموصل إليها إلا القليل النادر منها ؛ ووزع كل ما بقى من أرض سراقوصة وما حولها على سكان المدينة الأحرار منهم والأرقاء من غير تمييز بينهم . وبهديه وإرشاده ازدهرت سراقوصة ، وإن كان قد فرض عليها من الضرائب ما لا يكاد

(*) ولما حكم على فنتياس Phintias (المسمى خطأ بيتياس Pythias) الفيثاغورى بالإعدام لاشتراكه فى إحدى المؤامرات ، استأذن فنتياس فى أن يذهب إلى منزله يقضى فيه يوما ينظم فيه شئونه . وعرض صديقه دامون Damon (وهو غير دامون معلم الموسيقى لبركليز وسقراط) أن يكون رهينة له حتى يعود ، وعرض أن يعدم إذا لم يعد فيتياس . ولكن فنتياس عاد ودهش ديونيشوس كما دهش تايلون فيما بعد من أن يبلغ الإخلاص بين الأصدقاء هذا المبلغ ، فعفا عن فنتياس ، ورجاه أن يكون هو زميلا لهما فى هذه الصداقة المتينة .

يقل عما فرضته الجمعية على الأثينيين . ولما أن أسرفت نساء المدينة فى زينتهن أعلن أن دمتر قد جاءته فى الحلم وأمرته أن يجمع حلى النساء كلها ويودعها فى معبدها . وصدع الملك بأمر الإلهة ، وصدعت به كذلك معظم النساء ؛ ثم ما لبث أن « اقترض » الحلى من دمتر يموّل بها حروبه[٤٣] .

ذلك أن خططه كلها كانت تهدف إلى إخراج القرطاجيين من صقلية . وقد آلمه وحز فى نفسه أن يستطيع هنيبال استخدام آلات التدمير القوية فى حصار سيلينس ، فجمع فى خدمته خيرة الصناع والمهندسين من بلاد اليونان القريبة ؛ وطلب إليهم أن يعملوا على تحسين عدد الحرب . وكان من بين ما اخترعه هؤلاء الرجال من آلات الهجوم والدفاع الجديدة المنجنيق الذى يقذف الحجارة الثقيلة وغيرها من القذائف ، وانتقل هذا الاختراع وغيره من المخترعات العسكرية من صقلية إلى بلاد اليونان واستخدمه فليب المقدونى . وأرسل يدعو لخدمته جنودا مرتزقة ، وأخذت دور الصنعة فى سراقوصة تخرج مقادير لا عهد للناس بها من الأسلحة والدروع تتفق مع عادات كل طائفة من طوائف الجند المختلفة ومع حذقها فى القتال . وكان المشاة قبل هذا الوقت هم الذين يقاتلون فى المعارك البرية لكن ديونيشيوس نظم فيالق كبيرة من الفرسان ، وأفاد من هذا أيضاً فليب والإسكندر . وأخذ فى الوقت نفسه يصب المال صبا لبناء مائتى سفينة معظمها من ذات الأربعة الصفوف أو الخمسة ، فأنشأ بذلك أسطولا ضخما لم تر له بلاد اليونان قبل ذلك الوقت مثيلا فى سرعته أو قوته .

ولم يحل عام ٣٩٧ حتى كان كل شىء على أهبة الاستعداد ، وأرسل ديونيشيوس بعثة إلى قرطاجة يطلب إليها أن تحرر جميع المدن اليونانية فى صقلية من سيطرة القرطاجيين ، وتوقع ألا يجاب إلى طلبه فدعا هذه المدن إلى خلع نير الحكم الأجنبى ، فاستجابت إلى دعوته ، وكانت لاتزال حاقدة على القرطاجيين ولم تنس ما ارتكبه فيها هنيبال من المذابح ، فأعدمت جميع من وقع فى

أيديهم منهم بعد أن أذاقتهم من ألوان العذاب ما لم يعذبه اليونان أحداً غيرهم من قبل ، ولم يدخر ديونيشيوس جهداً فى الحيلولة بينهم وبين هذا التعذيب لأنه كان يريد أن يبيع أسرى القرطاجيين فى أسواق الرقيق . وتقلت قرطاجة جيشاً كبيراً بقيادة هملكون Himilcon بطريق البحر ، ودارت الحرب بين الأمتين فى فترات متقطعة خلال أعوام ٣٩٧ ، ٣٩٢ ؛ ٣٨٣ ، ٣٦٨ . وانتهت هذه الحرب بأن استردت قرطبة كل ما استولى عليه ديونيشيوس من أملاكها ، وعادت الأمور بعد الدم المهراق كله إلى ما كانت عليه من قبل .

وكان ديونيشيوس فى هذه الأثناء قد وجه قوته الحربية لإخضاع المدن اليونانية فى الجزيرة ، وربما كان مدفوعا إلى هذا بحب السلطان ، أو بما كان يحس به من أنه لاسبيل إلى القضاء على سطان قرطاجة فى صقلية إلا إذا اتحدت كلها تحت حكومة واحدة . فلما تم له إخضاعها ، عبر الجزيرة إلى إيطاليا ، وأخضع رجيوم Rhegium وفرض سلطانه على جميع إيطاليا الجنوبية . ثم هاجم إترووريا واستولى على ألف وزنة من هيكلها القائم فى أجلا Agylla ، ووضع الخطط لنهب ضريح أبلو فى دلنى ، ولكن الأيام وقفت فى سبيله فلم تمكنه من تنفيذ خططه . فقد وأدت بلاد اليونان فى نفس ذلك العام (٣٨٧) حريتها فى الغرب ، ثم باعتها « بصلح الملك » إلى الفرس فى لشرق . وكان برنس Brennus والغاليون قد وقفوا ظافرين أمام أبواب رومة يدقونها دقاً . ، وكان البرابرة المحيطون بالعالم اليونانى يزدادون قوة فى كل مكان ، وكان ما حل بإيطاليا الجنوبية من التدمير على يد ديونيشيوس قد مهد السبيل للأهلين القاطنين حول المستعمرات أولا ، ثم للرومان أنصاف البرابرة بعدئذ ، لغزو هذه المستعمرات والاستيلاء عليها . وقام الخطيب ليسياس فى الدورة التالية من دورات الألعاب الأولمبية يدعو بلاد اليونان إلى الخروج على الطاغية الجديد ، فهاجت الجماهير الثائرة خيام رسل ديونيشيوس وأصمت آذانها عن الاستماع إلى أشعاره .

وهذه الطاعة الذى عرض على أهل رجيوم بعد أن تم له الاستيلاء عليها حريتهم إذا آتوه بكل ما يدخرونه من مال فدية لهم ، فلما جاؤوه به باعهم بيع الرقيق ، هذا الطاغية نفسه كان رجلا واسع الثقافة من أرباب السيف والقلم ، ولم يك فخره بقلمه أقل من فخره بسيفه . ولما أن طلب إلى الشاعر فلكينس رأيه فى شعره وأجاب بأنه غث لا قيمة له حكم عليه بالأشغال الشاقة فى المحاجر[٤٤] . على أن ديونيشيوس ، كان يناصر الآداب والفنون على الرغم من هذه الأعمال المثبطة ، وقد استضاف أفلاطون أثناء أسفاره فى صقلية وسره أن يستمتع لحظة بهذا الفيلسوف (٣٨٧) . وهناك قصة ذائعة نقلها ديوجانس ليرتيوس تقول إن الفيلسوف أخذ يطعن فى حكم الطغاة فرد عليه ديونيشيوس بقوله : « إن أقوالك أقوال عجوز محترف » ، فأجابه أفلاطون قائلا : « إن هذه اللغة هى لغة الطغاة » . ويقال إن ديونيشيوس باع أفلاطون فى سوق الرقيق ولكن أنسريز القيرونى لم يلبث أن افتداه[٤٥] .

ولم يقض على حياة الفيلسوف واحد من القتلة السفاحين الذين كان يخشى بأسهم بل قضى عليها شعره نفسه . وتفصيل ذلك أن مأساته افتداء هكتر نالت الجائزة الأولى فى عيد لينيا الأثينى عام ٣٦٧ . وسر ديونيشيوس من هذا الفوز سروراً جعله يحتفل بأصدقائه ويفرط فى الشراب ، فيصاب بالحمى ويموت .

وقبلت المدينة المغتاظة التى كانت قد ارتضته بديلا من الخضوع لقرطاجة ، قبلت أن يخلفه ابنه على العرش راجية الخير على يديه . وكان ديونيشيوس الثانى وقتئذ شاباً فى الخامسة والعشرين من عمره ، ضعيف الجسم والعقل ، فظن السراقوصيون الماكرون أنه لهذا السبب سيحكمهم حكماً رحيما يترك لهم فيه الحبل على الغارب . وكان له من عمه ديون Dion والمؤرخ فلستيوس مستشاران قديران . فأما ديون فكان رجلا واسع الثراء ولكنه جمع إلى ثرائه حبه للآداب والفلسفة ، وكان من أوفى تلاميذ أفلاطون وألصقهم به . وأصبح عضواً

فى المجمع العلمى وعاش فى داخل بيته وخارجه عيشة البساطة الفلسفية . وخطر بباله أن الطاغية الجديد الشاب اللدن العود سوف يتيح له الفرصة لأن يقيم على الأقل حكماً دستورياً يستطاع به توحيد صقلية بأجمعها وتمكينها بسبب هذه الوحدة من القضاء على سلطان القرطاجيين فيها ، هذا إذا لم يتمكن من أن يجعل منها « المدينة الفاضلة » التى وصفها له أفلاطون .

ودعا ديونيشيوس الثانى بناء على اقتراح ديون ، أفلاطون إلى بلاطه ، فلما قبل أفلاطون الدعوة تتلمذ عليه ديونيشيوس وصار من أتباعه . ومما لا شك فيه أن الشاب الطاغية أراد أن يظهر للفيلسوف خير طباعه ، فأخفى عليه إدمانه الخمر والعهر[٤٧] ، الذى جعل أباه يتنبأ أن الأسرة ستنقرض بموت ولده . وانخدع أفلاطون برغبة الشاب الظاهرة فى الفلسفة فقاده إليها من أصعب السبل — من سبيل العلوم الرياضية والفضيلة . وعلّم الحاكم ، كما علم كنفوشيوس دوق لو ، أن المبدأ الأول من مبادئ الحكم هو القدوة الصالحة ، وأنه إذا أراد أن يصلح شعبه ، فعليه أن يجعل نفسه أنموذجاً لهم فى الذكاء والنية الحسنة ، وشرعت الحاشية كلها تدرس الهندسة ، وتقف مذهولة سياسياً أمام خطوط مرسومة فى الرمل . ورأى فلستيوس أن مقام أفلاطون أصبح أعلى من مقامه ، فهمس فى أذن الطاغية أن ذلك كله لم يكن إلا مؤامرة أراد بها الأثينيون ، الذين عجزوا عن فتح سراقوصة بقوة الجيش والأسطول ، أن يستولوا عليها بعمل رجل واحد ، وأن أفلاطون بعد أن استولى على القلعة المنيعة بالرسوم والحوار ، سينزل ديونيشيوس عن عرشه ، ويجلس ديون مكانه . ووجد ديونيشيوس فى هذا الهمس فرصة قيمة للنجاة من متاعب الهندسة ، فنفى ديون ، وصادر أملاكه ، ووهب زوجته لرجل من رجال البلاط كانت ترهبه ، وغادر أفلاطون سراقوصة ، رغم تأكيد الطاغية له بأنه يحبه أشد الحب ، وانضم إلى ديون فى أثينة . وبعد ست سنين من ذلك الوقت عاد إلى سراقوصة استجابة لطلب الملك نفسه ، وألح عليه فى أن يستدعى ديون ولما

رفض ديونيشيوس رجاءه اعتزله أفلاطون وآوى إلى المجمع العلمى[٤٨] .

وفى عام ٣٥٧ جند ديون من بلاد اليونان القارِّية ، وكان وقتئذ فقيراً فى المال غنيًّا فى الأصدقاء ، قوة مؤلفة من ثمانمائة رجل أبحر بهم إلى سراقوصة ، ودخل فيها سراً فألفى الأهلين شديدى الرغبة فى تأييده . وكانت معركة واحدة نال فيها النصر ببسالته ، مع أنه كان وقتئذ فى سن الخمسين ، كافية لهزيمة جيش ديونيشيوس ، ودب الرعب من هولها فى قلب الملك الشاب فآثر الفرار إلى إيطاليا . وفى هذا الوقت عزلت الجمعية السراقوصية ديون من القيادة ، وكان هو الذى دعاه إلى الاجتماع ، خشية أن ينصب نفسه حاكماً بأمره . وكانت فى عملها هذا تجرى على ما طبع عليه اليونان من الاندفاع وعدم التبصر فى العواقب . وانسحب ديون فى سلام إلى اليونتيني ؛ ولكن جيوش ديونيشيوس شجعها تقلب الأحداث فهاجمت الجيش الوطنى على حين غفلة ، وبددت شمله . وأرسل الزعماء الذين كانوا قد عزلوا ديون من القيادة يطلبون إليه أن يعود مسرعاً ويتولى قيادة جيش الشعب ، فاستجاب إلى دعوتهم ؛ وانتصر على أعدائه مرة أخرى ، وعفا عن الذين قاوموه ، وأعلن قيام دكتاتورية مؤقتة قال إنها ضرورية لعودة النظام إلى البلاد ، وأبى أن يكون له حرس خاص مخالفا بذلك نصيحة أصدقائه ، وقال إنه « يفضل أن يموت على أن يعيش على حذر دائم من أصدقائه وأعدائه على السواء »[٤٩] . واحتفظ بدلا من هذا الحرس بحياته المتواضعة المعتدلة رغم ما كان يحيط به من الثراء وقوة السلطان .

ويقول فلوطرخس « إنه ، وإن كان قد نال ما يشتهيه من النجاح ، لم يكن يرغب فى أن ينال فائدة عاجلة أتاحها له حظّه الطيب . . . فاكتفى بقدر معتدل من الثراء راعى فيه جانب الاقتصاد ، وأدهش بذلك الناس جميعاً . وبينما كانت صقلية وقرطاجة وبلاد اليونان بأجمعها ترى أنه قد بلغ أعلى مراتب النعيم والثراء . ، وأن ليس بين الأحياء جميعاً من هو أعظم منه ، أو بين القواد

من هو أوسع منه شهرة فى البسالة والظفر ، كان يبدو فى حرسه ، وحاشيته ، وعلى مائدته ، أنه يشترك مع أفلاطون فى المجمع العلمى . ولا يعيش بين ضباطه المأجورين وجنوده المرتزقة الذين يجدون فى ملء بطونهم بلذيذ المأكل والمشرب والاستمتاع بلذائذ الحيـــاة عزاء لهم عن كدحهم المتواصل وما يتعرضون له من الأخطار »(٥٠)

وإذا أخذنا بقول أفلاطون فإن ديون كان يبغى إقامة ملكية دستورية ، وإلى إصلاح حياة السراقوصيين وأخلاقهم على مثال الحياة والأخلاق الإسپارطية ، وأن يعيد بناء المدن اليونانية المستعبدة أو المخربة فى صقلية ، وينشئ منها دولة موحدة ، حتى إذا تم له ذلك أخرج القرطاجيين من الجزيرة . ولكن السراقوصيين كانوا يحرصون أشد الحرص على النظام الدمقراطى . ولم يكونوا يتوقون إلى الفضيلة أكثر مما يتوق إليها ديونيشيوس الأول أو الثانى . فاغتال ديون صديق له ، وانطلقت على أثر اغتياله الفوضى من عقالها ، وأسرع ديونيشيوس بالعودة إلى سراقوصة ، واستولى مرة أخرى على اوتيجيا وعلى أزمة الحكم ، وسار فيه بالقسوة والفظاعة التى ينتظرها الإنسان من طاغية خلع عن عرشه ثم استرده .

وبعد ، فإن الأقدار تصيب أحياناً من لا يستحقها من الأفراد ، ولكنها قلما تفعل ذلك بالأمم . لقد استغاث السراقوصيون بأمهم كورنثة . وجاءت الاستغاثة فى وقت كان فيه كورنثى نبيل نبلا لا يكاد يصدقه العقل ينتظر أن تتاح له فرصة يظهر فيها بطولته. لقد كان تيمليون رجلا من الأشراف ، بلغ من حبه للحرية أنه لم يتردد فى قتل أخيه تموفانيز حين أراد هذا الرجل أن يقيم نفسه حاكماً مستبداً فى كورنثة . واستنزلت أمه اللعنة عليه عقاباً له على عمله هذا ، وأنبه عليه ضميره ، فاعتزل هذا القاتل الناس وآوى إلى الغابات ، ولكنه سمع وهو فى مأواه بحاجة سراقوصة إلى النجدة ؛ فخرج من ملجئه ، ونظم قوة من المتطوعين ، وأبحر بها إلى صقلية ؛ وقاد شرذمته

القليلة بمهارة لم يرجيش الملك معها بدأ من الاستسلام ، بعد أن ذاق البلاء من جراء براعته فى القيادة ، ومن غير أن يقتل من رجاله رجل واحد ، ومنح تيمليون الطاغية الذليل من المال ما يمكنه من العودة إلى كورنثة حيث قضى ما بقى من حياته يعلم فى المدرسة ويسأل الناس القوت فى بعض الأحيان[٥١] .

وأعاد تيمليون الدمقراطية ، وهدم الحصون التى جعلت أرتيجيا معقلا حصيناً للاستبداد ، ورد عنها غارة شنها القرطاجيون ، وأعاد الحرية والدمقراطية إلى المدن اليونانية . وبفضله ساد السلام وعم الرخاء صقلية جيلا من الزمان ، هرع إليها فى خلاله مستوطنون جدد من جميع أنحاء العالم اليونانى . وأبى مع ذلك أن يتولى منصباً عاماً ؛ بل اعتزل الحياة السياسية وفضل عليها الحياة الخاصة ؛ ولكن الدمقراطيات القائمة فى الجزيرة كانت تعرض عليه كل شئونها الكبرى تستنصحه وتعمل برأيه إيماناً منها بحكمته واستقامته . ولما اتهمه اثنان من « المرشدين » بسوء استخدام سلطته أصر على الرغم من احتجاج الشعب وإعلانه شكره له واعترافه بجميله ، أن يحاكم من غير محاباة حسب قانون البلاد ، وحمد الآلهة على أن عادت إلى صقلية حرية الكلام والمساواة أمام القانون . ولما مات فى عام ٣٣٧ حزنت عليه بلاد اليونان كلها وعدته من أعظم عظماء أبنائها .

الفصل الخامس

تقدم مقدونية

بينا كان تيمليون يعيد إلى الدمقراطية أنفاسها الأخيرة فى صقلية القديمة ، كان فليب يقضى عليها فى أرض اليونان القارية . لقد كانت مقدونية حين اعتلى فليبُ العرش ٣٥٩ لا تزال فى الأغلب الأعم بلاداً همجية يسكنها أقوام أشداء جبليون وذلك رغم كرم أركلوس وثقافته العالية ، والحق أنها وإن استخدمت اليونانية لغة رسمية لها لم تفد الحياة اليونانية طوال تاريخها بمؤلف أو فنان أو فيلسوف واحد .

وكان فليب قد أقام ثلاث سنين مع أقارب إپامينونداس طيبة فاستقى منهم قدراً متوسطاً من الثقافة وقدراً عظيما من الأفكار الحربية . وكان يتصف بجميع الفضائل عدا فضائل الحضارة ، كان قوى الجسم والإرادة ، مولعاً بالرياضة البدنية ، وسيما ، وجملة القول أنه كان حيواناً عظيما ، يحاول بين الفينة والفينة أن يكون أثينيا مهذباً . وكان كابنه الشهير ذا مزاج حاد عنيف وكرم فائق ، مولعا بالحرب إلى حد كبير وبالشراب إلى حد أكبر . وكان يختلف عن الإسكندر فى مرحه وميله إلى الضحك ، ولى أحد الأرقاء منصباً كبيراً لأنه أدخل على قلبه السرور .. وكان يحب الغلمان كثيراً ، ولكنه يحب النساء أكثر منهم ، وتزوج أكبر عدد استطاعه منهن ، وحاول وقتاً ما أن يقتصر على زوجة واحدة هى أولمپياس الأميرة المولوسية Molossian الجميلة التى كانت تعيش على الفطرة والتى ولدت له الإسكندر ، ولكنه لم يلبث أن مال إلى غيرها ، فأخذت أولمپياس تدبر الانتقام منه إلى نفسها وكان أحب الناس إليه أشداء الرجال الذين يجازفون بأرواحهم طوال النهار ، ويقامرون معه وينادمونه على الشراب إلى نصف الليل . وكان (إلى ما قبل

الإسكندر) أشجع الشجعان بلا منازع ، وخلف جزءاً من نفسه فى كل ميدان من ميادين القتال . وقد أعجب به دمستين وقال فيه : « يا له من رجل ! لقد خسر فى سبيل القوة والسلطان عيناً فقئت ، وكتفاً كسرت ، وذراعا وساقا أصيبتا بالشلل[٥٣] » . وكان ذا قريحة وقادة ، قادراً على أن ينتظر فرصته متربصاً ، وعلى أن يسير بعزم ثابت إلى هدفه مجتازاً فى سبيله كل ما يعترضه من صعاب . وكان فى سياسته لطيفا غدارا ؛ لا يبالى بأن يحنث فى وعده ، ويجدد هذا الوعد لساعته ؛ لا يعترف فى الحكم بالمبادئ الأخلاقية ، ويرى أن الكذب والرشوة بديلين رحيمين من القتل وسفك الدماء . ولكنه كان رحيما فى انتصاره وكان من عادته أن يعرض على اليونان المنهزمين شروطا أحسن مما يعرضها بعضهم على بعض . وقد أحبه كل من التقى به ، عدا دمستين العنيد ، ووصفوه بأنه أقوى رجال زمانه وأكثرهم طرافة .

وكانت حكومته ملكية أرستقراطية يدوم سلطان الملك فيها ما دام متفوقا فى قواه الجسمية أو العقلية ، وما دام أشراف البلاد راغبين فى معونته . وكان ثمانمائة من أمراء الإقطاع يكونون « صحابة الملك » وكان هؤلاء الصحابة من كبار الملاك الذين يحتقرون حياة الحواضر والزحام والكتب فإذا ما أعلن الملك الحرب برضاهم خرجوا من ضياعهم وهم أقوياء الأجسام صناديد ليوث غاب . وكانوا فى الجيش يؤلفون فرقة الفرسان ويمتطون صهوة الجياد المقدونية والتراقية القوية الشكيمة ، وقد دربهم فليب على أن يحاربوا جماعات متراصة يستطيعون إذا صدر إليهم أمر قائدهم أن يبدلوا حركاتهم العسكرية من فورهم كأنهم رجل واحد . وكان إلى جانب هؤلاء الفرسان مشاة من الصيادين والفلاحين الشعث منظمون فى « فيالق » ، يصوب ستة عشر صفا منهم رماحهم فوق رؤوس الصفوف التى أمامهم — ويضعونها فوق أكتافهم — وبذلك يكون كل فيلق أشبه بجدار من الحديد . وكان طول الرمح إحدى وعشرين قدما ،

وكان متزناً من مؤخرته فإذا شرعه صاحبه برز إلى الأمام خمس عشرة قدماً. ولما كان كل صف من الجند يتقدم ثلاث أقدام عن الذى يليه ، فإن رماح الخمسة الصفوف الأولى كانت تبرز أمام الفيلق كله ، وكانت رماح الثلاثة الصفوف الأولى تبرز أمام الفليق أطول من حراب أقرب المشاة اليونان التى لا تزيد على ست أقدام . وكان الجندى المقدونى بعد أن يقذف عدوه برمحه يحارب بسيف قصير ويقى رأسه ببيضة من نحاس ، وجسمه بدرع ، وساقيه بجرموقين ، وصدره بترس خفيف . ويأتى من وراء هـذا الفليق فرقه من الرماة على الطراز القديم يصوبون سهامهم فوق رؤوس حملة الرماح ، ومن وراء هؤلاء فرق الحصار بمناجيقها وكباشها المدمرة . ودرب فليب فى صبر وعزيمة هـذا الجيش المكون من عشرة آلاف جندى حتى جعله أعظم قوة محاربة شهدتها أوربا حتى ذلك الوقت ، وأعده للإسكندر كما أعد فردرك وليم جيشه لابنه فردرك الأكبر .

واعتزم أن يستخدم هذه القوة لتوحيد بلاد اليونان وإخضاعها لحكمه حتى إذا تم له ذلك استعان ببلاد هيلاس جميعها وعبر الهلسبنت وطرد الفرس من آسية اليونانية . ولكنه كان فى كل خطوة يخطوها نحو هذه الغاية يجد نفسه يعمل ضد حب اليونان للحرية ، وكان وهو يحاول أن يتغلب على هذه النزعة ينسى الغاية التى يعمل لها بهذه الوسيلة . ووقف فى حركته الأولى وجها لوجه أمام أثينة لأنه أراد أن يستولى على المدن التى ضمتها إلى أملاكها على ساحل مقدونية وتراقية . ولم تكن هـذه المدن تسد طريقه إلى آسية وحسب ، بل كانت فوق هذا تحتوى مناجم غنية من الذهب ، وكانت ذات تجارة رائجة فى مقدوره أن يفرض عليها الضرائب . وبينا كانت أثينة منهمكة فى « الحرب الاجتماعية » التى انتهت بها إمبراطوريتها الثانية ، استولى فليب على أمفپوليس (٣٥٧) ، وپدنا ، وبوتيديا (٣٥٦) ؛ ولما احتجت أثينة على هذا العمل العدوانى أجابها بالثناء على آدابها وفنونها ، وفى عام ٣٥٥ استولت على ميتونى ، وفقد عينه فى

حصارها ، وفى عام ٣٤٧ استولى على أولنثس بعد حرب طويلة استعين فيها بضروب كثيرة من البسالة والخداع . وتمت بهذه الأعمال السيطرة على الشاطئ الأوربى لبحر إيجة الشمالى ، ودخل خزائنه فى كل عام ألف وزنة من مناجم تراقية[٥٣]، واستطاع أن يوجه تفكيره نحو اكتساب معونة بلاد اليونان .

وكان فليب قد حصل على المال الذى أنفقه فى حروبه ببيع آلاف من الأسرى فى أسواق الرقيق ، وكان من بينهم كثيرون من الأثينيين ، فنفرت منه قلوب الهلينيين ، وكان من حسن حظه أن المدن اليونانية كانت فى خلال هذه السنين تنهك قواها فى « حرب مقدسة » ثانية (٣٥٦-٣٤٦) سببها انتهاب الفوسيين كنوز دلفى . وأيد الاسپارطيون والأثينيون الفوسيين ، وحاربت العصبة الأمفكتيونية : بؤوتية ، ولكريس ، ودوريس ، وتساليا ، ضدهم. ولما دارت الدائرة على هذه العصبة استغاث مجلسها بفليب ، ووجد الفرصة ملائمة له فجاء مسرعا مخترقاً الطرق الجبلية المفتوحة أمامه ؛ وأخذ الفوسيين على غرة (٣٤٦) ، وضُم إلى الحلف الأمفكتيونى الدلفى ، ونودى به حاميا للضريح المقدس ، وقبل الدعوة التى وجهت إليه لرياسة اليونان جميعا فى الألعاب البيثية . وهنا امتد بصره إلى دول البلوپونيز المنقسمة على نفسها ، وأحس أن فى استطاعته أن يحملها جميعاً ، عدا اسپارطة الضعيفة ، على أن ترتضيه زعيما لحلف يونانى فى مقدوره أن يحرر جميع اليونان فى الشرق والغرب . ولكن أثينة استمعت إلى أقوال دمستين فلم تر فى فليب محرراً لها ، بل رأته ساعياً لا ستعبادها ، وقررت أن تحارب لتحتفظ المدن اليونانية بالسيادة التى كانت تحرص عليها ، وبالدمقراطية الحرة التى جعلتها نور العالم الوضاء .

الفصل السادس

دمستين (دمستنيز)

إن تمثال الخطيب العظيم القائم فى متحف الفاتيكان ليعد من الروائع الفنية الواقعية التى أخرجها العصر الذى انتشرت فيه الحضارة اليونانية خارج بلاد اليونان الأصلية ؛ فوجهه يبدو عليه الهم والقلق ، كأن كل نصر أحرزه فليب قد أحدث غضناً جديداً فى جبهته ؛ والجسم نحيل منهوك ، ومظهره مظهر الرجل الذى يوشك أن يدعو الناس للأخذ بيده للدفاع عن قضية يرى أنه قد خسرها . وتكشف العينان عن حياة قلقة ، وتتنبئان بموت مدبر .

وكان أبوه صانع سيوف وأسرّة ، ترك له تجارة تبلغ قيمتها أربع عشرة وزنة (٨٤٫٠٠٠ ريال أمريكى) . واختار الوالد ثلاثة من الرجال ليديروا هذه الأملاك لصالح الغلام ، ولكنهم أنفقوها على أنفسهم بسخاء ، اضطر معه دمستين حين بلغ سن العشرين (٣٦٣) أن يقاضى الأوصياء عليه لكى يستعيد ما بقى من ميراثه . وأنفق معظم ما آل إليه فى تجهيز سفينة ذات ثلاثة صفوف من المجاديف وهبها للأسطول الأثينى ، ثم أخذ يعمل لكسب عيشه بكتابة الخطب للمتقاضين ؛ وكان أقدر على الكتابة منه على الكلام ، لأنه كان ضعيف الجسم عىّ اللسان . ويقول فلوطرخس إنه كان فى بعض الأحيان يعد دفاعاً لكلا الطرفين المتنازعين . وكان يعمل فى هذه الأثناء للتغلب على ما فيه من نقص طبيعى ، فكان يخاطب البحر وفمه مملوء بالحصباء ، أو يخطب وهو يصعد فوق الجبل . وكان مجداً فى عمله لا يشغله عنه إلا السرارى والغلمان . وقال أمين سره يشكو أمره : « ماذا عسى أن يفعل الإنسان بدمستين ؟ إن الشىء الذى قضى عاماً

كاملا يفكر فيه لتربكة امرأة واحدة فى ليلة واحدة(٥٤) » . وأصبح الرجل بعد جهود مضنية دامت عدة سنين أغنى المحامين فى أثينة ، يعرف دقائق هذا الفن ويقنع المستمعين إلى خطبه ، ولا يتقيد كثيراً بقواعد الأخلاق . وشاهد ذلك أنه دافع عن المصرفى فورميو طالباً تبرئته من تهم وجهها هو بعينها إلى الأوصياء عليه ، وكان يتناول أجوراً عالية من الأفراد نظير تقديم بعض القوانين للجمعية والدفاع عنها ، ولم يدفع عن نفسه التهمة التى وجهها إليه زميله هيبريديز وهى أنه كان يتلقى المال من ملك الفرس ليشعل نار الحرب على فليب(٥٥) . وبلغت ثروته فى ذروة مجده عشرة أضعاف ما خلفه له أبوه .

لكنه رغم هذا بلغ من النزاهة درجة رضى معها بالتعذيب والموت فى سبيل الآراء التى استؤجر للدفاع عنها . ذلك أنه أخذ يندد باعتماد أثينة على الجنود المرتزقة ، وأصر على أن المواطنين الذين يتقاضون أجوراً من « الرصيد » المخصص لإعانة من يحضرون ألعاب الحفلات الدينية ويشاهدون المسرحيات ، يجب أن يكسبوها بالخدمة فى الجيش ؛ وبلغ من شجاعته أن طالب بألا يؤدى هذا المال أجوراً لهؤلاء المواطنين ، بل يجب أن ينفق فى إعداد قوة حربية للدفاع عن الدولة أحسن من القوة التى لديها(*) . وقال للأثينيين إنهم قوم كسالى منحلون فقدوا ما كان يتصف به آباؤهم من فضائل حربية ، وأبى أن يصدق أن دولة المدينة قد وهنت قواها بالانقسامات الحزبية والحروب ، وأن الوقت قد آن لتوحيد بلاد اليونان . وأنذر الأثينيين بأن هذه الوحدة ليست إلا أقوالا تخفى وراءها خضوع

(*) لقد توسعت الدولة فى رصيد « المناظر » هذا (theoric fund) حتى صار يستخدم فى كثير من الاحتفالات بدرجة كاد معها أن يجعل جزءاً كبيراً من المواطنين فى عداد من يتلقون إعانات من الدولة . وفى ذلك يقول جلوتز Glotz : « إن الجمهورية الأثينية قد أصبحت جمعية تعاونية خيرية تأخذ المال من إحدى الطبقات لتنفقه على طبقة أخرى(٥٦) » . وكانت الجمعية قد جعلت الإعدام جزاء كل من يقترح تحويل هـذا المال لأغراض غير الغرض الذى رصد له .

بلاد اليونان جميعها لرجل واحد . ولقد تبين أطماع فليب من أعراضها الأولى وتوسل إلى الأثينيين أن يحاربوا للاحتفاظ بأحلافهم ومستعمراتهم فى الشمال .

وكان ، اسكنيز وفوشيون وحزب السلم يعارضون دمستين وهيبريديزو حزب الحرب . وليس ببعيد أن كلتا الطائفتين كانت مرتشية الثانية من قبل الفرس والأولى من قبل فليب(٥٧) ، وإن الاثنتين كانت تعملان بإخلاص للوصول إلى أغراضها تدفعهما الحماسة التى أثارتها كلتاهما فى قلوب أتباعها . وقد أجمع أهل ذلك العصر على أن فوشيون كان أشرف رجال السياسة فى أيامه — كان رواقيا قبل أن يؤسس زينون الرواقية ، وفيلسوفا من خريجى مجمع أفلاطون العلمى ، وخطيبا يحتقر الجمعية احتقارا يستطيع القارئ أن يتبينه إذا ذكرنا له أنها حين صفقت له التفت إلى أحد أصدقائه وسأله : « ألم أرتكب خطأ فى قولى من حيث لا أدرى ؟ »(٥٨) . وقد اختير قائدا (Strategos) خمسا وأربعين مرة ففاق فى هذا بركليز نفسه ؛ وتولى مراراً كثيرة قيادة الجيش وأظهر فى كل مرة كفاية عظيمة ، ولكنه قضى معظم حياته يدعو إلى السلم . ولم يكن رفيقه إسكنيز رواقياً فى معيشته ، بل كان رجلا ارتقى من الفقر المدقع إلى الثراء الواسع ، اشتغل فى صباه بالتدريس والتمثيل فأعانه ذلك على أن يكون خطيبا مصقعا ، وأول خطيب يونانى — على ما يقول المؤرخون — يرتجل الخطب ارتجالا وينجح فى ذلك أعظم نجاح(٥٩) ، بينا كان منافسوه يعدون خطبهم ويكتبونها قبل إلقائها . واشترك مع فوشيون فى عدة وقائع حربية ، فأخذ عنه سياسة التراضى مع فليب بدل الاشتباك معه فى الحرب ؛ ولما أن كافأه فليب على جهوده استحال تحمسه للسلم ولاء لها وإخلاصا .

واتهم دمستين اسكنيز مرتين بأنه يرتشى بالذهب من مقدونية ، ولكنه فى كلتا المرتين عجز عن إثبات التهمة . على أن فصاحة دمستين الحربية وتقدم فليب نحو الجنوب أقنعا الاثنيين آخر الأمر أن يمتنعوا وقتا ما عن توزيع رصيد المناظر وأن يستخدموه فى الاستعداد للحرب . ففى عام ٣٣٨ نظموا على عجل

قوة زحفوا بها إلى الشمال لملاقاة فيالق فليب عند قيرونيا البؤوتية . وأبت اسپارطة أن تقدم معونتها لأثينة ، ولكن طيبة أحست بقبضة فليب تطبق على عنقها فأرسلت فرقتها المقدسة لتحارب إلى جانب الأثينيين ، وقتل الثلثمائة جندى الذين تتألف منهم هذه الفرقة فى الميدان ؛ وحارب الأثينيون بهذه الشجاعة نفسها أو بما يقرب منها ، ولكنهم كانوا قد تباطأوا فوق الحد المباح ، ولم يعدوا العدة لملاقاة جيش المقدونيين المسلح على أحدث طراز . فكانت النتيجة أن منوا بهزيمة شتتت شملهم ففروا أمام بحر الرماح الزاحفة عليهم وفر معهم دمستين . وكان الإسكندر بن فليب يبلغ وقتئذ الثامنة عشرة من عمره ، وكان يقود فرقة الفرسان المقدونية بشجاعة تبلغ درجة التهور أنالته شرف الانتصار فى هذه المعركة الحامية الوطيس .

وكان فليب كريما فى انتصاره كرما تمليه عليه خطته السياسية التى رسمها . نعم إنه أعدم بعض زعماء طيبة المعادين للمقدونيين ، وأقام فى تلك المدينة حكومة أجركية من أشياعه ، ولكنه أطلق سراح الألفى أثينى الذين وقعوا أسرى فى يديه ، وأرسل الإسكندر الظريف وأنپاتر Antipater العاقل الحكيم ليعرضا الصلح على أثينة على شريطة أن تعترف به قائداً عاماً لبلاد اليونان كلها ضد عدوها المشترك . وكانت أثينة تتوقع شروطاً أقسى من ذلك كثيراً ، ولهذا فإنها لم تقبل هذا الشرط فحسب ، بل أصدرت فوق ذلك قرارات تكيل فيها الثناء لهذا الأجممنون الجديد . وعقد فليب فى كورنثة جمعية (سندريون Synderion) من الدول اليونانية ، وألف منها جميعاً (عدا اسپارطة) حلفاً على نظام الحلف البؤوتى ، ورسم الخطوط الرئيسية لخططه التى تهدف إلى تحرير آسية . واختير بالإجماع قائداً عاماً لهذه المغامرة الكبرى ، وتعهدت كل دولة أن تمده بالرجال والسلاح ، ووعدته ألا يحارب يونانى من أى بلد كان فى صفوف أعدائه . وكانت هذه التضحيات كفارة رخيصة للعداء الذى أظهرته هذه المدن من قبل .

ولم تقف النتائج التى تمخضت عنها قيرونيا عند حد . فقد تحققت بها الوحدة التى عجزت عن تحقيقها بلاد اليونان من قبل ، وإن كانت لم تتحقق إلا على ظبا سيف رجل يكاد أن يكون أجنبياً عنها . وكانت الحرب البلوبونيزية قد أثبتت عجز أثينة عن تنظيم هلاس ، وأثبتت الحوادث التى أعقبت هذه الحرب عجز اسبارطة عن هذا التنظيم وعجزت طيبة عن بسط سيادتها على البلاد ، وأنهكت حرب الجيوش والطبقات قوى دول المدائن ، وتركتها ضعيفة عاجزة عن الدفاع عن نفسها . لهذا كان من حسن حظها أن تجد لها فى هذه الظروف فاتحا معقولا يعرض عليها أن ينسحب من ميدان النصر ويترك للمغلوبين قسطا كبيرا من الحرية . والحق أن فليب ومن بعده الإسكندر كانا يحيطان استقلال الدول المتحالفة بحمايتهما ورقابتهما ، حتى لا تضم إحدى هذه الدول غيرها إليها فيكون لها من القوة ماتستطيع به أن تحل بينها محل مقدونية . بيد أن فليب قد سلبها نوعاً غالياً من الحرية — ونعنى به حق الثورة . فقد كان محافظا صريحا ، يرى أن استقرار الملكية حافز لا غنى عنه للإقدام والنشاط ، ودعامة لا بد منها للحكم . ومن أجل هذا حمل المجمع المقدس فى كورنثة على أن يضع بين مواد الحلف عهداً يقطعه المتحالفون على ألا يدخلوا فى الدستور تغييراً ما ، وألا يبدلوا النظم الاجتماعية بحال من الأحوال ، ولا يتورطوا فى الانتقامات السياسية . وكان فى كل ولاية يؤيد بنفوذه المدافعين عن الملكية ، وقضى قضاء تاما على الضرائب الفادحة التى تبلغ درجة مصادرة الأملاك .

وكان قد أحكم وضع خططه كلها إلا ما يختص منها بزوجته أولمبياس Olympias ؛ ولهذا فإن الذى قرر مصيره آخر الأمر لم يكن هو انتصاره فى ميدان القتال ، بل كان عجزه عن الانتصار على زوجته . ولم يكن يرهب منها أخلاقها وحدة طباعها فحسب ، بل كان يرهب فوق ذلك اشتراكها فى الطقوس الديونيشية الهمجية . وقد وجد فى ذات ليلة أفعى إلى جانبها فى

السرير فارتاع ولم يذهب عنه روعه حتى بعد أن قيل له إن الأفعى إله من الآلهة . وأسوأ من هذا أن أولمبياس أخبرته ذات مرة أنه لم يكن والد الإسكندر الحقيقى ، بل إن صاعقة قد انقضت عليها ليلة زفافهما وأشعلت فيها النار ، وأن الإله العظيم زيوس — أمون هو الذى حملت منه بالأمير المقدام . ونفرت هذه المنافسات المختلفة فليب منها فولى وجهه شطر غيرها من النساء ، وشرعت أولمبياس تثأر لنفسها منه فأخبرت الإسكندر بسر أبوته الإلهية[٦٠] . وزاد الطين بلة أن قائداً من قواد فليب يدعى أتلس Atallus طلب أن يشرب نخب ولد فليب المرتقب من زوجة أخرى وقال إنه الوارث « الشرعى » (أى المقدونى لحما ودما) لعرش البلاد . فما كان من الإسكندر إلا أن ضربه بالكأس فى رأسه وصاح قائلا : « وهل أنا إذن ابن زنى ؟ » . واستل فليب سيفه يريد أن يقتل به ولده ولكنه كان ثملا لا يستطيع الوقوف . فضحك منه الإسكندر وقال : « ها هو ذا رجل يستعد للانتقال من أوربا إلى آسية وهو لا يستطيع أن يخطو آمنا من مقعد إلى مقعد » . وبعد بضعة أشهر من ذلك طلب ضابط من ضباط فليب يدعى بوسنياس أن يأخذ له الملك بحقه من أتلس لإهانة لحقت به منه ، فلما لم يجبه الملك إلى طلبه اغتاله (٣٣٦) . وكان الإسكندر محبوباً من الجيش حبا يقرب من العبادة ، وكانت أولمبياس تؤيده(*) فاستولى على أزمة الملك ، وتغلب على كل ما لقيه من مقاومة ، وأخذ يعد العدة لفتح العالم .

(*) وكان يظن أنها هى التى حرضت بوسنياس على قتل فليب .

الباب العشرون

الآداب والفنون فى القرن الرابع

الفصل الأول

الخطباء

كانت الآداب فى أثناء هذا الاضطراب كله ينعكس عليها ما انتاب بلاد اليونان من اضمحلال فى الأخلاق وضعف فى صفات الرجولة . فلم يكن الشعر كما كان من قبل تعبيراً عاطفياً إبداعياً يبتكره الأفراد ، بل أصبح تدريباً ظريفاً وثمرة من نتاج العقول فى الندوات ، وصدى للواجبات والتمارين المدرسية . . نعم إن تموثيوس الملطى كتب ملحمة شعرية ، ولكنها لم تكن توائم عصر الجدل والنقاش ، وظلت بعيدة عن الشعب بُعد موسيقاه فى عهدها الباكر ؛ وظلت المسرحيات تمثل ولكن تمثيلها كان أضعف وأضيق نطاقا من ذى قبل . ذلك إن إقفار خزانة الدولة من المال وضعف الروح الوطنية عند الأثرياء من الأفراد قللا من أقدار الممثلين وأفقداهم ما كان لهم من شأن فى ماضى الأيام . واكتفى كتاب المسرحيات شيئاً فشيئاً بالمقطوعات الموسيقية التى تعزف بين الفصول ولا صلة لها بالمسرحية بدل الأغانى التى تكون جزءاً منها ، واختفى اسم رئيس فرقة المرتلين فلم يعد مما يهتم به النظارة ، ثم اختفى بعدئذ اسم الشاعر نفسه ، ولم يبق إلا اسم الممثل . و بعدت المسرحية بالتدريج عن القصيدة وأضحت شيئاً فشيئاً عرضاً للحوادث التاريخية ، وأصبح العصر كله عصر كبار الممثلين وصغار الكتاب المسرحيين . ذلك أن المأساة اليونانية قد قامت على الدين والأساطير ،

وكانت تتطلب شيئاً من التقى والإيمان عند المستمعين ، ومن أجل هذا كان لا بد أن يضمحل شأنها حين أوشكت شمس الآلهة على الأفول .

وازدهرت الملهاة فى الوقت الذى اضمحلت فيه المأساة ، وانتقل إليها بعض ما كان يتصف به مسرح يوربديز من براعة ، وظرف ، ومادة طيبة ؛ وفقدت هذه الملهاة الوسطى (٤٠٠ — ٣٢٣) حبها للهجاء السياسى وتشجيعها له ، وقت أن كانت السياسة تتطلب « الصديق الصريح » ؛ وليس ببعيد أن يكون هذا الهجاء قد حُرِّم أو أن النظارة قد سئموا السياسة بعد أن أصبح حكام أثينة رجالا من الطراز الثانى . وكان اعتزال الرجل اليونانى بوجه عام الحياة العامة إلى الحياة الخاصة فى القرن الرابع سبباً فى توجيه اهتمامه إلى شئون منزله وقلبه وإغفاله شئون الدولة . وظهرت فى ذلك الوقت الملهاة الأخلاقية ، وأخذ الحب يسيطر على مناظرها ؛ ولم يكن يسيطر عليها دائماً عن طريق الفضيلة ، بل كانت العاهرات يظهرن على خشبة المسرح مع بائعات السمك ، والطهاة والفلاسفة الحيارى . — وإن كان زواج الممثل والكاتب ينقذ شرفهما فى آخر التمثيل : خلت هذه المسرحيات من فحش أرسطوفان ومجونه اللذين كانا سبباً فى خشونة المسرحيات وخلوها من الصقل الجميل ، ولكنها خلت أيضاً من حيويته وخصب خياله . ولدينا أسماء تسعة وثلاثين شاعراً من كتاب الملهاة الوسطى ، وإن لم يكن لدينا شىء من مسرحياتهم ، ولكننا نستطيع أن نحكم من القطع الباقية لدينا أنهم لم يكتبوا شيئاً جديراً بالخلود . وقد كتب ألكسيس الثوريانى (of Thuril) ٢٤٥ مسرحية ، وكتب أنتفانيز Antiphanes ٢٦٠ . لقد ذاع صيتهم فى زمانهم فلما انقضى ذلك العهد أفل نجمهم .

أما الخطباء فكان هذا زمانهم . ذلك أن نهضة الصناعة والتجارة قد حولت عقول الناس إلى الحياة الواقعية والعملية ؛ وأخذت المدارس التى كانت قبل تعلم أشعار هومر تدرب تلاميذها الآن على أساليب البلاغة . ولقد كان

إسيوس (Isaeus) ، وليقورغ ، وهيبريديز ، ودمديز Demades ، وديناركس Deinarchus ، وإسكنيز ، ودمستين كلهم خطباء سياسيين ، ينزعون أحزاباً سياسية ، ويسيطرون ببلاغتهم على عقول الجماهير. وظهر رجال فى سراقوصة فى الفترات التى ساد فيها الحكم الدمقراطى ، أما الدول الدمقراطية فلم تكن تطيقهم ، وكانت لغة الخطباء الأثينيين تمتاز بالوضوح والقوة ، والبعد عن المحسنات اللفظية وكانت تسمو بين الفينة والفينة إلى مراقى الوطنية النبيلة ، وتسف إلى المهاترات المنحطة والشتائم القذرة التى لا يسمح بها حتى فى المنازعات الحديثة . وكان ما تتصف به الجمعية الأثينية والمحاكم الشعبية من عدم التجانس فى أعضائها سبباً فى انحطاط فن الخطابة اليونانية ، وحافزاً لها فى الوقت عينه ، وانتقل هذا الأثر بنوعيه عن طريق الخطابة إلى الأدب اليونانى بوجه عام ، فقد كان سرور المواطن الأثينى من سماع الشتائم فى خطب الخطباء لا يكاد يقل عن سروره من مشاهدة مباراة لنيل جائزة ، وإذا عُرف أن مبارزة لفظية ستقوم بين محاربين بالألفاظ مثل إسكنيز ، ودمستين أقبل الناس لسماعهما من القرى النائية والدول الأجنبية ،وكان أكثر ما يستثيره الخطباء هوغريزة الكبرياء والهوى . وقد عرّف أفلاطون البلاغة ، وكان يكره الخطابة ويصفها بأنها السم القاتل للدمقراطية ، عرفها بأنها فن حكم الناس باستثارة مشاعرهم وعواطفهم .

وحتى دمستين نفسه ، رغم حيويته وقوة أعصابه ، وسموه فى كثير من الأحيان إلى فقرات تفيض بالحماسة الوطنية ، ورغم هجومه الشديد على الأشخاص هجوماً أخذ يضعف على مر الزمان ، ومهارته فى تعاقب القصص والجدل فى خطبه تعاقباً يريح الأذن ويطرد السآمة ، وما فى لغته من انسجام وتوازن كان يعنى بهما كل العناية ، ورغم تدفقه فى خطبه كالسـيل الجارف ، نقول إن دمستين نفسه رغم هذا كله يبدو لنا أقل قليلا من الخطيب العظيم . وكان يرى أن التمثيل هو سر العظمة الخطابية ، وبلغ من إيمانه بهذا المبدأ أن كان يعيد خطبه مرارا فى كثير من الأناة

ويتلوها على نفسه أمام مرآة ، واحتفر لنفسه كهفاً كان يعيش فيه علة أشهر ، لايكاد يعلم به أحد. وكان فى مثل هذه الفترات يحلق نصف وجهه ويبقى على النصف الآخر حتى لا تحدثه نفسه بالخروج من مأواه[١] . وكان إذا وقف على منصة الخطابة اتجه بوجهه نحو تمثاله ، ودار يمنة ويسرة ، ووضع يده على جبهته كأنه يفكر ، ورفع صوته فى أغلب الأحيان إلى حد الصراخ[٢] . ويقول فلوطرخس إن هـذا كله « كان يسر العامة كل السرور ، أما المتعلمون أمثال دمتروس الفاليرى (Demetrius of Phalerum) فكانوا يظنون هذا عملا حقيراً ، مهيناً ، لا يتفق مع الرجولة الحقة » . وإنا لنسر من حركات دمستين المسرحية ، ونعجب بتقديره لنفسه واعتزازه بها ، وتحيرنا استطراداته وتروعنا بذاءته . وليس فى خطبه إلا القليل من الفكاهة والقليل من الفلسفة . ولولا حماسته الوطنية ، وما يبدو من إخلاص فى دعوته الحارة اليائسة إلى الحرية ، لما كان له شأن كبير .

وبلغت الخطابة اليونانية أرقى درجاتها فى عام ٣٣٠ . وكان تسفون Ctesiphon قبل ذلك العام بست سنين قد اقترح على المجلس مبدئياً أن يهدى دمستين تاجاً أو إكليلا من الزهر اعترافاً منه بحسن سياسته ، وبما قدمه للدولة من منح مالية كثيرة . ووافق المجلس على هذا الاقتراح . وأراد إسكنيز أن يحول بين منافسه وبين هذا الشرف العظيم فاتهم تسفون بأنه عرض على المجلس اقتراحاً غير دستورى (وهو اتهام صحيح من الناحية الشكلية) وأجلت القضية المرة بعد المرة ، ثم عرضت أخيراً على هيئة القضاء المؤلفة من خمسمائة من المواطنين . وكانت هذه بطبيعة الحال قضية من أشهر القضايا شهدها كل من استطاع الحضور إلى أثينة مهما بعد موطنه ، ذلك بأن أعظم خطباء أثينة فى ذلك الوقت كان فى واقع الأمر يدافع فيها عن سمعته وعن حياته السياسية . ولم يضع إسكنيز فى مهاجمة تسفون إلا قليلا من الوقت ولكنه وجه هجومه إلى أخلاق دمستين

وسيرته ، ورد عليه دمستين فى خطبة من نوع خطبته هى خطبته الشهيرة المعروفة باسم « فى سبيل التاج » . ونزال نحس فى كل سطر من أسطر الخطبتين بما كان يضطرم فى صدر صاحبيهما من اهتياج شديد ، وحقد فى قلب عدوين التقيا وجهاً لوجه فى ميدان القتال . وكان دمستين يعرف أن الهجوم أفضل من الدفاع ، فقال إن فليب قد اختار بوقا له فى أثينة أحط خطبائها وأشدهم فساداً ، ثم أخذ يرسم صورة لحياة إسكنيز يتجلى فيها الحقد بأوضح معانيه فقال :

لا بد لى أن أدلكم على حقيقة هذا الرجل الذى يطاق لسانه بالشتائم المقذعة . . . وإلى أى الآباء ينتسب . الفضيلة أيها الوغد الخائن ! . . . ما شأنك أنت أو أسرتك بالفضيلة ؟ ... وبأى حق تتحدث عن التربية والتعليم ؟ . . . هل أقص على الناس كيف كان أبوك عبداً يدير مدرسة أولية قرب هيكل ثسيوس ، وكيف كان مصفداً بالحديد فى ساقه ، وكيف كان حول عنقه طوق من الخشب ، وكيف كانت أمك تقيم حفلات الزواج فى مرافق بيت فى وضح النهار ؟ ... لقد كنت تساعد أباك فى كدحه فى مدرسة صغيرة ، تطحن له الخبز ، وتنظف المقاعد بالإسفنج ، وتكنس الحجرة ، وتقوم بعمل الخادم ... ثم سجلت اسمك فى سجل أبرشيتك — وليس فى مقدور أحد أن يعرف كيف استطعت أن تفعل ذلك ، ولكن ما علينا من هذا — لقد اخترت لنفسك مهنة خليقة بأشرف الرجال المهذبين فكنت كاتباً وموصل رسائل لصغار الموظفين . وبعد أن ارتكبت جميع الجرائم التى تعير غيرك من الناس ، أعفيت من هذا العمل . . . والتحقت بخدمة الممثلين الشهيرين سميلس Simylus وسقراط المشهورين باسم « المدمدمين » . ومثلت أدواراً صغيرة تحت إشرافهم ، فكنت تلتقط التين والعنب والزيتون وتعيش على هذه القذائف خيراً مما تعيش من جميع الوقائع التى كنت تخوضها للنجاة من الموت . إن الحرب التى كانت قائمة بينك وبين النظارة لم تكن فيها هدنة أو وقف للقتال ...

وازن إذن يا إسكنيز بين حياتك وحياتى . لقــد كنت تعلم مبادئ القراءة وكنت أنا طالباً فى المدرسة ؛ وكنت أنت راقصاً وكنت أنا رئيس الممثلين ... وكنت كاتباً عمومياً ، وكنت أنا خطيباً عاماً . وكنت ممثلا من الدرجة الثالثة وكنت أنا ممن يشهدون التمثيل . وأخفقت أنت فى تمثيل دورك وسخرت أنا منك بالصفير[٣] .

وكانت هذه خطبة عنيفة ؛ ولم تكن نموذجاً للترتيب والأدب ولكنها كانت فصيحة اللفظ شديدة الانفعال إلى حد حملت القضاة على أن يبرئوا تسفون بأغلبية خمسة أصوات ضد صوت واحد . وفى العام التالى منحت الجمعية دمستين التاج المتنازع . ولما عجز إسكنيز عن أداء الغرامة التى تفرض حتما على من يعجز عن إثبات جريمة يتهم بها أحد المواطنين ، فر إلى رودس ، حيث أخذ يكسب الكفاف من العيش بتعليم البلاغة . وتقول إحدى الروايات إن دمستين كان يرسل إليه المال ليخفف عنه آلام الفاقة .

الفصل الثانى

إسقراط

وكانت هذه المبارزة فى الخطابة من الموضوعات التى يمجدها ويعنى بدراستها كل جيل من الأجيال اللاحقة . ولكنها فى واقع الأمر تمثل الدرك الأسفل من الانحطاط الذى هوت إليه السياسة الأثينية . ولسنا نرى شيئاً من النبل أو الكرامة فى هذا التنابذ بالشتائم ، وهذا الكفاح الحقير لنيل الثناء من الجماهير ، بين رجلين كان كلاهما يتلقى الذهب الأجنبى فى الخفاء . أما إسقراط فكان أكثر منهما جاذبية إلى حد ما وينتقل فيه إلى القرن الرابع بعض عظمة القرن الخامس . ولد إسقراط فى عام ٤٣٦ ، وعاش حتى عام ٣٣٨ ، ومات حين ماتت الحرية اليونانية . وكان أبوه قد جمع ثروة كبيرة بصنع آلات الناى الموسيقية ، وأتاح لابنه جميع الفرص التعليمية ، ولم يبخل عليه بإرساله لدراسة البلاغة على غورغياس فى تساليا . وقضت حرب البلوبونيز وخطة ألقبيادس على صناعة الناى وذهبتا بثروة الأسرة ، فاضطر إسقراط إلى كسب قوته بعرق قلمه . فبدأ بكتابة الخطب لغيره ، وفكر فى أن يكون هو خطيبا ، ولكنه كان خجولا ، ضعيف الصوت ، شديد البغض لسفالة الحياة السياسية ، وكان يمقت أشد المقت الزعماء المهرجين الذين سيطروا على الجمعية ، وانزوى وقتا ما فى حياة التعلم الهادئة .

فافتتح فى عام ٣٩١ أعظم مدارس البلاغة نجاحا فى أثينة ، وهرع الطلاب إليها من جميع أنحاء العالم اليونانى ؛ ولعل اختلاف أصولهم ونظراتهم إلى الحياة قد ساعد على تكوين فلسفته الهلينية الجامعة . وكان يظن أن من عداه من المدرسين يسيرون كلهم فى غير الطريق السوى . وقد ندد فى نشرة له ضد السوفسطائيين بالذين يرفعون كل أخرق مأفون إلى فيلسوف نظير دريهمات

معدودة ، والذين يرجون ، كما يرجو أفلاطون ، أن يعدوا الناس لتولى الحكم بتدريبهم فى علوم الطبيعة وما وراء الطبيعة . أما هو فكان يقر بأنه لا يستطيع أن يحصل من الطالب على نتائج طيبة إلا إذا كان هذا الطالب ذا موهبة طبيعية . ولم يكن فى وسعه أن يدرس العلوم الطبيعة أو ما وراء الطبيعة لأنها ، كما يقول ، بحوث لا يرجى منها خير ، فى أمور غامضة لا يمكن الكشف عن خفاياها . ولكنه رغم هذا كان يطلق اسم الفلسفة على ما يعلمه فى مدرسته . وكان منهاج الدراسة يدور حول فنى الكتابة والكلام ، ولكنه كان يدرسهما من حيث صلتهما بالأدب والسياسة[٥] ؛ وكان يدرس للطلاب منهجا ثقافياً ، على حد تعبير هذه الأيام ، يخالف المنهج الرياضى الذى كان يدرس فى مجمع أفلاطون العلمى . وكان الهدف الذى يريد الوصول إليه هو فن الخطابة ، وقد كان هذا الفن فى ذلك الوقت وسيلة التقدم فى الحياة العامة ، لأن الجدل هو الذى كان وقتئذ يحكم الدولة الأثينية . ومن أجل ذلك كان إسقراط يعلم تلاميذه طريقة استعمال الألفاظ ، كيف يضعونها فى أوضح ترتيب ، وفى تتابع منسجم ولكنه غير موزون ، وفى عبارات مصقولة ولكنها غير مزخرفة ، وكيف ينتقل بالأصوات والأفكار انتقالا هادئاً سلساً (*) ، وكيف تكون الجمل متزنة والوقفات كثيرة . وكان من رأيه أن هذا النثر يسر الأذن المهذبة بقدر ما يسرها الشعر . وتخرج فى هذه المدرسة كثيرون من الزعماء فى عصر دمستين : تموثيوس القائد ، وإفورس وثيوپومپس المؤرخان ، وإسيوس ، وليقورغ ، وهيپريديز ، وإسكنيز الخطباء ، وإسپيوس خليفة أفلاطون ، وأرسطاطاليس نفسه فى رأى بعضهم[٦] .

(*) مثال ذلك أن إسقراط — وحذا حذوه فى ذلك معظم من جاء بعده من كتاب اليونان — كان يرى أن من الخطأ أن تختتم كلمة بأحد الحروف المتحركة ، ثم تبدأ الكلمة التى تليها بحرف متحرك أيضا .

ولم يكن إسقراط يقنع بتكوين عظماء الرجال ، بل كان يرغب فى أن تكون له يد فى تصريف شئون عصره . وإذ كان عاجزاً عن أن يكون خطيباً أو سياسياً فقد أخذ يؤلف النشرات . فكان يوجه خطباً طويلة لجمهور الأثينيين ، وللزعماء أمثال فليب ، أو لليونان المحتشدين فى ساحات الألعاب اليونانية الجامعة ؛ ولم يكن يلقى هذه الخطب ، بل كان ينشرها ، فابتدع بذلك على غير علم منه المقالة بوصفها فنا من فنون الأدب . وقد بقيت لنا تسع وعشرون من خطبه تعد من أكثر ما بقى من الأدب القديم إمتاعا . وكانت خطبته الأولى العظيمة المعرفة باسم الجمعية العامة أو البانيجركس Panegyricus(*) مفتاح تفكيره كله ، والهدف الذى كان يبتغيه معلمه القديم غورغياس ، وهو دعوة بلاد اليونان إلى نسيان سيادتها الصغيرة والاندماج فى دولة واحدة . وكان إسقراط أثينيا فخورا بموطنه ... « لقد فاقت مدينتنا سائر بلاد العالم فى أفكارها وخطبها حتى أصبح تلاميذها معلمى الدنيا بأجمعها » ، لكنه كان يفخر بيونانيته أكثر من فخره بأثينيته ؛ ولم يكن معنى الهلينستية عنده(**) ، كما لم يكن معناها عند رجال العصر الهلينستى ، هو الانتساب إلى جنس بعينه ، بل كان معناها الاشتراك فى ثقافة بعينها ؛ وكان يشعر بأن هذه الثقافة هى أرقى ثقافة ابتدعها الإنسان فى أى بلد من بلاد العالم(٧) ؛ وكان « البرابرة » يحيطون بهذه الثقافة من جميع الجهات — فى إيطاليا ، وصقلية ، وإفريقية ، وآسية ، والبلاد المعروفة لنا الآن باسم بلاد البلقان ؛ وكان يحزنه ويقض مضجعه أن يرى هؤلاء البرابرة يزيدون كل يوم قوة ، وأن يرى بلاد الفرس تقوى سيطرتها على أيونية ، على حين أن الدولة اليونانية كانت تقضى على نفسها بحروبها الداخلية .

(*) سميت كذلك لأنها كانت موجهة إلى البانيجريس أو الجمعية العامة (بان – أجورا Pan-agora) اليونانية فى الدورة الأولمبية المائة .

(**) الهلينستية هى الاصطباغ بالصبغة اليونانية فى غير بلاد اليونان الأصلية . (المترجم)

« ما أكثر الشرور التي تلازم الطبيعة البشرية ؛ ولكننا نحن قد اخترعنا من أكثر الشرور التي تفرضها علينا الطبيعة ، بإثارة الحروب والانقسامات الداخلية . . . ولم يقم أحد قط بمقارنة هذه الشرور ، والناس لا يستحيون أن يبكوا من الكوارث التي اصطنعها الشعراء ، على حين أنهم ينظرون بعين الرضا إلى ما تؤدي إليه الحرب القائمة بيننا من آلام حقه ، وكوارث لا حصر لها . وهم لا يشفقون منها ، بل إنهم ليبتهجون مما يصيب غيرهم من الأحزان أكثر من ابتهاجهم بما ينالون من النعم »[٨] .

وكان يقول إنه إذا كان لا بد لليونان أن يقاتلوا فلم لا يقاتلون عدوا حقيقيا ؟ لم لا يطردون الفرس إلى هضابهم ؟ ويتنبأ بأن شرذمة قليلة من اليونان تستطيع أن تهزم جيشا كبيراً من الفرس[٩] ، وقد توحد حرب مقدسة من هذا النوع بلاد اليونان في آخر الأمر ، ولم يكن أمام اليونان إلا واحدة من اثنتين فإما وحدة اليونان وإما انتصار البرابرة ولا ثالثة لهما .

واعتزم إسقراط أن يحقق نظريته هذه عمليا ، فأخذ يطوف ببحر إيجه بعد عامين من نشر هذه الدعوة (٣٧٨) وبصحبته تلميـــذه السابق تموثيوس ، وساعد على وضع شروط الحلف الأثيني الثاني . وكان ما تعاقب على هذا الأمل الجديد في الوحدة من قوة تارة وخيبة تارة أخرى من أشد الآلام الكثيرة التي مني بها في حياته الطويلة . فأخذ يقرع أثينة في نشرته القوية الجريئة « في السلم » لأنها أفسدت الحلف مرة أخرى فحولته إلى إمبراطورية ، وأهاب بها أن توقع صلحا يؤمن كل دولة يونانية من أن تعتدي عليها أثينة مرة أخرى : « إن ما تسميه إمبراطورية لهو في الحقيقة كارثة ، لأنها بطبيعة تكوينها تفسد كل من له صلة بها[١٠] » . ومن أقواله أن الاستعمار قد قضى على الدمقراطية لأنه علم الأثينيين أن يعيشوا على الجزية الأجنبية ؛ فلما خسروا هذه الجزية أرادوا أن يعيشوا على

الإعانات التى تقدمها لهم الدولة ، ورفعوا إلى أعلى المناصب من وعدوهم بأكبر معونة

« إنكم حين تتناقشون فى أعمال الدولة ترتابون فى أصحاب الذكاء الفائق ولا تحبونهم ، وترفعون بدلا منهم أخطر من يتقدم إليكم من الخطباء . . . إنكم تفضلون السكارى عمن لا يتعاطون الخمر ، ومن لا عقل لهم عن الحكماء ، ومن يبددون أموال الدولة عمن يؤدون الخدمات العامة وينفقون عليها من مالهم الخاص (١١) » .

وكان أخف من هذا وطأة على الدمقراطية فى خطابه الثانى المسمى الأريوبجستس . ويقول فى إحدى فقراته التى تصدق على كل زمان : « إنا لنجتمع فى حوانيتنا نندد بالنظام الحاضر ، ولكننا نرى أن الدمقراطيات الفاسدة النظام نفسها تسبب من الكوارث أقل مما تسببه الألجركية(١٢) » ؛ ويتساءل ، ألم تكن سيادة اسپارطة على بلاد اليونان أسوأ من سيادة أثينة ؟ « ألم نصبح نحن جميعاً بفضل جنون « الثلاثين » أشد تحمساً للديمقراطية من من الذين احتلوا فيلى(*)؟ » (١٣) ولكن أثينة قد قضت على نفسها بتجاوز الحد فى الأخذ بمبدأ الحرية والمساواة ، و« بتدريب المواطنين تدريباً يجعلهم يعدون الوقاحة دمقراطية ، والخروج على القانون حرية ، والسفاهة فى القول مساواة ، وقدرتهم على أن يفعلوا كل ما يشاءون سعادة »(١٤) . « ليس الناس كلهم أكفاء ، ويجب ألا يكونوا كلهم أكفاء ، فى تولى المناصب العامة » . وكان يشعر أن نظام القرعة قد نزل بمستوى الحكم الأثينى إلى الدرك الأسفل ، وأدى إلى أوخم العواقب . ويقول إن خيراً من « حكم الغوغاء » هذا « حكم الملاك » الذى كان يدعو إليه صولون وكليستنيز لأن الجهل المحبب للناس ، والفصاحة التى تبتاع بالمال ، تقل أمامهما فرص

(*) ثرازيبولس ، وأنيتوس ، وغيرهما ممن أعادوا الدمقراطية فى عام ٤٠٤ .

الارتقاء إلى مراتب الزعامة ؛ ولأن القادرين من الناس يرقون رقياً طبيعياً إلى أعلى المناصب ، فإذا تلقفهم الأريوپجس بعد فترة توليهم مناصبهم ، أصبحوا من تلقاء أنفسهم عقل الدولة الناضج .

ولما عقدت أثينة الصلح مع فليب فى عام ٣٤٦ ، وكان إسقراط وقتئذ فى سن التسعين ، وجه إلى الملك المقدونى خطاباً مفتوحاً . وقد هداه تفكيره إن أن فليب سيفرض سيادته على بلاد اليونان فتوسل إليه ألا يستخدم سلطانه كما يستخدم المستبدون سلطانهم ، بل يستعين به على جمع شمل اليونان المستقلين وتوجيههم إلى حرب يحررون بها بلادهم من « صلح الملك » ، وتحرير أيونيا من حكم الفرس ، وأخذ حزب الحرب يطعن فى هذا الخطاب ويصفه بأنه استسلام للطغيان ، وظل إسقراط سبع سنين ممسكا بقلمه يرد به على هذه التهمة . ثم كتب خطبة أخرى فى عام ٣٣٩ موجهاً الخطاب إلى اليونان الذين اجتمعوا لمشاهدة الألعاب الأثينية الجامعة . وكانت « الخطبة الأثينيه الجامعة (اليان أثنيكس Panathenaicus تكراراً ضعيفاً مسهباً لخطبة الجمعية العامة . فنحن نحس أسلوبها يرتجف فى يد الشيخ الطاعن فى السن ، ولكنها مع ذلك عمل عجيب من رجل لا تنقص سنه عن قرن كامل إلا ثلاث سنين . وفى عام ٣٣٨ دارت معركة قيرونية وهزمت فيها أثينة ، ولكن ما كان يحلم به إسقراط من وحدة بلاد اليونان أوشك أن يتحقق . وتقول إحدى الروايات اليونانية التى ذاعت بعدئذ إنه لما بلغه الخبر لم يفكر فى فليب أو فى الوحدة ، بل كان تفكيره كله فى مدينته التى ذلت ، وفى أيام مجدها التى ولت ؛ وإنه بعد أن بلغ ثمانية وتسعين عاماً وبلغ من العمر كفايته أمات نفسه جوعا[١٥] . ولسنا نعرف هل هذه القصة صادقة أو كاذبة ، ولكن أرسطاطاليس يحدثنا بأن إسقراط مات قبل أن تمضى على قيرونية خمسة أيام .

الفصل الثالث

أكسانوفون

إذا كان أثر « الشيخ الفصيح » فى ساسة عصره قابلا للشك ، فإن أثره فى الأدب كان أثراً عاجلا وخالداً(*) . وكان المؤرخون أول من أحسوا به ، فلقد قلده أكسانوفون وغيره من المؤرخين فى الصورة التى رسمها لإفجروس Evagoras(**) ؛ وأصبحت السير من بعده فناً شائعاً من فنون الأدب اليونانى ، بلغت غايتها فى روائع فلوطرخس الثرثارة . وقد عهد إسقراط إلى تلميذ من تلاميذه يدعى إفورس Ephorus أن يضع تاريخاً عاماً لبلاد اليونان — لا يؤرخ حوادث دولة واحدة من دوله بل يؤرخ لبلاد اليونان بوجه عام . وقام إفورس بما عهد إليه خير قيام وأجاده إجادة حملت معاصريه على أن يضعوا كتابه « التاريخ العام » فى مستوى كتاب هيرودوت . وخص إسقراط تلميذاً آخر هو ثيوپمپس الطشيوزى بتأريخ الحوادث القريبة العهد ، فصدع ثيوپمپس بالأمر ووصف هذه الحوادث فى كتابيه الهلينيكا والفليپيكا وهما مؤلفان رائعان يمتازان بحيويتهما وعباراتهما اللاذعة ، وحازا إعجاب معاصريه . وكتب دسياركس Dicaearchus المسانى (of Messana) حوالى عام ٣٤٠ تاريخاً للحضارة اليونانية عنوانه حياة اليونان (Bios Hellados) ألا ما أقدم هذه المغامرة التى أقدمنا نحن عليها ، وما أعظم الشبه بين ذلك العمل القديم وعملنا هذا الذى يتفق معه حتى فى الاسم .

ولم يخلد من مؤرخى القرن الرابع أحد غير أكسانوفون . ويصفه ديوجانس لِيرتيوس فى شبابه بقوله :

(*) لقد بنى شيشرون وملتن ، وماسيون ، وجرمى تيلر ، وإدمند بيرك أسلوبهم النثرى على الجمل المتزنة الطويلة التى هى من خصائص أسلوب إسقراط .

(**) الطاغية المستنير الذى أدخل الثقافة اليونانية فى قبرص ٤١٠ — ٣٨٧ .

كان أكسانوفون رجلا شديد التواضع ، وسيما كأعظم ما يتصور الإنسان الوسامة ؛ ويقال إن سقراط التقى به فى حارة ضيقة فسد عليه مدخلها بعصاه ، ومنعه أن يخرج منها ، وأخذ يسأله عن الأماكن التى تباع فيها كثير من ضرورات الحياة . فلما أجابه أكسانوفون عن أسئلته سأله من جديد أين يصنع الرجال الطيبون الأفاضل ؟ ولما عجز أكسانوفون عن الإجابة قال له سقراط : « اتبعنى إذن وتعلم منى » وأصبح أكسانوفون من ذلك الوقت أحد أتباع سقراط[١٧] .

وكان أشد تلاميذه ميلا إلى الفلسفة العملية ، وكان يعجبه فى سقراط قوة حيلته الجذابة ويرى أنه قديس فيلسوف . ولكنه كان يعجب بالعمل كما يعجب بالتفكير ، ولذلك صار جندياً مغامراً على حين أن غيره من رجال العلم كانوا كما يقول فيهم أرسطوفان مستهزئاً « يقيسون الهواء »[١٨]

وخدم وهو فى سن الثلاثين أو ما يقرب منها فى جيش قورش الأصغر وحارب فى كونكسا وقاد العشرة الآلاف إلى النجاة . وفى بيزنطية انضم إلى الاسپارطيين فى حربهم ضد الفرس وأسر ميدياً غنيا ، وقبل مبلغاً كبيراً من المال فدية له ، وعاش من هذا المال بقية أيام حياته ، وأصبح بعد تلك الحرب صديقاً لأجسلوس ملك اسپارطة ، وأعجب به ، وترجم له ترجمة تدل على هذا الإعجاب ، وعاد إلى بلاد اليونان مع أجسلوس بعد أن أعلنت أثينة الحرب على اسپارطة ، وآثر الولاء له على الولاء لمدينته ؛ فلم يكن من أثينة إلا أن أعلنت نفيه وصادرت أملاكه ؛ وحارب فى صفوف اللسديمونيين فى قورونية وكوفئ على هذا بضيعة فى سلس Scilus من أعمال إيليس Elis ، وكانت وقتئذ تحت سيطرة اسپارطة ، وقضى فيها عشرين عاماً يعيش عيشة سادات الريف ، يزرع ويصطاد ، ويكتب ، ويربى أولاده تربية صارمة على الطريقة الاسپارطية[١٩] :

ونحن مدينون بنفيه إلى كتبه المختلفة التى رفعته إلى المقام الأول بين المؤلفين فى زمانه . وكان يكتب ، إذا حلت له الكتابة ، فى تذليل الكلاب ، وترويض

الخيـــل ، وتدريب الزوجة ، وتربية الأمراء ، والحرب إلى جانب أجسلوس ، أو جباية المال لأثينة : وقد قص فى الآباباسيس بأسلوبه العذب السائغ أسلوب الرجل الذى شاهد الأعمال التى يصفها أو اشترك بنفسه فيها ، قص فى هذا الكتاب قصة مسير العشرة الآلاف إلى البحر ، وهى القصة المثيرة التى لا سند لها غيره . وفى كتابه الهلينيكا واصل قصة بلاد اليونان من حيث انتهى توكيديدس ، إلى واقعة منتينيا التى قتل فيها ولده جريس وهو يحارب ببسالة بعد أن قتل بيده أپامينونداس . والكتاب فى حد ذاته سرد ممل للحوادث يدل على أن كاتبه يفهم التاريخ على أنه سلسلة لا نهاية لها من الوقائع الحربية ، وسرد الانتصارات والهزائم ، ومحاولة غير مجدية لتعليلها منطقياً . والأسلوب قوى ، والشخصيات واضحة ، لكن الحوادث قد أحسن اختيارها لكى تثبت تفوق الأساليب الاسپارطة . وفى كتاب أكسانون تعود الخرافات التى كانت قد اختفت من التاريخ فى كتاب توكيديدز ، وهو يستند إلى القوى غير الطبيعية ليفسر بها سير الحوادث . وبمثل السذاجة و هذا النفاق تحيل المموراپيليا سقراط إنسانا كاملا إلى حد لا يصدقه عقل سليم ، فهو مستمسك بالدين القويم ، والأخلاق الفاضلة ، والحب العذرى ؛ وقصارى القول أنه مكمل فى كل شىء إذا استثنينا احتقاره للدمقراطية ، ذلك الاحتقار الذى حببه إلى قلب أكسانوفون الطريد . وكتابه « المائدة » أقل من هذا الكتاب الأخير جدارة بالثقة . وهو ينقل حديثا يزعم أنه دار حين كان لا يزال أكسانوفون طفلا .

أما فى الإكونمكس Occonomicus فإن أكسانوفون يتحدث فى الميدان الذى يحق له أن يتحدث فيه ، ويكشف عن نزعته التحفظية بصراحة تسحر عقولنا على الرغم منا . لقد كان أكسانوفون خبيراً فى الزراعة ، وشاهد ذلك أنه لما طلب إلى سقراط أن يعلم فنونها أقر فى كثير من التواضع بجهله ، ولكنه ذكر نصيحة المالك الثرى إسكوماكش Ischomachus والمثل الذى ضربه للناس بنفسه . ويجهر إسكوماكس هذا باحتقار أكسانوفون لكل عمل

هذا الزراعة والحرب ، ولا يكتفى بشرح أسرار النجاح فى الأعمال الزراعية ، بل يشرح معها فن إدارة الرجل أملاكه وأملاك زوجته . ويحدثنا إسكوماكس فى أسلوب لا يكاد يقل رشاقة عن أسلوب أفلاطون كيف علم عروسه أن تعنى بمنزلها ، وتضع كل شىء فى مكانه ، وتسوس خدمها بالرفق من غير أن تختلط بهم وتفقد منزلتها فى أعينهم ، وتشتهر بين الناس لا بجمالها المصطنع ؛ بل بإخلاصها فى أداء واجباتها بوصف كونها زوجة ، وأما ، وصديقة . والزواج فى رأى إسكوماكس — أكسانوفون رابطة اقتصادية وجسمية معاً ، وهو يضمحل حين يقوم الشريك الصامت بالعمل كله . ولعل حديثه عن استعداد الزوجة الشابة لقبول هذا كله لا يعدو أن يكون أمنية يتمناها ذلك القائد الذى لم ينل نصراً ما فى ميدان البيت ؛ ولكننا لا يمنعنا مانع من أن نصدق كل شىء فى القصة إلا أن إسكوماكس قد استطاع فى لحظة وجيزة أن يقنع زوجته بترك المساحيق والأصباغ الحمراء[٢٠] .

وبعد أن شرح أكسانوفون فن الزواج أخذ يصف فى القيروپيديا (أى تربية قورش) مثله العليا فى التعليم والحكم ، كأنه يرد بها على آراء أفلاطون فى الجمهورية . وكان أكسانوفون بارعاً فى تكييف السير الخرافية لخدمة الفلسفة ، فأخذ يروى قصة خيالية عن تعليم قورش الأكبر ، وحياته ، ونظامه الإدارى ؛ وهو يجعل القصة شخصية مسرحية ، ويبعث فيها الحياة بحواره ، ويجملها بما يدخله فيها من أقدم قصص الحب فى الآداب التى كانت موجودة فى زمانه . ويكاد يغفل فى كتابه التربية الثقافية ، ويركز اهتمامه فى كيفية جعل الغلام صحيح الجسم ، قادراً ، شريفاً ؛ فالصبى يتعلم الألعاب الرياضية الخلقية بالرجال ، وفنون الحرب ، وعادة الصمت والطاعة ، ويتعلم أخيراً كيف يسيطر على مرؤوسيه سيطرة قوية قائمة على الإقناع . ويرى أكسانوفون أن خير أنواع الحكم هو الحكم الملكى المستنير الذى تؤيده وتحد منه أرستقراطية متخصصة فى الأعمال الزراعية والشئون الحربية . وهو يعجب بقوانين الفرس التى تقضى بمكافأة المحسن وعقاب المسىء[٢١] ،

ويقول لليونان ذوى النزعة الفردية: إن من المستطاع ضم كثير من المدن والدول فى إمبراطورية واحدة تستمتع بالنظام والسلم فى الداخل ، ويضرب لهم بلاد الفرس مثلا . ولقد بدأ أكسانوفون كما بدأ فليب وهو يحلم بالفتح وبسطة الملك ، وينتهى كما انتهى الإسكندر أسير حب الشعوب التى فكر فى التغلب عليها .

وهو قصاص بارع ، ولكنه فيلسوف وسط . وهو هاو فى كل شىء عدا الحرب ، يبحث فى مائة موضوع وموضوع ، ولكنه يبحث فيها على الدوام بعقلية العسكرى . وهو يبالغ فى مزايا النظام ، ولا يجد كلمة يقولها عن الحرية ؛ وفى مقدورنا أن نستدل من هذا على مقدار ما بلغه الاضطراب فى أثينة . وإذا كان القدامى قد وضعوه فى مرتبة هيرودوت وتوكيديدز ، فذلك راجع من غير شك إلى أسلوبه الذى يمتاز بصفائه الأتكى الساحر الطلى ، ونثره السلس المتدفق المنسجم الذى وصفه شيشرون بأنه « أحلى من الشهد(٢٣) » ، وإلى اللمحات الشخصية التى تكسب الموضوع حياة وإنسانية وإلى لغته ذات البساطة والثقافة التى تمكن القارئ أن يرى من خلال هذا الوسط الصافى الرأى أو الموضوع الذى يعالجه الكاتب . وإن الصلة التى بين أكسانوفون وأفلاطون من جهة وتوكيديدس وسقراط من جهة أخرى لشبيهة كل الشبه بالصلة التى بين أبليز وبركستليز من ناحية وبلجنوتس من الناحية الأخرى ... فقد بلغت أناقة الأسلوب والمهارة الفنية على أيديهما أعلى منزلتهما بعد عصر من الابتكار فى التفكير وقوة الأسلوب .

الفصل الرابع

أپلـيز

إن الذى بلغ فيه القرن الرابع إلى الذروة لم يكن الأدب بل الفلسفة والفن ؛ ذلك أن الفرد قد تحرر فيه ؛ كما تحرر فى السياسة ، من المعبد ومن الدولة ، ومن التقاليد ومن المدرسة . فلما أن حل الولاء الفردى محل الإخلاص الوطنى ، نزل فن العمارة إلى الدرجة الوسطى ، وازداد طابعه الدنيوى شيئاً فشيئاً ، واضمحل شأن تمثيليات الموسيقى والرقص وحل محلها تمثيل يقوم به أفراد محترفون ، وظل التصوير والنحت يزينان المبانى العامة بصور طرز من الآلهة أو النبلاء ، ولكنهما فى الوقت ذاته دخلا فى خدمة الأفراد الأحياء وشرعا يصورانهم حتى أصبح هذا طابع العصر الذى أعقب ذلك القرن . وإذا كانت بعض المدن قد ظلت تناصر الفن مناصرة قومية واسعة النطاق ، فما ذلك إلا لأنها كانت كمدائن نيدس ، وهليكرنسس ، وإفسوس لم تجتحها الحرب اجتياحاً تاماً ؛ أو كسراقوصة قد وجدت فى مواردها الطبيعية ونظام حكمها وسائل الانتعاش العاجل .

وأما فن العمارة فى أرض اليونان الأصلية فقد كان فى ذلك الوقت واقفاً يترقب لا يتقدم ولا يتأخر وإن كانت قد شيدت فيه بعض العمائر . من ذلك أن ليقورغ جدد فى عام ٣٣٨ بناء ملهى ديونيشيوس ، وساحة الألعاب واللوقيون ، وشاد فيلون بإشرافه دار صنعة كبيرة رائعة فى پيرية . ولما أن ازداد ميل الناس إلى الرقة والدقة فى البناء فقد الطراز الدورى جدته وانصرف الناس عنه ، لأن بساطته الصارمة لم تعد تستجيب لها النفس ، وارتفع شأن الطراز الأيونى وازداد انتشاراً ، وكان هذا فى الفن يقابل طرف پركستليز فى النحت وسحر أفلاطون فى الأدب . وأنشئ على الطراز الكورنثى « برج الرياح »

والنصب التذكارى للتمثيل فى لسكرتيز Lysicartes : وشاد أسكوپاس Scopas فى تيجيا Tegea الأركادية هيكلا لأثينا جميع فيه بين الطرز الثلاثة، فكانت فيه مجموعة من العمـــد الدورية ، وأخرى أيونية ، وثالثة كورنثية(٢٣) ، ثم جمله بالتماثيل نحتها بيده الصناع العضلية .

وكان التمثال الثالث المقام لأرتميس فى إفسوس أكبر من هـــذا وأعظم شهرة ؛ وكان التمثال الثانى قد احترق يوم ولد الإسكندر فى عام ٣٥٦ ؛ وتلك مصادفة يقول عنها فلوطرخس بظرفه المعهود إلى هجسياس المغنيزى Hegesias of Magnesia « اتخذها سبباً لغرور بلغ من البرودة حداً يكفى لإخماد النار(٢٤) » . وسرعان ما بدئ بإقامة البناء الثانى ، ولم ينته ذلك القرن حتى كان البناء قد تم . وعرض الإسكندر أن يتحمل جميع نفقات المبنى كلها إذا نقش اسمه على هذا الصرح ، وقيل إنه أقيم من ماله ؛ ولكن يونان إفسوس أبت عليهم عزة نفسهم أن يقبلوا هذا العرض ، وكانت حجتهم فى رفضه حجة لا تستطاع مقاومتها (أو لعلهم أرادوا بها هجو الإسكندر والسخرية منه) وهى أنه « لا يليق أن ينشئ إله هيكلا لإله آخر(٢٥) » . غير أن الذى حـــدث رغم هذا أن مهندس الإسكندر المقرب إليه هو الذى رسم مبنى الهيكل وجعله أكبر هياكل هلاس على الإطلاق . وقام عدد من المثالين بعمل النقوش القليلة البروز على ستة وثلاثين عموداً ، وكان من بينهم اسكوپاس الذى نرى له نقوشاً فى كل مكان فى بلاد اليونان . وفى المتحف البريطانى صفحة من أحد هذه العمد ، نحتت عليها تماثيل ، وكأنها قد قاومت عوادى الزمان لكى تثبت بما عليها من تصوير للثياب دون غيره أن فن النحت اليونانى لا يزال قريباً جداً من ذروته . وليست رؤوس التماثيل جامدة نحتت على غرار طرز حددتها التقاليد والأجيال الطوال ، ولكنها تمثل وجوها لأفراد تنبض بالشعور والمميزات الخلقية — وتبشر بالواقعية الهلنستية .

وفى الأحجام الصغيرة امتاز القرن الرابع بالتماثيل الصغيرة المصنوعة من

الأجر المحروق . وقد أضحى اسم تنجارا البؤوتية Boeotiam Tangara مرادفاً للتماثيل الصغيرة المصنوعة من الصلصال المحروق غير المزجج المصبوب على غرار طرز عامة ، ولكنه يُشكل ويلون باليد فتخرج منه آلاف من الصور الفردية التي تنبعث فيها ألوان الحياة العامة على اختلاف أشكالها . وكان يلجأ إلى التصوير فى هذا القرن كما كان يلجأ إليه فى القرون السابقة له لمساعدة غيره من الفنون . غير أنه قد أصبحت له وقتئذ كرامة ومنزلة مستقلة ، وأضحى أساتذته يستدعون لأداء أعمال فنية فى جميع أنحاء العالم اليونانى . وكان پمفيلس الأمفبلوسى Panphilus Amphipolis معلم أپليز يرفض أى تلميذ لا يبقى عنده اثنتى عشرة سنة كاملة ، وكان يطلب ما يعادل ستة آلاف ريال أمريكى لتدريس المنهج . وقد أدى ناسونMnason طاغية إلاتيه اللكرية Locrian Elatea عشر مينات أجراً عن كل صورة من المائة الصورة فى منظر واقعة حربية رسمه أرستيديز الطيبى ، وبذلك حصل هذا الرسام على مائة ألف ريال أمريكى أجراً لرسم منظر واحد وهذا الطاغية المتحمس نفسه وهب اسكلپيودورس ما يعادل ٣٦٠٫٠٠٠ ريال أمريكى أجراً للوحة صور عليها الاثنا عشر الكبار من الآلهة الأولمبية . ودفع ما يعادل ١٢٫٠٠٠ ريال أمريكى ثمناً لنسخة ثانية من الصور الملونة التى رسمها پوسياس السشيونى لجلسيرا عشيقة مناندر[٢٦] . ويقول پلنى إن صورة من عمل أپليز كانت تباع بثمن يعادل ما فى خزائن مدائن بأجمعها[٢٧]

ويقول هذا الهاوى المتحمس نفسه أن « أپليز القوسى فاق كل من عداه من المصورين السابقين واللاحقين ، وإنه بمفرده أفاد فن التصوير كما لم يفده جميع المصورين مجتمعين[٢٨] » . وما من شك فى أن أپليز كان أعظم أهل فنه وأهل زمانه ، ولولا ذلك لما استطاع أن يسرف هذا الإسراف النادر فى مدح غيره من المصورين ؛ من ذلك أنه لما علم أن پروتجنيز أكبر منافسيه يعيش فى فقر مدقع ، سافر إلى رودس لزيارته . ولم يكن پروتجنيز فى مرسمه حين أقبل أپليز

لأن أحداً لم ينبئه بهذه الزيارة . وقابلت الزائر خادم عجوز وسألته عن اسمه لتبلغه إلى سيدها بعد أن يعود . فما كان جواب أبليز إلا أن أخذ فرشاة ورسم على لوحة إطارا غاية فى الدقة بجرة واحدة . ولما عاد پروتجنيز وأخبرته الخادم العجوز أنها تأسف لأنها لا تستطيع أن تخبره باسم زائره ، ثم اطلع على الأطار وشاهد دقته ، صاح قائلا : « إن أحداً لا يستطيع رسم هذا الإطار إلا أبليز » . ثم رسم فى داخله إطاراً أدق منه وأمر المرأة أن تطلع عليه الزائر الغريب إذا عاد ، وعاد أبليز فعلا ودهش من حذق پروتجنيز الغائب ، ولكنه رسم بين الإطارين إطاراً ثالثاً بلغ من الرقة والرشاقة حداً لم يسع پروتجنيز معه حين رآه إلا أن يعترف أن منافسه قد غلبه ، ثم أسرع إلى الميناء ليستبق أبليز ويرحب به . وانتقلت هذه الآية الفنية من جيل إلى جيل حتى اشتراها يوليوس قيصر ، ثم احترقت فى النار التى دمرت قصره القائم على تل البلاتين . وتاقت نفس أبليز إلى أن يوقظ فى العالم اليونانى الاهتمام بپروتجنيز وتقدير قيمته فسأله أن يخبره كم من المال يطلب ثمناً لبعض رسومه ، ولما طلب پروتجنيز مبلغاً متواضعاً عرض عليه أبليز بدلا منه خمسين وزنة (٣٠٠,٠٠٠ ريال أمريكى) ، ثم أذاع أنه سيبيع هذه الرسوم زاعماً أنها من صنع يده . وكان هذا الإعلان سبباً فى أن أهل رودس قدروا عمل فنانهم خيراً من ذى قبل فدفعوا إلى پروتجنيز أكثر مما عرضه عليه أبليز واحتفظوا بالصور بين كنوز مدينتهم[٢٩] .

وكان أبليز فى هذه الأثناء قد نال إعجاب العالم اليونانى كله بصورة أفرديتى أنديوميني Aphrodite Anadyomene أى أفروديتى الخارجة من البحر . وأرسل الإسكندر فى طلبه وعرض عليه أن يرسمه فى مواقف كثيرة . ولم تعجب الشاب الفاتح صورة لجواده بسفالس Bucephalies فى أحد هذه الرسوم ، وأمر بأن يقرب الجواد من الصورة ليوازن بينه وبينها ، فلما نظر الجواد إلى صورته صهل ، فقال أبليز للإسكندر « يلوح أن جواد

جلالتك يعرف عن التصوير أكثر مما تعرف »[٣٠] . وكان الملك فى مرة أخرى يتحدث عن الفن فى رسم أپليز ، فرجاه الفنان أن ينتقل إلى موضوع آخر حتى لا يسخر منه الغلمان الذين يسحقون الألوان ، ولم يغضب الإسكندر من هذا القول . ولما أن استخدم الفنان فى تصوير حظيته المحبوبة ، وشغف بها أبليز أهداها إليه الملك[٣١] . وكان أپليز يغطى صوره بعد الفراغ منها بطبقة رقيقة من الطلاء ، تحفظ الألوان ، وتخفف من بريقها ولكنها تجعلها أكثر بهجة وإمتاعاً من ذى قبل . وظل أپليز يعمل إلى آخر أيامه ووافته المنية وهو يعمل مرة أخرى فى تخطيط صورة أفروديتى الخالدة .

الفصل الخامس

پركستليز

وكانت خير آيات النحت فى ذلك العصر وأعظمها روعة هى الضريح الذى أقيم لموسولوس Mausolus ملك هليكرنسس. وكان موسولوس مرزبانا من مرازبة الفرس بالاسم ، ولكنه بسط سلطانه على كاريا Caria وأجزاء من أيونيا وليشيا Lyocia ، واستخدم موارده الكبيرة فى إنشاء أسطوله وتجميل عاصمته . ولما مات (٣٥٣) أقامت أخته وهى أيضا زوجته مباراة شهيرة فى الخطابة تكريما له ، واستدعت أشهر الفنانين اليونان ليشتركوا فى إقامة ضريح يكون تذكاراً جديراً بعبقريته . وكانت ملكة بطبعها كما كانت بزواجها . ولما أن اغتنم أهل رودس فرصة موت الملك وغزوا كاريا غلبتهم بحيلها واستولت على أسطولهم وعاصمة بلادهم ، وما لبثت أن أملت شروطها على أولئك التجار الأثرياء[٣٢] . ولكن حزنها على وفاة موسولوس هد ركنها فلم تعش بعده أكثر من عامين ، قبل أن يتم الضريح الذى صار فيما بعد حديث الناس كلهم فى بلاد[*] الغرب . وكان اسكوپاس ، وليوكاريز Leochares ، وبريكسيس Bryaxis ، وتمثيوس يعملون فى جد وأناة لإقامة ضريح رباعى الشكل من ألواح من الرخام الأبيض فوق قاعدة من الآجر ، ويغطونه بسقف هرمى ، ويزينونه بستة وثلاثين عموداً ، وبطائفة كبيرة من التماثيل الصغيرة والنقوش . وقد عثر الإنجليز فى خرائب هليكرنسس عام ١٨٥٧ على تمثال لموسولوس يمثل مرة أخرى كفاح اليونان مع المحاربات الخرافيات الأمزونيات . ويعد هذا النقش وما فيه من رجال

(*) وهما الآن المتحف البريطانى .

ونساء وجياد من أعظم روائع العالم كله فى النقش القليل البروز وليست الأمزونيات التى به نساء مسترجلات خلقن للحرب ، بل هن نساء ذوات جمال شهوانى ، ما أخلقهن بأن يثرن فى اليونان عواطف أرق من عاطفة الحرب . وقد أضحى هذا الضريح هو وهيكل إفسوس الثالث من عجائب العالم السبع .

وبلغ فن النحت وقتئذ ذروة مجده من نواح كثيرة . نعم إنه كان ينقصه الحافز الدينى ، ولم يبلغ ما بلغته قواصر البرثنون من جلال وقوة ، ولكنه استمد إلهاما جديدا من الرشاقة النسوية ، وبلغ من الجمال ما لم يبلغه ذلك الفن قبل هذا الوقت أو بعده . لقد صور القرن الخامس رجالا عراة ، ونساء مكتسيات ، أما القرن الرابع فقد آثر أن ينحت نساء عاريات ورجالا مكتسين ؛ وجعل القرن الخامس نماذجه مثلا عليا يحتذى الفنانون حذوها ولا يحيدون عنها ، وصبوا أو نحتوا حياة الإنسان الشقية فى صورة خلائق مجردين من العواطف يستريحون من عناء تلك الحياة وشئونها ؛ أما القرن الرابع فقد حاول فنانوه أن يمثلوا فى الحجر شيئاً من الفردية والإحساسات البشرية . وأضحت للرأس والوجه فى صور الرجال أهمية أكثر مما كان لها من قبل ، وقلت أهمية الجسم نفسه ، وحلت دراسة الأخلاق محل عبادة القوة العضلية ، وتسابق كل من كان ذا مال على أن تكون له صورة من حجر ؛ وتحرر الجسم من وضعه الجامد المعتدل ، وصار يتكئ مستريحا على عصا أو شجرة ؛ ومُثل فيه التفاعل الحى للضوء والظل . وقد بلغ من حرص ليسستراتس السكيونى على أن يكون واقعياً إلى أقصى حد ، أن كان يعمل غلافا من الجص فوق وجه الشخص المراد تصويره ، ويصب فيه القالب المبدئى ، ولعله كان أول من فعل هذا من اليونان(٣٣) .

وبلغ تمثيل جمال الجسم ورشاقته حد الكمال على يدى پركستليز . والعالم كله يعرف أنه أحب فيرينى Phyrene ، وأنه صور جمالها تصويراً مخلداً ، لكن أحداً من الناس لا يعرف متى ولد هذا الفنان أو متى توفى . وكان

ابنا وأبا لمثالين يعرفان باسم سفسدوتس Cephissdotus ، ولذا يحق لنا أن نقول إنه يمثل أعظم ما بلغته تقاليد أسرة من الفنانين المجدين الصابرين . وكان يعمل فى البرنز والرخام على حد سواء ، وبلغ من شهرته أن كانت اثنتا عشرة مدينة تتنافس للحصول على خدماته ؛ منها كوس التى عهدت إليه فى عام ٣٦٠ أن ينحت لها تمثالا لأفروديتى ، فنحت لها هذا التمثال بمساعدة فريني ، ولكن الكوسيين ساءهم أن وجدوا الإلهة مجردة من الثياب ، فما كان من بركستليز إلا أن هدأ ثورة غضبهم بأن صنع لها تمثالا آخر مكتسيا ، وابتاعت نيدس التمثال الأول . وعرض نكومديز ملك بيثيا على نيدس أن يبتاع هذا التمثال بكل ما على المدينة من ديون ، ولكن نيدس آثرت المجد الخالد على العرض الزائل . وأقبل السياح من جميع بلاد البحر الأبيض المتوسط ليشاهدوا التمثال ، وحكم الخبراء على أنه أجمل تمثال صنع حتى ذلك الوقت فى بلاد اليونان كلها ، وقال الثرثارون إن الرجال كانت تستثار عواطفهم إلى حد الجنون حين يشاهدون هذا التمثال(٣٤)(*).

وكما أذاع تمثال أفروديتى شهرة نيدس فى الخافقين ، وكذلك اجتذبت بلدة ثسپيا الصغيرة إحدى بلاد بؤوتية مسقط رأس فريني السائحين ، لأن فريني وقد وضعت فيها تمثالا لإيروس (الحب) من نحت بركستليز . ذلك أنها سألته يوما ما أن يقدم لها برهانا على حبه أجمل تمثال فى منحته ، وأراد أن يترك لها الخيار ؛ ولكن فريني أرادت أن تكشف بنفسها عن تقديره لأعماله ، فهرولت إليه فى يوم من الأيام وأخبرته أن منحته يحترق ؛ فلما سمع هذا النبأ صاح قائلا ؛ إن كان تمثال جنى الغاب وتمثال إيروس قد احترقا فيا لهول النكبة(٣٥) »

(*) وفى متحف الفاتيكان صورة تطابق صورة هذا التمثال المنقوشة على النقود النيدية التى عثر عليها فى أنقاض المدينة .

واختارت فريني من فورها تمثال إيروس وأهدته إلى مسقط رأسها(*) . وكان إيروس في أول أمره إله هزيود Hesiod وخالقه ، ثم استحال تفكير بركستليز شابا حالما رقيقاً ، يرمز إلى سلطان الحب على النفوس ؛ ولم يكن قد أصبح بعد كيوبد Cupid اللعوب الخبيث الذى نعرفه فى الفنين : الهلينستى والرومانى .

ولعل تمثال جِنِّى الغاب المحفوظ فى متحف الكبتولين برومة والمعروف باسم إله الحقول والرعاة الرخامى صورة من التمثال الذى فضله بركستليز عن تمثال إيروس . ويظن بعضهم أن جذع التمثال المحفوظ فى متحف اللوفر جزء من التمثال الأصلى نفسه(٣٦) . وتمثال الجنى يصوره فى صورة غلام متين البنية مبتهجا سعيدا ، ليس فيه من جسم الحيوان إلا أذناه الطويلتان القائمتان ؛ وهو يتكئ متراخيا على جذع شجرة وقد لف إحدى قدميه بالأخرى . وقل أن نجد فى الرخام تمثيلا أصدق من هذا للراحة الكاملة . فأنت ترى تراخى الحدوثة الساحر باديا فى الأطراف المرتخية والوجه المطمئن الواثق . وربما كانت الأطراف مستديرة ناعمة فوق ما يجب أن تكون ؛ وذلك لأن بركستليز لم يستطع لطول نظره إلى فريني أن يمثل الرجال تمثيلا صادقاً . ويؤيد ذلك أن تمثال أبلو قاتل العظايا Apolls Sauroctomus نسائى إلى حد يكاد يحملنا على أن نضمه إلى تماثيل المخنثين الكثيرة بين التماثيل الهلينستية .

ويقول بوسنياس فى عبارة موجزة إيجازاً يؤسف له إن من بين تماثيل هيرايوم Heraeum فى أولمبيا تمثالا « من الحجر لهرمس يحمل ديونيشس من عمل بركستليز(٣٧) » . وبينا كان علماء الآثار الألمان ينقبون فى هذا

(*) وأمر نيرون فجيء به إلى رومة ، حيث أحرق فى النار التى شبت فى عام ٦٤ م وقد يكون تمثال كيوبيد السنتوسلى Cupid of Centocelle المحفوظ فى الفاتيكان صورة منقولة عنه

المكان عام ١٨٧٧ إذ توجت جهودهم بالعثور على هذا التمثال مطموراً فى طبقات من الأقذار والطين ظلت تتراكم عليه عدة قرون . وليس فى وسع القارئ أن يتخيل صورة حقيقية له من وصفه ، وصوره الشمسية، والنماذج التى تعمل له ، بل على الإنسان أن يقف خاشعاً أمامه فى متحف أولمبيا الصغير ، ويمر بإصبعه خلسه على سطحه لكي يدرك ما فى نسيج هذا اللحم الرخامى من نعومة وحياة ، أما موضوعه فهو أن الإله الرسول قد عهد إليه إنقاذ الطفل ديونيشس من غيرة هيرا وحمله إلى بحور الغابات والبحيرات ليربينه فى السر . ويقف هرمس فى الطريق ، ويضطجع على جذع شجرة ويمسك بعنقود من العنب أمام الطفل . وليس تمثال الطفل نفسه جيد الصقل، كأن تمثال الإله الأكبر قد استنفد جميع وحي الفنان . وقد ضاعت ذراع هرمس اليمنى وأعيدت إليه بعض أجزاء من الساقين ، أما بقية الجسم فيبدو أنها هى كما صاغتها يد المثال . وتكشف الأطراف المتينة ويكشف الصدر العريض عن قوة الجسم وصحته ، والرأس فى حد ذاته آية فنية رائعة بجماله الأرستقراطي ، ومعارفه الرقيقة وشعره المنثنى ، والقدم اليمنى قد بلغت درجة الكمال حيث يندر الكمال فى التماثيل . وكان الأقدمون يعدون هذا التمثال من أعمال الفنان الصغرى ، وفى وسعنا أن نحكم من هذا على مقدار ما كان يمتاز به هذا العصر من ثروة فنية عظيمة .

ويصف پوسنياس(٣٨) فى فقرة أخرى بجموعة رخامية أقامها پركستليز فى منتينيا . ولم يعثر المنقبون إلا على قاعدة هذه المجموعة ، تحمل تماثيل لثلاث من ربات الفن لعل الذين نحتوها هم التلاميذ لا الأستاذ نفسه . وإذا جمعنا ما فى پوسنياس من إشارات إلى تماثيل پركستليز فى الكتابات اليونانية التى كانت موجودة فى أيامه ، خرجنا منها بنحو أربعين من الأعمال الكبرى(٣٩)، وما من شك فى أن هذه الأربعين لم تكن إلا جزءاً من إنتاجه العظيم . ونحن إذا درسنا القطع الباقية من هذه الأعمال نجد فيها ما نجده فى تماثيل فدياس

من سمو وقوة وهيبة وإجلال ، وترى الآلهة قد أخلت مكانها لفيرينى ، وترى مشاكل الحياة القومية الكبرى قد أغفلت ليحل محلها الحب الفردى . ولكن ما من مثال قد فاق پركستليز فى دقه الصياغة ، وفى قدرته التى تكاد تبلغ حد الإعجاز على أن يمثل فى الحجر الصلب الراحة والرشاقة ، وأرق العواطف وبهجة الحواس ، والاستمتاع بالغابات . لقد كان فدياس فناناً دورياً وأما بركستليز فكان أيونياً ، وإنا لنجد فيه مرة أخرى ما ينذر بغزو أوربا الثقافى الذى أعقب انتصارات الإسكندر .

الفصل السادس

اسكوپاس وليسبوس

لقد كان اسكوپاس لبيرن Byron كما كان فدياس لملتن وپركستليز لكيتس Keats . ولسنا نعرف شيئاً عن حياة المثال القديم إلا من أعماله ، وهى الترجمة الحقة لأى إنسان ؛ ولكننا لا نعرف أعماله نفسها معرفة أكيدة موثوقاً بصحتها . وإن الرؤوس القصيرة الممتلئة المنفرة للتماثيل المعزوة له ، أو النسخ التى يقال إنها منقولة عن التماثيل الأصلية ، لتظهره فى صورة الرجل المسرف فى قوته وفى نزعته الفردية . ولقد سبق القول إنه كان يعمل فى تيجيا مهندساً معمارياً ومثالا معاً ، وإنه لا يفوقه فى قوته وتعدد كفاياته أحد فى جميع القرون التى بين فدياس وميكل أنچلو . وكل ما عثر عليه المنقبون من أعماله قطع قليلة من قوصرة ، أهمها رأسان أصيبا بكثير من التلف يمتازان بقصرهما وعرضهما واستدارتهما وبالنظرة العابسة الجافة ، وهى الصفات الغالبة على جميع أعمال اسكوپاس ، ومنها تمثال مهشم لأطلنطا . ويشبه هذه البقايا شبهاً عجيباً رأس ملياجر Meleager المحفوظ فى بيت مديشى برومة . وفى هذا الرأس أيضاً نرى الخدين الممتلئين ، والشفتين الشهوانيتين ، والعينين المكتئبتين ، والجبهة ذات الحافة البارزة بروزاً قليلا فوق الأنف ، والشعر الملوى الأشعث بعض الشىء ؛ ولعل هذا التمثال نسخة رومانية من تمثال ملياجر الذى نحته اسكوپاس ليكون جزءاً من مجموعة تمثل منظر صيد كلدونى . وفى متحف نيويورك الفنى رأس آخر لا نكاد نشك فى أنه من صنع اسكوپاس ، أو منقول عن رأس من صنعه ؛ وهو قوى بليد ولكنه وسيم ذكى ، وهو أصدق الرؤوس تمثيلا لما بقى من آثار النحت فى العصور القديمة .

ويقول پوسنياس[٤٠] إن اسكوپاس قد «صَبَّ» فى «إليس» تمثالا من الشبه لأفروديتى الپنديمية جالسة فوق جَدْى من الشبه». ونحت فى سيكون تمثالا رخامياً لهرقليز لعل النسخة الرومانية المحفوظة فى بيت لانسدون بلندن منقولة عنه مباشرة. وجسم التمثال يدل على النكسة الفنية والعودة بالفن إلى الطراز العضلى اليولكيتى، والرأس صغير مستدير كالعادة، والوجه يكاد يبلغ من الرقة وجوه تماثيل پركستليز. وقد أقام فى ميغارا، وأرجوس، وطيبة، وأثينة ما يكفى من الوقت لنحت تماثيل شاهدها پوسنياس بعد خمسة قرون من ذلك الوقت، ولعله قد اشترك فى تجديد بناء معبد أپلدورس. وعبر بعدئذ بحر إيجة ونحت لنيدس تمثالين لأثينا وديونيشس، وكان له شأن كبير فى أعمال النحت التى احتاجها بعض الأعمدة فى هيكل إفسوس. وفى برجموم Bergamum نحت تمثالا ضخما لآريس Ares يمثله جالساً؛ وفى كريسا فى أرض إطروادة أقام تمثالا لأپلوسمنثيوس Apollo Smintheus ليخيف الجرزان ويطردها من الحقول. وأقام فى سمثريس Samothrace تمثالا لأفروديتى كان من أسباب شهرتها العظيمة، ونحت فى بيزنطية البعيدة تمثالا لكاهنة باكس Bacchante ربما كان التمثال المحفوظ فى متحف البرتنوم بدرسدن والمعروف باسم ميناد الغامضة نسخة رومانية منه. وإن هذا التمثال الرخامى الصغير وحده لخليق بأن يرفع صانعه إلى مرتبة الفنانين العظام؛ فهو تمثال قوى النحت، فخم الثياب، فذ فى وقفته، حى فى غضبه، وجميل من كافة نواحيه. ويشير پلنى إلى تماثيل أخرى كثيرة من صنع اسكوپاس كانت فى أيامه قائمة فى قصور رومة. منها تمثال لأبلو يرجح أنه هو الذى نقل عنه تمثال أبلو ثيسارودس Apollo Citharoedus المحفوظ فى الفاتيكان؛ ومجموعة تماثيل لپسيدن، وثيتيس، وأخيل، ونرپديز، وهى كما يقول پلنى آية فى دقة الصنع حتى لو أن صاحبها قد قضى حياته كلها فى إتمامها؛ ومنها تمثال لأفروديتى عارية يكفى وحده لأن يذيع شهرة أية مدينة[٤١]».

وملاك القول أن هذه الأعمال ، إذا جاز لنا أن نصدر حكماً على صاحبها يستند إلى بقايا قليلة ظنية ، توحى بأن لاسكوپاس منزلة تقرب جداً من منزلة پركستليز . فهو يمتاز بالابتكار فى غير إسراف ، والقوة فى غير غلظة ، وبالتمثيل المسرحى للنوازع والعواطف والمزاج ، دون أن تشوه هذه كلها شدةٌ متكلفة . لقد كان پركستليز يعشق الجمال ، أما اسكوپاس فكان ينجذب نحو الخلق ، وكان پركستليز يرغب فى الكشف عن الرشاقة والحنان فى النساء ، وعن الصحة المبهجة والمرح فى الشباب ؛ أما اسكوپاس فقد اختار أن يمثل آلام الحياة ومآسيها ، ورفع من شأنها بهذا التمثيل الغنى البديع . ولو أننا كان لدينا من أعماله أكثر مما عثرنا عليه منها لما فضلنا عليه أحداً غير فدياس .

حسبنا هذا عن اسكوپاس ، أما ليسپوس السيكونى فقد بدأ حياته صانعاً وضيعاً فى النحاس ، وكان يتوق إلى أن يكون فناناً ، ولكنه لم يكن لديه من المال ما يمكنه من أن يتتلمذ على معلم . غير أنه تشجع حين سمع يوپومس المصور يعلن أنه يفضل محاكاة الطبيعة نفسها عن محاكاة أى فنان مهما يكن قدره(٤٢) . فلما سمع ليسپوس هذا القول اتجه من فوره إلى دراسة الكائنات الحية ، ووضع قانوناً جديداً للنسب فى فن النحت ليستعيض به عن قاعدة پلكليتس الصارمة ؛ فأطال الساقين وقصر الرأس ، وزاد من نحافة الأطراف ، وخلع على الصورة كلها كثيراً من الحيوية والراحة . ومن أعماله تمثال أپكسيومنوس Apxyomenos وهو صورة لتمثال ديامنوس ، تختلف عنها من بعض الوجوه . فرجل پلكليتس الرياضى يربط عصابة فوق جبينه ، أما ليسپوس فيزيل الزيت والغبار عن ذراعه بمكشط ، ويبدو فيها أكثر نحافة ورشاقة . وأكثر من هذا التمثال جاذبية وحيوية ، إذا جاز لنا أن نستند فى حكمنا إلى الصورة الرخامية المحفوظة فى متحف دلفى ، تمثال أچياس Agias الشاب التسالى النبيل . ذلك أن ليسپوس لم يكد يتحرر من القيود حتى أخذ يشق طريقه فى ميادين فنية جديدة ، فاستبدل تصوير الفرد بتصوير

الطراز ، والنزعة الانطباعية بالعرف والتقاليد(*) .

وكاد هو أن يبتدع النحت المصوَّر عند اليونان . وقد قطع فليب حروبه وعشقه ليجلس أمام ليسپوس لينحت له تمثالا ؛ وسر الإسكندر من التماثيل النصفية التي نحتها له الفنان سروراً جعله يختاره دون غيره مثاله الملكي الرسمي ، كما منح من قبل أپليز وحده حق تصويره وإلى پرجتليز حق نقش هذه الصور على الجواهر .

وثمة طائفة من أجمل التماثيل التي خلفها القرن الرابع فى فن النحت لا يعرف من صنعها : منها تمثال من الشبه لشاب عثر عليه فى البحر قرب مرثون ، ومنها نسخة قديمة لتمثال هرمس الأندرشي الذى صنع فى القرن الرابع ، وتمثال رقيق لهيجيا المفكرة عثر عليه فى تيجيا(**) — وكل هذه التماثيل فى متحف أثينة ، وفى متحف بسطن رأس فتاة من طشيوز غاية فى الجمال . ومن آثار هذا العصر ، بقدر ما وصل إليه علمنا ، معظم تماثيل نيوبى التي نقلت إلى رومة من آسية الصغرى فى أيام أغسطس ، والتي نراها الآن موزعة فى متاحف أوربا . وربما كان من آثار هذا العهد أيضاً التماثيل الأصلية الثلاثة من تماثيل أفرديتى التي تعزى إلى پركستليز : وهي تمثال ڤينوس المفكرة الذى جيء به من كپوا Capua والمحفوظ فى متحف نابلى ، وتمثال ڤينوس المضطجعة المحفوظ فى متحف الفاتيكان

(*) يقول ليسپوس ، فى عبارة لو شمها مانت Manet لسر منها أيما سرور ، إن غيره من المثالين يصورون الرجال كما هم أما هو فإنه يصورهم « كما يبدون للناظر (٤٣) » .

(**) وقد سرق هذا الرأس الجميل الذى يرى القارئ صورته فى الصفحة الأولى من الجزء الأول من هذا المجلد ، من متحف تيجيا الصغير ، ثم عثر عليه بعد بحث دام تسع سنين اسكندر فيلدلفيوس Alexauder Philadelpheus أمين المتحف القومى بأثينة فى هرى قمح بقرية من قرى أركاديا . وموضوع التمثال والعصر الذى صنع فيه غير معروفان على وجه التحقيق ، ولكن طرازه البركستيلى يرجعه فى ظننا إلى القرن الرابع . ويرى السيد فيلدلفيوس الخبير الجواد أنه « درة تاج المتحف القومى » .

وتمثال ڤينوس أرلوس المتواضع المحفوظ فى متحف اللوفر . وأعظم من هذه كلها من ناحية الجمال الناضج ، وعمق الشعور الهادئ ، تمثال دمتر الجالس الذى عثر عليه فى نيدس عام ١٨٥٨ ، والذى يعد الآن من أروع التحف المحفوظة فى المتحف البريطانى . ولسنا نعرف موضوع التمثال على وجه التحقيق ، ولعله لا يعدو أن يكون أجمل صورة جنازية وصلت إلينا من العهود القديمة ، أو لعله يمثل إلهة التلال فى صورة الأم الحزينة Mater dolorose ؛ تتحسر وهى صامتة على اغتصاب پرستونى . وقد مثلت العاطفة هنا فى غير إسراف كما كان المثالون يفعلون فى العصر الذهبي ؛ ويبدو فى الوجه والعينين حنو الأمومة كله واستسلامها الصامت . وهذا التمثال مضافاً إلى تمثال هرمس ، لا تماثيل أفروديتى المتحبية المستعطفة ، هى روائع النحت الحية وآياته الخالدة التى أنتجتها بلاد اليونان فى القرن الرابع قبل الميلاد .

الباب الحادي والعشرون

العصر الذهبي للفلسفة

الفصل الأول

العلماء

إذا وازنا بين حال العلم فى القرن الرابع وبين الخطوات الجريئة التى خطاها إلى الأمام فى القرن الخامس ، وبالانقلاب الثورى الذى حدث فيه فى القرن الثالث ، حكمنا من فورنا بأنه كان فى هذا القرن الأوسط فى حالة ركود ، وأنه قنع فى معظم الأحوال بتسجيل ما تجمع له فى القرن السابق . فقد كتب أكسانوقراطيس Xenocrates تاريخاً للهندسة ، وكتب ثاوفرسطوس تاريخاً للفلسفة الطبيعية ، وكتب مينون Menon تاريخاً للطب وأوديموس Eudemus وتواريخ الحساب ، والهندسة ، والفلك[1] . وبدا لعلماء ذلك العصر أن المسائل الدينية والأخلاقية والسياسية أكثر أهمية وأولى بالدرس من مشاكل الطبيعة ، فتحول الناس مع سقراط من دراسة العالم المادى دراسة موضوعية إلى البحث فى أحوال النفس وشئون الدولة .

وكان أفلاطون يحب العلوم الرياضية فغمر فيها فلسفته إلى أعماق بعيدة ، وجعلها شغل المجتمع العلمى ، وكاد فى سراقوصة أن يهب لها مملكة بأسرها . لكن الحساب كان فى نظره نظريات فى الأعداد تتصف بالكثير من الغموض ؛ ولم تكن الهندسة هى قياس الأرض ، بل كانت تدريباً عقلياً ، خالصاً ، وطريقاً يصل به العقل إلى الله . ويحدثنا فلوطرخس عن « غضب » أفلاطون من أودكسوس

Eudoxus وأرخيتاس Archytas لأنهما قاما بتجارب فى الميكانيكا « فأفسدا الشيء الوحيد الطيب فى الهندسة ، وقضيا عليه قضاء مبرماً ، وأبعداه بطريقة مخجلة يجللهما العار من المسائل العقلية الخالصة غير المجسمة إلى المحسوسات ، واستعانا على عملهما هذا بالمادة » . ويقول فلوطرخس بعد ذلك : « إن الميكانيكا قد انفصلت بهذه الطريقة عن الهندسة ، وأنكرها الفلاسفة وأهملوا أمرها ، فأصبحت من فنون الحرب(٢) » . على أن أفلاطون رغم هذا قد قدم للعلوم الرياضية بطريقته العقلية المجردة أجل الخدمات ؛ فأعاد تعريف النقطة وقال إنها مبدأ الخط(٣) ، ووضع قاعدة لإيجاد الأعداد المربعة التي هى مجموع مربعين(٤) ، واخترع التحليل الرياضى أو ارتقى به(٥) ، ونعنى بالتحليل الرياضى البرهنة على صحة قضية أو خطئها بالنظر إلى النتائج التي يؤدى إليها الأخذ بها ؛ وليست طريقة إقامة البرهان بنقض نقيضه إلا صورة من هذه الطريقة . وكان الاهتمام بالرياضيات فى منهاج المجمع العلمى عوناً كبيراً للعلوم الطبيعية ، ولو لم يؤد هذا الاهتمام إلا لتدريب تلاميذ مبتكرين أمثال أودكسوس النيدى(*) ، وهرقليدس البنتى(*) ، لكفاه فضلا .

وعمل أرخيتاس صديق أفلاطون على ترقية رياضيات الموسيقى ، وضاعف المكعب ، وكتب أول رسالة معروفة فى الميكانيكا . هذا إلى أنه اختير حاكما لمدينة تاراس Taras سبع مرات ، وكتب عدة بحوث فى الفلسفة الفيثاغورية . ويعزو إليه الأقدمون ثلاثة اختراعات عظيمة الخطر — البكرة وطارة السير ، واللولب ، (والخشخيشة) . وكان الاختراعان الأولان أساس الصناعة الآلية ؛ أما ثالثهما فيقول عنه أرسطاطاليس فى كثير من الجد والوقار « إنه هيأ للأطفال

(*) Eudoxus of Cnidus ، Heracleides of Pontus

عمـلا يشغلون به أنفسهم فتمنعهم بذلك أن يحطموا ما فى البيت من أدوات(٦) » . وفى هذا العصر نفسه « ربع » دينوستراتس Dinostratus « الدائرة » باستخدام القوس الذى يمكن به إيجاد الخطوط المستقيمة المساوية لمحيطات الدوائر أو غيرها من المنحنيات. ووضع أخوه مينكموس Menaechmus أحد تلاميذ أفلاطون ، أساس هندسة القطاعات المخروطية(*)، وضاعف المكعب ، ووضع قاعدة التكوين النظرى للخمسة الأجسام الصلبة المنتظمة(**) ، وصاغ نظرية الأعداد الصماء ، وأورث العالم تلك العبارة المشهورة ، وهى قوله للإسكندر : « أيها الملك إن ثمة طرقا للملوك وأخرى لعامة الشعب يسافرون عليها فى أقطار الأرض ؛ أما الهندسة فليس فيها إلا طريق واحد يسلكه جميع الناس(†) (٨) » .

وأعظم رجال العلم فى القرن الرابع هو أودكسوس الذى أعان پركستليز على تخليد اسم نيدس فى التاريخ . وقد ولد فيها حوالى عام ٤٠٨ ، وشرع وهو فى الثالثة والعشرين من عمره يدرس الطب مع فلستيون Philistion فى لكرى Locri ، والهندسة مع أرخيتاس فى تاراس ، والفلسفة مع أفلاطون فى أثينة . وكان لفقره يعيش معيشة ضنكاً فى پيرية ، ويسير منها على قدميه إلى المجمع العلمى فى كل يوم من أيام الدراسة . وبعد أن

(*) عرف اليونان القطاعات المخروطية بأنها الأشكال — القطع الناقص ، والقطع المكافئ ، والقطع الزائد — التى تنتج من قطع مخروط ذى زوايا حادة ، وزوايا قائمة ، وزوايا منفرجة بسطح عمودى عليه . وتضيف العلوم الرياضية الحديثة إلى هذه الأجسام الدائرة والخطوط المتقاطعة .

(**) وهما الهرم الثلاثى المنتظم ، والمكعب (ذو الستة الأوجه المنتظم) ، والمثمن المنتظم ، وذو الأثنى عشر وجها المنتظم ، وذو العشرين وجها المنتظم — وهى الأجسام الصلبة المحدبة التى تحدها أربعة سطوح منتظمة ، أو ستة ، أو ثمانية ، أو اثنا عشر سطحا أو عشرون .

(†) كان لفظ الطرق الملكية يطلق عادة على الطرق العظمى التى أنشئت فى الإمبراطورية الفارسية . وتعزى هذه القصة أيضا إلى إقليدس وبطليموس الأول(٨) .

أقام زمنا ما فى نيـــدس سافر إلى مصر وقضى فيها ستة عشر شهراً يدرس الفلك على كهنة عين شمس ثم نجده بعد ذلك فى سيزقوس البربوپنثية Proportin Cyz'cus يحاضر فى العلوم الرياضية . ولما بلغ الأربعين من عمره انتقل هو وتلاميذه إلى أثينة وافتتح فيها مدرسة لتعليم العلوم الطبيعية والفلسفة ، ونافس أفلاطون وقتاً ما . ثم عاد آخر الأمر إلى نيدس وأقام فيها مرصدا ، وعهد إليه أن يضع للمدينة طائفة من القوانين[٩] .

وقد وضع فى الهندسة عدة مبادئ أساسية ، فهو الذى وضع نظرية النسبة ومعظم الفروض التى انتقلت إلينا فى الكتاب الخامس من كتب إقليدس ، وهو الذى اخترع طريقة إفناء الفرق التى أمكن بها إيجاد مساحة الدائرة وحجم الكرة ، والهرم ، والمخروط ، ولولا هذا لكان عمل أرشميدس المبدئى مستحيلا . ولكن العلم الذى وهب له أودكسوس معظم جهوده هو علم الفلك . ونستطيع أن نلمح روح العالم فى قوله إنه يسره أن يحترق كما احترق فيتون إذا استطاع بهذا أن يكشف عن طبيعة الشمس وحجمها وشكلها[١٠] . وكان لفظ التنجيم Astrology يستعمل فى ذلك الوقت ليشمل ما نسميه الآن علم الفلك Astronomy ، ولكن أودكسوس أشار على تلاميذه أن يغفلوا نظرية الكلدانيين القائلة إن مستقبل الإنسان يمكن التنبؤ به بالنظر فى مواقع النجوم وقت مولده . وكان شديد الرغبة فى أن يرجع جميع الحركات السماوية إلى قوانين ثابتة ، ووضع فى كتابه الفينومينا Fhainomena — الذى يعده الأقدمون أعظم ما كتبوه فى علم الفلك — أساس التنبؤات الجوية .

(*) وكان من المسائل المحببة له مسألة إيجاد « القطاع الذهبى » أى أن يقسم الخط فى نقطة بحيث تكون النسبة بين الخط كله وجزئه الأكبر ، كالنسبة بين هذا الجزء الأكبر والجزء الأصغر .

وأخفقت أشهر نظرياته إخفاقاً باهراً . فقد قال إن العالم يتكون من سبع وعشرين دائرة شفافة لا تراها العين لشفيفها تدور فى اتجاهات مختلفة وبسرعات متباينة حول مركز الأرض ، وإن الأجرام السماوية مثبتة حول قشرة هذه الدوائر المتحدة المركز . ويبدو هذا النظام الآن نظاماً مغرقاً فى الخيال ، ولكنه كان أول محاولة بذلت لتفسير حركات الأجرام السماوية تفسيراً علمياً . وعلى أساس هذه النظرية حسب أودكسوس بدقة عظيمة (إذا ما اتخذنا « معلوماتنا » الحاضرة فى مثل هذه المسائل مقياساً نحكم به على الأشياء) أوقات اقتران الكواكب وحلولها فى البروج المختلفة(*) . وكان لهذه النظرية أثر أقوى من أية نظرية أخرى فى الزمن القديم لإيقاظ روح البحث العلمى .

وكتب إكفنتوس السراقوصى حوالى عام ٣٩٠ . ومن أقواله أن الأرض تدور حول مركزها فى اتجاه شرقى[١٢] » . وأخذ هرقليدس البنتى هذا الإيحاء ، أو لعله وصل إليه مستقلا ، وقال إن العالم لا يدور حول الأرض ، وإن الظواهر المتصلة بهذا الفرض يمكن تفسيرها إذا افترضنا أن الأرض نفسها تدور مرة فى كل يوم حول محورها[١٣] . ومن أقواله أيضاً إن الزهرة وعطارد يدوران

(*) إن فترة الاقتران لجرم من الأجرام السماوية هى الزمن المحصور بين اقترانين متتاليين بينه وبين الشمس ، كما يرى من الأرض . أما فترة الحلول فى برج من البروج فهى الزمن المحصور بين ظهور جرم سماوى مرتين متتاليتين فى هذا البرج أى فى ذلك الجزء من السماء المقسمة تقسيما خياليا إلى اثنى عشر قسما يسمى كل منها برجا . وقدر أودكسوس فترة اقتران زحل بـ ٣٩٠ يوما ونقدرها نحن الآن بـ ٣٨٧ ؛ والمشترى بـ ٣٩٠ ، وتقديرنا نحن هو ٣٩٩ ؛ والمريخ بـ ٢٦٠ ونقدرها نحن بـ ٧٨٠ ، وعطارد بـ ١١٠ (وقد ورد فى أحد المخطوطات ١١٦) ، وتقديرنا هو ١١٦ ؛ والزهرة بـ ٥٧٠ وتقديرنا هو ٥٨٤ . أما الفترة بين حلول الكواكب فى الأبراج مرتين متتاليتين كما قدرها أودكسوس فهى ٣٠ سنة لزحل وتقديرنا نحن هو ٢٩ سنة و١٦٦ يوما ، والمشترى ١٢ سنة وتقديرنا نحن ١١ سنة و ٣١٥ يوما ، والمريخ سنتان ، وتقديرنا سنة و٣٢٢ يوما ، ولعطارد والزهرة سنة . وهذا يتفق بالضبط مع تقديرنا[١١]

حول الشمس ، ولعل هرقليدس فى لحظة من لحظات التجلى العلمى قد استبق أرسطرخوس وكوپرنيق ، لأنا نقرأ فى الجزازات الباقية من كتابات چمنوس Geminus (حوالى عام ٧٠ ق . م) أن هرقليدس البنتى قال : « حتى لو افترضنا أن الأرض تدور بطريقة ما ، وأن الشمس ساكنة بطريقة ما ، فإن ما يبدو لنا من عدم انتظام الشمس لا يستعصى على الفهم[١٤] » . وأكبر الظن أننا لن نستطيع فهم ما كان يقصده هرقليدس بقوله هذا بالضبط .

وكانت العلوم الطبيعية فى هذه الأثناء تتقدم تقدماً بطيئاً . ففى الجغرافية قام ديقايرخوس المسانى Dicaearchus of Messana كاتب السير اليونانى بقياس ارتفاع الجبال ، وقدر طول محيط الأرض بما يقرب من ثلاثين ألف ميل ، ولاحظ تأثير الشمس فى المد والجزر . وفى عام ٣٢٥ سافر نيارخوس Nearchus أحد قواد الإسكندر بحراً من مصب نهر السند محازيا ساحل آسية الجنوبى إلى مصب الفرات ، وكان سجل سفينته الذى احتفظ أريان Arrian ببعضه فى كتابه Indica[١٥] من أهم الكتب الجغرافية القديمة . وكان علم المساحة التطبيقية — أى قياس السطوح ، والمرتفعات ، والمنخفضات والمواقع ، والأحجام — قد وضع له اسم خاص يميزه من الهندسة النظرية geometry وهو الجيوديزيا[١٦] . وكان فلستيون Philistion أحد أبناء بلدة لكرى Lorcri الإيطالية يمارس تشريح الحيوانات فى بداية ذلك القرن ، وقال إن القلب هو المنظم الرئيسى للحياة ، ومركز النيوما أى النفس . وشرّح ديوقليس Diocles أحد أبناء بلدة كرستوس Carystus العوبية حوالى ٣٧٠ أرحام إناث الحيوان ، ووصف الأجنة البشرية من بداية اليوم السابع والعشرين إلى اليوم الأربعين من حياتها ، وتقدمت على يديه علوم التشريح والأجنة وأمراض النساء والولادة ، وأصلح إحدى الأغلاط اليونانية الشائعة بقوله إن « بذرتى » الذكر والأنثى تشتركان فى تكوين

الجنين[١٧] . وكانت امرأة تدعى آسپلزيا (غير أسپازيا أم الإسكندر) من أشهر الطبيبات فى أثينة فى القرن الرابع ، وذاع صيتها بمؤلفاتها فى أمراض النساء والجراحة وغيرها من فروع الطب[١٨] . وخشى إنياس تكتكوس الأركادى Aeneas Tocticus أن يؤدى تقدم الطب إلى إنقاص نسبة الوفيات أكثر مما تحتمله موارد الغذاء ، فنشر حوالى عام ٣٦٠ أول كتاب شهير فى فن الحرب ، وجاء نشره فى الوقت الذى استطاع فليب والإسكندر أن يفيدا مما ورد فيه من المعلومات .

الفصل الثانى

المدارس السقراطية

١ — أرستبوس

إذا كان العلم فى القرن الرابع لم يتجاوز الدرجة الوسطى من الرقى ، فقد كان هذا القرن عصر الفلسفة الذهبى . لقد بسط المفكرون الأولون آراء عامة فى نظام الكون ، وجاء السوفسطائيون فشكوا فى كل شىء عدا البلاغة ، وأثار سقراط آلاف الأسئلة ولم يجب عن واحد منها . أما الآن فقد نبتت البذور التى زرعت فى مائتى عام وصارت نظماً عظيمة فى بحوث ما وراء الطبيعة ، والأخلاق ، والسياسة . وكانت أثينة وقتئذ أفقر من أن تحتفظ للدولة بمصلحة طبية ، ولكنها رغم فقرها هذا أنشأت جامعات خاصة ، فأضحت بذلك « مدرسة هلاس » على حد قول إسقراط ، وحاضرة بلاد اليونان الذهبية ، والحكم الذى لا معقب لحكمه فى شئونها العلمية . ولما أن ضعف الفلاسفة الدين القديم أخذوا يكافحون لكى يجدوا فى الطبيعة وفى العقل بديلا من هذا الدين يكون دعامة للأخلاق وهاديا للناس فى سبيل الحياة .

وكان أول ما عملوه أن ارتادوا السبل التى فتحها لهم سقراط . ذلك أن السوفسطائيين كانوا قد ارتكسوا فاقتصروا فى الغالب على تدريس البلاغة ، وزالوا بوصفهم طبقة مستقلة ؛ ولهذا أصبح تلاميذ سقراط مركز عاصفة من الفلسفات الشديدة التباين . فقد أثار إقليدس الميغارى Eucleides of Megara ، الذى سافر إلى أثينة ليستمع إلى سقراط ، « عاصفة من الجدل » فى مسقط رأسه كما يقول تيمن الأثينى[١٩] ، وارتقى بنقاش زينون وسقراط فجعله

فناً من الجدل يرتاب فى كل نتيجة منطقية ، وأدى ذلك فى القرن التالى إلى نزعة بيرون وقرنيادس التشككية . وبعد أن مات إقليدس اتجه تلميذه النابه استلپون Stilpo بالمدرسة الميغارية شيئاً فشيئاً نحو النظرة الكابية (Cynic) التى تقول : بما أن كل فلسفة يمكن دحضها ، فإن الحكمة لا تكون فى بحوث ما وراء الطبيعة ، بل فى الحياة البسيطة التى تحرر الفرد من الاعتماد فى رفاهيته على العوامل الخارجية . ولما سأل دمتريوس بليوقريطس Demetrius Poliorcetes بعد نهب ميغارا عن مقدار ما خسره أستلپون أجابه ذلك الحكيم بقوله إنه لم يك يملك شيئاً غير المعرفة ، وأن أحداً لم يغتصبها منه[٢٠] . وكان من بين تلاميذه فى آخر سنى حياته واضع أسس الفلسفة الرواقية ، ولذلك فإن من حقنا أن نقول إن المدرسة الميغارية قد بدأت بزينون واختتمت بزينون آخر .

وسافر أرستبوس الظريف بعد موت سقراط إلى مدن متفرقة ، وقضى بعض الوقت فى سلس Scillus مع أكسانوفون ، ووقتاً أطول من هذا مع لئيس Lais فى كورنثة[٢١] ، ثم ألقى عصا الترحال فى قورينة مدينته الأصلية القائمة على ساحل أفريقية . وكان ثراء الطبقات العليا فى هذه المدينة النصف الشرقية قد كونا عاداته ، فكان أكثر مما يتفق فيه مع مبادئ أستاذه هو قوله إن السعادة أعظم فضيلة . وكان أرستبوس وسيم الطلعة ، دمث الأخلاق ، بارعاً فى الحديث ، فشق بهذه الصفات طريقاً له فى كل مكان . وتحطمت به سفينته قرب رودس واشتد عليه الفقر فيها ، فذهب إلى مدرسة للتدريب الرياضى ، وأخذ يخطب فيها ، فافتتن به رجالها وقدموا له هو وأصحابه جميع وسائل الراحة ؛ فلما فعلوا ذلك قال لهم إن الآباء يجب أن يسلحوا أبناءهم بثروة يستطيعون أن يحملوها معهم إلى البر إذا تحطمت بهم السفن[٢٢] .

وكانت فلسفته بسيطة وصريحة ؛ قال : إن كل ما نفعله إنما نفعله طمعاً فى اللذة أو خوفاً من الألم — حتى إذا أفقرنا أنفسنا لخير أصدقائنا ، أو ضحينا

بحياتنا من أجل قوادنا . وعلى هذا فالناس كلهم مجمعون على أن اللذة هي الخير الذي لا خير بعده ، وأن كل ما عداها حتى الفضيلة والفلسفة يجب أن يحكم عليه حسب قدرته على توفير اللذة . وعلمنا بالأشياء غير مؤكد ، وكل ما نعرفه معرفة مباشرة أكيدة هو حواسنا ، فالحكمة إذن لا تكون في السعي وراء الحقيقة المجردة بل في اللذات الحسية . وليست أعظم اللذات هي العقلية أو الأخلاقية ، بل هي اللذات الجسمية أو الحسية ، ولهذا فإن الرجل العاقل هو الذي يسعى وراءها أكثر من سعيه وراء أي شيء آخر ، والذي لا يضحي بخير عاجل في سبيل خير آجل غير مؤكد . والحاضر وحده هو الموجود ، وأكبر الظن أنه لا يقل من حيث الخير عن المستقبل إن لم يفقه ذلك . وفن الحياة هو انتهاب اللذائذ وهي عابرة والاستمتاع بكل ما نستطيع أن نحصل عليه في الساعة التي نحن فيها[٢٣] . وليست فائدة الفلسفة في أنها قد تبعدنا عن اللذة ، بل فائدتها في أنها تهدينا إلى أن نختار أحسن اللذات وننتفع بها . وليس صاحب السلطان على اللذات هو الزاهد المتقشف الممتنع عنها ، بل هو الذي يستمتع بها دون أن يكون عبداً لها ، والذي يستطيع بعقله أن يقارن بين اللذائذ التي تعرضه للخطر ، والتي لا تعرضه له . ومن ثم كان الرجل الحكيم هو الذي يظهر الاحترام المقرون بالفطنة للرأي العام وللشرائع ، ولكنه يعمل بقدر ما يستطيع على « ألا يكون سيدا لإنسان ما أو عبداً له[٢٤] » .

وإذا كان يشرف الإنسان أن يعمل بما يدعو الناس إلى عمله فقد كان أرستبوس خليقا ببعض هذا الشرف . فقد كان في فقره وغناه على السواء سمحا كريما ، ولم يكن يتظاهر بالميل إلى إحدى الناحيتين . وكان يصر على أن يتقاضى أجراً على مايعلمه ، ولا يتردد في أن يتملق الطغاة إذا كان في هذا الملق مايوصله إلى أغراضه . وقد ابتسم ولم يتأفف حين بصق دنيسيوس الأول في وجهه وقال : « إن من واجب الصياد أن يتحمل أكثر من هذا الماء ليمسك بسمكة

أصغر من التي أريدها[٢٥] » ولما أن لامه صديق له على ركوعه أمام دنيسوس أجابه بأنه ليس من عيبه هو أن تكون أذنا الملك فى قدميه » ، ولما سأله دنيسوس لم يلازم الفلاسفة أبواب الأغنياء ، ولا يلازم الأغنياء مجالس الفلاسفة ، أجابه بقوله : « ذلك بأن الأولين يعرفون ما يريدون أما الآخرون فلا يعرفونه[٢٦] » . ولكنه مع ذلك كان يحتقر من يطلبون المال لذاته . ومن ذلك أنه لما أن أراه سيموس Simus الفريجى الثرى بيتا له جميلا مفروشا بالرخام بصق أنتسپيوس فى وجهه ؛ فلما أن احتج عليه سيموس اعتذر بأنه لم يجد بين ذلك الرخام كله مكانا أليق من وجهه بالبصق عليه[٢٧] . ولما أن جمع من المال ما يريد أنفقه بسخاء على الطعام الشهى ، والكساء الجميل ، والمسكن الفخم ، والنساء الحسان (على ما كان يبدو له) . ولما أن لامه بعضهم على أنه يعاشر حظية أجابه بقوله إنه لا يعارض فى أن يعيش فى بيت سكنه آخر قبله أو أن يسافر فى سفينة سافر فيها غيره[٢٨] . ولما قالت له عشيقته : « إنى أعاشرك معاشرة الأزواج » قال لها : « إنك لا تستطيعين أن تقولى إننى أنا الذى أعاشرك ، كما لا تستطيعين أن تقولى بعد أن تخترقى أجمة أية شوكة فيها خدشتك[٢٩] .

وقتله الناس رغم أنه كان رجلا شريفاً ، ظريفاً ، مهذبا ، مثقفا ، طيب القلب ، مشهوراً باسم سيموس اللطيف . وما من شك فى أن من أسباب دعوته السافرة للسعى وراء اللذة أنه كان يسر من التشهير بالكبار الفاسدين من أهل المدن . وقد كشف عن خليقته بتبجيل سقراط ، وحبه الفلسفة(*) ، واعترافه بأن أجل منظر فى الحياة ، وهو منظر الرجل الفاضل الذى يشق طريقه مطمئنا واثقا من نفسه بين الأنذال[٣١] .

وقال وهو على فراش الموت (٣٥٦) إن أعظم تراث يتركه لابنته

(*) يقول أرستپوس إن مثل الذين يهملون الفلسفة فى تعليمهم « كمثل الذين جاءوا يخطبون پنلپى ؛ فقد ... وجدوا أن كسب الخادمات أسهل لهم من زواج السيدة[٣٠] » .

أريتى Arete هو أنه علمها ألا ترى قيمة ما لشىء تستطيع أن تستغنى عنه »[٣٢] وهو استسلام منه لديوجانس عجيب. وقد خلفته ابنته فى رياسة مدرسة قورينة وألفت أربعين كتاباً ، وكان لها تلاميذ ممتازون ، وحبتها مدينتها قبرية مشرفة هى : « ضياء هلاس[٣٣] » .

٢ – ديچين (ديوجانس)

ووافق أستانس على نتيجة هذه الفلسفة وإن لم يوفق على مناقشاتها ، واستخلص من أقوال سقراط نفسه فلسفة للحياة قائمة على التقشف. وكان مؤسس المدرسة الكلبية ابن مواطن أثيني وأمة تراقيا ، وحارب ببسالة فى يوم تنغارا عام ٤٢٦ ، ودرس زمنا مع غورغياس وپروديكوس ، ثم أنشأ بعدئذ مدرسته ، ولكنه بعد أن سمع مناقشات سقراط ، ذهب ومعه تلاميذه ليتلقى فلسفة الذى يفوقه سنا . وكان مثل أودكسوس يعيش فى پيرية ، ويسير إلى أثينة مشيا على قدميه كل يوم تقريباً . ولعله كان حاضراً حين كان سقراط (أو أفلاطون) يناقش خطيباً ظريفاً فى مشكلة اللذة .

سقراط : هل تظن أن الفيلسوف يجب أن يهتم بملذات . . . المأكل والمشرب ؟

سمياس : لا ، من غير شك .

سقراط : وما قولك فى لذات الحب — هل يجب عليه أن يهتم بها ؟ .

سمياس : لا ، يجب ألا يهتم بحال من الأحوال .

سقراط : وهل يجوز له أن يفكر فيما عدا ذلك من طرق المتعة الجسمية — كالحصول على الملابس الغالية ، أو الأحذية وما إليها من زينة الجسم ؟ أليس الواجب عليه ، بدل أن يعنى بهذه الأشياء ، أن يحتقر كل ما تتطلبه الطبيعة ؟ .

سمياس : من واجبى أن أقول إن الفيلسوف الحق هو الذى يحتقرها[٣٤]

هذا هو جوهر الفلسفة الكلبية : أن تقتصر حاجات الجسم على الضرورات المحضة حتى تكون الروح حرة قدر المستطاع . وقد استمسك أنتستانس بحرفية النظرية ، وأصبح كأنه راهب فرنسيسى يونانى بلا دين . وكان شعار أرستپوس هو : « إنى أملك ولكن أحداً لا يملكنى » أما شعار أنتستانس فقد كان : « إنى لا أملك حتى لا يمتلكنى أحد » . ولم يكن عنده مال[٣٥]، وكان يرتدى ثوباً خلقا عيره به سقراط بقوله : « إنى أستطيع أن أرى غرورك يا أنتستانس من خلال ثقوب ثوبك[٥٥] » وإذا ضربنا صفحا عن هذا فقد كان عيبه الوحيد هو تأليف الكتب ؛ وقد ترك منها ثمانية ، أحدها تاريخ للفلسفة . ولما مات سقراط اضطلع أنتستانس بواجب تدريس الفلسفة لطالبيها واختار موضعاً لمحاضراته ساحة « كلب البحر للتدريب الرياضى » ، وكان سبب اختيارها أنها مخصصة لأفراد الطبقات الدنيا ، أو الغرباء ، غير الشرعيين ، وغلب اسم الكلبى على المدرسة بسبب مكان وجودها لا بسبب العقيدة التى تدرس فيها[٥٧] ، وكان أنتستانس يرتدى ثياب العمال ، ولا يتقاضى أجراً على قيامه بالتدريس ، ويفضل أن يكون تلاميذه من الفقراء ، ويطرد من مدرسته بلسانه أو عصاه كل من يعيش معيشة الفقراء ولا يتحمل شظف العيش .

وأبى فى أول الأمر أن يقبل ديچين ضمن تلاميذه ، فلما أصر ديچين وصبر على الإهانة ، قبله ، فأذاع التلميذ نظريات أستاذه فى جميع أنحاء هلاس بأن اتبع تعاليمه فى معيشته لا يحيد عنها قيد شعرة . لقد كان أنتستانس فى أصله نصف رقيق وكان ديچين رجلا مصرفياً مفلساً من سينوب ، اضطرته شدة الحاجة إلى التسول وسره أن يعلم أن هذا جزء من الفضيلة والحكمة ، فلبس أثواب المتسولين ، وحمل جرابهم وتوكأ على عصاهم ، وعاش وقتاً ما داخل قصعة فى ساحة معبد سيبيل فى أثينة[٣٨] . وكان يحسد الحيوان على حياته البسيطة ويحاول أن يحذو حذوه ، ينام على الأرض ، ويطعم مما يستطيع الحصول عليه أينما وجده ، ويؤكدون لنا أنه كان

يقضى حاجة الطبيعة ومراسم الحب على مرأى من جميع الناس[٣٩] . ولما رأى طفلا يشرب الماء بيديه ألقى هو الآخر كوب الماء[٤٠] ؛ وكان فى بعض الأحيان يحمل شمعة أو مصباحاً ويقول إنه يبحث بهما عن رجل[٤١] . ولم يسئ فى حياته إلى إنسان ، ولكنه رفض أن يعترف بالقوانين ، وأعلن قبل الرواقيين بزمن طويل أنه مواطن عالمى (Kosmopolites) . وكان يطوف بالبلاد على مهل ، ونسمع أنه أقام بعض الوقت فى سراقوصة ؛ وقبض عليه القراصنة فى بعض أسفاره وباعوه عبداً لأكسنياديس صاحب كورنثة ؛ ولما سأله سيده عما يستطيع أن يؤديه من الأعمال قال : « إنه يستطيع أن يحكم الرجال » ، فاتخذه أكسنياديس مربياً لأبنائه ، ومشرفاً على شئون قصره ، وأحسن ديچين القيام بكلا العملين إحساناً جعل سيده يطلق عليه لقب « العبقرى الصالح » ، ويعمل بمشورته فى كل شىء . وظل ديچين يحيا حياته البسيطة لا يحيد عنها قط حتى أصبح بعد الإسكندر أشهر رجل فى بلاد اليونان .

وكان متصنعاً بعض الشئ ، وما من شك فى أنه كان يحب الشهرة ، وكان بارعاً فى الجدل ، ويقول سميه إنه لم يغلب قط فى مناقشة[٤٢] . وكان يصف حرية الكلام بأنها أعظم الطيبات ، وقد أفاد منها كثيراً هى والمزاج الخشن ، والفكاهة التى لم تكن تعجزه قط . وعنف ذات يوم امرأة تركع وتسجد أمام صورة مقدسة بأن سألها : « ألا تخافين أن تكونى فى هذا الوضع وقد يكون من ورائك إله من الآلهة ، لأن الآلهة يملأون كل مكان[٤٣] ؟ » ، ولما رأى ابن حظية يرمى جماعة من الناس بحجر قال : « احذر أن تصيب أباك[٤٤] » . وكان يكره النساء ، ويحتقر من الرجال من يسلكون مسلك النساء ، من ذلك أن شاباً كورنثياً جاءه متعطراً متأنقاً فى ثيابه الغالية يسأله سؤالا فأجابه بقوله : « لن أجيبك عن سؤالك حتى تخبرنى : أولد أنت أم بنت[٤٣] ؟ » .

والعالم كله يعرف قصته مع الإسكندر حين التقى بالفيلسوف فى كورنثة

قائماً فى الشمس وقال له : « أنا الإسكندر الأكبر » ؛ وأجابه الفيلسوف بقوله : « وأنا ديچين الكلب » . وقال له الملك : « اسألني أى شىء تريد » ، فأجابه : « ابتعد حتى لا تحجب عنى الشمس » . وقال الجندى الشاب : لولم أكن أنا الإسكندر لتمنيت أن أكون ديچين[٤٦] » ؛ ولسنا نعرف أن ديچين قد رد على هذه التحية . ويراد منا أن نعتقد أن الرجلين توفيا فى يوم واحد من أيام عام ٣٢٣ الإسكندر فى بابل وهو فى سن الثالثة والثلاثين ، وديچين فى كورنثة بعد أن جاوز التسعين[٤٧] . وقد وضع الكورنثيون فوق قبره كلباً من الرخام ؛ وأقامت له سينوب التى نفته نصباً تذكارياً تخليداً لذكراه .

وليس ثمة شىء أوضح من الفلسفة الكلبية : فهى لم تعمد إلى المنطق إلا ريثما تدحض نظرية المعرفة التى كان أفلاطون يحير بها عقول العلماء فى أثينة ، كذلك كانت الميتافيزيقا فى نظر الكلبيين عبثاً عقيما ، وكانوا يقولون إن من واجبنا ألا ندرس الطبيعة لنفسر العالم بهذه الدراسة ، وهو أمر مستحيل : بل لنعلم حكمة الطبيعة ونسترشد بها فى الحياة . والفلسفة الوحيدة الحقة هى فلسفة الأخلاق ، والغرض من الحيـــاة هو السعادة ، ولكن هذه السعادة لا تكون فى طلب اللذة ، بل فى الحياة الفطرية البسيطة المستقلة قدر المستطاع عن المساعدات الخارجية ؛ ذلك أن اللذة ، وإن كانت عملا مشروعاً إذا أتت نتيجة كدح الإنسان وجهوده الخاصة ، ولم يعقبها شىء من الندم ووخز الضمير[٤٨] ، كثيراً ما تفلت منا أثناء السعى إليها ، أو تخيب رجاءنا فيها بعد أن ننالها ؛ ومن أجل هذا فإن الأخلق بنا أن نعدها شراً لا خيراً . والسبيل الوحيدة إلى السعادة الباقية هى أن يحيا الإنسان حياة معتدلة فاضلة . والثروة تفسد الطمأنينة والسلام ، والشهوة الحاسدة تأكل النفس كما يأكل الصدأ الحديد ، والاسترقاق عمل ظالم ولكنه ليس عملا خطيراً ؛ والرجل الحكيم يسهل عليه أن يجد السعادة فى الرق كما يجدها فى الحرية ، لأن حرية النفس هى الحرية الحقة . ويقول ديچين إن الآلهة

قد وهبت الإنسان الحياة السهلة المريحة ، ولكن الإنسان هو الذى عقدها بالتلهف على الترف . وليس معنى هذا أن الكلبيين كانوا شديدى الإيمان بالآلهة ، وشاهد ذلك أن قسيساً أخذ يعدد لأنتستانس ما يتمتع به المستمسكون أسباب الفضيلة من خير كثير بعد وفاتهم ، فسأله الفيلسوف : « ولم إذن لا تموت ؟ »(٤٩) ، وكان ديجين يسخر من الطقوس الدينية الخفية ، ويقول عن القرابين التى قربها فى سمثريس من نجوا من الموت بعد أن حطمت سفينتهم : « لو أن هذه القرابين قد قربها الذين هلكوا لا الذين نجوا لكانت أكثر من هذه عدداً »(٥٠) ، وكان كل شىء فى الدين عدا الاستمساك بالفضيلة يبدو للكلبيين أوهاما وخرافات ، وهم يرون أن جزاء الفضيلة يجب أن يكون هو الفضيلة نفسها ، وأن من الواجب ألا يكون هذا الجزاء موقوفاً على عدالة الآلهة . وقوام الفضيلة هو الأكل ، والتملك ، والحد من الرغبات قدر المستطاع ، والاقتصار على شرب الماء . وعدم الإساءة لأى إنسان : وسئل ديجين : وكيف يستطيع الإنسان أن يدفع عنه أذى عدوه ؟ فأجاب بقوله : « بأن يثبت أنه شريف مستقيم »(٥١) . والشهوة الجنسية دون غيرها هى التى كانت تبدو للكلبيين غريزة معقولة ، وكانوا يتجنبون الزواج بوصفه رابطة خارجية ولكنهم كانوا يحمون البغايا . وكان ديجين يدعو إلى الحب الحر الطليق ، وإلى شيوعية الزوجات(٥٢) ؛ وكان أنستانس يطلب الاستقلال فى كل شىء ، ومن أجل ذلك كان يشكو من أنه لا يستطيع أن يشبع جوعه بمفرده كما يستطيع أن يشبع شهوته الجنسية على هذا النحو(٥٣) . وإذا كان الكلبيون قد قرروا أن الشهوة الجنسية شهوة سوية طبيعية كالجوع ، فقد أعلنوا أنهم لا يفقهون لم يخجل الناس من إشباع إحدى الرغبتين جهرة أمام الناس كما يشبعون الأخرى(٥٤) . ومن رأيهم أن الإنسان يجب أن يكون مستقلا فى كل شىء حتى فى الموت نفسه ،

فيختار لنفسه مكان موته وزمانه ؛ وعندهم أن الانتحار عمل مشروع ، ويقول بعضهم إن ديجين قتل نفسه بأن أمسك عن التنفس[٥٥] .

وكانت الفلسفة الكلبية جزءاً من الحركة التي تهدف إلى « الرجوع إلى الطبيعة » ، وهي الحركة التي قامت في أثينة في القرن الخامس رداً على ما أحدثته الحضارة المعقده من ملل في النفوس وعدم توازن في شئون الحياة . ذلك أن الناس ليسوا متحضرين بالفطرة ، وهم لا يحتملون قيود الحياة المنظمة ، إلا لأنهم يخشون مغبة العقاب والوحدة . وكانت الصلة بين ديجين وسقراط شبيهة بعض الشبه بالصلة التي بين روسو وفلتير : فقد كان يرى أن الحضارة لا خير فيها ، وأن بروميثيوس قد استحق أن يصلب لأنه جاء بها إلى بني الإنسان[٥٦] . وكان الكلبيون ، كما كان الرواقيون ، وكما كان روسو في العصر الحديث ، يجعلون مثلهم الأعلى هو « الشعوب الطبيعية »[٥٧] ؛ وقد حاول ديجين أن يأكل اللحم النيء لأن طهو الطعام عمل غير طبيعي[٥٨] ، ويظن أن أحسن المجتمعات هو المجتمع الخالي من أسباب الخداع ومن القوانين .

وكان اليونان يسخرون من الكلبيين ، ويصبرون عليهم صبر المجتمع في العصور الوسطى على القديسين . وقد أصبحوا بعد ديجين هيئة دينية من غير دين ، اتخذوا الفقر قاعدة وأساساً لعقيدتهم ، وكانوا يعيشون من الصدقات ، وينفسون عن عزوبتهم بالشيوعية الجنسية ، وافتتحوا مدارس لتعليم الفلسفة . ولم تكن لهم بيوت ، بل كانوا يعملون وينامون في الطرقات أو مداخل المعابد . وانتقلت العقائد الكلبية على أيدي استلبو Stilpo وأقراطيس Crates تلميذي ديجين إلى العصر الهلنستي ، وكانت فيه أساس الرواقية ، واختفت المدرسة بوصفها ذات كيان مستقل حوالي القرن الثالث ، ولكنها ظلت ذات أثر قوي في التقاليد اليونانية ، ولعلها عادت

إلى الوجود فى شخص الأسينيين(*) فى بلاد اليهود ، والرهبان فى مصر ، فى أوائل عهد المسيحية . وليس فى مقدور العلماء أن يقرروا حتى الآن مقدار ما تأثرت به هذه الحركات كلها بأمثالها من حركات الطوائف المختلفة فى الهند أو ما كان للثانية من أثر فى الأولى . وإن الذين يدعون للرجوع إلى الطبيعة فى أيامنا هذه ، لهم الأبناء الذهنيون لأولئك الرجال والنساء الذين عاشوا فى بلاد الشرق أو اليونان فى الأيام الخالية ، والذين ملوا القيود الضيقة غير الطبيعية ، وظنوا أن فى وسعهم أن يعودوا إلى الحيوانات ويعيشوا بينها ؛ واعتقادنا أنه ليس ثمة حياة كاملة خالية من هذه اللوثة الحضرية :

(*) جماعة دينية قامت بين اليهود الأقدمين ، كان أعضاؤها يعيشون عيشة العزلة والتقشف وكانت الملكية عندهم مشاعة . (المترجم)

الفصل الثالث

أفلاطون

---

١ — المعلم

لقد تأثر أفلاطون نفسه بالمبادئ الكلبية . وشاهد ذلك أنه يصف فى المقالة الثانية من الجمهوريه[٥٩] مدينة فاضلة تعيش عيشة فطرية شيوعية ؛ ونستشف من هذا الوصف عطفه على هذه المدينة وحبه إياها . نعم إنه يكتفى بقبولها ولا يدعو إليها ، ويصور دولة « فى الدرجة الثانية بعدها » ، ولكنه حين يعمد إلى تصوير ملوكه — الفلاسفة نستشف فى هذه الصورة الحلم الكلبى ، فنجد رجالا لا أملاك لهم ولا زوجات ، يستمسكون بالحياة البسيطة والفلسفة الراقية ، قد استحوذوا على حصن أجمل خيال فى تاريخ اليونان . وكانت الخطة التى رسمها أفلاطون لإيجاد أرستقراطية شيوعية محاولة باهرة من رجل محافظ ثرى للتوفيق بين احتقاره للدمقراطية وبين مثالية زمانه المتطرفة .

وكان ينتمى إلى أسرة عريقة يرجع أصلها من ناحية أمه صولون ومن ناحية أبيه إلى ملوك أثينة الأولين ، بل لقد ذهب بعضهم إلى أنها ترجع من هذه الناحية إلى بسيدن إله البحر[٦٠] . وكانت أمه أخت خرميدس Charmide وابنة أخ أفريتياس ، ومن أجل هذا يكاد كره الدمقراطية أن يكون متأصلا فى دمه . وقد سمى أرستقليس Aristocles — أى الأحسن الشهير — ، وبرع الشاب فى جميع نواحى الحياة تقريباً ، فنبغ فى الموسيقى ، والرياضيات ، والبلاغة والشعر . وافتتنت النساء ، والرجال بلاريب ، بجمال طلعته ؛ وصارع فى الألعاب البرزخية ، ولقبوه من قبيل السخرية فلاطون Platon أى العريض لامتلاء جسمه وقوة بنيته ؛ وحارب

فى ثلاث معارك ، ونال جائزة فى الشجاعة[٦١] . وكتب فكاهات شعرية وغزلا ، ومأساة رباعية(*) ، وبينا كان يتردد بين الشعر والسياسة لا يعرف أيهما يختار طريقاً له فى الحياة ، إذ افتتن وهو فى سن العشرين بسقراط ؛ وما من شك فى أنه كان يعرفه من قبل ، لأن الفيلسوف الكبير كان صديقاً لخاله خرميدس ؛ ولكنه لما بلغ هذه السن كان يستطيع أن يفهم تعاليم سقراط ويستمتع بمنظر الرجل الشيخ وهو يقذف بأفكاره فى الهواء كالبهلوان ، مرتكزاً على أسنة أسئلته . فما كان منه إلا أن أحرق قصائده ، ونسى يوربديز والألعاب الرياضية ، والنساء ، وتبع المعلم الشيخ كأنه سحره أو نومه تنويماً مغنطيسياً . ولعله كان يكتب مذكرات فى كل يوم . لأنه كان يشعر كما يشعر الفنان المرهف الحس بما سيكون لهذا الشيخ البطين المشوه المحبوب من شأن عظيم فى مستقبل الأيام .

ولما بلغ أفلاطون الثالثة والعشرين من عمره شبت ثورة المحافظين فى عام ٤٠٤ بقيادة جماعة من أقربائه ، وشهد أيام الإرهاب الألجركى العصيبة ، وشجاعة سقراط فى تحدى الثلاثين ، وموت أقريتياس وخرميدس ، وعودة الدمقراطية ، ومحاكمة سقراط وموته ، وبدا العالم كله يتصدع ويتهدم حول هذا الشاب الذى كان من قبل لا يتطرق الهم إلى قلبه ؛ ففر من أثينة التى بدت فى نظره كأنها مأوى الشياطين ، ووجد بعض الراحة فى ميغارا فى بيت إقليدس ، ثم فى قورينا ولعله كان فيها مع أرستيوس . ويظهر أنه سافر منها إلى مصر حيث درس على الكهنة العلوم الرياضية والمعارف التاريخية الشعبية[٦٢] . ونراه مرة أخرى فى أثينة حوالى عام ٣٩٥ ، وبعد عام من ذلك الوقت حارب دفاعاً عن كورنثة . وبدأ أسفاره مرة أخرى حوالى عام ٣٨٧ ، ودرس فلسفة فيثاغورس مع أرخيتاس

(*) المأساة الرباعية مجموعة من أربع مسرحيات ، ثلاث مآس ورواية هجائية ، كانت تمثل مجتمعة فى عيد ديونيشس فى أثينة . (المترجم) .

فى تاراس ومع تياوس فى لكرى ، ثم انتقل إلى صقلية ليشاهد بركان إتنا ، وارتبط برباط الصداقة مع ديون طاغية سراقوصة ، وقُدِّم لدنيسوس الأول ، وبيع بيع الرقيق ، ثم عاد سالماً إلى أثينة فى عام ٣٨٦ . ولما رفض أنسريس Anniceris الثلاثة الآلاف درخمة التى جمعها أصدقاؤه ليفتدوه بها ، ابتاع له هؤلاء الأصدقاء بهذا المال أيكة للتنزه فى ضواحى المدينة وأطلقوا عليها اسماً مشتقاً من إلهها المحلى أكديموس Academus[٦٢] ، وفيها أنشأ أفلاطون الجامعة التى قدر لها أن تكون فيما بعد مركز بلاد اليونان العقلى تسعمائة عام كاملة(*)

وكان المجمع العلمى (الأكاديمية) من الناحية الفنية إخوة دينية (ثاسيوس Thasios) مخصصاً لعبادة ربات الشعر والفن ، ولم يكن الطلاب يؤدون فيه أجوراً عن التعليم ، ولكنهم كانوا فى الغالب من أبناء الأسر الغنية ، ولذلك كان ينتظر من آبائهم أن يهبوا المعهد هبات قيمة . وفى ذلك يقول سويداس إن الأغنياء « كانوا يوصون قبل وفاتهم لأعضاء المدرسة بما يكفل لهم أن يحيوا حياة الفلاسفة غير مضطرين إلى العمل لكسب أقواتهم[٦٣] » . ويقال إن دنيسوس الثانى وهب المعهد ثمانين وزنة (٤٨٠,٠٠٠ ريال أمريكى)[٦٤] — وفى هذا ما قد يفسر صبر الفيلسوف على هذا الملك ، وكان الشعراء الفكهون فى ذلك الوقت يهجون الطلاب بقولهم إنهم أشخاص متصنعون فى أخلاقهم متطرفون فى ملابسهم — ذوو قلانس رشيقة وعصى : وستر قصيرة أو أردية جامعية[٦٥] . ألا ما أقدم تقاليد إيتن والأثواب الجامعية السوداء ! وكانت النساء يقبلن فى المجمع مع الرجال ، لأن أفلاطون بقى من هذه الناحية متطرفاً فى

(*) ولم تكن هى أولى جامعات بلاد اليونان . ذلك أن مدرسة أقروطرنا الفيثاغورية كانت منذ عام ٥٢٠ تقدم مناهج دراسية مختلفة لمجتمع علمى متحد النزعة ، كما كانت مدرسة إسقراط قائمة قبل مجمع أفلاطون العلمى بثمان سنين .

أفكاره تطرفا جعله من أقوى أنصار المرأة ، وكانت أهم موضوعات الدرس هى العلوم الرياضية والفلسفة ، وقد كتب على المجمع هذا التحذير : « لن يدخل هذا المكان إنسان بلا هندسة » ؛ ولعل قدراً كبيراً من الحساب كان شروط القبول فى المجمع . وكان معظم ما حدث من التقدم فى العلوم الرياضية فى القرن الرابع على أيدى رجال ممن درسوا فيه . وكان منهاج الرياضة يشمل الحساب (بنظرية العدد) والهندسة الراقية ، والفلك ، « الموسيقى » (ولعل هذه كانت تتضمن الأدب والتاريخ) ، والقانون ، والفلسفة[٦٦] ؛ وكانت الفلسفة الأخلاقية والسياسية آخر الدراسات فى هذا المنهاج ، هذا إذا كان أفلاطون قد أخذ بالنصيحة التى ينطق بها سقراط فى معرض الدفاع إلى حد ما عن أنيتوس وملاتوس :

سقراط : إنك تعرف أن ثمة مبادئ معينة فى العدالة والخير تعلمناها فى طفولتنا ، ونشأنا تحت رعايتها الأبوية ، نطيعها ونعظمها :

أجلوكون : هذا صحيح .

سقراط : وثمة أيضاً مبادئ مناقضة لها وعادات من أنواع السرور تملق أرواحنا وتجذبها إليها ، ولكنها لا أثر لها فيمن لديهم أى إحساس بالحق ، ومن لا ينقطعون عن إجلال تعاليم آبائهم وطاعتها .

أجلوكون : حق .

سقراط : فإذا كان الإنسان فى هذه الحال وسألته روحه السائلة . ما هو الشيء الجميل الشريف ؟ وأجاب بأن ذلك هو الذى يأمر به القانون ، نقضت الحجج أقوال المشترع ، فاضطر إلى الاعتراف بأن لا شيء فيه من الجمال أكثر مما فيه من القبح ، أو فيه من العدالة والطيبة أكثر مما فيه من نقيضهما ، وإلى الاعتراف بأن هذا بعينه ينطبق على جميع آرائه التى تخلع عليها الزمن جلالا وتعظيما ، إذا حدث هذا فهل تظن أنه سيظل يعظم هذه التعاليم ويطيعها ؟ .

أجلوكون : هذا مستحيل .

سقراط : وإذا لم يعد يظنها كما كان يظنها من قبل شريفة وطبيعية ، ثم عجز عن معرفة الحق ، فهل ينتظر منه أن يحيا حياة غير الحياة التي تتملق شهواته ؟

أجلوكون : ذلك ما لا ينتظر منه .

سقراط : وهل ينقلب بعدئذ من إنسان طائع للقوانين إلى إنسان خارج عليها ؟ .

أجلوكون : بلا ريب

سقراط : وإذن فلا بد من الحذر الشديد في إدخال مواطنينا الذين لا يتجاوزون سن الثالثة والثلاثين في الجدل . . . إذ يجب ألا يسمح لهم بتذوق هذه اللذة العزيزة قبل الأوان ؛ هذا شيء ينبغي تجنبه بنوع خاص ، لأن الشبان ، كما رأيت ، إذا تذوقوا الجدل بدءوا من فورهم يجادلون حبا في الجدل ، ولا ينفكون يعارضون غيرهم ويدحضون حججهم تقليدا منهم لمن ينقضون حججهم هم ؛ فهم في هذا أشبه بصغار الكلاب التي تسرها أن تشد أثواب كل من يقترب منها وتمزقها .

أجلوكون : نعم إن هذا هو الذي يسرها .

سقراط : وإذا ما غلبوا الكثيرين من الناس وغلبهم الكثيرون اندفعوا بسرعة وعنف إلى حال لا يؤمنون معها بأي شيء كانوا يؤمنون به من قبل ، ومن . . . ثم تسوء سمعة الفلسفة عند سائر الناس

أجلوكون : هذا هو عين الحق .

سقراط : ولكن الرجل إذا بدأ يكبر ، فإنه لا يرتكب هذا الضرب من الأعمال الجنونية ؛ بل يحذو حذو الرجل المنطقي الذي يبحث عن الحقيقة ، لا حذو الخصيم الذي يعارض لما يجده في المعارضة من لذة ؛ وإن إجلال الناس لخلقه سيزيد من شرف هذا السعي بدل أنه ينقص منه(٧٦) .

وكان أفلاطون وأعوانه يعلمون الناس بالمحاضرات والحوار ، وبعرض

المسائل على الطلاب لحلها ، وكان من هذه المسائل إيجاد : « الحركات المنتظمة المتساوية التي يمكن بالاستناد إليها تعليل حركة الكواكب[٦٨] » ؛ ولعل أودكسوس وهرقليدس قد وجدا في هذه البحوث ما يحفزهما إلى العمل . وكانت المحاضرات علمية ؛ وكانت في بعض الأحيان مخيبة لآمال من جاؤوها طلبا للكسب المادي ، ولكن تلاميذ أرسطو ودمستين وليقورغ ؛ وهيبريلس ، وأكسانوقراطيس تأثروا بها أعمق التأثر ونشروا في كثير من الأحيان ما كتبوه عنها من مذكرات . وقال أنتفانس متفكها إن الكلمات التي كان ينطق بها أفلاطون أمام طلابه في شبابهم لم يفهموها إلا في شيخوختهم ، كما كانت الألفاظ في إحدى المدن القائمة في أقصى الشمال تتجمد حين تخرج من أفواه المتكلمين ثم تسمع في الصيف حينما تسيح[٦٩] .

٢ — الفنان

يقر أفلاطون نفسه أنه لم يكتب في حياته رسالة علمية[٧٠] ، ويشير أرسطوطاليس إلى ما كان يلقى من العلوم في المجمع العلمي بقوله « تعاليم أفلاطون « غير المكتوبة »[٧١] . ولسنا نعرف مدى اختلاف هذه التعاليم عما ورد في المحاورات(*) ، وأكبر الظن أن هذه المحاورات كانت في بادئ الأمر وسيلة للترويح عن النفس ، وأنها كانت تلقى بطريقة فكهة إلى حد ما[٧٢] . ومن سخريات التاريخ أن المؤلفات الفلسفية التي تدرس في الجامعات الأوربية والأمريكية والتي تلقى فيها أعظم التقدير والإجلال في هذه الأيام قد ألفت لتقرب الفلسفة من أذهان غير العلماء بربطها بإحدى الشخصيات المعروفة . ولم تكن محاورات أفلاطون أول ما كتب من الحوار الفلسفي ، فقد اتبع زينون الإليائي وكثيرون غيره هذه الطريقة ذاتها[٧٣] ، ونشر تيمن الأثيني قاطع الجلود بطريقة

(*) إن من فقرات في كتب أرسطو ما يوحي بأنه كان يفهم أفلاطون وخاصة نظريته في الأفكار على غير ما نفهمه نحن من المحاورات .

الحوار أحاديث سقراط التى كانت تدور فى حانوته[٧٤] . وكانت المحاورات كما أوردها أفلاطون قطعة أدبية لا تاريخية ؛ فهو لا يدعى أنه ينقل لنا نصا دقيقا للأحاديث التى كانت تجرى قبل أن يكتبها بثلاثين عاما أوخمسين ، بل ولا يدعى أنه يحرص على أن يكون ما فيها من إشارات منسقا غير متناقض بعضه مع بعض . وذهل غورغياس كما ذهل سقراط حين سمعا الألفاظ التى أنطقهما بها الفيلسوف المسرحى[٧٥] . وقد كتبت المحاورات مستقلة كل منها عن الأخرى ، ولعلها كتبت فى فترات متباعدة تباعدا طويلا ، وليس من حقنا أن نرتاع لما فيها من سهو ، كما ليس من حقنا أكثر من هذا أن نرتاع لما فيها من آراء متناقضة . وليس ثمة خطة موضوعة للتأليف بينها كلها وجعلها وحدة منسقة ، اللهم إلا البحث المتواصل الذى يقوم به عقل ينمو ويتطور تطوراً واضحا ملموساً عن الحقيقة التى لا يستطيع الحصول عليها أبداً(*) .

والمحاورات مركبة بمهارة وإن كانت لا ترقى إلى الدرجة الوسطى . وهى تصور الأفكار تصويراً مسرحيا ، وترسم صورة منسقة لسقراط تدل على حب أفلاطون الشديد له ؛ ولكنها قلما تدل على وحدة الأفكار أو تسلسلها ،وكثيراً ما تنتقل من موضوع إلى موضوع وتسئم القارئ فى كثير

(*) ليس فى وسعنا أن نحدد تواريخ المحاورات الست والثلاثين أو أن نصنفها تصنيفاً علمياً لا مطعن فيه . غير أن فى وسعنا أن نقسمها تقسيما منسقا إلى الأقسام الآتية : (١) مجموعة أولى وأهمها الأپولوچيا ، وأقريطون ، وليسيز ، وأيون ، وخرميدس ، وأقراطيلوس ، وأوطيفرون وأوتيدموس . (٢) ومجموعة وسطى وأهمها غورغياس ، وپروتاغوراس ، وفيدون ، ومعرض الآراء (سمپوزيوم) ، وفيدروس ، والجمهورية (٣) ومجموعة متأخرة وأهمها پرمنيدس ،وثيتياتوس ، والسوفسطائى ، والسياسى ، وفيلابوس ، وتيماوس والقوانين . وأكبر الظن أنه ألف المجموعة الأولى قبل أن يبلغ الرابعة والثلاثين من العمر ، والثانية قبل الأربعين ، والثالثة بعد الستين ، وأنه كان يخصص السنين التى بين كل مجموعة والتى تليها للمجمع العلمى .

من أجزائها لأنه يورد الحديث بمعناه لا بلفظه ـ فيجعل رجلا واحداً ينقل سائر أحاديث غيره من الناس . ويقول سقراط إن ذاكرته « غاية فى الضعف »[٧٧] ؛ ولكنه مع ذلك يتلو على صديق له عن ظاهر قلب أربعا وأربعين صفحة من نقاش جرى فى أيام شبابه بينه وبين پروتاغوراس . ومما يضعف معظم المحاورات أنها يعوزها المتكلمون الأقوياء القادرون على أن يردوا على سقراط « بغير نعم » أوما فى معناها . ولكن هذه العيوب تختفى فى تألق اللغة ووضوحها ، وما فى الموقف ، والتعبير والفكرة من فكاهة ، والعالم الحى ومافيه من مختلف الشخصيات البشرية الحقيقية ، وما تفتحه هذه المحاورات من نوافذ توصل إلى العقل العميق النبيل . وفى وسعنا أن نحكم على ماكان لهذه المحاورات من قيمة عظيمة عند الأقدمين ، وإذا ذكرنا أنها أكمل نتاج عقلى وصل إلينا من أى مؤلف يونانى ، وإن شكلها ليضعها فى تاريخ الأدب فى منزلة لا تقل سمواً على المنزلة التى يضعها فيها موضوعها فى تاريخ الفكر .

وأقدم المحاورات من خير الأمثلة فى جدل الشباب الخصيم الذى يندد به فى الفقرة التى أوردناها من قبل ، ولكن الصورة الساحرة التى تصور بها هذه المحاورات الشباب الأثينى تذهب بما فيها من عيوب من هذه الناحية . ومعرض الآراء هو خير ما كتب من نوعه فى أدب العالم كله ، وهو خير مقدمة لكتب أفلاطون ، وإن ما فيه من تصوير مسرحى للمناظر (ونورد على سبيل المثال قول أجاثون Agathon لخدمه : « تصوروا أنكم أرباب المنزل وأننى أنا وأصحابى ضيوفكم »[٧٨]) ، والصورة الحية التى رسمها لأرسطوفان « وقد تملكه الفواق من كثرة الأكل » وقصته المرحة عن ألقبيادس الثمل الذى افتضح أمره بين الناس ، وأهم من هذا كله براعته فى التأليف بين الواقعية القاسية فى صورة سقراط وبين فكرته السامية عن الحب ، نقول إن هذه الصفات تجعل معرض الآراء آية أدبية رائعة فى فن النثر . أما الفيدون فأقل من معرض الآراء قوة وأكثر منه جمالا . فالنقاش الرئيسى فيه ، مهما يبلغ من الضعف ، نقاش أمين لا التواء فيه ولا مغالطة ، يبيح لصاحب الرأى

المخالف فرصة مكافئة لفرصة مناظره ، ويتدفق تدفقاً أكثر سلاسة وسط مناظر يتغلب هدوؤها على ما فيها من مآس ، حتى أن موت سقراط نفسه ليشبه اختفاء النهر عن العين حين يلتف عند أحد المنحنيات . ويدور بعض ما يشتمل عليه فيدروس من حوار على شواطئ نهر إيليسوس Illissus حين يبرد سقراط وتلميذه أقدامهما فى ماء النهر . ولا حاجة إلى القول بأن أعظم المحاورات كلها على الإطلاق هى *الجمهورية* لأنها أكمل عرض لفلسفة أفلاطون ، وهى فى أول أجزائها صراع مسرحى بين الأشخاص والآراء . والبارمنيدس أسوأ مثل للتلاعب المنطقى فى الأدب كله ، كما أنه أجرأ مثل فى تاريخ الفلسفة للمفكر الذى يفند أحب العقائد إلى نفسه — تعنى نظرية الأفكار — تفنيداً لا يقوى أحد على الرد عليه ودحض حججه . وفى المحاورات الأخيرة تضعف قدرة أفلاطون الفنية ، فتضمحل شخصية سقراط ؛ وتفقد الميتافيزيقا شعريتها ، وتفقد السياسة « مثل الشباب العليا » حتى إذا ما وصلنا إلى القوانين ، استسلم الرجل المتعب المنهوك القوى الذى ورث جميع ثقافة أثينة على اختلاف مناحيها إلى إغراء اسپارطة ، وطلق الحرية ، والشعر والفن والفلسفة نفسها .

٣ — الميتافيزيقى

لم يتبع أفلاطون فيما خلفه من أفكار خطة منظمة ، وإذا لخصنا نحن آراءه ووضعناها فى رءوس موضوعات مختلفة كالمنطق ، وما وراء الطبيعية ، والأخلاق ، وعلم الجمال ، والسياسة ، ليسهل علينا أن نتحدث عنها حديثاً منظماً ، فإن من الواجب أن نذكر أن أفلاطون نفسه كان شاعراً مغرقاً فى شاعريته إلى حد يمنعه أن يقيد أفكاره ويحدها بحدود . وإذ كان أفلاطون شاعراً فقد كان المنطق أكثر ما يعترض سبيله من الصعاب ، فهو يجول هنا وهناك يبحث

عن التعاريف ويضل السبيل فى التشبيهات التى تعرضه لأشد الأخطار ؛ « ثم دخلنا فى تيه ، ولما حسبنا أننا قد وصلنا إلى آخره ، رأينا أنفسنا مرة أخرى فى بدايته ، وكان علينا أن نعود إلى البحث عن مخرج[٧٩] » ، ويختم حديثه هذا بقوله : « ولست واثقا قط من أنه يوجد من بين العلوم علم كالمنطق[٨٠] ». ولكنه مع هذا يخطو فيه الخطوة الأولى . فهو يفحص عن طبيعة اللغة ويقول إنها مشتقة من محاكاة الأصوات[٨١] ؛ ويبحث فى التحليل والتركيب ، والتشبيهات والمغالطات ، ويقبل الاستقراء ، ولكنه يفضل الاستدلال[٨٢] ؛ ويضع فى هذه المحاورات الشعبية نفسها مصطلحات فنية ، كالجوهر ، والطاقة ، والفعل والانفعال ، والتوليد ، وهى المصطلحات التى استخدمتها الفلسفة فيما بعد . وهو يضع أسماء لخمس من المقولات العشر التى أذاعت شهرة أرسطوطاليس . وهو يرفض قول السوفسطائيين إن الحواس خير وسيلة لمعرفة الحقيقة وإن الفرد هو مقياس « الأشياء جميعها » ؛ ويقول إنه لو صح هذا لكان ما يقوله أى إنسان عن العالم مساويا فى قيمته لما يقوله أى نائم ، وأى مخبول ، أو أى قرد[٨٣] .

واسنا نستمد من فوضى الحواس إلا فيضا من التغيرات الهرقليطية ؛ ولو لم تكن إلا إحساسات ، لما كانت لدينا قط معلومات أو حقائق ؛ ذلك أن المعلومات لا تأتى إلا عن طريق الأفكار ، وعن طريق الصور المعممة ، والأشكال التى تصوغ فوضى الإحساسات وتكون منها التفكير المنظم[٨٤] . ولو كنا لا ندرك إلا الأشياء المفردة لكان التفكير مستحيلا ، ذلك أننا نتعلم التفكير بجمع الأشياء وتصنيفها حسب ما بينها من أوجه الشبه ، ثم نعبر عن الصنف بأجمعه باسم عام له ، فلفظ رجل يمكننا من أن نفكر فى جميع الرجال ، ولفظ منضدة يمكننا من التفكير فى جميع المناضد ، ولفظ ضوء فى جميع الأضواء التى سطعت فى البر أو البحر . وليست هذه الآراء (ideai و eidn) أشياء تدركها الحواس ، ولكنها حقائق تعرف بالتفكير ، لأنها تبقى ، ولا تتغير ، ولو انعدمت

جميع الموجودات الحسية المقابلة لها . فالرجال يولدون ويموتون ، ولكن « الرجل » يبقى . وليس كل مثلث بمفرده إلا مثلثاً ناقصاً ، يفنى عاجلا أو آجلا ، ومن أجل هذا فهو غير حقيقى نسبياً ، ولكن « مثلث » — أى الشكل والقانون اللذين ينطبقان على جميع المثلثات — كامل سرمدى[٨٥] . وكل الأشكال الرياضية أفكار سرمدية وكاملة(*) ، وكل ما تقوله الهندسة عن المثلثات ، والدوائر ، والمربعات والمكعبات ، والكرات ، يبقى صحيحاً ، ومن ثم فهو « حقيقى » ولو لم توجد هذه الأشكال فى العالم المادى فى الماضى أو فى المستقبل . والمعانى المجردة هى الأخرى حقيقة بهذا المعنى ؛ فالأعمال الفردية الفاضلة قصيرة الأجل ولكن الفضيلة تبقى حقيقة خالدة فى التفكير وأداة للتفكير ، وهذا أيضاً شأن الجمال ، والكبر ، والمشابهة وما إليها[٨٧] . فالأعمال والأشياء الفردية أشياء وأعمال بالصورة التى نعرفها بها ، لأنها تشترك فى هذه الأشكال الكاملة أو الأفكار ، وتحقق وجودها بدرجة قليلة أو كثيرة . وعالم العلم والفلسفة لا يكون من أشياء مفردة ، بل يتكون من أفكار(**) [٨٨] ؛

(*) ولقد حاول أفلاطون فى سنيه الأخيرة أن يبرهن على عكس نظرية فيثاغورس ، أى أن الأفكار جميعها صور رياضية[٨٦] .

(**) وازن بين هذا وبين قول كرل : « إن الأفكار وحدها عند العلماء المحدثين ، كما هى عند أفلاطون ، هى الحقائق[٨٩] » . وانظر ايضا قول اسپنوزا : « لست افهم من قولهم تتابع العلل والمعلولات الحقة ، ان هناك سلسلة من الأشياء الفردية المتغيرة ؛ وليس ذلك فقط لأن عددها يتخطى الحصر ، بل لأن ... وجود الأشياء المعينة لا صلة بينه وبين جوهر هذه الأشياء ، وليس هو حقيقة ازلية » (لكى تكون هندسة المثلثات حقيقية ، ليس من الضرورى أن يوجد أى مثلث خاص) . « على أنه ليس من الضرورى أن نفهم سلسلة الأشياء الفردية المتغيرة ، لأن جوهرها ... لا يوجد إلا فى الأشياء الثابتة الأزلية ومن القوانين المسجلة فى هذه الأشياء ، والمكونة لشرائعها الحقة التى بمقتضاها صنعت ورتبت[٩٠] » . ويلاحظ القارئ أن هرقليطس وبارمنيدس يتفقان مع أفلاطون فى نظريته الخاصة بالأفكار : فهرقليطس إذن على حق ، وتتابع الأشياء حقيقى فى عالم الحواس ؛ كما أن بارمنيدس على حق والوحدة التى لا تتبدل حقيقة فى عالم الأفكار .

والتاريخ المتميز عن السِّيَر هو قصة الإنسان ، وليس علم الأحياء هو علم كائنات عضوية معينة بل هو علم الحياة نفسها ، وليست العلوم الرياضية هي دراسة الأشياء المجسمة بل هي دراسة العدد ، والعلاقة ، والشكل ، مستقلة عن الأشياء نفسها ، ولكنها تصدق على جميع الأشياء . والفلسفة هي علم الأفكار .

وكل شيء في ميتافيزيقية أفلاطون يدور حول نظرية الأفكار . فالله المحرك الأول الذي لا يتحرك ، أو روح العالم[٩١] ، يحرك كل شيء وينظمه حسب القوانين والأشكال الأزلية ، وهي الأفكار التي لا تتبدل والتي تكون ، على حد قول أصحاب الأفلاطونية الحديثة ، الكلمة أو الحكمة الإلهية أو عقل الله . وأرقى الأفكار هو الخير ، ويرى أفلاطون في بعض الأحيان أن هذا الخير هو الله نفسه[٩٢] ، ولكنه في أكثر الأحيان هو أداة الخلق المادية المرشـــدة ، والشكل الأعلى الذي تنجذب إليه كل الأشياء . وإدراك هذا الخير ، ورؤية هذا المثل الأعلى الذي يشكل عملية الخلق ، هو أسمى غاية تبتغيها المعرفة[٩٣] . وليست الحركة وعملية الخلق عمليتين آليتين. بل هما تحتاجان في العالم ، كما نحتاج نحن ، إلى روح أو مبدأ حيوي يكون هو قوتهما المنشئة المبدعة[٩٤] .

وليس شيء حقيقياً إلا الذي فيه قوة[٩٥] ، ومن أجل هذا فإن المادة ليست حقيقة أساسية (to me on) بل هي مجرد مبدأ من القصور الذاتي ، وإمكانياته تنتظر أن يعطيها الله أو الروح شكلا خاصا وكيانا حسب فكرة من الأفكار. والروح هي القوة المتحركة بنفسها الموجودة في الإنسان ، وهي جزء من الروح المتحركة بنفسها الموجودة في الأشياء جميعها[٩٦] . وهي قوة حيوية خالصة ، مجردة من الجسم ، وخالدة . وقد وجدت قبل الجسم ، وجاءت معها من حاولها في أجسام سابقة بذكريات كثيرة إذ أيقظتها الحياة الجديدة حسبناها خطأ معلومات جديدة . ولنضرب لذلك مثلا الحقائق

الرياضية.فهى بأجمعها فطرية بهذه الطريقة ، وكل ما يفعله التعليم هو أنه يوقظ ذكريات الأشياء التى عرفتها الروح فى حيواتها الكثيرة الماضية[٩٧] . وإذا مات الإنسان انتقل روحه أو مبدأ الحياة الذى فيه إلى كائنات عضوية أخرى أرقى منه أو أحط حسب ما استحقته فى تجسداتها السابقة . وربما ذهبت الروح المذنبة إلى المطهر أو الجحيم ، وذهبت الروح الفاضلة إلى جزائر المباركين[٩٨] . فإذا ما تطهرت الروح فى خلال الحيوات المختلفة من جميع آثامها ، تحررت من التجسد وصعدت إلى الفردوس تتمتع فيه بالسعادة السرمدية(*) [٩٩] .

٤ — العالم الأخلاقى

لقد كان أفلاطون يعرف أن كثيرين من قرائه سيكونون من المتشككين ، ودليلنا على هذا أنه قضى بعض الوقت يحاول وضع قانونى أخلاق طبيعى يبعث فى نفوس الناس الرغبة فى الاستقامة والصلاح من غير أن يعتمدوا على السماوات والمطهر والجحيم[١٠١] ؛ وإن المحاورات التى كتبها فى حياته الوسطى لتتحول شيئاً فشيئاً من الميتافيزيقا إلى الأخلاق والسياسة « إن أعظم أنواع الحكمة وأجلها هى الحكمة المتصلة بتنظيم الدول والأسر[١٠٢] » .

والمشكلة الرئيسية فى علم الأخلاق تدور حول النزاع الظاهر بين ملاذ الفرد وبين الخير الاجتماعى . ويعرض أفلاطون هذه المشكلة عرضاً واضحاً ويورد على لسان كلياس Callias من الحجج التى تبرر الأنانية ما لا يقل عن أقوى الحجج التى أوردها أى داعية لمخالفة القواعد الخلقية فى عصر من العصور[١٠٣] . وهو يعترف بأن كثيراً من اللذائذ لا عيب فيه ولا إثم ،

(*) يصعب علينا أن نحكم من مقدرا ما فى هذه العقيدة ، عقيدة الخلود ، الهندية — الفيثاغورية — الأورفية من تصوير متعمد يهدف إلى حماية الناس من الزلل . ويعرضها أفلاطون عرضاً تهكمياً ، كأنها فى نظره لا تعدو أن تكون أسطورة نافعة ، أو عوناً شديداً على الخلق الطيب .

وأن الإنسان فى حاجة إلى الذكاء للتمييز بين اللذات الطيبة واللذات الضارة ، وأن من الواجب أن تربى فى الطفل عادة الاعتدال وإدراك « الأواسط الذهبية للأمور » خشية أن يأتى الذكاء متأخراً بعد فوات الوقت[١٠٤] .

وتتكون النفس أو أصل الحياة من ثلاث درجات أو أجزاء — الشهوة ، والإرادة ، والفكر ، ولكل جزء من هذه الأجزاء فضيلته الخاصة — الاعتدال والشجاعة ، والحكمة ؛ ويجب أن تضيف إليها التقوى والعدالة — وأداء واجب الإنسان نحو والديه وآلهته . ويمكن تعريف العدالة بأنها هي تعاون الأجزاء فى الكل ، أو العناصر فى الأخلاق ، أو الأهلين فى الدولة ، بحيث يقوم كل جزء بواجبه اللائق به على الوجه الأكمل[١٠٥] . وليس الخير هو الفعل وحده أو اللذة وحدها ، بل هو امتزاجهما بنسب ومقادير تنتج منها حياة الفعل[١٠٦] . والخير الأسمى كائن فى العلم الخالص بالأشكال والقوانين السرمدية ، و « أسمى خير » من الناحية الأخلاقية « ... هو ما فى النفس من قدرة أو موهبة ، إذا كان ثمة شيء من هذا النوع تستطيع به أن تعرف الحقيقة ، وأن تفعل كل الأشياء من أجل الحقيقة[١٠٧] ؛ ومن يحب الحقيقة لا يهمه أن يجزى الإساءة بالإساءة[١٠٨] » ، بل يفضل أن يتحمل على أن يرتكب هو الظلم ، و « يضرب فى الأرض برا وبحرا يبحث عن الناس الذين لا يجد الفساد سبيلا إليهم ، والذين لا تُقَوَّم صحبتهم بالمال أيا كان . . . والذين يهبون أنفسهم للفلسفة بحق يمتنعون عن الشهوات الجسمية ، وإذا ما عرضت عليهم الفلسفة أن تطهرهم من الشر وتحررهم منه ، أحسوا بأن من واجبهم ألا يقاوموا تأثيرها فيهم ؛ ومن أجل ذلك يميلون نحوها ، ويسيرون خلفها للهدف الذى تقودهم إليه[١٠٩] » .

وكان أفلاطون قد حرق قصائده وفقد عقائده الدينية ولكنه ظل مع ذلك شاعراً وعابداً ؛ يغمر فكرته عن الخير إحساس قوى بالجمال وتقوى ممتزجة

بالزهد والتقشف ؛ توحدت فيه الفلسفة والدين وامتزجت فيه الأخلاق بحاسه الجمال . ولما تقدمت به السن عجز عن أن يرى الجمال منفصلا عن الخير والحقيقة . وكان فى دولته المثالية يفرض الرقابة على جميع الفن والشعر اللذين قد ترى الحكومة أن فيهما نزعة مغايرة للأخلاق الفاضلة أو الوطنية ، وهو يمنع فيها جميع الخطب وجميع المسرحيات المضادة للدين ؛ وحتى شعر هومر نفسه — الذى يصور الدين المغاير للأخلاق تصويراً مغرياً — يجب أن يضحى به . وكان يجيز فى هذه الدولة المثالية أساليب الموسيقى الدُّورية والفريجية ؛ ولكنه يشترط ألا تضر بها آلات معقدة التركيب أو يعزفها فنانون يحدثون « أصواتا وحشية » فى أثناء عرضهم الفنى[١١٠] ، أو يدخلون فيها بدعا متطرفة .

« يجب الابتعاد عن إضافة أى نوع جديد لأنواع الموسيقى ، لأن هذا يعرض الدولة كلها للخطر ؛ وسبب ذلك أن الأنماط الموسيقية إذا اضطربت أثرت حتما فى أهم الأنظمة السياسية . . . ذلك أن النمط الجديد يتأصل فى الدولة تدريجا ، ويتطرق شيئاً فشيئاً إلى أخلاق الناس وعاداتهم ، ومن هذه الأخلاق والعادات يهاجم الشرائع والدساتير ، ويظهر فى هذا الهجوم منتهى السفالة ، وينتهى الأمر بقلب كل شىء فى الدولة رأساً على عقب[١١١] .

والجمال كالفضيلة إنما يكون فى اللياقة ، والتناسب ، والنظام . والعمل الفنى يجب أن يكون مخلوقا حيا ، ذا رأس ، وجذع ، وأطراف ، توحدها وتبعث فيها الحياة ، فكرة واحدة[١١٢] . ويظن هذا المتزمت المتحمس أن الجمال الحق هو جمال العقل لا جمال الجسم ، وأن الأشكال الهندسية ذات جمال سرمدى مطلق ، وأن القوانين التى تقوم عليها السموات تفوق النجوم فى جمالها[١١٣] . والحب هو طلب الجمال ويتألف من ثلاث مراحل أولاها حب الجسم والثانية حب الروح والثالثة حب الحقيقة . وحب الجسم بين الرجل والمرأة مشروع لا إثم فيه لأنه وسيلة للتناسل الذى هو نوع من أنواع الخلود[١١٤] ؛ ولكنه مع ذلك صورة بدائية من

الحب غير جديرة بالفيلسوف . والحب الجسمي بين الرجل والرجل أو بين المرأة والمرأة مناف للطبيعة ويجب قمعه لأنه يعطل التناسل(١١٥) . وقمعه مستطاع بالسمو به إلى المرحلة الثانية أى المرحلة الروحية من مراحل الحب : فى هذه المرحلة يحب الرجل الكبير السن الشاب لأن وسامته رمز للجمال الطاهر السرمدى ، والشاب يحب الشيخ لأن حكمته تيسر له سبيل الفهم والشرف . ولكن أسمى أنواع الحب هو « حب الاستحواذ على الخير الأبدى » وهو الحب الذى يسعى وراء الجمال المطلق للأفكار أو الأشكال الكاملة السرمدية(١١٦) . وهذا النوع لا العاطفة غير الجسمية بين الرجل والمرأة هو « الحب الأفلاطونى » ، وهو النقطة التى يتحدث عندها أفلاطون الشاعر مع أفلاطون الفيلسوف فى الرغبة القوية فى الفهم ، وتكاد هذه الرغبة أن تكون شغفا صوفياً بما فى القانون وما فى بناء العالم وحياته وغايته من نور النعيم الباهر .

لأن أديمنتس ، الذى لا يتحول عقله عن الوجود الحق لا يجد لديه وقتاً يطل فيه على شئون الناس ، أو يمتلىء فيه قلبه حسداً وغلا من النزاع معهم ؛ ذلك أن عينه تتجه على الدوام نحو المبادىء الثابتة التى لا تتبدل ، وهى التى لا يؤذى بعضها بعضاً ، بل يراها كلها تتحرك فى نظام حسب قوانين العقل ؛ فهو يحذو حذو هذه المبادىء ، وعلى مثالها يشكل حياته قدر المستطاع(١١٧) » .

٥ — الطوباوى

ولكنه مع هذا يهتم بشئون الناس ، وتتمثل أمام ناظريه رؤيا اجتماعية أيضاً ، ويحلم بوجود مجتمع خال من الفساد والفقر والظلم والحروب . وقد روعه ما كان يسود أثينة من انقسامات حزبية مريرة « وشقاق ، وعداء ، وحقد ، وريبة ، لا تكاد تخبو نارها حتى تعود إلى الاشتعال »(١١٨) . وكان يحتقر أبلجركية المال كما يحتقرها جميع النبلاء أبناء الأسر الشريفة ذات المجد التليد ،

ويقول عن رجالها إنهم « رجال الأعمال . . . الذين لا تطاوعهم نفوسهم إلى رؤية من قضوا عليهم بجشعهم ، ويدفعون سمومهم — أى ما لهم — فى جسم كل من لا يحْذَرهم ، ثم يستردون ما أخذوه منهم أضعافاً مضاعفة : وتلك هى الطريقة التى يملأون بها الدولة بالكسالى والمعدمين »[119] « ثم تنشأ الدمقراطية ، بعد أن يتغلب الفقراء على معارضيهم ، فيقتلون بعضهم ، وينفون من البلاد البعض الآخر ، ثم يمنحون الباقين أقساطاً متساوية من الحرية والسلطة »[120] . ويتضح آخر الأمر أن الدمقراطيين لا يقلون فساداً عن الحكام الأثرياء : فهم يستخدمون القوة التى تؤول إليهم لكثرة عددهم ليوزعوا الأموال العامة على الفقراء ، ومناصب الدولة عليهم أنفسهم ؛ وهم يتملقون العامة ويداهنونهم حتى تنقلب الحرية فوضى ، وتنحط المعايير بعد أن تؤول السلطة العليا إلى أراذل الناس ، وتغلظ الطباع بسبب انتشار الوقاحة والسباب ؛ وكما أن السعى الجنونى وراء المال يقضى على الحكم الألجركى ، كذلك يقضى على الدمقراطية التطرف فى الحرية .

سقراط : فى مثل هذه الدولة تسود الفوضى ، وتتخذ سبيلها إلى بيوت الأفراد ، وينتهى الأمر بانتقال عدواها إلى الحيوانات . . . فيتعود الأب النزول إلى مستوى أبنائه . . ويتعود الابن أن يضع نفسه فى مستوى أبيه ، فلا يخشى أبويه ، ولا يستحى منهما . . . ويخاف الأستاذ طلابه ويتملقهم ، ويحتقر الطلاب أساتذتهم ومعلميهم . . . ويصبح الكبار والصغار سواسية ، فيضع الشاب نفسه فى مستوى الشيخ ، ولا يستنكف أن يعارضه بالقول والفعل ولا يتحرج الشيوخ من تقليد الشبان . ومن واجبى ألا أنسى حرية الجنسين الذكور والإناث ومساواة كليهما بالآخر فى علاقتهما بعضهما ببعض . . . والحق أن الخيل والحمير ، لن تعلم وتتخذ سبيلا للسير مع الناس جنباً إلى جنب ، والاستمتاع بكل ما لأحرار الناس من حقوق وكرامات . . وقصارى القول أن الأشياء جميعها توشك أن تنفجر لكثرة ما أتخمت بالحرية . . .

أديمنتس : ولكن ما هى الخطوة التالية ؟ ...

سقراط : إن ازدياد أى شىء فوق حده كثيراً ما يؤدى إلى انقلاب فى الاتجاه المضاد له . . . ولهذا يبدو أن الإفراط فى الحرية ، سواء كان ذلك من ناحية الأفراد أو من ناحية الدول ، لن يؤدى إلا إلى الاستعباد ... ونرى أن أشد أنواع الحكومات استبداداً تنشأ من أشد أنواع الحرية تطرفاً .

وإذا ما صارت الحرية تحللا من كل القيود ، فقد اقتربت الدكتاتورية . ذلك أن الأغنياء يخشون وقتئذ أن تجردهم الدمقراطية من مالهم فيأتمرون بها ليقضوا عليها[١٢٢] ، وقد يغتصب السلطة أحد الأفراد المغامرين ، ويعد الفقراء بكل ما يرغبون فيه ، ويحيط نفسه بجيش خاص به ، ويقتل أولا أعداءه ثم يتبعهم بأصدقائه « حتى يطهر الدولة » من هؤلاء وأولئك ، ويقيم حكومة دكتاتورية[١٢٣] . وفى هذا الصراع العنيف بين الآراء المتطرفة يكون الفيلسوف الذى ينادى بالاعتدال والتفاهم أشبه « برجل وقع بين الوحوش » ؛ فإذا كان حكيما « احتمى بجدار حتى تمر العاصفة والريح الهوجاء »[١٢٤] .

ومن العلماء من يلجئون فى هذه الأزمات إلى الماضى ، ويشتغلون بكتابة التاريخ ، أما أفلاطون فيلجأ إلى المستقبل ؛ ويضع نظام المدينة الفاضلة ، ويرى أن أول ما يجب عمله هو البحث عن ملك صالح يسمح لنا بأن نجرى التجارب على شعبه ، وواجبنا الثانى هو أن نبعد من هذه المدينة جميع الكبار فلا نستبقى منهم إلا من لا غنى عنهم لحفظ النظام وتعليم الشبان ، وذلك لأن أساليب الكبار تفسد الشباب وتطبعهم بطابع الماضى . ثم نعد الشباب رجالا كانوا أو نساء منهجا تعليمياً يمد إلى عشرين عاما ، ويشمل تعليم الأساطير ، وهو لا يقصد بها أساطير الدين القديم الفاسدة ، بل أساطير جديدة تعود النفس طاعة الآباء والدولة(*) . فإذا قضوا فى التعليم هذه المدة وضعت لهم اختبارات جسمية وعقلية وأخلاقية . فأما الذين يخفقون

(*) أى أن أفلاطون يحكم بأن القانون الأخلاق الطبيعى يكفى بمفرده .

فى هذه الاختبارات فيصبحون هم رجال الاقتصاد فى الدولة — رجال الأعمال ، والصناع ، والزراع ؛ ويسمح لهؤلاء بأن تكون لهم أملاك خاصة ، وأن يكونوا على درجات مختلفة فى الثراء (داخل حدود معينة) حسب كفاياتهم ، على أنه لا يسمح بوجود العبيد . أما من يجتازون هذا الاختبار الأول فيتلقون منهاجاً آخر من التعليم والتدريب يمتد إلى عشرة أعوام أخرى .

ثم يختبرون من جديد بعد الأعوام الثلاثين ؛ فأما الساقطون فيصبحون جنوداً ، لا يسمح لهم بأملاك خاصة ولا يشتغلون بالأعمال التجارية والمالية ، بل يعيشون فى شيوعية عسكرية . وأما الذين يجتازون الاختبار الثانى فيبدأون فى ذلك الوقت (لا قبله) دراسة « الفلسفة الإلهية[١٢٥] مدة خمس سنين . وتشمل الدراسة جميع فروع هذه الفلسفة من رياضيات إلى منطق إلى سياسة وقانون . فإذا أتموا فى هذه الدراسة النظرية خمسة وثلاثين عاما ، ألقوا فى الحياة العملية ليكسبوا قوتهم ويشقوا طريقهم . وبعد خمسين عاما يصبح الباقون منهم على قيد الحياة الطبقة المهيمنة على المدينة أو حكامها من غير حاجة إلى انتخاب .

ويمنح هؤلاء السلطة كلها ، ولكنهم لا تكون لهم أملاك . ولن تكون للمدينة قوانين ، بل تعرض كل القضايا والمنازعات على الملوك — الفلاسفة ليفصلوا فيها بحكمتهم التى لم تفسدها السوابق . ولكن يكون لهؤلاء الملوك — الفلاسفة ملك ولا مال ، ولا أسر ، ولا زوجات يختصون بهن على الدوام ؛ وذلك لكيلا يسيئون استخدام سلطتهم . ويتولى الشعب التصرف فى أموال المدينة كما يتولى الجند السلطة العسكرية . وليست الشيوعية عند أفلاطون نوعا من الدمقراطية ، بل هى أرستقراطية ، يعجز عن بلوغها عامة الشعب ، ولا يحتملها إلا الجنود والفلاسفة .

أما الزواج فيجب أن ينظمه الحراس لجميع الطبقات تنظيما دقيقاً يهدف إلى غرض مقدس هو تحسين النسل : « فيجب أن يجتمع أفضل الجنسين بعضهما ببعض أكثر ما يستطيعون ، وأن يجتمع المنحطون من الرجال بالمنحطات من النساء ،

ثم يربى أبناء الأولين ولا يربى أبناء الآخرين ، لأن هذه هى السبيل الوحيدة للاحتفاظ بالشعب فى حالة صالحة »[١٢٦] وعلى الدولة أن تتولى تربية الأطفال جميعهم وتقدم لهم فرصاً للتعليم متكافئة . ويجب ألا تكون الطبقات وراثية ، وأن يكون للبنات من الفرص مثل ما للأولاد ، وألا تمنع النساء من تولى مناصب الدولة لأنهن نساء . ويعتقد أفلاطون أنه بهذا المزيج من الفردية والشيوعية ؛ وبالعمل على تحسين النساء ، ومساواة المرأة بالرجل فى الحقوق ، يستطيع أن يوجد مجتمعاً يسر الفيلسوف أن يعيش فيه . ويختم بحثه بالعبارة الآتية : « وإلى أن يكون الفلاسفة ملوكا ، أو أن يتشبع ملوك هذا العالم وأمراؤه بروح الفلسفة وقوتها . . . لن تنجو المدن ولن ينجو الجنس البشرى من الشر »[١٢٧] .

٦ — المشترع

وظن أنه وجد فى دنيسوس الثانى الأمير المطلوب . وكان يشعر كما يشعر ڤلتير أن الملكية المطلقة تمتاز من الدمقراطية بأن المصلح فى الحالة الأولى لا يحتاج إلى إقناع أكثر من رجل واحد[١٢٨] . وفى ذلك يقول إنك إذا أردت أن تنشئ دولة صالحة فما « عليك إلا أن تضع على رأسها حاكما بأمره ، شاباً معتدلا ، سريع التعلم ، قوى الذاكرة شجاعا ، كريم الطبع . . . حسن الحظ ؛ ويكون حسن حظه فى أنه معاصر لمشترع عظيم ، وأن الظروف الموفقة تجمع أحدهما إلى الآخر »[١٢٩] لكن اجتماعه بدنيسوس كان كما سبق القول من أسوأ الظروف .

وكان أفلاطون فى آخر سنى حياته لا يزال يتوق إلى أن يكون مشترعا ، ولذلك عرض على الناس دولة تلى الدولتين السابقتين فى الحسن ؛ وهو يتحدث عن هذه الدولة الثالثة فى كتاب القوانين ، وهذا أقدم المراجع الأوربية المعروفة فى التشريع ، وهو إلى هذا دراسة نافعة فى عهد الشيخوخة

اليونانى الذى أعقب عهد الشباب الإبداعى . وفيه يقول أفلاطون إن الدولة الجديدة ينبغى أن تكون فى داخل الأرض ، بعيدة عن البحر حتى لا تفسد الآراء الأجنبية إيمانها ، والتجارة الأجنبية أمنها ، والترف الأجنبى بساطتها وانطواءها على نفسها(١٣٠) . ويجب أن يقتصر عدد مواطنيها الأحرار على العدد السهل الانقسام وهو ٥٠٤٠ يضاف إليهم أفراد أسرهم . ويختار المواطنون من بينهم ٣٦٠ حارساً يقسمون إلى جماعات تتألف كل واحدة منها من ثلاثين شخصاً يتولون تصريف أعمال الدولة شهراً واحداً ، ويختار الحراس الثلثمائة والستون مجلساً ليلياً مؤلفاً من ستة وعشرين عضواً يجتمع فى الليل ويشرع لكل شئون المدينة الحيوية(١٣١) . ويجب على هؤلاء الأعضاء أن يقسموا الأرض بين أسر المواطنين أقساماً متساوية على ألا يسمح لهؤلاء الملاك بتقسيمها بعدئذ ولا بالنزول عنها لغيرهم . وعلى الحراس « أن يتخذوا ما يجب اتخاذه من الاحتياطات حتى لا يضر المطر بالأرض بدل أن ينفعها . وأن يمنعوا المطر عنها بالجسور والخنادق ، ويجعلوا قنوات » الرى « توصل الكثير من الماء لجميع الأراضى حتى الأراضى الجافة »(١٣٢) . ويجب ألا تزيد التجارة على الحد الأدنى حتى لا ينشأ من هذا عدم المساواة الاقتصادية . ويجب ألا يحتفظ الناس بشىء من الذهب أو الفضة ، وألا يتعاملوا بالربا(١٣٣) ، وألا يشجع أى إنسان على أن يعيش باستثمار أمواله ، بل يشجع على أن يعيش بالاشتغال يزرع الأرض بجد ونشاط . ويجب على كل من يحصل من ريع الأرض على أربعة أمثال قيمة أن يرد الباقى إلى الدولة . وقد قيد حق التوريث والوصية بأشد القيود(١٣٤) وجعل للنساء فرصا تعليمية وسياسية متكافئة مع الرجال(١٣٥) ، وفرض على الرجال أن يتزوجوا بين الثلاثين والخامسة والثلاثين ، وإلا ألزموا بدفع غرامات سنوية باهظة(١٣٦) ، وعليهم ألا يلدوا أطفالا إلا فى خلال عشر سنين . ومن الواجب تنظيم الشراب وغيره من وسائل اللهو للمحافظة على أخلاق الشعب(١٣٧) .

وللوصول إلى هذا كله فى هدوء وسلام يجب أن تشرف الدولة إشرافا تاما على شئون التعليم ، والنشر ، وغيرهما من وسائل تكوين الرأى العام وأخلاق الأفراد ، ويجب أن يكون أكبر موظف فى الدولة هو وزير المعارف . ويجب أن تحل السلطة محل الحرية فى شئون التعليم ، وذلك لأن ذكاء الأطفال أقل من أن يجيز لنا أن نتركهم يختطون لنفسهم حياتهم . ويجب ألا تفرض الرقابة على الآداب ، والعلوم والفنون ، فلا يجوز أن يعبر عن آراء يرى أعضاء المجلس أنها ضارة بالآداب العامة أو الخلق القويم . وإذ كانت طاعة الوالدين والقوانين لا بد أن تستند إلى قوة أعلى من قوة البشر وتأييدها فإن الدولة هى التى تقرر أى الآلهة تعبد وكيف تعبد ومتى تعبد . وكل من يتردد فى الخضوع لهذا الدين الرسمى يسجن ، فإن أصر على عدم الخضوع له وجب أن يقتل(١٣٨) .

وليست الحياة الطويلة نعمة لصاحبها على الدوام . ولقد كان من الخير لأفلاطون أن يموت قبل أن يوجه هذه التهمة لسقراط ، وأن يمهد هذا التمهيد لجميع محاكم التفتيش المستقبلة . ولعل دفاعه عن نفسه هو أنه يحب العدالة أكثر من حبه للحقيقة ، وأن هدفه هو أن يمحو الفقر والحرب . وأنه لا يستطيع أن يمحوهما إلا بسيطرة الدولة على الأفراد سيطرة تامة ، وأن هذه السيطرة لا تكون إلا بواحدة من اثنتين القوة أو الدين . وكان يظن أن ما أصاب الأثينين من انحلال أيونى فى الأخلاق والسياسة لا علاج له إلا بالقوانين الاسپارطية المشتقة من النظام الدورى . والنزعة السارية فى تفكير أفلاطون كله هى خوفه من أن يساء استخدام الحرية ، وأن يفهم الناس الفلسفة على أنها الرقيب على شئون الناس والمنظمة للفنون . ويعرض أفلاطون فى كتاب القوانين تسليم أثينة المحتضرة التى استوفت حياتها لاسپارطة التى قضت نحبها من أيام ليقورغ ، وإذا لم يكن فى وسع أشهر فلاسفة أثينة أن يقول أكثر مما قال دفاعا عن الحرية . فمعنى هذا أن بلاد اليونان كانت على أتم استعداد لأن يتولى أمورها ملك . وإذا ما ألقينا نظرة

شاملة على جميع هذه الآراء اعترتنا الدهشة. إذ نرى أن أفلاطون قد جاء فى هذا الوقت القديم بكل ما جاءت به فى العصور الوسطى للفلسفة والدين والأنظمة المسيحية ، وبالشيء الكثير مما جاءت به الفاشية فى العصر الحديث . لقد صارت نظرية الأفكار هى « واقعية » المدرسيين — واقعية « العموميات » الموضوعية ، ولم يكن أفلاطون مسيحياً قبل وجود المسيحية — على حد قول نتشه — فحسب ، بل كان فوق ذلك متزمتاً مسيحياً قبل وجود عصر التزمت المسيحى . فهو يرتاب فى الطبيعة البشرية ويراها شراً ، ويعتقد أنها هى الخطيئة الأولى التى لوثت النفس . وهو يعمد إلى تلك الوحدة القائمة بين الجسم والروح والتى كانت هى الفكرة الرئيسية فى القرنين السادس والخامس ، فيقسمها إلى جسم خبيث وروح قدسية[١٣٩] . وهو يستمد من فيثاغورس والأورفية اعتقاد الشرق فى تناسخ الأرواح ، والكرما(*) ، والخطيئة والتطهير ، و « الانطلاق » ؛ ويضرب فى كتبه الأخيرة على نغمة أخروية شبيهة بنغمة أوغسطين أى نغمة الرجل الذى تاب وأناب وعاد إلى الدين الصحيح ، ولولا هذا النثر الذى بلغ غاية الكمال لشك الإنسان فى أن أفلاطون من اليونان .

وقد بقى أفلاطون أحب المفكرين اليونان إلى الناس لأنه يتصف بعيوبهم الجذابة المحبوبة . وكان مثل دانتى مرهف الحس إلى حد يستطيع معه أنه يرى الجمال الكامل السرمدى وراء الأشكال الدنيوية غير الكاملة . وكان زاهداً لأنه كان مضطراً فى كل لحظة إلى أن يكبح جماح مزاجه القوى العنيف[١٤٠] . وكان شاعراً يسيطر عليه الخيال ويسير وراء كل فكرة شاذة غريبة ، وتستحوذ عليه مآسى الأفكار ومباهجها ، يهيجه التحمس الذهنى

(*) عقيدة بوذية تقول إن أعمال الإنسان والكائنات الحية بوجه عام يحددها تتابع العلل والمعلولات السابقة بنظام محتوم لا يتبدل . (المترجم)

المنبعث من الحياة العقلية الحرة التى كانت تستمتع بها أثينة . ولكن كان من سوء حظه أنه رجل منطق وشاعر معاً ، وأنه كان أقوى مجادل فى العصر القديم ، فقد كان أدق فى جدله من زينون الإيليائى ومن أرسطو ، وأنه كان يشغف بالفلسفة أكثر من شغفه بأية امرأة أو أى رجل ، وأنه انتهى فى آخر الأمر بمثل ما انتهى إليه البحاث الأكبر فى رواية دستيوفسكى ، وهو قمع كل تفكير حر ، واعتقاده بأن الفلسفة يجب أن يقضى عليها لكى يعيش الإنسان . ولو أن مدينته الفاضلة تحققت فعلا لكان هو أول ضحاياها .

الفصل الرابع

أرسطوطاليس

---

١ – أعوام التجوال

لما مات أفلاطون شيد أرسطوطاليس مذبحا له وكرمه تكريما يكاد يبلغ حد التأليه ، ذلك لأنه كان يعجب بأفلاطون وإن لم يكن يميل إليه . وكان أرسطوطاليس قد قدم إلى أثينة من مسقط رأسه فى اسطاغيرا وهى مستعمرة يونانية صغيرة فى تراقية . وكان أبوه الطبيب الخاص لأمينتاس الثانى Amyntas II والد فليب ، وكان قد علم الشاب (إذا لم يكن جالينوس مخطئاً فى قوله) شيئاً من التشريح قبل أن يبعث به إلى أفلاطون[١٤١] . واجتمعت باجتماع الفيلسوفين نزعتان متعارضتان فى تاريخ الفكر — النزعة الصوفية والنزعة الطبيعية — وأخذتا تحتربان . ولو أن أرسطوطاليس لم يستمع إلى أفلاطون تلك المدة الطويلة (التى يقدرها بعضهم بعشرين عاماً) لجاز أن يكون له عقل علمى محض ؛ أما وقد استمع له تلك المدة فإن ابن الطبيب أخذ ينازع فيه تلميذ المعلم المتزمت ، ولم تتغلب إحدى النزعتين على الأخرى ، لهذا لم يقرر أرسطو طول حياته أى النزعتين يطيع . لقد كدس حوله ملاحظات علمية تكفى لإخراج موسوعة كاملة ، ثم حاول أن يحشرها فى القالب الأفلاطونى الذى صنع عقله المدرسى على غراره . ولقد نقض حجج أفلاطون فى كل مرحلة من مراحل تفكيره لأنه كان يستعير منه فى كل صفحة من صفحات كتبه .

وكان طالبا مجدا ، وسرعان ما لاحظ فيه معلمه هذا الجد . ولما قرأ أفلاطون رسالته عن الروح فى المجتمع العلمى كان أرسطوطاليس (على حد قول ديچين

لبرتس) « الشخص الوحيد الذى يستمع إليها من أولها إلى آخرها ، أما غيره فقد انفضوا من حوله » . ولما مات أفلاطون ذهب أرسطوطاليس إلى بلاط هرمياس Hermeias ، وكان قد درس معه فى المجمع العلمى وارتفع من عبد رقيق إلى أن صار حاكماً بأمره فى أترنيوس Atarneus وأسوس Assus من بلاد آسـيـة الصغرى . وتزوج أرسطوطاليس ببيثياس Pythias ابنة هرمياس (٣٤٤) ؛ وأوشك أن يستقر فى أسوس ، لكن الفرس اغتالوا هرمياس ، لأنهم ظنوه يدبر الخطط لمعاونة فليب فى غزوه المرتقب لبلاد آسية[١٤٣] . وفر أرسطوطاليس مع بيثياس إلى لسبوس القريبة وقضى فيها بعض الوقت يدرس تاريخ الجزيرة الطبيعى[١٤٤] . ثم ماتت بيثياس بعد أن رزق منها بنتاً ، ثم تزوج أرسطوطاليس بعدئذ الغانية هربليس Herpyllis أو عاشرها[١٤٥] ، ولكنه ظل إلى آخر أيام حياته يعز ذكرى بيثياس ، وأوصى وهو على فراش الموت أن تدفن عظامه بجوار عظامها ، ذلك أنه لم يكن بالرجل المنكب على الدرس والكتب الذى قد يتصوره الإنسان بالنظر إلى مؤلفاته . وفى عام ٣٤٣ دعاه فليب ليتولى تعليم الإسكندر ، وكان وقتئذ غلاماً طائشاً فى الثالثة عشرة من عمره . وأكبر الظن أن فليب قد عرف الفيلسوف أيام شبابه فى بلاط أمينتاس . وجاء أرسطوطاليس إلى پلا ؛ وظل يقوم بهذا الواجب الثقيل أربع سنين ؛ وفى عام ٣٤٠ كلفه فليب بالإشراف على إعادة بناء اسطرخوس وتعميرها ، وكانت قد ضربت فى أثناء الحرب مع أولنثوس Olynthus ؛ وطلب إليه فوق ذلك أن يضع لها شرائعها ؛ وقد قام بهذه الأعمال جميعها قياماً أرضى أهل المدينة ، فأخذت من ذلك الحين تحيى ذكرى هذا التعمير بإقامة عيد له فى كل عام[١٤٦] .

وفى عام ٣٣٤ عاد إلى أثينة ، وافتتح فيها مدرسة لتعليم البلاغة والفلسفة — وأكبر الظن أن الإسكندر قد أمده بما يلزمه من المال ، واختار مكانها فى أجمل دار للتدريب الرياضى فى أثينة ، وهى طائفة من المبانى خاصة بأپلو لوقيوس

(إله الرعاة) Apolls Lyceus تحيط بها حدائق غناء ، وطرقات مسقوفة ، وكان فى صدر النهار يلقى على الطلبة المنتظمين فيها دروساً فى موضوعات راقية ، وفى عجزه يلقى محاضرات على جماعات من الشعب أقل انتظاماً وأقل رقياً ممن يستمعون إليه فى الصباح . وأكبر الظن أن هذه المحاضرات الثانية كانت فى البلاغة ، والشعر ، والأخلاق والسياسة ، وقد جمع فى هذا البناء مكتبة كبيرة ، وأنشأ فيه حديقة للحيوان ومتحفاً للتاريخ الطبيعى ، وسميت المدرسة فيما بعد باللوقيون Lyceun ، كما سمى الطلاب بالمشائين وسميت فلسفتهم بالمشائية نسبة إلى المماشى المسقوفة (Pereptaoi) التى كان أرسطوطاليس يحب أن يسير فيها مع طلابه وهو يحاضرهم[١٤٧] . وقامت منافسة حاده بين اللوقيون التى كان معظم طلابها من الطبقة الوسطى ، وبين المجمع العلمى الذى كان يستمد معظم أعضائه من طبقة الأشراف ، ومدرسة إسقراط التى كان يؤمها فى الغالب يونان المستعمرات . ثم خفت حدة هذه المنافسة فيما بعد حين وجه إسقراط اهتمامه إلى الفلسفة ، وحين أخذ المجمع العلمى يعنى بالعلوم الرياضية ، وما وراء الطبيعة ، والسياسة ، وأخذت اللوقيون تعني بالتاريخ الطبيعى . وكان أرسطو يطلب إلى تلاميذه أن يجمعوا المعلومات فى الميادين العلمية المختلفة وينسقوها : كعادات البرابرة ، ودساتير المدن اليونانية ، وتواريخ الفائزين فى الألعاب البيثية والديونيشيا الأثينية ، وأعضاء الحيوانات ، وعاداتها ، وأوصاف النباتات وتوزيعها ، وتاريخ العلوم والفلسفة ، وأضحت هذه البحوث ذخيرة طيبة من المعلومات يستمد منها رسائله المختلفة التى يخطئها الحصر ، وكان أحياناً يولى هذه المعلومات من الثقة أكثر مما تستحق .

وكتب لأنصاف المتعلمين نحو سبع وعشرين محاورة يرى شيشرون وكونتليان أنها تضارع محاورات أفلاطون ، وهذه المحاورات هى التى قامت عليها شهرته فى الزمن القديم[١٤٨] ، وقد ضاعت فيما ضاع على أثر استيلاء البرابرة على رومة.

أما ما بقى لنا من مؤلفاته فهو مجموعة من الكتب الفنية ، المجردة إلى أبعد حد فى التجريد ، والخالية من المتعة إلى درجة تعز على التقليد ، وقلما كان العلماء الأقدمون يشيرون إليها فى مؤلفاتهم ، ولعله قد كتبها فى السنين العشرين الأخيرة من حياته بالرجوع إلى مذكرات له وضعها بنفسه ليعتمد عليها فى محاضراته ، أو من مذكرات دونها تلاميذه عن هذه المحاضرات : ولم تكن هذه الذخيرة العلمية الفنية معروفة خارج اللوقيون حتى نشرها أندرنكوس Andronicus من أهل رودس فى القرن الأول قبل الميلاد[١٤٩] . وقد بقيت لنا من هذه الكتب أربعون كتابا ، ولكن ديجين لير تس يضيف إليها ٣٦٠ كتابا أخرى أكبر الظن أنها رسائل قصيرة كل منها فى موضوع واحد . وهذه البقايا العلمية القليلة هى التى يجب علينا أن نبحث فيها عن الأفكار التى كانت وقتاً ما أفكاراً حية ، والتى أكسبت أرسطوطاليس فى العصور التى تلت عصره لقب « الفيلسوف » . وإذا ما أخذنا ندرسه فعلينا ألا نتوقع أن نرى فى كتاباته من البهجة ما فى أفلاطون ، ومن الفكاهة ما فى ديجين ؛ بل كل الذى نجده هو طائفة كبيرة من المعلومات القيمة ، ومن الحكمة المتحفظة الخليقة بصديق الملوك الذى يعيش من رفدهم[*] .

(*) ويمكن تقسيم ما بقى من رسائله ستة أقسام :

١ — رسائل فى المنطق : مقولات ، شروح ، تحليلات سابقة ، تحليلات لاحقة ، موضوعات ، استدلالات سوفسطائية

٢ — علوم :

(ا) علوم طبيعية : طبيعة ، ميكانيكا ، هيئة ، ظواهر جوية .

(ب) أحياء : تاريخ الحيوان ، أجزاء الحيوان ، حركات الحيوان ، إنتقال الحيوان ، تناسل الحيوان .

(حـ) علم النفس : فى الروح ، مقالات قصيرة فى طبيعة العالم .

٣ — ما وراء الطبيعة .

٤ — علم الجمال : البلاغة ، والشعر .

٥ — علم الأخلاق : الأخلاق النيقوماخية الأخلاق الأوديمية .

٦ — السياسة : علم السياسة ، دستور أثينة .

٢ العالم الطبيعى

إن الاعتقاد السائد هو أن أرسطو فيلسوف قبل كل شىء ، ولعل هذا من الأخطاء الشائعة ؛ بيد أننا سنعده فى هذا الكتاب عالما طبيعيا أولا ، حتى إذا لم يكن لهذا سند إلا أنه رأى فى الرجل جديد :

وأول ما نقوله عنه أن عقله الطلّعة يهتم بعملية الاستدلال وأصولها الفنية ، ويحلل هذه العملية والأصول تحليلا بلغ من الدقة حدا أصبح معه الأورغانون (Organon) أو الآلة (الفكرية) — وهو الاسم الذى أطلق بعد وفاته على رسالاته فى المنطق — المرجع الذى ظل المناطقة يعتمدون عليه مدى ألفى عام . وهو يتوق إلى أن يكون واضح التفكير ، وإن كان لا يصل إلى هذا الغرض فيما لدينا من كتبه إلا نادرا ؛ فهو يقضى نصف وقته فى تعريف مصطلحاته ، فإذا فرغ من هذا شعر بأنه قد حل المسألة التى يبحث فيها : وهو يعرّف التعريف نفسه تعريفا دقيقاً بأنه تحديد الشىء أو الفكرة بذكر الجنس أو الصنف الذى ينتمى إليه ذلك الشىء ، أو تنتمى إليه تلك الفكرة (كقوله « الإنسان حيوان ») والفروق الخاصة التى تميزه أو تميزها عن جميع أفراد الصنف (« الإنسان حيوان عاقل ») . ومما تمتاز به طريقته المنظمة أنه قسم المظاهر الرئيسية التى يمكن دراسة أى شىء بمقتضاها عشرة أقسام : المادة ، والكم ، والكيف ، والعلاقة ، والمكان ، والزمان ، والموضع ، والمِلْك ، والفاعلية ، والانفعالية — وهو تصنيف وجد فيه بعض الكتاب ما يعينهم على تنشيط ذهنهم الكليل .

وهو يرى أن الحواس هى المصدر الوحيد للمعرفة ، وأن القوانين العامة ليست إلا أفكاراً معممة ، وأنها ليست فطرية بل تكونت من مشاهدات للأشياء المتماثلة ، فهى مدرَكات وليست أشياء[١٥٠] . وهو يقرر قرار

لواثق مبدأ التناقض ، بوصفه الشيء البديهي فى المنطق كله ، وهو أن « الصفة الواحدة لا يمكن أن تكون من صفات الشيء الواحد ومن غير صفاته فى العلاقة الواحدة[١٥١] » . ويكشف عن المغالطات التى يقع فيها السوفسطائيون أو يغرون الناس بالوقوع فيها ، وينتقد المتقدمين لأنهم صوروا الكون أو وضعوا نظرياتهم عنه من خيالهم بدل أن يمضوا الوقت الطويل فى الرصد والتجارب بصبر وأناة[١٥٢] . ومثله الأعلى الاستدلال المنطقى وهو القياس - المكون من ثلاث قضايا ثالثتها نتيجة محتومة للقضيتين الأوليين ؛ ولكنه يقر بأنه إذا أريد تجنب الوقوع فى خطأ المصادرة على المطلوب الأول(*) وجب أن يسبق القياس استقراء واسع يجعل قضيته الكبرى مرجحة ؛ وهو وإن كان فى رسائله الفلسفية يضل فى بيداء الاستدلال يمجد الاستقراء ويجمع فى كتبه العلمية ذخيرة طيبة من الملاحظات المحدودة الدقيقة ، ويسجل فى بعض الأحيان تجاربه هو أو تجارب غيره من العلماء(**) . وقصارى القول أنه رغم أغلاطه واضع أساس الطريقة العلمية وأول من نظم التعاون فى البحث العلمى .

فهو يبدأ بحثه العلمى من حيث انتهى ديموقريطس ، ولا يخشى أن يلج كل ميدان فيه . وهو أضعف ما يكون فى الرياضيات والطبيعة ، ويقتصر فيهما على دراسة المبادئ الأساسية . فهو فى كتابه « الطبيعة » لا يسعى وراء اكتشافات جديدة بل يهتم بوضع التعاريف الواضحة للمصطلحات المستعملة فى هذا العلم كالمادة ، والحركة ، والمكان ، والزمان ، والاستمرار ، واللانهائى ، والتغير ، والنهاية . فالحركة والمكان عنده مستمران ، وهما لا تتكونان ، كما يفترض زينون ،

(*) هو افتراض صحة ما يراد إثباته . (المترجم)

(**) مثال ذلك أنه يشير فى كتابه « تناسل الحيوان (٤ : ٦ : ١) » إلى نمو العينين من جديد إذا أزيلتا فى صغار الطير ؛ وهو يرفض النظرية القائلة : إن الخصية اليمنى تنتج الذكور واليسرى تنتج الإناث من الأبناء ، ويستدل على ذلك بأن رجلا أزيلت خصيته اليمنى ومع ذلك ظل ينجب بنين وبنات .

من لحظات أو أجزاء صغيرة قابلة للانقسام ، والشيء « اللانهائى » موجود بالقوة لا بالفعل[١٥٣] . وهو يحس بالمشاكل التى أثارت تفكير نيوتن وإن لم يعمل شيئاً لحلها ؛ وهذه المشاكل هى القصور الذاتى ، والجاذبية والحركة ، والسرعة . ولديه فكرة عن توازن القوى ، ويقول فى قانون الروافع : « كلما كان الثقل المحرك بعيداً عن نقطة الارتكاز كان أقدر على تحريك (الجسم)[١٥٤] » .

ويقول إن الأجرام السماوية كلها كرات — ويؤكد ذلك بالنسبة للأرض بنوع خاص ، لأنه لا يستطاع تفسير شكل القمر إذا خسف بسبب اعتراض الأرض بينه وبين الشمس إلا إذا كانت الأرض كرية[١٥٥] . وهو يدرك الأزمنة الجيولوچية إدراكاً يستثير الإعجاب فيقول مثلا إن البحر يستحيل إلى أرض والأرض تستحيل إلى بحر على توالى الأيام ، ولكننا لا نحس بهذا التحول[١٥٦] ، وقد ظهرت أمم وحضارات لا حصر لها ثم اختفت ، إما بسبب الكوارث السريعة ، وإما بسبب عدوان الأيام البطىء . « وأكبر الظن أن كل فن قد نما وازدهر وارتفع إلى أعلى الدرجات عدة مرار ثم اختفى . وهذا أيضاً شأن الفلسفة[١٥٧] » . والحرارة أهم عامل فى التغيرات الجيولوجية والجوية . وهو يجازف بتفسير أصل السحب والضباب ، والندى والصقيع ، والمطر ، والثلج والبرد ، والرياح ، والرعد ، والبرق ، وقوس قزح ، والشهب . ونظرياته فى الغالب شاذة غريبة ، ولكن رسالته الصغيرة فى الظواهر الجوية عظيمة الخطر من الناحية التاريخية ، لأنها لا تستند إلى القوى الخارقة للطبيعة ، بل يحاول فيها أن يرجع ما فى الجو من تقلبات تبدو له غير منطبقة على القوانين الطبيعية إلى أسباب طبيعية تعمل متعاقبة وفقاً لنظام محدد ، ولم يكن من المستطاع أن ترقى العلوم الطبيعية فوق الحد الذى وصلت إليه على يديه إلا بعد أن مدتها الاختراعات بأجهزة وآلات أوسع مدى وأدق فى الرصد والقياس .

أما علم الأحياء فهو ميدان أرسطو الحقيقى ، فهو فيه واسع الملاحظة عظيم الاطلاع ؛ وفيه أيضاً يرتكب أكثر الأغلاط ؛ وأعظم فضل له على هذا العلم الحيوى أنه نسق كل ما كشف فيه من قبل ودعم أركانه ، فقد استعان بتلاميذه على جمع المعلومات القيمة عن الحيوان والنبات فى بلاد بحر إيجه كما جمع فى مكان واحد أولى المجموعات العلمية من الحيوان والنبات . وإذا جاز لنا أن نأخذ بقول بلنى Pliny(١٥٨) فإن الإسكندر أصدر الأوامر لصياديه ، وحارسى صيده ، وصائدى السمك له ، وغيرهم ألا يمنعوا عن أرسطو أى نوع يطلبه منها وأن يمدوه بما يريده من المعلومات . ويعتذر الفيلسوف عن اهتمامه بتلك الأشياء الصغيرة فيقول : « ليس فى الأشياء الطبيعية ما يخلو من الأعاجيب ، وإذا ما احتقر إنسان التفكير فى الحيوانات الدنيا ، فإن عليه أن يحتقر نفسه »(١٥٩) .

وهو يقسم المملكة الحيوانية قسمين ، ذات دم وغير ذات دم : إنيما ، وأنيما Anaima, Enaima وهما يقابلان بوجه التقريب تقسيمنا إياها إلى « فقاريات » و « لافقاريات » . ثم يعود فيقسم الحيوانات غير ذات الدم إلى صدفية ، وقشرية ، ورخوة ، وحشرات ، ويقسم الدموية إلى أسماك ، وقوازب(*) ، وطيور ، وثدييات .

وتشمل بحوثه فى هذا العلم ميدانا واسعا مختلف الأنحاء . فهو يبحث فى أعضاء الهضم ، والإخراج ، والحس ، والحركة والتكاثر ، والدفاع ؛ وفى أنواع الأسماك ، والطيور ، والزواحف ، والقردة ، ومئات غيرها من الأصناف ؛ وفى فصول تزاوجها ، وطريقة حملها صغارها ، وتربيتها إياها ؛ وفى ظواهر البلوغ ، والحيض ، والحمل ، والإجهاض ، والوراثة ، والإتئام ؛ وفى مواطن الحيوانات وهجرتها ؛ وما يعيش عليها من الطفيليات وما ينتابها من الأمراض ؛ وفى طرق نومها وفصول سباتها . . . وهو يشرح حياة النحلة شرحاً وافياً ممتعاً(١٦٠) . وكتابه ملىء بالملاحظات

(*) القوازب أو البرمائيات : هى التى تعيش فى البر والبحر على السواء . (المترجم)

العجيبة العارضة ، كقوله إن دم الثيران يتجمد أسرع من تجمد دماء معظم الحيوانات الأخرى ، وإن بعض ذكور الحيوان كالجدى بنوع خاص قد تدر اللبن ، وإن الخيل ذكوراً وإناثاً أكثر الحيوانات شهوانية بعد الإنسان(*)(١٦١) .

وهو شديد الاهتمام بأجهزة التوالد وأساليبها فى الحيوان ، وتثير دهشته كثرة الأساليب التى تتوصل بها الطبيعة إلى الإبقاء على أنواع الأحياء ، وكيف « تحتفظ بالنوع حين يعجزها أن تحتفظ بالفرد(١٦٢) » ؛ وقد ظل عمله فى هذا الميدان فذا منقطع النظير حتى القرن الماضى . ومن أقواله أن حياة الإنسان تدور حول بؤرتين — الأكل والتوالد(١٦٣) : فللأنثى عضو يجب أن يعد بمثابة مبيض لأنه يحتوى على ما يكون فى بادئ الأمر بيضة غير متميزة ، ثم تتميز بعدئذ فتصبح بويضات كثيرة(**) » . والعنصر الأنثوى يزود مادة الجنين بالطعام ، أما عنصر الذكورة فيزوده بالجهد والحركة ، والأنثى هى العنصر المنفعل ، أما الذكر فهو العنصر النشيط الفعال(١٦٥) . ويرفض أرسطو ما يراه أنبادوقليس وديموقريطس من أن جنس الجنين تعينه حرارة الرحم أو تغلب أحد عنصرى التكاثر على العنصر الآخر ؛ ثم يصوغ بعدئذ هـذه النظريات على أنها من وضعه فيقول : « كلما عجز العنصر المكوّن (الذكر) عن أن تكون له الغلبة ، ولم يستطع لنقص حرارته أن يطبخ المادة ، أو يشكلها فى شكله هو ، انتقلت هذه المادة إلى . . . صورة الأنثى(١٦٦) » ويضيف إلى ذلك قوله : « وقد يحدث أحيانا أن تلد

(*) تدل بعض الإشارات الواردة فى « تاريخ الحيوان » على أن أرسطو أعد مجلداً فى الرسوم التشريحية ، وأن بعض هذه الرسوم قد نقلت من هذا المجلد على جدران اللوقيون ؛ وهو يستخدم فى كتابه الحروف على الطريقة الحديثة ، ليشير بها إلى بعض الأعضاء أو بعض النقط فى الرسوم .

(**) لقد عجز أرسطو ليس عن أن يميز بين المبيض والرحم ، ولكن وصفه لم يحسن تحسناً ذا بال قبل عمل استنسن Stensen فى عام ١٦٦٩ .

المرأة ثلاثة صغار أو أربعة ، وخاصة فى أجزاء معينة من الأرض . وأكبر عدد ولدته امرأة هو خمسة أبناء ، وقد حدث هذا عدة مرار . وحدث فى زمن ما أن وضعت امرأة عشرين طفلا على أربع دفعات وأن عاش معظم هؤلاء الأطفال حتى كبروا[١٦٧] » .

وهو يستبق القرن التاسع عشر فى كثير من نظريات علم الأحياء . فهو يعتقد مثلا أن أعضاء الجنين وخواصه تتكون بوساطة جزيئات دقيقة (هى « ذرات التناسل بالتجمع العام » التى يذكرها دارون[*]) تنتقل من كل جزء من أجزاء الشخص الكبير إلى عناصر التوالد[١٦٨] . وهو يقول كما يقول فن بير Von Baer إن الخواص المميزة للجنس تظهر فى الجنين قبل غيرها من الصفات ، ثم تليها الخواص المميزة للنوع ، وتلى هذه الخواص المميزة للفرد[١٦٩] . وهو يذكر مبدأ يفخر به هربرت اسپنسر ، وهو أن خصوبة الكائن الحى بوجه عام تتناسب تناسبا عكسيا مع تعقد تطوره[١٧٠] وخير ما يتجلى فيه نبوغه هو وصفه جنين الدجاج :

« أجر إذا شئت هذه التجربة : إيت بعشرين بيضة أو أكثر ، واجعل دجاجتين أو أكثر ترقدان عليها . ثم خذ منها بيضة فى كل يوم ؛ ابتداء من اليوم الثانى إلى أن تفقس واكسرها وافحص عنها . . . ففى حالة الدجاجة العادية تستطاع رؤية الجنين أول مرة بعد ثلاثة أيام . . . فيظهر القلب فى صورة نقطة من الدم ، ينبض ويتحرك كأنه قد وهب الحياة ، ويخرج منه وعاءان بهما دم يسيران فى تلافيف ، وغشاء يحمل خيوطا رفيعة دموية من

(*) يشير الكاتب إلى مذهب دارون فى الوراثة القائل بوجود ذرات تنفصل من جميع أنواع خلايا الجسم فتلتقطها غدد التناسل ، وهذه الذرات رموز لجميع الأنسجة تتجمع فى الجرثومة ومنها يتخلق المولود الجديد (معجم الدكتور شرف) . (المترجم)

أنابيب الوريدين ويحيط بجميع أجزاء المخ (الصفار) . . . وبعد عشرة أيام يرى الفرخ بجميع أجزائه واضحا كل الوضوح[١٧١] » .

ويعتقد أرسطو أن جنين الإنسان ينمو كما ينمو جنين الكتكوت : « ويرقد الطفل فى رحم أمه بهذه الطريقة عينها . . . لأن طبيعة الطائر يمكن تشبيهها بطبيعة الإنسان[١٧٢] » . وهو يستطيع بنظريته الخاصة بالأعضاء المتشابهة أن يرى عالم الحيوان فى صورة جامعة : « فالظفر مماثل للمخلب ، واليد شبيهة بثنية السرطان القاطعة ، والريشة بقشرة السمكة[١٧٣] » وهو يقترب فى بعض الأحيان من نظرية النشوء والارتقاء :

« تسير الطبيعة قليلا قليلا من الأشياء غير الحية إلى الحياة الحيوانية بطريقة يستحيل معها أن نحدد تحديدا دقيقا متى تنتهى هذه وتبدأ تلك . . . فجنس النبات مثلا يأتى بعد الجمادات غير الحية فى سلم الرقى ، وهذا النبات لا حياة فيه نسبيا إذا وازنا بينه وبين الحيوان ، ولكنه حى إذا ووزن بالأشياء الجامدة . وفى النبات سلم تصاعدى مستمر نحو مرتبة الحيوان . فى البحر أشياء لا يستطيع الإنسان أن يقول هل هى حيوان أو نبات . . . فالإسفنج مثلا شبيه بالنبات من جميع الوجوه . . . وبعض الحيوانات ثابتة فى أماكنها لا تنتقل منها ، وإذا انتزعت منها هلكت . . . أما من حيث الحساسية فإن بعض الحيوانات لا يظهر فيها ما يدل عليها ، وبعضها تظهر فيها غامضة . . . وهذا التنوع بعينه يظهر فى سلم الرقى الحيوانى[١٧٤] » .

وهو يرى أن القرد صورة وسطى بين الإنسان وغيره من الحيوانات التى تلد[١٧٥] ، ولا يقبل فكرة أنبادوقليس عن الانتخاب الطبيعى للتغيرات العارضة ، لأن النشوء والارتقاء ليس فيهما أشياء عارضة ، بل إن خطوط التطور يحددها ما فى كل فرد ، ونوع ، وجنس من دافع فطرى لكى ينمى نفسه

نماء يصل به إلى أقصى درجة من تحقيق طبيعته . إن هذا التطور خطة موضوعة ولكنها دفع من الداخل نحو الغرض يجذب كل شيء إلى أن يكمل طبيعته .

ويمتزج بهذه الآراء النيرة كل ما يتوقع الإنسان وجوده فى ذلك الزمن القاصى الذى يبعد عنا نحو ثلاثة وعشرين قرنا من أخطاء كثيرة ، يبلغ بعضها من الشناعة حداً لا نرى معه حرجاً إذا ظننا أن مؤلفات أرسطو فى علم الحيوان قد اختلطت فيها مذكراته بمذكرات تلاميذه(١٧٦) . فكتابه فى تاريخ الحيوان معين لا ينضب من الأخطاء ؛ فهو يقول فيه إن الفيران تموت إذا شربت الماء فى الصيف ، وإن الفيلة لا يصيبها إلا مرضان — الزكام والانتفاخ ، وإن الحيوانات كلها ما عدا الإنسان يصيبها السعور إذا عضها كلب كليب(*) ، وإن ثعبان الماء ينشأ نشأة شيطانية ، وإن الإنسان وحده هو الذى يخفق قلبه ، وإنه إذا رج صفار عدة بيضات اجتمع فى وسط الإناء ، وإن البيض يطفو فوق الماء الكثير الملح(١٧٧) . يضاف إلى هذا أن أرسطو يعرف عن الأعضاء الداخلية للحيوان أكثر مما يعرفه عن الإنسان ، فقد يلوح أنه لا هو ولا أبقراط قد تحررا من سلطان الدين فأقدما على تشريح الأجسام البشرية(١٧٨) . ومن أجل هذا وقع فى أغلاط شنيعة منها قوله إن ليس للإنسان إلا ثمانية أضلاع ، وإن أسنان المرأة أقل من أسنان الرجل(١٧٩) ، وإن القلب أعلى من الرئتين ، وإن القلب لا المخ هو مركز الإحساس(**)(١٨٠) . وإن وظيفة المخ هى تبريد الدم (بالمعنى الحرفى لهذه العبارة)(١٨١) . وآخر ما نذكره من هذه الأغلاط أنه (هو أو إنساناً آخر سمجاً ثقيلا) قد ذهب بنظرية الخطة الموضوعة مذاهب يضحك منها كل حكيم . « من الواضح أن النباتات قد خلقت لمنفعة الحيوانات ، كما خلقت الحيوانات لمنفعة الإنسان » « لقد جعلت الطبيعة الأعجاز للراحة ، لأن ذوات الأربع تستطيع أن تقف

(*) ويسمى أيضا الحديث والقريث والمزف وهو ضرب من الحيوانات البحرية (eels)

(**) وقد أوقعه فى هذا الخطأ عدم إحساس أنسجة المخ بالتنبيه المباشر . (المترجم)

على أرجلها دون أن تتعب ، أما الإنسان فهو فى حاجة إلى ما يجلس عليه[١٨٢] . وحتى هذه الفترة الأخيرة تكشف عن طبيعة أرسطوطاليس العلمية ؛ فمؤلف هذا الكتاب يرى أن من الأمور المسلم بها أن الإنسان حيوان ، ولهذا يبحث عن الأسباب الطبيعية لما بين الإنسان والحيوان من فروق فى التشريح . وقصارى القول أن تاريخ الحيوان فى مجموعه هو خير مؤلفات أرسطوطاليس على الإطلاق ، وأنه أعظم ما أثمره العلم فى بلاد اليونان أثناء القرن الرابع . وقد لبث علم الأحياء عشرين قرناً ينتظر ظهور مؤلف يضارعه .

٣ — الفيلسوف

إذا ما انتقل أرسطوطاليس إلى دراسة الإنسان نفسه أصبح ميتافيزيقياً أكثر منه عالماً طبيعياً . ولسنا ندرى هل منشأ هذا التحول هو تقواه الشديد أو احترامه لآراء بنى الإنسان . وهو يعرف النفس (Psyche) أو العنصر الحيوى بأنه « الدافع الداخلى الأول فى الكائن العضوى » أى الصورة الفطرية المقدرة لهذا الكائن والتى تدفع نماءه وتحدد اتجاهه . وليست النفس شيئاً يأتى إلى الجسم من خارجه أو يسكن فيه بل هى موجودة معه فى كل جزء من أجزائه ؛ أى أنها هى الجسم نفسه من حيث « قدرته على تغذية نفسه وتنميته وانحلاله » ؛ فهى جماع وظائف الكائن العضوى ، وهى للجسم كقوة الإبصار للعين[١٨٣] . بيد أن هذه الناحية الوظيفية ناحية أساسية ، فالوظائف هى التى توجد التراكيب والرغبات هى التى تشكل الأعضاء ، والنفس هى التى تكون الجسم : « فالأجسام الطبيعية كلها أعضاء للنفس(*) » .

(*) ويضيف أرسطوطاليس إلى قوله السابق الدال على نزعة مثالية عجيبة قوله : إن « النفس هى بمعنى ما جميع الموجودات ؛ لأن الأشياء كلها إما إحساسات أو أفكار[١٨٥] » وهو يتفق فى آرائه مع بركلى Berkeley ومع هيوم Hume فى آن واحد . انظر مثلا إلى =

والنفس ثلاث درجات : نامية ، وحاسة ، وناطقة . فالنبات يشترك مع الإنسان والحيوان فى النفس النامية — أى فى قدرته على تغذية نفسه وعلى النماء الداخلى ، وللحيوان والإنسان فضلا عن هذه النفس نفس حاسة — أى قدرة الإحساس ، وللحيوانات الراقية والإنسان نفس « منفعلة عاقلة » — أى قدرة على الأشكال البسيطة البدائية من الذكاء ، والإنسان وحده هو الذى له نفس « فاعلة عاقلة » — أى قدرة على التعميم والابتكار . وهذه النفس الأخيرة جزء أو انبعاث من قوة الكون الخالقة العاقلة وهى الله ، وهى بهذا الوصف لا تموت[١٨٧] . ولكن هذا الخلود غير شخصى ، أى أن الذى يبقى هو القوة لا الشخصية ؛ والفرد مركب فذ فإن من المواهب النامية والحاسة والعاقلة ؛ وهو لا يصل إلى الخلود إلا نسبياً ؛ وذلك عن طرق التوالد ، وبطريقة غير شخصية عن طريق الموت(*) .

والله هو « صورة » العالم أو « حقيقته الفعلية « entelechy » — طبيعته الفطرية ، ووظائفه ، وأغراضه(**) كما أن الروح هى « صورة » الجسم .

سد قوله : « إن العقل واحد ومستمر بالمعنى الذى تكون به عملية التفكير واحدة ومستمرة ؛ والتفكير هو بعينه الأفكار التى هى أجزاؤه

(*) ويمكن تفسير أقوال أرسطوطاليس المتناقضة فى هذه النقطة تفسيرات أخرى . والنص الذى أثبتناه هنا مأخوذ من المجلد الرابع من تاريخ كامبردج القديم Cambridge Ancient History ص ٣٤٥ ؛ ومن الجزء الثانى من كتاب أرسطوطاليس تأليف جروث Grote ص ٢٣٣ ، ومن كتاب النفس (Psyche) تأليف رود Rhode ص ٤٩٣ .

(**) ويرى أرسطو كما يرى أفلاطون أن الأمر الجوهرى فى أى شىء هو « الصورة » eidos لا المادة المصورة ؛ وليست المادة هى « الشىء الحقيقى » بل هى إمكانية سالبة منفعلة لا تتخذ لها وجوداً خاصاً إلا إذا دفعتها الصورة وحددتها .

والعلل كلها ترتد آخر الأمر إلى العلة الأولى التى لا علة لها(*) ، كما ترد كل الحركات إلى المحرك الأول الذى لا محرك له ؛ ولا بد لنا أن نفترض وجود أصـــل أو مبدأ لما فى العالم من حركة أو قوة ، وهذا الأصل هو الله . وكما أن الله هو جماع الحركة كلها ومصدرها ، فهو كذلك جماع كل غايات الطبيعة وهدفها ، فهو العلة الآخرة والأولى . وإنا لنرى الأشياء فى كل مكان تتحرك نحو غايات معينة : فالأسنان الأمامية تنمو حادة لتقطع الطعام ، والأضراس تنمو مستوية لتطحنه ، والجفن يطرف ليقى العين ، والحدقة تتسع فى الظلام لتدخل قدراً كبيراً من الضوء ، والشجرة تمد جذورها فى الأرض ، وغصونها نحو الشمس(١٨٩) . وكما أن الشجرة تجذبها طبيعتها الفطرية وقوتها وأغراضها نحو الضوء ، فكذلك العالم ينجذب بطبيعته الفطرية وقوته وأغراضه وهذه كلها هى الله . وليس الله هو خالق العالم المادى ، ولكنه صورته المنشطة ، وهو لا يحركه من خلفه ولكنه هو الموجه له من الداخل أو هدفه ، يحركه كما يحرك الحب الحبيب(١٩٠) ، ويقول أرسطو أخيراً إن الله فكر خالص ، وروح عاقل . يتبدى فى الصور السرمدية التى تكون جوهر العالم والله فى وقت واحد .

وغاية الفن ، كغاية الميتافيزيقا ، هى القبض على الصورة الجوهرية للأشياء ، وهو تقليد أو تمثيل للحياة(١٩١) ، ولكنه ليس نسخة آلية لها ، والذى تقلده هو روح المادة لا جسم المادة ولا المادة نفسها ، وعن طريق هذه البصيرة أو عكس هذا الجوهر كما تعكس المرآة الجسم قد يبدو الشىء القبيح نفسه جميلا . والجمال

(*) يقول أرسطو : إن كل معلول يخرج من أربعة علل : المادية (التى يتكون منها) ، والفعالة (العامل فيها أو فاعله) ، والشكلية (طبيعة الشىء) ، والغائية (الهدف) وهو يضرب لذلك مثالا عجيبا فيقول : « ما هى العلة المادية للإنسان ؟ هى النطفة (أى وجود البويضة) . وما هى العلة الفعالة ؟ هى الذكر والنطفة (أى عملية تلقيح) . وما هى الشكلية ؟ هى الطبيعة (أى طبيعة العوامل ذات الشأن) . وما هى العلة الغائية ؟ هى الغاية التى يهدف إليها » (١٨٨) .

هو الوحدة ، هو تعاون الأجزاء وتماثلها فى الكل . وتكون هذه الوحدة فى المسرحية وحدة العمل قبل كل شيء ؛ ولذلك يجب أن يكون أعظم ما تهتم به المسرحية عملا واحداً ، وأن يكون الغرض الوحيد مما فيها من أعمال أخرى هو أن ترقى بهذه القصة الرئيسية أو توضحها . وإذا أريد أن يكون العمل الفنى غاية فى الروعة والجودة وجب أن يكون موضوعه متسما بالنبل أو البطولة .

ويقول أرسطو فى تفسيره الشهير للمأساة : « المأساة تمثيل موضوع فى البطولة ، كامل متسع إلى حد ما ، بلغة تزدان بكل أنواع المحسنات . . . فهى تمثل رجالا يعملون ولا تعمد إلى القصص ، ثم تستعين بالرحمة والخوف لتخفف من وقع هذه العواطف وغيرها[١٩٢] » . والمأساة تستثير أعمق عواطفنا ثم تهدئها بخاتمتها المسكنة . وبذلك تعرض علينا تعبيراً عن العواطف لا ضرر فيه ولكنه ينفذ إلى أعماق النفس ، ولولا هذا التعبير لتجمعت العواطف فصارت عُصَاباً أو عنفاً . فهى تظهر من الآلام والأحزان ما هو أكثر رهبة من آلامنا وأحزاننا ، وتعيدنا إلى بيوتنا مبرئين مطهرين . وقصارى القول أن ثمة لذة فى تأمل عمل من أعمال الفن الحقيقية . ومن الشواهد الدالة على رقى الحضارة أن تقدم للروح أعمالا خليقة بهذا التأمل . ذلك بأن « الطبيعة لا تطلب إلينا أن نشغل أوقاتنا بالأعمال الطيبة فحسب : بل تتطلب فوق ذلك أن نكون قادرين على أن نستمتع بفراغنا بأشرف الوسائل[١٩٣] » .

فما هى الحياة الطيبة إذن ؟ يجيب أرسطو عن هذا السؤال ببساطة وصراحة فيقول إنها الحياة السعيدة ؛ وهو لا يريد أن يبحث فى كتاب الأخلاق[*]

(*) لقد كان كتاب أخلاق نيقوماخوس (وسمى كذلك لأن الذى نشره هو نيقوماخوس ابن أرسطو) وكتاب السياسة فى أول الأمر كتاباً واحداً . وكان الناشرون اليونان يستخدمون هذه الصيغة المزدوجة وهى الأخلاق والسياسة (ta etika of ta politika) ليعبروا بها عن علاج عدة مشاكل أخلاقية وسياسية ، وقد احتفظ بها كما هى حين انتقلت الكلمتان إلى اللغة الإنجليزية .

(كما يبحث أفلاطون) كيف يجعل الناس أخياراً ، بل يريد أن يبحث كيف يجعلهم سعداء ! وهو يرى أن غير السعادة من الأغراض لا يسعى إليها لذاتها بل هى وسيلة لغاية ، أما السعادة فهى وحدها التى تبتغى لذاتها(١٩٣) . وثمة بعض أشياء لا بد منها للحصول على السعادة الباقية وهى : المولد الطيب ، والصحة الجيدة ، الوجه الجميل ، والحظ الطيب ، والسمعة الحسنة ، والأصدقاء الأوفياء ، والمال الوفير ، والصلاح(١٩٥) . « وليس فى وسع إنسان أن يكون سعيداً إذا كان دميم الخلقة(١٩٦) » « أما الذين يقولون إن الذى يعذب على العذراء ، أو تحل به كارثة شديدة ، يكون سعيداً بشرط أن يكون صالحا فقولهم هراء(١٩٧) » . وينقل أرسطو بصراحة ينذر وجودها فى الفلاسفة ، جواب سمنيدس لزوجة هيرن إذ سألته أيهما أفضل الحكمة أو الغنى فقال : « الغنى ، لأنا نرى الحكماء يقضون أوقاتهم على أبواب الأغنياء(١٩٨) » . لكن الثروة وسيلة لا أكثر ، فهى فى حد ذاتها لا ترضى غير البخيل ، وإذ كانت الثروة نسبية فإنها لا ترضى إنساناً زمناً طويلا . وسر السعادة هو العمل ، أى بذل الجهد بطريقة تتفق مع طبيعة الإنسان وظروفه . والفضيلة حكمة عملية ، وهى تقدير الإنسان بعقله لما فيه من خير(١٩٩) ، وهى فى العادة وسط بين نقيضين ؛ والإنسان فى حاجة إلى الذكاء لمعرفة هذا الوسط ، وإلى ضبط النفس (إنكراتيا enkrateia أو القوة الداخلية) لممارستها . ويقول أرسطو فى جملة من جمله النموذجية إن « الذى يغضب مما وممن ينبغى أن يغضب منه ، ويغضب فوق ذلك بالطريقة الحقة وفى الوقت المناسب للغضب ، ويطول غضبه الزمن الملائم ، إن هذا الرجل خليق بالثناء(٢٠٠) . وليست الفضيلة عملا ، بل هى تعود عمل الصواب ، ولا بد أن تفرض فى أول الأمر بالتدريب والتهذيب ، لأن الشبان لا يستطيعون أن يحكموا فى مثل هذه الأمور حكما صادقا حكيما ، فإذا مضى بعض الوقت فإن ما كان من قبل نتيجة الإرغام يصبح عادة أى « طبيعة ثانية » ، ويكاد يبعث من اللذة ما تبعثه الشهوة .

ويختتم أرسطو هذا البحث خاتمة تناقض أشد التناقض ما بدأه به وهو قوله إن السعادة فى العمل ، وإن أحسن حياة هى حياة الفكر . ذلك أن الفكر فى رأيه هو الدليلُ على ما انفرد به الإنسان من تفوق وامتياز ، وأن « العمل الخليق بالإنسان هو أن تعمل نفسه بالاتفاق مع عقله[٢٠١] » . « وأسعد الناس حظاً هو الذى يجمع بين قدر من الرخاء وقدر من العلم ، أو البحث أو التفكير ، فهذا الرجل هو أقرب الناس إلى الآلهة[٢٠٢] » . « والذين يرغبون فى اللذة المستقلة يجب أن يطلبوها فى الفلسفة ، لأن غيرها من اللذات يحتاج إلى معونة الإنسان[٢٠٣] » .

٤ — السياسى

ويرى أرسطو أن علم السياسة هو علم السعادة الجماعية كما أن علم الأخلاق هو علم السعادة الفردية ، وأن وظيفة الدولة هى أن تقيم مجتمعا يحقق أعظم سعادة لأكبر عدد . « والدولة هى مجموعة من المواطنين ذات عدد كاف لتحقيق جميع أغراض الحياة[٢٠٤] ، وهى نتاج طبيعى ، لأن « الإنسان بطبيعته حيوان سياسى[٢٠٥] » ، أى أن غرائزه تؤدى به إلى اجتماع مع غيره . . « والدولة سابقة بطبيعتها على الأسرة ، وعلى الفرد » : ذلك أن الإنسان كما نعرفه يولد فى مجتمع منظم من قبل يشكله فى صورته .

وبعد أن درس أرسطو مع طلابه ١٥٨ دستورا يونانيا ، قسم هذه الدساتير ثلاثة أنواع مختلفة ، ملكية ، وأرستقراطية ، وتمقراطية ، أى حكم أصحاب السلطان ، وأصحاب المولد الشريف ، والنبهاء . وكل نوع من

---

(٥) لم يبق من هذه الدراسات إلا كتابه « أحوال الدولة الأثينية Athenaion Politeia » ، وقد عثر عليه فى عام ١٨٩١ ، وهو تاريخ دستورى لأثينة من خير ما كتب فى موضوعه .

هذه الأنواع قد يكون صالحا حسب زمانه ومكانه وظروفه . وتقول إحدى الجمل التي يجب على كل أمريكي أن يحفظها عن ظهر قلب « إن نوعا من أنواع الحكم قد يكون أحسن من غيره من الأنواع ولكن ليس ثمة ما يمنع أن يكون نوع آخر خيراً منه في ظروف خاصة[٢٠٦] » . وكل حكم حسن إذا كانت السلطة الحاكمة تعمل لمصلحة الناس جميعاً لا لمصلحتها الخاصة ؛ فإذا لم تفعل هذا فكل حكم سيئ . ومن ثم كان لكل نوع من أنواع الحكم الصالح شبيه فاسد حين يكون حكماً لمصلحة الحاكمين لا لمصلحة المحكومين ؛ ففي هذه الحال تنحط الملكية فتصير استبدادا ، والأرستقراطية فتصبح ألجركية ، والتمقراطية فتكون دمقراطية أي حكم العامة[٢٠٧] . فإذا كان الحاكم المفرد صالحا وقديراً كانت الملكية خير أشكال الحكم ، أما إذا كان أتقراطيا أنانيا كان حكمه حكما استبداديا ظالما ، وهو شر أنواع الحكم . وقد تصلح الحكومة الأرستقراطية إلى حين ولكن « الأشراف (الأرستقراط) الذين يتولون أمورها ينزعون إلى الاضمحلال والانحطاط . . . ويندر أن نجد شخصا نبيل الخلق بين الأشراف بمولدهم بل إن معظمهم لا يصلحون لشيء على الإطلاق . . . فالأسر ذوات المواهب العالية كثيراً ما تنحط فيكون أبناؤها من المجانين ، ومن أمثلة ذلك أبناء ألقبيادس ودنيسوس الأكبر ؛ أما المتوسطون منهم فكثيراً ما يكونون حمقى أو أغبياء كأبناء سيمون ، وبركليز ، وسقراط[٢٠٨] » . وإذا ما انحطت الأرستقراطية حلت محلها في العادة حكومة ألجركية من أصحاب المال أي حكومة ذوي الثراء . وهذه خير من طغيان الملك أو طغيان الغوغاء ، ولكنها تضع السلطة في أيدي رجال لا تتسع نفوسهم لأكبر من ذلك العمل الصغير وهو حساب تجارتهم ، أو ذلك العمل الإجرامي الدنيء وهو أكل الربا[٢٠٩] ، وينتهي أمرهم إلى استغلال الفقراء بلا وازع من ضمير[٢١٠] .

والدمقراطية — وهو يعنى بها حكومة العامة من المواطنين demos — لا تقل خطورة عن الأبلجركية لأنها تعتمد على انتصار الفقراء القصير الأمد على الأغنياء فى كفاحهما من أجل السلطة ؛ ونتيجتها هى الفوضى المؤدية إلى القضاء عليهما معاً . وخير ما تكون الدمقراطية حين يسيطر عليها الملاك الزراعيون ، وأسوأ ما تكون حين يسيطر عليها رعاع المدن من الصناع والتجار[٢١١] . نعم إن « حكم الكثرة يكون فى كثير من الحالات خيراً من حكم الفرد ، لأنها لكثرة أفرادها أبعد عن الفساد والرشوة بعد الماء الكثير عن التلوث »[٢١٢] . ولكن الحكم يتطلب كفاية خاصة ودراية خاصة و« ليس فى مقدور من يعيش عيشة الصانع البسيط أو الخادم الأجير أن يحصل على التفوق المطلوب »[٢١٣] ، (أى على الخلق الطيب والتدريب وصحة الحكم على الأمور) . وقد خلق الناس كلهم غير متساوين . نعم إن « العدل فى المساواة ، ولكن هذا لا يكون إلا بين الأكفاء »[٢١٤] . ولا يقل استعداد الطبقات العليا لإثارة الفتن إذا فرضت عليهم مساواة غير طبيعية عن استعداد الطبقات الدنيا للتمرد إذ بلغ عدم المساواة درجة من التطرف غير طبيعية(*)[٢١٥] . وإذا ما سيطرت الطبقات الدنيا على الدمقراطية فرضت الضرائب على الأغنياء لتوفر المال للفقراء ؛ « فإذا أخذه الفقراء شرعوا يستزيدون منه ، وما أشبه هذه الحال بصب الماء فى المنخل »[٢١٧] . ومع هذا فإن الرجل المحافظ الحكيم لن يترك الناس يموتون جوعا ، و« يجب على الوطنى الحق فى الحكومة الدمقراطية أن يحذر من أن تكون أغلبية الشعب فى فقر مدقع . . . ، وعليه أن يبذل جهده فى أن يوفر لها الخبز على الدوام ؛ وإذ كان الأغنياء يستفيدون أيضاً من هذا ، فإن من الواجب أن يقسم ما يمكن ادخاره من الأموال العامة بين الفقراء بحيث يكفى نصيب كل منهم لأن يبتاع به حقلا »[٢١٨] .

(*) ويظن أرسطو أن الرق نفسه نظام مشروع ؛ لكما أن من الصواب أن يحكم العقل الجسم ، فإن من الصواب كذلك أن يحكم المتفوقون فى الذكاء من لا يتفوقون إلا فى قوة الجسم[٢١٦] .

وهكذا يرد أرسطو للأغنياء ما يكاد يعدل ما أخذه منهم ، وبعد أن يفعل هذا يعرض توصيات متواضعة لا يقصد بها أن يقيم مدينة فاضلة ، بل يهدف إلى إقامة مجتمع خير من المجتمع القائم فى زمانه إلى حد ما :

ثم ينتقل بعد هذا للبحث عن أصلح نوع من أنواع الحكم وأحسن أسلوب من أساليب الحياة يوائم المجتمعات بوجه عام .

ولسنا نريد أن يكون هذا الحكم وذلك الأسلوب مما يتفق مع تلك الفضيلة السامية البعيدة عن متناول العامة ، أو مع تلك التربية التى لا ينالها إلا من هيأت له الطبيعة والحظ جميع الفرص الطيبة ، أو مع تلك الخطط الخيالية التى يضعها الناس فى أوقات لهوهم ومرحهم ؛ بل نريد أن يتفقا مع أسلوب الحياة الذى تستطيع كثرة الجنس البشرى أن تصل إليه ، ومع نظام الحكم الذى تستطيع معظم المدن أن تقيمه[٢١٩] . . . ومن أراد أن يقيم حكومة على أساس شيوعية السلع فليرجع إلى تجارب كثيرة من السنين ؛ فإذا فعل فسيتضح له هل هذا نظام نافع أو غير نافع ؛ ذلك أن الأشياء كلها تقريباً قد عرفت ولم يبق منها مجهولا إلى القليل[٢٢٠] ... إن الشيء الذى يشترك فيه كثيرون لا يعنى به إلا أقل عناية ؛ ذلك بأن الناس يوجهون من العناية إلى ما يملكونه لأنفسهم أكثر مما يوجهون إلى ما يشاركهم فيه غيرهم[٢٢١]... ولا بد لنا أن نبدأ بحثنا بافتراض مبدأ عام وهو أن ذلك الجزء من الدولة الذى يرغب فى بقاء الدستور الجديد يجب أن يكون أقوى من ذلك الجزء الذى لا يرغب فى بقائه[٢٢٢] ويتضح من هذا أن أحسن الدول نظاماً هى التى تكون الطبقات الوسطى فيها أكبر عدداً وأعظم قوة من الأغنياء أو الفقراء ... وفى جميع الحالات التى قل فيها عدد أفراد الطبقة الوسطى عن الحد الواجب تغلبت عليها الطبقة التى تفوقها فى العدد ، سواء أكانت طبقة الأغنياء أم طبقة الفقراء ، وتولت بنفسها تصريف الشئون العامة . . . ؛ وإذا ما سيطر الأغنياء على الفقراء ، أو الفقراء على الأغنياء ، لم تستطع هذه الطبقة أو تلك أن تقيم دولة حرة[٢٢٣] .

ويقترح أرسطو وضع « دستور مختلط » أو إقامة حكم « تمقراطى »، وهو خليط من الأرستقراطية والدمقراطية ، ليمنع به هذه الدكتاتوريات المقيدة للحرية سواء أكانت دكتاتورية الأغنياء أم الفقراء . وهو يريد أن يكون حق الانتخاب فى هذا النظام مقصوراً على ملاك الأراضى ، وأن تكون فيه طبقة وسطى قوية هى مصدر السلطة وقطب دائرتها ، « ويجب أن تقسم الأرض قسمين ، أحدهما يملكه المجتمع بوجه عام ، والآخر يملكه الأفراد متفرقين[٢٢٤] » . ولا بد أن يكون كل مواطن من الملاك ، ويجب « أن يطعموا على الموائد العامة جماعات » ، وهؤلاء وحدهم هم الذين يقترعون أو يحملون السلاح . وسيكون هؤلاء أقلية صغيرة من السكان ، لا تزيد على عشرة آلاف . « ويجب ألا يسمح لواحد منهم أن يشتغل بمهنة آلية أو يكسب عيشه من طريق التجارة ، لأن هاتين المهنتين غير شريفتين ، وتقضيان على التفوق[٢٢٥] » . كذلك يجب ألا يفلحوا الأرض ؛ . . . بل ينبغى « أن يكون الفلاحون طبقة من الشعب قائمة بنفسها » — ولعله يريد أن تكون من الأرقاء . ويختار المواطنون الموظفين العموميين ويحاسبون كلا منهم على أعماله فى نهاية المدة التى يتولى فيها منصبه . ويجب أن تحدد القوانين الموضوعة وفقا لنظام قويم ما يصدر من الأحكام فى جميع القضايا بقدر المستطاع ، بحيث لا يترك إلا أقل عدد مستطاع منها لتصرف القضاة[٢٢٦] . . . » ذلك أن « حكم القانون خير من حكم الفرد . . . ، وأن من يعهد بالسلطة العليا لإنسان أيا كان إنما يعهد بها إلى وحش من الوحوش ، لأن شهواته تجعله فى بعض الأحيان وحشا . وللعواطف أثر كبير فيمن يتولون السلطة ، ولو كانوا هم خير من يتولاها ، أما القانون فهو العقل مجردا عن الشهوة[٢٢٧] .

والدولة المقامة على هذا النظام تتولى تنظيم الملكية ، والصناعة ، والزواج ، والأسرة ، والتعليم ، والأخلاق ، والموسيقى ، والأدب ، والفن . « وأحق من هذا كله بالعناية ألا يتجاوز عدد الناس حدا معينا . . . لأن إهمال هذا

الواجب يؤدى إلى افتقار المواطنين[٢٢٨] ؛ ويجب ألا يسمح بتربية أبناء مشوهين عاجزين » ، ومن هذه الأسس السليمة تتفتح أزهار الحضارة والطمأنينة . « وإذ كان الذكاء أعظم الفضائل ، فإن أهم ما يجب على الدولة ليس هو إعداد المواطنين للتفوق الحربى ، بل هو تعليمهم كيف يستفيدون من السلم الاستفادة الصحيحة[٢٢٩] » .

وبعد فليس من الضرورى أن ننصب أنفسنا حكاما على أعمال أرسطوطاليس . وحسبنا أن نقول إنا لا نعرف أحداً من الناس قبله قد شاد مثل هذا الصرح الرائع من التفكير . وحين يمتد نشاط الإنسان الذهنى إلى ميادين واسعة ، فإن من حقه علينا أن نعفو عن كثير من زلاته ، إذا ما وسعت نتائج بحوثه إدراكنا للحياة . وإن أخطاء أرسطو — أو أخطاء المجلدات التى نعدها بالحق أو بالباطل ثمار قلمه — لتبلغ من الوضوح حدا لا نحتاج معه إلى إيرادها مفصلة . فهو رجل منطق ، ولكن هذا لا يمنعه أن يقع فى كثير من الأغلاط المنطقية ؛ وهو يضع قواعد البلاغة والشعر ، ولكن كتبه أيكة مشتبكة الأغصان من سوء النظام ، أوراقها المتربة نفثة من ريح الخيال . بيد أننا إذا ما توغلنا فى هذه الأيكة ، التقينا فيها بكنز من الحكمة والنشاط العقلى الذى شق طرقا كثيرة فى ميدان العقل .

وليس فى وسعنا أن نقول إنه قد أوجد علم الأحياء ، أو تاريخ النظم الدستورية ، أو النقد الأدبى — إذ ليس فى العالم قط بدايات — ولكن هذه الموضوعات كلها قد أفادت منه أكثر مما أفادته من أى رجل نعرفه من الأقدمين . والعلوم الطبيعية والفلسفة مدينة له بالعدد الجم من المصطلحات التى يسرت فى صورتها اللاتينية تبادل الأفكار . . منها المبدأ ، والنهاية ، والموهبة ، والوسط ، والصنف ، والطاقة ، والباعث ، والعادة ، والغاية ،

principle, maxim, faculty, means, category, energy, motive, habit, end . ولقد كان كما سماه بيتر Pater « أول المدرسين »[٢٣١] .

وكانت سيطرته الطويلة على الأساليب والبحوث والفلسفة مما يوحى بخصب تفكيره ، ونفاذ بصيرته . وإن كتابيه فى الأخلاق والسياسة(*) ليفوقان أمثالهما كلها فى الشهرة وعميق التأثير حتى أيامنا هذه ، وإذا ما أنقصنا من تقديرنا له كل ما فيه من عيوب ، فإنه يبقى بعدها « سيد العارفين » . وذلك دليل مشجع على ما يمتاز به العقل البشرى من مدى واسع مرن ، وهو إلهام مطمئن إلى الذين يكدحون فى سبيل جمع معلومات الناس المتفرقة وتنسيقها وفهمها .

(*) لقد ترجم هذين الكتابين إلى اللغة العربية الأستاذ أحمد لطفى السيد وطبعتهما لجنة التأليف . (المترجم)

الباب الثاني والعشرون

الإسكندر

الفصل الأول

نفسية فاتح

لقد كانت حياة أرسطو العقلية بعد أن غادر تلميذه الملكي مماثلة لحياة الإسكندر العسكرية ؛ ذلك أن كلتا الحياتين تعبر عن نزعة الفتح ، والبناء ، والتركيب . وربما كان الفيلسوف هو الذي غرس في عقل الشاب تحمسه الشديد للوحدة وهو التحمس الذي رفع بعض الشيء من قدر انتصارات الإسكندر ؛ لكن أرجح من هذا أن هذا التحمس قد انحدر إليه من مطامع أبيه ، ثم أحاله دم أمه إلى ولع وهيام . وإذا شئنا أن نفهم الإسكندر على حقيقته ، وجب علينا أن نتذكر على الدوام أن عروقه كان يجرى فيها نشاط فليب العارم وحدة أولمبياس الهمجية ؛ يضاف إلى هذا أن أولمبياس كانت تدعي الانتساب إلى أخيل ، ومن أجل هذا كان الإسكندر يهوى الإلياذة ويفتتن بها ، وكان يفسر عبوره الهلسپنت بأنه تتبع لخطوات أخيل نفسه واستيلاءه على آسية الغربية بأنه إتمام للعمل الذي بدأه جده الأعلى في طروادة . وكان في خلال حملاته العسكرية كلها يحتفظ معه بنسخة من الإلياذة عليها شروح بقلم أرسطو ، وكثيراً ما كان يضعها تحت وسادته أثناء الليل بجوار خنجره ، كأنه يرمز بهذا إلى أداته وهدفه .

وعني ليونداس Leonidas وهو مولوسي Molosian صارم بتربية الغلام الجسمية ، وعلمه ليسمخوس الأدب ، وحاول أرسطو أن يكون عقله . وكان فليب

يرغب فى أن يدرس ولده الفلسفة «حتى لا يفعل أشياء كثيرة من نوع الأشياء التى فعلتها أنا والتى آسف على فعلها[1]» كما قال فليب نفسه . وقد أفلح أرسطو إلى حد ما فى أن يجعل منه رجلا هلينياً ؛ وذلك أن الإسكندر كان طوالى حياته يعجب بالأدب اليونانى ويحسد اليونان على حضارتهم ؛ وقد قال مرة لرجلين يونانيين كانا يجلسان معه أثناء المأدبة الوحشية التى قتل فيها كليتوس : «ألا تشعران حين تجلسان فى صحبة المقدونيين بأنكما أشبه بإلهين بين خلائق من الهمج[2]» .

وكان الإسكندر من الناحية الجسمية شاباً مثالياً . وذلك أنه كان يجيد كل ضروب الألعاب الرياضية : كان عداء سريعاً ، وفارساً جريئاً ، ومبارزاً ماهراً ؛ وكان يجيد الرماية بالقوس ، ولا يرهب أى شىء فى الصيد . ولما رغب إليه أصدقاؤه أن يشترك فى سباق العدو فى أولمبيا أجاب بأنه لم يكن يمانع فى ذلك لو أن المتبارين معه كانوا ملوكا . ولما عجز غيره عن تذليل بوسفلس Bucephalus الجواد الجامح الجبار ، نجح الإسكندر فى هذا العمل ؛ فلما رأى ذلك فليب ، كما يقول فلوطرخس ، حياه بتلك الألفاظ التى كانت أشبه بنبوءة بما يخبؤه له القدر : «أى بنى ، إن مقدونية لا تتسع لك ، فابحث لنفسك عن إمبراطورية أوسع منها ، وأجدر بك[3]» . وكان حتى فى أثناء زحفه يصرف بعض نشاطه فى أن يرمى بالسهام بعض ما يمر به من الأهداف ، أو ينزل من مركبته ثم يعود فيركبها وهى تجرى بأقصى سرعتها . وكان إذا تراخت الحرب خرج إلى الصيد وواجه بمفرده وهو واقف على قدميه وحشاً ضارياً ؛ وسمع ذات مرة بعد أن فرغ من قتال أسد بعضهم يقول إنه كان يحارب الأسد كأنه يبارزه لتقرر نتيجة البراز أيهما يكون هو الملك[4] ، فسر من هذا القول أيما سرور . وكان مولعاً بالعمل الشاق والمغامرات الخطرة ، ولم يكن يطيق الراحة . وكان يسخر من بعض أصدقائه الكثيرى الخدم ويقول إنهم لا يجدون ما يفعلون . ومن أقواله لهم : «عجيب أمركم ،

كيف لم تدلكم تجاربكم على أن من يعملون ينامون نوماً أعمق من نوم من يعمل لهم غيرهم ؛ وهل لا تزالون بحاجة إلى من يدلكم على أن أعظم ما نحتاجه بعد انتصارنا هو أن نتجنب الرذائل وأسباب الضعف التي كان يتصف بها من غلبناهم على أمرهم »[٥] . وكان يؤلمه ما يضيع من الوقت فى النوم ويقول : « إن النوم وعملية التناسل هما أهم ما كان يشعره بأنه آدمى فان »[٦] . وكان معتدلا فى الطعام ، وظل إلى آخر سنى حياته معتدلا كذلك فى الشراب ، وإن كان يحب أن يطيل المكث مع أصدقائه على كأس من الخمر . وكان يحتقر الأطعمة الدسمة ، وقد رد مشهورى الطهاة الماهرين الذين عرضوا عليه ، وقال إن مشى ليلة كفيل بأن يقوى شهوته للفطور ، وإن فطوراً خفيفاً يقوى شهوته للغداء[٧] . ولعل هذه العادات هى التى جعلت وجهه وضاء إلى حد كبير ، وجعلت رائحة جسمه ونفسه « زكية تفوح من ملابسه التى على جسمه »[٨] . وإذا ما أخذنا بأقوال معاصريه وضربنا صفحا عن ملق الذين رسموا صوره أو نحتوا تماثيله أو نقشوا رسمه ، حكمنا بأنه كان وسيما بدرجة لم يسبق إليها أحد من الملوك الذين قبله : كان ذا معارف قوية التعبير ، وعينين زرقاوين رقيقتين وشعر غزير أصحر . وهو الذى ساعد على إدخال عادة حلق اللحية فى أوربا ، وحجته فى ذلك أن اللحية تمكن العدو من القبض على صاحبها[٩] . ولعل أكبر آثاره فى التاريخ هو هذا الأثر التافه .

أما من الناحية العقلية فقد كان طالباً شديد التحمس للدرس ، لكن التبعات التى ألقيت عليه قبل الأوان لم تترك له فسحة من الوقت ينضج فيها عقله . وكان يحزنه ما يحزن الكثيرين من رجال الجد والعمل وهو أنه لا يستطيع أن يكون أيضاً مفكراً . ويقول فيه فلوطرخس إنه « كان شديد الشغف بالعلم ، شغفاً يزداد على مر الأيام . . وكان مولعا بجميع أنواع المعارف محبا لقراءة جميع أنواع الكتب » . وكان من أسباب سروره بعد أن يقضى يوماً فى السير أو القتال أن يسهر إلى منتصف الليل يتحدث إلى الطلاب والعلماء . وقد كتب مرة إلى أرسطو يقول : خير لى أن أتفوق على غيرى

فى العلوم من أن أتفوق عليهم فى اتساع الملك وقوة السلطان »[٩] . ولقد أرسل بعثة لارتياد منابع النيل – وقد يكون هذا بإيعاز أرسطو – ، وأعان بالمال كثيراً من البحوث العلمية . وليس فى وسعنا أن نحكم أكان إذا امتد به أجله يبلغ ما بلغه قيصر من صفاء الذهن أو ما بلغه نابليون من دقة الفهم . لكن مشاغل الملك أدركته وهو فى العشرين من عمره ، واستغرقت شئون الحرب والإدارة كل وقته وجهده ، ومن أجل هذا بقى ناقص التعليم إلى آخر أيام حياته . ثم إنه كان متحدثاً لبقاً ، ولكنه كان يتورط فى مئات الأغلاط إذا تطرق الحديث إلى شئون السياسة والحرب . ويلوح أنه رغم حروبه الكثيرة لم يعرف من الجغرافية ما كان فى مقدور ذلك العلم فى أيامه أن يمده به . وكان عقله فى بعض الأحيان يسمو عن الآراء الضيقة التحكمية ، ولكنه بقى إلى آخر أيام حياته عبداً للخرافات والأوهام ، شديد الثقة بالعرافين والمنجمين الذين تزدحم بهم حاشيته . ولقد قضى الليلة السابقة لواقعة أربيلا يقوم بمراسيم سحرية مع الساحر أرستندر Aristander ويقرب القربان إلى إله الخوف . وكان هذا الرجل الذى واجه الناس والوحوش بشجاعة ونشوة « يرتاع لأقل النذر الموهومة » ارتياعاً يحمله على تغيير خططه[١٠] . وكان فى مقدوره أن يقود آلاف الرجال ، ويهزم الملايين منهم ، ويحكمهم ، ولكنه لم يكن يستطيع السيطرة على طبعه . ولم يتعلم قط الاعتراف بما يرتكب من خطأ أو بما فيه من نقص ، وكان يغتر بالثناء اغتراراً يطغى على حكمته ويفسدها . وقد عاش طول حياته فى جو من الانفعال والمجد يكاد يذهب بعقله ، وكان يحب الحرب حباً استحوذ على عقله فلم يترك له ساعة ينعم فيها بالسلام .

وكانت أخلاقه تحوم حول أمثال هذه المتناقضات . فقد كان فى قرارة نفسه عاطفياً سريع الانفعال ، تستبقه عبراته ، شديد التأثر بالشعر والموسيقى ، وكان فى أيام شبابه الأولى يعزف على القيثارة ويتأثر بأنغامها

أشد التأثر . ولما عنفه فليب على هذا هجر تلك الآلة ، ورفض من ذلك الوقت أن يستمع لغير النغمات العسكرية ؛ ولعله أراد بهذا أن يتعود السيطرة على حواسه[١١] كذلك كان يستمسك بالفضيلة فى الناحية الجنسية ، ولم يكن ذلك عن مبدإ يدين به ، بل لأن مشاغله كانت تحول بينه وبين الانحراف إلى هذه الناحية . ذلك أن نشاطه الدائم ، وسيره الطويل ، وحروبه الكثيرة ، وخططه المعقدة ، وأعباءه الإدارية ، كانت تستنفد كل قواه ، ولا تترك له إلا القليل من شهوة الحب . وكانت له زوجات كثيرات ، ولكن زواجه بهن كان تضحية منه قضت بها شئون السياسة والحكم ؛ وكان شهماً ذا مروءة فى معاملته للنساء ، لكنه كان يفضل عليهن صحبة قواده . وجاءه رجاله ذات مرة إلى خيمته بامرأة جميلة بعد أن مضى من الليل أكثره ، فسألها « لم تأخرت إلى هذا الوقت ؟ » فردت عليه بقولها : « كان على أن انتظر حتى أنيم زوجى » . فصرفها الإسكندر وعنف خدمه وقال لهم إنه كاد بأعمالهم أن يصبح زانياً[١٢] . وكان فيه كثير من صفات اللوطيين ، وكان يحب هفستيون Hephaestion إلى حد الجنون ؛ لكنه حين جاءه ثيودورس التاراسى Theodorus of Taras يعرض عليه أن يبيعه غلامين بارعى الجمال ، طرد ثيوذورس من مجلسه وطلب إلى أصدقائه أن يفصحوا له عما أظهره من سفالة وخسة نفس تحملان إنساناً ما على أن يتقدم إليه بهذا العرض الدنىء[١٣] . وكان يستمسك بصداقة الأصدقاء ويهبهم ما يهبه معظم الناس إلى المحب من اشتياق ورقة عاطفية ؛ وليس بين من نعرف من الساسة ، دع عنك القواد ، من فاقه فى صدق القول الخالى من التكلف أو فى الصداقة الوفية القوية ؛ أو فى إخلاصه فى حبه وغرضه ، أو فى كرمه لمعارفه وأعدائه دع عنك أصدقاءه[١٤] . وفى ذلك يقول فلوطرخس « وهو ينتهز أقل الظروف ليكتب الخطابات لخدمة الأصدقاء » . وقد كسب حب جنوده بعطفه عليهم ؛ وكان يخاطر بحياتهم ولكنه لم يكن يفعل ذلك جزافاً من غير مبالاة ، كأنه كان يحس بجميع جراحهم ؛ وكما عفا قيصر عن

بروتس وشيشرون، وكما عفا نابليون عن فوشيه Foché وتاليران Talley and -
كذلك عفا الإسكندر عن هرپالس Harpalu. صاحب بيت المال الذى اختفى
بما فى عهدته منه ثم عاد إليه يرجو عفوه؛ وقد أدهش الشاب الفاتح الناس
جميعاً بأن أعاده إلى منصبه، ويبدو أنه أصلحه بذلك العمل[١٥]. ومرض
الإسكندر فى طرسوس عام ٣٣٣ ففرض عليه طبيبه فليپ شراباً مسهلا.
وفى تلك اللحظة وصلت إلى يد الملك رسالة من پرمنيو يقول فيها إن دارا
قد رشا فليپ ليدس له السم، فما كان من الإسكندر إلا أن عرض الرسالة
على فليپ، وبينا كان الطبيب يقرؤها شرب الإسكندر الدواء — ولم يصب
بسوء. وقد كان اشتهاره بالنبل والكرم عونا له فى حروبه؛ فقد كان
كثيرون من أعدائه يلقون بأنفسهم أسرى بين يديه، وكانت المدن تفتح
أبوابها إذا اقترب منها لأنها تخشى على أنفسها من النهب. ولكنه كان فيه شىء
من الشراسة المولوسية، وقد شاء القدر القاسى أن يقضى عليه ماكان ينتابه
أحياناً من نوبات القسوة. مثال ذلك أنه لما استولى على غزة بعد أن حاصرها
واقتحم أسوارها واستفزته بطول مقاومتها أمر بأن تخرق قدما باتيس Batis
قائدها الباسل، وأن توضع فيها حلقات من نحاس. ثم أسكرته ذكرى
أخيل، فشد القائد الفارس بعد موته إلى العربة الملكية بالحبال، وجرت
به أقصى سرعتها حول المدينة[١٨]. وكان إدمانه الخمر إدماناً متزايداً ليهدئ
به أعصابه مما دفعه فى سنيه الأخيرة إلى كثير من أعمال القسوة العمياء
التى أخذت تزداد على مر الأيام، وكانت تتلوها نوبات من الندم الصامت
وتوبيخ الضمير العنيف.

وكان من صفاته صفة لها الغلبة على كل ما عداها ونعنى بها الطموح.
فقد كان وهو شاب يتبرم من انتصارات فليپ، حتى لقد شكا مرة إلى
أصدقائه من أن «أباه سيفرغ من كل شىء قبل أن نستعد نحن، ولن
يترك لى أو لكم فرصة نعمل فيها شيئاً عظيما خطيراً[١٧]». وقد دفعته هذه

الرغبة الشديدة فى العمل العظيم إلى محاولة القيام بكل واجب واقتحام كل خطر ففى يوم ڤيرونيا مثلا كان هو أول من هجم على « العصبة الطيبية المقدسة » ؛ وفى يوم غرانيقوس أطلق العنان لما كان يسميه رغبة فى ملاقاة الأخطار[١٨]» . وقد أصبحت هذه الرغبة هى الأخرى شهوة جامحة ، فكان صوت الحرب ومنظرها يسكرانه ، فينسى فى ذلك واجبات القائد ويندفع إلى معمعان القتال ، وكثيراً ما كان جنوده يلحون عليه أن يرتد إلى المؤخرة لخوفهم أن يفقدوه . على أنه لم يكن قائداً عظيما ، بل كان جنديا باسلا أوصله جلده وعناده وعدم مبالاته بالعقبات التى كانت تبدو مستحيلة التذليل إلى انتصارات مؤزرة لم يسبقه أحد إلى مثلها . وكان هو الملهم لجنوده ، أما قواده الذين كانوا من أقدر الرجال فالراجح أنهم هم الذين كانت تقع عليهم أعباء التنظيم والتدريب والكر والفر والفنون الحربية . وكان يقود جنوده بخياله الوضاء ؛ وفصاحته الطبيعية غير المتكلفة ، واستعداده لمقاسمتهم صعابهم وأحزانهم استعداد المخلص الوفى . ولا جدال فى أنه كان إدارياً حازماً ؛ وقد حكم الأملاك الواسعة التى افتتحها بقوة السلاح حكما رفيقاً حازماً ؛ وكان يفى بالعهود التى يقطعها على نفسه لقواد الجند المهزومين وللمدن المغلوبة ، ولم يسمح قط لموظفيه أن يظلموا رعاياه أو يستبدوا بهم ، ولم يكن وهو يخوض غمار القتال والهيجاء مشتجرة والأرض متزلزلة يغفل قط عن هدفه الأسمى الذى لم يحل موته دون إنجازه : وهو ضم البحر المتوسط الشرقى فى وحدة ثقافية جامعة ، تسيطر عليها وتسمو بها حضارة بلاد اليونان الآخذة فى الانتشار .

الفصل الثانى

طريق المجد

لما ارتقى الإسكندر العرش ألفى نفسه على رأس دولة متصدعة ؛ فقد ثارت القبائل الشمالية الضاربة فى تراقية وإليريا ؛ وخرجت عن طاعته إيتوليا وأكرنانيا Acarnania ، وفوسيس ، وإليس ، وأرجولس ، وطرد الأمبراقيوتيون Amparciotes الحامية المقدونية من بلادهم ؛ وكان أرتخشتر الثالث يفخر بأنه هو المحرض على قتل فليب ، وأن بلاد الفرس لا تخشى شيئاً من هذا الحدث المراهق الذى ورث الملك وهو فى العشرين من العمر . ولما أن وصلت البشائر إلى أثينة بأن فيلب قد مات ازين دمستين بأفخر الثياب وتوج رأسه بإكليل من الزهر ، واقترح على الجمعية أن تضع تاجا على رأس قاتله پوسنياس تكريماً له(١٩) . وفى مقدونية نفسها كانت عشرة أحزاب أو أكثر تأتمر بحياة الملك الشاب .

وواجه الإسكندر هذه الصعاب كلها بهمة قعساء وعزيمة ماضية قضى بهما على المقاومة الداخلية وخطا الخطوة الأولى نحو مستقبله العظيم . ولما أن ألقى القبض على زعماء المتآمرين فى داخل البلاد وقتلهم اتجه بجيوشه جنوبا نحو بلاد اليونان (٣٣٦) وبلغ طيبة بعد بضعة أيام . وأسرعت بلاد اليونان فقدمت له ولاءها ، وبعثت إليه أثينة معتذرة عما فرط منها ، وعرضت عليه تاجين ، ومنحته ما تمنحه الآلهة من مراسم التكريم . فلما هدأت ســورة الإسكندر أعلن إلغاء جميع الحكومات الدكتاتورية فى بلاد اليونان ، وأمر أن تعيش كل مدينة حرة حسب قوانينها . وثبت له المجلس الأمفكتيونى جميع الحقوق التى منحها فليب ،

واجتمع فى كورنثة مؤتمر من جميع دول اليونان ما عدا اسپارطة وأعانه قائدا عاما لجميع اليونان ، ووعد أن يعينه بالمال والرجال فى حروبه الأسيوية المرتقبة . ثم رجع الإسكندر إلى پلا ، ونظم شئون العاصمة ، واتجه بعدئذ نحو الشمال ليقلم أظفار الفتنة التى أوقدت نارها القبائل المتبربرة (٣٣٥) . وزحف على رأس جنوده بسرعة ناپليونية حتى وصل إلى موضع مدينة بخارست الحالية ، ورفع علمه على ضفة الدانوب الشمالية . ثم ترامى إليه أن أهل إلريا يزحفون على مقدونية فاجتاز مائتى ميل فى قلب بلاد الصرب وفاجأ مؤخرة الغزاة ، وهزمهم ، ورد فلولهم إلى جبالهم .

لكن إشاعة راجت وقتئذ فى أثينة بأن الإسكندر قد قتل وهو يحارب عند نهر الدانوب . فأخذ دمستين يدعو إلى حرب لنيل الاستقلال ، ولم ير حرجاً فى أن يقبل مبالغ طائلة من الفرس يستعين بها على تنفيذ خططه . واستجابت طيبة إلى تحريضه فخرجت عن طاعة الإسكندر ، وقتلت الموظفين المقدونيين الذين تركهم فيها الملك الشاب ، وحاصرت الحامية المقدونية المعكسرة فى حصن الكدميا . وأرسلت أثينة المدد إلى طيبة ، ودعت بلاد اليونان والفرس إلى التحالف على مقدونية . وثارت ثائرة الإسكندر لهذا العمل الذى لم يكن الدافع إليه فى نظره رغبة اليونان فى الاستقلال ، بل كان غدراً منها وكفراً بفضله عليها ؛ فزحف بجنوده المتعبين نحو الجنوب وهاجم بلاد اليونان مرة أخرى . ووصل إلى طيبة بعد ثلاثة عشر يوماً ، وشتت شمل جيش سيرته ليصد زحفه ؛ ثم ترك مصير هذه المدينة المجردة من وسائل الدفاع عن أعدائها الأقدمين — پلاتيه ، وأركمنوس وثسپيا ، وفوسيس ؛ فقررت هذه المدن أن تُحرق طيبة عن آخرها وأن يباع أهلها أرقاء . وأراد الإسكندر أن يلقى درساً على غيرها من المدن فأمضى هذا القرار ، ولكنه اشترط ألا يمس الجنود الظافرون بيت پندار بسوء ، وأن يبقوا على حياة الكهنة والكاهنات وجميع الطيبيين الذين يثبتون أنهم قاوموا الثورة . وقد ندم

فيما بعد على هذا الانتقام العنيف وعده سبة له « ولم يكن يتردد فى أن يعطى أى طيبى ما يطلبه إليه » ، وقد كفر عن بعض ذنبه بمعاملته اللينة لأثينة ، فتمد عفا عن نكثها ما قطعته على نفسها من عهود فى السنة السابقة ، ولم يتشدد فى طلبه تسليم دمستين وغيره من الزعماء الذين قاوموا المقدونيين. وظل إلى آخر حياته يظهر لها دلائل الاحترام والحب ، فوهب الأكربوليس كثيراً من الغنائم التى ظفر بها فى انتصاراته الأسيوية ، ورد إلى أثينة تمثالى قاتلى الطغاة اللذين نهبهما خشيارشاى ، وقال عقب حملة حربية مجهدة : « أيها الأثينيون ، هل تعلمون أى أخطار أعرض نفسى لها لأكون خليقاً بحمدكم[١٦] » .

وبعد أن أعربت جميع الدول اليونانية ما عدا اسپارطة عن ولائها للإسكندر عاد إلى مقدونية وأخذ يستعد لغزو آسية . وقد وجد أن خزائن الدولة تكاد أن تكون خاوية ، بل وجد أنها مثقلة من عهد فليب بعجز يبلغ مقداره خمسمائة وزنة (نحو ٣٠٠٠٠٠٠ ريال أمريكى)[١٧] ، فاقترض ثمانمائة وشرع يتغلب على ديونه قبل أن يتغلب على العالم . وكان قد عقد النية على محاربة الفرس بوصفه بطل هلاس وناصرها ، ولكنه عرف أن نصف بلاد اليونان كان يرجو أن يلاقى حتفه . ونقل إليه عيونه أن فى مقدور الفرس أن يحشدوا لقتاله ألف ألف رجل ؛ أما هو فلم تزد قوته التى سيرها لقتالهم على ثلاثين ألفاً من المشاة ، وخمسة آلاف من الفرسان . بيد أن هذا الأخيل الجديد لم يعبأ بهذا الفرق الهائل ، وترك اثنى عشر ألف جندى بقيادة أنتباتر Antipater لحراسة مقدونية ومراقبة بلاد اليونان ، وبدأ فى عام ٣٣٤ أجرأ وأعجب مغامرة روائية فى تاريخ الملوك . وعاش بعد ذلك إحدى عشرة سنة ولكنه لم ير من ذلك اليوم بلاده أو أوربا . وبينا كان جيشه يعبر الهلسپنت من لسبوس إلى أبيدوس اختار هو أن ينزل إلى البر عند رأس سجيوم Sigeum ويسير فى الطريق الذى كان يعتقد أن أجممنون سار فيه إلى طروادة . وكان فى كل خطوة يذكر لرفاقه فقرات من الإلياذة :

فقد كان يحفظها كلها تقريباً عن ظهر قلب . ولما جاء إلى قبر أخيل المزعوم صب عليه الزيت تكريماً له ووضع عليه تاجاً من الزهر ، وسعى عارياً حوله كما كان يفعل الأقدمون ، وصاح قائلا : « ما أسعد أخيل إذ كان له فى حياته هـذا الصديق الوفى ، وبعد مماته ذلك الشاعر العظيم ليمجده ويخلد ذكره »[٢٨] . وأقسم فى تلك الساعة أن يواصل ذلك الكفاح الطويل بين أوربا وآسية الذى بدأ عند طروادة حتى نهايته المظفرة .

وليس من غرضنا فى هذا الكتاب أن نعيد ذكر انتصاراته . وحسبنا أن نقول إنه التقى بأول جيش فارسى عند نهر غرانيقوس وهزمه . وفى هذه الواقعة أنقذ كليتس Cleitus حياة الإسكندر بأن قطع يد جندى فارسى أوشك أن يضرب الإسكندر من خلفه . وليس من دأبنا أن نفعل ما يفعله بعض المؤرخين الخياليين فنفترض الفروض ونبنى التاريخ على أمثال هذه الحوادث العارضة أو نتخذها أساساً لهذه الفروض . وبعد أن أراح رجاله بعض الوقت واصل السير إلى أيونيا ، وأنشأ فى المدن اليونانية حكومات دمقراطية تحت حمايته . وقد فتحت له معظم هذه المدن أبوابها من غير مقاومة . والتقى عند إسوس بجيش الفرس الرئيسى ، وكان يبلغ ٦٠٠٫٠٠٠ مقاتل يقودهم دارا الثالث . وكسب المعركة مرة أخرى باستخدام فرسانه للهجوم ومشاته للدفاع . وفر دارا من الميدان وترك وراءه أمواله وأسرته ؛ وشكر له الإسكندر هديته الأولى وعامل الهدية الثانية معاملة الرجل الشهم الكريم . وبعد أن استولى على دمشق وصيدا من غير قتال حاصر صور ، وكان بها أسطول فينيقى قوى استأجره الفرس لخدمتهم فى القتال . وقاومته المدينة القديمة مقاومة طويلة غضب لها الإسكندر أشد الغضب ؛ ولما أن استولى عليها آخر الأمر ركب رأسه فترك رجاله يذبحون ثمانية آلاف من أهلها ، ويبيعون منهم ثمانين ألفاً بيع الرقيق . واستسلمت له أورشليم بلا

مقاومة فأحسن معاملتها ، وحاربته غزة حتى قتل كل رجل فى المدينة وسبيت كل امرأة .

وواصل المقدونيون زحفهم المظفر مخترقين صحراء سيناء إلى مصر ، وفيها كان الإسكندر حكيما ، فعظم آلهتها ورحب به أهلها ، ورأوا فيه منقذاً أرسلته الآلهة ليحررهم من نير الفرس . وعرف الإسكندر أن الدين أقوى من السياسة فاخترق صحراء أخرى إلى واحة سيوة ، وقدم الطاعة إلى الإله آمون — وهو أبوه نفسه إذا جاز لنا أن نصدق أولمپياس . وتوّجه القساوسة المرنون فرعونا ، وأقاموا له الطقوس القديمة ، ومهدوا بعملهم هذا الطريق لأسرة البطالمة . فلما تم له ذلك عاد إلى وادى النيل وبدا له أن يقيم عاصمة جديدة ، أو لعله وافق على إقامتها ؛ عند أحد مصاب نهر النيل الكثيرة ؛ وربما كان اليونان المقيمون فى نقراطس (نقراش) القريبة من هذا المكان قد أشاروا عليه بإنشائها لأنها بموقعها هذا تكون مستودعاً أحسن من نقراطس للتجارة اليونانية الكبيرة التى كان يرجى أن تتبادل بين مصر وبلاد اليونان . وخطط الإسكندر محيط أسوار الإسكندرية وحدود شوارعها الرئيسية ، ومواضع الهياكل التى اعتزم أن يقيمها لآلهة المصريين واليونان ، ثم ترك ما عدا هذا من التفاصيل لمهندسه دنقراطيس Dinocrates (*) .

ثم عاد بجيشه إلى آسية والتقى عند جوكميلا قرب أربيلا بجيش دارا المؤلف من خليط من الأمم ، وارتاع لكثرة عدده ، وكان يعرف أن هزيمة واحدة كفيلة بأن تذهب بجميع ما سبقها من انتصارات . لكن جنوده هدأوا روعه وقالوا له « طب نفسا أيها السيد المعظم ، ولا ترهبك كثرة عدد الأعداء ،

(*) وكان دنقراطيس قد أدخل السرور على قلب الإسكندر بأن عرض عليه أن ينحت جبل آثوس — الذى يبلغ ارتفاعه ستة آلاف قدم — ليجعله تمثالا للإسكندر يقف والبحر يغمره إلى وسطه ، ويمسك مدينة فى إحدى يديه ومرفأ فى اليد الأخرى (٢٤) ، لكن هذا المشروع ظل حلما من الأحلام .

لأنهم لن يستطيعوا الوقوف أمام رائحة المعز التى تصحب جيوشنا[٢٥] » وقضى الليلة يستكشف الأرض التى ستدور فيها المعركة ، ويقرب القرابين للآلهة » وكان نصره مؤزرا حاسما ، فلم تستطع جيوش دارا المختلة النظام أن تصمد أمام فيالق الإسكندر المتراصة ، ولم تعرف كيف تدافع عن نفسها أمام هجمات الفرسان المقدونيين السريعة المتكررة ، فتبدد شملها وولت الأدبار ، ولم يكن دارا آخر الفارين . وقتله قواده جزاء له على جبنه ، فى الوقت الذى كان الإسكندر يتقبل فيه خضوع بابل ، ونصيبا من ثروتها ، ويوزع بعضها على جنده ، ويأسر قلوب أهل المدينة بتعظيم آلهتها وإصدار أوامره بإعادة أضرحتها المقدسة . ولم تنته سنة ٣٣١ حتى كان قد وصل إلى مدينة السوس ، وكان أهلها لا يزالون يذكرون مجد عيلام القديم فاستقبلوه استقبال المنقذ . وقد حمى المدينة من النهب وعوض جنوده عن ذلك بأن قسم بينهم بعض الخمسين ألف وزنة (٣٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) التى وجدها فى أقبية دارا . وأرسل إلى أهل بلاتية قدراً كبيراً من هذا المال لأنهم قاوموا الفرس مقاومة عنيفة فى عام ٤٨٠ ، ويبدو أنه رد إلى مدن آسية « العطايا » التى استولى عليها منها فى بداية الحملة[٢٦] . وأعلن إلى اليونان فى جميع أنحاء العالم فى فخر وكبرياء أنهم أصبحوا الآن أحراراً مستقلين أتم الاستقلال عن حكم الفرس .

ولم يكد يستريح فى السوس حتى واصل الزحف فوق الجبال فى قلب الشتاء ليستولى على پرسبوليس ؛ وقد بلغ من سرعة زحفه أن وصل إلى قصر دارا قبل أن يستطيع الفرس إخفاء الكنوز الملكية . وهنا ركب رأسه فحرق المدينة العظيمة ودكها دكا ، وانطلق جنوده ينهبون البيوت ويسبون النساء ويقتلون الرجال . ولعل الذى أثار سخطهم هو أنهم رأوا وهم مقبلون على المدينة ثمانمائة من اليونان قد مثل بهم الفرس لأسباب مختلفة فقطعوا أرجلهم

أو أيديهم أو آذانهم أو فقأوا عيونهم . وأبصرهم الإسكندر فبكى من فرط التأثر وأقطعهم أرضاً زراعية وخصهم بأتباع يزرعونها لهم .

ولم يكتف الإسكندر بما نال من مجد فحاول أن يفعل ما عجز عن فعله قورش — وهو إخضاع القبائل التي كانت تحوم حول تخوم بلاد الفرس من الشرق ، ولعله كان يأمل لقلة معلوماته الجغرافية أن يجد وراء الشرق الغامض المجهول ذلك الأقيانوس الذي يصلح لأن يكون حداً طبيعياً للدولة العظيمة التي أقامها بسيفه . ولما دخل سجديانا مر بقرية يسكنها أبناء البرنشيدى Branchidae الذين أسلموا لخشيارشاى قرب ميليطس كنوز هيكلهم . وتملكته فكرة الانتقام للاله الذي انتُهب ماله ، فأمر بأن يقتل جميع أهلها بما فيهم النساء والأطفال — فاقتص بهذا العمل من الآباء بعقاب الجيل الخامس من الأبناء . وكانت حروبه في سجديانا ، وأريانا ، وبكتريانا ، وحشية لم يجن منها نفعاً ، فقد نال فيها بعض النصر ، وعثر في أعقابها على بعض الذهب ، وترك من ورائه أعداء في كل مكان . وقبض رجاله قرب بخارى على بسوس Bessus قاتل دارا . وأقام الإسكندر نفسه هجاءة مطالباً بدم الملك العظيم ، فضرب بسوس بأمره بالسياط حتى كاد يقضى عليه ، وجدع أنفه وصملت أذناه ، ثم أرسل إلى إكباتانا حيث قتل بأن ربط ذراعاه في إحدى الأشجار وساقه في شجرة أخرى ، وكانت الشجرتان قد ضمتا بالحبال ، فلما قطعت حبالها مزقت الشجرتان جسمه[٢٧] . وهكذا كان الإسكندر كلما بعد عن بلاد اليونان قلت فيه صفات اليونان وزادت نزعة الهمجية .

ونراه في عام ٣٢٧ يخترق جبال الهملايا لينقض على الهند . وكأن غروره وتشوفه كانا يأتمران به ليقوداه إلى هذا الصقع النائي . ونصحه قواده بألا يقدم على هذه المغامرة ، وأطاعه جنده وهم كارهون ، فعبر نهر السند ، وهزم الملك پورس Porus ، وأعلن أنه سيواصل الزحف حتى نهر الكنج Ganges لكن

جنوده أبو أن يتقدموا خطوة واحدة . فحاول إقناعهم ، وقضى ثلاثة أيام متجهما فى خيمته كما فعل جده أخيل من قبل ؛ ولكن ذلك لم يجده نفعاً لأن جنوده قد سئموا القتال ، فعاد أدراجه مكتئبا حزينا ، كارهاً أن يواجه الغرب مرة أخرى ، وشق طريقه وسط قبائل معادية له ، بشجاعة لم يسع جنوده حين شهدوها إلا أن يبكوا لعجزهم عن تحقيق جميع أحلامه

وكان هو أول من تسلق أسوار ماليا Mallia ؛ وبعد أن قفز هو واثنان من جنده إلى داخل المدينة ، تحطم السلم الذى صعدوا عليه ، ووجد هو وزميلاه أنفسهم يحيط بهم الأعداء من كل جانب . وحارب الإسكندر حتى سقط على الأرض مثخناً بالجراح ؛ وكان جنوده فى هذه الأثناء قد اقتحموا أسوار المدينة ، وأخذوا واحداً بعد واحد يضحون بحياتهم دفاعا عن مليكهم الملقى على الأرض . فلما انتهت المعركة ، حمل الإسكندر إلى خيمته ، والجند يقبلون ثيابه وهو مار بهم . وبعد أن قضى ثلاثة أشهر فى دور النقاهة بدأ الزحف من جديد بمحاذاة نهر السند حتى وصل آخر الأمر إلى المحيط الهندى . ومن هنا أرسل قسما من جيوشه بطريق البحر بقيادة نيارخوس Nearchus ، واستطاع هذا القائد الماهر أن يقوم بهذه الرحلة بعد أن اخترق بحاراً لا عهد له بها وقاد الإسكندر بنفسه بقية الجيش متجها به نحو الشمال الغربى بمحاذاة ساحل الهند ، ومخترقا صحراء جدروسيا Gedrosia (بلوخستان) ؛ وقاسى جنوده فيها ما قاسته جنود نابليون فى أثناء ارتدادهم من مسكو ، فقد قضى آلاف منهم من شدة الحر ، وهلك من العطش أكثر من هؤلاء ؛ ثم وجدوا قليلا من الماء ، وجىء به إلى الإسكندر ، فصبه متعمداً على الأرض[٢٨] . ووصلت فلول جيشه إلى السوس بعد أن قتل منهم عشرة آلاف ، واختلت موازين عقل الإسكندر نفسه من كثرة ما لاقاه من الأهوال .

الفصل الثالث

موت إله

وكان قد قضى حتى ذلك الوقت تسع سنين فى آسية ، أحدث فيها من التأثير بانتصاراته قل بما أحدثته هى فيه بأساليبها الشرقية . ذلك أن أرسطو قد علمه أن يعامل اليونان معاملة الأحرار وأن يعامل « البرابرة » معاملة العبيد . ولكنه دهش إذ وجد بين أشراف الفرس مستوى من الرقة وحسن الخلق لم يره كثيراً فى الدمقراطيات اليونانية المضطربة ؛ وأعجب بالطريقة التى نظم بها الملوك العظام إمبراطوريتهم ، وارتاب فى مقدرة المقدونيين الغلاظ على أن يحلوا محل حكام هذه الإمبراطورية ، وأدرك أن السبيل الوحيدة إلى تثبيت فتوحه واستقرارها بعض الاستقرار هى أن يسترضى أشراف الفرس حتى يقبلوا زعامته ، فإذا فعلوا استخدمهم فى المناصب الإدارة . وزاد سروره برعاياه الجدد يوما بعد يوم ، فتخلى عن فكرته القديمة وهى أن يحكمهم بوصفه ملكا مقدونياً ، وتخال نفسه إمبراطوراً يونانياً — فارسياً يحكم دولة يكون فيها الفرس واليونان أكفاء ، وتمتزج ثقافتهم ودماؤهم امتزاجاً سلميا ، فينتهى النزاع الطويل بين أوربا وآسية بذلك الاقتران السعيد بين حضارتيهما .

وكان آلاف من جنوده قد تزوجوا من نساء البلاد المفتوحة ، وأخذوا يعاشرونهن ؛ فلم لا يفعل هو أيضاً فعلهم ؟ فيتزوج بابنة دارا ويسوى النزاع بين الأمتين بأن يلد لها ملكا يجرى فى عروقه دم الأسرتين . لقد تزوج قبل ذلك الوقت رکسانا الأميرة البكترية ، ولكنه لم يكن يرى أن هذه عقبة تقف فى طريقه ، وعرض الفكرة على ضباطه وأشار عليهم أن يتخذوا لهم

أزواجاً فارسيات . وتبسموا ضاحكين من فكرة توحيد الأمتين ، ولكنهم كانوا قد قضوا زمناً طويلا بعيدين عن ديارهم ، وكانت نساء الفرس ذوات جمال بارع . ومن ثم أقيم عرس عظيم فى السوس (٣٢٤) تزوج فيه الإسكندر استاتيرا Stati ابنة دارا الثالث ، وپرساتس Parysatis ابنة أرتخشتر الثالث ، وبهذا ربط نفسه بفرعى الأسرة المالكة الفارسية ، واتخذ ثمانون من ضباطه لهم زوجات فارسيات . وحذا حذوهم بعد زمن يسير آلاف من الجنود فتزوجوا من فارسيات . ووهب الإسكندر كل ضابط من ضباطه بائنة قيمة وأدى ما على الجنود الذين تزوجوا من ديون — وقد بلغت هذه الهبات (إذا جاز لنا أن نأخذ بأقوال أريان Arrian) عشرين ألف وزنة (نحو ٠٠٠ر٠٠٠ر١٢٠ ريال أمريكى[٢٩] . وأراد أن يزيد هذا الاتحاد بين الشعبين قوة ، ففتح أراضى الجزيرة وفارس للمستعمرين اليونان ؛ وخفف بهذا العمل ضغط السكان فى بعض الدول اليونانية وقلل من حدة حرب الطبقات . ومن ذلك الوقت بدأت تقوم تلك المدن المتأغرقة الأسيوية التى صارت فيما بعد جزءاً هاماً من الإمبراطورية السلوقية Seleucid Empire وجمع فى الوقت نفسه ثلاثين ألفاً من شباب الفرس وعلمهم على الطريقة اليونانية ودربهم على فنون الحرب اليونانية .

ولعل زوجاته كن من أسباب ميله إلى الأساليب الشرقية ، أو لعل هذا الميل كان خطأ وقع فيه لشدة تواضعه ، أولعله كان جزءاً من خطة موضوعة . وفى ذلك يقول فلوطرخس : « فلما كان فى فارس بدأ يلبس الثياب « البربرية » (أى الأجنبية) ولعله أراد بذلك أن ييسر تحضير الفرس لأن أكبر ما يؤثر فى الناس هو أتباع عاداتهم ... بيد أنه لم يتبع عادات الميديين ... بل اختط خطة وسطا بين الأساليب الفارسية والمقدونية ، وكيف عاداته بحيث خلت من التفاخر الذى هو من مميزات الأولين ، ولكنها كانت أكثر أبهة وفخامة من الآخرين[٣٠] »

وكان جنوده يرون فى هذا التغير استسلاماً من الإسكندر للشرق ، ويحسون أنهم بذلك قد خسروه ، وفقدوا ما كانوا يرونه من أدلة العناية والعطف التى كان يضفيها عليهم فى كل حين . وأظهر له الفرس فروض الطاعة والولاء ، وأرضوه بضروب الملق والدهان ؛ وشرع المقدونيون ، بعد أن رقق الترف الشرقى طباعهم يظهرون استياءهم من الواجبات الثقيلة التى كان يفرضها عليهم ، ونسوا إحسانه لهم ، وأخذوا يتهامسون بالفرار من الجيش ، بل إنهم شرعوا يأتمرون به ليقتلوه . وبدأ هو يفضل صحبة عظماء الفرس على صحبة اليونان .

وكان أكبر شاهد على ارتداده عن دينه أو على حسن سياسته هو جهره بألوهيته ؛ وذلك أنه بعث فى عام ٣٢٤ إلى جميع الدول اليونانية ما عدا مقدونية (لأن ما فى الرسالة التى بعث بها من إهانة لفليب قد يثير غضب أهلها) يبلغها أنه يرغب فى أن يعترف به من ذلك الوقت ابناً لزيوس — أمون . وصدعت معظم الدول بما أمرت ، ولم تر فى الأمر أكثر من لقب صورى ، بل إن الاسپارطيين المعاندين أنفسهم لم يخرجوا على الأمر وقالوا فى أنفسهم : « فليكن الإسكندر إلها إذا شاء » . ولم يكن تأليه إنسان ما ، بمعنى لفظ الألوهية عند اليونان ، ليرفع من شأنه كثيراً ؛ ذلك أن الهوة التى تفصل بين الإنسانية والألوهية لم تكن وقتئذ واسعة كما أضحت فى الأديان الحديثة . ولقد جمع كثيرون من اليونان بين الصفتين ، ومن هؤلاء هيوداميا ، وأوديب ، وأخيل ، وإفجينيا ، وهلن . كذلك كان المصريون يحسبون فراعنتهم آلهة ؛ ولو أن الإسكندر غفل عن أن يضع نفسه فى هذا الوضع لكان من المحتمل أن يغضب المصريون لخروجه هذا الخروج العنيف على السوابق المقررة عندهم . ولقد أكد كهنة سيوة ، وديديما Didyma ، وبابل ، وهم الذين يعتقد الناس فيهم أن لديهم مصادر خاصة يستقون منها أمثال هذه الأنباء ، أنه من نسل الآلهة . أما أن الإسكندر قد اعتقد بحق (كما يظن بجروت[٣١]) أنه إله بأكثر من المعنى المجازى لهذا اللفظ فأمر

بعيد الاحتمال . نعم إنه بعد أن ألّه نفسه أصبح سريع الغضب متغطرساً ، وإن سرعة غضبه وغطرسته تزدادان على مر الأيام . ولسنا ننكر أيضاً أنه جلس على عرش من الذهب ، وارتدى ثياباً كهنوتية ، وزين رأسه فى بعض الأحيان بقرنى أمون[٣٢] . ولكنه حين لم يكن يظهر ألوهيته لأغراضه الدنيوية كان يسخر من هذه العظمة التى يدعيها لنفسه ؛ ولما أن جرحه سهم قال لبعض أصدقائه : « ها أنتم هؤلاء ترون أن هذا دم لا غذيذة كالتى تسيل من جراح الآلهة المخلدين[٣٣] » . وما من شك فى أنه لم يكن يحمل قصة والدته عن الصاعقة محمل الجد ، وذلك واضح من غضبه الشديد على أتلس حين قال ما قال عن مولده ، ومن قوله هو عن حاجته إلى النوم الذى يميز البشر من الآلهة . وحتى أولمبياس نفسها قد ضحكت ساخرة حين سمعت أن الإسكندر قد سجل قصتها الخرافية فى السجلات الرسمية ، وسألت قائلة : « ألم يأن للإسكندر أن يمتنع عن التشنيع علىّ عند هيرا[٣٤] ؟ » ولقد ظل الإسكندر نفسه بالرغم من ربوبيته يقرب القرابين إلى الآلهة ، وهو عمل لم نسمع قط بأن إلها قد أتى به ، ولم يكن فلوطرخس وأريان وهما الرجلان اللذان يستطيعان أن يحكما فى هذه المسألة لأنهما يونانيان ، يشكان فى أن الإسكندر قد أله نفسه ليتخذ ذلك التأليه وسيلة تيسر له حكم سكان إمبراطوريته المختلفى الأجناس والذين يؤمنون بالخرافات[٣٥] . ولا ريب فى أنه كان يحس أن مهمة توحيد العالمين المتعادين تُيَسَّر له إذا قبلت الطبقات العليا من أهلهما دعوى ربوبيته وعظمته الطبقات الدنيا وقدسته . ولعله قد فكر فى أن يتغلب على ما تثيره الأديان المختلفة فى الإمبراطورية من نزعة انفصالية بأن ينشر فيها حول شخصيته أسطورة مقدسة ودينا عاما تؤمن به جميع شعوب هذه الإمبراطورية(*) .

(*) ويحدثنا لوشيان عن هذا الرأى القديم فى إحدى « محاورات الموتى » فيقول : « فليب : لا تستطيع يا إسكندر أن تنكر أنك ولدى ، ولو أنك كنت ابن أمون لما جاز عليك

ولم يكن في مقدور المقدونيين أن يسبروا غور خطط الإسكندر السياسية ؛ ذلك أنهم وإن تأثروا بالروح اليونانية إلى الحد الذي تحررت به عقولهم من الاسترقاق الفكري ، لم يرقوا إلى درجة التسامح الفلسفي ، ورأوا أن ما طلبه إليهم من السجود له حين يقتربون منه مذلة لا يرضونها لأنفسهم . ومن أجل ذلك دبر فيلوتاس Philotas ، وهو ضابط من أشجع ضباطه ابن قائد من أكفأ قواده وأحبهم إليه ، بالاشتراك مع القائد برمنيو Parmenio مؤامرة لقتل الإله الجديد . ووصلت أنباء المؤامرة إلى مسامع الإسكندر ، فأمر بالقبض على فيلوتاس وانتزع منه بضروب التعذيب اعترافاً باشتراك أبيه مع المتآمرين . وأرغم على أن يكرر هذا الاعتراف أمام الجند ، فرجموه من فورهم بالحجارة حتى مات ، وكانت هذه عادتهم في مثل هذه الحالة . أما برمنيو فقد أعدم بأمر «الإله» لأنه مجرم في أغلب الظن ، وأنه على كل حال عدو لا يؤمن جانبه . وتوترت العلاقات بين الإسكندر وجيشه من ذلك الحين — فأخذ الجنود يزدادون غضباً واستياء ، وأخذ الملك يزداد في كل يوم ريبة وقسوة وعزلة .

وحمله تساميه ، وعزلته ، وكثرة مشاغله المطردة الزيادة ، على أن يحاول إغراق همومه في الشراب . وقد حدث في مأدبة أقيمت في سمرقند أن شرب كليتس الذي أنقذ حياة الإسكندر في يوم غرانيقوس حتى فقد وعيه ، فقال للإسكندر : إن ما نال من النصر يرجع الفضل فيه إلى جنوده لا إليه ، وإن أعمال فليب أعظم من أعماله . وكان الإسكندر هو الآخر ثملا فقام ليضربه ، ولكن بطليموس لاجوس Ptolemy Lagus (الذي أصبح بعد قليل والياً

= الموت الإسكندر : لقد كنت طوال الوقت أعرف أنك أبي ، ولم أقبل قول الوحي إلا لأني ظننته خطة سياسية صالحة ... ذلك أن البرابرة حين عرفوا أن الذي أمامهم إله ، امتنعوا عن القتال ، وقد يسر لي ذلك هزيمتهم وفتح بلادهم

على مصر) أخرج كليتس من مكان المأدبة . بيد أن كليتس كان يريد أن يقول أكثر مما قال ، فعاد ليواصل طعنه . فرماه الإسكندر بحربة أردته قتيلا . وندم الإسكندر بعدئذ على عمله هذا ندما حمله على أن يعتزل الناس ثلاثة أيام كاملة ، امتنع فيها عن الطعام ، وانتابته نوبات هستيرية ، حاول فيها أن ينتحر . ولم يمض بعد ذلك إلا قليل من الوقت حتى قام هرمولوس Hermolaus ، وهو خادم من خدم الإسكندر عاقبه فى يوم من الأيام عقابا ظالما ، بتدبير مؤامرة أخرى لقتله . وقبض على الغلام وعذب حتى أتى باعتراف اتهم فيه كلستانس Callisthenes ابن أخى أرسطو . وكان كلستانس هذا يرافق الحملة بوصفه مؤرخاً رسمياً لها ، وكان قد أغضب الملك لأنه أبى أن يسجد له ، وأخذ ينتقد أساليبه الشرقية ، ويتباهى بأن الخلف لن يعرف الإسكندر إلا عن طريق كلستانس المؤرخ . وأمر به الإسكندر فسجن حتى مات بعد سبعه أشهر من ذلك الوقت(*) . وقضت هذه الحادثة على ما كان بين الإسكندر وأرسطو من صداقة ، وكان الفيلسوف قد ظل عدة سنين يعرض حياته لأشد الأخطار بدفاعه عن قضية الإسكندر فى أثينة .

وظل سخط الجيش يزداد حتى أوشك أن يكون فى آخر الأمر تمرداً علنياً . ولما أعلن الملك فى يوم من الأيام أنه يريد أن يرجع إلى مقدونية أكبر الجنود سنا بعد أن يمنح كلا منهم جائزة سنية نظير خدمته(**) ، هاله أن يسمع الجند يتهامسون بأنهم يحبون أن يفصلهم جميعاً من سلك الجندية ، لأنه وهو إله لا حاجة له بالناس ليحققوا أغراضه . فلم يكن منه إلا أن أمر

(*) تروى قصص متناقضة عن جريمته وموته(٣٧). وأشهر ما تركه وراءه ثلاثة كتب : « الهلينيكا Hellenica » وهو تاريخ لبلاد اليونان من ٣٨٧ إلى ٣٢٧ ، « وتاريخ الحرب المقدسة » و « تاريخ الإسكندر » .

(**) ويؤكد لنا أريان أنه وهب كلا منهم وزنه زيادة على مرتبه الذى لم يكن لينقطع حتى يعود إلى وطنه .

بقتل زعماء الفتنة ، ثم ألقى على الجنود خطبة مؤثرة[٣٩] (ولكنها فى أغلب الظن مشكوك فى صحتها) ذكر فيها كل ما فعلوه من أجله ، وكل ما فعله هو من أجلهم ، وسألهم هل فيهم من يستطيع أن يظهر فى جسده من الجروح أكثر مما فيه هو ؟ وهل فيهم رجل مثله فى جسمه أثر من كل سلاح من أسلحة القتال ؟ ثم أذن لهم جميعا فى آخرها أن يعودوا إلى ديارهم وقال لهم : « عودوا إلى أوطانكم وقولوا للناس إنكم تخليتم عن مليككم ، وتركتموه فى حماية الأجانب المغلوبين » . ثم آوى إلى حجرته وأبى أن يقابل أحداً من الناس . فندم جنوده أشد الندم ، وأقبلوا على قصره ، وألقوا بأنفسهم على الأرض أمامه ، وأعلنوا أنهم لن يغادروا أماكنهم حتى يعفو عنهم ويعيدهم إلى جيشه . ولما أن ظهر أمامهم فى آخر الأمر ، أجهشوا بالبكاء وأصروا على أن يقبلوه ، فلما رضى عنهم عادوا إلى معسكرهم ينشدون أناشيد الحمد والثناء .

واغتر الإسكندر بمظاهر الحب هذه ، فأخذ يحلم بمواصلة الحروب والانتصارات ، ووضع الخطط لفتح بلاد العرب الغامضة ، وأرسل بعثة لارتياد أقاليم بحر قزوين ، وفكر فى الاستيلاء على أوربا حتى أعمدة هرقل . غير أن تعرضه للجواء المختلفة وإدمانه الشراب كانا قد أضعفا بنيته القوية ، كما أن مؤامرات ضباطه وتمرد جنوده كانا قد أوهنا قوته النفسية . وبينا كان الجيش فى إكبتانا مرض هفستيون Hephaestion أعز أصدقائه وقضى نحبه . وكان الإسكندر يحبه حبا بلغ من شدته أنه حين دخلت زوجة دارا خيمة الملك الفاتح وانحنت أولا لهفستيون احتراما له لظنها أنه هو الإسكندر ، قال لها الملك الشاب فى رقة ولطف : « إن هفستيون هو أيضاً إسكندر[٤٠] » وكأنما أراد بقوله هذا أنه هو وهفستيون رجل واحد . وكثيرا ما كان الرجلان يشتركان فى خيمة واحدة ، وكانا فى الحرب يقاتلان جنبا إلى جنب . وأحس الملك بعد موته أن نصفه قد انتزع منه ، فأحزنه ذلك وقت

فى عضده ، وقضى عدة ساعات ملقى على جثة صديقه يبكى وينتحب ؛ واقتلع شعره من فرط الحزن ، وأبى أن يتناول شيئاً من الطعام عدة أيام متوالية ، وحكم بالإعدام على الطبيب الذى ترك الشاب المريض ليشهد الألعاب العامة ، وأمر أن تكرم ذكرى هفستيون بإقامة محرقة جنازية ضخمة بلغت نفقاتها كما يقولون عشرة آلاف وزنة (٦٠٫٠٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) وبعث يسأل مهبط الوحى من أمون هل يجوز أن يتخذ هفستيون إلها يعبد ، وأمر فى الوقائع الحربية التى دارت بعدئذ أن تقتل قبيلة على بكرة أبيها قرباناً لروح هفستيون . وكانت الفكرة التى تراوده وهى أن أخيل لم يعش طويلا بعد موت پترکلس تقض مضجعه كأنها حكم عليه بالإعدام .

ولما عاد إلى بابل زاد انغماسه فى الشراب شيئاً فشيئاً . وبينا كان يشرب مع ضباطه ذات ليلة إذ عرض عليهم أن يتباروا فى شرب الخمر . فتجرع برامكس نحو ثلاثة جالونات وفاز بالجائزة وهى وزنة من الذهب ، ومات بعد ثلاثة أيام . وأقيمت مأدبة أخرى بعد أيام قلائل شرب فيها الإسكندر خابية تحتوى نحو جالون ونصف من الخمر ، وعاد فى الليلة التالية إلى الشراب ، ثم اشتد البرد فجاءة فأصيب بالحمى وآوى إلى فراشه . ولم تفارقه الحمى عشرة أيام كاملة ظل فى أثنائها يصدر الأوامر إلى جيشه وأسطوله . ثم مات فى اليوم الحادى عشر فى السنة الثالثة والثلاثين من عمره (٣٢٣) ولما سأله قواده لمن يترك ملكه أجابهم بقوله : « إلى أعظمكم قوة[٤١] » .

وقد عجز الإسكندر كما عجز أكثر العظماء عن أن يجد رجلا جديراً بأن يخلفه على عرشه ، وكان قد مضى نجبه قبل أن يتم عمله . على أن هذا العمل رغم هذا لم يكن جليلا فحسب بل كان فوق ذلك أبقى على الدهر مما يظنه الناس عادة . فكأن الضرورات التاريخية قد اختارت الإسكندر لتغيير

الأوضاع السياسية القائمة فى ذلك الوقت ، فقد قضى على عهد دول المدن ، وأنشأ بعد التضحية بقسط غير قليل من حرية هــذه المدائن نظاما أوسع رقعة وأعظم استقرارا من أى نظام عرفته أوربا قبل عهده . وقد ظلت الفكرة التى قامت بذهنه عن الحكم ، الحكم الاستبدادى الذى يستعين بالدين لفرض السلم على أمم مختلفة الأجناس والألوان ، نقول ظلت هذه الفكرة هى المسيطرة على أوربا حتى العصر الحديث عصر القومية والدمقراطية . وقد حطم الحواجز القائمة بين اليونان و « البرابرة » ومهد السبيل لعالمية للعصر الهلنستى ؛ وفتح آسية الدنيا للاستعمار اليونانى ، وأنشأ فى بلاد الشرق مستعمرات يونانية وصلت فى هذا الاتجاه إلى بكتريا ، وجمع عالم البحر الأبيض المتوسط الشرقى فى نظام تجارى موحد واسع النطاق شجع التجارة وأطلقها من قيودها ؛ ونقل الآداب والفلسفة والفنون اليونانية إلى آسية ، ومات قبل أن يدرك أنه مهد السبيل لذلك الانتصار الدينى العظيم الذى ظفر فيه الشرق بالغرب . ولقد كان ارتداؤه الملابس الشرقية وتحوله إلى الأساليب الشرقية بداية انتقام آسية من أوربا .

ولقد كان من الخير للإسكندر أن يموت وهو فى عنفوان مجده ؛ ولو أنه طال به العمر لتكشف له أنه كان مخدوعاً فى كثير من الأمور ، ولعله لو عاش لأقضت مضجعه الهزائم والآلام ولأحب السياســة — وكان قد بدأ يحبها — أكثر مما يحب الحرب . لكنه أجهد نفسه فوق طاقته ، وأكبر الظن أن ما كان يتطلبه حفظ دولته العظيمة قوية موحدة ، ومراقبة أجزائها المختلفة بأجمعها ، قد بدأ يحدث الاضطراب فى عقله المشرق النير . ذلك أن الجد ليس إلا نصف العبقرية ، أما نصفها الآخر فهو السيطرة على أعنة هذا الجد وتملك ناصيته ؛ ولكن الإسكندر كان كله جدا ونشاطا : وكان يعوزه — وإن لم يكن من حقنا أن نتطلب منه — نضج قيصر المادئ أو حكمة أغسطس ودهاؤه .

ونحن نعجب به كما نعجب بناپليون لأنه لاقى بمفرده نصف العالم ، ولأنه يشجعنا على أن نؤمن بما فى نفوس الأفراد من قوة كامنة لا يكاد الإنسان يؤمن بوجودها فيها . ونحن نشعر بعطف طبيعى عليه رغم إيمانه بالخرافات والأوهام وتصديقه ما لا يصح لمثله أن يصدقه ، وذلك لأننا نعرف أن أقل ما يمكن أن يقال فيه أنه كان شابا كريم النفس قوى العاطفة ، كما كان رجلا قديراً باسلا لا يكاد يدانيه أحدٌ فى قدرته وبسالته ، وأنه كان يكافح ليتخلص مما فى دمه من تراث من الهمجية يذهب بالعقل الحصيف ، وأنه فيما خاض من المعارك العنيفة وفيما أهرق من الدماء الغزيرة لم يغب عنه قط حلمه العظيم وهو نشر نور أثينة فى عالم أوسع منها رقعة .

الفصل الرابع

خاتمة عصر

لما علمت بلاد اليونان بموت الإسكندر اندلع لهيب الثورة على سلطان مقدونية فى جميع أنحائها . ونظم أهل طيبة المنفيون فى أثينة قوة من الوطنيين وحاصروا الحامية المقدونية المرابطة فى كدميا . وفى أثينة نفسها ، حيث كان الكثيرون يتضرعون إلى الآلهة أن تقضى على الإسكندر ، توج أعضاء الحزب المعادى للمقدونيين رءوسهم بأكاليل الغار حين أحسوا بأن دعاءهم قد استجيب ، وأخذوا يقصفون ويمرحون لموت من كانوا قبل موته يتخذونه إلها يعبد ، وينشدون ، كما يقول فلوطرخس « أناشيد النصر كأنهم قد فازوا عليه بشجاعتهم »[٤٢] .

وكان دمستين فى هذه اللحظة القصيرة فى ذروة مجده ، ذلك أن أموره فى خلال حروب الإسكندر لم تكن كما يجب : فقد اتهم بأنه قبل رشوة كبيرة من هرپالوس Harpalus وزج فى السجن ، ثم سمح له بالفرار وعاش تسعة أشهر يقاسى آلام النفى فى تريزن Troezen . فلما مات الإسكندر استدعى من منفاه وأرسل فى مهمة سياسية إلى الپلوپونيز ليعقد حلفاً لأثينة يعاونها فى حرب الاستقلال والحرية . وزحفت قوة متحدة نحو الشمال والتقت بجيش أنتپاتر عند كرانون Crannon ودارت عليها الدائرة . وفرض الجندى الطاعن فى السن ، الذى لم يكن كالإسكندر يشعر بشىء من العطف على الثقافة الأثينية ، أفدح الشروط على المدينة المهزومة ، فطلب إليها أن تتحمل جميع نفقات الحرب ، وأن تقبل فيها حامية مقدونية ، وتلغى دستورها الدمقراطى ومحاكمها ، وتحرم من حق الانتخاب ، وتنقل إلى المستعمرات الخارجية كل المواطنين (١٢٫٠٠٠ من ٢١٫٠٠٠)

الذين تقل قيمة ممتلكاتهم عن ألفي درخمة ، وأن تسلم دمستين ، وهيبريدز ، واثنين غيرهما من الخطباء المعادين للمقدونيين . فلما سمع دمستين بهذه الشروط فر إلى كالوريا Calauria ولجأ إلى حمى أحد الهياكل . ولما أحاط به مطاردوه المقدونيين تجرع ملء قارورة من السم ؛ ومات قبل أن يستطيع جر نفسه من البهو المقدس .

وشهدت هذه السنة المشئومة نفسها خاتمة حياة أرسطو . لقد كان منذ زمن طويل غير محبب للأثينيين : فقد كان المجمع العلمي ومدرسة إسقراط يحقدان عليه لأنه كان ينقدهما وينافسهما ، بينا كان الوطنيون يعدونه زعيما للحزب المناصر للمقدونيين . وانتهز أعداؤه فرصة موت الإسكندر فاتهموا أرسطو بالمروق من الدين ، وجيء بفقرات من كتبه دالة على كفره بالآلهة تأييداً لهذه التهمة ؛ واتهم أيضاً بأنه كرم الطاغية هرمياس Hermeias بما تكرم به الآلهة ، وكان هرمياس هذا عبدا رقيقا ومن ثم لم يكن فى مقدوره أن يصبح إلها . وغادر أرسطو المدينة فى هدوء وهو يقول إن نفسه لا تطاوعه أن يتيح لأثينة فرصة أخرى ترتكب فيها الإثم فى حق الفلسفة[٤٣] . ولجأ إلى بيت أسرة والدته فى خلقيديا وأوصى ثاوفراسطوس Theophrastus أن يعنى بشئون اللوقيون . وحكم عليه الأثينيون بالإعدام ، ولكن الفرصة لم تسنح لهم لتنفيذ الحكم ، كما أنهم لم يكونوا فى حاجة لتنفيذه . ذلك أن أرسطو قضى نحبه بعد بضعة أشهر من مغادرته أثينة ؛ وقد يكون سبب موته مرضا أصيب به فى معدته واشتد عليه بسبب فراره ، وقد يكون سببه كما يقول بعضهم أنه تجرع السم . وكان وقت وفاته فى الثالثة والستين من عمره ، وكانت وصيته مثلا أعلى فى الحنان والتقدير لزوجته الثانية ، وأسرته ، وعبيده

وبعد فقد كان موت الدمقراطية اليونانية موتا عنيفاً وطبيعياً فى وقت واحد . وكان أهم أسباب هذا الموت ما أصاب هذا النظام من اضطراب

تغلغل فى كيانه ، ولم يكن سيف مقدونية إلا الضربة الأخيرة التى أجهزت عليه وهو يلفظ آخر أنفاسه . لقد تبين أن دولة المدينة لا تستطيع حل مشاكل الحكم : فقد عجزت عن حفظ النظام فى الداخل ، وصد الأعداء فى الخارج ؛ ولم تهتد إلى وسيلة توفق بها بين الاستقلال وبين الاستقرار القومى وقوة السلطان رغم نداء غورغياس ، وإسقراط وأفلاطون لهذه المدن بأن تستعين بشىء من التنظيم الدّورى القوى لتكبح به جماح الحرية الأثينية . هذا إلى أن حب دولة المدينة للحرية لم يقف قط فى سبيل نزعتها الإمبراطوريه . يضاف إلى هذا أن حرب الطبقات قد اشتدت حتى أفلت زمامها من أيدى الزعماء ، وجعلت الدمقراطية سباقاً إلى الانتهاب عن طريق التشريع . وانحطت الجمعية التى كانت هيئة شريفة فى أحسن أيامها فأصبحت هيئة من الرعاع الصخابين تكره كل سلطة فوق سلطتها ، وترفض كل قيد يحد من هذه السلطة ، تقسو على الضعيف وتخضع ذليلة للقوى ، توافق على كل ما تنال من ورائه النفع لنفسها ، وتفرض على الأملاك من الضرائب الفادحة ما من شأنه أن يقضى على الابتكار والنشاط والادخار . إن فايب والإسكندر وأنتيپاتر لم يكونوا هم الذين قضوا على الحرية اليونانية ، بل إن هذه الحرية هى التى قضت على نفسها بنفسها ، ولقد أبقى النظام الذى أقاموه حضارة لولاه لقضى عليها ما فيها من عناصر الفوضى الاستبدادية ، ونشر هذه الحضارة فى مصر والشرق .

ومع هذا كله فهل استطاعت الألجركية أو الملكية المطلقة أن تفعل خيراً مما فعلته تلك الدمقراطية ؟ إن حكومة « الثلاثين » قد ارتكبت فى الشهور القلائل التى استولت فيها على أزمة الحكم من الفظائع ضد الأنفس والأموال أكثر مما ارتكبته الدمقراطية فى مائة السنين السابقة لهذا الحكم[٤٥] . وبينا كانت الدمقراطية تخلق الفوضى فى أثينة كانت الملكية تخلق الفوضى فى مقدونية ، وهل ثمة فوضى أكثر من حروب تربى على عشر جر إليها النزاع

على العرش ، ومائة من الاغتيالات ، وألف من القيود على الحرية ، وذلك كله من غير أن يصحب هذه الفوضى شيء من المجد الأدبي أو العلمي أو الفني يخفف من فظاعتها ؟ ولقد كان ضعف الدولة وصغرها في بلاد اليونان نعمة كبرى على الفرد ، نعمت بها روحه بلا ريب إن لم ينعم بها جسمه ؛ ذلك أن هذه الحرية ، وإن كلفته كثيراً ، قد أمكنت العقل اليوناني من أن يقوم بجلائل الأعمال . إن الفردية تقضي في آخر الأمر على الجماعة . ولكنها قبل أن تقضي عليها تقوى الشخصية ، والكشف العقلي ، والإبداع الفني . ولسنا ننكر أن الدمقراطية اليونانية أضحت فاسدة عاجزة يجب أن تموت ، ولكن الناس أدركوا بعد موتها ما كانت عليه من الجمال في أيام مجدها ، وكانت الأجيال القديمة التالية على بكرة أبيها ترنو ببصرها إلى عهود بركليز وأفلاطون وتعدها أعظم العهود التي شهدتها بلاد اليونان بل أحسن العهود في التاريخ كله :

فهرس الأشكال والصور

مقـــدمة الترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، وبعد :

فهذا هو الجزء الثانى من المجلد الثانى من مجلدات قصة الحضارة الست : وهو يضم بين دفتيه حضارة اليونان فى العصر الذهبى ، وفى عصر اضمحلال الحرية اليونانية وسقوطها . وهو كسابقه ترجمة أمينة للأصل الإنجليزى لا يزيد عليه إلا فى بعض شروح قليلة فى هامش الكتاب . ولقد جرينا فيه على السنة التى جرينا عليها فى الأجزاء السابقة فأثبتنا أسماء الأماكن والأشخاص بالحروف الإنجليزية بعد العربية حين يرد ذكرها أول مرة ، حتى يكون القارئ على بينة منها ، وحتى يسهل عليه نطقها . أما الأسماء اليونانية التى ورد ذكرها فى الكتب العربية كأسماء الفلاسفة وبلادهم ، فقد كتبناها كما كتبها العرب أنفسهم وإن خالف ذلك نطقها باليونانية والإنجليزية . ولعلنا لم نستطع الوصول إلى بعض هذه الأسماء ، ولكنا قد بذلنا كثيراً من الجهد فى الوصول إليها ، وسنتدارك ما نستطيع معرفته منها فى الجزء الثالث كما تداركنا فى هذا الجزء بعض ما فاتنا فى الجزء الأول .

ونعود فنكرر الشكر للإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية ، التى بفضلها ترجم هذا الكتاب ، وللجنة التأليف والترجمة والنشر التى بفضلها نشر . والله الهادى إلى سواء السبيل ؟

ديسمبر سنة ١٩٥٣ — محمد بدران

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الباب الثامن عشر : انتحار بلاد اليونان ٣٣٨

الكتاب الرابع – اضمحلال الحرية اليونانية وسقوطها ٣٧٣

الباب التاسع عشر : فليب ٣٧٨